مَسعُود الخوَند

القارّات . المناطِق . الدوَل . البُلدَان . المُدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

معَالِم . وَثائِق . موضوعَات . زُعمَاء
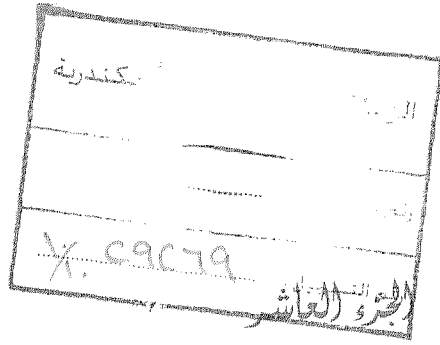
الجزء العاشر

سورية

سجل القلب

شكر المؤلف وامتنانه على البادرة التشجيعية الكريمة التي سهّلت إصدار هذا الجزء

للصديق الكاتب **جان م. صدقه**،

وللصديق **منير شولّي**.

الدليل*

إلى هذا الكتاب–الجزء العاشر

الجزء العاشر، «سورية»، من «الموسوعة التاريخية الجغرافية» هـو نفسـه كتـاب «سـورية المعـاصرة، مشهد تاريخي وسياسي عام» وقد أضيف إليه ملحق مقتطف من أجزاء سابقة من الموسوعة نفسها، خاص بـ«بطاقة تعريف» وبـ«مسألة المياه».

أسباب رئيسية دفعت إلى ان يكون الجـزء العاشـر وقفًـا علـى «سـورية»، فينفـرد بذلـك عـن الأجزاء السابقة من الموسوعة، ثم إلى إصداره في كتاب مستقل.

هذه الأسباب تشكلها أهمية المادة بذاتها. فسورية ثلث القرن الأخـير شـغلت مرحلـة تاريخيـة كاملة من تاريخها وتاريخ المنطقة رغم السنوات القليلة في حساب المراحل التاريخية المعتـادة. فهنـاك، في الصدد هذا، ما يجمع عليـه، أو يكـاد، المؤرخـون، علـى ان عقـودًا قليلـة، حتـى وسـنوات قليلـة مضغوطة بظروف وأحداث مصيرية صادفت رجـالاً تـاريخيين تشـكل «مرحلـة تاريخيـة»، في معنـى «الاهمية التاريخية»، أكثر مما تشكلها عقود طويلة، وربما قرون، تمر علـى «رتابـة تاريخيـة» ظروفهـا السياسية تطورية عادية ورجالها السياسيون عاديون. فحسـاب المرحلـة التاريخيـة، سياسـيًا، إنمـا هـو حساب الزخم والضغط والكثافة، وليس عدد السنوات، الذي يعود إليه المؤرخ في تحديده للمرحلـة. وتشبه مثل هذه المرحلة في حياة الشعوب الصدمة في عمر الانسان الطبيعي، أو الحادثـة العنيفـة الـتي قد لا يتعدى زمانها الأيام القليلة، ولكنها تكون «المرحلة» التي يعوّل عليها العالم أو الطبيب النفسي في دراسته شخصية إنسان ناضج.

الزخم والكثافة والمصيرية (التراكم الكمـي–والتغـيرات النوعيـة–المتسـارع للأحـداث إلى حـد الضغط الشديد، مع وجود رجال بمستوى هذه الأحداث وبسـبب وجودهـم) جعلـت بـاب «عهـد الأسد» الباب المحوري في الكتاب–الجزء. أما ما سبقه وتلاه من موضوعات وابـواب فهـي إطـارات إضاءة لمزيد من فهم تاريخ سورية السياسي عامة، ومرحلتها التاريخية السياسية الراهنة خاصة. وهـذا الربط والتواصل بين السـوري التـاريخي والسـوري الراهـن ارتـأيتُ لـه عنـوان «سـورية المعـاصرة»

للكتاب على ما عداه من عناوين كـ«سوريةالحالية» أو «سورية الراهنـة»، إذ يكمـن في «المعاصر» معنى الربط والتواصل أكثر مما هو كامن في «الحالي» أو «الراهن».

ومن أسباب تخصيص «سورية» (و«لبنان» لاحقًا) بجزء كامل من الموسـوعة، ثـم إصـداره في كتاب مستقل، الرغبة في توسيع قـاعدة القـرّاء، بـين اللبنـانيين علـى وجـه الخصـوص، مـن دون أن يشكل ذلك خروجًا من منهج الموسوعة في أجزائها كافة؛ إذ انحصرت ميزة الكتاب-الجزء بالجـانب الكمي، حيث بعض التفصيل جريًا على عـادة اتبعتهـا الاعمـال الموسـوعية والمعجميـة الـتي أفـردت لبلدانها حيّزًا أكبر بكثير من الحيّز المفرد لكل بلد من البلدان الاخرى. وشرعية هذا الأمر مسـتمدة، دون شك، من شرعية الهدف: تخصيص بلد «المؤلّفين» الذي هو بالأحرى، وفي الوقـت نفسـه، بلـد «القرّاء-المواطنين»، بمزيد من التفصيل ولمزيد من الافادة الثقافية العامة حول «الوطن». و«الوطن»، و«المؤلّف» و«القـرّاء-المواطنـون»، هنـا، في هـذا المؤلّـف وكمـا يجـدر في بـاقي المؤلّفـات التاريخيـة السياسـية، إنمـا هـم نتـاج مـن نتاجـات تلـك المجموعـة الهائلـة مـن هـذه الأشـياء المعبّر عنهـا غالبًـا بـ«العلاقات المميّزة» بين لبنان وسورية، والتي تطال التاريخ والجغرافيا والإجتماع والحضارة والثقافة والسياسة والمصير. فكان لسورية هذا الكتاب-الجزء الخاص، وسيكون للبنان كتابه-الجـزء الخـاص، بين الستة عشر أو السبعة عشر جزءًا من الموسوعة التي ستتضمن نحو ثلاثماية كيـان بـين بلـد ودولـة ومنطقة.

حسـبُ هـذا العمـل انه ذاهـب مذهـب الأعمـال الثقافيـة التوّاقـة إلى توسـيع انتشـار الثقافـة التاريخية-السياسية كونها مفتاح رافعة الثقافة العامة والوعي السياسي والوطني والقومي العام.

المؤلّف

---

* صيغ هذا الدليل لينشر في الجزء العاشر من الموسوعة وفي كتاب «سورية المعاصرة، مشهد تاريخي وسياسـي عـام» في الوقت نفسه.

مقدمة

من اجل ان نعرف انفسنا

أول المعرفة ان نعترف باننا لا نعرف ما يكفي، أو ما هو ضروري، وربما ما هو بديهي عن انفسنا: عن بلادنا، بارضها وناسها، بجغرافيتها وتاريخها والتحولات التي أثرت فيها، على اختلاف الحقب، فبدلت وغيرت وحورت، قبل ان تستقر على الصورة التي وجدناها عليها فكدنا ننكرها أو ذهبنا في التباهي بها إلى حد التعامي عن العيوب أو الاخطاء أو التشوهات فيها.

لقد يسرت لي مهنة الصحافة فرصة التعرف مباشرة على الاوضاع القائمة في معظم البلاد العربية.

للوهلة الاولى اكتشفت كم هي سطحية ومحدودة تلك المعلومات «المدرسية» التي نتداولها عن هذا القطر العربي أو ذاك بدءًا بمساحته وعدد سكانه وموقعه الجغرافي وصولاً إلى ثرواته الطبيعية وموارده واقتصاده عمومًا.

وحين حاولت الكتابة، في ما يتعدى تفاصيل اللعبة السياسية التي تدور من حول السلطة، اكتشفت ندرة المراجع ومصادر المعلومات الدقيقة والموضوعية.

أول ما انتبهت إليه ان المسؤولين يتحدثون في العموميات، وان الاكاديميين يستندون في احالاتهم أو في الارقام التي يتداولونها إلى مصادر اجنبية قد لا تكون دقيقة تمامًا وقد تكون قديمة تخطتها وقائع الحياة.

وثاني ما انتبهت إليه ان الرقم في خدمة الحاكم، يتضخم عند الحديث عن الانجازات، ويتقلص وقد يختفي تمامًا عند أي مناقشة لوجوه القصور أو الاخفاقات أو المقارنة بالمتقدمين في هذا العالم الذي يشهد أخطر الثورات العلمية، والذي صارت السيادة فيه للرقم والمعلومة والتحليل الدقيق للمكونات الاصلية للمجتمع وطاقاته الانتاجية.

طلال سلمان

رئيس تحرير جريدة «السفير»

لا يخلو حديث المسؤول العربي من كلمات تكشف عدم دقته أو عدم اهتمامه أو عدم احترامه لعقول مواطنيه، كلمات مثل «نحو» أو «تقريبًا» أو «في تقديري»، بدءًا بمساحة البلاد، مرورًا بعدد السكان وفئاتهم العمرية، عدد الطلاب في الجامعات، عدد العمال، عدد المزارعين والمساحة المزروعة وصولاً إلى ألغاز الدخل القومي والدين العام وعجز الموازنة ونسبته إلى الناتج القومي العام... كل ذلك من العلوم المرصودة التي لا تفتح بابها إلا للراسخين في العلم من اهل الاختصاص، بينما هي في أي «دولة» في العالم المتقدم توزع-بغير طلب- عبر النشرات السياحية، لتؤكد الانتماء إلى العصر.

وباختصار فاننا مقصرون في معرفة بلادنا بحيث نتذبذب بين الحب الصوفي لكل ما هي عليه بما في ذلك وجوه القصور والغربة عن العصر، وبين الخجل بتخلفها الذي قد يشمل-بمعنى ما-الممارسات الدينية والاجتماعية، ناهيك بالواقع السياسي المحظور نقاشه إلا لمن يريد امتحان رحابة صدره وإيمانه الراسخ بحق المواطن في ان يعرف وفي ان يناقش حاكمه بل وفي ان يختلف معه والعياذ با لله.

من هنا ضرورة التنويه بكل جهد يبذل لتعميم المعرفة بالذات،

اننا لا نعرف بلادنا، لا نعرف انفسنا، لا نعرف عدونا، ولذا نرى انفسنا في لحظة اقوى الاقوياء في العالم ثم في لحظة أخرى يرتقي العدو في عيوننا إلى مرتبة الذي لا يقهر ونجلس لنندب حظنا ونشكو ذلة الانتماء إلى هذه الارض الملعونة وإلى هذا الدين العاجز عن محاورة العصر.

ومسعود الخوند يشعل بعمله الموسوعي شمعة بدل ان يلعن الظلام.

انه يحاول تعويض غياب المعنيين والمطالبين والمسؤولين عن انجاز مثل هذا العمل المكلف بما يتطلبه من جهد ومن دأب ومن وقت ومال وتنقيب للحصول على المعلومة الصحيحة.

انه يقوم بعمل مؤسسة كبرى،

وأبسط حقه علينا ان نكافئه بكلمة طيبة: أعانك ا لله يا مسعود!.

فهرست

في التاريخ المعاصر

(سايكس-بيكو)

العهد الفيصلي

الانتداب الفرنسي

الثورة السورية الكبرى
في سنوات ١٩١٩-١٩٢٩

١٩٤٥-١٩٧٠

عهد الأسد

مناقشة

الاحزاب

زعماء، رجال دولة وسياسة

مدن ومعالم

سورية

(بالنسبة إلى «بطاقة تعريف» و«سورية الطبيعية» و«التاريخ القديم والوسيط»، راجع، للمؤلف، «الموسوعة التاريخية الجغرافية»، الجزء التاسع).

في التاريخ الحديث
(العثمانيون)

«ترك» وأول اتصال صدامي عسكري مع العرب في العهد الاموي: عرفت لفظة «ترك» لأول مرة إسمًا لأقوام في آسيا الوسطى سنة ٥٠٠م. وخلال القرن السادس، كان هذا القوم («ترك» أو «أتراك») قد تمكن من إنشاء دويلات بدوية انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشمالية حتى البحر الأسود. و«كما عاش الاعراب على الجمال كذلك عاش الاتراك على الخيل، فشربوا ألبانها وأكلوا لحومها وامتطوها في طلب النصر. وقد استخدموا الركاب والقوس والنبال، وكانت الميزة التي تفوقوا بها على خصومهم سرعة الانتقال. كان اول اتصالهم بالشعوب الهندية الاوروبية في تركستان، وفي هذا البلد واجههم العرب الفاتحون للمرة الاولى، وذلك في اواخر القرن السابع واوائل الثامن» (د. فيليب حتي، «تاريخ سورية»، دار الثقافة، ج٢، ص ٣٠٣).

وأول حاكم عربي واجههم كان معاوية الذي كانت حركة التوسع البري في عهده تأخذ مجريين: احدهما شرقي والآخر غربي. الشرقي باتجاه آسيا الوسطى، والغربي باتجاه مصر.

كانت البصرة، وهي في عهدة زياد، القاعدة الاساسية للحملات الشرقية التي استكملت اخضاع خراسان (٦٦٣-٦٧١)، واجتاحت نهر جيحون واخضعت الاقاليم التي اصبحت الآن تدعى تركستان وأفغانستان وبلوخستان وبنجاب. وفي ٧٠٤، أكمل قتيبة (أحد قوّاد الحجاج بن يوسف) زحفه انطلاقًا من مدينة مرو، فأخضع كامل المناطق الواقعة خلف نهر جيحون، واقام فيها دولة اسلامية. ونهر جيحون يعرف حاليًا باسم نهر آموداريا، وقد شكل حتى ذلك الزمن الحد التقليدي، لا التاريخي، بين ايران وطوران، أي بين الشعوب الناطقة بالايرانية وتلك الناطقة بالتركية.

هكذا حصل اول اتصال بين العرب والترك في أوج عزّ دمشق كقاعدة للخلافة الاسلامية وعاصمة للامبراطورية العربية الاموية التي امتدت من شواطىء المحيط الاطلسي وقمم ا لبيرينه، حتى الاندلس وحدود الصين، فكانت تفوق باتساعها مساحة الامبرطورية الرومانية في أوسع حدودها. ولم يسبق للعرب قبل ذلك العهد، ولا تأتى لهم بعده، ان بلغوا هذا المدى لسلطانهم.

العثمانيون: في اوائل القرن الرابع عشر، كان ثمة دويلة تركية في غربي آسيا الصغرى ترعرعت وشبّت في كنف دولة السلاجقة (وهم قبائل تركية ايضًا) التي كانت قد بلغت أوج مجدها في القرن الحادي عشر. وهكذا كانت القبائل التركية، المتدفقة إلى آسيا الصغرى، تجد البلاد وقد تتّركت جزئيًا على يد انسبائهم السلاجقة. ويعود السلاجقة والعثمانيون (إسم «عثمانيون» اتخذ في ما بعد) بالنسب إلى قبيلة الغزّ، او الاتحاد القبلي المعروف بهذا الاسم.

«أما المؤسس الذي تسمّت باسمه الدولة والسلالة التي عرفت بالعثمانية فزعيم شبه تاريخي إسمه عثمان (١٢٩٩-١٣٢٦)، ويستدل من إسمه هذا-إذا صح- ان عشيرته كانت آخذة في اعتناق الاسلام أو قد اعتنقته نهائيًا، وعلى أثر اتباعهم الدين الجديد تسرّبت إلى لغتهم التركية ألوف التعابير الدينية والعلمية والادبية العربية، وبعض الالفاظ الفارسية. ولما لم يكن للغة التركية إلا القليل من الادب المدوّن (استخدم الاتراك في آسيا الوسطى الحرف السرياني)، عمدوا إلى اقتباس الحرف العربي، واستمروا عليه في مدوناتهم حتى كان الاصلاح الذي قام به مصطفى كمال سنة ١٩٢٨. وقد بقيت الدولة العثمانية، بعد ان تأسست حوالي سنة ١٣٠٠، نحوًا من ٦٦ سنة مجرد إمارة قائمة على الحدود، واتخذت بعد ١٣٢٦ مدينة بروسا قاعدة لها. ثم غدت بين ١٣٦٦ و١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة أدرنة. وكان استيلاء محمد الثاني الفاتح على القسطنطينية (١٤٥٣) فاتحة عهدها الامبراطوري. وبذلك غدت هذه الدولة الاسلامية التركية وريثة للامبراطورية البيزنطية، وظفرت في ما بعد بضم عدد من الدول العربية، تمكنت من سلخها عن الخلافة العباسية. وقد بلغت الامبراطورية التركية أوج عزّها في عهد سليمان الاول الملقب بالقانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، وهو ابن سليم الاول فاتح سورية ومصر. وتمّ في عهده الاستيلاء على الجانب الاكبر من هنغاريا، والقاء الحصار على مدينة فيينا، واحتلال جزيرة رودس؛ واقرت شمالي افريقيا- باستثناء مراكش- بالسيادة السياسية عليها للباب العالي في القسطنطينية. على ان إخفاقهم في محاولتهم الثانية لفتح فيينا في ١٦٨٣ كان مؤذنًا ببداية النهاية. وقد امتدت الامبراطورية في عهد سليمان الاول من بودابست على نهر الدانوب إلى بغداد على نهر دجلة، ومن بلاد القرم إلى شلال النيل الاول. ولم ينشىء المسلمون في العصر الحديث دولة هذا مداها؛ وكانت إلى ذلك من أطول الدول الاسلامية عمرًا؛ فقد توالى على عرشها، من ١٣٠٠ إلى ١٩٢٢، عندما انحلت الامبراطورية، ستة وثلاثون سلطانًا كلهم متحدرون عصبًا من عثمان، المؤسس الاول» (د.فيليب حتي، «تاريخ سورية»، دار الثقافة، ج٢، ص ١٩-٢٠).

سورية «ولايات» عثمانية: على اثر انتصار السلطان سليم الاول في مرج دابق قرب حلب (١٥١٦)، وانتصاره على المماليك في مصر (١٥١٧)، ولدى عودته من مصر توقف طويلاً في سورية من اجل ان يثبت فيها مركزه ويعمل على تنظيم شؤونها. «ورغبة منه في تنظيم الضرائب عين مجلسًا واناط به مهمة مسح جميع الاراضي، على ان يحتفظ للتاج بقسم كبير من سهل البقاع الخصب ووادي العاصي ا لمثمر. لكنه استمر على التدبير الذي اعتمده المماليك في تلزيم الضرائب على سبيل المزايدة. ثم انه جعل المذهب الحنفي- وهو الذي اختاره العثمانيون-المذهب الفقهي الرسمي في سورية. وقد وضع أحد فقهاء حلب المعروف بابراهيم الحلبي (توفي ١٥٩٤) كتابًا في الفقه الحنفي هو «ملتقى الأبحر»، غدا مرجعًا للتشريع الحنفي في الامبراطورية جملة» (حتي، المرجع المذكور، ص ٣٠٧).

أبقى الاتراك الدوائر الادارية في سورية على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك. ولكنهم بدّلوا بعض الشيء في نظام التسمية، فدعيت «النيابة» «ولاية»، وعرف «النائب» بـ«الوالي». وصار لقب التعظيم الذي يلي اسم الوالي «باشا» فصار للباشوية والولاية مدلول واحد. وكانت ولاية حلب، في وقت ما تشتمل على سبعة سناجق. أما ولاية دمشق، التي اتسعت باضافة القدس وصفد وغزة، إليها، فقد أُنيطت بجان بردي الغزالي، وهو نائب دمشق الذي خان الغوري وغدر به متواطئًا مع زميله نائب حلب. فغدا الغزالي النائب الفعلي للسلطان في سورية. أما سائر الدوائر الادارية فقد أسندت إلى حكام من الترك. وعلى اثر حركة التمرد التي قام بها الغزالي قسمت سورية إلى ثلاث ولايات هي: دمشق، مشتملة على عشرة سناجق أهمها القدس ونابلس وغزة وتدمر وصيدا وبيروت؛ ثم ولاية حلب وفيها تسعة سناجق بينها شمالي سورية؛ ثم ولاية طرابلس وفيها خمسة سناجق منها حمص وحماة وجبلة وسلمية. وفي ١٦٦٠، جعلت صيدا ولاية (بدلاً من طرابلس) «لمراقبة الجبل اللبناني بصورة افضل، وفي ١٨٨٨، حلّت بيروت كولاية بدل صيدا» (جواد بولس، «التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الادنى منذ الاسلام»، دار عوّاد للطباعة والنشر، ص ٣٤٣).

وفي ١٧٢٤، اسندت ولاية دمشق إلى اسماعيل باشا العظم، كبير هذه الاسرة الدمشقية البارزة. وكان ابنه اسعد، الذي بدأ حياته السياسية حاكمًا على صيدا ثم على حماة، خير والٍ عرفته دمشق إبان الحكم العثماني. «وقد عينَ افراد آخرون من هذه الأسرة حكامًا على دمشق وصيدا وطرابلس فكانوا اطلاقًا-بخلاف حكام لبنان- أوفياء لسلاطين بني عثمان، مع ان منهم مَن عُزلوا وصودرت املاكهم. فإن اسماعيل نفسه قضى بعض ايامه الاخيرة في السجن، وابنه أسعد اغتيل بأمر من القسطنطينية» (حتي، «تاريخ سورية» ج٢، ص ٣٠٩).

وضع لبنان الخاص: ثبت السلطان سليم (وبعده باقي السلاطين العثمانيين) الامراء اللبنانيين في اقطاعاتهم وترك لهم الامتيازات التي طالما نعموا بها في عهد المماليك، ورتب عليهم جزية خفيفة نسبيًا. «كان نصيب كسروان من هذه الجزية ٤٢٠٠ غرش ذهبًا لا غير» (اسطفان الدويهي، «تاريخ الازمنة»، دار لحد خاطر، ١٩٨٣، ط٢، ص ١٥٢). ودرج سلاطين بني عثمان بعد ذلك على حكم الجبل، اما مباشرة بالاعتماد على أتباعهم من حكامه الاهليين، أو بواسطة احد الولاة السوريين المجاورين. وكان هؤلاء الحكام، بوجه العموم، مستقلين استقلالاً داخليًا، يخلفون اقطاعاتهم إرثًا لبنيهم، ويمارسون السلطة المطلقة على رعاياهم، ويجبون الرسوم والضرائب، ولا يلزمون مع ذلك بتأدية أية خدمة عسكرية إلى السلطان، بل قد عمدوا احيانًا إلى عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية.

وكما في العهود السابقة كان الجبل اللبناني، في العهد العثماني، مقسمًا طبيعيًا ثلاث مناطق: الشمال وضمنه كسروان ويسكنه الموارنة، والوسط (الشوف والغرب) ويسكنه الدروز، والجنوب (بلاد بشارة وجبل عامل) ويسكنه المتاولة أو الشيعة. وكان يحكم هذه المناطق الثلاث رؤساء محليون تابعون سياسيًا للباشا أو الوالي العثماني المجاور لمنطقتهم، أي باشا طرابلس أو دمشق أو صيدا. وبخلاف التنظيم الاجتماعي للدروز، كان تنظيم الموارنة موزعًا بين رؤساء عدة اقطاعيين وسلطة البطريرك الماروني. وكانت المنطقة الجنوبية الشيعية تتابع تطورها السياسي بمعزل عن تطور المنطقتين الاخريين من الجبل (الشمال الماروني والوسط الدرزي) اللتين أُلفتا إمارة الامراء المعنيين (١٥١٥-١٦٩٧) وخلفائهم

الشهابيين (١٦٩٨-١٨٤٠)، وفي ما بعد متصرفية جبل لبنان (١٨٦١-١٩١٨).

في عهد الوالي العثماني الغزالي: هو الوالي الاول المعين من السلطان سليم الاول. وليدلّل على وفائه لأسياده الجدد بعد خيانته لاسياده السابقين (المماليك) «بدأ بالتنكر لزعماء العرب التنوخيين من بني بحتر الذين بقوا على ولائهم للمماليك وسجنهم في قلعة دمشق. وإذ امتنع ابن الحنش، وهو الزعيم العربي في صيدا والبقاع، عن تقديم خضوعه، اجتز رأسه ورأس ابن الحرفوش، وهو زعيم اسرة شيعية في البقاع، وارسل الرأسين مع رؤوس زعماء آخرين من البدو المعتصمين في جبال نابلس، إلى القسطنطينية. على ان الذي خان اسياده الأولين، لم يستطع ان يبقى طويلاً على الولاء لأسياده الجدد. وعليه فقد انتهز الغزالي فرصة وفاة السلطان سليم (١٥٢٠)، واعلن نفسه في المسجد الاموي حاكمًا مستقلاً بلقب الملك الأشرف، وضرب النقود باسمه. ثم انه زيّن لزميله السابق، خائر بيك، الذي كان السلطان سليم قد كافأه بان اقامه نائبًا على مصر، ان يقتدي به. لكن مدينة حلب لم تجاهر بتأييد الغزالي. فارسل السلطان سليمان لمحاربته جيشًا اباد العصاة السوريين في ٢٧ كانون الثاني ١٥٢١، وقتل الغزالي في قابون قرب دمشق. وكان العقاب الذي نزل بالعاصمة السورية وضواحيها أشدّ وأدهى مما قاسته سابقًا من تيمور. فقد أبيد ثلث المدينة وقراها إبادة تامة. ومنذ ذلك الحين غدا إسم الانكشارية مقرونًا في ذاكرة السوريين بالدمار والارهاب» (حتي، المرجع المذكور سابقًا، ص ٣١١).

سوء الادارة وتنكر السوريين للسلطة: «الشعوب المغلوبة في رأيهم (الاتراك) بمثابة المواشي الانسانية، ولذلك اقتضى أن يُحلبوا ويُجزّوا (...) وهذا «القطيع» كان بحاجة إلى «كلاب حراسة» (...) يجندون من أسرى الحرب واولاد النصارى الذين يؤخذون في مقابل الضرائب ثم يدربون ويربون كمسلمين (...) وكان أصلبهم فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية. وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند تنتقيان منهم... وليس في التاريخ المدون جهاز إداري آخر مواز لهذا الجهاز الغريب، فقد جعل بيت عثمان الاسرة الارستقراطية الوحيدة في الامبراطورية (...) وقد اعتمد العثمانيون اساسًا آخر للتقسيم الاداري هو التابعية الدينية (...) وكانت كل من الفئات الدينية تسمّى ملة. وكانت اكبر الملل اثنتان هما ملة الاسلام وملة الروم الارثوذكس (اطلق الترك لفظة «روم» التي اختصرها العرب من «رومان» على جميع رعاياهم من ابناء الملة الارثوذكسية من غير اعتبار العرق أو اللغة)... وكان الاوروبيون المقيمون في البلاد من بندقيين والمان وفرنسيين وانكليز يُعاملون كسائر الملل. ففي ١٥٢١، عقد السلطان سليمان معاهدة مع البندقيين ثبت فيها الامتيازات التي كانت لهم ابان الحكم البيزنطي. وحصل الفرنسيون على امتيازاتهم الاولى بعد ذلك بـ١٤ سنة، والانكليز في ١٥٨٠». (حتي، المرجع المذكور، ص ٣١٢-٣١٣).

واكبت الفوضى الفساد والاستغلال. فالعصور التي بدأت مظلمة في عهد الاتراك السلاجقة، زادت ظلمتها في ظل انسبائهم الاتراك العثمانيين. وفي ما كانت اوروبا تلج عصر الاستنارة كانت سورية تتلمس طريقها في الظلام العثماني الدامس. فخلال ١٨٤ سنة (أي بين ١٥١٦ و١٧٠٠)، تقلب على دمشق ما لا يقل عن ١٣٣ واليًا، لم يثبت في وظيفته منهم مدة سنتين فقط إلا ٣٣ لا غير. «وفي احد سجلات الدولة جدول بأسماء ٦١ واليًا عُينوا في غضون ٨٠ عامًا اولها عام ١٨١٥. ولم تكن حلب أرقى حالاً، فإن قنصلاً من قناصل البندقية ذكر في تقرير له ان

تسعة من الباشوات توالوا على المدينة في ثلاث سنوات (...) وزاد في شقاء الناس تردد جنود الانكشارية على المدينة من وقت إلى آخر ليقودوا الكثيرين جهارًا إلى حتوفهم. وكان الشعب إزاء ذلك يعتصم بالاستكانة والخيبة والتنكر للسلطة» (حتي، المرجع المذكور، ص ٣١٤).

«نتيجة لمخاوف السلطات العثمانية من الغزو الخارجي، فإنها خصّت الولايات السورية باهتمام زائد فالحقت مباشرة بمركز السلطنة (...) وشكلت بنية عسكرية في سورية من شأنها ان تضمن الهدوء والامن على الاراضي السورية. وقد عبر ذلك الحرص عن نفسه من خلال الوثائق الرسمية العثمانية التي اظهرت نزعة السلطة لقمع كل الاعمال الانفصالية في هذه الولايات (...) في الغالب لم تكن الاوساط السياسية السورية تخضع للدكتاتورية العسكرية بل قاومتها بكل قوة بحيث انها كانت لا تتورع، في الظروف العادية، عن إظهار العداء لها (...) وخلال سنوات ١٨٤٠-١٨٥١ كان الجيش العثماني في سورية يتراوح ما بين ١٥-٢٠ ألف رجل، وقد تشكّل كله من المجندين القادمين من ا لقسم الاوروبي من السلطنة العثمانية ومن آسيا الصغرى. ذلك لأن سورية لم تقدم للجيش العثماني مجندًا واحدًا حتى عام ١٨٥١» (م. ريجنكوف، إ. سميليانسكايا، «سورية ولبنان وفلسطين في النصف الاول من القرن التاسع عشر»، راجعه وقدّم له مسعود الضاهر، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٣، ص ٣٩٢-٤٠١).

إصلاحات عقيمة: أول من تحسّس الحاجة إلى ادخال إصلاحات مصطفى كبرولو، الوزير الأعظم بين ١٦٨٩ و١٦٩١، بهدف تحسين معاملة غير المسلمين من الرعايا. وبعده، جاءت محاولات السلاطين الثلاثة: سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) وعبد المجيد الاول (١٨٣٩-١٨٦١)، تحت عناوين «نظامي جديد» (النظام الجديد)، و«خطي شريف» و«خطي همايون»، والغرض منها تأمين جميع الرعايا على حياتهم واموالهم وكرامتهم على اختلاف مللهم، وإلغاء تلزيم الضرائب واعتبار جميع الناس متساوين امام القانون. وقاوم الانكشاريون، يساعدهم الموظفون الفاسدون وجماعة من الفقهاء، هذه الاصلاحات، فبقيت حبرًا على ورق.

والاصلاح الاهم جاء على يد كبير الوزراء مدحت باشا الذي بدأ حياته المسلكية موظفًا حكوميًا في دمشق. وقد توجت جهوده لوضع دستور لبلاده ببلاغ اذاعه السلطان مراد الخامس في ١٥ تموز ١٨٧٦ وردت فيه لفظة «قانون اساسي» لأول مرة في الوثائق السياسية العثمانية. وبعد ثلاثة اشهر، تولى السلطة مكانه اخوه عبد الحميد الثاني الذي اعلن رسميًا في ٢٣ كانون الاول ١٨٧٦ صدور دستور وإنشاء مجلس نيابي. وكان مدحت، بوصفه كبير الوزراء، هو الذي اقترح نص الدستور، وجرى في وضعه على سياق الدستور الفرنسي والدستور البلجيكي. وقد نصّ على ان جميع الرعايا ينبغي ان يدعوا عثمانيين، وان يتمتعوا بالحرية الشخصية، واعتبر الاسلام دين الدولة الرسمي، وأقر مبدأ التمثيل الشعبي. لكن عبد الحميد، كما دلت الحوادث في ما بعد، كان يرمي إلى كسب عطف الساسة الاوروبيين أكثر مما كان يرمي إلى تحسين اوضاع رعاياه. ففي شباط ١٨٧٧، نفى مدحت باشا، وفي ١٨٧٨، حلّ الهيئة التمثيلية. على ان ضغط الانكليز حمل السلطان على استدعاء مدحت ثانية، وتعيينه حاكمًا على سورية. لكنه عاد فنفاه إلى الطائف في الحجاز، حيث يظن ان عملاء الباب العالي اغتالوه في ١٨٨٣.

في عهد محمد علي الكبير: حتى ١٨٣٢، لم يطرأ أي جديد على سورية إلا وصول نابوليون

بونابرت وحصاره لعكا عام ١٧٩٩، وظهور الوهابيين في حوران وفي حلب واطراف البادية، وثورات الانكشارية الذين احتلوا دمشق عام ١٨١٢ وحلب من ١٨١٢ إلى ١٨١٩.

كانت الحركة الوهابية قد اصبحت، في ١٧٩٩، من القوة بحيث اشرفت على ابواب بغداد، وحملت الوالي التركي ان يعقد مع رجالها صلحًا. وفي ١٨٠٢، غزا الوهابيون بلاد الشام وهددوا دمشق وحلب. «وكانوا لا يزالون هناك في ١٨١١ حين اضطر محمد علي-آخر الامر-إلى ان يستجيب لالحاح السلطان ويرسل جيشًا بقيادة أحد أبنائه ليستعيد البلاد المقدسة. وقد استمرت الحملة المصرية على جزيرة العرب سبع سنوات كتب فيها النصر لمحمد علي (...) وهذه الانتصارات جعلت صلة محمد علي وابنه بالعالم العربي صلة وثيقة، واصبحت تتراءى لهما-وهما اللذان لا يمتان إلىالعروبة بنسب-رؤى امبراطورية عربية يطمحان إلى تأسيسها وإقامة اركانها» (جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، دار العلم للملايين، ط٢، ص ٨٣).

ومن «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ط١، ص ٢٩٢-٢٩٤)، هذه النبذة التاريخية عن سورية إبان حكم محمد علي الكبير:

في ١٨٣٢، ارسل محمد علي الكبير، والي مصر، الذي تمكن من التحرر تمامًا من الوصاية التركية، ابنه ابراهيم باشا لاحتلال سورية (وفلسطين ولبنان) ولتشكيل دولة عربية موحدة وكبيرة تكون سورًا منيعًا تصون مصر من أي هجوم تركي يأتيها من الشرق. وكانت سورية من أغنى اقاليم السلطنة العثمانية بخامات الحرير والقمح والصوف وزيت الزيتون، ومن شأنها ان تصبح سوقًا ملائمة للصناعة المصرية النامية. وتمكن ابراهيم باشا من تحرير فلسطين وسورية ولبنان من الحكم العثماني، واستقبله الاهالي كمنقذ ومحرر، واستفاد كثيرًا من مساعدة الامير اللبناني بشير الشهابي في دحر القوات التركية.

وتكونت، نتيجة الحرب التركية-المصرية، دولتان منفصلتان داخل إطار السلطنة العثمانية الموحدة شكليًا. فقد سيطرت مصر على السودان وسورية وفلسطين والجزيرة العربية إضافة إلى كيليكيا وكريت في حين تقلصت سيادة السلطان العثماني و لم تعد قائمة إلا على الاناضول والعراق وبعض مناطق البلقان. وقد بادرت الادارة المصرية إلى القيام بسلسلة من الاصلاحات البعيدة المدى في سورية ما بين ١٨٣٢ و١٨٤٠ في إطار طموح محمد علي وابنه ابراهيم، الذي عين حاكمًا أعلى على سورية، من اجل بناء اول دولة عربية كبيرة وموحدة في العصر الحديث.

أثارت هذه التجربة حفيظة الدول الكبرى التي انتبهت لخطورتها، ولخطرها على مصالحها. ويشير المستشرق السوفياتي لوتسكي، في كتابه «تاريخ الاقطار العربية» إلى ان بالمرستون، رئيس وزراء بريطانيا، كتب عن محمد علي في عام ١٨٣٣ قائلاً: «إن هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الاقطار العربية التي تتكلم اللغة العربية». وأبلغ البارون بوالكمت، الممثل الفرنسي لدى ابراهيم باشا، ان الاخير لا يخفي مقاصده، فهو يرمي إلى بعث الوعي القومي العربي وإحياء الامة العربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب والتعاون معهم إلى أقصى حد في إدارة الامبراطورية المنشودة. وفي نداءاته، كان ابراهيم باشا غالبًا ما يذّكر بمجد الشعب العربي في التاريخ القديم، وأثر بحماسه على قواته، واحاط نفسه بأناس يشاطرونه أفكاره.

وكسياسي موهوب، رأى ابراهيم باشا، بعد ان درس خبرة البلدان المتقدمة المعاصرة له، اتجاهات التطور المقبل، فحاول الاسراع في تحقيقها، وقام بعدد من الاصلاحات في سورية على غرار اصلاحات محمد علي في مصر، ترمي

إلى مركزة البلاد وتصفية التعسف الاقطاعي والقضاء على الانفصالية الاقطاعية وتحديث البلاد.

وحاول ابراهيم باشا تحويل سورية إلى مستودع للامبراطورية العربية المنشودة. ومن اجل ايقاف التدهور الزراعي، حدّد بدقة الضرائب التي تجبى من الفلاحين، وحرّم الابتزازات الاقطاعية التعسفية وأعفى الارض البكر المحروثة من دفع أي نوع من الضرائب لمدة طويلة، وأحلّ البدو في الاراضي الصحراوية المهجورة ودفعهم إلى الانتقال إلى حياة الاستقرار. وهكذا نشأت في البطاح الواقعة بين دمشق وحلب قرى جديدة، ونمت زراعة حوالي ١٥ ألف فدان من الاراضي البكر. واتسعت في غضون السنتين الاولين من السيطرة المصرية مساحة الاراضي المزروعة وزادت من ألفين إلى ٧ آلاف فدان في حوران الخصيب (إنتهى ما جاء في الموسوعة المذكورة).

ساعد إلغاء جباية الضرائب التعسفية على تطوير الصناعة والتجارة، وأضحى في وسع التجار والحرفيين الاطمئنان على سلامة اموالهم، ولم يبقَ باعث لمخاوفهم من سلب الباشوات الاتراك وابتزازهم الاموال. إذ اصبحوا يعرفون بدقة ما يتوجب عليهم دفعه من ضرائب، كما استرجعت الجمارك من ايدي الملتزمين، وحدّدت الرسوم الجمركية بدقة. وبنتيجة هذه السياسة التي سايرت اتجاه التطور الاقتصادي، نمت المدن السورية بصورة محسوسة، وإلى جانب ذلك تطورت التجارة الخارجية. وكتب القنصل الروسي بازيلي (شكلت رسائله مادة مهمة ورئيسية في كتاب م. ريجنكوف وإ. سميليانسكايا، «سورية ولبنان وفلسطين»، راجعه وقدّم له مسعود ضاهر، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٣) قائلاً: «إن الحرية التي منحتها الادارة المصرية للتجارة بعثت حياة جديدة في المدن الساحلية. فأصبحت صيدا وبيروت وطرابلس اسواقًا حرة للجبليين، الذين استبدلوا بالحرير وزيت الزيتون في هذه المدن القمح ومنتوجات الصناعة الاوروبية. وزاد الانتاج في لبنان بنحو الثلث على الاقل، بينما تضاعف استهلاك البضائع المستوردة من وراء البحار». وساد الامن، سواء في الطرق داخل سورية أم في طرق القوافل عبر الصحراء التي كانت تربط دمشق ببغداد. وتوسعت تجارة الترانزيت، ونقلت الاقمشة الانكليزية عبر سورية إلى اراضي ما بين النهرين وايران، والبضائع الهندية والايرانية عبر سورية إلى اوروبا.

وبعد ان وطّد السلطة المركزية، أعاد ابراهيم باشا تنظيم البلد على النسق المصري. فقسّم سورية وفلسطين وكيليكيا (قيليقيا) إلى ست مديريات ووضع على رأس كل مديرية مديرًا، وعين في كل مدينة نوابًا عن السلطة المركزية أو متسلمون يخضع إليهم مباشرة شيوخ القرى المجاورة. وتحت رئاسة كل متسلم، شكل مجلس استشاري أو شورى من بين الملاكين المحليين والتجار ورجال الدين. وعهدت إلى هذه المجالس وظيفة المحاكم المدنية. وحصرت السلطة القضائية العليا بيد ابراهيم باشا مباشرة، الذي كان يصدر الاحكام شخصيًا بالقضايا الجنائية والسياسية بعد ان تنظر فيها المحاكم بصورة تمهيدية.

واجرى الحكم المصري في سورية اصلاحات في حقل التعليم. ففي ١٨٣٤، وضع ابراهيم باشا الحجر الاساس للتعليم المدرسي الجديد: أنشئت المدارس الابتدائية في جميع انحاء سورية، والمدارس الثانوية في دمشق وحلب وانطاكيا، وكان التعليم باللغة العربية. وأسست هذه المدارس على النسق المصري مع انضباط صارم. وارتدى الطلاب البذلة الرسمية، وسكنوا في الاقسام الداخلية، وأُطعموا مجانًا. يقول جورج انطونيوس («يقظة العرب») ان كلوت بك، مدير هذه المدارس المعروف، كان قد تلقى تعليمات خاصة لغرس الوعي القومي العربي في قلوب الطلاب.

ومما يجب ذكره ايضًا ان ابراهيم باشا، كوالده محمد علي، تميّز بعدم التعصب الديني. فحرّر العرب المسيحيين، الذين كانوا يحتكرون الحرف والتجارة في المدن، من جملة من القيود والالتزامات المهينة التي كانت مفروضة عليهم في عهد الاتراك.

ورغم كل هذه الاصلاحات، فقد بدأت الانتفاضات تنتشر في ارجاء سورية احتجاجًا على حملات التجنيد الاجباري وفرض الضرائب الجديدة التي اوجبتها ضرورات الحرب مع السلطان العثماني والقوى الكبرى التي كانت تدعمه. وكان عملاء هذه القوى ينشطون في بث الاشاعات وتأليب الاهالي وتزويد المتمردين منهم بالسلاح. إلا ان ابراهيم باشا تمكن من القضاء على هذه الانتفاضات بقسوة، واستمر في حملته العسكرية باتجاه إخضاع الآستانة. فما كان من الدول الكبرى إلا ان ارسلت اساطيلها (١٨٤٠) لتجبر محمد علي على الانسحاب من سورية والانكفاء إلى مصر ضعيفًا مهزومًا.

«(...) أما القوات التركية فقد كانت لا قيمة لها إذا قورنت بالجيش المصري (...) أما خارج البلاد العربية فقد كانت ثمة عقبة كؤود تتمثل في صلابة لورد بالمرستون في معارضته لفكرة الامبراطورية العربية (...) وكانت كثير من العقبات المعوقة تعترض طريق محمد علي وابنه في سعيهما لايجاد حركة عربية: فقد كانا غير عربيين، بل لم يكونا يحسنان اللغة العربية، وان كان ابراهيم قد تعود التحدث بها في شيء من الطلاقة... وحين وصل ديار الشام اثار الدهشة في نفوس المراقبين من الاجانب بما كان يبدو في احاديثه من اخلاص. وكان يعتبر نفسه عربيًا، وقال ذات مرة: لقد جئت مصر صبيًا فلوّنت شمس مصر دمي وصيّرتني عربيًا (...) وكان يرى ان آراء أبيه ضيقة الافق لا تتفق مع الاستقلال السياسي الذي كان عازمًا على ان يقود العرب إليه بعد وفاة محمد علي (...) وبسبب فرض ضرائب جديدة وجعل التجنيد إجباريًا وجمع السلاح في مجتمع يرى ان الوسيلة الاولى لحماية الفرد وامنه هي بندقيته، نشبت الثورات في جميع انحاء البلاد: بدأت في نابلس والخليل، ثم في لبنان والمناطق الواقعة شرقي نهر الاردن (...) وحين اضطره الضغط الاوروبي إلى الجلاء عن بلاد الشام سنة ١٨٤٠ لم يكن قد بقي له صديق بين هؤلاء السكان الذين رحبوا بمقدمه قبل ثماني سنوات، واعتبروه محررهم (...) وكان بالمرستون يقف يقظًا صلبًا كلما أدّى النزاع بين محمد علي والسلطان إلى ازدياد النفوذ الروسي في القسطنطينية وكان كذلك واقفًا بالمرصاد للدولة العربية، فقد ارسل في ٢١ آذار ١٨٣٣ رسالة إلى الوزير البريطاني في نابولي قال فيها: إن هدف محمد علي الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية. وقد يكون هذا الامر في ذاته لا ضرر منه، ولكنه يرمي إلى تقطيع أوصال تركيا وهو ما لا نرضى عنه ابدًا. وفضلاً عن ذلك فإن أي ملك عربي، مهما تبلغ قوته، لن يكون أقدر من تركيا على المحافظة على ما تحتله من طريق إلى الهند» (جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٨٦-٩٣).

عودة السلطة العثمانية وتقسيم جديد لسورية: قبل هزيمة المصريين وانسحابهم من سورية، كان السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني قد خلف والده على العرش في ١٨٣٩، فأعلن فورًا أسس تنظيمات جديدة، وهي نفس التنظيمات الخيرية التي كانت مهيأة في آخر ايام والده، وتوجب اصلاحًا يشمل «جميع الرعية» بدون تفريق بين المسلمين وسائر الملل. وأعلنت هذه التنظيمات في بيان سلطاني معروف بـ«كلخانة خط همايوني». ومع هذه التنظيمات، ظهر تقسيم اداري جديد قسمت سورية بموجبه ولايتين: ولاية دمشق وولاية حلب، تتبعهما

سناجق دمشق وبيروت وطرابلس واللاذقية وعكا وحماه وحوران وحلب (للتذكير: هذا هو التقسيم الثالث، وكان سبقه تقسيم في بدء العهد العثماني حيث قُسمت سورية ثلاث ايالات هي دمشق وحلب وطرابلس؛ وتقسيم اوائل القرن الثامن عشر حيث صارت الايالات الثلاث خمس باشويات: دمشق وحلب وفلسطين وصيدا وطرابلس، وحيث كانت مهمة حكام الباشويتين الاخيرتين مراقبة الامراء اللبنانيين).

وبعد التقسيم الاخير (١٨٣٩) بنحو خمسين سنة، أي في ١٨٨٨، وبعد ان تجلت أهمية لبنان وشاطئه المتزايدة بسبب علاقتهما مع اوروبا (الارساليات الاجنبية)، أنشأ الباب العالي ولاية ثالثة، مركزها بيروت وتتبعها سناجق بيروت وعكا وطرابلس واللاذقية ونابلس. أما القدس وفلسطين، فقد اصبحا سنجقين تابعين مباشرة للعاصمة إستنبول.

وبعد عبد المجيد خلفه اخوه عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) الذي اصدر في عهده قانون التجارة البحرية (١٨٦٣) ومجلة الاحكام العدلية (١٨٦٨)، وكان اول سلطان عثماني زار اوروبا.

نظرة عامة على الاحوال السياسية في بلاد الشام من إنكفاء المصريين حتى بداية العهد الحميدي (١٨٤٠-١٨٧٦) والمحور احداث جبل لبنان والنشاط التبشيري الغربي: فتح تسامح حكم ابراهيم باشا الباب واسعًا امام نشاط البعثات التبشيرية الاجنبية، وأخصها الفرنسية والاميركية، بعد ان كان هذا النشاط محدودًا منذ بدايته في مطلع القرن السابع عشر (الامتيازات الاجنبية المعطاة بصورة خاصة للفرنسيين). وكان اليسوعيون أنشط هذه البعثات، خاصة بعد ان جاءت البعثات الاميركية في الربع الاول من القرن التاسع عشر. وكانت بيروت مركز الجذب الأساسي للعمل التبشيري، ومنها انطلق إلى جميع انحاء الشام. وقد وصلت حدة التنافس بين الكاثوليك (البعثات الفرنسية) والبروتستانت (الاميركان) احيانًا إلى درجة التناحر، فكان من نتائج ذلك انتعاش اللغة العربية، وبانتعاشها قامت حركة فكرية انتقلت، خلال زمن قصير، من الادب إلى السياسة (عصر النهضة).

«كادت لغة التخاطب اليومي تطغى على الفصحى وتفسدها، وذلك بعد ان ضعفت قوة العرب وزالت حضارتهم بما أوقعه بهما الفتح العثماني من ضربة قاضية. وقد بلغ الفساد الذي اصاب اللغة الفصحى في مطلع القرن الثامن عشر، مبلغًا كبيرًا-على الاقل في بلاد الشام- وأدّى إلى انحطاط خطير، وخاصة في لغة النصارى، وهو امر يظهر واضحًا فيما نعرف من كتب ألفها «المتعلمون» من كتّاب ذلك العصر. وزاد الامور سوءًا ان ادب العصور الزاهية قد نسيته ذاكرة الناس، واندثرت نماذج البيان الادبي، وامّحى ما كان لهذه الثقافة العظيمة من اثر روحي. ومهما تكن الجهود التي بذلها المبشرون لتعليم الناس فقد بقيت عقولهم مشلولة وافكارهم آسنة. كانت هذه هي الحالة حين وصل ابراهيم بلاد الشام. اما الجهود التي تعاقبت منذ ١٨٣٤ فجديرة بأن تعد نقطة انطلاق للتقدم الذي تمّ إحرازه فيما بعد (...) ولو نظرنا إلى الماضي لبدا لنا ان نتائج هذه التجربة كانت باهرة، فقد استطاعت، بما ارسته من اصول لنظام ثقافي جديد، ان تمهّد الطريق امام اللغة العربية لتعود مرة اخرى فتصبح قادرة على ان تكون وسيلة التعبير عن «الفكر» (جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ١٠٢-١٠٣).

وسرعان ما أدت بذور النهضة التعليمية إلى بزوغ الجمعيات. فأسس اليازجي والبستاني في بيروت (١٨٤٧) «جمعية الآداب والعلوم» التي كانت الاولى من نوعها في بلاد الشام، ثم «الجمعية الشرقية» (١٨٥٠).

حينما تألفت هاتان الجمعيتان كانت

العداوات الدينية هي السائدة، ولذلك وقف المسلمون والدروز بمعزل عنهما (جميع اعضائهما من النصارى العرب، إضافة إلى اعضاء من المبشرين الاميركيين في الاولى، واعضاء من المبشرين الفرنسيين في الثانية). وعمل المسلمون على تضمين مواقفهم الاشتراك في «تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود اهل العقائد الدينية جميعها لخدمة العلم، على شرط ان لا يكون للمبشرين أي اثر فيها. وهكذا أنشئت «الجمعية العلمية السورية» في ١٨٥٧، واشترك فيها زعماء العرب من مختلف العقائد. وكان من اعضاء مجلس ادارتها العالم الدرزي الامير محمد ارسلان، وحسين بيهم، ونصارى من جميع الطوائف من بينهم احد ابناء البستاني. وكانت غاياتها ووسائلها وقانونها وانظمتها كلها على غرار الجمعية التي أنشئت في ١٨٤٧ (...) وفي اجتماع سري عقده بعض اعضائها، منهم ابراهيم اليازجي الذي ألقى قصيدته الشهيرة التي اهابت بالسوريين ان يتحدوا ويلقوا عن اعناقهم النير التركي... وذاعت القصيدة ذيوعًا واسعًا. وكان الناس لا يأمنون على انفسهم من ان يُتهموا بالخيانة بسببها، ولذلك لم يدوّنوها إلا في ذاكرتهم... فكانت اول نشيد لحركة التحرر السياسي» (ج. انطونيوس، المرجع المذكور، ص ١٢٠-١٢١).

ما كادت تمضي اشهر على انسحاب المصريين حتى نشبت قلاقل خطيرة في جبل لبنان بين الموارنة والدروز (من اسبابها ما كان ابراهيم باشا قد قام به من تحرير للمسيحيين فاثار بذلك قلق المسلمين، وما قام به المبعوثون الاجانب، وخاصة الانكليز، من تأريث البغضاء بين الدروز والمسيحيين-المرجع المذكور ص ١٢٢). ونتيجة لهذه الاضطرابات، اقيم نظام اداري جديد في جبل لبنان قضى على ما كان سائدًا منذ اجيال من ان يكون حاكم الجبل احد امراء الاقطاع هناك، واصبح يتولى السلطة بدلاً منه حاكم تركي يعين تعيينًا، وقسّم الجبل إلى قائمقاميتين، وزادت المنافسة بين انكلترا (إلى جانب الدروز) وفرنسا (إلى جانب الموارنة). ونشبت الاضطرابات ثانية في ١٨٤٥، وعمد وزير الخارجية العثماني، شكيب افندي، على اثرها، إلى الابقاء على نظام القائمقاميتين مع تغيير في الادارة انتقص من قوة زعماء الاقطاع.

نحو ١٢ سنة من الهدوء النسبي الظاهري انصرفت خلالها عناية السلطنة والدول الاوروبية إلى مدينة القدس حيث احتد ا لخلاف بين الطوائف المسيحية على امتيازاتها وحقوقها في سدانة الاماكن المقدسة، فشكل ذلك سببًا مهمًا في حرب القرم. وعقب ابرام ا لصلح (١٨٥٦) مرسوم جديد اصدره السلطان عرف باسم «خط همايوني» اشتمل على اعتراف صريح واضح بالمساواة الكاملة بين جميع الاديان في الامبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات المدنية. وكان عدد سكان بلاد الشام مقدرًا «بنحو ١،٥ مليون، وإن نسبة المسلمين والمسيحيين والدروز هي بالتتابع: ٦٥٪ و٣١٪ و٤٪ (تقديرات جورج انطونيوس، المرجع المذكور، حاشية ص ١٢١).

في ١٨٥٧، نشبت ثورة الفلاحين الموارنة (ضد إقطاع الارض) في كسروان وبعض مناطق شمالي جبل لبنان، يدعمها رجال الدين الموارنة، وامتدت إلى المناطق الدرزية (١٨٦٠) حيث تحولت إلى فتنة طائفية زاد من حدتها خورشيد باشا ممثل الباب العالي، وامتدت موجتها إلى دمشق (اوائل تموز ١٨٦٠)، وكانت ضحاياها في جبل لبنان ودمشق مروعة، حفزت الباب العالي والدول الكبرى إلى العمل لانهائها. فابحرت السفن الحربية الاجنبية إلى المياه السورية، ورست حملة فرنسية في بيروت (نهاية آب ١٨٦٠)؛ وخوّل الوزير العثماني فؤاد باشا سلطات واسعة. فتباحث مع ممثلي الدول الاجنبية للاتفاق على حكم اصلح

لجبل لبنان. وصدر «القانون الاساسي» في ١٨٦٤ يتضمن تعديل نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية، قسمت فيه بلاد الشام إلى ولايتين تدار كل منهما على أسس مركزية دقيقة، ويتولى الحكم فيها وال أصبح موظفاً رسميًا يعينه السلطان (كان الحاكم من قبل إما زعيمًا إقطاعيًا وإما أحد الباشوات الذين كانوا يتمتعون بما يشبه الاستقلال). أما جبل لبنان فقد فصل عن بقية البلاد، ووضع له نظام متميز يعتمد على اسس واسعة من الحكم الذاتي.

اتاحت فتنة ١٨٦٠ للدول الاوروبية الكبرى ان تتذرع بها لتسوّغ تدخلها الصريح في الشؤون الداخلية لبلاد الشام، وهي سابقة اصبحت تلك الدول تستغلها في كل مناسبة خلال السنوات التالية.

«ولكن اضطرابات ١٨٦٠-فضلاً عن نتائجها السياسية والدولية-جديرة بأن تعتبر، في تاريخ الحركة الفكرية في الشام، الحدث الحاسم في القرن التاسع عشر. فقد نبهّت اذهان الناس إلى ما ينجم عن الجمود العقلي من اضرار، وألهبت حماسة الذين أدركوا ان محنة البلاد ترجع، في جذورها، إلى العداوات الطائفية التي ينمّيها الجهل. فكان ذلك سببًا في تجديد السعي لإنشاء المدارس، وفي مضاعفة الجهد لتحطيم الأغلال التي تقيد العقل. ولا يقل عن تلك النتائج أهمية انها حفزت جماعة من المفكرين الشبان إلى ان يبدأوا سعيهم من اجل تحرير وطنهم من الحكم التركي. وكان هؤلاء الشبان هم تلامذة اليازجي والبستاني، واول جيل نشأ على دراسة التراث الثقافي الذي بعثت فيه الحياة» (ج. انطونيوس، المرجع المذكور، ص ١٢٦).

سورية إبان الحكم الحميدي (١٨٧٦-١٩٠٨): بمقتضى التنظيم الاداري الذي تم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ظلت سورية

السلطان عبد الحميد الثاني.

حتى انتهاء العهد العثماني منقسمة إلى ثلاث ولايات (سورية وحلب وبيروت)، ومتصرفيتين مستقلتين عن الولاية، مرتبطتين مباشرة بوزارة الداخلية أسوة بالولايات هي القدس ودير الزور؛ بينما كان جبل لبنان مستقلاً استقلالاً اداريًا تامًا باشراف الدول الاوروبية العظمى الست، ومرجع حاكمه الاداري المسمّى متصرفًا هو مقام الصدارة العظمى.

١- ولاية سورية، مركزها دمشق، وشملت متصرفيات حماه وحوران والكرك (البلقاء التي كانت تشمل حدود المملكة الاردنية الحالية) والاقضية الحالية النبك وجير ود ودوما والزبداني والقنيطرة وقطنا (وادي العجم)، والاقضية الاربعة التي سلخت عن سورية بعد نهاية الحرب العالمية الاولى وألحقت بلبنان، وهي البقاع (مركز إدارته بلدة المعلقة المعروفة بين الاهلين بمعلقة زحلة) وأقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا.

٢- ولاية حلب، مركزها مدينة حلب، وضمت فوق اقضيتها الحالية محافظة أدلب الحالية ومنطقة اسكندرون بكاملها (كانت منقسمة آنئذ

إلى قضاءين كبيرين هما انطاكيا واسكندرونة)، ومناطق مرعش وعينتاب وكلس وغيرها من المدن والقرى التي كانت مأهولة في الاصل بالارمن والترك، ثم شرد منها الارمن اثناء الحرب ضمن الحدود التركية على اثر استقلال سورية وانسحاب فرنسا من كيليكيا.

٣- ولاية بيروت، مركزها بيروت، وشملت علاوة على اقضيتها الثلاثة (صيدا وصور ومرجعيون) متصرفيات اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس، بما حواه كل منها من اقضية ومديريات.

٤- متصرفية القدس المستقلة، وشملت مدينة القدس وضواحيها والنواحي الملحقة بها مباشرة، واقضية يافا وغزة والخليل وبئر السبع، بل معظم حدود فلسطين حتى حدود مصر، باستثناء حيفا وعكا وغيرهما من مدن الجليل التي كانت مع لواء نابلس ملحقة بولاية بيروت.

٥- متصرفية دير الزور، وتضم الآن محافظات الجزيرة والفرات والرشيد.

هذا عن التقسيم الاداري لسورية إبان العهد الحميدي. اما القيادة العسكرية في جميع سورية فكانت واحدة حتى آخر هذا العهد، وهي قيادة الجيش الثامن ومركزها دمشق وقائدها الأعلى برتبة مشير، وقد سميت بعد اعلان الدستور (١٩٠٨) قيادة الفيلق الرابع يرئسها فريق، كما يرئس القيادة في مراكز حلب وبيروت والقدس فريق أو أمير لواء، وفي باقي مراكز الالوية ميرالاي (عميد). وتميزت دمشق وحلب بمن نشأ من شبانها في المدارس الحربية العالية وارتقى بعضهم مراتب العقيد والعميد وامير اللواء والفريق. وقد أسس الوالي مدحت باشا مدرسة عسكرية في دمشق.

أما عن الولاة (حكام ولاية سورية)، فقد برز منهم مدحت باشا الذي لقب بأبي الاحرار في بداية العهد الحميدي، والوالي ناظم باشا في منتصفه. ومدحت هو صاحب فكرة «الحرية والدستور»، وناظم عرف بمشاريعه العمرانية ونزاهته واستقامته. واما عن أهم الانجازات، فمعاهد ثانوية في جميع مراكز الولايات والألوية، بالاضافة إلى الكلية العسكرية والكلية الطبية التي قامت في دمشق في ١٩٠٣ (يوسف الحكيم، «سورية والعهد العثماني»، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٠، ط٢، ص ٥٠-٥٤).

ومن الوجهاء السوريين الذين كسبوا حظوة كبيرة لدى السلطان، عزت باشا العابد، الذي قضى ١٣ عامًا في منصب السكرتير الثاني للسلطان واصبح اقوى موظف في الدولة، واليه ينسب بعض المؤرخين فكرة مد سكة حديدية إلى الحجاز، بسبب كامن في نفسه لم يعلن عنه طبعًا، ويقضي بتسهيل «نقل الافكار العربية التحررية...» (راجع «عزت باشا العابد» في باب زعماء، رجال دولة وسياسة).

الاستبداد الحميدي: دام حكم عبد الحميد، حتى خلعه في ١٩٠٩، ٣٣ عامًا. في عهده، اصبحت بذرة الوعي القومي العربي، التي نمت في بلاد الشام، حركة واعية واسعة الانتشار، وإن لم تعرف ثورات تحررية كتلك التي عرفتها بلدان البلقان وكان آخرها الثورة البلغارية.

بعد منحه الشعب دستور ٢٣ كانون الاول ١٨٧٦ وسط احتفالات رائعة المظهر، وفي اليوم نفسه الذي اجتمع فيه ممثلو الدول الكبرى في مؤتمر عام لوضع المقترحات التي تكفل اصلاح الحكم في امبراطوريته، عاد عبد الحميد بعد أشهر قليلة (آذار ١٨٧٧)، واصدر قانونًا بتعطيل الدستور متذرعًا باعلان روسيا الحرب، وبقي معطلاً ٣١ سنة. فاتضح ان عبد الحميد كان يريد من وراء إصداره الدستور التمويه على رعاياه من جهة، وتعطيل المؤتمر الاوروبي من جهة ثانية.

وكان الاثر الرئيسي الذي تركته هذه الحرب ان الولايات الاوروبية التابعة للدولة

العثمانية استفادت من اوضاع طاولت حدودها الاقليمية، في حين ان الاوضاع في الولايات العربية العثمانية بقيت على حالها، إضافة إلى انها ضاعفت من تذمر سكان هذه الولايات العربية وسخطهم بسبب حشد الجنود العرب على سفن حربية اجنبية وفي احوال بالغة المشقة، لمحاربة عدو بعيد لا يكادون يعرفون عنه أكثر من إسمه. ومنذ ذلك الحين بدأ عبد الحميد عهدًا من الطغيان قلّ ما شهد التاريخ مثيلاً له.

«حينما كان عبد الحميد يخفق في سياسة التقرب والتودد، كان يلجأ إلى وسائل الفتك والعنف. وكان قد اختار جماعة من الجواسيس يجوبون البلاد العربية، يلبسون مسوح الوعاظ والمبشرين، بينما كان عملهم الحقيقي ان يبذروا بذور الخلاف ويهيجوا اسبابه بين الزعماء الاقطاعيين ورؤساء القبائل الكبيرة (...) وسيلة لاحكام قبضته على السكان العرب المتمردين، الذين كان يخشى ثورتهم عليه، ثورة بالغ في تصور المخاوف منها حتى استبدت به» (ج. انطونيوس، المرجع المذكور، ص ١٤٠ و١٤٧).

بذور التحرر، «جمعية بيروت السرية» ونفر من الرواد: «يرجع اول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى ١٨٧٥ حين الف خمسة شبان (أبرزهم الدكتور فارس نمر باشا) من الذين درسوا في الكلية البروتستانتية السورية ببيروت، جمعية سرية. وكانوا جميعًا نصارى، ولكنهم ادركوا قيمة إنضمام المسلمين والدروز اليهم، فاستطاعوا ان يضموا إلى الجمعية نحو ٢٢ شخصًا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد... وكان مركز منظمتهم في بيروت، وأنشأوا لها فروعًا في دمشق وطرابلس وصيدا» (ج. انطونيوس، المرجع المذكور، ص ١٤٩، ونقلاً عن لسان فارس نمر نفسه).

تلقف الناس في ارجاء بلاد الشام منشورات هذه الجمعية بحماسة بالغة. ففي برقية ارسلها القنصل البريطاني العام في بيروت في ٢٨ حزيران ١٨٨٠: «ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة. يُشك في ان مدحت هو منشئها. ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد» (المرجع المذكور ص ١٥٣، استنادًا إلى مكتب السجلات العامة في وزارة الخارجية البريطانية، رقم ١٩٥:١٣٠٦). ومدحت باشا كان واليًا على الشام بعد ان كان صدرًا أعظم وارتبط إسمه بدستور ١٨٧٦. ونسبت إليه الدوائر العثمانية انه كان يقصد إثارة الاضطراب في بلاد الشام ليفصلها عن حكم السلطان، ويؤسس فيها مملكة لنفسه يتوارثها أبناؤه، كما فعل محمد علي في مصر.

في المنشور الثالث والأخير لجمعية بيروت السرية (إذ اضطر الاعضاء على حلها وهاجر بعضهم إلى الخارج تحت ضغط الملاحقة) ما اعتبر «أول بيان مدوّن عن برنامج العرب السياسي»، وفيه النقاط الأساسية التالية:

١- منح سورية الاستقلال متحدة مع جبل لبنان.

٢- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

٣- رفع الرقابة والقيود التي تحد من حرية التعبير والتعليم.

٤- استخدام القوات المجندة من اهل البلاد في المهام العسكرية الداخلية فيها فقط.

«مالت الرسائل التي بعث بها القناصل البريطانيون إلى التقليل من شأن الجمعية، وتشبه منشوراتها الثورية بقذائف تالفة لم يكن لها من أثر غير إثارة شيء من التساؤل والفضول في نفوس شعب خامل مستكين؛ أما شهادة العرب الذين عاصروا تلك الاحداث فتؤكد ان تلك ا لمنشورات كان لها اثر كبير شامل... (وسجّل احد الكتّاب

الفرنسيين، وقد زار الشام في ١٨٨٢، أن روح الاستقلال) انتشرت انتشارًا واسعًا. وكان الشبان من المسلمين منهمكين في تنظيم الجمعيات لانشاء كثير من المدارس والمستشفيات وللعمل على النهوض بالبلاد، ومن اهم صفات هذا النشاط انه بريء من وصمة التعصب الطائفي...» (ج. انطونيوس، المرجع المذكور، ص ١٥٥-١٦١).

ومن الروّاد الكبار، برز عبد الرحمن الكواكبي (ولد في حلب في ١٨٤٩ من اسرة شامية مشهورة) الذي بدأ حياته العملية بالصحافة والمحاماة، ثم دخل ميدان الوظائف الحكومية، واعلن سخطه على الطغيان وندّد به؛ وبعد ان سجن، غادر الشام إلى مصر. كره الظلم، واعتبر «الوطنية فوق اختلاف الاديان». في كتابه «أم القرى» (وهذا الاسم هو احد اسماء مكة)، وكتابه الجامع لمقالاته في مصر، تحليل عميق وبارع لضعف العالم الاسلامي عامة، واقطاره العربية خاصة، ودعوة حارة إلىاقتباس العلاج الصحيح: محاربة اتجاه الفقهاء الذين يقفون في طريق التقدم الفكري، ومكافحة الجهل المنتشر بين الجماهير؛ والثاني، ان يستعيد العرب مكانتهم اللائقة ودورهم في تقرير مستقبل الاسلام ومصيره. وفي حين دعا جمال الدين الافغاني إلى اعتبار العالم الاسلامي جميعه رقعة واحدة يجب ان تتوحد تحت ظل خليفة ما (وهذا ما استغله عبد الحميد لتلائم اهدافه الخاصة)، ميّز الكواكبي تمييزًا دقيقًا بين الشعب العربي والشعوب المسلمة من غير العرب معتمدًا المنزلة الخاصة التي نالها العرب في تاريخ الاسلام بفضل لغتهم ونسبهم.

وظهرت حركة سياسية أخرى في اواخر عهد عبد الحميد، قام بها نجيب عازوري (من قرية عازور، جنوبي لبنان)، وبدأها في باريس سنة ١٩٠٤، حين أسس «جامعة الوطن العربي» بهدف «تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية»، واصدرت عدة نداءات تدعو فيها العرب إلى الثورة. وبعد ان استمال عازوري بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين، تعاون معهم على اصدار مجلة شهرية عنوانها «الاستقلال العربي» ظهر عددها الاول في نيسان ١٩٠٧ معلنة عن ان هدفها نشر المعرفة عن البلاد العربية وإثارة الاهتمام بقضية تحريرها. وتوقفت عن الصدور حين اعلن الدستور العثماني في تموز ١٩٠٨، وكان مجموع إصدارها ١٥ عددًا (كتابه «يقظة الامة العربية»، عرّبه وقدّم له د. أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت).

وفي ١٩٠٦، تأسست في دمشق «جمعية النهضة العربية» على يد «لطفي الحفار، محب الدين بك الخطيب، رشدي بك الحكيم، زكي بك الخطيب، سامي بك العظم، الامير أحمد الشهابي، صلاح الدين القاسمي، صلاح الدين العظم، توفيق بساط، جرجي الحداد، عثمان مردم بك وغيرهم (...) كانت جمعيتنا هذه سرية تعمل لبث المبدأ الوطني القومي العربي، وتعليم الاميين في المدن السورية، ثم أنشأت في دمشق غرفًا للقراءة كانت تُلقي فيها المحاضرات التوجيهية، وكانت لهذه الجمعية فروع في اليمن ومصر والآستانة (...) هذه الجمعية هي رمز العزيمة الاولى لبعث العروبة بعد ان هجعت ألف سنة أو تزيد» («الحياة»، العدد ١٢٣٤٠، تاريخ ٨ كانون الاول ١٩٩٦، ص ١٨).

في ظل دستور ١٩٠٨، الجمعيات العربية: في ١٤ تموز ١٩٠٨، منح عبد الحميد رعاياه، وسط موجة من الذعر التي أثارها انفجار الثورة العسكرية فجأة، الدستور إياه الذي كان معلقًا (الدستور الذي ارتبط بمدحت باشا). وفي اليوم التالي (١٥ تموز)، ألغى عبد الحميد الرقابة واطلق سراح جميع المسجونين السياسيين، وسرّح جيشه المؤلف من ٣٠ ألف جاسوس.

عدد من اعضاء «الجمعية العربية الفتاة» في باريس (١٩١٣) وهم: جميل مردم جالساً الى اليمين والى جانبه اخوه الاصغر محمد ومحمد العريسي. ووقوفاً من اليسار الاخوان ندره ولطفي مطران ومحمد محمصاني. والاربعة: مطران، العريسي ومحمصاني كانوا من شهداء ٦ ايار ١٩١٦ في لبنان. وحكم مردم معهم غيابياً بالاعدام لكنه كان لا يزال في فرنسا.

كانت هذه الثورة من تدبير جمعية «الاتحاد والترقي»، وهي منظمة سرية أنشأها «الشبان الاتراك» (تركيا الفتاة) في سالونيك، وهدفت إلى القضاء على استبداد السلطان. «ومع ان بعض العرب، ومعظمهم من ضباط الجيش (من بلاد الشام)، قد انضموا إلى هذا الحزب وتعاونوا مع قادته تعاونًا وثيقًا، غير انهم فعلوا ذلك بوصفهم مواطنين عثمانيين لا بوصفهم عربًا قوميين. وقد كانت جمعية الاتحاد والترقي خليطًا من اجناس واديان مختلفة، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الاتراك ويليهم اليهود، وانجذب إليهم بعض الرعايا العثمانيين من الاجناس الاخرى، ووقف خلفهم اللاجئون السياسيون والمنفيون خارج البلاد» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ١٧٦).

وحول وجود العنصر اليهودي والصهيوني، وفعاليته، في جمعية الاتحاد والترقي، وُضع العديد من المؤلفات، ولا يزال الموضوع نقطة جذب ينكبّ على تأريخها وتحليلها الدارسون، وبالأخص منهم العرب والارمن. وقد أوجزت الباحثة ناتالي دده يان (إبنة النائب اللبناني أبراهام دده يان) ذاك الوجود وتلك الفعالية، في كتابها، «القضية الارمنية بين السياسة والقانون» (ط١، نيسان ١٩٩٧، ص ٣٨-٣٩؛ استنادًا إلى عدد من المراجع، أهمها: ثلاثة مؤلفات للدكتور صالح زهر الدين، هي «الارمن والعرب بين الطورانية والصهيونية»، و«الارمن شعب وقضية»، و«سياسة الحكومة العثمانية في ارمينيا الغربية وموقف القوى الدولية منها»؛ والكتيب رقم ٩٦ صادر عن وزارة الخارجية البريطانية؛ وكتاب المؤرخ سيتون واطسون The rise of Nationality (in the Balkans, London 1917,P. 135-136):

«ليس من الغرابة إن أقدم الطورانيون الاتحاديون من جمعية الاتحاد والترقي على ذبح الارمن والعرب في الحرب العالمية الاولى، التي وجدوا فيها فرصة مناسبة للاقتصاص من هذين الشعبين (...) ان جمعية الاتحاد والترقي هي إحدى إفرازات المجلس الصهيوني العالمي، كما كان قادتها وزعماؤها من الدونمة والماسونيين. بمعنى انها أنشئت باوامر المجلس الصهيوني العالمي، وبكوادر يهودية-ماسونية، وبتمويل يهودي صهيوني عن طريق جاويد (وهو تحريف لاسم دافيد David)؛ لذلك فإن المؤرخ سيتون واطسون يقول في هذا الاطار: «ان الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي انها غير تركية وغير اسلامية. فمنذ تأسيسها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من اصل تركي صاف. فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي مرتدّ. وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بـ«الدونمة». وكراسّو من اليهود الاسبان القاطنين في مدينة سالونيك. وكان طلعت باشا بلغاريًا من اصل غجري اعتنق الاسلام دينًا ...». ويضيف واطسون قائلاً: «ان اصحاب العقول المحركة وراء الحركة فقد كانوا يهودًا أو مسلمين من اصل يهودي. واما العون المالي فكان يجيئهم عن طريق الدونمة ويهود سالونيك الاغنياء». والمعروف بان مركز الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني كان في سالونيك نفسها التي تعج باليهود» (عن اليهود «الدونمة»، راجع هذه الموسوعة، «الموسوعة التاريخية الجغرافية»، للمؤلف، «تركيا»، ج٦، العنوان الفرعي «اليهود في تركيا»، ص٢٨٢).

بعد شهرين من اعلان الدستور، أنشئت، رسميًا، أول جمعية عربية باسم جمعية «الاخاء العربي العثماني» في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية، على اساس اهداف رئيسية: المحافظة على الدستور، الولاء للسلطان، تحسين اوضاع المقاطعات العربية ونشر التعليم باللغة العربية. وتقرر إنشاء فروع لها في جميع هذه المقاطعات. وقد تزامنت ولادة هذه الجمعية مع الاحتفال بافتتاح سكة حديد الحجاز، وتعيين الشريف حسين بن علي اميرًا على مكة.

جرت الانتخابات لاول مجلس للنواب في ظل الدستور الجديد. وجاء تنظيم الدوائر الانتخابية والمقاعد المحددة للعرب ليصيب التحالف غير الطبيعي بين الترك والعرب بأول هزة: ٦٠ مقعدًا للعرب، و١٥٠ للترك في مجلس النواب. أما مجلس الاعيان (الشيوخ)، فقد عيّن السلطان ثلاثة فقط من العرب من اصل ٤٠. علمًا ان الفارق بين ا لعرب والترك في عدد السكان كان كبيرًا؛ «إن أدق تقدير لمجموع السكان في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨ (باستثناء مصر) هو ٢٢ مليونًا، من بينهم ٧،٥ من الجنس التركي، ١٠،٥ من العرب، والاربعة ملايين الباقية من اليونانيين والأرناؤوط (الألبانيين) والارمن والاكراد، وعناصر أخرى اقل شأنًا وعددًا» (ج. أنطونيوس، المرجع المذكور، ص ١٧٩).

في نيسان ١٩٠٩، حاول السلطان عبد الحميد استعادة سلطاته، والقضاء على الاتحاد والترقي، بثورة مضادة في العاصمة. لكن كتائب عسكرية، بقيادة ضابط عربي (محمود شوكت باشا) زحفت من سالونيك على العاصمة وقضت على هذه المحاولة، واعادت إلى الاتحاديين سلطتهم ونفوذهم. وبعد ثلاثة ايام، اجتمع مجلس الاعيان ومجلس النواب معًا واعلنوا خلع عبد الحميد، ونصبوا بدلاً منه اخاه رشاد سلطانًا؛ واصبح للاتحاديين السيطرة المطلقة، واقامت حكمًا استبداديًا كان لا يقل طغيانًا عن استبداد عبد الحميد، واكثر منه بغضًا للعرب وللاجناس الاخرى في الامبراطورية ومن اول ما فعلوه حل الجمعيات غير التركية، ومن بينها جمعية الاخاء العربي العثماني. وكان ذلك سببًا في حمل الزعماء العرب علىاتباع الوسائل السرية. فنشأت عدة جمعيات، أهمها:

- «المنتدى الادبي»، ونشأت في القسطنطينية (صيف ١٩٠٩)، وضمت جماعة من الموظفين والنواب والادباء والطلاب، كان من بينهم عبد الكريم الخليل (لبنان، شنقه الاتراك)، صالح حيدر (بعلبك، شُنق)، رفيق سلوم (حمص، شُنق)، جميل الحسيني (القدس)، يوسف مخيبر (بعلبك)، سيف الدين الخطيب (دمشق، شُنق).

- «حزب اللامركزية الادارية العثماني»، أنشىء في القاهرة (١٩١٢)، ومن مؤسسيه رفيق العظم (دمشق)، رشيد رضا (طرابلس الشام)، اسكندر عمون (لبنان)، فؤاد الخطيب (لبنان)، سليم عبد الهادي (جنين، شُنق)، حافظ السعيد (يافا، شُنق)، فايق تللو (دمشق، شُنق)، علي النشاشيبي (القدس، شُنق).

- «القحطانية»، وكانت جمعية سرية، أنشئت في ١٩٠٩، ومن مؤسسيها سليم الجزائري (دمشق، شُنق)، الاميران امين وعادل ارسلان (لبنان)، خليل حماده (بيروت)، امين كزما (حمص)، صفوت العوا (دمشق)، علي النشاشيبي (القدس، شُنق)، شكري العسلي (دمشق، شُنق)؛ وكان هدفها تحقيق مشروع جديد: تحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين. فتؤلف الولايات العربية مملكة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية، على ان تكون جزءًا من امبراطورية تركية-عربية على غرار الامبراطورية النمساوية-المجرية، يضع السلطان العثماني في القسطنطينية على رأسه تاج المملكة العربية بالاضافة إلى تاجه التركي، كما كان امبراطور آل هابسبورغ في فيينا يضع على رأسه تاج المجر.

- «الجمعية العربية الفتاة»، أسست في باريس سنة ١٩١١ على يد: عوني عبد الهادي (جنين)، جميل مردم (دمشق)، محمد المحمصاني (بيروت، شُنق)، توفيق الناطور (بيروت، شُنق)، رفيق التميمي (نابلس) وعبد الغني العريسي (بيروت، شُنق). ولم يكن لأية جمعية أخرى ما كان لها من اثر فعال في تاريخ الحركة القومية حتى ذاك التاريخ، وهدفها تحرير البلاد العربية من السيطرة التركية أو أية سيطرة اجنبية. في ١٩١٣،

نقلت مركزها من باريس إلى بيروت، وفي السنة التالية إلى دمشق.

– «لجنة الاصلاح» و«المؤتمر العربي في باريس»: في اواخر ١٩١٢، توصلت موجة الحركة العربية إلى ان تنبثق في بيروت «لجنة الاصلاح» (من ٨١ عضوًا من جميع الاديان)، وتضع برنامجًا (اعلنته اللجنة في شباط ١٩١٣) اعترف بالسيادة التركية، ولكنه ميّز بين المسائل ذات الطابع المتصل بالدولة (شؤون خارجية، دفاع، مواصلات عامة، اقتصاد وطني) وبين المسائل ذات الطابع الاقليمي (ادارة الولاية وايراداتها، مصالح محلية، اعتراف باللغة العربية لغة رسمية ...). فعقدت ا لاجتماعات العامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة، وانهالت البرقيات على القسطنطينية مؤيدة البرنامج ومعلنة انه يعبّر عن الرغبة العامة في الولايات العربية.

حلّت الحكومة لجنة الاصلاح. فأضربت بيروت، وسارت المظاهرات في انحاء أخرى من بلاد الشام، واطلقت الحكومة المعتقلين من اعضاء اللجنة واعلنت ان الاصلاحات بصورتها المطلوبة سوف تتم. لكن اللجنة بقيت على خشيتها ونقلت مركز حركتها إلى باريس. وهناك بدأ التحضير لعقد مؤتمر عربي. وعقد المؤتمر في ١٨ حزيران ١٩١٣، وحضره ٢٤ مندوبًا (كانت العضوية مقسومة قسمة تكاد تكون متساوية تمامًا بين المسلمين والمسيحيين، والكثرة الغالبة من الاعضاء كانوا من اهل الشام)، واتسمت المناقشات بالاتزان والاعتدال مع تأكيد مطالب العرب بالحقوق السياسية الكاملة ونصيبهم في الاشتراك اشتراكًا فعالاً في ادارة شؤون الدولة.

وبعد فشل الاتحاديين في تحريض الحكومة الفرنسية لتمنع عقد المؤتمر، أرسلوا سكرتير حزبهم لمفاوضة المؤتمرين، وقد نجح في هذه المهمة، وعقد اتفاقًا معهم بدا نصرًا للعرب في ظاهره. وفي ١٨ آب ١٩١٣، صدر مرسوم سلطاني يتضمن المصادقة على شروط اتفاق باريس، غير ان اكثر مواده اختزل، وأحيط معظم ما بقي بالتحفظ والغموض (سواء في قضايا التعليم أو اللغة العربية أو الخدمة العسكرية أو الوظائف...). وأثار المرسوم شعورًا عامًا بالخيبة، خاصة وان عددًا من قادة مؤتمر باريس (بينهم رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي) قبلوا بمنحهم «المناصب ثمنًا لسكوتهم». ولم تقم بعد ذلك اية محاولة للاتفاق مع الاتحاديين.

– جمعية «العهد» التي تأسست في ١٩١٣ ردًا على سياسة «التتريك» التي انتهجها الاتحاديون. انتشرت هذه الجمعية بين صفوف الضباط العرب داخل الجيش العثماني، وكان ابرز المؤسسين الضابط المصري الكبير عزيز علي. وقد برزت في ما بعد اسماء العديد من الضباط العرب الذين كان لهم دور معروف في نشاطات هذه الجمعية، ومن بينهم: محمد اسماعيل الطباخ، مصطفى وصفي، سليم الجزائري، يحي كاظم، عارف النوام، محي الدين الجبان، امين لطفي الحافظ، علي النشاشيبي (وهؤلاء جميعهم من الضباط الشاميين، أي من سورية ولبنان وفلسطين)، نوري السعيد، علي جودت الايوبي، جميل المدفعي، ياسين الهاشمي، تحسين علي، مولود فحلص (من الضباط العراقيين).

في البداية، كان بعض الضباط الذين ساهموا بتأسيس هذه الجمعية اعضاء في جمعية الاتحاد والترقي، التي كانت تدعو لتحديث السلطنة العثمانية، ومن بينهم عزيز علي. ولكن بروز النزعة الطورانية لدى الاتحاديين أدى إلى نشوء ردة فعل معاكسة لدى الضباط العرب داخل الجيش العثماني.

حاول مؤسسو جمعية العهد الحفاظ على سريتها. لكن السلطات العثمانية اكتشفت امرها، فأقدمت على اعتقال عزيز علي وحكمت عليه بالاعدام. لكن خوف السلطات من ردود الفعل،

دفعت بها إلى الاكتفاء بطرده من الجيش وإبعاده.

أما أبرز المبادىء التي قامت عليها جمعية العهد فتتلخص بحصول الولايات العربية على الاستقلال الذاتي من ضمن السلطنة العثمانية مع الاعتراف ببقاء الخلافة في آل عثمان (عن جمعية العهد، «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج٤، ص ٢٥٩-٢٦٠).

إجراءات الاتحاديين: في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٤، اجتمع قادة جمعية الاتحاد والترقي من اجل وضع خطة لمواجهة النزعة القومية الآخذة بالنمو في البلاد العربية، وبصورة خاصة بين صفوف الضباط العرب في الجيش. واتخذوا خلال هذا الاجتماع عدة قرارات، بينها:

أولاً- إجراء حركة مناقلات واسعة بين صفوف الضباط العرب في الجيش. وقد تم اقصاء الضباط العرب الذين كانوا يعملون في الآستانة آنذاك وعددهم يصل إلى ٤٩٠ ضابطًا (كان من بينهم ٣١٥ عضوًا في جمعية العهد) وتوزيعهم في مختلف الولايات العثمانية. في حين تمّ ارسال الضباط العرب الموجودين داخل الدول العربية إلى المناطق المسماة «الروماللي» (الولايات العثمانية في البلقان) وإلىالأناضول (الولايات العثمانية في آسيا الصغرى).

ثانيًا- إبعاد الضباط العرب عن المراكز القيادية التي كان بعضهم يشغلها، وخصوصًا داخل البلدان العربية، وتسليم هذه المراكز إلى ضباط اعضاء في جمعية الاتحاد والترقي.

ثالثًا- إلغاء الاحزاب العربية كافة، ومقاومة الحركة الاصلاحية التي كانت قد ظهرت في سورية ولبنان والعراق، وإنشاء شعبة في وزارة الداخلية لمراقبة ومقاومة الحركة القومية العربية وقادتها.

رابعًا- العمل على تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي داخل البلاد العربية، ووضع خطة للاسراع بعملية تتريك العناصر غير التركية في الدولة.

خامسًا- تكليف جمال باشا (الملقب بالسفاح)، الذي كان وزيرًا للحربية واصبح قائدًا عامًا لبلاد الشام خلال الحرب العالمية الاولى، وضع برنامج عمل لتطبيق هذه المقررات والاشراف على عمليات التنفيذ مباشرة («موسوعة السياسة»، المرجع المذكور، ص ٢٥٩-٢٦٠).

في التاريخ المعاصر
(سايكس–بيكو)

الاطار العام لوضع الدولة العثمانية أو «المسألة الشرقية» قبيل الحرب: خلال السنة الاولى من الحكم الانقلابي للاتحاديين، أعلنت النمسا الحاق البوسنة والهرسك بامبراطوريتها رسميًا، كما اعلنت الدولة البلغارية انفصالها عن الدولة العثمانية نهائيًا. وجاء ذلك ضربة قاسية على الاتحاديين، وسبب هياجًا عميقًا في جميع انحاء الدولة العثمانية. ثم أقدمت ايطاليا، في ١٩١١، على تسديد ضربة أشد من ذلك ايضًا، باحتلالها طرابلس الغرب واستيلائها على مركز الولاية وبعض المدن الساحلية بسهولة، واحتلالها جزر الدوديكانيز، وشلّها جميع المواصلات البحرية بين اجزاء السلطنة. وعندما وصلت الحرب الايطالية إلى هذه المرحلة، شهرت الدول البلقانية الحرب على الدولة العثمانية، واستطاعت ان تستولي في مدة وجيزة جدًا على جميع الولايات العثمانية الاوروبية.

«إن هذه الاحداث التي توالت بسرعة كبيرة خلال أربع سنوات، كانت من أشدّ وأعقد الأزمات التي عرفتها المسألة الشرقية: إنها هدمت سياسة «إبقاء ما كان على ما كان» من اساسها، وانهت كثيرًا من المنازعات والمنافسات التي تراكمت منذ سنين طويلة، وحلّت معظم عقد المسألة الشرقية بسرعة قلّما عرف التاريخ لها مثيلاً

خريطة توزيع المنطقة العربية حسب اتفاقية سايكس–بيكو (الخريطة العامة–اتفاق ١٩١٦).

(ساطع الحصري، «يوم ميسلون»، دار الاتحاد، بيروت، ص ٤٧-٤٨).

سورية، هدف فرنسي: ذكر ساطع الحصري (في المرجع المذكور، ص ٤٨-٥٠) ما قاله بوانكاره، رئيس الوزارة ووزير الخارجية الفرنسي، في مجلسي النواب والشيوخ في ١٩١٢:

«نحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بلا هوادة. وعازمون على إدامة تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق (...) أما انكلترا، فعلاقتنا بها، لم تكن في يوم من الايام أكثر صفاء وأشدّ وثوقًا مما هي الآن (...) إن المسألة الشرقية التي ارتسمت امام الانظار منذ عصور عديدة كلغز مخيف والتي دخلت-على الرغم من جهودنا-في طور جديد، ستحل الآن في اتجاه اكثر تطابقًا مع الآراء الفرنسية (...) لست بحاجة إلى القول ان لنا مصالح تقليدية في سورية ولبنان بوجه خاص، واننا مصممون على حمل الجميع على احترام هذه المصالح. واني استطيع ان أضيف إلى ذلك، بكل ارتياح واغتباط ما يلي: لقد توهم البعض وجود اختلاف بيننا وبين انكلترا بهذا الشأن، من غير ان يكون لهذا الوهم أي مسوّغ كان. ان الحكومة البريطانية صرّحت لنا بكل صدق ووداد، بأنها لا تنوي القيام بأي عمل في تلك البقاع. وليس لها هناك أي مطمح سياسي أو غير سياسي بأي شكل من الاشكال. ونحن من جهتنا مصممون كل التصميم على ان نحافظ في آسيا على تمامية الدولة العثمانية ولكننا لن نتخلى عن اية عاطفة من العواطف التي كسبناها، ولن نترك اية واحدة من منافعنا ومصالحنا معرّضة لخطر من الاخطار».

وفسّر الحصري تصريحات بوانكاره هذه باعتبارها تدل دلالة قاطعة على ان فرنسا التي كانت مرتبطة بروسيا بمعاهدة اتفاق، وبانكلترا بمعاهدة ائتلاف، قد حصلت من هاتين الدولتين على وعد أكيد بعدم معارضة سياستها السورية واطلاق يدها في هذه الناحية من آسيا العربية. ثم اخذت فرنسا تضيّق الخناق على الدولة العثمانية لحملها على الاسراع في حلّ المسائل المعلقة حلا يُقوّي مركزها في سورية.

خلال الحرب العالمية الاولى: وحين نشبت هذه الحرب، استمرت فرنسا أكثر الدول الاوروبية جهرًا في مطاليبها في سورية ولبنان، وعزمًا على المحافظة على ذلك، وقد ربطته بمقتضيات شرف فرنسا ومستلزمات كرامتها. أما مطالب المانيا ونفوذها في البلاد العربية فقد تحدّد بممر السكة الحديدية التي نالت امتيازًا بتمديدها. واستقر نفوذ بريطانيا ومطامحها في جنوبي العراق. وأما روسيا فقد ظلت منطقة نفوذها ومطاليبها بعيدة عن البلاد العربية، وانحصرت في المضائق وفي الولايات الشرقية، واكتفت من البلاد العربية بجعل القدس والمقامات المقدسة اماكن حيادية تحت رقابة دولية.

وجاء دخول الدولة العثمانية الحرب بجانب المانيا والنمسا ضد روسيا وفرنسا وانكلترا ليهيء لهذه الدول فرصة لتحقيق اطماعها في البلاد العثمانية بوجه عام وفي البلاد العربية التابعة لها بوجه خاص. ولا سيما فرنسا، فإنها وجدت في ذلك فرصة ثمينة، لا لتحقيق اطماعها في سورية فحسب، بل لتوسيع تلك الاطماع نحو الشمال ايضًا. ذلك انها كانت في اتفاقياتها السابقة قد وافقت على تحديد منطقة نفوذها بحلب، تفاديًا من الاصطدام مع المانيا التي كانت قد حصلت على امتياز لمد السكة الحديدية إلى حلب فالموصل فبغداد. ولما كانت المانيا قد شهرت الحرب على الحلفاء، فلم تعد فرنسا ترضى بما كانت قد رضيت به قبلاً، ولهذا توسعت مطامعها بغتة إلى ما وراء هذا الخط، فشملت جميع نواحي كيليكيا، وامتدت منها إلى شمالي العراق من جهة، وقلب الاناضول من جهة أخرى. ولم تعارض انكلترا مطالب فرنسا هذه من حيث الأساس، ولكنها رأت ان هذا

التوسيع الفرنسي يخوّلها حقًا في المطالبة بتوسيع منطقتها من حدود سيناء على طول سواحل فلسطين، حتى حيفا على اقل تقدير. كما انها قالت بوجوب استرضاء العرب بمعاملتهم في سورية الداخلية معاملة تختلف عنها في سورية الساحلية. ولهذا بدأت مفاوضات سياسية بين الدول المؤتلفة، اعتبارًا من اواسط ١٩١٥، وانتهت بمعاهدتين سريتين عُقدت الاولى منهما بين روسيا وفرنسا وبريطانيا في آذار ١٩١٦، والثانية بين فرنسا وانكلترا اتمامًا للاولى وتنفيذًا لأحكامها في ايار ١٩١٦، وهي المعروفة باتفاقية سايكس-بيكو.

كانت هذه سياسة فرنسا وانكلترا-التي داخلتها بعض الاتفاقيات بينهما-إزاء سورية خلال السنة الاولى من الحرب العالمية الاولى. وقبل الانتقال إلى بعض التفصيل في بعض النقاط المهمة سواء على مستوى السياسة الدولية المتصلة بسورية، أو على مستوى الاوضاع الداخلية السورية، لا بد من إيجاز سريع لمسار احداث «سورية خلال الحرب العالمية الاولى»:

«لما بدأت هذه الحرب في ١٩١٤ وخاضت الدولة العثمانية غمارها بجانب المانيا، قام القائد العام العسكري في سورية، الفريق الاول جمال باشا، بحكم ارهابي اقترن بنفي عدد كبير من السوريين واللبنانيين، ممن عرفوا بقربهم إلى فرنسا أو بريطانيا أملاً بمساعدتهما على نيل الاستقلال، إلى الاناضول وباعدام نخبة ممتازة من الرجال العاملين لاجل هذا الاستقلال في كل من دمشق وبيروت في ١٩١٥ و١٩١٦، مما زاد في نقمة العرب على الحكم العثماني التركي. حينئذ أعلن الشريف حسين، امير مكة، في ١٩١٦، الجهاد المقدس على الترك بعد سابق اتفاقه مع مندوبي السير مكماهون Mac Mahon السفير البريطاني في القاهرة، حول استقلال الاقطار العربية عن الدولة العثمانية. واقبل المجاهدون العرب، من سورية وغيرها، على دخول الحرب تحت راية الحسين، واحرزوا، بزعامة أبنائه، انتصارًا على القوات العثمانية حتى اقتربوا من دمشق، بينما كان الجيش البريطاني، بعد احتلاله القدس وكل فلسطين، يتقدم نحو بيروت ودمشق، فأصيب الجيش العثماني بشرّ هزيمة متراجعًا شمالاً وبغير انتظام، وأعلن قائده الأعلى في دمشق (٢٧ ايلول ١٩١٨)، امام المجلس البلدي جلاء الدولة العثمانية جيشًا وحكومة، وقد تمّ هذا الجلاء عن كامل سورية إلى حلب فالاناضول في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨» (يوسف الحكيم، «سورية والانتداب الفرنسي»، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ٦).

ميثاق دمشق: وصل الامير فيصل دمشق في ٢٦ آذار ١٩١٥، ومكث عند آل البكري اربعةاسابيع قبل ان يتوجه إلى القسطنطينية (الآستانة) في مهمة سياسية انتدبه لها والده الشريف حسين: «ان يعرض على السلطان وعلى الصدر الأعظم الاتهام الذي يوجهه والده إلىالوالي العثماني وهيب بك (الذي يتهمه الشريف حسين بتدبير محاولة اغتياله بعد وقوف الشريف على دلائل حسية على ذلك). اما السبب الحقيقي فهو الاتصال بالزعماء العرب في دمشق ومعرفة موقفهم من عروض انكلترا، ومدى تحمسهم لها واستعدادهم لتنفيذها» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٢٣٤).

اكتشف فيصل الأسس المشتركة بينه وبين اعضاء جمعية «العربية الفتاة» وجمعية «العهد»، واصبح عضوًا فيهما. وقد ركّز اعضاء الجمعيتين انهم لن يكونوا في وارد امتشاق السلاح ضد الدولة العثمانية ما لم يحصلوا على ضمانات قوية تؤمن استقلال العرب، خشية ان تكون ثورتهم سببًا في استبدال سيادة بأخرى.

ولما عاد فيصل من الآستانة إلى دمشق، وجد ان رفاقه في «الفتاة» و«العهد» قد اتفقوا

على ميثاق طلبوا ان يكون اساسًا لمفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا. وبالفعل، استخدم الشريف حسين نصوصه حينما استأنف مباحثاته مع الانكليز في تموز ١٩١٥. واما نص ميثاق دمشق فهو (ج. انطونيوس، المرجع المذكور، ص ٢٤٣، ويقول انطونيوس انه استعار أصل الميثاق من الملك فيصل نفسه):

«اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية:

شمالاً– خط مرسين–أضنه إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً، ثم على امتداد خط بيرجيك–أورفه–ماردين–مديات–جزيرة ابن عمرو–العمادية إلى حدود ايران.

شرقًا– على امتداد حدود ايران إلى خليج العرب جنوبًا.

جنوبًا– المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو).

غربًا– على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الابيض المتوسط إلى مرسين.

إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للاجانب بمقتضى الامتيازات الاجنبية.

عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة.

تقديم بريطانيا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية».

مراسلات حسين–مكماهون: (هذا العنوان الفرعي «مراسلات حسين–مكماهون»، والعنوان الفرعي الذي يليه «اتفاقية سايكس–بيكو» من اكثر موضوعات بداية التاريخ المعاصر لسورية والبلدان العربية بحثًا وتأليفًا، وقد رأيتُ إيجازها كما وردت في «موسوعة السياسة»– مرجع مذكور سابقًا–ج٢، ص ٥٤٥–٥٤٦، وج٣، ص ١٢٠–١٢٣. خاصة وانني عملتُ محررًا رئيسيًا في الموسوعة المذكورة):

تمت هذه المراسلات في إطار ما كانت تجرّبه الاستخبارات البريطانية في مكتبي مصر والهند حول إمكان قيام ثورة عربية على الاتراك العثمانيين.

جرت المرحلة التمهيدية لهذه المراسلات بواسطة عبد الله، النجل الثاني للشريف حسين، الذي حاول معرفة موقف الحكومة البريطانية في حال اضطرار الشريف حسين إلى الدفاع عن الحجاز وحمايته من تعديات الاتراك، وهو (عبد الله) يمر بالقاهرة في طريقه إلى استنبول. إذ كان يلتقي اللورد كيتشنر، المعتمد البريطاني ورونالد ستورز السكرتير الشرقي في دار الاعتماد حيث كان يحل ضيفًا في عابدين على الخديوي عباس حلمي. وتعددت لقاءاته بستورز في غرفة خلفية ملحقة بمكتب فارس نمر باشا صاحب جريدة المقطم. ولما وُلي اللورد كيتشنر وزارة الحربية طلب من ستورز اختبار نوايا الشريف حسين بواسطة عبدالله. واستجاب اللورد في هذه الاتصالات لمطلب عبد الله من السلاح وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للحجاز وبالخلافة في مكة، بقوله: «إذا ساعدت الامة العربية انكلترا في هذه الحرب التي فرضتها تركيا علينا فرضًا فإن انكلترا ستضمن عدم وقوع تدخل في الشؤون الداخلية لجزيرة العرب وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان خارجي...».

أما المرحلة الثانية فقد بدأها وينغيت بواسطة علي الميرغني (السودان) الذي اقترح، بعد اتصالاته، بمذكرة من الخرطوم مؤرخة في ٦ ايار ١٩١٥، ما يلي: أ– إعادة الخلافة الاسلامية بعد سقوط تركيا؛ ب– جعل الخلافة الجديدة في الجزيرة العربية لأهميتها الدينية والتاريخية والسياسية للمسلمين؛ ج– افضل رجل لتوليها هو الشريف الحالي لانتسابه إلى آل البيت. ثم أكمل هذه الاتصالات السير هنري مكماهون، المعتمد البريطاني الجديد في مصر. ونجم عنها ما عرف في

الشريف حسين.

ما بعد بمراسلات حسين-مكماهون. وقد بدأت في ١٤ تموز ١٩١٤ واستمرت إلى ١٠ آذار ١٩١٦ وأسفرت عن عشر رسائل خمس منها كتبها الحسين وخمس كتبها مكماهون. إلا انه ما عرضته الحكومة البريطانية على الوفود العربية المجتمعة لبحث القضية الفلسطينية في لندن (١٩٣٩) كان نسخًا فوتوغرافية لسبع رسائل عربية وهي نسخ مرقمة عن الرسائل ٢ و٤ و٥ و٦ و٧ و٩ و١٠ أما رقم ١ و٣ وهما رسالتان من الشريف حسين فلم يكن لهما وجود في محفوظات وزارة الخارجية. وحتى الآن لم ينشر النص الاصلي للرسائل الخمس الصادرة عن دار الاعتماد البريطاني في القاهرة إلى الشريف وما نشر هو ترجمة عربية لها أعدت في حينه لإرسالها إلى الشريف. وأما رسائل الشريف فطبيعي انها بالعربية ولكن ليس عليها أي توقيع. ويذكر محمد بيهم ان الشريف اطلعه على كل الرسائل المتبادلة بينه وبين مكماهون وهو في منفاه في قبرص، وكانت محفوظة في اكياس قطنية بيضاء وانه رفض ما عرضه عليه لترتيبها في ملفات قائلاً: أتركها على بركات الله.

طالب الشريف حسين ان تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية (وفق الحدود المبينة في «ميثاق دمشق» أعلاه)، وعلى ان توافق انكلترا على اعلان خلافة عربية. وقد اعتبر الحسين قضية الحدود نقطة جوهرية (الرسالة المؤرخة في ١٤ تموز ١٩١٥)، وأبدى مكماهون استعداد بريطانيا للاعتراف باستقلال العرب وتحفظ في موافقته على الحدود التي تشعر بريطانيا انها ليست حرة التصرف فيها «دون ان تمس مصالح حليفتها فرنسا» وفيها مناطق «لا يمكن ان يقال انها عربية محضة». واجاب الشريف (٥ تشرين الثاني ١٩١٥) بالموافقة على ترك الالحاح في ادخال ولايتي مرسين وأضنه في المملكة العربية. وأصرّ على ان ولايتي حلب وبيروت وساحلهما عربية محضة. وعلى تمسك مكماهون بمراعاة مصالح الحليفة فرنسا أجاب الشريف (اول كانون الثاني ١٩١٦) انه يتجنب ما من شأنه التأثير على التحالف القائم بين فرنسا وبريطانيا ولكن «سنطالبكم بعد الحرب بما نغض الطرف عنه اليوم».

وما يمكن إضافته على ما جاء في «موسوعة السياسة» ان هذه المراسلات انتهت بمذكرة مكماهون الرابعة في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٦. أما ما تلاها من مذكرات بين الرجلين فكانت تدور حول الاعداد للثورة. ومن الممكن تلخيص شروط الاتفاق، بينهما، انها «التزامات تعهد بها الطرفان في الاعمال الحربية لم ينص عليها بصراحة إذ إنه تمّ بحثها شفهيًا مع رسول الشريف. ولكن كان من المفهوم طوال الوقت ان على الشريف ان

يستخدم جميع قوته ونفوذه مع حشد جميع الموارد لينجز مهمة دحر تركيا، وان على بريطانيا ان تساعده باكمال النقص في السلاح والعتاد والمال. أما من الناحية السياسية فقد تعهد الشريف باعلان الثورة العربية وبالتنديد بالاتراك علنًا ووصفهم بانهم اعداء الاسلام، كما تعهدت بريطانيا صراحة بتعهدين واضحين: الاول الاعتراف بالخلافة العربية في حالة قيامها، والثاني الاعتراف باستقلال العرب ضمن منطقة معينة وحماية هذا الاستقلال. أما مدى الرقعة العربية التي تدخل ضمن تلك المنطقة فقد أصبح موضع جدل خلال السنوات التي اعقبت الحرب...» (ج. أنطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٢٦٦-٢٦٧).

اللورد بلفور.

اتفاقية سايكس-بيكو: تفاهم سري بين بريطانيا وفرنسا متمم لاتفاق بينهما وبين روسيا لتقسيم السلطنة العثمانية والاستيلاء على المشرق العربي-سورية الطبيعية-في اعقاب دخول الاتراك الحرب إلى جانب المانيا. وقد توصلت فرنسا وبريطانيا إلى الاتفاق النهائي بشأن التفاهم السري بعد ان عينت الحكومة الفرنسية المسيو جورج بيكو قنصلها العام في بيروت (في السنة التي سبقت الحرب) في ٩ تشرين الثاني ١٩١٥ مندوبًا ساميًا مكلفًا بمفاوضة الحكومة البريطانية بشأن مستقبل الولايات العربية في السلطنة العثمانية مع مندوب الحكومة البريطانية السير مارك سايكس عضو مجلس العموم البريطاني والمهتم بالشؤون العربية والمندوب السامي البريطاني لشؤون الشرق الادنى. وفي خلال الأشهر الخمسة الاولى من ١٩١٦، تم تبادل إحدى عشرة رسالة تحددت بموجبها بنود الاتفاقية والتي سميت باسم المتفاوضين والتي جرى توقيعها سرًا في القاهرة في ١٦ ايار ١٩١٦. وكان سايكس وبيكو قد زارا روسيا القيصرية في آذار ١٩١٦ حيث قدما لسيرجي زازنوف وزير الخارجية الروسي مسودة الاتفاق

الذي وافق عليه مقابل موافقة فرنسا وبريطانيا على استيلاء روسيا على بتريزوند وأرضروم وبحيرة فان وبتليس في آسيا الصغرى وعلى الاستيلاء على البحر الاسود، بعد انتهاء الحرب كأسلاب مقابل الاسلاب البريطانية والفرنسية.

أما الخطوط العامة لاتفاقية سايكس-بيكو فقد تضمنت (إلى جانب الاعتراف باستقلال شبه الجزيرة العربية) تقسيم العراق وسورية باستثناء فلسطين إلى اربع مناطق أشير لمنطقتين منهما بالاحرف ألف وباء، وللمنطقتين الباقيتين باللونين الازرق والاحمر على الشكل التالي:

١- منطقة ألف: سورية الداخلية، وتشمل مدن دمشق وحمص وحماه وحلب في الغرب والامتداد غربًا لتشمل منطقة الموصل شرقًا.

٢- منطقة باء: المنطقة الواقعة إلى الجنوب من منطقة ألف وحدودها غربًا خط يسير تقريبًا من غزة إلى العقبة ويصل عبر شرق الاردن شرقًا، حتى المنطقة الحمراء وبامتداد شمالي يصل حتى بلاد فارس وامتداد جنوبي يصل حتى الخليج العربي.

٣- المنطقة الزرقاء: تشمل كيليكيا في آسيا الصغرى وسورية الساحلية غربي منطقة ألف على ان تكون مدن دمشق وحمص وحماه وحلب خارج حدود هذه المنطقة.

٤- المنطقة الحمراء: وتشمل المساحات الممتدة من بغداد إلى البصرة.

أما فلسطين غربي الاردن وجنوبي الجليل فقد شكلت منطقة بنية (سمراء) مع استثناء النقب ومنطقة حيفا-عكا لالحاقها بالمنطقة الخاضعة لبريطانيا.

في المنطقتين ألف وباء اتفقت بريطانيا وفرنسا على ابداء الاستعداد للاعتراف بدول عربية شبه مستقلة أو باتحاد كونفدرالي عربي بين هذه الولايات تحت رئاسة زعيم عربي، وعلى اساس ان تحتفظ فرنسا بمنطقة ألف وبريطانيا بمنطقة باء بتسمية المستشارين الاجانب وبالحصول على امتيازات اقتصادية، بينما تحتفظ فرنسا في المنطقة الزرقاء، وبريطانيا في المنطقة الحمراء بالحق في ممارسة السيطرة السياسية وفق رغبة كل منهما بعد التوصل إلى اتفاق مع الدولة العربية الكونفدرالية.

أما في المنطقة البنية، فلسطين، فقد قضت الاتفاقية بوضعها تحت إشراف دولي، بغية تأمين المصالح الدينية للدول الحليفة، تفصل فلسطين الشاملة للأماكن المقدسة من الاراضي التركية، وتخضع لنظام خاص يتم تحديده بموجب اتفاق بين روسيا وفرنسا وبريطانيا. ونصت فقرة اخرى على اقامة ادارة دولية بعد التشاور مع روسيا وغيرها من الحلفاء ومع ممثلين عن شريف مكة.

وادخلت الاتفاقية الاسكندرونة في منطقة فرنسا على ان يكون ميناؤها حرًا لتجارة بريطانيا؛ وادخلت حيفا في منطقة انكلترا على ان يكون ميناؤها حرًا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد العربية الواقعة تحت حمايتها.

وتعهد كل من الطرفين المتعاقدين (فرنسا وانكلترا) ان لا يتنازل عما له من الحقوق في المنطقة المخصصة له، وان لا يُعطي تلك الحقوق لدولة اخرى، سوى للدولة العربية أو لحلف الدول العربية، من دون أخذ موافقة الطرف الآخر. كما تعهد كل من الطرفين المتعاقدين ان لا يمتلك-ولا يسمح لدولة ثالثة بأن تمتلك-اقطارًا في شبه جزيرة العرب.

وقد بقيت اتفاقية سايكس-بيكو سرًا إلى ان تسلم البلشفيك سدة الحكم في روسيا في تشرين الثاني ١٩١٧، فسارعوا إلى اعلانها ومعارضتها. وكان ذلك بمثابة احراج كبير للبريطانيين وموضع مراسلات خاصة بين الشريف حسين والحكومة البريطانية وموضع احتجاجات الحركة العربية في المشرق العربي. كذلك فقد رأت الحركة الصهيونية في هذه الاتفاقية ما يستوجب العمل لدفع الاحداث باتجاه الحكم البريطاني المباشر على فلسطين، بعد ان حصلت هذه الحركة على وعد بلفور (راجع هذه الموسوعة، ج١، ص ٣٥٦) الذي التزمت بموجبه بريطانيا العمل على فرض المشروع الصهيوني في فلسطين.

العهد الفيصلي

الثـورة العربيـة الكـبرى (١٩١٦–١٩١٨): «لقد اتفق، من قبيل المصادفة، ان نشبت الثورة العربية في اليوم نفسه الذي توفي فيه كيتشنر، وذلك يوم الاثنين ٥ حزيران ١٩١٦، وبدأت في نطاق اضيق جدًا مما رسم الشريف في البداية. فقد كانت خطته الاولى ان يثير الاضطرابات في وقت واحد في بلاد الشام والحجاز معًا، وان يحدث ذلك في آن واحد مع نزول جيوش الحلفاء إلى البر في موقع ما قرب الاسكندرونة، وبذلك يحصر الاتراك بين نارين، ويشل حركة قواتهم بين حلب ومكة، ثم ينشر الثورة شرقًا ويسدّد إليهم الضربات في العراق. غير انه اضطر إلى التخلي عن هذه الخطة بسبب رفض الحلفاء لها، واكتفى باعلان الثورة في الحجاز تمهيدًا للهجوم على المواقع التركية في بلاد الشام» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٢٧٦).

وإضافة إلى رفض الحلفاء، يعطي ساطع الحصري («يوم ميسلون»، ص ٨٧–٨٨) اسبابًا اخرى لبدء الثورة في الحجاز، منها بعد الحجاز عن مراكز احتشاد الجيوش، وقرب مكة من ميناء جدة الذي يضمن الاتصال بالحلفاء، واعتياد العشائر المسلحة على القتال، ومكانة إمارة مكة والشريف حسين. ويضيف الحصري (ص ٨٨–٨٩):

«ومع هذا فإن الثورة سارت نحو هدفها الاصلي، وخرجت جيوشها عن حدود الحجاز المعلومة، وصارت تتقدم نحو الشمال مرحلة فمرحلة، إلى ان تمكنت من دخول دمشق، ومن التقدم إلى ما وراء دمشق، لتعقب الجيوش التركية حتى حلب وما وراء حلب... إن وصول جيوش الثورة إلى دمشق قد قوبل في جميع أنحاء سورية بحماسة كبيرة، وصارت المدن السورية ترفع الاعلام العربية، وتعلن التحاقها بالثورة وانصياعها لاوامر القيادة العربية، حتى ان تصل إليها كتيبة من كتائب الجيش العربي الذي كان يسير تحت لواء فيصل العظيم. حتى المدن اللبنانية نفسها قد اشتركت في هذه الحركة، ورفعت الرايات العربية على الدوائر الحكومية والدور الخصوصية؛ والقيادة المذكورة لم تحتج إلى شيء غير ايفاد ضابط أو ضابطين مع نفر من الجنود إلى المدن المهمة بغية تنظيم الحركة فيها».

كان جمال باشا، قبيل اعلان الثورة (وأثناءها) يصب جام غضبه على الضباط العرب، بعد اخفاق حملته على قناة السويس، واتبع سياسة البطش والارهاب، فصادر المؤن والغلال، فانتشرت بذلك المجاعة وتفشت الامراض، ثم حاكم احرار العرب وقادتهم، ونصب المشانق لهم في عاليه، مما دفع قادة العرب في المشرق بالضغط على الشريف للتعجيل في اعلان الثورة (أعلنها الشريف في ١٠ حزيران ١٩١٦).

في ٢ تموز (١٩١٦)، اصدرت الحكومة التركية قرارًا بعزل الشريف حسين، وعينت أحد اقاربه علي حيدر خلفًا له. فبادر زعماء العرب ومشايخ القبائل في الحجاز إلى مبايعة الشريف حسين ملكًا على الدول العربية (نهاية تشرين الاول ١٩١٦).

عن المسار العسكري للثورة، فإن معاركها بدأت في جدة (١٣ حزيران، أي بعد ثلاثة ايام من اعلان الثورة)، وانهزمت الحامية التركية وسقطت مكة في ٩ تموز. وبعد نحو شهرين، حرّر الثوار ثغري «الليث» و«أومليح» على البحر الاحمر بين الحجاز واليمن، وفي ٢٣ ايلول، استسلمت الطائف. وفي تموز ١٩١٧، سقط ميناء العقبة. وعندما احتل البريطانيون بغداد، احتج الحسين وكان الرد البريطاني بأن ذلك تدبير عسكري مؤقت، ولا أهمية له من الوجهة السياسية. وإبان ١٩١٦–١٩١٧، انضم إلى جيش الشريف عدد من الضباط في سورية وفلسطين الذين كانوا في

الجيش العثماني، وتطوع عدد كبير من عرب المشرق، فوصل جيش الثورة إلى نحو ٧٠ ألف مقاتل. وانطلق هذا الجيش، في ١٩١٧-١٩١٨، ليساعد جيوش أللنبي لتحرير فلسطين، فاحتلت القوات العربية طولكرم (١٩ ايلول ١٩١٨)، وكان اول من دخل دمشق ورفع العلم العربي عليها في تشرين الاول (١٩١٨)، واصبح الامير فيصل المتحدث الرسمي باسم القضية العربية. وبعد ذلك قام جيش الشريف بتحرير بيروت وطرابلس وصيدا وصور وحمص وحلب وحماه. وفي الشهر نفسه، ألف شكري الايوبي الحكومة العربية الاولى في بيروت، ورفع العلم على سرايا بيروت. وهكذا تمكنت الثورة العربية من طرد القوات التركية من الحجاز، ومن مناطق في شرقي الاردن، وساعدت الجيوش البريطانية بقيادة أللنبي عسكريًا وسياسيًا في المشرق العربي، ورفعت العلم العربي على دمشق وبيروت، فاقترب العرب من إقامة الدولة العربية الموحدة في الجزيرة والمشرق.

أول ضربة تلقتها الثورة: حينما أخذت جيوش الثورة العربية تنتشر في المدن السورية بعد دمشق كانت قد انهارت الجبهة البلقانية باستسلام البلغار، وادرك الالمان عجزهم عن معالجة الوضع وقطعوا أملهم من النصر، واخذوا يبحثون عن الوسائل التي توصلهم إلىالهدنة والسلام؛ كما أنهم أعلموا الاتراك بحقيقة الامر وأبلغوهم ضرورة إنهاء الحرب بأي شكل كان.

وعلمت فرنسا بمساعي الالمان لعقد الهدنة، وشعرت بزوال الخطر عن بلادها، فأسرعت إلى اظهار أطماعها بشدة، واحتجت لدى الانكليز على تغلغل جيوش الثورة العربية في البلاد السورية، وطالبت باحتلال حصتها من الاراضي المذكورة. وقد نزلت القيادة العليا البريطانية في مصر عند رغبة فرنسا هذه، وأمرت الامير فيصل، قائد الجيوش الشمالية، بترك السواحل إلى الجيوش الفرنسية.

فكانت هذه أولى الضربات الأليمة التي منيت بها الثورة العربية بوجه عام، والقضية السورية بوجه خاص. فكان ترك السواحل للجيوش الفرنسية يعني الشروع في تطبيق اتفاقية سايكس-بيكو. ولذلك هاج الرأي العام هياجًا شديدًا، غير ان الانكليز حاولوا تسكين الاعصاب بقولهم: إن هذه تدابير عسكرية محضة، لا تؤثر في مصير البلاد ولا تعني تقسيم سورية سياسيًا، لأن تقرير مصير البلاد من خصائص مؤتمر السلام الذي سيلتئم بعد انتهاء الحرب.

وقد نُفذت اوامر القيادة العليا في هذا الشأن، ونزلت الجيوش الفرنسية أولاً في بيروت في ٨ تشرين الاول ١٩١٨، ثم نزلت شيئًا فشيًا في سائر الموانىء من صور إلى الاسكندرونة. وانزلت الاعلام العربية من المدن الساحلية، على ان لا يرفع محلها علم آخر.

فيصل في دمشق والحلفاء يقسمون سورية:

قبل خمسة ايام فقط من نزول الجيش الفرنسي في بيروت، تمّ دخول فيصل (وقواته المتقدمة صوب دمشق من «أبي اللسل» والتي كانت تشكل ميمنة جيش الحلفاء بقيادة اللنبي) دمشق وسط مظاهر عامرة بالروح الوطنية. وكان اول ما قام به الامير فيصل إصداره قرارًا بتعيين رضا الركابي حاكمًا عسكريًا لسورية، وقيامه بزيارتين متتاليتين إلى حماه وحلب التي ألقى فيها أول خطاب سياسي في النادي العربي (١١ تشرين الثاني ١٩١٨).

تولى الامير فيصل، بصفته قائد الجيوش العربية الشمالية، عمليًا وعلى الارض إدارة المنطقة الشرقية ادارة عسكرية. وكانت هذه المنطقة تتألف آنذاك من بلاد سورية الحالية، باستثناء محافظة اللاذقية، مضافًا إليها شرقي الاردن واقضية حاصبيا وراشيا البقاع. وأما المنطقة الغربية فكانت تشمل المتصرفيات الساحلية حتى الناقورة. وأما المنطقة

الجنوبية فكانت تنحصر في فلسطين وحدها. وذلك بموجب التقسيم الذي أعلنه أللنبي Allenby، وأردفه بتعيينات حكام عسكريين لهذه المناطق، فكان الفريق رضا باشا الركابي، العربي الدمشقي، على المنطقة الشرقية، والكولونيل الفرنسي دي بييباب De Piépap على المنطقة الغربية، بينما كانت المنطقة الجنوبية (فلسطين) تحت احتلال القوات البريطانية.

وفور دخوله دمشق (في ٤ تشرين الاول ١٩١٨)، أعلن الامير فيصل، باسم والده الحسين ملك الحجاز، استقلال سورية العربية، وثبّت حكومة الفريق الركابي، المؤلفة من مديرين سوريين ولبنانيين، يساعدهم موظفون أكفاء من جميع الاقطار العربية، بالاضافة إلى قادة عسكريين عراقيين.

هكذا، جاء التقسيم متفقًا مع ما كانت بريطانيا وفرنسا قد اتفقت عليه في إتفاقية سايكس-بيكو، ومتفقًا كذلك مع فكرة احداث وطن قومي يهودي في فلسطين اتمامًا لوعد بلفور بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، لجهة إبقاء فلسطين تحت احتلال القوات البريطانية المباشر في خطوة اولى باتجاه إنفاذ الوعد. وقد تأيد هذا التقسيم في ما بعد باتفاق الحليفتين (بريطانيا وفرنسا) في مجلس الحلفاء الاعلى المنعقد في سان ريمو San Remo في ٢٤ نيسان ١٩٢٠.

فيصل في مؤتمر الصلح: وصل فيصل إلى باريس في كانون الثاني ١٩١٩ رئيسًا للوفد فواجه هنالك ثلاثة مؤثرات كبرى تقاوم انجاز الآمال العربية التي غذتها الوعود البريطانية طيلة سنوات الحرب ومشاركة العرب فيها كثوار إلى جانب الحلفاء. أحدها مصلحة بريطانيا الاستعمارية في العراق وفلسطين، وثانيها المصلحة الاستعمارية لفرنسا في سورية، وثالثها المصلحة الصهيونية بفلسطين. وكان الخلاف الذي انبعث في المؤتمر يدور حول كيفية التصرف بالاقطار العربية الشمالية (سورية، العراق، فلسطين)، إذ بقيت جزيرة العرب نفسها خارج النزاع وإن كانت بريطانيا تهتم بأن تحتفظ بمحمياتها ومجالات نفوذها، وايطاليا تحاول الحصول على قاعدة لها في الشاطىء الشرقي من البحر الاحمر.

الجنرال اللنبي.

وجد فيصل الحكومة الفرنسية مصممة على ان لا تعترف به ممثلاً في مؤتمر الصلح، مدعية ان الدول لم تعترف رسميًا بالحجاز واحدًا من الدول المتحالفة في الحرب. وتدخلت وزارة الخارجية البريطانية في الامر فتراجعت الحكومة الفرنسية عن موقفها. وواجه فيصل، حتى عودته إلى سورية في نهاية نيسان ١٩١٩، مقاومة عنيدة من الحكومة الفرنسية للقضية التي أتى ليدافع عنها في باريس. وتمسك كليمنصو (رئيس الحكومة الفرنسية) باعتبار اتفاقية سايكس-بيكو ملزمة ونهائية. في حين اعتبر لويد جورج (بريطانيا) انه يجب إلغاؤها أو تعديلها بعد خروج روسيا منها. وتوصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بأن تتنازل فرنسا عن فلسطين والموصل لبريطانيا مقابل حصة لها من نفط الموصل. أما العداء الذي بدا من فرنسا إزاء مطالب فيصل والأماني العربية، فلم يكن، بحسب رأي بعض المؤرخين ومنهم جورج انطونيوس،

الملك فيصل.

بسبب تمسكها بمصالحها في سورية فحسب، بل ايضًا بسبب ان «فرنسا لم تكن ترتاح ليقظة العرب لا لأنها ترغب فحسب في ان تزاول سلطتها دون عائق في المجالات التي خصصت لها في سورية، بل لانها كانت تخشى ان تجد اليقظة الناجحة في العالم العربي بالمشرق صدى لها يوقظ سكان امبراطوريتها في افريقيا الشمالية» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، هامش ص ٣٩٢).

وفي موازاة ضغط المسؤولين البريطانيين على فيصل ليقبل بما توصلوا إليه من اتفاق مع الفرنسيين بشأن سورية، ضغطوا عليه ايضًا لمقابلة حاييم وايزمن الذي كان يؤكد «ان الصهيونيين لا ينتوون ان يعملوا على إنشاء حكومة يهودية في فلسطين»، وان كل ما يرغبون به من خلال استيطانهم هو «ان يساعدوا في تطوير البلاد». والتقى الرجلان (كانون الثاني ١٩١٩) ووافق فيصل على ان يوقع مع وايزمن اتفاقية، «وجعل موافقته مشروطة بانجاز بريطانيا العظمى لعهودها التي قطعتها في امر استقلال العرب. وكتب الشرط بخط يده على نص الاتفاقية التي وقعها، ووضعه في صيغة شاملة قاطعة حين يُبقي الموضوع الرئيسي سليمًا مصونًا. وبما ان الشرط الذي ذيّل به على الاتفاقية لم ينجز فإن الاتفاقية لم تكتسب طابع الابرام الشرعي ولا قيمة لها إلا في انها شهادة على المدى الذي كان فيصل مستعدًا ان يقطعه في مسألة التعاون بين العرب واليهود، ما دام ذلك لا يتضارب واستقلال العرب» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٣٩٦).

لجنة كينغ-كراين: ثمة عمليتان على قدر كبير من «الديمقراطية» و«الشعبية» سارتا متوازيتين في الزمن تقريبًا وأعقبتا زيارة فيصل باريس ومشاركته في مؤتمر السلام. الأولى، دولية دفعت إليها وسارت بها (منفردة) الولايات المتحدة على هدي مبادىء رئيسها ويلسون عبر لجنة كينغ-كراين لاستفتاء أهالي سورية في تقرير مصيرهم. والثانية، داخلية، وهي الانتخابات التي جرت في سورية، والتي نظمها قادة سوريون وعرب، وأسفرت عن انبثاق «المؤتمر السوري العام».

أقر الحلفاء في مؤتمر الصلح (باريس، كانون الثاني ١٩١٩)، وبناء على اقتراح فيصل الذي استند إلى مبادىء ويلسون المعروفة، تعيين لجنة دولية لدرس قضية الولايات العربية والوقوف على رغبات سكانها. وتخلف الفرنسيون (وعارضوا بشدة) والبريطانيون عن الاشتراك في اللجنة خوفًا من تغلغل الولايات المتحدة إلى منطقة كان يطمحون باحتلالها. فما كان من الاميركيين إلا ان قرروا إرسال وفدهم لاجراء التحقيقات اللازمة على مسؤولياتهم الخاصة. وقد عرف هذا الوفد بـ«لجنة كينغ-كراين»، نسبة إلى المندوبين د. هنري كينغ والمستر تشارلس كراين، اللذين اصطحبا معهما ثلاثة مستشارين (ألبرت ليبير،

جورج مونتغمري، وليم بيل، وعضو آخر امينًا للصندوق هو الكابتن دونالد برودي).

انتهت اللجنة من اعداد تقريرها في ٢٨ آب ١٩١٩، بعد ان كانت بدأت عملها انطلاقًا من يافا (في ١٠ حزيران ١٩١٩) وقضت ستة اسابيع في فلسطين وسورية، وقامت بتحقيق واسع، وقابلت عددًا كبيرًا من الوفود في ما يقارب اربعين مدينة وقضاء، وتلقت ما يزيد على ١٨٠٠ عريضة. وفي ما يلي أهم ما جاء في التقرير الذي يعتبره المؤرخون كأحدى أهم الوثائق في التاريخ المعاصر:

– وحدة سورية باقاليمها الثلاثة: فلسطين ولبنان وسورية مع اعطاء لبنان نوعًا من الحكم الذاتي في اطار الوحدة مع سورية.

– سورية لا ترحب بالانتداب، ولكنها ترحب بالمساعدة الاجنبية.

– إذا كان لا بد من انتداب على سورية فليكن لأميركا، ولبريطانيا على العراق، ورفض للانتداب الفرنسي.

– اليهود فقط يؤيدون الصهيونية، ولا يشكلون أكثر من ١٠٪ من سكان فلسطين، وانهم يتفقون على جعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود وإن اختلفوا على بعض التفاصيل والوسائل المتعلقة بزمن اقامة الدولة اليهودية ومدى ارتباطها بالدين اليهودي. كما انهم (اليهود) متفقون على ان تكون بريطانيا هي الوصية على فلسطين لأنها ستساعدهم في تحقيق مآربهم بتسهيل الهجرة وإباحة شراء الاراضي. واعترف التقرير بوجود إجماع صهيوني على إجلاء سكان فلسطين عن اراضيهم بعد تجريدهم منها ولو عن طريق الشراء وحذر المؤتمرين (في مؤتمر الصلح) من تجاهل شعور الفلسطينيين والعرب، ورفع التوصيات التالية:

«١– وجوب تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين والعدول نهائيًا عن الخطة الرامية إلى تهويدها.

الرئيس الاميركي ويلسون.

٢– ضم فلسطين إلى دولة سورية المتحدة.

٣– وضع الاماكن المقدسة في فلسطين تحت إدارة لجنة دولية دينية تشرف عليها الدولة المنتدبة وعصبة الامم المتحدة ويمثل اليهود فيها عضو واحد.

قابل الفرنسيون والبريطانيون والصهيونيون هذا التقرير بمعارضة شديدة كما ان الرئيس ويلسون نفسه لم يكترث به ولم يعمل بتوصياته لا بل انه لم يأذن بنشره إلا في كانون الاول ١٩٢٢ بعد ان كانت الدولتان الكبريان آنذاك (فرنسا وبريطانيا) قد فرضتا انتدابهما على المنطقة العربية» (موسوعة السياسة»، ج٥، ص ٣٤٢).

المؤتمر السوري العام: تسرّب إلى الناس ما لاقاه فيصل في باريس من خيبات رغم تكتمه عليها حينًا، وما كان يعلنه احيانًا من آمال بانتظار قدوم لجنة دولية لتقصي آراء الناس (لجنة كينغ– كراين).

وفي اجواء هذه المخاوف «تقدمت جماعة

مـن الزعمـاء المسؤولين يقـترحون تشـكيل مجلـس وطني، وكان مدبرو هـذا الاقـتراح اعضـاء حـزب حديث التكوين تسمى باســم «حـزب الاسـتقلال العربي» ولم يكن سوى جمعيـة الفتـاة السـابقة في لباس جديـد. إذ رأت هـذه الجمعيـة، في ٥ شـباط ١٩١٩، وفي دمشق، ان الحاجة إلى السرية لم تعـد مطلوبـة. فـأعلنت عـن وجودهـا وصرّحـت بأنهـا ستمارس نشـاطها السياسـي علنًـا باسـم «حـزب الاستقلال العربي»، وازداد الاقبال على عضويتها. ويسمى اتباعها عادة باسم «الاستقلاليين» للتميـيز بينهم وبين الاعضـاء الآخريـن في جمعيـات اخـرى أسست لمثل هذه الاهداف ايضًا» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٤٠٤).

ولتشكيل هذا المجلس، أجريت انتخابات لم تقتصر علـى القسـم السـوري الواقـع تحت الادارة العربيـة، وانمـا شملـت القسـم الغربـي الـذي احتلـه الفرنسيون منذ نزولهم في بيروت (٦ تشـرين الاول ١٩١٨) واتخاذهم مواقـع في مختلـف انحـاء المنطقـة السـاحلية بقيـادة الجـنرال دو بيبيـاب، ثـم قـدوم جورج بيكـو بصفـة اول مفـوض سـامي فرنسـي، واتخاذه بيروت مقرًا له، وتقسيمه المنطقة السـاحلية إلى ثلاث حكومات: اولاها حكومة لبنـان الكبـير (بيروت واقضيتها الثلاثة صور وصيدا ومرجعيـون، وطرابلـس وبعـض ملحقاتهـا، بالاضافـة إلى جبـل لبنان)؛ والحكومة الثانية هي حكومة بلاد العلويـين (مركزهـا اللاذقيـة)؛ والثالثـة حكومـة لـواء اسكندرونة (أقضية انطاكيا وبيلان وقـرق خـان). ولما سافر بيكو إلى فرنسـا، خلفـه الجـنرال غـورو، فكان، في الوقت نفسه، مفوضًا ساميًا وقائدًا أعلـى لقوات الاحتلال في سورية.

وكان المؤتمر يتألف من اعداد متساوية مـن المندوبين تمثل كل جزء من اجـزاء سـورية. ولكـن بعض الممثلـين الذيـن انتخبـوا في «المحتلـة الغربيـة» (ساحل سـورية) منعتهـم السـلطات الفرنسـية مـن السـفر إلى دمشـق. فحضـر جلسـة الافتتـاح ٦٩ مندوبًا من مجموع ٨٥، وبينهم عدد من المسـيحيين يفوق في نسبة التمثيل عدد السـكان المسـيحيين في البلاد. وتمخضت مداولات المؤتمر عن مقـررات في عشر مواد (باجماع وبحماس لا مثيل لـه) تضمنـت مطالب يمكن ايجازها بالتالي (عقد الاجتمـاع في ٨ آذار ١٩٢٠):

١- الاعـتراف باسـتقلال سـورية، بمـا في ذلك فلسطين، دولة ذات سيادة على رأسها الامـير فيصل ملكًا، والاعتراف باستقلال العراق.

٢- إلغـاء اتفاقيـة سـايكس-بيكـو ووعـد بلفور وأي مشروع لتقسيم سورية أو إنشـاء دولـة يهودية في فلسطين.

٣- رفض الوصاية السياسية التي تتضمنتهـا

المؤتمر السوري-الفلسطيني في جنيف (١٩٢١).

النظم الانتدابية المقترحة وقبول المعونة الاجنبية لفترة محدودة على شرط ان لا تتعارض مع الاستقلال الوطني والوحدة القومية. وتفضيل المعونة التي تقدمها اميركا، فإن لم تتيسر فالمعونة البريطانية، ورفض المعونة الفرنسية في أي شكل جاءت.

وما كادت هذه المقررات تنتقل إلى الأهالي حتى انطلقت المظاهرات في كل الانحاء السورية التي ليس للفرنسيين فيها سلطان، لتحيي فيصلاً وتهتف للمؤتمر.

معاهدة سان ريمو (٢٥ نيسان ١٩٢٠):
بعد سبعة اسابيع من جلسة المؤتمر السوري العام وصدور مقرراته، عقد الحلفاء الغربيون (واليابان)، في نيسان ١٩٢٠، في مدينة سان ريمو الايطالية، مؤتمرًا دوليًا لبحث مصير السلطنة العثمانية ورسم معالم معاهدة صلح مع تركيا المهزومة في الحرب، ولتقاسم المشرق العربي بين بريطانيا وفرنسا وتجزئته وفق خطة سايكس-بيكو السرية، ولاضفاء الشرعية الدولية على هذا التقسيم وعلى وعد بلفور. وقد مثل بريطانيا لويد جورج، وفرنسا كليمنصو، وايطاليا نيتي (وجميعهم رؤساء حكومات)، بينما مثل الولايات المتحدة سفيرها في روما، ومثل الحركة الصهيونية زعيمها حاييم وايزمن بصفته مراقب. وكان مجلس الحلفاء الاعلى قد عقد اجتماعًا تمهيديًا في لندن استمر من ١٢ إلى ٢٣ شباط ١٩٢٠ لمناقشة مستقبل فلسطين وسورية ولبنان والعراق دون أي اعتبار لوعود الحلفاء التي قطعوها للعرب، ولمبادىء ويلسون، ولتقرير لجنة كينغ-كراين.

وافق المؤتمرون على الاطار النهائي لمعاهدة الصلح مع تركيا والتي سميت في ما بعد «معاهدة سيفر». كما ناقشوا موضوع اقتسام نفط الموصل وحصلت فرنسا على ربع اسهم الشركة المحتكرة لانتاج النفط في العراق، وتعهدت بالسماح بمرور انابيب النفط في سورية ولبنان وصولاً إلى شاطىء البحر المتوسط.

واتخذ المؤتمرون قرارًا بتوزيع الانتدابات على البلدان العربية في المشرق العربي فوضعوا سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني، ودمجوا وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين دون مراعاة للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم التي نصت على «ان رغبات أهل البلاد يجب ان تكون عاملاً رئيسيًا في اختيار الدولة المنتدبة».

القوات الفرنسية تدخل دمشق: إثر قرارات مؤتمر سان ريمو، اشتدت حدة الانتفاضة في فلسطين، وامتدت ثورة العراق من الجنوب إلى الموصل. فاضطرت بريطانيا إلى تهدئة الاوضاع هناك عن طريق تقديم بعض التنازلات، مثل منح الشعب العراقي الاستقلال الشكلي. أما في سورية فقد أدّى مؤتمر سان ريمو إلى سقوط حكومة الركابي التي كانت تهادن الفرنسيين وقيام حكومة جديدة برئاسة هاشم الأتاسي أعلنت برنامجًا وطنيًا قويًا تمسكت فيه بالاستقلال التام وبرفض فكرة الوطن اليهودي في فلسطين، ورفض كل تدخل اجنبي. وكان الجنرال غورو (عين في تشرين الثاني ١٩١٩ قائدًا أعلى ثم مفوضًا ساميًا في المنطقة تحت الانتداب الفرنسي) يبعث برسالة متغطرسة تلو الرسالة للملك فيصل، خاصة بعد كل عملية عسكرية ينفذها بعض الضباط الشبان من العرب على المواقع الفرنسية قرب الحدود اللبنانية.

في تموز (١٩٢٠، أي بعد ثلاثة أشهر من مؤتمر سان ريمو)، تلقى فيصل رسالة، في صورة إنذار، من الحكومة الفرنسية تتضمن خمسة شروط لا بد من الامتثال لها خلال اربعةايام، وإلا فإن الحكومة الفرنسية تهدّد «بأن تكون مطلقة اليد في العمل»: ١- تسليم سكة حديد رياق-حلب إلى السلطة العسكرية الفرنسية؛ ٢- إلغاء التجنيد

وتخفيض عدد الجيش العربي؛ ٣- قبول الانتداب الفرنسي قبولاً غير مشروط؛ ٤- تداول العملة التي فرضتها الادارة الفرنسية؛ ٥- معاقبة الاشخاص الذين قاموا بأعمال عدائية ضد الفرنسيين.

«بعد تأمل في العواقب رأى فيصل ان أحكم ما يأتيه قبوله بالامر الواقع... وكان اعتماده على الحكومة الانكليزية ما يزال العامل الاول في سياسته، وقد وصلته من اللورد كرزون رسالة ينصحه فيها بتجنب الاعمال العدائية... لقد تقبل فيصل الانذار الفرنسي وبدأت المحاولات لتنفيذه، ومع ذلك زحفت الكتائب الفرنسية إلى دمشق ودخلتها بعد مضي عشرة ايام على تقديم الانذار... وهبّ كل السكان في دمشق لما سمعوا بالزحف الفرنسي، وكلفت الاجراءات التي وجدها فيصل ضرورية لاعادة النظام مائة قتيل من رعيته صرعوا برصاص شرطته في شوارع دمشق. وقتل آخرون وهم يحاولون ببسالة ان يوقفوا زحف الكتائب الفرنسية، ولما كان الفرنسيون يقتربون من ممر ميسلون اندفعت جماعة من الوطنيين تبلغ الألفين متحدية اوامر فيصل وانضمت إلى القوة النظامية الصغيرة التي تحمي الممر. غير ان الوقفة البطولية التي وقفوها جميعًا لم تجدِ شيئًا ضد الطائرات والاعداد الضخمة... فهلك عدد كبير منهم. وقتل يوسف العظمة وزير الدفاع الشاب، وكان يقود ثلة صغيرة من القوات النظامية في وجه الرشاشات الفرنسية (٢٤ تموز ١٩٢٠). أما القسم الاعظم من الجيش الذي كان يحمي المدينة فقد سرّحه فيصل خضوعًا لأوامر الانذار واصبحت الطريق إلى دمشق مفتوحة، و لم تقم في وجه الغزاة اية مقاومة اخرى (...) ومن اول الاعمال التي قام بها الفرنسيون في دمشق ان طلبوا إلى فيصل مغادرة البلاد، فغادرها في ٢٨ تموز (١٩٢٠) ومعه عدد من خلطائه الأدنين، وسافر بالقطار إلى درعا مجتازًا سهل حوران الاعلى الذي ماجت فيه قوات الثورة وحلفاؤها البريطانيون في زحفهم الظافر نحو دمشق (قبل نحو سنتين)، ومن ثم ذهب إلى حيفا ومنها أبحر إلى ايطاليا. وبقي في عزلة على شواطىء بحيرة ماجيوري حتى كانون الاول حين وصل لندن استجابة لدعوة تلقاها من الحكومة البريطانية» (ج. انطونيوس، «يقظة العرب»، ص ٤٢٢-٤٢٤).

الانتداب الفرنسي

(المرجع الرئيسي لهذا الباب كتاب «سورية والانتداب الفرنسي» ليوسف الحكيم، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٣، والمؤلف كان وزير شؤون النافعة في الحكومة السورية التي تألفت في ٢٦ تموز ١٩٢٠-أي قبل ايام قليلة من مغادرة الملك فيصل- بمرسوم ملكي عيّن علاء الدين الدروبي رئيسًا لها، وبعدها شغل الحكيم منصب وزير خمس مرات في ايام الانتداب. يلي هذا المرجع كتاب «يقظة العرب» لجورج انطونيوس؛ ثم «يوم ميسلون» لساطع الحصري؛ ثم «موسوعة السياسة» و«الموسوعة العسكرية» الصادرتان عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ ثم «دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي» للدكتور حسن امين البعيني، المركز العربي للابحاث والتوثيق، ط١، آب ١٩٩٣).

بدء الانتداب: اتخذ المفوض السامي، الجنرال غورو، بيروت مقرًا اساسيًا له، ودمشق مقرًا ثانيًا يقيم فيه مندوبه الكولونيل تولا، وبعده الكولونيل كاترو الذي «وفّق إلى احراز الثقة والاحترام من الجميع... توصلاً لكسب مودة السوريين وعدم شعورهم بوطأة الانتداب».

من التدابير الاولى التي اتخذتها الوزارة (برئاسة علاء الدين الدروبي، ومن اعضائها فارس الخوري) منع الموظفين من الاشتغال بالسياسة، واختيار الأكفاء للوظيفة، وإقفال مكتب اللجنة الوطنية والنادي العربي. وفي ٥ آب ١٩٢٠، اصدر رئيس الحكومة بلاغًا يعتبر الانتداب امرًا واقعًا، ويدعو إلى ضرب كل من يعبث بأمن البلاد.

وبعد مرور اسبوع واحد على احتلال دمشق، زارها غورو، فتبودلت الخطب واقيمت

الجنرال غورو.

الحفلات، وفي إحداها «لوحظ ان الجنرال غورو كان كثير الاهتمام بمحادثة البطريرك الارثوذكسي غريغوريوس حداد، متأملاً في وجهه، كأنه يعود بالذاكرة إلى موقف هذا الرجل العظيم، رئيس الدين المسيحي، موقفًا متفقًا مع الشريف الحجازي في قضية استقلال العرب ومع سائر المسلمين السوريين حين رفضوا، امام لجنة الاستفتاء (لجنة كينغ-كراين) الانتداب الفرنسي، فدلت بادرة المفوض السامي على ان فرنسا تود كسب مودة جميع السوريين بصرف النظر عن سابق وجهات نظرهم السياسية».

أما عن زعماء الجهاد الوطني، ولا سيما الذين خاضوا بأنفسهم معركة ميسلون، والذين فرّ بعضهم إلى الاردن وفلسطين ومصر، فقد حكم عليهم المجلس الحربي الفرنسي بالاعدام في ٩ آب ١٩٢٠. «وبعد قليل صدر العفو عنهم فعاد معظمهم إلى الوطن، مثابرين على الجهاد السلمي في سبيل وحدة سورية واستقلالها وتعاون معظمهم مع الانتداب في المناصب الوطنية العالية والهامة».

وبالنسبة إلى التعامل النقدي، فقد كانت

سورية (المنطقة الشرقية) تعتمد التعامل بالورق النقدي المصري اتباعًا لتعامل الجيش البريطاني به إبان احتلاله هذه المنطقة وتعامل السلطة البريطانية نفسها حين كانت تمد سورية من هذا النقد. أما التعامل بالورق النقدي الذي اصدره بنك سورية ولبنان بموجب قرار المفوض السامي الصادر في ٣١ آذار ١٩٢٠، فكان مقتصرًا على المنطقة الغربية (الساحلية)، لأن سورية في عهدي الامارة والملكية (الامير فيصل، ثم الملك فيصل) رفضت التعامل به. وبعد الاحتلال الفرنسي، إثر معركة ميسلون، أصدر الجنرال غوابيه (قائد الحملة) أمره بالتعامل به اسوة بالمنطقة الغربية تحت طائلة الاحالة إلى المحاكم العسكرية. وفي ١٩ آب ١٩٢٠، صدر قرار المفوض السامي باعتبار الورق النقدي السوري العملة الرسمية التي تحسب على اساسها الضرائب والرسوم وسائر المدفوعات.

و لم يكن بدء الانتداب سهلاً بالصورة التي يمكن ان تتصور، ولا مسار عهده الذي استمر حتى الاستقلال (راجع الباب التالي «الثورات السورية الكبرى»). إذ سرعان ما تلقت وزارة علاء الدين الدروبي معلومات من محافظ حوران تفيد ان مشايخها يستعدون للعمل بمختلف الوسائل ضد الفرنسيين ولفصل المحافظة بكاملها والحاقها بشرقي الاردن انتقامًا للملك فيصل. وقصد رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي، على رأس وفد بين اعضائه عبد الرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى، حوران لتهدئة مشايخها. لكن حادثة مقتل أحد الحورانيين المسلحين على يد أحد حرّاس الوفد أشعل الفتيل في محطة خربة الغزالة. واندلعت اعمال عنف في مختلف انحاء حوران، وقتل الدروبي واليوسف، و لم تتوقف هذه الانتفاضة إلا بعد تدخل الطيران الحربي الفرنسي. وفي ٢٠ ايلول ١٩٢٠، اعدمت السلطة الفرنسية ثلاثة من الحورانيين اشتركوا في مقتل الدروبي واليوسف. وبقيت محافظة حوران في الدولة السورية باستثناء قضاء عجلون الذي فصل عنها وألحق مع محافظة الكرك بمنطقة شرقي الاردن الداخلة في دائرة النفوذ البريطاني.

وإثر مقتل الدروبي، أصدر المفوض السامي، في ٦ ايلول ١٩٢٠، قرارًا بتأليف وزارة جديدة برئاسة جميل الألشي، وكان من بين اعضائها حقي العظم (رئيسًا لمجلس الشورى) الذي كان اثناء العهد الفيصلي وقبله مقيمًا في القاهرة، ومجاهرًا بتفضيله الانتداب الفرنسي. وجاء اختيار جميع الوزراء ورئيسهم من وجهاء دمشق دون سواها ليدل على بدء تنفيذ رغبة الفرنسيين بتجزئة البلاد السورية إلى دويلات واقتصار دولة دمشق على جزء مما كانت عليه ولاية سورية قبل الحرب الكبرى.

تجزئة سورية: حين قدم أول مفوض سام فرنسي إلى بيروت (مركز المنطقة الغربية من سورية) بادر لفوره إلى توسيع حدود لبنان، فجعلها، بالاضافة إلى الحدود الاصلية (التي كانت تتضمن اقضية الكورة والبترون وكسروان والمتن والشوف وجزين وزحلة، ومديريتي دير القمر والهرمل)، شاملة مدينة بيروت وأقضيتها صيدا وصور ومرجعيون، ومدينة طرابلس وبعض النواحي الملحقة بها وقضاء عكار، ثم في خطوة ثانية وبعد ايام قليلة، ضم الاقضية الاربعة، بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا إلى لبنان الكبير، الذي أعلن الجنرال غورو قيامه في ٣١ آب ١٩٢٠. فكان هذا التقسيم الثاني الذي اصاب خريطة البلاد الشامية عند انتهاء الحرب الكبرى، إذ سبقه فك لواء شرقي الاردن عن مرجعه دمشق (مركز الولاية السورية طوال العهد العثماني ثم في العهد الفيصلي) ليكون ضمن الانتداب البريطاني.

و لم يقف أمر التقسيم عند هذا الحد. ففي تشرين الثاني ١٩٢٠، أعلن المفوض السامي تقسيم ما بقي من سورية إلى دويلات أو مقاطعات

اربع هي حلب في الشمال، ودمشق في الجنوب، وبلاد العلويين وجبل الدروز، يكون لكل منها حكومة مديرين مستقلة مرتبطة مباشرة بالمفوض السامي، وتخضع قرارتها المهمة لتصديقه، والقرارات الأقل أهمية لتصديق مندوبه لدى كل حكومة من هذه الحكومات الاربع. فكان ان ارتفع، مع هذا التقسيم، عدد المستشارين الفرنسيين وكبار الموظفين السوريين والفرنسيين إلى اربعة امثال ما تتطلبه الدولة السورية موحدة.

وأهم النقاط البارزة في ايام «الدول الاربع»:

١- دولة حلب (ولواء الاسكندرونة): ألحق بها لواء اسكندرونة مع الاحتفاظ بـ«استقلاله الاداري». ومعروف ان هذا اللواء كان عبارة عن اربعة اقضية، أهمها انطاكيا واسكندرونة، تابعة لولاية حلب حتى نهاية الحرب في ١٩١٨. حينئذ أُدخل اللواء في المنطقة الغربية الساحلية التي احتلها الجيش الفرنسي، والحق باللاذقية، مركز حكومة مقاطعة العلويين، ثم منح الاستقلال الاداري وارتبط مباشرة بالمفوض السامي. ولما أعيد ارتباطه بدولة حلب، احتفظ له المفوض السامي بالاستقلال الاداري، معلنًا هدفًا ظاهريًا وهو النزول عند رغبة العنصر التركي من سكانه. «لكن هناك هدف آخر، لم يخف على العقلاء من ابناء اللواء وجميع السوريين، ألا وهو جعل اللواء موضوع الحوار والتفاهم مع تركيا حول ما كانت تطمع إليه فرنسا من ضمان انتدابها على كيليكيا المجاورة لاسكندرونة، إلى غير ذلك من الاسباب التي ادت في اواخر عهد الانتداب إلى ترك اللواء لتركيا. وعلى رأس الاحداث التي شهدتها ايام دولة حلب انفجار ثورة الشمال (راجع الباب التالي «الثورات السورية الكبرى»)، واستقبال حلب واسكندرونة لأفواج متوالية من الارمن الفارين من انتقام الاتراك بعد ان تجدد العداء بين الفريقين إثر احتلال الجيش الفرنسي كيليكيا وإعلانه استقلالها باكثريتها الارمنية (ايار ١٩٢٢).

٢- دولة دمشق: وتضم دمشق واقضيتها السابقة عدا الاقضية الاربعة التي ألحقت بلبنان الكبير، وألوية حماه وحمص وحوران، باستثناء قضاء مصياف الذي فك عن حماه وألحق بمقاطعة بلاد العلويين؛ وقضاء عجلون الذي فك عن حوران وألحق بمنطقة شرقي الاردن. وعين المفوض السامي حاكمًا على دولة دمشق حقي العظم يعاونه مديرون عامون هم نفس الوزراء في وزارة جميل الألشي المستقيل. ومن احداث ايام دولة دمشق، محاولة اغتيال الجنرال غورو (٢٣ حزيران ١٩٢١) إبان زيارته السويداء على أيدي ثائرين، فنجا هو وأصيب حقي العظم الذي كان يجلس في السيارة إلى جانبه برصاصة غير قاتلة، وألقي القبض على احد الثائرين المشتركين في العملية وجرى اعدامه تنفيذاً لحكم القضاء العسكري الفرنسي. ومن احداث هذه الايام السياسية، محاولات بذلها بعض الوطنيين لاعادة الملك فيصل (وبعضهم اتصل به في جنيف) وإقامة النظام الملكي ولو في ظل الانتداب؛ لكن معارضة فريق منهم لنظام ملكي أوقف المسعى.

٣- مقاطعة-دولة-جبل الدروز (جبل العرب): يمتد هذا الجبل بين محافظة حوران شمالاً وغربًا وشرقي الاردن جنوبًا والبادية شرقًا. ومعظم سكانه، البالغين ٧٠ ألفًا (في بدء الانتداب) من الدروز، بينهم اقلية مسيحية وبعض العشائر البدوية التي تدين بالاسلام. وكان مقسمًا، اداريًا، إلى قضاءين، السويداء وصلخد، مرتبطين اداريًا بلواء (محافظة) حوران. وبعد احتلال القوات الفرنسية، اصدر المفوض السامي قرارًا باعتبار جبل الدروز مقاطعة مستقلة، حاكمها الامير سليم الاطرش. وقد تأيد هذا الاستقلال بالاتفاق بين المفوضية العليا وبين وجهاء الجبل ورؤسائه الروحيين (شيوخ العقل) في ٤ آذار ١٩٢١، فكان لدى الحاكم الامير سليم الاطرش مستشارون وأمناء سر من الجبليين واللبنانيين والفرنسيين، وعلى رأسهم

محمد علي العابد.

معاون مندوب المفوض السامي في دمشق (راجع الباب التالي «الثورات السورية الكبرى»).

٤- بلاد-دولة-العلويين: أطلق عليها هذا الاسم بعد احتلال الجيش الفرنسي المنطقة الغربية من سورية في تشرين الاول ١٩١٨. العلويون اكثرية السكان، والفرنسيون يعلمون حق العلم ما تحمله العلويون في معظم العهد العثماني من اضطهاد. وكانت بلاد العلويين، في العهد العثماني، تشمل لواء اللاذقية التابع ولاية بيروت. أما الفرنسيون فقسّموا المنطقة الغربية إلى قسمين: لبنان الكبير، ولواء اللاذقية باقضيتها الثلاثة (جبلة والمرقب وصهيون) مضافًا إليها ما فك عن لواء طرابلس من ملحقات، وهي قضاء صافيتا والحصن (تل كلخ) ومديريتا طرطوس وارواد مع قضاء مصياف الذي كان تابعًا للواء حماه، وخمسة أقضية كانت تابعة لولاية حلب. ومن أهم احداث ايام هذه الدولة ثورة الشيخ الصالح العلي (راجع الباب التالي «الثورة السورية الكبرى» و«مدن ومعالم»).

الاتحاد السوري: وضع الدول الاربع هذه عاش اقل من عامين: تشرين الثاني ١٩٢٠-٢٨ حزيران ١٩٢٢. فتحت ضغط المطالب الوحدوية (خاصة في «دولة» دمشق) المستمرة أعلن المفوض السامي في ٢٨ حزيران ١٩٢٢ إنشاء الاتحاد السوري بين الدول الثلاث، حلب ودمشق وبلاد العلويين، واصدر قرارًا بتأليف مجلس اتحاد مؤقت من خمسة ممثلين عن كل دولة. فكان محمد علي العابد وفارس الخوري من بين الخمسة الممثلين لدولة دمشق، وصبحي بركات من بين الخمسة الممثلين لدولة حلب، وجابر العباس من بين الخمسة الممثلين لدولة العلويين.. وفي اليوم التالي (٢٩ حزيران) عقد مجلس الاتحاد اجتماعه في حلب وانتخب، بالاجماع، صبحي بركات رئيسًا للاتحاد. أما استثناء دولة جبل الدروز عن هذا الاتحاد، فقد «عزي إلى الوضع الخاص الذي كان عليه الجبل المذكور من الناحية الاجتماعية وإلى رغبة أكثريته الدرزية في الاحتفاظ باستقلاله».

وشهدت ايام الاتحاد عقد اتفاقية اول آب بين رئيس الاتحاد السوري صبحي بركات وأوبوار Aubouard بوصفه وكيل حاكم دولة لبنان الكبير، والزعيم توفيق الاطرش بوصفه ممثل دولة جبل الدروز من جهة، وبين موريس بيدار ورينيه فورنييه بالوكالة عن بنك سورية (شركة مساهمة مركزها باريس) من جهة ثانية. وقد تضمنت الاتفاقية تسمية بنك سورية «بنك سورية ولبنان الكبير»، إضافة إلى بنود مالية اخرى.

وفي الايام الاولى من عمر هذا الاتحاد، وتحديدًا في ٢٤ تموز ١٩٢٢، اقرّ مجلس عصبة الامم، بناء على قرار مجلس ممثلي الدول الحليفة (سان ريمو، شباط ١٩٢٠) صك الانتداب.

الوحدة السورية: وصل المفوض السامي الجديد الجنرال مكسيم ويغان Weygand (خلفًا للجنرال غورو) بيروت في ٩ ايار ١٩٢٣، واجتمع

برئيس الاتحاد السوري صبحي بركات واركان المفوضية وحكومة لبنان. وبعد ايام قليلة، زار دمشق وحلب واللاذقية وسائر المدن السورية. وبعد عودته إلى بيروت، أعلن في ٥ كانون الاول ١٩٢٤ حلّ الاتحاد السوري وقيام وحدة دمشق وحلب اعتبارًا من اول كانون الثاني ١٩٢٥، وعودة بلاد العلويين إلى ما كانت عليه منذ بدء الانتداب حكومة مستقلة يحكمها حاكم فرنسي مرتبط مباشرة بالمفوضية العليا الفرنسية، كما أعلن فك لواء اسكندرونة بكامل اقضيته الاربعة عن ولاية حلب وربطه مباشرة برئيس الدولة السورية على ان يحتفظ له بالادارة الخاصة المقررة منذ آب ١٩٢١.

واحتفظ صبحي بركات بمهامه كرئيس الدولة السورية، وشكل حكومة جديدة أبعد عنها محمد علي العابد، وحاز على دعم المفوض السامي ويغان.

في ٢ كانون الثاني ١٩٢٥، وصل المفوض السامي الجديد سراي Sarrail الذي عينته الحكومة الجديدة في فرنسا، وكانت حكومة الحزب الاشتراكي الفرنسي برئاسة هيريو Herriot. وفور نزول سراي إلى الشاطىء في بيروت، ووسط الهيئات الرسمية السورية واللبنانية المستقبلة، خاطب حاكم لبنان الجنرال فندنبرغ قائلاً: «تهيأ لترك مركزك إلى حاكم وطني»؛ وقال لوفد الوطنيين السوريين برئاسة الدكتور عبد الرحمن شهبندر: «عودوا إلى بلدكم وأسسوا حزبًا سياسيًا ليتمكن معتمدوه من بيان مطاليب الشعب ومفاوضتي باسمه لضمان مصيره».

وتأسس «حزب الشعب»، وكان من أركانه فارس الخوري ولطفي الحفار وسعيد حيدر، وغيرهم، وانتخبوا الدكتور شهبندر رئيسًا للحزب. وكان الحزب الآخر، حزب الاستقلال، ملتفًا حول شكري القوتلي ورافضًا زعامة شهبندر وسياسته.

في ١٩ كانون الثاني ١٩٢٥، أصدر سراي قرار التابعية السورية، وقد جاء في مادته الاولى: «إن تابعي دول سورية والعلويين وجبل الدروز هم حائزون من الوجهة الخارجية تابعية واحدة هي التابعية السورية». وزاد هذا القرار من نشاط الوطنيين، خاصة في المعاهد والجامعات، المعارضين سياسة الرئيس صبحي بركات. واكثر المستفيدين السياسيين، في هذا الجو، كان الشيخ تاج الدين الحسني، نجل الشيخ بدر الدين الذي كان يتمتع بأكبر نفوذ ديني وأدبي في سورية.

وفي ٨ نيسان ١٩٢٥، زار اللورد بلفور Balfour دمشق قادمًا من فلسطين، فقوبل بمظاهرة ضخمة في دمشق ندّدت بوعده، كما طالبت بانهاء الانتداب. وكانت الاجواء العامة في البلاد اجواء ثورة استقلالية (راجع الباب التالي «الثورة السورية الكبرى») بادر خلالها سراي إلى اصدار أمر بقصف دمشق، ما زاد من حمية الثوار ومن الغليان الثوري الاستقلالي في البلاد. فاستدعته باريس وعيّنت مكانه عضو مجلس الشيوخ الكونت هنري دو جوفنيل Henri de Jouvenel الذي صرّح لمندوبي الصحف انه «سيعمل بروح غير عسكرية لمصلحة سورية وتنظيم علاقتها الودية مع فرنسا وإسدال الستار على الماضي الأليم».

في ايام دو جوفنيل: اجتمع دو جوفنيل في القاهرة (في طريقه إلى لبنان وسورية)، في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٥، برئيس لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني الامير ميشال لطف الله واركان اللجنة الدكتور عبد الرحمن شهبندر والامير شكيب ارسلان وفوزي البكري والشيخ رشيد رضا والحاج امين الحسيني، وقدموا له مذكرة تتلخص بالاعتراف باستقلال سورية ووحدتها وعقد معاهدة صداقة ومودة مع فرنسا وإلغاء الانتداب وجلاء جيوشه عن سورية خلال ثلاث سنوات.

وصل دو جوفنيل بيروت في كانون الاول

١٩٢٥، وفي حفل استقباله قال: «أود العمل مع السوريين في أقصى الحدود الممكنة، فالسلم لمن يريد السلم والحرب لمن يريد الحرب». فدلّ، بكلامه هذا، على فشل مفاوضاته مع اركان لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة. وقبل على الفور استقالة صبحي بركات، وعين الجنرال أندريا حاكمًا عسكريًا على منطقتي دمشق وجبل الدروز، وهما المنطقتان اللتان تقوم الثورة فيهما.

وبعد ايام قليلة، تلقى دو جوفنيل عريضة موقعة من الداماد أحمد نامي والامير امين مصطفى ارسلان والدكتور حسن الاسير وفوزي الغزي تتضمن استعدادهم لتأليف لجنة تقابل قائد الثورة العام سلطان باشا الاطرش ومباحثتهم في امر الصلح. ووافق دو جوفنيل وتشكلت اللجنة (امين ارسلان رئيسًا، وفارس الخوري وفوزي الغزي وعفيف الصلح)، وقابلت الاطرش، ولكن دون نتيجة ايجابية. وبدأت تظهر قوات الجيش الفرنسي في دمشق متوجهة باتجاه جبل الدروز وحوران وضواحي دمشق. ومع اشتداد الثورة اشتد قمع الجيش لها حتى تمكن من اخمادها في تموز ١٩٢٦.

كان دو جوفنيل قد أسند رئاسة الدولة السورية، في ايار ١٩٢٦، إلى الامير أحمد نامي، الملقب بـ«الداماد». وألف هذا حكومته، محتفظًا برئاستها، من حسني البرازي، شاكر الشعباني، فارس الخوري، لطفي الحفار، واثق المؤيد ويوسف الحكيم.

اتفقت هذه الحكومة ودو جوفنيل على برنامج، أهم نقاطه:

– دعوة جمعية تأسيسية لتتولى سن دستور للبلاد على قاعدة السيادة القومية

–تحويل الانتداب إلى معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية لمدة ثلاثين سنة.

– تحقيق الوحدة السورية.

– تأليف جيش وطني.

– طلب ادخال سورية في عصبة الامم أسوة بالعراق.

ونشرت الحكومة هذا البرنامج مشفوعًا ببيان، وباشر رئيس الدولة، أحمد نامي، محادثات مع الكولونيل كاترو Catroux مدير المصلحة السياسية في المفوضية العليا وشفلر حاكم منطقة العلويين «لضم هذه المنطقة إلى أمها سورية». لكن شفلر كان يعمل بكل استطاعته لاحباط مشروع ضم المنطقة إلى الوحدة السورية. إضافة إلى ان مندوب المفوض السامي في سورية، بيار أليب (مقره في دمشق) عاكف على إقامة العراقيل في وجه الحكومة السورية التي شكته مرارًا للمفوض دو جوفنيل.

وبناء على اتفاق بين المفوض السامي والحكومة السورية، ارسل رئيس الدولة احمد نامي وفدًا إلى لواء الاسكندرونة (على رأسه الوزير يوسف الحكيم) يستطلع احواله ويحاول كسب مسؤوليه لضمه إلى اصله السوري بفك ارتباطه المباشر بالمفوضية السامية. وبعد بحث مستفيض اجراه الوفد هناك مع جميع نواب اللواء ومندوب المفوض السامي (دوريو Durieux) ومحافظ اللواء، وقعوا على مضبطة تتضمن إجماع كلمتهم بصفتهم الممثلين الشرعيين للواء على ضمه إلى سورية واعتبار حكومتها الرئيسية مرجعه الأعلى.

في عهد المفوض السامي دو جوفنيل، ومندوبه في سورية بيار أليب الذي ازدادت صلاحياته أهمية أثناء غياب المفوض وسفره إلى فرنسا، وفي عهد تولي الداماد أحمد نامي رئاسة الدولة السورية، لا بد من سرد واقعة بالغة الأهمية في مغزاها وشديدة الافادة في مراميها؛ وذلك نقلاً عن يوسف الحكيم (وكان وزيرًا) في كتابه «سورية والانتداب الفرنسي» ص ١٧٤-١٨٢):

«... أخذ المندوب بيار أليب يستدعي معارضي الحكومة، مجتمعين وفرادى، من عشاق الوزارات والمناصب الحكومية، ويحثهم على الشكوى من وجود رئاسة الدولة بيد غريبة عن

سورية، وهو الداماد احمد نـامي الجركسـي العـرق واللبناني الموطن... جرى كل ذلـك بمعاونـة وزيـر الداخلية واثق المؤيـد للمنـدوب الـذي وعـده بأنـه سيكون خلفًا للداماد في رئاسة الدولة بعد خـلاص البلاد منـه (...) وقـصّ الرئيـس احمـد نـامي علـى اركان المفوضية السامية (منهم الكولونيـل كـاترو) ما عنـده مـن معلومـات عـن تصرف المنـدوب في دمشق، وطلب إبدال هذا المندوب (بيار أليـب) أو يعود إلى منزله في بيروت آسفًا علـى مصير البـلاد السورية وصلاتها بفرنسـا (...) وأخـذ المتعـاونون مع الوزير واثق المؤيد والمندوب أليب يحثـون وزيـر العدل (يوسف الحكيم) علـى تـرك الدامـاد رئيـس الدولة أسوةً بما فعـل معظـم الـوزراء وقـالوا بـدون حياء ولا خجل: «أيجوز لك، أنت الوزير المسيحي الوحيـد، ان تكـون دون رفـاقك الاربعـة استجابة لمصلحة فرنسـا وسياسـتها». فـأجبتهم (يقـول الحكيـم) ان تـرك الـوزارة وخدمـة الحكومـة بتاتًـا لأهون عليّ من الخيانة، خيانة بلدي العزيز ورئيسه النزيه النبيل (...) وفي حديـث سـاخن بـين أليـب ويوسف الحكيـم، قـال الأول: «إن أكثريـة البـلاد المسلمة لا تحتمل رؤية الوزير المسيحي أكثر نفـوذًا من زملائه». فأجبتـه (يوسـف الحكيـم): «أكلمـا عجـزتم عـن مجابهـة الحقيقـة، تعـودون إلى نغمـة التفريق بين المسـلم والمسيحي، وكلاهمـا اخـوان، فكفّوا عن هذه النغمة، وهي لا توجد إلا في مخيلة المستعمر، ودعونا نعيش بسلام آمنـين» (انتهـى مـا جاء في المرجع المذكور).

في ايام هنري بونسو Henri Ponsot: بدا ان خلافًا بـاعد بـين المفـوض السـامي دو جوفنيـل وحكومته في باريس حول الشروط التي اتفق عليها المفوض مع حكومة سورية. فقـد رأتهـا الحكومـة الفرنسية مجحفة بمصالح فرنسا، فطلبت من المفوض السامي تعديلها إلا ان دو جوفنيل رفـض الرجـوع عما ارتبط به، وآثر الاستقالة من وظيفته، وعينـت الحكومة بدلاً منه مسيو هـنري بونسـو، مـن كبـار موظفـي وزارة الخارجيـة، وذلـك في ٣ ايلـول ١٩٢٦. ومـا إن اطلـع المنـدوب بيـار أليـب علـى اسـتقالة رئيسـه حتـى اسـرع، بالاتفـاق مـع وزيـر الداخلية واثق المؤيد، إلى خلق جو يثير النقمة علـى رئيس الدولة احمد نامي.

لكن المفوض الجديد، بونسو، محـض نـامي الثقة، وطلب منه تـأليف حكومـة جديـدة. فألفهـا وبقـي هـو جامعًـا بـين رئاسـة الدولـة ورئاسـة الحكومة، وكانت الثالثـة في عهـده واستبعد منهـا وزير الداخلية واثق المؤيد. ثـم مـا لبثـت الحكومـة الفرنسية ان أقالت بيار أليب وعينـت مكانـه كبـير مساعديه ديلوج.

وفي شباط ١٩٢٨، فاجأ المفـوض السـامي

أحمد نامي متوسطاً فارس الخوري ومندوب المفوض السامي.

بونسو السوريين بانقلابه على اتفاق دو جوفنيل-الداماد احمد نامي القاضي بانتخاب جمعية تأسيسية والعفو عن المسجونين والحوار مع الزعماء الوطنيين (في مقدمتهم الأتاسي وهنانو)... وذلك بتكليفه الشيخ تاج الدين الحسني تأليف الوزارة السورية. وعلى أثر استقالة الداماد وحكومته، استقال ايضًا الكولونيل (أصبح في ما بعد جنرالاً) كاترو من وظيفته كمستشار عسكري-سياسي في المفوضية وعاد إلى باريس و لم يكتم تشاؤمه من مصير السياسة الفرنسية في سورية التي اعتبرها انها اضاعت على فرنسا اصدقاءها و لم تكسبها أعداءها.

وشكل الشيخ تاج الدين حكومته. ولتوه، اصدر المفوض السامي (في ١٦ شباط ١٩٢٨) قرارًا بالعفو استثنى ما يزيد عن ٧٠ شخصًا، منهم الدكتور شهبندر وشكري القوتلي وعادل العظمة وسلطان الاطرش ومحمد عز الدين الحلبي وشكيب ارسلان وفوزي قاوقجي... ولما كان هؤلاء في طليعة الزعماء الوطنيين، قابل الشعب استثناءهم

الشيخ تاج.

من العفو بمزيد من النقمة، ونعتوا العفو بـ«العفو الاعرج» إشارة إلى العرج المصاب به الرئيس تاج الدين في جسمه.

وفي بيروت، عقد الأتاسي وهنانو ورفاق لهما مؤتمرًا لتنظيم صفوفهم، واتفقوا على تسمية حزبهم «الكتلة الوطنية»، في حين بقي آخرون إلى جانب الدكتور شهبندر، وكان حزبهم «حزب الشعب».

الجمعية التأسيسية والدستور: جرت انتخابات الجمعية التأسيسية بحماس ونشاط، وظهرت قائمتان رئيسيتان: قائمة الوطنيين وقائمة المعتدلين الموالين للانتداب. وكان إسم الشيخ تاج الدين على رأس كل منهما («وظل الشيخ يحافظ على دهائه وهدوئه ويبذل من الجهود والنفقات ما يرضي كل فريق على حدة»). واسفرت النتيجة عن فوز كبير للوطنيين في دمشق وسائر انحاء البلاد، مما أدهش المفوض السامي وجعله يؤجل دعوة الجمعية للانعقاد ريثما يقرّ رأيه على تدبير معين. وفي ٩ ايار ١٩٢٨، دعيت الجمعية التأسيسية للانعقاد في دار الحكومة وانتخبت هاشم الأتاسي رئيسًا لها. و«لوحظ في بدء الاجتماع ان فريقًا من النواب، وهم في الغالب نواب الاقضية، همّوا، بسابق العادة التي ألفوها، بالوقوف اجلالاً للمفوض السامي وحاشيته حين قدومه، فأشار إليهم الزعيم ابراهيم هنانو بالجلوس قائلاً: «إن السيادة للامة دون سواها. فامتثلوا للاشارة وظهرت فورًا آثار الامتعاض على وجوه رجال الانتداب والشيخ تاج الدين ووزرائه». واخذت الجمعية التأسيسية بتلاوة مواد الدستور الذي هيأته لجنتها المختصة ثم علق الاجتماع إلى ١١ آب ١٩٢٨. وفي هذا اليوم، افتتحت الجلسة بحضور المفوض السامي وصحبه ورئيس الحكومة ووزرائه، وتليت البقية من مواد الدستور، واقرته الجمعية بكل مواده وعددها ١١٥ مادة، بما فيها المواد

الست التي كان رجال الانتداب ينتظرون طيها من الدستور، ولو بصورة موقتة، لعدم انسجامها مع نظام الانتداب، وهذه المواد هي:

المادة ٢: إن البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية هي وحدة سياسية لا تتجزأ ولا عبرة بكل تجزئة طرأت عليها بعد نهاية الحرب العالمية.

المادة ٧٣: لرئيس الجمهورية حق إصدار العفو الخاص أما العفو العام فلا يُمنح إلا بقانون.

المادة ٧٤: يعقد رئيس الجمهورية المعاهدات. اما ما تعلق منها بسلامة الدولة وماليتها وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها عند انتهاء كل سنة، فلا تكون نافذة إلا بعد ان يقرها المجلس النيابي.

المادة ٧٥: يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزارة ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويعين الممثلين خارج البلاد ويقبل الممثلين الاجانب، الخ...

المادة ١١٠: يوضع قانون خاص بتنظيم الجيش الذي سيؤلف.

المادة ١٢٢: لرئيس الجمهورية ان يعلن، بناء علىاقتراح الوزارة، الاحكام العرفية في الاماكن التي تحدث فيها اضطرابات ويجب اعلام المجلس النيابي فور اعلانها وإذا لم يكن المجلس مجتمعًا فيدعى على وجه السرعة.

وفور خروج المفوض السامي، بونسو، من الجمعية إلى مقره اصدر قرارًا بتأجيل انعقادها لمدة ثلاثة اشهر، ثم تأجلت مرة أخرى. ومع انعقادها في ٥ شباط ١٩٢٩، تبلغ النواب مذكرة المفوض السامي المتضمنة طي المواد الست من الدستور. فهاج النواب، واتخذت الجمعية قرارها التاريخي بالاصرار على بقاء هذه المواد في صلب الدستور. فعطل المفوض السامي الجمعية التأسيسية إلى أجل غير مسمّى.

وسارت المظاهرات في دمشق وحلب ومختلف الارجاء السورية، وابرق المتظاهرون إلى عصبة الامم باحتجاجهم على تصرف سلطة الانتداب. واستمرت الحال مضطربة حتى ١٤ ايار ١٩٣٠، حين نشر الدستور بأمر من المفوض السامي، وجاء كما أقرته الجمعية التأسيسية؛ لكن مادة اخيرة (المادة ١١٦) اضيفت إليه عطّل مضمونها جوهر الدستور من حيث تركيزها على امور كثيرة لا تصبح ناجزة إلا بعد «اتفاق بين الحكومتين» (الفرنسية والسورية). فردّ النواب هذه المادة، وعادت الامور متفاقمة.

حكومة المندوب سالومياك: أصدر المفوض السامي، بونسو، في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣١، قرارًا بانهاء حكومة الشيخ تاج الدين التي استمرت في الحكم زهاء اربع سنوات رغم وصفها بالحكومة الموقتة. وقد تضمن قرار المفوض السامي إسناد مهام الحكومة إلى مندوبه الجديد في دمشق مسيو سالومياك Salomiac (الذي كان قبل ذلك مندوبًا في بيروت)، وقد ألّف هذا حكومته التي وصفت ايضًا بالموقتة. وانصب اهتمام سالومياك، سياسيًا، على اجراء انتخابات نيابية. وبعد نحو اسبوعين، أي في مطلع كانون الاول (١٩٣١)، اصدر المفوض السامي قرارًا باحداث مجلس إستشاري اعلى مهمته إبداء الرأي للمفوض السامي في الاحوال الحاضرة. ويتألف هذا المجلس من الذين سبق لهم القيام برئاسة الدولة ورئاسة المجلس التمثيلي منذ بدء الانتداب ومن رئيس محكمة التمييز وعميد الجامعة ورؤساء الغرف التجارية في دمشق وحلب. وفي السابع من الشهر المذكور، افتتح المجلس الاستشاري الاعلى برئاسة المفوض السامي الذي القى خطابًا جاء فيه:

«ان الحل الدائم لما هو قائم بين فرنسا وسورية من اختلاف في وجهات النظر إنما يتم بعد اجراء انتخابات نيابية في سورية تبدأ في ٢٠ الشهر الجاري وتنتهي في ٥ كانون الثاني ١٩٣٢ فيقوم

في اثرها ممثلو الامة الشرعيون بالمفاوضات مع المفوض السامي توصلاً لعقد معاهدة بين الدولتين فرنسا وسورية».

وبدأت الانتخابات النيابية في مواعيدها، واشتركت بها الاحزاب على اختلافها. واظهرت نتائجها (٩ نيسان ١٩٣٢) عن مفاجآت مثل فشل ممثلي الكتلة الوطنية في حلب. وبرز بين المرشحين المستقلين فوز محمد علي العابد الذي التف حوله نواب الكتلة (بزعامة انشطهم جميل مردم بك) ليمنعوا وصول صبحي بركات أو حقي العظم إلى مقام رئاسة الجمهورية.

بدء عهد الجمهورية: في ٧ و١١ و١٣ حزيران ١٩٣٢، اجتمع المجلس النيابي بدعوة من المفوض السامي، وانتخب النائب محمد علي العابد رئيسًا للجمهورية (فكان اول رئيس للجمهورية السورية بالانتخاب)، وصبحي بركات رئيسًا للمجلس النيابي.

وفي اليوم التالي (١٤ حزيران)، أصدر رئيس الجمهورية موافقته على تأليف الوزارة الاولى في العهد الجمهوري على الوجه التالي: حقي العظم لرئاسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية، مظهر رسلان لوزارتي العدلية والمعارف، جميل مردم بك لوزارتي المالية والزراعة، سليم جمبرت لوزارتي الاشغال العامة والاقتصاد.

وأكثر ما شغل الحياة السياسية في هذه الاثناء قضية مشروع المعاهدة المزمع عقدها بين سورية وفرنسا. وما رشح عن هذا المشروع عارضه الوطنيون بقوة، يتقدمهم ابراهيم هنانو اثناء وجوده في دمشق، وسارت مظاهرة شعبية وراءه بعد ان القى خطابًا أكد فيه وجوب تضمين المعاهدة نصًا صريحًا باعطاء سورية كامل حريتها واستقلالها. واستقالت الوزارة إثر هذه المظاهرة، واعاد المفوض السامي تكليف حقي العظم تشكيل حكومة جديدة على ان لا يتمثل فيها احد من الكتلة الوطنية (٣ حزيران ١٩٣٣). واستمر الكتلويون الوطنيون في معارضتهم الحكومة الجديدة وفي مساعيهم لاسقاطها.

دو مارتيل يخلف بونسو ومشروع معاهدة جديد: عينت الحكومة الفرنسية الكونت دو مارتيل (سفير فرنسا في الصين) مفوضًا ساميًا خلفًا لبونسو، فجاء سورية في تموز ١٩٣٣. وفي اليوم التالي، استقبل وفدًا من زعماء الكتلة الوطنية عرض عليه الوضع في سورية وطلب منه تحقيق رغبات الامة وإلا اصبحت الكتلة غير مسؤولة عما سيحدث في سورية من اضطرابات.

في تشرين الثاني ١٩٣٣، اطلع دو مارتيل رئيس الحكومة السورية حقي العظم على مشروع معاهدة تعرض على مجلسي النواب الفرنسي والسوري، وصفت بأنها «معاهدة سلم وصداقة بين فرنسا وسورية المستقلة ذات السيادة».

واثناء مناقشة المعاهدة في المجلس النيابي، كانت التظاهرات المنددة بها تملأ الساحات المحيطة بالمجلس، وكان نواب الكتلة يتبارون في تقديم الحجج لرفضها، ووقف إلى جانبهم أكثر النواب. واصدر المفوض السامي، اثناء الاجتماع، بلاغًا باقفال المجلس، ولكن النائب فائز الخوري رد بقوله: «إننا هنا بارادة الامة فلا نخرج إلا بارادتها». وعندما دخلت قوات الامن قاعة المجلس، قصد النواب بيت رئيس المجلس صبحي بركات، ونظموا في منزله احتجاجًا على اغلاق المجلس النيابي خلافًا لكل قانون ونظام. وبعد ان وقعه الرئيس بركات، رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسية وإلى جمعية الامم. وفي ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣، اصدر المفوض قرارًا بتوقيف اجتماعات المجلس طيلة دورته الحالية.

واستقال حقي العظم، ووزارته، في ١٧ ايار ١٩٣٤، واتفق المفوض السامي ورئيس الجمهورية على تكليف الشيخ تاج الدين تشكيل

حكومة جديدة. وعادت المظاهرات الغاضبة تعم الارجاء السورية، وسيق إلى السجون نحو ثمانين من الوطنيين وفي مقدمتهم سعد الله الجابري. وفي تشرين الثاني ١٩٣٥، توفي ابراهيم هنانو في دمشق بعد اعتلال صحته.

في ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٦، بعث صبحي بركات (رئيس المجلس النيابي) برسالة إلى المفوض السامي دو مارتيل ضمنها شكواه من البعثة الفرنسية في دمشق التي تنقل إلى المفوض السامي وإلى الحكومة الفرنسية صورة غير صحيحة عن الاوضاع السورية، فتنقل ما يحلو لها من أخبار لتبقى متحكمة برقاب السوريين، ما يضر بمصلحة المخلصين من السوريين والفرنسيين. فأوعزت الحكومة الفرنسية إلى دو مارتيل ان لا يتأخر عن عقد المعاهدة مع أية حكومة سورية حائزة ثقة أكثرية الشعب السوري.

بدأ دو مارتيل مفاوضاته مع هاشم الأتاسي (أبرز الزعماء الوطنيين)، ثم أعلن في مطلع شباط ١٩٣٦، استعداده للتفاهم مع الزعماء الوطنيين على اساس سفر وفد منهم إلى باريس، حيث يتفق مع وزارة الخارجية الفرنسية على دستور يضمن لسورية استقلالها ووحدتها بموجب معاهدة تعقد بين البلدين. واستقالت وزارة تاج الدين (٢٣ شباط ١٩٣٦)، وشكل عطا الايوبي وزارة جديدة بتكليف من رئيس الجمهورية محمد علي العابد. واجتمعت الكتلة الوطنية، وانتخبت وفدها إلى باريس، وكان مؤلفًا من رئيسها هاشم الأتاسي، والاعضاء فارس الخوري وجميل مردم بك وسعد الله الجابري؛ واختارت الحكومة السورية بدورها الوزيرين الشهابي والحمصي عضوين في الوفد، كما اختارت لأمانة سر الوفد نعيم انطاكي وادمون رباط، فغادروا سورية معًا في آذار ١٩٣٦.

معاهدة ١٩٣٦ وآثار التفاهم بين المفوض والحكومة: عاد الوفد في مطلع تشرين الاول ١٩٣٦، ونشر رئيسه هاشم الأتاسي نص المعاهدة بين وفد الكتلة الوطنية ومندوبي وزارة الخارجية الفرنسية، مع بروتوكول إتفاق عسكري ملحق بها، مذيلة بالمكان والتاريخ («كتب في باريس ١٩ ايلول ١٩٣٦»)، وبالتواقيع (عن الطرف الفرنسي: ب. فينو دو مارتيل، وهاشم الأتاسي وفارس الخوري وجميل مردم وسعد الله الجابري ومصطفى الشهابي وادمون حمصي عن الطرف السوري).

تضمنت المعاهدة تسع مواد تنص على مختلف أوجه التعاون بين دولتين حليفتين، وعلى إسقاط المسؤوليات المترتبة على الحكومة الفرنسية وانتقالها إلى الحكومة السورية فور وضع المعاهدة موضع التنفيذ... لكنها لم تأتِ على ذكر الانتداب ولا على موعد انتهائه وانسحاب الجيش الفرنسي من البلاد، والاستقلال الناجز... أما البروتوكول الملحق فاحتوى على ثماني مواد تدور جميعها حول التعاون العسكري.

افتتح المجلس النيابي في ٢١ كانون الاول ١٩٣٦ وانتخب فارس الخوري رئيسًا للمجلس. ثم تلي كتاب استقالة رئيس الجمهورية، محمد علي العابد، وانتخب المجلس هاشم الأتاسي (رئيس الكتلة الوطنية ونائب حمص) رئيسًا للجمهورية. وأصدر الأتاسي مرسومًا بتأليف الحكومة من اركان الكتلة الوطنية: جميل مردم بك (رئيسًا)، وسعد الله الجابري وشكري قوتلي وعبد الرحمن كيالي. ولدعم هذه الحكومة، أصدر المفوض السامي دو مارتيل قرار العفو عن المبعدين السياسيين، وفي مقدمتهم عبد الرحمن شهبندر وسلطان باشا الاطرش والامير شكيب ارسلان وإحسان الجابري والشيخ رضا الرفاعي والحاج فاتح المرعشي، فاستقبلتهم العاصمة استقبالاً حارًا.

ومن الآثار الأخرى للتفاهم بين المفوض السامي والحكومة السورية إعادة ارتباط مقاطعتي

بلاد العلويين وجبل الدروز بسورية، حين قدم نوابهما إلى المجلس النيابي. فأعلن اولاً نواب جبل الدروز تنازلهم عن وضع الجبل الخاص؛ ثم قام جمال علي أديب، من نواب قضاء جبلة، معلناً تنازل مقاطعة اللاذقية التابع لها القضاء المذكور عن استقلالها المالي والاداري لتكون متساوية مع سائر المحافظات السورية، وأيده في ذلك جميع نواب المقاطعة المذكورة. وعينت الحكومة السورية اثر ذلك مظهر باشا رسلان، احد اركان الكتلة الوطنية، محافظًا على هذه المقاطعة بدلاً من حاكمها الفرنسي شفلر.

ومن الآثار البارزة لذلك التفاهم والتمهيد لتصديق المعاهدة وقوف مندوب المفوض السامي ومعاونيه في دمشق وكل سورية بعيدين عن كل تدخل في شؤون الحكومة واقتصار المستشارين لدى الوزارات على ابداء الرأي إذا استشيروا، بخلاف ما كانوا عليه من تدخل في كل صغيرة وكبيرة، واخيرًا ظهور رجال الحكومة في كل سورية بمظهر الحكام الاحرار المستقلين.

إقرار سورية معاهدة ١٩٣٦ والاحداث الموافقة: نصت المعاهدة في مادتها السابعة: «تبرم المعاهدة بأسرع ما يمكن وتبلغ إلى عصبة الامم وتوضع موضع التنفيذ يوم قبول سورية في عصبة الامم».

وعلى هذا الأساس، عقد المجلس النيابي في ٢٢ كانون الاول ١٩٣٦ جلسته الثانية، واقر المعاهدة، و نشر القانون في هذا الشأن في ٢٧ كانون الاول ١٩٣٦. وأخذت الحكومة السورية تجهد في سبيل ان يعمد الطرف الفرنسي إلى اقرار المعاهدة بدوره. ولهذه الغاية، سافر رئيس الوزراء ووزير الداخلية والخارجية مرتين (٣ شباط واواخر ايار ١٩٣٧)، إلى باريس تاركين امر القيام بمهام رئاسة الوزارة والوزارتين المذكورتين إلى وزير المالية والدفاع شكري القوتلي.

في أثناء ذلك سرت، في دمشق وانحاء سورية، شائعات عن اتفاق بين فرنسا وتركيا بشأن فصل لواء الاسكندرونة عن سورية. وعزّز هذه الشائعات، توقف جميل مردم بك في أنقرة في طريق عودته من باريس. ومع وصوله إلى دمشق، سارت تظاهرة صاخبة منددة بـ«تخاذل» الكتلة الوطنية إزاء هذا الامر.

وتعزّز هذا «التخاذل» في أذهان السوريين لدى قراءتهم للبيان الذي ألقاه رئيس الوزارة، جميل مردم بك، في المجلس النيابي (١٨ تشرين الثاني ١٩٣٧) حيث ذكر «الصعوبات التي حالت دون ابرام الجانب الفرنسي المعاهدة، وفي مقدمة هذه الصعوبات قلق الحكومة الفرنسية مما قد ينتاب سورية من امور بعد زوال الانتداب». وبعد هذه الجلسة، سافر مردم إلى باريس، وعاد منها في اواخر كانون الاول ١٩٣٧، وأعلن ان نتيجة مساعيه لدى مسيو تيسان، وكيل وزارة الخارجية الفرنسية، قد انتهت إلى وجوب اعطاء الحكومة الفرنسية ضمانات باحترام حقوق الاقليات وقبول الخبراء الفرنسيين ومتابعة سياسة التعاون... لكن الوزراء والنواب لم يروا في هذا البيان ما يطمئن، وكان اشدهم نقمةً شكري قوتلي الذي قدم استقالته من الوزارة في ٢٢ آذار ١٩٣٨.

وعاد مردم إلى باريس في ١٠ آب ١٩٣٨، وطال غيابه أربعة اشهر متنقلاً بين باريس وجنيف، ووقع اتفاقًا مع وزير خارجية فرنسا جورج بونيه Georges Bonnet على ضمان حقوق الاقليات وتدريس اللغة الفرنسية في المدارس السورية وتجديد امتياز مصرف سورية ولبنان واستثمار النفط وقبول مساعدة مالية من فرنسا، كما اتفقا على وجوب ابرام فرنسا المعاهدة بأسرع ما يمكن.

وبعد عودة رئيس الوزارة، مردم، وفي جلسة المجلس النيابي، عاد ليتكلم عن الصعوبات القائمة في وجه ابرام فرنسا للمعاهدة (اهمها

الخشية من ان تتعرض سورية، بعد جلاء الجيش الفرنسي عنها، لاحتلال أي نفوذ اجنبي آخر)، كما خلا كلامه عن أي ذكر للواء الاسكندرونة. فازدادت حملات المعارضة واندلعت التظاهرات، وبرز في طليعة المعارضين الدكتور عبد الرحمن شهبندر رئيس حزب الشعب.

وفي اواخر عهد دو مارتيل (خريف ١٩٣٨)، جرى فصل لواء الاسكندرونة عن سورية.

لواء الاسكندرونة (أو «الاسكندرون»): راجع «تركيا»، ج٦، ص ٢٥٨؛ وراجع كل ما له علاقة وفي مختلف ابواب هذه المادة «سورية»).

في ايام المفوض السامي غبريال بيو، نظام الطوائف: بعد خمس سنوات وثلاثة أشهر قضاها دو مارتيل مفوضًا ساميًا في سورية ولبنان، استدعته حكومته في تشرين الاول ١٩٣٨، وعينت مكانه غبريال بيو Gabriel Puaux الذي باشر مهماته فور وصوله إلى هذه البلاد في كانون الثاني ١٩٣٩.

وفي اول اجتماع له مع الحكومة السورية، حثها بيو على الأخذ بنظام الطوائف الذي كان قد صدر في ١٣ آذار ١٩٣٦ (في ايام المفوض السامي دو مارتيل) ووضع في الادراج كونه «نظامًا مدنيًا يخالف الدين الحنيف». ولما عزمت حكومة جميل مردم على البدء بتطبيقه، قامت في وجهها معارضة قوية وسارت تظاهرات صاخبة، تراجعت إزاءها الحكومة وأحالت هذا النظام على لجنة عليا لدراسته (شباط ١٩٣٩). وكان في طليعة المحرّضين الشيخ كامل القصاب، ورئيس حزب الشعب عبد الرحمن شهبندر. واعاد المعارضون طرح قضية لواء الاسكندرونة، واظهروا مردم بمظهر الخائن. فاستقالت حكومته في ١٨ شباط ١٩٣٩، وكلف رئيس الجمهورية (هاشم الأتاسي) لطفي الحفار بتأليف وزارة جديدة.

ونظام الطوائف المشار إليه، والمتضمن الاحوال الشخصية للطوائف في سورية ولبنان شاملاً المسلمين والمسيحيين على قاعدة المساواة، ومن مقتضاه اعطاء كل من ادرك سن الرشد حرية الاعتقاد الديني والمذهبي... درسته اللجنة القومية العليا (شكلتها حكومة جميل مردم)، واستمرت بها حكومة لطفي الحفار)، وأصدرت احتجاجات على نقاط كثيرة. فأصدر المفوض السامي بيو في ٣٠ آذار ١٩٣٩، قرارًا تشريعيًا رقم ٥٣ يتضمن عدم تطبيق النظام السالف الذكر على المسلمين، فاقتصر العمل به في كل من سورية ولبنان على غير المسلمين. وبموجب قرار بيو هذا لم يعد العلويون والاسماعيليون يشكلون طائفة مستقلة كما نص عليه القرار ا لتشريعي (نظام الطوائف) السابق الذي كان يحمل رقم ٦٠ تاريخ ١٣ آذار ١٩٣٦ (أي في ايام دو مارتيل).

استقالة رئيس الجمهورية وتعليق الدستور: لم تستطع حكومة الحفار البقاء في الحكم لأكثر من ٢٠ يومًا، إذ كانت التظاهرات تتوسع والنقمة على الكتلة الوطنية تزداد، فقدم الحفار استقالته في ١٤ آذار ١٩٣٩. ومع اصرار الرئيس الاول لمحكمة التمييز مصطفى برمده، على موقفه الرافض تكليفه تشكيل حكومة جديدة مفضلاً البقاء في القضاء على السياسة، واستمرار الاضطرابات (إضافة إلى اعمال شغب في اسواق دمشق يوم ٢٠ آذار ١٩٣٩)، استلم مندوب المفوض السامي في سورية دو هوتكلوك de Hautecloque ادارة الحكم موقتًا في البلاد، بالتعاون مع الحكومة المستقيلة والباقية ريثما تتألف حكومة جديدة.

دامت هذه الادارة الحكومية المشتركة (الحكومة المستقيلة ومندوب المفوض السامي) مدة اسبوعين وانتهت بتأليف نصوحي البخاري الوزارة الجديدة في ٥ نيسان ١٩٣٩، وجاء خالد العظم

وزيرًا للعدلية والخارجية.

لم تستطع وزارة البخاري تحقيق الاستقرار في العاصمة والملحقات إزاء التظاهرات الشعبية التي كان يحركها، كلما سكنت، ابناء لواء الاسكندرونة النازحون إلى العاصمة. وإزاء تدخل القوات الفرنسية لحفظ النظام، احتج بعض النواب، فاصدر المفوض السامي قراره بتأجيل اجتماع النواب لمدة شهر اعتبارًا من ٢٠ نيسان ١٩٣٩. وتكرر هذا التأجيل، وقدّمت وزارة البخاري استقالتها إلى رئيس الجمهورية الذي قبلها في ٤ تموز ١٩٣٩. وبعد ثلاثة ايام ارسل رئيس الجمهورية (الأتاسي) كتاب استقالته من الرئاسة إلى رئاسة المجلس النيابي، بعدما ظهر له من «عودة إلى اساليب نقض العهد، راجيًا ان تأتي الايام المقبلة بما يحقق آمال الأمة السورية». وفي اليوم التالي (٨ تموز ١٩٣٩) اصدر المفوض السامي، بيو، قراره المتضمن تعليق دستور الدولة السورية موقتًا، وحل مجلس النواب، وتأمين السلطة التنفيذية، تحت مراقبة المفوض السامي، بمجلس يؤلف من مديري المصالح العامة برئاسة مدير الداخلية.

حكومة المديرين: رأس هذه الحكومة مدير الداخلية بهيج الخطيب. و لم تبدل هذه الحكومة في الاوضاع الادارية شيئًا، سوى انها قضت على نفوذ الكتلة الوطنية، وانصرفت إلى القضايا الادارية دون ان يبقى مجال لأي عمل سياسي في دوائر الحكومة، وصرفت كل موظف كبير ينتمي إلى حزب سياسي عن وظيفته.

أثناء الحرب العالمية الثانية: أعلنت حكومة فيشي تعيين الجنرال دانتز مفوضًا ساميًا في سورية ولبنان، بعد ان أقالت بيو في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٠ (وكانت عينت قبل دانتز، لهذا المنصب، جان كباب الذي لاقى حتفه بسقوط طائرته على الحدود الفرنسية-الايطالية وهو قادم إلى بيروت).

رفع السوريون شكواهم من حكومة المديرين للمفوض الجديد (دانتز). وعقب هذه الشكوى اضطرابات في مختلف انحاء سورية وبدأت في اثرها زعامة شكري القوتلي على رأس الحزب الوطني القائم مقام الكتلة الوطنية.

وبعد وقت قليل، وجد الجنرال دانتز نفسه امام لجنة خبراء مؤلفة من ضباط المان وايطاليين قدموا بيروت بمهمة الاشراف على الشؤون العسكرية واستخدام موارد سورية ولبنان في هذا السبيل. فأصبحت سورية ولبنان منطقة حربية

زيارة المفوض بوو للامير سلطان باشا الاطرش (١٩٤٠).

خاضعة للتدابير العسكرية التي تأمر باتخاذها حكومة فيشي ومن ورائها المانيا الهتلرية.

كلف دانتز الداماد احمد نامي رئاسة الدولة من جديد، وطلب إليه تشكيل الحكومة. ولما فشل الداماد بتكليف رئيس لتشكيل الحكومة، عاد دانتز واستغنى عن تعيين رئيس دولة لسورية، واكتفى بحكومة عهد برئاستها لخالد العظم. فعملت هذه الحكومة على هدي ما كان اركان الكتلة الوطنية وشكري القوتلي يوحون به. ودامت هذه الحكومة من ٣ نيسان إلى ١٢ ايلول ١٩٤١.

«فرنسا الحرة» (ديغول) تعترف باستقلال سورية: في ٨ حزيران ١٩٤١، انضم الكومندان كوليه فجأة، وكان يتظاهر باخلاصه لرئيسه الجنرال دانتز، إلى جيش بريطانيا وفرنسا الحرة. وفي اليوم نفسه، حلقت طائرات في سماء العاصمة السورية وألقت مناشير من الجنرال كاترو، ممثل فرنسا الحرة في الشرق، تعلن للسوريين واللبنانيين قدومها باسم زعيمها الجنرال ديغول لانهاء عهد الانتداب واعلان الحرية والاستقلال لكل من سورية ولبنان بموجب معاهدة تعقد بينه وبين ممثليهما («إن فرنسا بصوت أبنائها تعلن استقلالكم»). ووقعت معارك بين الجيوش المشتركة القادمة من فلسطين وشرقي الاردن والجيوش الفيشية في حدود مرجعيون والناقورة. وفي صباح ٢١ حزيران، نشر رئيس الحكومة السورية خالد العظم بلاغًا قال فيه: «تبلغت الحكومة الآن القرار الذي اتخذته السلطة الفرنسية بضرورة إخلاء الجيش الفرنسي (الفيشي) مدينة دمشق...». وفي اليوم نفسه، وصلت طلائع جيوش الحلفاء، وعلى رأسها كوليه (الذي اصبح جنرالاً) إلى دمشق، وانسحب الجيش الفيشي باتجاه الشمال. ثم وصل الجنرال كاترو وأعلن تأييده لما جاء في منشوره، وعينته حكومته مندوبًا عامًا لفرنسا الحرة في سورية ولبنان. وفي ١٢ ايلول ١٩٤١، عهد المندوب العام لفرنسا الحرة في الشرق، الجنرال كاترو، إلى الشيخ تاج الدين الحسني بمهمة رئاسة الجمهورية السورية. وشكلت الحكومة برئاسة حسن الحكيم (الذي كان من كبار حزب الدكتور شهبندر)، وضمت، من اعضائها، فائز الخوري من الكتلة الوطنية.

اعلان استقلال سورية: في ٢٧ ايلول ١٩٤١، تقدم الجنرال كاترو إلى الحكومة السورية بتصريح خطي يتضمن اعلان استقلال سورية:

«يتحمل الحلفاء في فترة الحرب، قيامًا بالكفاح المشترك ومحافظةً على استقلال سورية وسيادتها، اعباء الدفاع عن البلاد ولأجل ذلك تضع سورية تحت تصرف قيادة الحلفاء القوى الوطنية السورية (...) لتحيا سورية المستقلة... لتحيا فرنسا». وفي اليوم نفسه، اقيمت حفلة في دار الحكومة في دمشق، ووقع الاعلان رئيس الجمهورية محمد تاج الحسني والجنرال كاترو.

وفي ١٢ كانون الثاني ١٩٤٢، اصدر كاترو قرارًا يتضمن ان منطقة جبل الدروز، المستقلة استقلالاً اداريًا، هي جزء متمم لدولة سورية ويطلق عليها رسميًا «محافظة جبل الدروز» وتتمتع بنظام خاص مالي واداري. كما اصدر قرارًا آخر مشابهًا في ما يتعلق ببلاد العلويين التي اطلق عليها «محافظة جبل العلويين». وفي هذه الاثناء، جاء دمشق الجنرال البريطاني ادوارد سبيرز E. Spears معينًا وزيرًا مطلق الصلاحية لبريطانيا في سورية ولبنان.

اربع وزارات: اشتد الخلاف بين رئيس الجمهورية، الشيخ تاج الدين، ورئيس الوزارة حسن الحكيم. وفي ١٧ نيسان ١٩٤٢، اصدر رئيس الجمهورية مرسومًا باعتبار الوزارة منحلة، وعهد بتأليفها إلى حسني البرازي. وسارت هذه الوزارة مدة ستة اشهر على تفاهم مع رئيس

شكري القوتلي (الى اليسار) يلقي خطاباً بعد انتخابه رئيساً للجمهورية والى جانبه جميل مردم بك (١٧ آب ١٩٤٣).

الجمهورية وسلطة الانتداب، إلى ان بدأ الخلاف حول العلاقة مع هذه السلطة. فكان البرازي يصرح بترجيح موالاة بريطانيا بينما ثابر رئيس الجمهورية على حسن الصلات بفرنسا. ودام هذا الخلاف ثلاثة اشهر، كان البرازي خلالها كثير الاتصال بالجنرال البريطاني سبيرز. وتمكن رئيس الجمهورية من ازاحة البرازي، وكلف العقيد السابق جميل الألشي (مستقل) تشكيل الحكومة الثالثة في عهده (٨ كانون الثاني ١٩٤٣). وبعد ايام قليلة، توفي رئيس الجمهورية. فاجتمع مجلس الوزراء واتخذ قرارًا بتولي رئيس الوزارة، الألشي، مهام السلطة التنفيذية قائمًا مقام رئيس الجمهورية بالوكالة عملاً بالدستور.

لم يطل عهد الوزارة لأسباب عديدة، أهمها معارضة الكتلة الوطنية، وتظاهرات شعبية بدأت بعد قيام الجنرال سبيرز، الوزير البريطاني، بعدة اتصالات بالوطنيين وغيرهم من سائر الاحزاب الراغبة في الاستقلال التام والناجز. فالتف الجنرال كاترو على هذا «النشاط البريطاني» وأقام صلات وطيدة بهاشم الأتاسي وشكري القوتلي (كسبًا لعواطف الكتلة الوطنية)، واصدر في ٢٥ آذار ١٩٤٣ قرارًا بانهاء مهمة وزارة جميل الألشي وضرورة قيام وزارة حيادية تشرف على انتخابات نيابية حرة. وبعد تفاهم بينه وبين اركان الكتلة الوطنية، عهد كاترو، في ٢٥ آذار ١٩٤٣، إلى عطا الايوبي برئاسة الدولة والحكومة معًا.

وجرت الانتخابات النيابية (بعد ان وافقت فرنسا وبريطانيا على انتهاء الانتداب فتتمتع سورية باستقلالها التام)، وفازت الكتلة الوطنية باكثرية بارزة (آب ١٩٤٣).

شكري القوتلي رئيسًا للجمهورية: في ١٧ آب ١٩٤٣، اجتمع المجلس النيابي، وانتخب فارس الخوري رئيسًا له، وشكري القوتلي رئيسًا للجمهورية. وبعد يومين، تألفت الحكومة بمرسوم جمهوري، وجاءت برئاسة سعد الله الجابري، واكثرية وزرائها من الكتلة الوطنية.

في هذه الاثناء (آب ١٩٤٣) غادر كاترو سورية ولبنان متوجهًا إلى الجزائر (مقرّ الجنرال ديغول)، وخلفه كبير أمنائه جان هيلو Jean Helleu.

كانت ادارة المصالح المشتركة في سورية ولبنان (الامن العام، الجمارك، السكك الحديدية، مراقبة الصحف والمطبوعات والشركات ذات الامتياز...) تحت اشراف الانتداب، يديرها مديرون فرنسيون يعاونهم موظفون سوريون ولبنانيون. وقد واصلت الوزارة السورية (واللبنانية) سعيها لاستلام هذه المصالح بعد ان اعلن استقلال كل من سورية ولبنان، فلم تظفر بنتيجة إلا في ٢٣ كانون الاول ١٩٤٣، حيث عقد اجتماع في دمشق، بحضور رئيس الجمهورية

شكري القوتلي، بين مندوب فرنسا وبين ممثلي الحكومتين السورية واللبنانية، وهم عن سورية رئيس الوزارة سعد الله الجابري ووزير الخارجية جميل مردم بك ووزير المالية خالد العظم، وعن لبنان رئيس الوزارة رياض الصلح والوزير سليم تقلا. وقد تم الاتفاق في هذا الاجتماع على انتقال الصلاحيات إلى الدولتين السورية واللبنانية، مع حق التشريع والادارة اعتبارًا من اول كانون الثاني ١٩٤٤.

وإثر الخلاف بين رئيس الوزارة الجابري ووزير الداخلية الحفار، تشكلت حكومة جديدة، في ١٤ تشرين الاول ١٩٤٤، برئاسة فارس الخوري، التي استمرت حتى ٥ نيسان ١٩٤٥، حيث ألفت حكومة جديدة برئاسة فارس الخوري ايضًا.

عربيًا وخارجيًا: في صيف ١٩٤٣، وجه النحاس باشا، رئيس وزارة المملكة المصرية، دعوة إلى الدول العربية للاشتراك في تأليف «جامعة عربية». فلبى الدعوة معظم الحكومات العربية واجتمع مندوبوها في ٧ تشرين الاول ١٩٤٤ في الاسكندرية حيث عهدوا إلى لجنة سياسية وضع ميثاق الجامعة. ووضع الميثاق وجرى توقيعه في قصر الزعفران في القاهرة (٢٢ آذار ١٩٤٥)، من قبل مندوبي مصر، سورية (فارس الخوري رئيسًا للوزارة، وجميل مردم بك وزيرًا للخارجية)، لبنان، الاردن، العراق والمملكة العربية السعودية.

على الصعيد الدولي، أعلنت سورية، في ٢٦ شباط ١٩٤٥، الحرب على المانيا واليابان (كما أعلنها لبنان)، فكان اعلانًا شكليًا يستهدف انضمام الدولة إلى هيئة الامم المتحدة. ففي ٣١ آذار ١٩٤٥، دعيت سورية إلى الاشتراك في مؤتمر سان فرنسيسكو. ممثلها فيه وفد برئاسة فارس الخوري.

نهاية الانتداب: تزخمت الاتصالات بين رجال الحكم في سورية ولبنان وبين الساسة البريطانيين، قابلها تصرف فرنسي لم يوحِ اطلاقًا بتنفيذ وعد الاستقلال التام والجلاء. ففي ١٨ ايار ١٩٤٥، وعقب عودته من فرنسا حيث تشاور مع حكومته، طلب المندوب العام، الجنرال بينيه، من كل من حكومتي سورية ولبنان، ان توقع مع فرنسا على الاتفاقيات الثلاث المربوطة بهذا الطلب تضمن الاولى لفرنسا استقلال مؤسساتها الثقافية، والثانية صياغة مصالحها الاقتصادية، والثالثة تأسيس قواعد جوية وبحرية لها مع الاحتفاظ بقيادتها الفرنسية.

ورفضت الحكومتان السورية واللبنانية الطلب المذكور (اجتماع مشترك في شتورة)، وكذلك المجلس النيابي السوري المنعقد في ٢٦ ايار ١٩٤٥. وكانت الحجة قوية جدًا: كان قد تم اعتراف كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا (إضافة إلى اعتراف فرنسا نفسها في اكثر من مناسبة) باستقلال سورية.

«لم تنتبه الحكومة الفرنسية إلى أن الوضع السائد في العالم في نهاية الحرب العالمية الثانية لم يعد يسمح للاستعمار التقليدي ببسط سيطرته على الامم الرازحة تحت احتلاله، بعد ان تنبهت إلى حقوقها السياسية ولمست ضعف الدول الاستعمارية وتزاحمها بشتى الوسائل وافادت من دعم الدول الاشتراكية ودعايتها ومن المناداة بمبادىء هيئة الامم المتحدة. ولم تقدّر فرنسا على حقيقته ضعف وضعها في سورية ولبنان بعد ان جلت عنهما معظم قواتها الموالية لحكومة فيشي، واضحت القوة العسكرية في كلا البلدين متمثلة بجيوش بريطانيا العظمى التي قام ممثلوها، على الصعيدين الرسمي والشعبي، بدعاية واسعة تستهدف دعم تحرر سورية من الاحتلال الفرنسي وتحالفها مع بريطانيا، أسوة بمعظم الدول العربية في المشرق الادنى. ويبدو ان بريطانيا لم تكبح جماح

السلطات الفرنسية من الاستمرار في بسط نفوذها على سورية ولبنان مع اللجوء إلى القوة عند الاقتضاء وطمأنتها إلى انها لم تتدخل حيال أي خطوة قد تتخذها فرنسا في هذا السبيل، في حين كانت بريطانيا تؤكد لزعماء البلدين دعمها السياسي والعسكري لأي حركة قد يقومون بها في سبيل انجاز استقلالهما على ان تصدر المبادرة عنهم لعدم احراج مركز بريطانيا حيال حليفتها الاسمية. فوقعت فرنسا في الفخ واوعزت إلى ممثليها في سورية ولبنان اللجوء إلى القوة لارغام حكومة كلا البلدين على الرضوخ لطلباتها، وذلك رغم اعلانها رسميًا استقلال البلدين ورغم الوعود التي قطعها الجنرال ديغول في برازافيل للمستعمرات الفرنسية كافة (يوسف الحكيم، «سورية والانتداب الفرنسي»، ص ٣٤١-٣٤٢).

وجاءت حوادث الايام الثلاثة الاخيرة من ايار ١٩٤٥، وما أسفرت عنه من نتائج، لتدل بوضوح على «وقوع فرنسا في الفخ». فهذه الحوادث التي ذهب ضحيتها المئات اثر اشتباكات بين الجنود الفرنسيين (سنغاليين بأكثريتهم) وقوات الامن السورية (الدرك) وقصف الجيش الفرنسي للاحياء المدنية في دمشق بعد رفض الضابط السوري أمر الضابط الفرنسي بأن تؤدي مفرزة حراسة المجلس النيابي التحية للعلم الفرنسي بناء على اوامر السلطات الشرعية السورية، وانتقال هذه الحوادث إلىا لمحافظات حيث هبّ الأهلون يهاجمون المواقع الفرنسية... هذه الحوادث انتهت في يومها الثالث، ٣١ ايار ١٩٤٥، مع استلام الجنرال ديغول برقية من رئيس الوزراء البريطاني تشرشل يقول فيها: «ان القتال الدامي الذي يجري في سورية بين الجيش الفرنسي والقوات السورية اضطرنا، حرصًا على الامن في الشرق الاوسط، إلى اعطاء الامر للقائد الاعلى البريطاني بالتدخل لمنع إراقة الدماء، فارجو ان تأمروا قواتكم بالعودة إلى ثكناتها، على ان تجري مفاوضات سياسية ثلاثية في لندن». وقد خطب تشرشل في مجلس العموم البريطاني مبررًا تدخل القوات البريطانية بقوله: «لقد انقذنا حلفاءنا الفرنسيين من نقمة الشعب السوري».

في اليوم نفسه (٣١ ايار ١٩٤٥)، يوم

السوريون يحتفلون بأول عيد جلاء القوات الفرنسية عن دمشق (١٧ نيسان ١٩٤٦).

استلام ديغول برقية تشرشل، قدم دمشق الجنرال باجيت Paget القائد الاعلى للقوات البريطانية في سورية ولبنان، يرافقه الوزير المفوض البريطاني ألن شو، وقابلا رئيس الجمهورية شكري القوتلي، وأبلغاه ورود الامر إليهما من لندن بوجوب انسحاب القوات الفرنسية من سورية وتسلم الجيش البريطاني القيادة العسكرية محلها فورًا، على ان يتم البت في القضية بمفاوضات تجري في لندن بين ممثلي كل من سورية وفرنسا وبريطانيا.

«وعلم بعدئذ ان مقابلة المسؤولين البريطانيين رئيس الجمهورية قد اقترنت بحصولهما منه على طلب خطي يرجو فيه تدخل الجيوش البريطانية لوقف العدوان الفرنسي، فأنذر على الاثر إلى قيادة الجيش الفرنسي بالتوقف عن اطلاق النار والانسحاب التام من سورية فورًا، بالاضافة إلى حصر جميع الفرنسيين العسكريين والمدنيين في امكنة تحت حماية الجيش البريطاني. وقد شوهد آنئذ المندوب الفرنسي، الجنرال أوليفا روجيه، يغادر مقره في ساحة النجمة في دمشق وهو يقول لمن صادفه عند باب المقر: «يوافقوننا على ضرورة استخدام السلاح لتسكين الاضطراب، ثم يغلون ايدينا ليحلوا محلنا» (المرجع المذكور، ص ٣٤٥).

الجلاء: عاد رئيس الوزارة، فارس الخوري من مؤتمر سان فرنسيسكو، وشكل وزارة جديدة في ٢٦ آب ١٩٤٥، استمرت ٣٥ يومًا فقط، فكلف رئيس الجمهورية، شكري القوتلي، سعد الله الجابري تشكيل وزارة جديدة (هي الوزارة الخامسة في العهد الوطني).

في شباط ١٩٤٦، أقر مجلس الامن الدولي جلاء الجيش الفرنسي عن سورية. فأخذت حكومة الجابري تواصل جهدها لحسن إدارة كل ما كان تحت ادارة الانتداب ريثما توافق فرنسا رسميًا على نهاية الانتداب وما اتصل به من آثار المسائل المشتركة.

وبعد مفاوضات عديدة بين كل من حكومتي سورية ولبنان اولاً، ثم بينهما وبين ممثلي بريطانيا وفرنسا، عقد في مقر وزارة الخارجية الفرنسية (آذار ١٩٤٦) اجتماع ممثلي تلك الدول الاربع تم فيه الاتفاق على جلاء الجيوش الفرنسية والبريطانية عن كامل الاراضي السورية في نيسان ١٩٤٦، وكامل الاراضي اللبنانية في نهاية ١٩٤٦. وقد تمّ الجلاء عن الدولتين في الموعدين المحدّدين.

الثورة السورية الكبرى في سنوات ١٩١٩-١٩٢٩

تمهيد: هذه الثورة، الممتدة والمتواصلة منذ ١٩١٩ حتى ١٩٢٩، قام بها الوطنيون السوريون العرب دفاعًا عن الاستقلال ورفضًا للاستعمار الفرنسي الذي فرضته عصبة الامم بشكل مخالف لكل التعهدات السابقة.

في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وقعت معركة ميسلون. وفي الساعة ١٦ من يوم ٢٥ تموز دخل الفرنسيون دمشق، وفي ٢٨ تموز غادر الملك فيصل دمشق، وبدأت فرنسا في حكم سورية حكمًا مباشرًا.

بدأت مقاومة الانتداب منذ اللحظات الاولى لاعلانه، وأخذت في تصعيد فعاليتها، وشملت الاراضي السورية كافة. أما أهم اسبابها، إضافة إلى رفض حكم الاجنبي الاستعماري بمعناه البحتي، فهي:

- عدم التزام الفرنسيين بمواد صك الانتداب.
- تمزيق البلاد السورية إلى دويلات، وتطبيق سياسة عنصرية واقليمية.
- كبت الحريات العامة وتشديد الرقابة على الصحافة.
- التدخل في الشؤون الدينية للمسلمين ووضع مسؤولين فرنسيين على ادارة المواقف الاسلامية.
- محاولات نقل صور ومظاهر الحياة الفرنسية الاجتماعية والمدنية (تشجيع فتح الملاهي ومراكز بيع الخمور...) ما اعتبر «إفسادًا خلقيًا متنافيًا وطبيعة حياة الشعب العربي المسلم».

في المنطقة الساحلية (١٩١٩-١٩٢١): قادها الشيخ صالح العلي. أشهر معاركها: النيحا، غربي وادي العيون في كانون الثاني ١٩١٩؛ الشيخ بدر، في ٢ شباط ١٩١٩؛ مخفر بابنا، ٤٥كلم شرقي اللاذقية، في ١٦ نيسان ١٩١٩؛ قرية سلمى وقرية ترتاح؛ ولقد توسط الجنرال أللنبي فعقد في قرية الشيخ بدر مؤتمرًا سوريًا-فرنسيًا-انكليزيًا أمكن فيه التوصل إلى اتفاق لوقف الصراع. لكن المعارك تجددت، فوقعت معركة وادي رور في حزيران ١٩١٩، وكانت اكبر معارك المدن الساحلية حيث اشتركت فيها قوة للفرنسيين تزيد على ألفي مقاتل، وانتهت بسقوط مئات القتلى من الجيش الفرنسي وعشرات من الثوار؛ قلعة المريقب في ٢١ تموز ١٩١٩، وكانت القلعة تضم سريتين من الفرنسيين، وانتهت بانسحاب الحامية الفرنسية.

مع تصاعد حدة المعارك، واتساعها، عقد صلح بين الثوار والفرنسيين شريطة الحاق الساحل السوري (بلاد العلويين) بالدولة السورية، وجلاء القوات الفرنسية عنه، واطلاق سراح الأسرى والرهائن والمعتقلين، ودفع تعويضات إلى السكان عن الاضرار التي ألحقها الجيش الفرنسي بقراهم.

تظاهرت السلطة الفرنسية بقبول هذه الشروط، وفي الوقت ذاته أخذت في الاعداد لتصفية قيادة الثورة، فاجتاحت الحامية الفرنسية قرية كاف الجاع، ودمرت منازل القرية فوق سكانها. فردّ الثوار، بقيادة العقداء سليم صالح وإسبر زغيبي وعزيز بربر، بالهجوم على ثكنات طرطوس. وزجت القيادة الفرنسية بقطعها البحرية في المعارك، وانزلت مئات الجنود البحارة لانقاذ الثكنات، فاضطر الثوار إلى الانسحاب.

وفي ٢ آذار ١٩٢٠، قام رجال الشيخ صالح العلي بالهجوم على حامية القدموس وارغامها على الاستسلام بعد ايام من الحصار، وكان لسقوطها اهمية خاصة بسبب موقعها كقاعدة وحيدة في قلب منطقة الثورة. وجاء سقوط دمشق في يد الفرنسيين، إثر معركة ميسلون، ليضعف

موقف الثورة ويضعضع رجالها، ويقطع عنهم موارد الدعم. فاستطاعت فرنسا، في النهاية، تركيز ثلاث حملات كبرى نجحت بواسطتها في تصفية الثورة واحتلال قاعدتها الرئيسية «قرية الشيخ بدر» في ٧ تموز ١٩٢١.

«ما إن حلّ شهر تشرين الاول (١٩٢١) حتى كانت تلك الثورة قد انتهت، فاستسلم الشيخ صالح وسجن في احدى القلاع الصليبية على جزيرة ارواد الصغيرة مقابل الساحل السوري قرب طرطوس، حيث لا تزال هناك ثكنة تحمل إسمه. وبعد ان فرض الفرنسيون النظام على ذلك المكان (بلاد العلويين)، فإنهم لم يستطيعوا ان يحزموا أمرهم ليقرروا تمامًا ما سيؤول إليه مصير المنطقة سياسيًا، وانعكس هذا التذبذب القلق في كثرة تغيير الاسماء. ففي ١٩٢٠ اطلقوا على المنطقة إسم «إقليم الحكم الذاتي للعلويين»، وفي ١٩٢٢، غيروا هذا الاسم إلى «دولة العلويين» ووحدوها مع الدويلات السورية الأخرى التي خلقوها ليفكّوا هذا التوحيد ثانية في ١٩٢٤، ثم أعيدت تسميتها في ايار ١٩٣٠ لتصبح «حكومة اللاذقية». وفي ١٩٣٦ أعادوا إلحاقها ببقية سورية، ولكن ليعيدوا لها حكمها الذاتي إلى حد كبير في ١٩٣٩. وفي ١٩٤٢ وضعت مرة اخرى تحت حكم السلطة في دمشق، في ترتيب اخير في التشابك المفتت قبل ان تفوز سورية باستقلالها التام» (باتريك سيل، «الاسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ترجمه للعربية «المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، ص ٣٥).

في المنطقة الشمالية (١٩١٩-١٩٢٦):

قادها، في بدايتها، انصار تركيا، وحدثت معارك طاحنة اشهرها مخفر الحمام في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٠. وعندما تمّ الصلح بين تركيا وفرنسا، انسحب هؤلاء القادة، فتولى يوسف السعدون القيادة، وشجع والي حلب، رشيد طليع، الثورة بإيعاز من حكومة الملك فيصل، واتفق والي حلب ورئيس ديوان الوالي، ابراهيم هنانو، على الأخذ بمقترحات هذا الأخير بتشكيل زمر صغيرة، قليلة العدد، سريعة التنقل، تضطلع بواجب ازعاج السلطة الفرنسية في منطقة الاحتلال الفرنسي. وقد حققت هذه الزمر نجاحًا كبيرًا في عملياتها، وبرز هنانو قائدًا للثورة في المنطقة الشمالية. ولكن دخول القوات الفرنسية حلب في ٢٣ تموز ١٩٢٠، وضع الثورة في الشمال امام منعطف خطر. فعقد اجتماع تقرر فيه إعادة تنظيم الثورة في المناطق؛ وسافر ابراهيم هنانو إلى تركيا في اواخر آب ١٩٢٠ لطلب الدعم، واستطاع الحصول على كمية صغيرة من الذخائر. وعند انتهاء الاستعدادات، أصدر هنانو بيانًا أعلن فيه استئناف الثورة. ووقعت عدة معارك (أهمها معركة مزرعة السيجري ومعركة كفرتخازيم). وحاول الفرنسيون اغراء هنانو بتسليمه رئاسة حكومة محلية في حلب، ولكنه رفض العرض، ووضع في اول شروطه الحاق دولة حلب بسورية وضمها إليها. بيد ان توقف كل امكانات للدعم من الخارج، وضعف إمكانات الثورة المادية، دفعت قادة الثورة إلى التفرق، فتوجه ابراهيم هنانو إلى شرقي الاردن، ونجيب عويد إلى تركيا، وتوارى آخرون عن الانظار. وقد تمّ هذا التفرق ليل ١١-١٢ تموز ١٩٢١. وفي ١٩٢٢، رجع القادة إلى قواعدهم، واستؤنفت عمليات الثورة متصلة بثورة صالح العلي في المنطقة الساحلية، وصعّدت عملياتها عند انطلاقة الثورة في دمشق والغوطتين.

في المنطقة الشرقية (١٩١٩-١٩٢٤):

في بداية كانون الاول ١٩١٨، وصلت القوات العربية إلى دير الزور واستقبلت استقبالاً حماسيًا. وبعد اسابيع قليلة (كانون الثاني ١٩١٩)، وصلت قوات انكليزية، وفرضت نظامًا جائرًا. فاتصل

زعماء دير الزور بحاكم الرقة القائمقام رمضان شلاش، وطلبوا إليه احتلال دير الزور والحاقها بحكومة دمشق التي كان شلاش يمثلها. واقتحم شلاش، على رأس قوة عربية، دير الزور. وانضمت القبائل العربية إلى قوة شلاش، واحتلت موقع الحامية البريطانية (١٢ كانون الاول ١٩١٩)، وانذر رمضان شلاش القيادة البريطانية بعدم ارسال أية قوات، وهدد بإبادة القوة البريطانية التي استسلمت له إذا ما ارسلت القيادة البريطانية قوات لاسترجاع المدينة. ووافقت القيادة البريطانية بالحاق المنطقة وضمها إلى الدولة العربية في دمشق. فتم اطلاق الأسرى. وتابع الثوار عملياتهم حتى امكن لهم السيطرة على جميع المدن والقرى الواقعة على ضفتي الفرات حتى بوكمال.

تابع وطنيو الجزيرة ثورتهم ضد الفرنسيين، وتركزت هجماتهم على تل ابيض التي حولها الفرنسيون إلى قاعدة لقواتهم، فوجهت القيادة الفرنسية في حلب حملات متتابعة لاخضاع المنطقة الشرقية، وكانت أكبر هذه الحملات في ٢٨ ايلول ١٩٢١. وأمام ضغط هذه الحملة، وما اعقبها من هجومات متصلة، اضطر شيوخ العشائر إلى الاستسلام باستثناء بني خابور وبني بكر الذين تابعوا عملياتهم العسكرية، وكانت اشهر معاركهم معركة الطيبة (٢٤ تشرين الاول ١٩٢١)، ومعركة قرية البصيرة، وعمليات صغيرة كالمكائن والاغارات حتى ١٩٢٤، ثم استؤنفت مع نشوب ثورة دمشق والغوطتين، و لم تتوقف إلا عند الاعلان عن انتخابات المجلس التأسيسي الاول في ١٩٢٨.

في المنطقة الوسطى (١٩١٩–١٩٢٩):

بدأ الصدام بين أهالي تل كلخ وبين الفرنسيين منذ كانون الاول ١٩١٩ بسبب اصرار الفرنسيين على رفع العلم ا لفرنسي على دار الحكومة باعتبارها تابعة للمنطقة الساحلية التي كانت تحتلها فرنسا، واصرار اهالي تل كلخ على الحاق مدينتهم ومنطقتها وضمها للدولة العربية. وحدثت صدامات تزعمها آل الدندشي حتى ١٩٢٠، حيث شدّد الفرنسيون قبضتهم وأرغموا زعماء الثورة على النزوح إلى حمص ودمشق.

ودخل الفرنسيون حماه (آب ١٩٢٠) التي كانت مركزًا لدعم الثورة في الشمال وفي الساحل. وقاد ثورة حماه فوزي القاوقجي وسعيد الترمانيني. وتم تنسيق التعاون بين ثورة حماه وثورة جبل الدروز بواسطة اتفاق عمل له منير الريس ومظهر السباعي. كما أقرّ مشروع الاتفاق سلطان الاطرش وعبد الرحمن شهبندر، وتقرر بعد ذلك الانطلاق بالثورة في ٢ تشرين الاول ١٩٢٥. وقد وقعت معارك طاحنة بين القوات الفرنسية والثوار. و لم يتمكن الفرنسيون من السيطرة على المدينة إلا بعد حشد قوة من ألفي جندي، وقصف المدينة بالمدفعية (٧ تشرين الاول ١٩٢٥). واضطر القاوقجي وزعماء الثورة إلى الانسحاب نحو مضارب عشيرة الموالي.

قاد الثورة في القلمون خالد النفوري وجمعه سوسق، وامكن لهما في نهاية ١٩٢٥ السيطرة على المنطقة حتى حسيا، وقام الطيران الفرنسي بقصف القصير، مهّد لهجوم بري احبطه الثوار. والتحق متطوعون من حمص بقاعدة الثورة في القصير. وتجمعت عصابات ثوار مناطق القلمون وحمص والقصير في جهات النبك (آذار ١٩٢٦) بقيادة فوزي القاوقجي وسعيد العاص، فوجهت القيادة الفرنسية قوة من ٤ آلاف جندي، وخاضت معركة طاحنة ضد الثوار عند عيون العلق (شمالي قرية قاده). واستمر سعيد العاص يقود زمرًا من الثوار في عمليات متفرقة. وقاد الثورة في بعلبك هولو حيدر. وانضم الثوار إلى قوات الثورة في دمشق والغوطتين. وكانت تدمر وباديتها مقرًا لنشاط عصابات الثوار منذ ١٩٢٢ حتى ١٩٢٥، وكانت قوات البدو عماد الثورة ضد الفرنسيين في

الصحراء التدمرية.

في المنطقة الجنوبية الغربية (١٩١٩-١٩٢٦): اندلعت إثر حادث اطلاق النار (في اواخر آب ١٩١٩) على موكب جورج بيكو والاميرال مورني الذي كان يمر من قلعة بعقلين، فأصيب مورني بجراح بالغة. فأخذت القوات الفرنسية تنكل بسكان القرى وتدمّر مساكنهم. وعندما وصلت منطقة الحوله، تصدّى لها بعض عناصر عشيرة الفضل، فهاجمت قرية الحضاض التابعة للأمير محمود الفاعور (تشرين الاول ١٩١٩). فثارت الاضطرابات في جميع قرى الجولان ونواحي مرجعيون.

وبعد دخول القوات الفرنسية دمشق إثر معركة ميسلون، انطلقت مجموعة ثائرة لقتل الجنرال غورو. ونفذت المحاولة، لكنها فشلت في تحقيق هدفها. وبعد حملة فرنسية (٢٦ حزيران ١٩٢١) في قرى جباتا الخشب، وطرنجه، وجباتا الزيت، وتل الشيخة، تحقق هدوء نسبي طوال ١٩٢٢. وعادت الثورة في ١٩٢٣، وطالب زعماؤها بفصل منطقتهم عن لبنان وضمها إلى سورية. ثم توسع نطاق الثورة في ١٩٢٥، واصبحت قرية مجدل شمس هدفًا للقوات الفرنسية، فعمل سلطان الاطرش، زعيم ثورة الجبل، على دعم القرية وارسال الامدادات لها. ووقعت معارك فاصلة انتهت بانتصار الثائرين في مجدل شمس، واخذوا في نقل قاعدة عملياتهم إلى حاصبيا وراشيا، ودارت معارك طاحنة في راشيا استمرت اسبوعًا، وحسمتها القوات الفرنسية لصالحها بسبب تفوقها الساحق. وفي آذار ١٩٢٦، ركزت السلطة الفرنسية جهدها لتصفية قواعد الثورة في المنطقة الجنوبية الغربية. فخصصت لها ثلاث حملات عسكرية فازت بتصفيتها.

الثورة في المنطقة الجنوبية-جبل الدروز- (١٩٢٥-١٩٢٦): قائدها سلطان الاطرش، وعواملها أخذت بالتفاعل منذ ان اصدر المفوض السامي، في ٤ آذار ١٩٢١، قرارًا بمنح جبل العرب (جبل الدروز) نوعًا من الاستقلال الذاتي في سياق سياسة تجزيء سورية إلى دويلات منفصلة. وبموجب هذا القرار، تمّ تعيين حاكم من أبناء الجبل هو سليم الاطرش، كما تمّ تعيين ترانكا الفرنسي مستشارًا للحاكم. ورغم ذلك فقد بقي الجبل مضطربًا تتفاعل فيه عوامل الثورة حتى جاء السبب المباشر باعتقال أدهم خنجر (أحد المتهمين بمحاولة اغتيال غورو) والقبض عليه وهو في منزل سلطان الاطرش وأثناء غياب صاحب المنزل عن داره. فنشبت ثورة المنطقة الجنوبية (جبل الدروز)، وحدثت سلسلة من المعارك أهمها:

معركة الكفر، وجرت في ٢١ تموز ١٩٢٥، وانتهت بقتل قائد الحملة الكابتن نورمان، وإبادة معظم جنودها (وكانوا ١٧٤ جنديًا)، ومقتل نحو اربعين من الثوار.

معركة المزرعة، في ٢ آب ١٩٢٥، حيث جردت القوات الفرنسية حملة لفك الحصار عن حامية القلعة التي حاصرها الثوار. لكن الحملة فشلت، وقتل عدد كبير من الفرنسيين، وغنم الثوار اسلحة ضخمة (مدافع) وكمية كبيرة من الذخائر، وسقط لهم نحو ٢٥٠ ثائرًا.

جرت على اثر ذلك اتصالات لتنسيق التعاون مع ثورة دمشق. وتوجهت حملة من ثوار جبل الدروز بهدف تحرير دمشق، ووصلت إلى قرب قرية الكسوة حيث اصطدمت بقوة فرنسية كبيرة يدعمها الطيران. فتراجعت القوات الثائرة امام ضغط الهجوم الفرنسي المضاد.

وفي ايلول ١٩٢٥، وجهت السلطة الفرنسية حملة كبرى عرفت باسم «حملة غاملان» يدعمها سرب من ٢٥ طائرة حربية. وتصدى الثوار لهذه الحملة عند قرية المسيفرة، ودارت معارك طاحنة خسر فيها الفرنسيون ٥١ جنديًا،

منهم اربعة ضباط، مقابل ٢١٠ من الثوار. ثم تابعت الحملة تحركها وتمكنت من رفع الحصار عن حامية القلعة.

استبدلت الحكومة الفرنسية المفوض السامي سراي بمفوض جديد هو هنري دو جوفنيل، بغية امتصاص النقمة العالمية التي نتجت عن قصف دمشق واعمال التقتيل التي ارتكبتها القوات الفرنسية بحق المدنيين. وحاول دو جوفنيل مفاوضة سلطان الاطرش وغيره من زعماء الثورة الذين تمسكوا بمطاليبهم: إعادة توحيد سورية وانسحاب الوحدات الفرنسية. فلم يوافق المفوض السامي عليها، ووجه حملة «أندريا» العسكرية التي وصلت السويداء في ٢٢ نيسان ١٩٢٦، وشهبا في ١٥ ايار، وصلخد في اول حزيران، واللجا في ٣ آب (١٩٢٦). وقامت فرنسا بتنسيق التعاون مع بريطانيا التي كانت تحتل شرقي الاردن، وبذلك امكن للقوات الفرنسية تصفية قواعد الثورة في جبل العرب والمنطقة الجنوبية.

في دمشق والغوطة (١٩٢٥–١٩٢٦):

كانت ردود الفعل الاولى لدخول الفرنسيين دمشق ردود فعل سلبية، ثم لم تلبث ردود الفعل الايجابية ان ظهرت واخذت في التزايد التدريجي حتى وصلت ذروتها عام ١٩٢٥، مع عقد اجتماع في دار عثمان الشراباتي حضره يحي حباتي، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فوزي ونسيب البكري، حسن الحكيم، سعيد حيدر، سعد الدين مؤيد العظم، زكي الدروني، نبيه العظمه، توفيق الحلبي، جميل مردم بك وعبد المجيد الطباخ، وانتهى الاجتماع باقرار اعلان الثورة. وبدأت العمليات القتالية بدعم تحرك قوات الثورة القادمة من السويداء إلى دمشق، وبهجومات قامت بها زمر من الثوار على بعض المخافر والمواقع الفرنسية، برز فيها قادة مثل عبد القادر سكر ومحمد حجاز وحسن الخراط.

في ١٤ تشرين الاول ١٩٢٥، وجهت السلطة الفرنسية حملة كبرى تضم ١٣٠٠ مقاتل. فتصدى الثوار في منطقة «زور المليحة» للحملة ووقعت معركة عند جسر الغيضة انتصر فيها الثوار. لكن تدخل الطائرات ارغم الثوار على الانسحاب وفي ١٦ تشرين الاول ١٩٢٥، عقد زعماء الثورة اجتماعًا في حران العواميد تقرر فيه نقل الثورة إلى دمشق ذاتها والقيام بهجوم كبير تقوم به ثلاث مجموعات على ثلاثة محاور. وكانت الابرز مجموعة حسن الخراط. وقد تمكن الثوار من السيطرة، وبسرعة، على شوارع واحياء العاصمة، وعلى مواقع ومراكز ومقرات الفرنسيين واعوانهم، وكادوا ينجحون، بقيادة حسن الخراط، في اقتحام قصر العظم وخطف او قتل المفوض السامي سراي الذي كان نزيل هذا القصر. فأصيب بالهلع وغادر دمشق بعد ان أصدر اوامره بقصف المدينة. فقام قائد منطقة دمشق بسحب قواته العسكرية من جميع أحياء دمشق، وجمّع كل الموظفين الفرنسيين وعائلاتهم في حي الصالحية، وبدأ بقصف دمشق في الساعة ١٨ من ١٨ تشرين الاول ١٩٢٥ واستمر حتى ظهر ٢٠ تشرين ا لاول ١٩٢٥. ودمرت خلال القصف احياء كاملة ومواقع اثرية. وتدخل قناصل الدول الاجنبية لايقاف القصف، وعزل سراي واستبدل بالمفوض السامي الجديد هنري دو جوفنيل في نهاية ١٩٢٥.

وبعد ضرب دمشق، اعاد الثوار تنظيم قواتهم وجعلوا من قرى الغوطة قواعد لهم. كما اعادت القوات الفرنسية تنظيم نفسها، وسحبت قواتها من خارج المدينة، وعززت حامياتها في داخلها، واقامت الحواجز المتحركة، ونقاط المراقبة، وسيّرت الحملات المتتابعة إلى الغوطة، وأعلنت السلطة الفرنسية الاحكام العرفية اعتبارًا من ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٥. وكان من ابرز معارك الغوطة معركة يلدا في ٥ كانون الاول ١٩٢٥ حيث زجت السلطة الفرنسية قوة تزيد على ألفي

جندي تمكن الثوار من صدّها وتشتيتها ومطاردتها حتى حدود دمشق، حيث نشبت معركة بالسلاح الابيض عند وصولها إلى جدران الميدان والزفتية ومقبرة الميدان والقشلة العزيزية «الجزماتية». وعرفت هذه المعركة بمعركة «السبت».

واستمرت العمليات العسكرية في ظروف غير متكافئة، وسقط عدد من قادة الثورة، أبرزهم حسن الخراط الذي سقط (١٦ كانون الاول ١٩٢٥) في بستان الذهبي قرب مقبرة اليهود. وثأرًا لقتلاهم، ضرب الفرنسيون منطقة الميدان (ايار ١٩٢٦)، وحرقوا الحي ودمروه، فزاد هذا الامر من تصميم الثوار، كما جعل السلطة الفرنسية تصمم من جهتها على القضاء على الثورة في دمشق والغوطة، فخصصت لذلك خمسة جيوش نجحت في ارغام الثوار على إلقاء السلاح في نهاية ١٩٢٦. بعد هذه الثورة، بدأت السلطة الفرنسية تأخذ ببعض وجهات النظر الوطنية، ومنها إعادة توحيد سورية، ووضع دستور لحكم البلاد، وما إليهما...

الاحزاب السياسية إبان الانتداب: نشأت التجمعات الحزبية زمن الانتداب، وكان هدفها المشترك استقلال سورية ووحدتها، وتكوكبت، في بادىء أمرها، حول ولاءات شخصية (الوجهاء)؛ أما الخلافات في الرأي فانبثقت عن المواقف المتعلقة بالتعاون مع الفرنسيين.

يعود تاريخ اقدم الاحزاب السياسية في سورية، واكثرها تأثيرًا آنئذ إلى شباط ١٩٢٥ حين سمح المفوض السامي، سراي، بدمج بعض المجموعات السياسية القائمة في حزب الشعب الذي ضمّ، بزعامة الدكتور عبد الرحمن شهبندر، جميع الزعماء السياسيين السوريين المعتدلين. وقد تطور الحزب إلى معارض لحكومة رئيس المجلس الاتحادي السوري صبحي بركات.

وفي ١٩٢٨، تحول حزب الشعب، بانضمام تكتلات سياسية صغيرة وعدد من القادة المثقفين إلى تجمع واسع يشمل سورية كلها عرف باسم «الكتلة الوطنية»، كان الرابط المشترك بينها الموقف النضالي تجاه الانتداب، وقد شمل زعماؤها معظم الرعيل الاول من الوطنيين الذين عملوا لاستقلال سورية في العهد العثماني، من بينهم جميل مردم بك وهاشم الأتاسي وسعد الله الجابري. واختير الأتاسي رئيسًا للكتلة في ١٩٢٨. وانضم الدكتور عبد الرحمن الكيالي (في ١٩٣٦) إلى الكتلة، واصبح رئيس الحزب الوطني الذي خلف الكتلة. وكان فارس الخوري، المسيحي البروتستانتي، يحظى باحترام جميع الفئات، وشكري القوتلي الذي حظي باحترام معظم الشعب السوري رغم ان عهده اتسم بالفساد وبالعجز في انجاح التجربة الديمقراطية.

أعطى حلّ المجلس التأسيسي (ايار ١٩٣٠)، على يد المفوض السامي، زخمًا للكتلة. وضعفت بعض الشيء خلال ١٩٣٢-١٩٣٤، لتعود وتنتعش في ١٩٣٥-١٩٣٦، وتبنت ميثاقًا وطنيًا نصّ على تحرير البلاد السورية من كل سلطة اجنبية وجمع اراضيها المجزأة في دولة واحدة ورفض وعد بلفور والسعي لاتحاد الاقطار العربية. وبعد عقد معاهدة ١٩٣٦، تولت الكتلة الحكم وتشكلت منها فقط حكومة برئاسة جميل مردم، كما انتخب هاشم الأتاسي رئيسًا للجمهورية، وفارس الخوري رئيسًا للمجلس النيابي.

وجاء رفض الجمعية الوطنية الفرنسية اقرار المعاهدة واتساع النفوذ التركي في لواء الاسكندرونة (الاسكندرون) بموافقة فرنسا، ليسدّدا ضربتين خطيرتين لشعبية الكتلة، وليؤديا إلى انشقاقات في صفوفها.

وكانت الكتلة، في اوائل ١٩٣٦، قد نظمت حركة الشباب الوطني التي كانت نواتها «فرق القمصان الحديدية» التي كانت تقوم

باستعراضات في الشوارع (وكان منير العجلاني، صهر الشهبندر، مرشدها العام). أما تجمعاتها فتبدأ بالكشافة وتنتهي بعصبة العمل القومي التي قادها صبري العسلي.

وعرف العام ١٩٣٧ ازديادًا في انقسام القوى داخل الكتلة. وشرع خصوم مردم يشكلون جبهة وطنية يقودها العجلاني، ويقودون مظاهرات معادية للحكومة، ما ارغم مردم على الاستقالة، وكذلك استقالت حكومة الحفار بعد عشرين يومًا من تشكيلها. واستقال هاشم الأتاسي من رئاسة الجمهورية في تموز ١٩٣٩. فعطل المفوض السامي الدستور وحل البرلمان وحكم بالمراسيم. وفي الحرب، بقيت الكتلة خارج الحكم، وبزغ نجم شكري القوتلي الذي قاد اضرابًا عامًا في اوائل ١٩٤١. أما اعادة الدستور، وانتخابات تموز ١٩٤٣، اعادتا الكتلة إلى الحكم، وانتخب القوتلي رئيسًا للجمهورية، ثم شكل سعد الله الجابري وزارة ضمت جميل مردم ولطفي الحفار، وقد ظلت الكتلة في الحكم، على رغم التعديلات الحكومية بين حين وآخر، حتى نيسان ١٩٤٦ حين جلا الفرنسيون عن سورية.

أما الحزب السوري القومي الاجتماعي فقد بدأ على شكل جمعية سرية في اواسط الثلاثينات، ولقي منذ البدء معارضة من جميع الجوانب، ولكنه نما سريعًا وبلغ ذروته قبيل الحرب العالمية الثانية، و لم تقتصر نشاطاته على الجمهورية السورية، وتكمن أهميته في تنظيماته واهدافه لأنها تمثل «حزبًا سياسيًا صحيحًا له فكر عقائدي وبرنامج محدد».

لقد وجد الحزب السوري القومي استجابة سريعة من المثقفين الشباب في سورية ولبنان، وانتشر أتباعه طولاً وعرضًا في هذين البلدين. وكانت قواه تتركز بصورة خاصة في اوساط الطلبة والمعلمين الذين حلموا بنهضة سورية وأملوا في تحقيقها من خلال وضوح الاهداف السياسية والاجتماعية للحزب وتنظيماته باعتباره حزبًا قوميًا حقيقيًا. إن قبضة الحزب على اعضائه بلغت من القوة حدًا اخاف الحكومة السورية فعمدت إلى قمعه...» (جوردون هـ.توري، «السياسة السورية والعسكريون»، ترجمة محمود فلاحة، دار الجماهير، ط٢، ١٩٦٩، ص٦٩).

«وهنالك حزب آخر غير شرعي، كان قليلاً في عدده قويًا في تنظيمه، هو الحزب الشيوعي لسورية ولبنان، أقوى الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي آنذاك. لقد بدأ الحزب في الثلاثينات لكنه لم يزدهر إلا بعد حين بسبب ارتباطه بالشيوعيين الارمن مما جعله محط ريبة في عيون العرب، وفي اواسط الثلاثينات أعيد تنظيم الحزب وتولى قيادته العرب الذين تلقوا التدريب في الاتحاد السوفياتي (...) وفي ما تبقى من فترة الانتداب كانت سياسة الحزب الشيوعي التعاون مع الوطنيين العرب والعمل للوحدة السورية، وانسجامًا مع هذا التكتيك أيد بقوة معاهدة ١٩٣٦ المجهضة وهاجم الحاق لواء الاسكندرون بتركيا... وبعد المعاهدة النازية-السوفياتية عام ١٩٣٩ فقد الحزب، كما في اماكن اخرى، كثيرًا من رفاق الدرب للانحراف السريع في خطه (...) ان تسلل الشيوعيين إلى نقابات العمال كان قليلاً نسبيًا لأن النقابات نفسها كانت غير هامة تمامًا، فالطبقة العمالية الصناعية-البروليتاريا-صغيرة، وكانت الدولة هي المشرفة عليها برداء نقابي (...) أما الفلاحون الذين يشكلون نسبة كبرى من السكان، فقد بدت سورية ميدانًا خصبًا لاثارتهم، لكن اهتمام الحزب بهم لم يكن يذكر حتى ١٩٥٢...» (المرجع المذكور، ص ٦٩-٧١).

١٩٤٥–١٩٧٠

(المرجع الرئيسي للسنوات الممتدة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٨: جوردون هـ. توري، «السياسة السورية والعسكريون»، ترجمة محمود فلاحة، دار الجماهير، ط٢، ١٩٦٩).

العهد الديمقراطي النيابي (١٩٤٥–١٩٤٩): بدأ حكم الاستقلال (رئيس الجمهورية شكري القوتلي) وسط أزمة اقتصادية خانقة: ارتفاع تكاليف الحياة ٥٠٠٪ عن مستواها قبل الحرب، نفقات جديدة كثيرة على الجيش والتمثيل الدبلوماسي والنظام التعليمي والادارة في حين ان النظام النقدي بني على اساس الفرنك الفرنسي، وهو نقد كان يفقد سريعًا قيمته.

وأولى مهام هذا الحكم، رسم سياسة خارجية والموقف من الجارات العربيات والجامعة العربية، والعلاقة بتركيا التي توترت بسبب قضية الاسكندرون، وعضوية الامم المتحدة، والسياسة إزاء الاستثمارات والمصالح الاجنبية الأخرى وما تبقى من روابط سورية بفرنسا.

«لقد تميزت سنتا ١٩٤٦ و١٩٤٧ باخلال وفساد كبيرين في شكليها النيابي والاداري...». فالرجال الذين قادوا النضال الاستقلالي «يشكلون فريقًا لا تجربة له في الحكم واللوم على عدم الكفاءة والاخلال بالعمل الحكومي لم يعد يُلقى على اكتاف المستبد الاجنبي...». وبدأت الاضرابات تتوالى، بعد اضراب آذار ١٩٤٦ الذي قام به التجار ضد فرض ضريبة الدخل. ومع تزايد النقد، طالب سعد الله الجابري، رئيس مجلس الوزراء، بصلاحيات تشريعية للاسراع في تنفيذ «الاصلاحات» (ايار ١٩٤٦)، وحصل عليها، وبدأت انتهاكات صارخة للدستور، خاصة في ما يتعلق بحرية الكلام والصحافة.

ومع الادارة السيئة والازمة الاقتصادية، كانت هنالك القوى الانفصالية العاملة في بعض المحافظات. ففي منطقة العلويين، قرب اللاذقية، شبت ثورة قادها سليمان المرشد، وقد سيطر أتباعه على عدد من القرى. فأرسلت الحكومة حملة عسكرية قبضت على المرشد الذي حوكم في ما بعد وأُعدم. وفي جبل الدروز ثارت فتنة بين العائلتين الكبيرتين، الأطرش وأبو عسلي، مما خلق فوضى كاملة، فهوجم كثير من موظفي الحكومة ودمرت مباني الحكومة.

في ٢٣ كانون الاول ١٩٤٦، قدم الجابري استقالته، فعهد رئيس الجمهورية فورًا إلى جميل مردم بتشكيل الوزارة، فجاءت من الكتلتين النيابيتين الرئيسيتين: الكتلة الوطنية وحزب الاحرار. وتمثلت المعارضة بخالد العظم وصبري العسلي وميخائيل إليان.

في ٤ حزيران ١٩٤٧، صدر مرسوم جمهوري حدّد حجم المجلس النيابي بـ١٤٠ نائبًا (السنيون ٩٣ مقعدًا، العلويون ١١، الدروز ٥، الروم الارثوذكس ٢، الروم الكاثوليك ٢، السريان الكاثوليك ١، الموارنة ١، الاسماعيليون ١، اليهود ١، الاقليات ٣، العشائر ١٠. إن عدد المجتمعين كان على اية حال ١٣٦، منهم ١١٧ للمسلمين و١٩ من غير المسلمين).

وقد ظهر، استباقًا للانتخابات، عدد من الكتل السياسية الجديدة، وأولى هذه التحالفات شكلته الحكومة، وهو «الحزب الجمهوري العربي» (الحزب الذي قام على انقاض الكتلة الوطنية بعد ان تصدعت). وتركزت المعارضة حول ائتلاف غير متماسك سمّي «حزب الاحرار»، كان بين زعمائه منير العجلاني وعلي بوظو وزكي الخطيب وحسن الحكيم ورشدي الكيخيا. أما جماعة الاخوان المسلمين (وتزعم انها ليست بحزب) فدخلت الانتخابات، وابرز مرشحيها كان الدكتور معروف الدواليبي من حلب.

وتمثلت المعارضة في دمشق بحزب الشعب (يسمى ايضًا «الاحرار») والحزب الوطني العربي ونقابات العمال وبعض الشيوخ وحزب البعث الذي كان قد نظمه وقاده ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. كما تشكلت في دمشق قائمة للشيوعيين من ٣ مرشحين يقودهم خالد بكداش.

واستعرت الحملة الانتخابية في جبل الدروز بين عائلتي الاطرش وابو عسلي، الثانية كانت الأكثر عددًا والاولى الارفع شأنًا.

وحين اعلنت القوائم الانتخابية في ٧ تموز ١٩٤٧، كان هنالك ١٨٠٠ مرشح على ١٤٠ مقعدًا. واسفرت الانتخابات عن فشل الحزب الوطني (الكتلة سابقًا) في الفوز بالاكثرية، وكان جميل مردم قد انسحب منه وخاض الانتخابات مستقلاً. واسفرت الانتخابات في جبل الدروز عن فوز عائلة العسلي، وأطيح بـ«الطرشان» من وظائفهم جميعها.

في اواخر ايلول ١٩٤٧، عقدت كتلتا المعارضة (حزب الاحرار في حلب وحزب الشعب في باقي المدن) في بعلبك اجتماعًا تم فيه توحيدهما في حزب واحد «حزب الشعب». وكان بين زعمائه رشدي الكيخيا وناظم القدسي وعدنان الاتاسي وأكرم الحوراني وزكي الخطيب وسامي كباره وهاني السباعي.

في تشرين الثاني ١٩٤٧، شكل جميل مردم وزارته، فضمت ٣ من حزب الشعب وإثنين مستقلين. وبعد جدال حول تعديل الدستور، اقر تعديل أعيد على اساسه انتخاب القوتلي رئيسًا للجمهورية في ١٨ نيسان ١٩٤٨.

تفجر القضية الفلسطينية في سورية:

شغلت حكومة مردم بأكبر امتحان واجهته البلاد بعد الحرب العالمية الثانية وذلك هو القضية الفلسطينية. فمع نهاية ١٩٤٧، بدأت الحكومة تتعرض لضغوط من كل جانب لمنع تقسيم فلسطين «ولو بالسلاح...». وحين وصل نبأ قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دمشق، اضربت المدينة وسارت المظاهرات واقتحمت السفارتين

أديب الشيشكلي (في الوسط) في موقع عسكري خلال حرب ١٩٤٨.

الاميركية والبلجيكية والمركز الثقافي السوفياتي ومراكز الحزب الشيوعي (وقتل اربعة من الشيوعيين...)، وعرفت المدن السورية الأخرى حوادث مماثلة. وزاد مجلس النواب الضرائب وأقر قانون خدمة العلم، وصوّت على شراء أسلحة. واستقال كثيرون من ضباط الجيش السوري كي يشاركوا في جيش الانقاذ، وبدأت عصابات مسلحة، يقودها أديب الشيشكلي وأكرم الحوراني (نائب حماه) وغيرهما، بمهاجمة مستوطنات يهودية قرب الحدود السورية. فتدخلت الوحدات البريطانية، كما بعثت الحكومة البريطانية بمذكرات إلى الحكومة السورية، من دون ان تترك اثرًا على استمرار غارات المتطوعين العرب الذين كان يوجه عملياتهم فوزي القاوقجي وقد جعل من سورية مقرًا لقيادته. ووقعت سورية الميثاق السياسي والعسكري للجامعة العربية لتوحيد الجهد تجاه فلسطين. وفي نيسان ١٩٤٨، اثارت مذبحة دير ياسين الشهيرة الشعب السوري، وفي ايار، عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعًا في دمشق وسط انتقادات لاذعة للاجتماع الذي جاء «في هذا الوقت المتأخر». وفي ١٦ ايار، أي بعد يومين من اعلان بن غوريون قيام دولة اسرائيل، دخل الجيش السوري فلسطين، ولكن سرعان ما صُدّ في وادي الاردن بعد قتال ضار. وتصاعد النقد الموجّه للحكومة السورية، وبات معروفًا الفساد الواسع الذي صحب المجهود الحربي واعمال لجنة جمع الاشتراكات والتبرعات لفلسطين. و«لم يمض وقت طويل إلا والشائعات تنتشر عن ذهاب نسبة كبرى من الاموال المجموعة إلى جيوب بعض افراد اللجنة...».

في آب ١٩٤٨، تشكلت حكومة جديدة احتفظ مردم برئاستها، وما لبثت ان اعتقلت ميشال عفلق رئيس حزب «البعث العربي» بتهمة توزيع منشورات تشجب وزارة مردم وتدعو إلى حل البرلمان، ورفض ثلاثة وزراء (الحفار والعسلي وإليان) هذه الاتهامات. وتصدعت الحكومة ونشبت ازمة سياسية صحبها تدهور اقتصادي وتفجر الاضرابات والمظاهرات في المدن السورية كافة وحصلت مواجهات دموية، فاستقال جميل مردم في الاول من كانون الاول ١٩٤٨، واصبحت سورية «بلدًا بلا حكومة وبلا أمل في حكومة تنبثق من زعامة مدنية كفؤة. فهو بلد يهيمن عليه مواطنون مكروبون هائجون، واقتصاد منهار وجيش أحسّ ان فئة من الساسة المخططين قد خانته، ومن المحقق ان هذه كانت اللحظة المنطقية لظهور نابوليون أو بولانجيه على المسرح...».

انقلاب حسني الزعيم: اخفق السياسيون (منهم هاشم الأتاسي) في تشكيل حكومة جديدة والبلاد في اضطراب متزايد. وفي ٣ كانون الاول ١٩٤٨، أمر قائد الجيش حسني الزعيم الجيش بالتدخل لوضع حد للاضرابات الواسعة؛ وفرضت الاحكام العرفية واغلقت المدارس وأخضعت الصحافة لرقابة عسكرية تامة. ونجح خالد العظم، بعد محاولات قام بها هو وسواه بتكليف من رئيس الجمهورية القوتلي، بتشكيل حكومة وعدت بـ«تحرير فلسطين»، وعقدت اتفاقيات مالية مع فرنسا... وحكمت تحت مظلة الجيش من ١٦ كانون الاول ١٩٤٨ حتى اواخر آذار ١٩٤٩، في اجواء من اضطراب عام وحوادث يومية وإضرابات مستمرة... حتى اصبحت «سورية مهيأة لاستقبال مستبد يستطيع تنقية البلاد من الفساد».

ففي الثانية والنصف من صباح ا لاربعاء ٣٠ آذار ١٩٤٩، تحركت فصائل من الجيش السوري إلى دمشق، واحاطت بمباني رئاسة الدولة ومجلس النواب ومختلف الوزارات، ووضعت قوات الشرطة والدرك نفسها بأمرة الجيش، كما اعتقل رئيسا الجمهورية ومجلس الوزراء. وفاقت دمشق

على سيارات الجيب «تجوب شوارعها وتوزع بيانات تعلن تولي الجيش بقيادة الزعيم حسني الزعيم زمام السلطة».

وجّه الزعيم، في صبيحة اليوم نفسه، الدعوة إلى عدد كبير من النواب للتباحث معهم في تشكيل حكومة موقتة، ومن بين الذين استجابوا لدعوته ناظم القدسي ومعروف الدواليبي وأكرم الحوراني وعادل ارسلان وفارس الخوري. وقد أيده، اقله لفظيًا، عدد كبير من النواب وزعماء الاحزاب (أكرم الحوراني اصبح مستشارًا في وزارة الدفاع، وميشال عفلق اشار إلى نظام حكم الزعيم بـ«العصر الجديد»...).

في ٣ نيسان (١٩٤٩)، حلّ الزعيم المجلس النيابي رسميًا؛ وفي ٧ نيسان، أعلن استقالتي القوتلي والعظم (وهما في سجن المزة. ومما جاء في استقالة القوتلي: «أقدم إلى الشعب السوري النبيل أستقالتي من رئاسة الجمهورية السورية راجيًا لها كل قوة ومجد»).

في ٢١ نيسان (١٩٤٩)، زار الزعيم الملك فاروق «لاعادة العلاقات الاخوية بين مصر وسورية». وكانت العراق الدولة الاولى التي اعترفت (١٧ نيسان) بنظام الحكم الجديد. وتبع هذا اعتراف تركيا اعترافًا واقعيًا، وفي ٢٣ نيسان، اعترفت مصر ولبنان والعربية السعودية بحكومة الزعيم؛ وفي ٢٧ نيسان، اعترفت بها ايضًا الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. وبلغت العلاقات مع الاردن حدّ القطيعة والمواجهة العسكرية على الحدود بسبب بيانات الملك عبد الله المتعلقة بـ«سورية الكبرى»، فأمر الزعيم باغلاق الحدود مع الاردن. وأغلق الزعيم الحدود مع لبنان ايضًا (حتى ٢٤ ايار) «لموقف الصحافة اللبنانية من الحاكم الجديد»، ورغم رحلة قام بها رئيس وزراء لبنان، رياض الصلح، لازالة الخلافات بين الجارتين.

شكّل (في ١٧ نيسان ١٩٤٩) حكومة وترأسها بنفسه. حلّ الاحزاب بانتظار الاستفتاء الدستوري. انتخب رئيسًا للجمهورية (مرشح وحيد فاز بنحو ٧٢٦ ألف صوت من مجموع نحو ٧٣٠ ألفًا أدلى بها المقترعون)، وشكل حكومة يرأسها محسن البرازي، واتخذ الزعيم لنفسه لقب مشير وعانى بعد الاستفتاء من غرور العظمة...

عربيًا وخارجيًا، بدأ الزعيم باقتراح عقد اتفاقية عسكرية دفاعية مع العراق (واندفع عدد من مناصريه، سواء في المسؤولية أو خارجها إلى حد طرح الاتحاد والوحدة مع العراق). وخشية امتداد سلطة الهاشميين على سورية، وعدت مصر والعربية السعودية بمعونات كبيرة للحكومة السورية، فادار الزعيم وجهه سريعًا وتبنى موقفًا معاديًا للهاشميين. وقد كلفته هذه السياسة تأييد كثيرين من العناصر الوحدوية الشابة. و«طبيعي جدًا ان تفتر العلاقات سريعًا مع العراق، فأبى نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي، وقد أهاجه تحول الزعيم ورفضه مشروع «الهلال الخصيب»، ان يعترف بالاستفتاء السوري الذي جعل الزعيم رئيسًا للجمهورية، وأعلن الزعيم بدوره ان «مشروع» سورية الكبرى قد فات اوانه لسببين: أولهما التطور والتقدم السريعان اللذان تتمتع سورية قريبًا جدًا بهما مما يقيم فجوة كبرى بين الحكومتين السورية والهاشمية، وثانيهما ان سورية قررت الانضمام إلى المعسكر المصري السعودي» (المرجع المذكور في مطلع الباب، ص ١٤٥).

«وربما كانت «قضية سعاده» هي خطيئة الزعيم الكبرى. فأنطون سعاده زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي، رفع لواء الثورة في لبنان، ثم هرب بعد اخفاقه في اواخر حزيران إلى سورية حيث استقبل لاجئًا سياسيًا، وقد أكرم الزعيم وفادته. ولكن فجأة، وفي اوائل تموز، ألقي القبض عليه وأبعد إلى الحدود اللبنانية حيث سلم للأمن العام اللبناني ليعدم فورًا، وكان رد الفعل في سورية التقزز التام، وهذا لم يكن فقط بين أتباع

سعاده بل بين عامة المواطنين...» (المرجع المذكور، ص ١٤٣).

بالنسبة إلى الهدنة مع اسرائيل، فقد عقد الزعيم مفاوضات (بدأت في ١٢ نيسان ١٩٤٩) وصلت إلى باب مسدود حين اصر السوريون على الاحتفاظ بمناطق قرب بحيرة الحولة. وجاء توسط الامم المتحدة ليؤدي إلى اعلان هذه المناطق، واراضي مجاورة يحتلها الاسرائيليون، منطقة منزوعة السلاح تشرف عليها لجنة هدنة مشتركة. وهذه المنطقة كانت سبب اشتباكات مستمرة لاصرار اسرائيل على تجفيف حوض الحولة واعتبارها منطقة اسرائيلية.

«فقد الزعيم في غضون اشهر ثلاثة معظم شعبيته واثار عداء مختلف فئات المواطنين. فسياسته الموالية للغرب اثارت عليه الفئة المحايدة، واصلاحاته العلمانية جلبت عليه سخط الزعماء الدينيين وأتباعهم من المدنيين، وأساليبه الاوتوقراطية قوّضت آمال الليبراليين، وسياسته الموالية لمصر افقدته تأييد ومساندة الفئات الوحدوية العربية من ناحية والموالية للهاشميين من ناحية اخرى. إن محاولات الزعيم في ميداني الاصلاح المالي والحكومي والزراعي اوقعت الرعب في قلوب الطبقات الاقطاعية والتجارية النافذة؛ أما عامةا لناس الذين توقعوا كبرىالفوائد فاصابهم اليأس حين لم تتحقق الوعود الكثيرة التي قطعت. والاهم من ذلك كله انه خلق سخطًا بين الضباط بتعيينه اللواء عبد الله عطفة، الذي اخفق كقائد للجيش السوري في الحرب الفلسطينية، وزيرًا للدفاع، وحصل تدهور آخر بالتسريحات التي صاحبت اعادة تنظيم الجيش، وكثيرون من اصدقائه ومؤيديه الذين رفّعهم، جرى تسريحهم وحتى سجنهم» (المرجع المذكور، ص ١٤٨).

وُضع حد لحكم الزعيم حين أطاحه خصومه العسكريون ليلة ١٣ آب ١٩٤٩.

انقلاب الحناوي: في لحظة تنفيذ الانقلاب، قتل الزعيم (على يد ضابط صغير كان يرافق قائد الانقلاب العقيد سامي حناوي) ومحسن البرازي، واعتقل المقدم ابراهيم الحسيني قائد الشرطة العسكرية واستخبارات الجيش. ومن البلاغات الصادرة الاولى «ان الجيش سيوقف تدخله في السياسة حال وصول الساسة إلى اتفاق على نظام ادارة البلاد».

بعد يومين على الانقلاب (أي مساء ١٥ آب ١٩٤٩)، سلّم الحناوي السلطة رسميًا إلى هاشم الأتاسي الذي اذاع فورًا تشكيل الوزارة، ثم اعلن الحناوي ان «مهمته الوطنية المقدسة» قد انتهت وانه يعود إلى الجيش. وكانت تشكلت لجنة، بعد ساعات من وقوع الانقلاب، ضمت الرئيس الاسبق هاشم الأتاسي وفارس الخوري ورشدي الكيخيا وناظم القدسي وأكرم الحوراني، أوصت بتشكيل حكومة موقتة يرئسها هاشم الأتاسي تعيد للبلاد الحياة الدستورية.

كانت تشيكوسلوفاكيا واسبانيا الدولتين الأوليين اللتين اعترفتا بالحكومة الجديدة.. وهنّأ لبنان هذه الحكومة، واستأنف الاردن علاقاته مع سورية. أما المملكة العربية السعودية فتمهلت في الاعتراف، في حين اعلنت مصر الحداد ثلاثة ايام على حسني الزعيم، وتبنى العراق موقفًا مترددًا.

خفّض قانون الانتخابات الجديد سن الانتخاب إلى ١٨ عامًا، ومنح المرأة المتعلمة حق الانتخاب، وحُدد موعد الانتخاب في ١٥ تشرين الثاني (١٩٤٩). وبدأت الحملات الانتخابية، وفشل حزبا الشعب والبعث العربي في تشكيل قائمة ائتلافية، ومن البارزين بين مرشحي البعث ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. وأعلنت رابطة العلماء انها «جبهة ملتزمة» بنشر «الخير»، وشكل بعض مرشحيها تنظيمًا جديدًا دعي «الجبهة الاشتراكية الاسلامية الجديدة» بزعامة مصطفى السباعي.

في ٢٦ ايلول، أمر الحناوي جميع العسكريين بالابتعاد عن الاشتراك في النشاطات الانتخابية. وفي موعدها المحدد (١٥ تشرين الثاني)، اجريت انتخابات الجمعية التأسيسية، وبلغ عدد الناخبين نحو مليون، منهم نحو ٩ آلاف امرأة. فاز الشعبيون (حزب الشعب) بالاكثرية النسبية، والمستقلون بـ٤٠ مقعدًا، والجبهة الاشتراكية الاسلامية بـ٤ مقاعد، والبعث بـ٣ مقاعد.

قبيل هذه الانتخابات، برز موضوع الاتحاد مع العراق. وجاءت زيارة عبد الاله، الوصي على العرش العراقي، دمشق في ٥ تشرين الاول ١٩٤٩، لتصب في هذا الاتجاه. وعادت المملكتان المصرية والسعودية لتمارسان ضغطًا معارضًا، فرفعتا القضية إلى مجلس الجامعة العربية حيث طلبت مصر ضمانات من الاعضاء جميعهم باحترام الاوضاع القائمة في البلدان العربية، ولكن لم يتم التوصل إلى أي اتفاق فتوقفت المناقشات في الجامعة العربية.

لكن الوحدة السورية-العراقية كانت موضوع نقاش حار في احتماع الجمعية التأسيسية (كانون الاول ١٩٤٩) التي انتخبت رشدي الكيخيا رئيسًا لها وهاشم الأتاسي رئيسًا للجمهورية. وبدا واضحًا ان تسوية حصلت بين نزعة «الوطنية السورية» وبين «الوحدة العربية»، عكسها نص قسم رئيس الجمهورية الذي جرت الموافقة عليه: «أقسم با لله العظيم ان احترم قوانين الدولة واحافظ على استقلال الوطن وسيادته وسلامة اراضيه، وأصون اموال الدولة وأعمل لتحقيق وحدة الاقطار العربية». وكان الحناوي أقرب إلى الجهات التي حبّذت هذه الوحدة (أو الاتحاد).

انقلاب الشيشكلي: كان امام المعادين للاتحاد بديل واحد فقط هو تشكيل تحالف مع عناصر في الجيش يعارضون الاتحاد مع العراق، وقد كان العقيد أديب الشيشكلي، قائد اللواء الاول المتمركز في درعا قائدًا لهذه العناصر، وأكرم الحوراني حلقة الوصل. وتحرك الشيشكلي في ١٩ كانون الاول ١٩٤٩، واحتجز اللواء سامي الحناوي وعديله أسعد طلس الامين العام لوزارة الخارجية، وأعلم الرئيس الأتاسي بالأمر وطلب منه تشكيل حكومة جديدة. وبعد أخذ ورد لمدة نحو اسبوعين (قدّم خلالها الأتاسي استقالته وعاد عنها)، شكل خالد العظم حكومته، وفي كانون الثاني ١٩٥٠، نال الثقة من الجمعية التأسيسية حيث ألقى خطابًا أكدّ فيه على «استقلال سورية ونظام حكمها الجمهوري». وفي ٧ نيسان ١٩٥٠، أدّى الرئيس الأتاسي القسم الدستوري.

رحبت المملكتان المصرية والسعودية بالانعطاف الجديد في السياسة السورية. وزار الشيشكلي القاهرة في اول كانون الثاني ١٩٥٠، ثم انتقل إلى السعودية حيث عقد سريعًا اتفاقية تجارية.

بدأ الانشقاق الوزاري في وزارة العظم منذ اواخر شباط ١٩٥٠، وزاد منه استقالة أكرم الحوراني من وزارة الدفاع (وكان الحوراني قد أسس حزبه، «الاشتراكي العربي» في كانون الاول ١٩٤٩، وهدفه إلغاء الاقطاع وتحديد الملكية الزراعية وتوزيع الارض على الفلاحين...). وفي ٢٨ ايار ١٩٥٠، انهارت وزارة العظم، وشكل ناظم القدسي (احد زعماء حزب الشعب) وزارة جديدة، حضت في بيانها امام الجمعية (٤ حزيران ١٩٥٠) على إتمام الدستور، الذي كانت تناهضه، بدءًا من ربيع ١٩٥٠، كتلة عرفت باسم «الجبهة الوطنية» بزعامة صبري العسلي؛ في حين كانت «الكتلة الجمهورية الحرة» تؤيده بزعامة عبد الباقي ناظم الدين.

«دين رئيس الجمهورية الاسلام»: كانت المادة المتعلقة بالاسلام دينًا للدولة أكثر المواد مثارًا

للجدل: فهنالك «الاخوان المسلمون» ومؤازروهم من العلماء، وفي الطرف الثاني الحزب السوري القومي الاجتماعي، والشيوعيون والبعثيون يطالبون بفصل الدين عن الدولة؛ وبين الطرفين حزب الشعب الذي دافع عن الاصلاح بواسطة «القوانين العصرية مع أخذ التراث العربي بالحسبان». وعقد مؤتمر دين مسيحي في دمشق (٢٠ تموز ١٩٥٠) قدّم مذكرة إلى الحكومة طالبت ان لا يتضمن الدستور أي ذكر لدين خاص للدولة.

وفي ٢٢ تموز (١٩٥٠) عرض مشروع الدستور على الجمعية التأسيسية. وبعد نقاش استمر اسبوعًا تمّ التوصل إلى تسوية تبقي على الصيغة الواردة في دستور ١٩٣٠، وتنص على «دين رئيس الجمهورية الاسلام» و«الفقه الاسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع» و«لما كانت غالبية الشعب تدين بالاسلام فإن الدولة تعلن استمساكها بالاسلام ومثله العليا». وفي ٥ ايلول ١٩٥٠، اقرت الجمعية التأسيسية الدستور الجديد بغالبية ١٠٥ نواب، مقابل ستة، وانتخب هاشم الأتاسي رئيسًا للجمهورية.

وزارتا القدسي: قدمت وزارة القدسي استقالتها فور إقرار الدستور الجديد، ولكن الرئيس الأتاسي طلب منه تشكيل وزارة جديدة، فأتت من حزب الشعب ومن المستقلين، وظل الزعيم فوزي سلو يمثل الجيش كوزير للدفاع. وعارضها الحزب السوري القومي الاجتماعي والكتلة الجمهورية. وما كادت الوزارة تنال الثقة حتى اخذ الصراع على السلطة يشتد بين المدنيين (الوزراء والنواب) وبين العسكريين، وأعلن عن اكتشاف مؤامرتين: في ٢٧ ايلول ١٩٥٠، اعتقلت الشرطة العسكرية النائب منير العجلاني وسجنته بتهمة التآمر مع الملك عبد الله، ملك الاردن، لتنفيذ مشروع سورية الكبرى؛ وبعد ايام قليلة، اعتقل احمد الشراباتي (وزير دفاع سابق) وعشرون آخرون لتآمرهم والتخطيط لاغتيال اديب الشيشكلي؛ ثم اعتقل الدكتور امين رويحة والنائب جلال السيد بالتهمة نفسها. وطال اجل المحاكمات حتى اوائل ١٩٥١، وبرىء المدعى عليهم الرئيسيون بينما صدرت على صغار المتهمين احكام قاسية.

وفي اواسط تشرين الاول ١٩٥١، اهتز الاستقرار الوزاري باستقالة وزير الدولة، حسن الحكيم، لاستيائه من اعمال الوزارة وسياستها. وفي اواخر السنة (١٩٥١)، قام القدسي (يرافقه وزير الدفاع سلو) بجولة على العواصم العربية كشف فيها عن مشروع للوحدة العربية، وعرضه على اللجنة السياسية للجامعة العربية حيث قوبل بلامبالاة. وما دفع القدسي للقيام بهذه الجولة ايضًا المذكرة المشتركة التي قدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا طالبة فيها من الدول العربية الانضمام إلى الكتلة الغربية وقبول القروض والمعونات الفنية والحد من الشيوعية في المنطقة، كما كان هنالك اقتراحات تؤدي إلى تسوية مشكلة اللاجئين العرب.

واثارت مناقشة موازنة وزارة الدفاع في المجلس النيابي موضوع تدخل الجيش في السلطة والسياسة؛ ووقف فريق (يتزعمه النائب حسني البرازي) ضد هذا التدخل، في حين وقف فريق آخر، خلف أكرم الحوراني، يخوّن الفريق الاول حول هذا الموضوع. فقدّم القدسي استقالة وزارته في ١٠ آذار ١٩٥١. وبعد أزمة وزارية، أعلن القدسي، في ٢٣ آذار، بعد مشاورات مع ممثلي الكتل ومع فوزي سلو والزعيم أنور بنود (رئيس الاركان العامة) وأديب الشيشكلي، انه شكل وزارة جديدة. لكن في الثانية من صباح اليوم التالي، عقدت الوزارة اجتماعها الاول والاخير، وعادت الازمة الوزارية من جديد.

وزارة العظم ووزارة الحكيم: وشهد يوم ٢٧ آذار ١٩٥١ تشكيل خالد العظم الوزارة من سبعة وزراء (من الكتلة الجمهورية والحزب الاشتراكي والمستقلين)، وإصدار الجيش لبيان ورد فيه ان الجيش لم يتخطَ منذ كانون الاول ١٩٥٠ واجبه العسكري الذي يفرض عليه حماية حدود البلاد وأمنها واستقلالها وحريتها ونظام حكمها الجمهوري الدستوري. وبعد نحو شهرين رفّع العقيد أديب الشيشكلي إلى رتبة زعيم وعين رئيسًا للاركان العامة، في ما عين الزعيم أنور بنود ملحقًا عسكريًا في أنقرة.

وتحت ضغط المعارضة في المجلس النيابي (خاصة من جانب حزب الشعب، وأكرم الحوراني) وإضراب الموظفين، قدمت وزارة العظم استقالتها في ٣١ تموز ١٩٥١.

وبعد ١٧ يومًا شكل حسن الحكيم (من المستقلين) وزارته، ومن اعضائها الزعيم سلو وزيرًا للدفاع، ما يعني موافقة الجيش عليها. وعرف عن الحكيم انحيازه إلى الغرب «لا محبة بهذه الكتلة بل لدرء الاخطار التي تتهدد بلادي... إذا دُفع الغرب إلى الاعتماد على تركيا واسرائيل من اجل الشرق الاوسط فهذان البلدان سيُكافآن اقليميًا على حساب سورية».

وسرعان ما عاد الخلاف (تحت قبة البرلمان) حول «نفوذ الجيش» والخوف من تنامي «اشتراكية الحوراني»، وكذلك داخل الوزارة بين الحكيم (التعاون مع الغرب) ووزير خارجيته فيضي الأتاسي (الحياد بين الكتلتين العالميتين)، ليؤدي إلى أزمة سياسية جديدة اطاحت وزارة الحكيم في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥١.

حكم الشيشكلي: بين ١٠ تشرين الثاني و٢٨ تشرين الثاني ١٩٢١، كلف الرئيس الأتاسي، على التوالي، رشدي الكيخيا، ناظم القدسي، زكي الخطيب، معروف الدواليبي، سعيد حيدر، عبد الباقي نظام الدين، تشكيل وزارة، وكلهم اعتذروا بعد يوم أو يومين من محاولات بذلوها. ثم عاد الأتاسي واقنع الدواليبي ببذل محاولة ثانية، فأفلح، وجاءت وزارته من ٧ من حزب الشعب و٢ من المستقلين وواحد من الحزب الاشتراكي.

لكن في اليوم التالي (٢٩ تشرين الثاني)، أذاع الجيش البلاغ رقم ١ بتوقيع رئيس الاركان العامة أديب الشيشكلي، واعتقل الوزراء، وكان الانقلاب ابيض لم تسفك فيه دماء واستعادت البلاد احوالها الطبيعية في غضون ساعات قليلة. وفي ٢ كانون الاول ١٩٥١، قدّم الأتاسي استقالته من رئاسة الجمهورية، فتولى الشيشكلي كامل ادارة الدولة، وحل البرلمان. وفي اليوم التالي، اصدر الشيشكلي، بصفته رئيسًا للمجلس العسكري الأعلى، أمرًا بتولي الزعيم فوزي سلو السلطتين التشريعية والتنفيذية، فأوكل إلى الامناء العامين للادارات العامة والوزارات سلطات واختصاصات الوزير. وحظرت الاحزاب، وختمت مكاتبها بالشمع الاحمر، في ما عدا البعث والاشتراكي (عفلق والحوراني)، لكن في ٦ نيسان ١٩٥٢ عادا ولقيا مصير الاحزاب الأخرى نفسه. وعطلت الصحافة، وسُمح بسبع جرائد في دمشق أحكمت الرقابة عليها.

ووضع الشيشكلي خططًا لاصلاح مساحات شاسعة من اراضي املاك الدولة وتوزيعها على صغار الفلاحين، وشجع القطاع الصناعي بمنح مؤسساته الجديدة استثناءات جمركية على تجهيزاتها وباعفائها من ضريبتي الدخل والاملاك لمدد مختلفة. واجريت مفاوضات جديدة مع شركة التابلاين أدت إلى زيادة عائدات سورية.

في حزيران ١٩٥٢، شكل الشيشكلي مجلس وزراء ليساعد الزعيم سلو رئيس الدولة. وباستثناء فوزي سلو والدكتور سامي طيارة لم يكن بين الوزراء من اشتهر في حياة البلاد

السياسية. ومنذ اواخر صيف ١٩٥٢، بدأت تظهر علامات تململ وسخط في الجيش، مبعثها اهتمام الشيشكلي المتعاظم بالسياسة ما أفضى إلى ابتعاده عن كبار مؤيديه في الجيش. وفي ٢٤ تموز ١٩٥٢، أسس حزب «حركة التحرير العربي»، التنظيم السياسي الوحيد في البلاد، بادئًا نشاط هذا الحزب بتظاهرة حاشدة في حلب.

في ٢٨ كانون الاول ١٩٥٢، أعلن عن اكتشاف «مؤامرة»، فأحيل عدد من الضباط على التقاعد، واعتقل بعضهم ومنهم رئيس الاركان العامة السابق أنور بنود، كما اعتقل مدنيون اعضاء في الحزب الاشتراكي والبعث والشيوعي، وكان بينهم محمود شوكت وأكرم الحوراني وميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. وفي كانون الثاني ١٩٥٣، هرب بعض المعتقلين إلى بيروت، بينهم أكرم الحوراني. واندلعت المظاهرات، خاصة في حلب وفي اوساط الطلاب، فأغلقت المدارس جميعها في سورية.

في ٢٨ آذار ١٩٥٣، صدر مرسوم بانشاء مصرف مركزي كان الخبير المالي الالماني الدكتور شاخت قد أوصى بانشائه خلال زيارته سورية لدراسة الوضع الاقتصادي فيها اواخر ١٩٥٢.

وعين يوم ١٠ تموز ١٩٥٣ موعدًا للاستفتاء على مشروع دستور وانتخاب رئيس الجمهورية. وقد أبقى الدستور الجديد على كثير من ملامح دستور ١٩٥٠، رغم انه أخذ بالمبدأ الرئاسي (النظام الاميركي لا الاوروبي النيابي).

وجرى الاستفتاء في موعده (مجموع الناخبين نحو ٩٩٦ ألفًا، صوّت منهم نحو ٨٦٥ ألفًا)، وبلغ عدد الموافقين على الدستور نحو ٨٦١ ألفًا، وعلى انتخاب الشيشكلي نحو ٨٦٢ ألفًا. وبعد خمسة ايام، شكل الشيشكلي حكومة فنيين (تكنوقراط)، ابرزهم جورج شاهين، وأنور ابراهيم باشا، وخليل مردم كوزير للخارجية بعد ان رفض هذا المنصب كل من قسطنطين زريق نائب رئيس الجامعة الاميركية في بيروت، وأحمد الشقيري الامين العام المساعد في الجامعة العربية. وأعلن عن عفو عام عن السجناء السياسيين. ثم تخلى الشيشكلي عن منصبه كرئيس للاركان حين تولى رئاسة الجمهورية، وخلفه في هذا المنصب شوكت شقير.

في ١٤ ايلول ١٩٥٣، رفع الشيشكلي الحظر المفروض على الاحزاب مستثنيًا «الجماعات الهدامة» كالشيوعيين، وحدّد يوم ٩ تشرين الاول ١٩٥٣ موعد الانتخابات النيابية. فبدأ فيض من النشاط السياسي، واندمج حزبا البعث (عفلق) والاشتراكي (الحوراني) ليصبحا «حزب البعث العربي الاشتراكي». لكن الاحزاب، بغالبيتها، قاطعت الانتخابات، في ما عدا الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي فاز بمقعد واحد، وفاز المستقلون بتسعة مقاعد، فيما فازت حركة التحرير العربي (حزب الرئيس الشيشكلي) بـ٧٢ مقعدًا من المقاعد الـ٨٢. وانتخب الدكتور مأمون الكزبري رئيسًا للمجلس.

في كانون الثاني ١٩٥٤، عمّ الهياج انحاء سورية لا سيما بين الطلبة الذين كانوا في حالة اضراب مستمر. واعتقل العديدون، بينهم منصور أحد أبناء سلطان الاطرش. فجرت محاولة درزية لاخراجه من السجن أدت إلى اشتباك مسلح، سرعان ما تحول إلى معركة في جبل الدروز، لجأ سلطان الاطرش، على أثرها، إلى الاردن، واعتقل الشيشكلي عددًا من السياسيين، على رأسهم رشدي الكيخيا وعدنان الأتاسي وصبري العسلي وأكرم الحوراني وميشال عفلق وإحسان الجابري وحسن الاطرش.

بدأت حالة من التمرد العسكري في حلب في ٢٥ شباط ١٩٥٤، ما لبثت ان انضمت إليها القيادات العسكرية في دير الزور واللاذقية وحمص ومنطقة حوران. ثم انتقلت إلى دمشق حيث بحث الزعيم شوكت شقير (رئيس الاركان العامة)

الوضع مع الرئيس الشيشكلي الذي قدّم استقالته وفرّ إلى بيروت، وبعد يومين طار إلى الرياض في طائرة سعودية (قبل نحو شهرين، كان الزعيم سلو المستقيل قصد السعودية وعمل مستشارًا عسكريًا للملك سعود).

وفي جو من الفوضى، والتبدلات السريعة في القرارات، ومظاهرات وحوادث إطلاق نار على المتظاهرين، أعلن الزعيم شقير: «لقد زالت الأسباب التي منعت استمرار الحكم الشرعي ومنعت صاحب الفخامة هاشم الأتاسي من متابعة ممارسة صلاحياته كرئيس دستوري للجمهورية».

ثورة الفلاحين (ولقاء الثلاثي: الحوراني، عفلق والبيطار): كانت مدينة حماه معقل قوة ملاّك الارض وعاصمة القمح الريفي. ولقد وُجهت اول صفعة إلى وجه واحد من هؤلاء الملاكين سنة ١٩٥٢ في قرية قرب حماه، فكانت نذيرًا بأن القلعة القديمة قد اصبحت هدفًا للهجوم. فقد وجد فلاح مجهول في نفسه الجرأة على مهاجمة مالك ارضه بسبب حملة تحريض شنها أكرم الحوراني تحت شعار «الارض لمن يفلحها». وكان الحوراني قد نظّم أتباعه في «الحزب العربي الاشتراكي» (١٩٥٠) الذي أسسه في حماه وجعل فيها مقره الرئيسي. وكانت هناك اربع عائلات (البرازي، العظم، الكيلاني وطيفور) تمتلك ٩١٪ من ١١٣ قرية في منطقة حماه. وقد أتبع الحوراني تكتيكًا فعالاً بأن حالف اصغر تلك العائلات، عائلة طيفور، واستخدمهم مع فلاحيهم ضد الملاكين الكبار، حتى ان احد آل طيفور، خالد، اصبح أمين سر الحزب العربي الاشتراكي في حماه نفسها. وهكذا اطلق الحوراني غضبًا ظل حبيسًا في الصدور عدة أجيال.

بلغت حملة التحريض ضد الاقطاع أوجها في مؤتمر في حلب (ايلول ١٩٥١) حضره ألوف من المناضلين الفلاحين. فكان اول مؤتمر من هذا النوع «الثوري في الوطن العربي». واشتدت الحملة، وتحول التحريض إلى اعمال عنيفة. فأحرقت المحاصيل واطلقت النار على بيوت الملاكين. ويتذكر الدكتور عزيز صقر الذي كان حزبيًا نشيطًا فيقول: «عندما قلنا للناس: هذه الارض يمكن ان تكون لكم، حدث ما يشبه الانفجار. ففي تلك الايام كانت الارض التي نشتغل عليها، والبيت الذي نسكنه، بل حتى القبر الذي ندفن فيه ملكًا لصاحب الارض» (والدكتور عزيز صقر هو ابن فلاح علوي بائس ألجأه الضيق إلى النزول من ا لجبل. وقدر له فيما بعد ان يحصل على الدكتوراه من جامعة موسكو، وعين في ١٩٨٤ محافظًا للاذقية).

وما كان الحوراني يفعله في السهل كان له تأثيره على الجبل، إذ ساعد على خلق المناخ الذي استطاع فيه جيل البعث الأول ان يطيح نير الوجهاء المحليين ويرى امكانيات التغيير الثوري في جميع ارجاء البلاد. ففي حين كان لحماه سبعة مقاعد نيابية في البرلمان (١٩٤٩) كان ستة منها للملاك بينما كان الحوراني وحده يمثل المعارضة الفلاحية، انقلب الوضع في انتخابات ١٩٥٤، إذ لم ينتخب إلا ملاّك واحد هو عبد الرحمن العظم، بينما حصلت جماعة الحوراني على المقاعد الستة الأخرى.

كانت مشكلة الارض (وما رافقها من إقطاع من جانب، وبؤس وتخلف من الجانب الآخر) هي المشكلة الأساس في سورية. ولأهمية سورية في المنطقة وتاريخها وحضارتها، تنبأ الباحث الاجتماعي جاك ويليرس الذي كانت معرفته بسورية لا تضاهى، في كتابه «فلاحو سورية والشرق الادنى» (باريس، ١٩٤٦، ص ٣١٤، والذي استشهد به باتريك سيل، ص ٨٠) بأن «أكبر العوامل التي ستؤثر على المستقبل تأثيرًا عميقًا هو ما يحدث للفلاحين. فثمة شيء مؤكد واحد هو ان مشكلة الفلاحين ستصبح اكثر ضغطًا

وإلحاحًا كل عام، وإن الطريقة الـتي تحـل بهـا هـي الـتي ستكيف لا شـكل وتركيب الشـرق الادنـى المقبل فحسب، بل ومستقبل الحضارة العربيـة الـتي تناضل من اجل ولادتها الجديدة».

اسـتطاع الحوراني، بطـل الفلاحـين، ان ينتزع توقيع الشيشكلي على مرسوم لتوزيع اراضي الدولـة في كـانون الثـاني ١٩٥٢. فكـانت تلـك محاولة مبكرة وإن لم تكـن ناجحـة تمامًا في ميـدان الاصلاح الزراعي. ولكن عندما تحـول الشيشكلي إلى دكتاتور كامل وأخـذ يكمم الصحافـة ويلقـي القبض على معارضيه، هرب الحوراني عـبر الجبـال إلى لبنان. وهناك انضم إليه ميشال عفلـق وصـلاح الدين البيطار اللذان هربا هما الآخران من اضطهاد الشيشكلي. وفي منفاهم قـرر الثلاثـة دمـج حزبـي «البعث العربي» و«الاشتراكي» لتكويـن «حـزب البعث العربي الاشتراكي» الذي كان بمثابـة تجمـع موظفي المدينة والمعلمـين وأشباههم مـع الفلاحـين الثوريين. وتحت اليافطة المشـتركة خـاضوا معركـة انتخابات ١٩٥٤ بعد سقوط الشيشكلي، ووضعوا تحالفهم في صدارة المسرح السياسي. وقـد اكتسـح الحوراني الموقف في حماه (٦ مقاعد مـن ٧)، وفـاز وهيب الغانم في اللاذقية، وفي دمشق تمكـن البيطـار من دحـر الامـين العـام للحـزب السـوري القومـي الاجتماعي.

لقـد كـانت سـنوات الخمسـينات عصـر الاحساس بأن التغيير الاجتماعي الجذري هـو امـر ممكـن وراح هـذا الاحسـاس ينتقـل مـن المـدارس والاجتماعات الحزبية ونوادي الضبـاط إلى امـاكن العمل والمزارع في ارجـاء الريـف. كـان الحوراني عامل التغيير والقابلة التي ولدت على يديها سـورية الجديدة والتي قُيِّض للأسد ان يرئسها فيما بعـد. إذ لم يفعل احـد اكثر مما فعل هـذا الرجـل النشيط والداهية في هزّ أسس الطبقة الحاكمة القديمة. فلقـد اثار الفلاحين، وسيّس الجيش، وقدّم لمنظري البعث الـوزن السياسـي الراجـح (هـذه المـادة، «ثـورة الفلاحـين»، مرجعهـا الرئيسـي: بـاتريك سـيل، «الأسـد، الصـراع علـى الشـرق الاوسـط»، ص ٧٦-٨٥).

وزارة صبري العسلي الائتلافيـة: بعـد مشاورات بين مختلف الاطراف السياسية، اتفـق ان تقوم حكومة ائتلافيـة على اساس دستور ١٩٥٠، وبرئاسة صبري العسلي، رفـض البعـث والسـوري القومي الاجتماعي الاشتراك فيها، وأبرق القوتلـي، من الاسكندرية، مهنئًا العسـلي. وحلّـت الحكومـة فورًا «حركة التحرير العربي»، وشـنت حملـة عامـة لتطهير اجهزة الدولة من الذين عينهم الشيشـكلي. وفي ١٥ آذار ١٩٥٤، اجتمـع مجلس عـام ١٩٥٠ الذي كـان قـد انتخـب اصـلاً كجمعيـة تأسيسـية قلبت نفسها إلى مجلـس نـواب. وبـدأت الترتيبـات لاجراء انتخابـات نيابيـة، وبـدأت معهـا خلافـات مختلف الاطراف السياسية، من بينها فئات تطـالب بعودة القوتلي، وقد اضطرت حكومـة العسـلي إلى الاستقالة قبل إجراء هذه الانتخابات التي كان قـد حدّد موعدها في حزيران ١٩٥٤.

وفي اجواء هذه الخلافـات (داخـل مجلـس الوزراء، وفي صفوف النـواب والكتـل والاحـزاب السياسية)، عمّ داخل الجيش خـوف مـن ان يفقـد الجيـش سمعتـه وسيطرته بانسـحابه مـن المسـرح السياسي. فعارض ضابطان، عبـد الحميـد السـراج ومصطفـى حمـدون «تدخـل المدنيين» في شـؤون الجيـش، وهـددا بـانقلاب. فصـدر أمـر بتعيينهمـا ملحقين عسكريين في الخارج. كان حمدون بعثيًا، والسـراج مؤيـدًا قويًـا سـابقًا للشيشـكلي. وكـان هنالك تكتل عسكري آخر يقوده عدنان المالكي.

وزارة سعيد الغـزي، انتخابـات ١٩٥٤: بعـد مشـاورات أجراهـا الرئيـس هاشـم الأتاسـي، شكل سعيد الغزي في ١٩ حزيران ١٩٥٤، وزارة محـايدة مـن قضـاة ومحـامين، وعـدت بـ«الحيـاد

الصارم» في الانتخابات. وعين الرئيس الأتاسي موعد إجراء الانتخابات في ٢٠ آب ١٩٥٤، وحدد عدد النواب بـ١١٧ للمسلمين، و١٦ لغير المسملين، و٦ للعشائر. وبدأ السباق الانتخابي الذي توزعت قواه بين تيارين كبيرين: القوى التقليدية، والقوى الحديثة (البعث والشيوعيين)؛ ولم يخل هذا السباق من مظاهرات واضرابات وصدامات... فأعلنت الحكومة تأجيل الانتخابات إلى ٢٤ ايلول ١٩٥٤. وفي ٥ تموز، عاد القوتلي بعد خمس سنوات من النفي، ولقي ترحيبًا واسعًا، وبدا بالغ الاهتمام بالحفاظ على هيمنة المدنيين على الحكومة عن طريق انتخاب مجلس نواب يعزّز أمانيه في رئاسة الجمهورية. فشكل «جبهة متحدة» تضم فرقاء كثيرين، باستثناء البعث والشيوعي. لكن الجبهة فشلت في الاتفاق على قوائم انتخابية. وكانت قضية «الوحدة العربية» في مقدمة شعارات الحملة الانتخابية لدى البعث، ومعاداة «الامبريالية والاقطاع» لدى الشيوعي. وبدا المحافظون (حزبا الشعب والوطني) عاجزين عن طرح شعارات تستقطب «جماهيريًا».

وجرت الانتخابات في موعدها، ٢٤ ايلول ١٩٥٤، (مليون و٩٠٠ ألف ممن يحق لهم الاقتراع و٥٠٪ صوتوا)، ولم تتوافر أدلة على تدخل الجيش. ففاز المستقلون بـ٤٩ مقعدًا من دون ان يكونوا كتلة متماسكة، وكان بينهم قلة من المعروفين، أهمهم خالد العظم؛ والبعث بـ١٧ مقعدًا؛ وخالد بكداش (العضو الشيوعي الاول في مجلس النواب)؛ والقومي بمقعدين؛ والباقون من الحزبين التقليديين، الشعب والوطني.

«إن انتخابات ١٩٥٤ ذات اهمية بالغة في التاريخ السوري، فقد دللّت على انتهاء القوى السياسية التقليدية واستبدال القوى اليسارية في الحركة العربية كالبعث... ويقع بعض اللوم على كسوف القوى التقليدية على كاهل الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة، فدعم الغرب اسرائيل، ظالمة أو مظلومة، وضع الساسة الموالين للغرب في وضع سيء» (المرجع المذكور في مطلع هذا الباب، ص ٢٧٧).

وزارة فارس الخوري، الموقف الحائر:

شكل فارس ا لخوري، بعد فشل خالد العظم لرفض البعثيين التعاون معه، وزارته من المستقلين ومن الحزبين التقليديين المتنافرين، الشعبي والوطني، ونالت الثقة في ٣ تشرين الثاني ١٩٥٤.

وكان على هذه الوزارة ان تواجه التوتر القائم في علاقات دمشق-القاهرة نتيجة للموقف من الحلف الذي يجري الغرب إقامته في المنطقة، حيث بدا ان سياسيين سوريين كثيرين باتوا يتحدثون عن المعونة العسكرية الغربية المأمولة التي سيأتي بها الانضمام إلى هذا الحلف، إضافة إلى اختيار جماعة الاخوان المسلمين دمشق مقرًا لها، وهي على عداء مع مجلس قيادة الثورة المصرية اثر محاولتها اغتيال عبد الناصر. وانعطفت هذه العلاقات سريعًا نحو الأسوأ. منذ الايام الاولى لوزارة الخوري، رغم تعهد الخوري باخماد مظاهرات الاخوان المسلمين التي نشطت في المدن السورية إثر الحكم على ستة من الاخوان بالاعدام في مصر (٤ كانون الاول ١٩٥٤).

وشقّ اعلان العراق، في كانون الثاني ١٩٥٥، عقد ميثاق مع تركيا، العالم العربي. وحاول الخوري عدم اغضاب العراق ولا مصر، وهو نفسه احد حاملي لواء الحياد بين المعسكرين الشرقي والغربي. وبلغ التمزق في السياسة السورية حول هذه القضية حدًا لم تستطع معه مساندة مصر أوالعراق. فصرّحت الحكومة (في اوائل شباط ١٩٥٥) بعجزها عن الانضمام إلى الحلف العراقي- التركي (حلف بغداد). وانسحب وزراء الحزب الوطني من الحكومة، وغدا التكتل في البرلمان يضم حزب الشعب والبعث وبعض المستقلين، يقابله الحزب الوطني وكتلة خالد العظم

ومعظم نواب العشائر. وقدّم الخوري استقالته (شباط ١٩٥٥).

وزارة العسلي، ميثاق الدفاع المصري- السوري: بعد ايام، شكل العسلي، متضامناً مع خالد العظم، وزارة لا تضم ايا من حزب الشعب، وضمت ٣ من الحزب الوطني، و٣ من كتلة العظم، وواحدًا من كل من البعث (يشترك لاول مرة في الحكومة) وكتلة الاحرار والعشائر. وكان بيان العسلي الوزاري في مجلس النواب (٢٢ شباط ١٩٥٥) تصريحًا بالحياد ورفضًا محددًا للحلف العراقي-التركي ودفاعًا حارًا عن ميثاق الامن القومي العربي الذي ترعاه مصر. و«هكذا تغير كليًا الاتجاه السابق نحو تعاون محدود مع الغرب... فالرأسماليان العظم والعسلي انتحلا دوري مديري المسرح الاشتراكي» (المرجع المذكور، ص ٢٩٤).

بعد خمسة ايام من الحادثات السرية استطاع الصاغ صلاح سالم، وزير الارشاد القومي المصري، اقناع سورية ان تنضم إلى ميثاق الامن القومي العربي. وفي ٢ آذار (١٩٥٥) وقع صبري العسلي وخالد العظم اتفاقية مع مصر تضمنت مشروعات من اجل تأسيس اتحاد فدرالي بين الدول العربية التي تعارض الحلف العراقي-التركي، واقامة قيادة موحدة لجيوش هذه الدول... وولّدت الضغوط المؤيدة للميثاق والمعارضة له في سورية ازمة سياسية. وقد كان البعث أكثر الفرقاء ضغطًا باتجاه ابرام الميثاق، وقد أبرمته سورية في اواخر ١٩٥٥، وقد عرف الميثاق بـ«الميثاق العربي الثلاثي» (مصر، سورية والمملكة العربية السعودية).

قضية المالكي: وفي ظل الحماس لعقد هذا الميثاق واحتدام المعارضة له، وفي جو انعقاد مؤتمر باندونغ (راجع «اندونيسيا»، ج٣، ص ٢٧٩)، اغتيل عدنان المالكي، الذي كان معاون رئيس الاركان العامة للجيش ومقاومًا عنيدًا لحلف بغداد، على يد شاب، ينتمي للحزب السوري القومي الاجتماعي (٢٢ نيسان ١٩٥٥). واعتبر التحقيق ان هناك دولة اجنبية وراء الحزب القومي للعمل على قلب الحكم والاوضاع السياسية في سورية. وبدلاً من ان يتحقق هذا كان اغتيال العقيد المالكي مدعاة لتصفية الحزب السوري القومي سياسيًا وعسكريًا وتعميق التقارب مع مصر.

شكري القوتلي رئيسًا للجمهورية: منذ ربيع ١٩٥٥ والبلاد في ازمة اقتصادية سببها إلى حد كبير سوء موسم القمح، وهو أهم الصادرات السورية. وسياسيًا، كان البعث ماضيًا في تقوية قبضته على الحكومة، في حين ان «حلفًا غير مقدس» ربط بين اقوياء الحكومة الثلاثة: صبري العسلي وخالد العظم وأكرم الحوراني، رغم ان هذا الأخير لم يكن رسميًا عضوًا في الوزارة. وبالنسبة إلى الجيش، فقد كان الحديث يدور حول انه بات تحت سيطرة شوكت شقير من جهة؛ وثلاثة من الضباط: العقيد جمال فيصل مدير الشعبة الاولى، وعبد الحميد السراج من الشعبة الثانية، وأحمد الحنيدي قائد الكتيبة المدرعة في قطنا، وقد ضموا إليهم عددًا من الطلاب الضباط البعثيين، من جهة ثانية.

في ١٨ آب ١٩٥٥، اجتمع مجلس النواب لانتخاب رئيس الجمهورية، ففاز شكري القوتلي على منافسه خالد العظم. واستقال خالد العظم من الوزارة (وزارة العسلي)، وانحلت كتلته النيابية. وفي ٢٣ آب، استقالت وزارة العسلي، وشكل سعيد الغزي، الذي اعتبر «رجل الجيش»، وزارة ضمت ٤ وزراء من حزب الشعب، و٣ من الجبهة الدستورية (يتزعمها الرئيس القوتلي) إضافة إلى ٢ كانا في كتلة العظم وانضما إلى الجبهة، و٤ من المستقلين.

واكتسب الاندفاع نحو اليسار زخمًا جديدًا في اواخر ١٩٥٥، وقطباه الاساسيان البعثي (احتل محازبوه المناصب المهمة في الجيش والجهاز الحكومي، وانتشروا بصورة خاصة في اوساط المعلمين والطلاب) والشيوعي. وازدادت علاقات سورية بالكتلة الشيوعية... وانتشرت اقاويل عن قيام سورية باجراء مفاوضات سرية لشراء سلاح تشيكوسلوفاكي. وتنافس النواب في دعم الزيادات على موازنة الجيش والدفاع. وتمت خطوة اخرى بتوقيع ميثاق الدفاع السوري-المصري في ٢٠ تشرين الاول ١٩٥٥، وقد نص على تشكيل اللجنة العسكرية الدائمة.

في غضون ذلك (اوائل تشرين الاول) اجتمع رئيسا وزراء لبنان (رشيد كرامي) وسورية في شتوره. وكان رشيد كرامي قد رفض علانية حلف بغداد أو أي حلف آخر يقيد لبنان بالتزامات خارج العالم العربي. وكانت الخطوة التالية محاولة جر الاردن إلى اتفاقية الدفاع العربي. ففي ١١ كانون الثاني ١٩٥٦، حثت مصر والمملكة العربية السعودية وسورية مجتمعة الاردن على ان تبحث معه عرض معونة اقتصادية تحل محل المعونة المالية البريطانية للاردن. وبعد ان طرد الملك حسين غلوب باشا (القائد البريطاني للجيش الاردني) في ٢ آذار ١٩٥٦، وجه عبد الناصر والقوتلي والملك سعود الدعوة للملك حسين كي يلتقوا ويتناقشوا انضمام الاردن إلى حلف الدفاع العربي، ولكن الحسين رفض الحضور. وبعد شهر، عقد القوتلي والحسين اجتماعًا، واصدرا بيانًا مشتركًا اعلنا فيه عقد اتفاقية عسكرية لتنسيق دفاعهما ضد اسرائيل. كما اعلن عن تعاون اردني-مصري يوم ٦ ايار ١٩٥٦ عقب ارسال بعثة عسكرية اردنية إلى القاهرة.

في اواخر ١٩٥٥، حدث انشقاق في حزب البعث بين جناحيه (الاشتراكي العربي، أكرم الحوراني؛ والبعث الاشتراكي، عفلق) حول الحلف الذي شكله جناح الحوراني مع الشيوعيين وزعيمهم خالد بكداش، وكذلك حول دعوات جناح عفلق المتكررة بضرورة عدم الذهاب بعيدًا في معاداة حكومة العراق لضررها البالغ على القضايا العربية. وكان هذا، في الوقت عينه، محور الخلافات والتوافقات بين مختلف الزعامات والهيئات والاحزاب السورية. وفي هذا الوقت، شهدت الساحة السياسية اعادة انبلاج «حركة التحرير العربي» (كان يتزعمها الشيشكلي) عبر مؤتمر برئاسة الدكتور مأمون الكزبري، وزير المعارف في الحكومة القائمة، أعلن ان الحركة قد قلبت نفسها إلى حزب مرخص ومعترف به وانها لم تعد على صلة بالشيشكلي.

«الميثاق القومي»: في اوائل ١٩٥٦، دعا معروف الدواليبي، في خطاب في حلب، إلى تشكيل حكومة قومية قادرة على رعاية إقامة «ميثاق قومي» بين احزاب سورية وتنفيذ ما يتخذه من توصيات. وشجع الرئيس القوتلي هذا الاقتراح. وفي غضون ثلاثة أشهر (كانت خلالها عقدة العلاقة السورية-المصرية والعلاقة السورية-العراقية محور كل خلاف أو وفاق بين مختلف الفرقاء السياسيين) وضعت لجنة تمثل الكتل والاحزاب النيابية ما عرف بـ«الميثاق القومي».

نصت هذه الوثيقة على المبادىء الأساسية التي سوف تستهدي بها الوزارات المقبلة: في الاساس، بيان يشجب الاستعمار والصهيونية واسرائيل، ثم نبذ للأحلاف العسكرية الاجنبية، وانتهاج سياسة الحياد الايجابي وتقوية الجيش وتبني «سياسة تسليح موحدة مع مصر» لتشكيل «نواة جيش عربي يوكل إليه الدفاع عن الاراضي العربية»... وداخليًا، ارتأى الميثاق فرض ضريبة دخل استثنائية فورًا لحاجات الدفاع، واعادة النظر في النظام الضريبي.

وبدت حكومة الغزي اضعف من ان تتولى

هذه المهمات. فبدأت فورًا مناورات تشكيل وزارة جديدة. وبرز البعث في طليعة معارضي الحكومة. وفي ٢ حزيران ١٩٥٦، استقالت وزارة الغزي.

العسلي من جديد: وفي ١٥ حزيران ١٩٥٦، وقع الاختيار على صبري العسلي كي يرئس وزارة «اتحاد وطني». فضمت ٣ من حزب الشعب، و٢ من كل من البعث (صلاح الدين البيطار لوزارة الخارجية، وخليل كلاس للاقتصاد) والكتلة الديمقراطية والكتلة الدستورية والحزب الوطني. وفي بيانها، قالت الوزارة انها ستعمل «لتحقيق الوحدة مع مصر والاردن والدول العربية المتحررة الأخرى».

تمثلت معارضة هذه الحكومة بالعناصر المحافظة من الحزب الوطني وحزب الشعب وكتلة العجلاني الدستورية وكتلة العشائر والاخوان المسلمين وبعض المستقلين. وهذه المجموعة كلها تعد ١٠٠ نائب من اصل ١٤٢. لكن هذه القوة النيابية كانت نظرية فقط، إذ إن حزبيها الأساسيين (الوطني والشعب) كانا يعانيان من انعدام الانضباط الحزبي، وانفراط قواعدهما الشعبية، ووقوف اعداد كبيرة من صفوفهما في خانة الموجة اليسارية المتصاعدة في سورية قوميًا (البعث) ودوليًا (الشيوعي).

أزمة السويس: وهذا المد اليساري، زادت من اندفاعه الحملة الاسرائيلية–الفرنسية–البريطانية على مصر التي أساءت إساءة بالغة لسمعة الموالين للغرب على رغم وقفة الولايات المتحدة الاميركية، وطمست كل الاصوات المعادية للسوفيات. وعقب الهجوم على مصر، قامت فورًا قوات سورية، بأمر من عبد الحميد السراج، بتدمير عدد من محطات الضخ الخاصة بشركة نفط العراق، وأعلن عن اكتشاف مؤامرة بدعم من العراق، فأوقف ٤٧ شخصًا بينهم ٨ نواب، والشيشكلي وعدد من اعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي، وعدنان الأتاسي (ابن الرئيس السابق وعضو في حزب الشعب)، وعادل العجلاني (مستقل)، وحسن الاطرش (الكتلة الدستورية). ونجح بعض المتهمين في الفرار إلى لبنان حيث رفضت حكومة الرئيس اللبناني كميل شمعون تسليمهم للسلطات السورية.

في هذا الجو، طالب البعثيون بـ«تسليح الشعب»، وحاولوا إسقاط وزارة العسلي ليتسنى لهم الامساك أكثر بالسلطات من خلال محازبيهم العسكريين والمدنيين. وأيد الحوراني قيام جبهة وطنية على اساس «الميثاق القومي»، وشكل، مع خالد العظم، كتلة تستطيع ان تسقط وزارة العسلي لتخلفها وزارة أكثر نزوعًا إلى اليسار. فقدّم العسلي استقالة وزارته في ٢٢ كانون الاول ١٩٥٦. وعاد القوتلي وكلف العسلي تشكيل وزارة جديدة ابصرت النور في آخر يوم سنة ١٩٥٦ (٣١ كانون الاول)، وتضمنت ٣ من الحزب الوطني، و٥ من المستقلين، وعاد البعثيان صلاح الدين البيطار وخليل كلاس إلى وزارتيهما (الخارجية للأول، والاقتصاد للثاني)، واصبح مأمون الكزبري، رئيس حركة التحرير العربي، وزيرًا للعدل والشؤون الاجتماعية والعمل بالوكالة.

وفي جو مشبع بالعداء للغرب، عقدت المحكمة العسكرية للنظر بـ«المؤامرة العراقية» أولى جلساتها في ٨ كانون الثاني ١٩٥٧ على مدرج جامعة دمشق، وترأسها العقيد عفيف البزري. وصدرت الاحكام على المتهمين (٢٦ شباط ١٩٥٧)، وتراوحت بين السجن المؤبد للشيشكلي والسجن ثلاثة أشهر لآخرين. أما الحكم على عدنان الأتاسي، ابن الرئيس السابق هاشم الأتاسي، بالاعدام (ومعه سامي كباره والشيخ هايل سرور) فكان مفاجأة المحكمة الكبرى. ووسط موج من نداءات الاستعطاف من الاقطار

العربية، خُفضت احكام الاعدام.

مشروع الاتحاد مع مصر ورأي عبد الناصر (١٩٥٧): اقترح هذا المشروع، المنسوب إلى الرئيس القوتلي، إقامة اتحاد بين الدول العربية المستقلة تكون له اجهزته الاتحادية، وأولها جمعية تأسيسية تضع دستور الاتحاد. لكن الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، ابدى، لدى وصول مبعوثين سوريين (اوائل آذار ١٩٥٧) لمفاوضته في شأن الاتحاد، تحفظًا خاصًا:

«إنني لا أفكر الآن بشروط الاتحاد الفدرالي أو الكونفدرالي أو أية صيغة دستورية كهذه (...) فاطارات دستورية كهذه ستخلق فقط العداوات للمثل العليا العربية وتصبح اسلحة في ايدي اعدائنا لتحطيم هذه المثل (...) إنني لا أفكر بنظام فدرالي أو كونفدرالي (...) وما أفضله منظمات كالجامعة العربية (...) على ان تصبح قوية وتقيم روابط وثيقة بين الدول العربية» (المرجع المذكور في مطلع هذا الباب، ص ٣٥٢-٣٥٣، نقلاً عن مقابلة اجراها الصحافي الهندي كارانجيا رئيس تحرير صحيفة «بليتز» مع الرئيس عبد الناصر).

«مجلس قيادة الثورة»: هذا الرد الفاتر من عبد الناصر حاول الوحدويون السوريون (اعلاميًا على وجه الخصوص) تظهيره قبولاً صريحًا بمشروعهم الاتحادي. لكن زخم الخلافات وسرعتها وتزايد الصدع بين السياسيين السوريين فور عودة الوفد السوري المفاوض من القاهرة اشار إلى نوع من «فقدان بوصلة الاتجاهات» لديهم. فانصب الاعلام، بدءًا من ٢٠ آذار ١٩٥٧، على تعليقات كلها ثناء على دور الرئيس القوتلي الذي «يكافح للحفاظ على التضامن الداخلي». وبدا ان مركز الصراع انتقل إلى الجيش حيث كان الضباط اليساريون ناقمين لابدال احكام الاعدام وتخفيفها عن المتهمين. فحاول القوتلي والعسلي، بالتعاون مع رئيس الاركان العامة توفيق نظام الدين، نقل أكثر من مائة ضابط يساري بعيدًا عن مناصبهم في الجيش، وكان الهدف الرئيسي السرّاج، رئيس الشعبة الثانية، والعقيد نبيه صباغ رئيس الشعبة الثالثة. الاول بنقله إلى القاهرة، والثاني إلى عمان ليرئس القيادة العربية المشتركة (بموجب اتفاقية الدفاع المشترك التي اتفق عليها قبل ذلك بشهور). وقد رفض الضباط، ما عدا السرّاج، تنفيذ اوامر النقل، وردوا بقرار صادر عن وزير الدفاع سرّح فيه رئيس الاركان العامة. وفي هذا الظرف بذلت مصر مساع وصلت إلى حد التدخل من خلال إطار «القيادة المشتركة في دمشق» لتمنع الصدام المكشوف.

في ٤ ايار ١٩٥٧، جرت الانتخابات الفرعية (لخلو مقاعد نيابية أربعة: منير العجلاني، عدنان الأتاسي، فضل الله جربوع والشيخ هايل سرور)، وذهلت المعارضة (المحافظون) لهزيمتها في هذه المناطق الانتخابية المحسوبة لها. واخذت تتخذ خطوات لجمع حركة ائتلاف تضم نحو ٦٠ نائبًا يمثلون حزب الشعب وحركة التحرير العربي والاخوان المسلمين وبعض الناقمين من الحزب الوطني وبعض المستقلين.

وفي اواخر ايار ١٩٥٧، شكل بعض قادة الجيش (السرّاج والبزري وأحمد عبد الكريم والنفوري) وبعض السياسيين (أكرم الحوراني، وصلاح الدين الطرزي الامين العام لوزارة الخارجية، وخالد العظم، وفاخر الكيالي) «مجلس قيادة الثورة» بهدف الهيمنة على شؤون البلاد الخارجية والداخلية بالابقاء على المؤسسات القائمة (رئاسة الجمهورية، مجلس النواب ومجلس الوزراء) كواجهة.

جاءت مناقشة الموازنة في اول حزيران ١٩٥٧ (في مجراها، هدّد نواب حزب الشعب بالاستقالة ردًا على اتهام النائب الشيوعي خالد بكداش الخصوم بـ«عملاء الامبريالية») لتشد

الانتباه إلى ازمة البلاد الاقتصادية والمالية، إذ كان قد جرى تبديل النمط التجاري التقليدي لسورية. فالقطن والحنطة المخصصان لاسواق العملة الصعبة الغربية، لا سيما فرنسا وانكلترا، قد حُوّلا الآن إلى الكتلة الشيوعية بموجب الاتفاقيات التجارية معها وانتقامًا لهجوم الدولتين الغربيتين على مصر. فاضطر العسلي إلى ان يعد في بيانه بابقاء «السياسة بعيدة عن التجارة»، وقرر ان يبعث بوفود إلى الغرب والشرق على حد سواء.

وفي منتصف الشهر نفسه، حمل خالد العظم على الملكين حسين (الاردن) وسعود (المملكة العربية السعودية) بسبب «تعاونهما مع الولايات المتحدة لصالح اسرائيل والاستعمار»، علمًا انه كان لسعود متعاطفون كثر في سورية ومنهم الرئيس القوتلي. وفي اواخر الشهر، حمل أكرم الحوراني على الملكين ايضًا. وقد دلت هذه الحملات على ثقة اليسار في ان سيطرته على البلاد باتت أكيدة، وان «مجلس الثورة» قد رسّخ قواعده وفرض سيطرته على الجيش حتى ان ضباطًا كثيرين موالين للسرّاج رُفعوا في تموز (١٩٥٧) تجاوزًا لرأي رؤسائهم وعُيّنوا في مناصب مهمة داخل القوات المسلحة.

من «مؤامرة اميركية» إلى ازمة دولية إلى طلاق بين البعث والشيوعي: في ٢٣ آب ١٩٥٧، اذاع راديو دمشق عن اكتشاف مؤامرة «حاكتها الولايات المتحدة للاطاحة بالحكومة الثورية (...) وخطط لها ابراهيم الحسيني الذي كان ملحق سورية العسكري في روما...»

فقامت حملة تطهير في صفوف الجيش وفي الادارة قضت على ما كان قد تبقى من المعارضة. واستفحل الأمر وبدأ يتحول إلى ازمة دولية مع اتهام البيطار، وزير الخارجية السوري، مبدأ ايزنهاور بمسؤولية متاعب سورية مع الولايات المتحدة. فردّ الرئيس الاميركي، ايزنهاور، بتصريح قال فيه إن «الهدف المطلق للاتحاد السوفياتي هو السيطرة على سورية». واعلنت مصر (٩ ايلول ١٩٥٧) انها ستمنح سورية «دعمها غير المشروط أو المحدود». وفي اليوم التالي، دعت الوزارة السورية إلى تعبئة الشعب واعادة فرض الاحكام العرفية في المناطق التي رفعت عنها. وبعد يومين عقد فجأة في القاهرة إجتماع قمة عسكري سوري-مصري برئاسة عبد الناصر، انتهى بوضع جيشي الدولتين بإمرة القيادة المشتركة وقائدها الفريق عبد الحكيم عامر. ووصلت إلى سورية وحدة من الجيش المصري، نزلت في اللاذقية، وأدت إلىانفجار شعبي حماسي مطالب بالوحدة السورية-المصرية.

في غضون ذلك، وصل المبعوث الاميركي، لوي هندرسون، نائب وزير الخارجية الاميركي، إلى أنقرة. فاجتمع بعدنان مندريس والملك العراقي فيصل والملك الاردني الحسين، ثم انتقل إلى بيروت حيث اجتمع بالرئيس اللبناني كميل شمعون ووزير خارجيته شارل مالك. ولدى عودة هندرسون، صدر بيان صحافي عن البيت الابيض اظهر قلق جارات سورية «من السيطرة الشيوعية-السوفياتية المتزايدة على سورية». وبدأ شحن الأسلحة الاميركية جوًا إلى العراق والاردن. وفي الامم المتحدة اتهم وزير خارجية سورية، صلاح الدين البيطار، الولايات المتحدة بممارسة ضغوط عسكرية وسياسية واقتصادية على سورية، وتقدم بشكوى من الحشود العسكرية التركية على الحدود السورية، في حين اتهم الزعيم السوفياتي، خروتشوف، وزير الخارجية الاميركي، دالاس، بحث تركيا على مهاجمة سورية؛وهدّد بان «الاتحاد السوفياتي على استعداد لاستعمال القوة دفاعًا عن مصالحه في المنطقة». ومع توصية الجمعية العامة للامم المتحدة بمناقشة الوضع السوري (١٨ تشرين الاول ١٩٥٧)، عرض الملك سعود وساطته في النزاع القائم بين سورية وتركيا. وسحب هذه

الوساطة مع الانسحاب التركي من المنطقة موضوع النزاع. وانتهت هذه الازمة عقب محادثات اجراها البيطار مع دالاس، وتعيين سفير اميركي جديد في دمشق (اواخر كانون الاول ١٩٥٧).

وعلى صعيد علاقات حزب البعث بالحزب الشيوعي (الذي ازداد محازبوه في ١٩٥٧، ووصل احد اعضائه، عفيف البزري، ليصبح رئيسًا للاركان العامة)، بدأ الاول يستشعر خطر الثاني وإمكانية هيمنته على السلطة. فكتب ميشال عفلق يقول (شباط ١٩٥٧): «الشيوعية غريبة عن العرب غرابة النظام الرأسمالي عنهم». إلا ان خطوة لم تتخذ لإنهاء التعاون بين الحزبين إلا في خريف ١٩٥٧ عندما لاحظ البعث تعاونًا وثيقًا بين خالد العظم والشيوعيين قد يودي بنفوذه. فأخذ بالبحث عن حلفاء بين المستقلين والحزب الوطني وحتى بين حزب الشعب. ونتيجة لذلك، تمكن الحوراني من الفوز بمنصب رئاسة مجلس النواب واصبح أكثر السياسيين نفوذًا في البلاد، كما بدأ غير الشيوعيين من الطبقة الوسطى يراهنون عليه كأكثر السياسيين قدرة على صد التيار الشيوعي. لكن البعث، بمختلف قادته (ميشال عفلق وأكرم الحوراني وسواهما) وكوادره، سرعان ما وجد نفسه انه سيواجه مأزقًا سياسيًا وشعبيًا، وخاصة ايديولوجيًا كبيرًا: إن ابتعاده عن عدو (حلف العظم العاكف على تشكيل حزب تقدّمي ايضًا والشيوعي) سيوقعه في احضان عدو آخر (مختلف القوى والاحزاب والشخصيات المحافظة «الرجعية»). فوجد البعث ان «الوحدة مع مصر هي مخرجهم من هذا المأزق، فالوحدة ستجرّد الشيوعيين من قاعدة قوتهم لأن عبد الناصر قمع الشيوعيين دون رحمة، أما الاحزاب السياسية الأخرى، ومنها البعث، فستكون مرغمة على حلّ نفسها فعبد الناصر قرّر آلا متّسع للايديولوجيات السياسية المتصارعة، وهذا لم يقلق القيادة البعثية قط، إذ اعتقدت اعتقادًا جازمًا ان مكانة لائقة خاصة ستتسنّمها في مصر وسورية المتحدة مقابل وقفتها القوية المؤيدة لعبد الناصر، كما ان عقيدة البعث الوحدوية والاقتصادية تتماثل تمامًا وعقيدة عبد الناصر لذلك فالقيادة كانت على ثقة انه سيسمح لها بالاشراف على حركة سياسية قوية متراصة حسب الخط الفكري لحزب البعث وتشمل الوطن العربي» (المرجع المذكور في مطلع هذا الباب، ص ٣٩٧).

الوحدة، «الجمهورية العربية المتحدة» (شباط ١٩٥٨-ايلول ١٩٦١): جاءت الخطوة الاولى في هذا الاتجاه في ٩ كانون الاول ١٩٥٧ حين أعلن ميشال عفلق ان البعث يضع مشروع قانون من اجل إقامة اتحاد فدرالي مع مصر سيعرضه على الحكومة. وبعد نقاش في مجلس الوزراء، وبين مختلف الهيئات التمثيلية الشعبية (رسمية واهلية) تقرر ان يرسل إلى الحكومة المصرية لدراسته واتخاذ الترتيبات لعقد اجتماع بين ممثلي الحكومتين لبدء مفاوضات الاتحاد.

والجدير ذكره انه كان سبق هذه الخطوة اجتماع مشترك لمجلس النواب السوري مع ٤٠ عضوًا من مجلس الامة المصري عقد في ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٧ (أي قبل نحو ثلاثة اسابيع) في دمشق اعاد تأكيد التضامن المصري-السوري وتعهد بتأييد اتحاد البلدين، واتخذ المجتمعون قرارًا يطلب إلى حكومتي البلدين الدخول في مباحثات الاتحاد. ولكن، وبعد عودة أنور السادات رئيس مجلس الامة المصري، إلى القاهرة في ٢٢ تشرين الثاني (١٩٥٧) لم تصدر هنالك إشارة واضحة إلى رغبة المصريين في تنفيذ الاتحاد.

وفي اواخر كانون الاول ١٩٥٧، أحسّ السوريون بصراع قوي يجري وراء الكواليس، وموضوعه إظهار البعثيين للشيوعيين بأنهم غير متحمسين (لا بل يعادون) للوحدة، وظهر سيل

جمال عبد الناصر وسط جماهير المستقبلين في دمشق.

من الكتب المناهضة للشيوعية في المكتبات واكشاك بيع الصحف.

وعلى حين غرة وصل، في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٨، وفد من الضباط السوريين، ولحقه بعد اربعة ايام صلاح الدين البيطار وزير الخارجية، ليرجو عبد الناصر إقامة اتحاد فوري بين البلدين لان «الشيوعيين على وشك استلام مقدرات البلاد». وعُلم، في ما بعد، ان عبد الناصر كان حذرًا في تولي مسؤولية «سورية المتعبة»، لكنه وافق اخيرًا بشرط ان تقوم «وحدة» بين البلدين وليس «اتحادًا». فأذعن الوفد السوري.

وافق الشيوعيون بادىء الامر، ولكن لأيام قليلة فقط. إذ سرعان ما عاد بكداش ورفض التوقيع على اعلان الوحدة، واعلن ان الحزب الشيوعي ما كان ليحل نفسه قط في أي مكان في العالم. ثم قاطع جلسة البرلمان (شباط ١٩٥٨) التي انتخب فيها عبد الناصر بالاجماع رئيسًا لـ«الجمهورية العربية المتحدة»، وغادر فورًا سورية إلى الاتحاد السوفياتي وانشق الحزب الشيوعي، واستقال منه اعضاء عديدون.

اعلن عبد الناصر، في مجلس الامة المصري يوم ٥ شباط ١٩٥٨، برنامجًا وحدويًا من ١٧ نقطة تضمنت مجلسًا تشريعيًا مؤلفًا من ٤٠٠ نائب على ان يكون نصفهم على الاقل من المجلسين التشريعيين القائمين آنئذ في مصر وسورية، وان القوانين المصرية والسورية ستظل نافذة إلى ان يتم تغييرها، وإقامة مجلس تنفيذي منفصل لكل قطر، وإجراء استفتاء على الوحدة المقترحة يوم الجمعة

٢١ شباط ١٩٥٨. وقد انتخب عبد الناصر بالاجماع أول رئيس لدولة الوحدة التي اتفق على تسميتها «الجمهورية العربية المتحدة». وجرى الاستفتاء في موعده، وافق على الوحدة ٩٩،٩٩٪ من المصريين، و٩٩،٨٪ من السوريين.

وفي ٦ آذار ١٩٥٨، أعلنت الحكومة الاولى للجمهورية العربية المتحدة، وضمت اربعة نواب رئيس (سوريان هما أكرم الحوراني وصبري العسلي، ومصريان هما عبد اللطيف البغدادي والمشير عبد الحكيم عامر)، و٣٠ وزيرًا منهم ١٢ وزيرًا سوريًا، وهم: عبد الحميد السراج للداخلية، حسن جبارة للتخطيط، مصطفى حمدون للشؤون الاجتماعية، شوكت القنواتي للصحة، عبد الوهاب حومد للعدل، صلاح الدين البيطار وزير دولة، نور الدين كحالة للأشغال العامة، أحمد عبد الكريم للشؤون البلدية والقروية، خليل كلاس للاقتصاد والتجارة، أحمد الحاج يونس للزراعة، فاخر الكيالي للخزانة وامين النفوري للمواصلات. ونقل الحوراني والعسلي والبيطار مكاتبهم إلى القاهرة.

كان صبري العسلي اول المستقيلين من الحكم (اوائل تشرين الاول ١٩٥٨). وحين شنّ عبد الناصر حملة على الشيوعيين في ربيع ١٩٥٩، هرب البزري، رئيس الاركان السابق في الجيش السوري ورقي إلى رتبة فريق في جيش الجمهورية العربية المتحدة، إلى بغداد حيث طلب اللجوء السياسي، ثم انتقل من هناك إلى دول الكتلة السوفياتية. وكان عبد الحميد السراج يزيد من إحكام قبضته على الاوضاع الداخلية يومًا بعد يوم، خاصة بعد ان منح عبد الناصر المشير عامر (ابتداء من تشرين الاول ١٩٥٩) السلطة التامة للاشراف على سير حقائب السوريين من حكومة الجمهورية العربية المتحدة. وفي غضون شهرين، استقال الحوراني والبيطار (وعبد الغني قنوت الذي عين في الوزارة القطرية السورية) وقد استشعرا ان السيطرة على البعث تفلت منهما، وان كثيرين من اعضائه نقلوا ولاءهم إلى الاتحاد القومي.

وفي ١٨ آذار ١٩٦٠، جرى تعديل تام للمجلس التنفيذي في القطر العربي السوري، فأصبح العقيد أكرم الديري وزيرًا للشؤون الاجتماعية والعمل بدلاً من مصطفى حمدون المستقيل، والعقيد أحمد الحنيدي وزيرًا للاصلاح الزراعي، والزعيم جمال الصوفي وزير دولة لشؤون الرئاسة. وفي ايار ١٩٦٠، استقال الوزيران أحمد عبد الكريم وامين النفوري، واخذت الامور في سورية تنقلب إلى غير مصلحة عبد الناصر والوحدة. وفي تشرين الثاني ١٩٦٠، اجرى عبد الناصر تعديلاً جديدًا بين وزرائه السوريين، فعيّن السرّاج رئيسًا للمجلس التنفيذي السوري، وأعيد عامر إلى القاهرة.

في ٧ آب ١٩٦١، أعيد تنظيم الجمهورية العربية المتحدة لتوحيد القطرين في وزارة واحدة. وفي هذا التعديل اصبح السرّاج نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة للشؤون الداخلية، ونقل إلى القاهرة. «وكانت هذه هي الخطيئة ا لكبرى التي اقترفها عبد الناصر منذ ان تولى السلطة، ومع ان حافزه على هذا قد يكون تخفيف القلق بنقل السرّاج البغيض جدًا في سورية إلا ان زوال السرّاج أقصى أكبر القوى الكابحة في سورية فعالية، وبغيابه احست العناصر السورية المعادية للنظام انها حرة مرة اخرى لتتآمر من اجل فصل سورية عن مصر. إن السرّاج، وقد وجد ان منصبه في القاهرة لا يوازي الراتب الذي يتقاضاه، استقال بعد شهرين وعاد إلى سورية في ١٥ ايلول ١٩٦١، واصبح الوضع معدًا تمامًا الآن للانقلاب السوري الذي فصم الوحدة في ٢٨ ايلول ١٩٦١» (المرجع المذكور في مطلع هذا الباب، ص ٤١٩-٤٢٠).

ففي هذا اليوم، «اختطفت سورية من الوحدة حفنة يمينية بقيادة ضابط دمشقي هو المقدم

عبد الكريم النحلاوي بدعم من الاردن والسعودية ورجال الاعمال السوريين الساخطين. كان السبب المباشر لذلك هو الذعر الذي خلقته قرارات التأميم واسعة النطاق التي اصدرها عبد الناصر في تموز ١٩٦٠ بين صفوف التجار السوريين. والذي حدث هو ان احدًا لم يطلق طلقة واحدة في سورية دفاعًا عن الوحدة. وصدم عبد الناصر بأنباء التمرد السوري فأمر قوة من ألفي مظلي مصري بالاقلاع إلى سورية لسحقه، ولكن عندما اعلنت قيادات الجيش في حلب واللاذقية وقوفها مع المتمردين اعاد عبد الناصر التفكير في الموضوع ونقض اوامره، وامر الطليعة المصرية المؤلفة من ١٢٠ مظليًا كانوا قد هبطوا فعلاً بالاستسلام؛ أما المشير عبد الحكيم عامر، نائب عبد الناصر، فقد وضع في طائرة حملته إلى القاهرة، وأعيد كثيرون من المصريين غير المرغوب فيهم إلى مصر (...) وبعد ايام قليلة من الانقلاب (أي في ٢ تشرين الاول ١٩٦١) وقّع ١٦ من السياسيين السوريين البارزين على بيان يهاجم عبد الناصر ويشكر الجيش على «حركته الانقاذية المباركة». و لم يكن بين الموقعين أكرم الحوراني فحسب، ولكن ايضًا صلاح الدين البيطار، وقد ذهل الجميع عندما رأوا هذا الداعية إلى الوحدة والمدافع عنها يتبنى عملية تدميرها الآن» (باتريك سيل، «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ترجمه للعربية المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، ص ١١٤-١١٥).

الجدير ذكره، اخيرًا، ان وحدة مصر وسورية (١٩٥٨-١٩٦١) في «الجمهورية العربية المتحدة»، وانفصالهما، كانا، ولا يزالا، موضوع سيل من الكتب والدراسات العربية والاجنبية، وقد صبّ بعضها اهتمامه على ابراز العوامل الداخلية في الانفصال (مسؤولية القادة المصريين والسوريين)، وبعضها الآخر على ابراز العوامل الخارجية (الأنظمة العربية المحافظة، واسرائيل والولايات المتحدة، وحتى الاتحاد السوفياتي داعمًا الحزب الشيوعي الذي كان قد تحول إلى العمل السري). وقد استمر عبد الناصر متبنيًا لمصر إسم «الجمهورية العربية المتحدة» حتى جاء بعده الرئيس انور السادات فاستبدله باسم «جمهورية مصر العربية».

الحكم خلال ٢٨ ايلول ١٩٦١-٧ آذار ١٩٦٣:

آذار ١٩٦٣: «أدى الطلاق السوري-المصري إلى اضرار نفسية كبيرة. و لم يكن واضحًا في اذهان الكثيرين في البلدين كليهما اين تقع ولاءاتهم وما الذي سيعنيه الانفصال في حياتهم نفسها (...) وادى الانفصال إلى تغيير المشهد في الشرق الاوسط تغييرًا عميقًا تمامًا كما فعلت الوحدة قبل ثلاثة اعوام ونصف. كانت قبضة عبد الناصر على سورية قد شلّت ميزان القوى الاقليمي، ولكن عندما انفكت هذه القبضة استعادت سورية شيئًا فشيئًا من اندفاعها الفوضوي القديم» (باتريك سيل، المرجع المذكور، ص ١١٤-١١٥).

وفورًا، في اليوم التالي من الانقلاب الانفصالي، أعلنت سورية حكومة جديدة برئاسة مأمون الكزبري لم يشارك فيها البعث الذي كان وزراؤه قد استقالوا من حكومة الوحدة. وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٦١، أعلن دستور مؤقت، وفاز بالانتخابات الجديدة (أول كانون الاول ١٩٦١) غالبية الاحزاب والنواب الذين كانوا في مجلس ١٩٥٨ الذي اقر الوحدة، ما عدا رئاسة الجمهورية (ناظم القدسي) ورئاسة المجلس، وفاز البعث بـ٢٤ مقعدًا أي بزيادة ٧ مقاعد. واتجه الحكم من جديد باتجاه العراق، إذ تمّ في تشرين الثاني ١٩٦١ توقيع اتفاق اقتصادي بين دمشق وبغداد تلته معاهدة عسكرية في شباط ١٩٦٢، وبدأ اللقاء بين رئيسي الدولتين كأنه يوشك ان يفضي إلى الوحدة بينهما. لكن سرعان ما غاصت سورية في حلقة

مفرغة من الانقلاب والانقلاب المضاد، خاصة في صفوف ضباط الجيش وفي غضون ستة ايام ٢٨ آذار-٢ نيسان ١٩٦٢. وقد اوصلت هذه الحلقة المفرغة «هيئة الضباط التي استحوذت عليها الفئوية إلى حافة التفكيك والتمزق. وبدأت الازمة عندما قام العقيد النحلاوي، الرجل الذي حطّم الوحدة قبل ذلك بستة أشهر ثم أزيح عن المسرح، بالقبض على الحكومة وايداعها السجن بما في ذلك الرئيس القدسي. وقد احاف هذا الاستباق الاسد ومجموعته وحلفاءهم الناصريين فقاموا بتجميع اصدقائهم ضد النحلاوي، مما اضطر القائد العام، وقد غمره اليأس، إلى دعوة الضباط المتحاربين إلى مؤتمر في حمص في اول نيسان (١٩٦١). وكانت نتيجة المناقشات ان نفي بعض الضباط وأعيد الرئيس القدسي إلى منصبه. فازداد سخط البعثيين والناصريين فعادوا إلى التمرد واقتحموا قلعة حلب في اليوم التالي وقتلوا آمر حاميتها. وانضم إليهم حافظ الاسد وصلاح جديد ومحمد عمران (...) ولم يُدعَ إلى المؤتمر لا أكرم الحوراني ولا البعثيون الذين انضموا إلى عبد الناصر... وانتهى المؤتمر بأن اعاد عفلق، بطريقة قلقة، إلى كرسي قيادة الحزب، وبمساعدة وفد البعثيين العراقيين استطاع عفلق ان يمرّر قرارًا يقضي باصلاح الحزب في سورية... وفي اعقاب المؤتمر جرت اتصالات بين عفلق واللجنة العسكرية التي لم تطلع الزعيم العجوز على سرها ولا على تفاصيل خططها، إلا ان الضباط حصلوا منه على تعهد بدعمهم للقيام بانقلاب كان هناك الكثير من المخادعة بين الجانبين. إلا ان الرابط الذي جمع بينهما هو التفاهم الصامت على انه بعد ان يتم استخدام الناصريين للتخلص من الانفصاليين، فإنهم لم يكرروا غلطة تسليم السلطة إلى الزعيم المصري ولكنهم لم يتفقوا على مقدار السلطة التي سيتقاسمونها، إذ تُرك الامر معلقًا» (المرجع المذكور، ص ١١٨، ١١٩، ١٢٧، ١٢٨).

انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣: في هذا اليوم، نجح الضباط البعثيون، بالتعاون مع اصحاب الاتجاهات الوحدوية (الناصريون على وجه الخصوص) في السيطرة على الحكم وإنشاء «المجلس الوطني لقيادة الثورة» الذي ضمّ، في بادىء الامر، عناصر بعثية وغير بعثية، أملاً في توحيد الجبهة الداخلية والتفاهم مع البعث في العراق، الذي كان سبق البعث في سورية شهرًا باطاحته حكم عبد الكريم قاسم، ولاجراء مباحثات مع عبد الناصر لاقامة وحدة «ثلاثية» هذه المرة (سورية-مصر-العراق). وقد جرت المباحثات في القاهرة، واعلنت الوفود المتفاوضة في ١٦ نيسان ١٩٦٣ «ميثاق الوحدةا لثلاثية» على أساس «توحيد الشخصية الدولية والسياسة الخارجية للدولة الاتحادية...». إلا ان هذا الميثاق لم يُعد الثقة، ولم يوقف الصراع على السلطة بين ا لبعث والقوى الناصرية في سورية والعراق.

وبفشل الميثاق آلت الامور إلى الاضطرابات من جديد، مما اضطر البعث إلى تأسيس محاكم امن الدولة لابطال فعالية المعارضين الناصريين. وفيما كان هؤلاء ماضين في تشكيل جبهة معارضة ويستجمعون قواهم، اخذ البعث يعمل على توحيد الجيش لصالحه. فأعاد أكثر من ٣ آلاف معلم وموظف من «الضباط الاحتياط» البعثيين إلى الخدمة في الجيش وفي مختلف دوائر الامن، وسرّح ٤٧ ضابطًا عاملاً من كبار «الضباط الناصريين» بالاضافة إلى مناقلات وترتيبات أخرى. وبالتماسك الذي تحقق من جراء ذلك امكن تصفية المعارضة في الحكم وإعادة تشكيل المجلس الوطني لقيادة الثورة، وبالتالي تفشيل حركة ١٨ تموز الناصرية، وانهاك أو تفتيت جميع القوى السياسية باستثناء الحزب الشيوعي.

في هذه الظروف منح «المجلس الوطني لقيادة الثورة» نفسه السلطة التنفيذية والعسكرية، وشدّد البعث قبضته على البلاد بانشاء حرس قومي

ميشال عفلق (الى اليسار) وصلاح جديد.

موال له، واصبح أمين الحافظ رئيسًا للمجلس الوطني. وبعد محاولة غير مجدية للوحدة مع العراق تمّ اعلان دستور موقت لسورية في نيسان ١٩٦٤، أسندت فيه السلطة التشريعية للمجلس الوطني، والتنفيذية لمجلس الوزراء الذي اعتبر رئيسه، حكمًا، عضوًا في المجلس الوطني.

إلا ان المعارضة (خاصة منها جناحها المحافظ، وبالاخص المعارضة الدينية) ما لبثت ان هبت في وجههم في بانياس وحماة ودمشق باضرابات شبه كاملة في الاسواق. فكانت ردة فعل البعث سريعة: التلويح بتأميم المحلات التجارية واستخدام القوة في المدن.

وفي اعقاب هذه الازمة ومجيء حكومة تهدئة رأسها صلاح البيطار، تولت الحكم وزارة برئاسة امين الحافظ كانت أولى اجراءاتها تأميم موارد البلاد البترولية والمعدنية إلى جانب حوالي ١٠٠ شركة تجارية وصناعية، ثم كل اجهزة التكرير والتوزيع، دون اكتراث للمعارضة التي كانت في وضع ضعيف ويائس.

صراعات البعث الداخلية: لم ينج البعث من الصراعات الداخلية على النفوذ بين صفوفه. كانت هذه الصراعات مكتومة وخافتة ايام كانت المعارضة (الناصرية خاصةً) قوية. وعندما اصبحت الساحة خالية تقريبًا للحزب تفجرت خلافاته الداخلية، ولا سيما بعد ان احتل العسكريون مواقع مهمة ومؤثرة داخل الحزب بفضل تنظيماتهم العسكرية التي لعبت دورًا رئيسيًا في ايصال الحزب إلى مواقع السلطة وبفضل استقطابهم لعناصر كثيرة تطمح إلى لعب دور قيادي مخالف لهم. وقد ساد تشكيل القيادات والوزارات جو من التنافس الحاد على السلطة، وانفجر الصراع الحزبي العلني في حركة عسكرية حزبية ضد القيادة القومية للحزب سميت حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦، تسلّم مقاليد الامور في سورية أثرها كبار ضباط البعث. فعين نور الدين الأتاسي رئيسًا للدولة، ويوسف زعين رئيسًا للوزراء، وصلاح جديد امينًا قطريًا مساعدًا. وسارت سورية في طريق اكثر تطرفًا ساعية إلى التحالف مع الاتحاد السوفياتي، ونشطت الحكومة في انجاز بعض المشاريع الكبرى: سد الفرات،

النزاع مع شركة الأي.بي.سي. ثم توقيع اتفاقية معها (ايار ١٩٦٧) باعادةالنظر في حقوق المرور والشحن. بيد ان احتلال اسرائيل للجولان في حرب ١٩٦٧ حدّ من نفوذ الحكم السوري في المنطقة؛ ونشأت اوضاع في سورية وفي المنطقة عرف ضابط طيار بعثي، هو حافظ الاسد، كيف يمسك بناصيتها، ليصل بعد نحو عامين فيمسك بزمام الامور في سورية.

حرب ١٩٦٧ وخسارة الجولان: ان ما يتعلق بسورية مباشرة في هذه الحرب الخاطفة (٥ حزيران ١٩٦٧) ان اسرائيل كانت قد بدأت قبل نحو شهرين من اندلاعها (أي في نيسان ١٩٦٧) سلسلة من الانتهاكات لاتفاقية الهدنة مع سورية نجم عنها اشتباكات وتهديدات اسرائيلية وتحركات عسكرية قرب الحدود. وفي ١٣ ايار، تلقت القيادة المصرية معلومات من الاتحاد السوفياتي تفيد بوجود حشود اسرائيلية قوية على الحدود السورية، فبدأت القوات المصرية عملية تحريك واسعة لها باتجاه سيناء. ولقد تعمدت القيادة المصرية اضفاء الطابع العلني على خطواتها كافة لتؤكد ان مصر ستخوض الحرب إذا ما نفذت اسرائيل تهديداتها ضد سورية. وظهر ان الاستراتيجية المصرية والسورية كانت استراتيجية دفاعية واضحة.

في الساعة ٨،٤٥ من صباح ٥ حزيران ١٩٦٧، بدأت اسرائيل هجومها الجوي على القواعد الجوية المصرية. ولقد تمكنت هذه الضربة وما تلاها من ضربات جوية ضد القواعد الجوية العربية الأخرى من القضاء على أسلحة الجو العربية وتحقيق السيطرة للطيران الاسرائيلي على اجواء المنطقة، الأمر الذي سهّل اندفاع القوات البرية الاسرائيلية في سيناء والضفة الغربية والجولان، حيث خاضت القوات البرية العربية معركة غير متكافئة ضد عدو يمتلك سيطرة جوية شبه مطلقة، وانسحبت من مواقعها، وتوقف القتال في ١٠ حزيران ١٩٦٧ تنفيذاً لقرار مجلس الامن بوقف اطلاق النار. واحتلت اسرائيل شبه جزيرة سيناء والجولان (راجع «الجولان» في باب «مدن ومعالم»)والضفة الغربية وازداد عدد العرب الخاضعين للاحتلال، وخلق مناخ اكثر ملاءمة لنمو الثورة الفلسطينية .

عهد الأسد

(المرجع الرئيسي للاحداث التي تلت انتهاء حرب حزيران ١٩٦٧ حتى ١٩٨٧: باتريك سيل، «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ترجمة للعربية المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع. وبخصوص دور الأسد في احداث السنوات التي أعقبت انفصال وحدة سورية ومصر، راجع الباب السابق «١٩٤٥-١٩٧٠»، وراجع كذلك «حافظ الأسد» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة». أما المرجع الرئيسي لسنوات ١٩٨٧-١٩٩٦ فهو كتاب P. Guingamp, "Hafez El Assad et le parti Baath en Syrie", Paris, 1996).

نحو السلطة: لم يكن الاسد،، قبل حرب ١٩٦٧، ليعطي الانطباع بأن ثمة طموحًا يحركه. فبالرغم من ان اهميته ظلت تتصاعد باستمرار منذ استيلاء البعث على الحكم في ١٩٦٣، إلا انه بقي بشكل ما محجوبًا بظل عمران وأمين الحافظ وصلاح جديد. وبعد الحرب، فهم الاسد عِبَر الهزيمة، وعقد العزم على بناء قاعدة شخصية له في القوات المسلحة. وكان تصميمه يعود اساسًا إلى الاستياء الذي تملكه من هزيمة سورية والعرب في الحرب وفقدانهم الجولان والضفة وسيناء. فهو لم يعتبر نفسه مسؤولاً عن هذه الكارثة التي آلت إليها سياسات صلاح جديد والحكومة والقيادة القطرية. ومع ذلك فقد كانت اصابع الاتهام تشير إليه لضياع الجولان مما أثار في نفسه شعورًا ملحًا بأنه ما دام سيتلقى اللوم فليكن له إذن صنع القرارات.

اشتدت الخلافات بينه وبين زملائه في ١٩٦٨، حول مختلف الامور السياسية والحزبية، الداخلية والقومية والخارجية، وحول أولوياتها، وكذلك حول الموقف من الفلسطينيين وثورتهم. فقد بدا الاسد فيها كلها أكثر واقعية وانفتاحًا، في حين بدا أخصامه في الحزب والحكومة جذريين مغامرين: «وقد بدا ان حكومتنا لم تكن على وفاق لا مع البلدان الاشتراكية ولا مع البلدان غير الاشتراكية. الواقع اننا لم نكن على وفاق مع أحد» (باتريك سيل، من مقابلة مع الرئيس الاسد-دمشق ١٢ ايار ١٩٨٥- ص٢٤٣). وحتى وسائل الاعلام السوفياتية كانت تتحدث عن «المتهورين السوريين». وسرعان ما اصبح الخلاف المتزايد بين الاسد وجديد مدار الحديث في الجيش والحزب. وكان على كل عضو فيهما ان يختار الوقوف إلى صف هذا أو ذاك. وخطوة بعد خطوة راح الاسد يخرج رجال جديد من مراكز النفوذ في القوات المسلحة. وكان ابرز مثال على ذلك هو طرد رئيس الاركان أحمد سويداني في شباط ١٩٦٨ وتعيين صديق الاسد المقرب مصطفى طلاس في مكانه. واستمر الاسد في إحكام قبضته على الجيش. أما في الحزب، فإن المؤتمرين القطري والقومي (ايلول-تشرين الاول ١٩٦٨) رفضا اكثر طروحات الاسد، ولكنه استطاع على أي حال ازاحة إثنين من اخصامه، رئيس الوزراء يوسف زعيّن ووزير الخارجية ابراهيم ماخوس.

بانتحار عبد الكريم الجندي (ليلة ١-٢ آذار ١٩٦٩)، مدير مكتب الامن القومي في الحزب والمسيطر على اجهزة الامن والاستخبارات

الأسد وزيراً للدفاع.

في الدولة والسند الرئيسي لصلاح جديد وصاحب الصورة المقيتة في اذهان السوريين لشدة ما أتى به من قمع، تغير ميزان القوة بشكل كبير لصالح الاسد وشقيقه رفعت الذي كان ذراعه اليمنى في مجال النزاعات الداخلية.

«ورغم ان الاسد كسب جولة هامة فإنه كان هائل التردد في استغلال الفرصة لكسب المزيد. ولم يكن ثمة مجال للمصالحة بينه وبين جديد، ورغم ذلك فقد سمح لقيادة جديد القطرية بأن تستمر في العمل ولكن مع إجبارها على التراجع عن مواقفها من القضايا السياسية: فخفضت نغمة الصراع الطبقي، وتمّ إسكات النقد الموجه ضد الانظمة العربية، واطلق سراح بعض السجناء السياسيين، وشكلت حكومة ذات قاعدة اوسع، وظهرت بوادر ترقيع «جبهة شرقية» بالاشتراك مع الاردن والعراق. وخرجت سورية من عزلتها وعادت إلى حضور مؤتمرات القمةالعربية. وفي اوائل آذار جاء إلى دمشق مبعوثون من قبل الرئيس عبد الناصر والرئيس الجزائري بومدين بل حتى من قبل النظام البعثي الجديد في العراق وذلك لكي يعرضوا وساطتهم في الصراع بين الأسد وجديد الذي اصبح حينذاك حديث الحكومات. وفي هذه الفترة قام الاسد ونور الدين الأتاسي بزيارة عبد الناصر في القاهرة» (المرجع المذكور، ص ٢٥٠-٢٥١).

ايلول الاسود (١٩٧٠): استمر الاسد وجديد متنازعين حول مسألتين شائكتين: السلام، ومختلف مشاريعه (خاصة منها مشروع وزير الخارجية الاميركية روجرز الذي خلفه كيسنجر)، الذي كان الاسد يرى في رفض جديد الشامل له شيئًا غير معقول ولا يؤدي إلا إلى مزيد من الكوارث؛ والفدائيين الفلسطينيين الذين، بينما كان يرى فيهم جديد أدوات للثورة العربية وليس فقط محررين لفلسطين، فهم الاسد «جيدًا ان المقاتلين غير النظاميين، والمتشاجرين في ما بينهم، ليس من المحتمل ان يؤثروا في ميزان القوى مع اسرائيل (...) وفي زيارة قام بها لعمان (...) وجد بذهول ونفور ان العاصمة الاردنية كانت مليئة بملصقات تقول «كل السلطة للمقاومة» (...) وكان هناك فدائيون يهينون الجنود النظاميين (...) ويقول الاسد: لم أكن في حياتي كلها مؤيدًا للفوضى على الاطلاق ولن أكون. فالفوضى لا تؤدي إلا إلى الآلام، ولا تحصد أية نتائج» (المرجع المذكور، ص ٢٥٤-٢٥٧).

وقبل انفجار الازمة في الاردن (ايلول الاسود ١٩٧٠) كان الأسد قد اصبح سيد سورية الفعلي، ولم يكن بنزاع مع جديد حول التدخل السوري لدعم الفدائيين. فعبرت الدروع السورية الحدود (١٨ ايلول) وسيطرت على مدينة إربد، وكان الاسد يدير العمليات شخصيًا منحازًا إلى المقاومة من دون ان يعطف على هدفها بالزحف على عمان. وفي ٢٢ ايلول أمر الحسين اللواء المدرع الاربعين، المعزز بالدعم الجوي، بالاشتباك مع الدبابات السورية، وبعد ظهر اليوم نفسه كانت الوحدات السورية عائدة ادراجها إلى سورية. وقبل يومين، كان الحسين قد طلب المساعدة من الاميركيين مشعرًا إياهم بأنه على استعداد لأن يقبل تدخلاً اسرائيليًا ضد السوريين (المرجع المذكور، ص ٢٦١، استنادًا إلى «وليام كوانت: عشر سنوات من القرارات» و«اسحق رابين: مذكرات رابين»). وفورًا، بعد هذا الطلب، اتفق كيسنجر والسفير الاسرائيلي رابين على خطة وافق عليها الرئيس الاميركي نيكسون وحسين تقضي بأن تشن اسرائيل هجمات بالطيران وبالدروع على القوات السورية في ٢٢ ايلول ١٩٧٠. وقامت اسرائيل بحشود عسكرية علنية محاطة بضجة اعلامية باتجاه الاردن. كذلك وضعت واشنطن قواتها المحوقلة على أهبة الاستعداد وارسلت اسطولاً اميركيًا هائلاً إلى

شرقي البحر المتوسط. عندها، قامت دبابات الحسين وطائراته بالاشتباك مع السوريين في ٢٢ ايلول. فأدرك الاسد جدية الموقف، ولم تكن لديه النية في الانخراط في معركة غير متكافئة مع اسرائيل ناهيك عن الولايات المتحدة.

«وكانت حصيلة الأمر هو ان كل ما حققه الاسد من إرساله جيشه ليحمي الفدائيين هو اعطاء اسرائيل الفرصة لوضع الاردن تحت جناحها ولأن ترتفع بنظر اميركا إلى مرتبة الشريكة الاقليمية التي لا غنى عنها-وهذه نتيجة لا يمكن ان تجعل الاسد فخورًا. وهكذا قام الاسد، وحسين، وزعماء الفدائيين بتصرفات خاطئة كان من شأنها ان عكّرت العلاقات في ما بينهم واضعفتهم لمصلحة اسرائيل. وهذا كله بمثابة المقدمة غير المريحة لتولي الاسد السلطة» (المرجع المذكور، ص ٢٥٣ و٢٦٥).

الامساك بالسلطة: بعد اسبوع من مغادرة دبابات الاسد الاردن مات عبد الناصر. وبعد نحو شهر، أي في ٣٠ تشرين الاول ١٩٧٠، دعا صلاح جديد إلى مؤتمر استثنائي للقيادة القومية. وكان اول قرارات المؤتمر انه امر وزير الدفاع حافظ الاسد بأن يتوقف عن اجراء أي نقل في الجيش طيلة فترة انعقاد المؤتمر، ثم أتبعه بقرارات تجرد الاسد وصديقه مصطفى طلاس من مناصبهما القيادية في الجيش والحكومة. إلا ان الاسد كان قد اتخذ احتياطاته ونشر قوات حول قاعة المؤتمر. وعندما انتهى المؤتمر (١٢ تشرين الثاني)، اعتقل الاسد العديدين من خصومه، وزج صلاح جديد ويوسف زعين ونور الدين الأتاسي في السجن، وهرب وزير الخارجية الدكتور ابراهيم ماخوس إلى الجزائر حيث وجد عملاً في مستشفى باشا. وقد أطلق على هذه العملية «الحركة التصحيحية». وأول زوار دمشق كان الزعيم الليبي معمر القذافي الذي وصل (١٦ تشرين الثاني) قبل ساعات من

فوق: الأسد يلقي خطاباً من شرفة قصر الضيافة (١٩٧١)، والى يمينه عبد الله الاحمر ومحمود الايوبي، والى يساره عبد الحليم خدام.

تحت: الأسد في كلمة الى النواب في افتتاح الدورة الاولى لمجلس الشعب (١٩٧١).

اذاعة خبر استلام الاسد للسلطة. وفي اعقاب القذافي وصل وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي حاملاً رسالة تهنئة من نظام البعث العراقي. فالعراقيون الذين كرهوا صلاح جديد، كانوا يشجعون الاسد على استلام السلطة «بالرغم من ان المنفيين السوريين في بغداد مثل ميشال عفلق وامين الحافظ كانوا يفضلون لو رأوا جميع اعضاء اللجنة العسكرية وقد لفتهم غياهب النسيان» (المرجع المذكور، ص ٢٦٩).

بدأ الاسد لتوه في تعديل الخطاب السياسي الذي اعتاده السوريون وكانوا بدأوا يمقتونه لكثرة ما حمل من شعارات لم يأخذ احدها طريقه إلى التنفيذ الفعلي. فتخلى الاسد عن «حرب الطبقات وبدأ يوسع قاعدة تأييده ويغازل الطبقات الاجتماعية الساخطة باحداث تحرر وانفتاح

فوق: احد اول اجتماعات حزب البعث في ١٩٧١؛ وبدءا، الى يسار الرئيس الأسد، عبد الله الاحمر الامين العام المساعد، ثم محمود الزعبي الذي سيعاد انتخابه رئيساً لمجلس الشعب في ٢٧ شباط ١٩٨٦؛ والى يمينه زهير مشارقة.

تحت: الأسد في القمة العربية السادسة في الجزائر (٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٣) والى جانبه وزير خارجيته عبد الحليم خدام.

اقتصاديين وسياسيين»، ونزع إلى المصالحة الوطنية.

«إن قيامه بحكم سورية، وهو من أقلية، كان تحديًا لتقليد ظل يقضي طيلة مئات السنين بأن السلطة تعود إلى أيدي السنيين، كما كان امرًا يتطلب شجاعة سياسية. فصلاح جديد لم تكن لديه مثل تلك الجرأة، بل اختار الأتاسي السنيّ كواجهة له. ولدى إسقاط جديد، بدا وكأن الاسد بدوره يتردد على عتبة المنصب الاول، فاقنع نفسه باديء الامر بمنصب رئيس الوزراء ووضع في منصب رئيس الدولة معلم مدرسة سنيًا غير معروف في التاسعة والثلاثين من عمره وهو أحمد الخطيب. على ان شكوك الاسد المترددة الاولى لم تكن تتناسب وشخصيته ومعتقداته. فقد كان يحاول منذ ايام صباه ان يحرر نفسه من العقد الطائفية. ففي ٢٢ شباط ١٩٧١ اصبح «متمتعًا بصلاحيات رئيس الجمهورية»، وفي ١٢ آذار أدّى استفتاء شعبي إلى تثبيته كرئيس لمدة سبعة اعوام (...) وعندما نشر دستور سورية الجديد في ٣١ كانون الثاني ١٩٧٣، ثارت الاحتجاجات، ولا سيما في حماه، لأن هذه الوثيقة ذات الـ١٥٦ مادة كان قد حذف منها الاشتراط بأن رئيس الجمهورية يجب ان يكون مسلمًا، وكانت تلك قضية شغلت الرأي العام السوري، لأن الدساتير السورية، منذ ١٩٣٠، كانت تنص على ان دين رئيس الدولة يجب ان يكون الاسلام. فتراجع الاسد بهدوء عن علمانية البعث التقليدية ليتجنب المواجهة، فأوعز إلى مجلس الشعب الحديث التكوين آنذاك ان يضيف هذ المادة. ولكنه انتهز هذه الفرصة ليعطي رأيه في الاسلام الذي قال إنه يجب ان يكون بعيدًا عن وجه التزمت والتعصب المقيت، فالاسلام دين المحبة والتقدم والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الجميع، دين يحمي الصغير والكبير، والضعيف والقوي. ثم طرح السؤال بعد ذلك عما اذا كان من المشروع ان يُسمّى العلوي مسلمًا. ولحل هذه المعضلة، لجأ الاسد إلى صديقه الزعيم الشيعي المتنفذ، الامام موسى الصدر، رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى في لبنان، الذي اصدر فتوى بأن العلويين حقًا طائفة من المسلمين الشيعة، وهكذا أزيح عائق ديني من طريق رئاسة الاسد. وعندما أثارت المعارضة الشعب لأنها لم تكتف بذلك وطالبت باعلان الاسلام دين الدولة (وهذا شيء لم يكن منصوصًا عليه في دساتير ١٩٣٠ و١٩٥٣ و١٩٦٤) وقف الاسد بقوة وأمّن تأييدًا كبيرًا لدستوره في استفتاء شعبي أجري في ١٢ آذار ١٩٧٣» (المرجع المذكور، ص ٢٧٨-٢٨٠).

بادر الاسد إلى تنشيط المؤسسات بادئًا بالحزب (البعث) ومعززًا سيطرته عليه. «ولم يعد الحزب حزب عفلق المعارض المليء بالمثاليين ذوي

الافكار الكبيرة السامية بل اصبح هو الحزب الحاكم الذي يعطي المؤسسات عمودها الفقري» (المرجع المذكور، ص ٢٨١).

حرب تشرين الاول ١٩٧٣: لم يكن الرئيس حافظ الاسد يرى أي أمل في تسوية بين العرب واسرائيل بدون تعديل الميزان اولاً، هذا الميزان المختل بشكل كبير لصالح اسرائيل بسبب حرب ١٩٦٧. لذلك، أعاد، بعد ايام قليلة من تسلم السلطة، تأكيد رفضه لقرار مجلس الامن ٢٤٢ على أساس انه يعني «تصفية القضية الفلسطينية»، ووضع تسليح الجيش وتقويته في صدارة اولوياته.

بدأ العمل ليخرج سورية من عزلتها. فبعد ١٠ ايام من استيلائه على السلطة طار إلى القاهرة وعقد لقاء قمة مع الرئيس المصري انور السادات اعلن فيه ان سورية ستنضم إلى الاتحاد المقترح بين مصر وليبيا والسودان. وسرعان ما انفتحت الابواب على مصاريعها في اتجاه لبنان، تونس والمغرب اللتين اعيدت العلاقات معهما، وباتجاه السعودية. وفي شباط ١٩٧١، قام بزيارته الاولى لموسكو باعتباره حاكم سورية، وبذل جهودًا

خطوط وقف اطلاق النار: الرمز ١: ١٩٦٧؛ ٢: ١٩٧٣؛ ٣: فرق عسكرية سورية في ٧ تشرين الاول؛ ٤: اقصى تقدم سوري في ١١ تشرين الاول؛ ٥: الجبهة السورية النهائية؛ ٦: انابيب نفطية؛ ٧: الطرق الرئيسية؛ ٨: ١٠٠٠ م–٢٠٠٠م؛ ٩: ٢٠٠٠م–٣٠٠٠م (المرجع: انسيكلوبيديا اونيفرساليس، الكتاب السنوي أونيفرساليا ١٩٧٤، ص ١٠٦).

كبيرة لكسب السوفيات استغرقت الجزء الاكبر من السبعينات، وقابلها إهمال الاسد للغرب، ولا سيما الولايات المتحدة التي لم تكن لسورية علاقات معها من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٤.

تكثفت لقاءات القمة بين الرئيسين الاسد والسادات، وأغلبها كان سريًا، وكذلك لقاءات قادة الجيشين السوري والمصري. وبرغم خلافاتهم مع السادات استمر السوفيات يعطون مصر الاولوية في التسليح (بلغ النزاع اوجه بين القاهرة وموسكو في تموز ١٩٧٢ بطرد السادات للخبراء السوفيات فجأة).

وكانت الخطوة الحاسمة باتجاه الحرب في الاجتماع السري للغاية الذي عقده في ٢١-٢٣ آب ١٩٧٣ المجلس الاعلى للقوات المسلحة السورية-المصرية. وقام رئيسا الاركان، السوري يوسف شكور، والمصري سعد الدين الشاذلي بالتوقيع على وثيقة رسمية تتضمن نيتهما المشتركة لخوض الحرب. وأخبرت القيادتان العسكريتان الرئيسين الاسد والسادات اللذين كانا يعقدان اجتماع قمة خاص بهما في ٢٦ و٢٧ آب ١٩٧٣ في منتجع بلودان الصيفي الجبلي. وهناك اتخذ قرار بشن الحرب في تشرين الاول ١٩٧٣. وتقررت ساعة الصفر في اجتماع سري بين الاسد والسادات في القاهرة عقداه على هامش لقاء قمة ثلاثي مع الملك حسين في ١٢ ايلول ١٩٧٣. وفي منزل الاسد بدمشق في ٣ تشرين الاول ١٩٧٣، تم الاتفاق مع وزير الحربية المصري المشير أحمد اسماعيل على ساعة الانطلاق: يبدأ الهجوم علىالجبهتين معًا في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من بعد ظهر السادس من تشرين الاول ١٩٧٣.

«في اليوم الاول من الحرب، اجتاح المصريون والسوريون حواجز دفاعية اسرائيلية على جبهتي سيناء والجولان. ففي واحدة من ابرز حالات العبور الجديرة بالذكر في تاريخ الحروب، تمّ نقل ١٠٠ ألف جندي مصري واكثر من ألف دبابة عبر قناة السويس حيث داهموا وحطموا خط بارليف بسرعة وأنشأوا خمسة مواقع دفاعية كنقاط انطلاق جديدة. وفي الوقت نفسه زجت سورية بـ٣٥ ألف جندي و٨٠٠ دبابة ضد التحصينات الاسرائيلية على مرتفعات الجولان، فاجتاحوها في عدة نقاط وكادوا يصلون إلى حافة الجرف المطل على بحيرة طبريا، ونهر الاردن، وشمالي اسرائيل القابعة وراءهما» (المرجع المذكور، ص ٣٢٧). وكانت هذه مفاجئة لاسرائيل والعالم. ولقد بلغ من نجاح الخداع العربي ان وكالة المخابرات المركزية الاميركية ذكرت في تقريرها المتأخر حتى ليلة ٥-٦ تشرين الاول انه «لا يبدو ان ايا من الطرفين ينوي البدء بالقتال، لأن المبادرة العسكرية من قبل مصر لا معنى لها، اما بالنسبة إلىالرئيس السوري فإن المغامرة العسكرية معناها الانتحار» (المرجع المذكورن ص ٣٣٤).

ما الذي غيّر مجريات الامور، في الايام التالية، ومنعها من السير وفق هذا النصر السوري-المصري الذي تحقق في اليوم الاول من الحرب، فـ«انهارت استراتيجية القتال على الجبهتين. فلم تتقدم مصر من القناة كما توقع السوريون، (والعرب، وعلى الارجح الرأي العام العالمي)، بل قاتلت سورية وحدها اسبوعًا طويلاً، ثم تغلبت اسرائيل على الجبهتين، واحدة بعد الاخرى»؟.

بإيجاز شديد ودقيق ننقل النقاط المركزية التي تجيب على هذا السؤال عن المؤلف المذكور (باتريك سيل، «الاسد، الصراع على الشرق الاوسط») الذي يوجز بدوره، بين صفحتيه ٣١٢ و٤٠٤،وباعتقادنا، عددًا كبيرًا من المؤلفات (لعرب ولأجانب) التي وضعت حول هذه الحرب وتسنى لنا قراءتها:

- ثمة ثغرة نقص كبرى في مشروع الحرب المشترك: ففي حين خاض الاسد الحرب لاعتقاده بأنه لا يمكن ان تكون هناك مفاوضات مرضية مع اسرائيل حتى يستعيد العرب بعض ارضهم السليبة

على الاقل، خاضها السادات محبطًا من دبلوماسية السلام التي كان يتابعها سرًا وعلانية و لم تؤدِ إلى شيء، فاعتقد بأن هناك حاجة لصدمة لإحيائها (وهو نفسه أكثر من استعمال هذه اللفظة «الصدمة» قبل الحرب وبعدها).

- بعد ايام من استلام السادات السلطة، بدأ بفتح «قناة اتصال خلفية» مع المسؤولين الاميركيين لينقل إليهم استعداده التطبيع مع اسرائيل اذا التزمت بالانسحاب من الاراضي المحتلة. وقضى مستشاره للامن القومي حافظ اسماعيل يومين (٢٤ و٢٥ شباط ١٩٧٣) في كونكتيكت في محادثات سرية مع كيسنجر. وكان الاردن، يقدم، في الوقت نفسه، عروضًا مشابهة للاميركيين، سبق له وقدمها للاسرائيليين أنفسهم وجهًا لوجه.

- لم تؤد هذه الجهود إلى شيء لأنه كان من سياسة كيسنجر ان يسوّف ويماطل عمدًا لاطالة أمد حالة اللاسلم واللاحرب بين العرب واسرائيل.

- يكشف الفريق سعد الدين الشاذلي، رئيس الاركان المصري، في مذكراته، كيف خدعت القيادة المصرية الاسد بعرضها عليه خطة ابقتها حبرًا على ورق، ونفذت في الحرب خطة اخرى، ويقول: «لقد جعلتني هذه الازدواجية أشعر بالغثيان».

- بعد ٢٤ ساعة على بدء الحرب ارسل السادات سرًا وعن طريق «قناة خلفية» رسالة إلى كيسنجر يشرح فيها شروط السلام ويضيف «إننا لا نريد ان نعمق الاشتباكات ولا ان نوسع المواجهة»، وأطلع كيسنجر السفير الاسرائيلي على الرسالة، فأمر دايان فورًا قواته باستفراد السوريين، وزجت القيادة الاسرائيلية بسلاحها الجوي كله ضد طلائع الدروع السورية المتقدمة وخطوط إمداداها (معدل ألف طلعة جوية يوميًا ضد الجولان وأقل من ٥٠ ضد المصريين في سيناء).

- بين ٨ و١٣ تشرين الاول، تبخرت احلام الاسد في تحرير الجولان وقلب ميزان القوى في المنطقة بالقوة. ففقدت سورية ٨٠٠ دبابة ومئات السيارات المصفحة، و٦ آلاف رجل، وقدرت اضرار الحرب بـ٣،٥ مليار دولار.

- في ١٣ تشرين الاول، كانت القوات الاسرائيلية في منتصف الطريق إلى دمشق. ومن وجهة السادات، فإن أي انهيار على الجبهة السورية كان سيسمح لاسرائيل بالاستدارة إلى جبهته وبعثرة جهوده. فاتخذ في اليوم التالي (١٤ تشرين الاول) قراره بشن هجوم في عمق سيناء. وبدا انه قرار سياسي، إذ من الوجهة العسكرية جاء متأخرًا اسبوعًا كاملاً. وكانت النتيجة ان تقهقر الجيش المصري، وتمكنت القوات الاسرائيلية من عبور الممر المائي عند الدفرسوار على الطرف الشمالي للبحيرات المرة، واصبح الوضع العسكري المصري كالحًا ومروعًا. وكان السادات على اتصال سري بكيسنجر في كل يوم من ايام الحرب، وانه حتى في ١٥ تشرين الاول (غداة الهجوم في عمق سيناء سيء الطالع) اتخذ مبادرة مذهلة بدعوته كيسنجر إلى القاهرة.

- منذ ٩ تشرين الاول، انهمك الاسد تمامًا بالدفاع عن دمشق. وبفضل جسر جوي سوفياتي تمكن من اعادة تجهيز قواته المنهكة، وضغط على حلفائه العرب للاشتراك في المعمعة، وكان العراقيون اول الملبين، فاشتركوا بـ١٨ ألف مقاتل و١٠٠ طائرة وأكثر من ٣٠٠ دبابة، وكان دورهم دور الحليف الأساسي (بالاشتراك مع لواء اردني دخل على الخط في ١٤ تشرين الاول)؛ ومن السعودية ارسل الملك فيصل ٢٠٠٠ جندي كرمز للتضامن، وكان لواء مغربي قد اشترك في الحرب اشتراكًا رمزيًا على سفوح جبل الشيخ. وبحلول ٢٠ تشرين الاول، شعر الاسد بأن لديه من القوة ما يكفي لشن هجوم معاكس يطوي فيه التقدم

الاسرائيلي على طول الممر المستطيل الناتىء الذي كان يهدد عاصمته، ولكنه في ذلك الوقت ادرك انه كان يواجه تهديدًا أخطر من ذلك، من دبلوماسية حليفه.

- «خدع السادات الاسد، ولكنه بدوره قد خُدع»، وعنوان ما خُدع السادات به تلك التعهدات السرية-والمساعدات-الهائلة التي كانت تقدمها الادارة الاميركية لاسرائيل، والتي أوصلها إلى أوجها هنري كيسنجر الذي اصبح «قيصر الدبلوماسية في واشنطن فمارس سلطات تكاد تكون رئاسية» في وقت راح رئيسه، نيكسون، يغوص في اوحال فضيحة ووترغيت. والنقطة المركزية في تفكير كيسنجر ان «اسرائيل يجب ان تكون اقوى من أي تجمع للدول العربية، فبذلك فقط يمكنها ان تفكر في تقديم تنازلات»، وراح يبذل جهده لجعل الولايات المتحدة وحدها المتحكمة بعملية السلام، وذلك بأن ابعد عنها ليس فقط الاتحاد السوفياتي بل ايضًا اوروبا الغربية التي كان يراها صديقة للعرب أكثر من اللازم. وكان كيسنجر، في الوقت نفسه وبصورة موازية، يشجع العرب على التطلع لاميركا للوصول إلى تسوية على اساس انه هو الذي سيجلبها لهم، في حين ان مطالبهم في استعادة ارضهم كانت قد شُطبت تمامًا من جدول اعمال كيسنجر حتى قبل ان يبدأ رحلاته المكوكية الشهيرة في الشرق الاوسط. ولم يعرف العرب القصة الكاملة إلا بعد ان نشر كيسنجر مذكراته في مجلدين عام ١٩٧٩ و١٩٨٢.

- ويجدر التذكير هنا بشيء مهم جدًا وبسيط جدًا ويعرفه كل مطلع ومهتم، وهو ان التحالف الاميركي-الاسرائيلي لم يُواجه باي شيء يشبهه أو يمكن ان يُقارن به على الجانب الآخر. فالعلاقات المصرية-السوفياتية كانت مضطربة ويكتنفها شك متبادل، بينما كانت معاملات الاسد مع موسكو متعلقة بالتسلح والاسلحة إلى حد كبير وليس فيها سوى القليل جدًا من السياسة. كان الاتحاد السوفياتي يؤيد الموقف العربي المطالب بالانسحاب الاسرائيلي الكامل وبحق تقرير المصير للفلسطينيين ولكن لم يكن هناك أي تنسيق استراتيجي. فمن البديهي القول إنه ليس هناك من إمكانية مقارنة بين «حلف» على جانب، وبين «تأييد» و«دعم» على الجانب الآخر. فقد كان العرب يواجهون اخطارًا اعظم وأكبر مما يعرفون.

- بعد إلحاح من السادات وطلب سوفياتي متصلب لوقف اطلاق النار، اتخذ مجلس الامن، في ٢٢ تشرين الاول (١٩٧٣) قرارًا بوقف اطلاق النار رقم ٣٣٨ على ان يدخل حيز التنفيذ بعد ١٢ ساعة. وقبلت مصر واسرائيل القرار، وبعد يومين قبلته سورية. وخرقت اسرائيل القرار لعدة ايام تالية، ولم تلتزم به إلا في اجواء أزمة عالمية نتيجة تسويف كيسنجر وإنذار السوفيات بتدخلهم من جانب واحد، ولكن بعد ان كسبت اسرائيل «الجلوس في خيمة على طريق القاهرة-السويس في نقطة تعرف باسم الكيلو ١٠١ لمناقشة فصل القوات». و«كانت هذه اول مرة يسمع فيها الاسد كلمة «فصل القوات» وهي كلمة لم ترد من قبل في احاديث العرب العسكرية أو السياسية». واستطاع كيسنجر من ربط مسألة «فصل القوات» بمؤتمر جنيف للسلام المزمع عقده، وإقناع السادات بابعاد الفلسطينيين عنه، وإذا لزم الامر سورية ايضًا، علمًا ان السادات كان يؤكد للاسد، في اكثر من لقاء تمّ بعد انتهاء الحرب، انه لن يعمل وحيدًا في مسألتي فصل القوات ومؤتمر جنيف.

- لكن، في اول لقاء بين الاسد وكيسنجر (١٥ كانون الاول ١٩٧٣)، ونتيجة لتصلب الاسد في محادثاته معه، على اساس انه (الاسد) متفق مع السادات، شدّد كيسنجر وقال أكثر من مرة للاسد انه لم يأتِ على ذكر الجبهة السورية في

محادثاته مع السادات. وبقي الاسد على رفضه الاشتراك، وقدم كيسنجر تقريره لرئيسه نيكسون: «إن القرار السوري بعدم الاشتراك يرضينا جدًا، انه نعمة مقنّعة...» وكان كيسنجر سعيدًا بابقاء سورية بعيدة عن الصورة، وبتدبير إلصاق مصر باسرائيل في عناق منفرد في جنيف في اطار خطته: «تأمين حصول اسرائيل على اهدافها، ونسف اهداف العرب كلها»، التي استعمل لها تقنيات وتكتيكات، محورها هذا الكلام الذي قاله لمحمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام القاهرية (مطلع تشرين الثاني ١٩٧٣): «يستطيع الاتحاد السوفياتي ان يعطيكم الاسلحة، ولكن الولايات المتحدة تستطيع ان تعطيكم سلامًا عادلاً تعود إليكم بموجبه اراضيكم». وكانت المرارة الكبرى ان الزعماء العرب عمومًا ظلوا يصدقون كيسنجر إلى مطلع ١٩٧٥.

- وعقد مؤتمر جنيف في ٢١ كانون الاول ١٩٧٣، واقتصر على الخطب الاحتفالية للمشاركين: كيسنجر وغروميكو (وزير خارجية الاتحاد السوفياتي) ومصر والاردن واسرائيل، أما كرسي سورية في المؤتمر فكان فارغًا. «كان هذا المنبر الدولي مجرد ورقة توت لإخفاء عورة الصفقة الثنائية (اسرائيل-مصر) التي كانت تدور في خلد كيسنجر. وهكذا أضفى مؤتمر جنيف شرعية على دبلوماسية كيسنجر السرية. فخدع الجميع، السوفيات الذين ظنوا ان لهم دورًا يلعبونه، وخدع المصرين والاردنيين الذين قبلوا تأكيداته بأن ذلك المؤتمر كان الخطوة الاولى لتنفيذ القرار ٢٤٢ كاملاً، بل وخدع الاسد الغائب الذي سمح ببقاء إسم سورية على المائدة» (ص ٣٨٠-٣٨١). وبعد أقل من شهر (أي في ١٨ كانون الثاني ١٩٧٤) وقعت مصر واسرائيل على اتفاقية لفصل قواتهما في سيناء («اتفاقية سيناء الاولى») بشروط مذلة لمصر: فرض حظر على صواريخ سام والمدفعية بعيدة المدى، فتح باب المندب وقناة السويس للملاحة الاسرائيلية...

- أصبح الاسد معزولاً ومستفردًا: خروج السادات من الصراع، ورفع العرب للحظر النفطي (آذار ١٩٧٤) الذي كان الاسد يأمل في ان تستمر به الحكومات العربية لدعمه في مفاوضات الجولان، والأهم من هذا كله دسائس كيسنجر التي اشغلت الجيش العراقي في تمرد الاكراد وأبعدته عن كل دعم يمكن ان يؤديه لسورية باقناعه الايرانيين بتقديم كل مساندة للاكراد حيث يعترف كيسنجر: «لم يكن الهدف المقصود هو ان يربح الاكراد، بل ان يستنزفوا قوةالعراق»، و«يستطرد تقرير لجنة بايك: إن عملاءنا الاكراد الذين شجعناهم على القتال لم نخبرهم بهذه السياسة. لقد كان مشروعًا يسخر من كل الاعتبارات الاخلاقية...» (ص ٣٩٢).

بعد التوصل الى اتفاق فك الارتباط في ٣١ ايار ١٩٧٤. فوق: الرئيس الأسد ووزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر. تحت: الأسد مستقبلاً الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون في دمشق في ١٥ حزيران ١٩٧٤. وعلى أثر هذه الزيارة، اعادت الدولتان علاقتهما الدبلوماسية المقطوعة منذ حرب حزيران ١٩٦٧.

– استغرقت رحلات كيسنجر المكوكية من سورية وإليها شهرًا (٢٩ نيسان-٢٩ ايار ١٩٧٤)، وتضمنت ١٣٠ ساعة من المحادثات وجهًا لوجه مع الاسد، وما لا يقل عن ٢٦ وصولاً ومغادرة إلى مطار دمشق ومنه. واسفرت عن استعادة سورية القنيطرة (نسف الاسرائيليون قبل انسحابهم كل بيوتها وخزانات مياهها وخطوط مواصلاتها)، وعن حصول اسرائيل على قبول سورية بتوسيع قوات الامم المتحدة حتى ١٢٥٠ رجلاً، والاحتفاظ بالسيطرة على المرصد في جبل الشيخ وعلى التلال الواقعة غربي القنيطرة مباشرة. ووافقت كل من سورية واسرائيل على تحديد قواتهما وأسلحتهما على عمق ٢٠كلم من خطوطهما الامامية، وان لا توضع قذائف سام المضادة للطائرات ضمن منطقة عمقها ٢٥كلم. وتم التوقيع على اتفاقية فصل القوات من قبل الممثلين العسكريين في جنيف في ٣١ ايار ١٩٧٤. وخلال زيارة الرئيس الاميركي، نيكسون، دمشق (في إطار جولته الشرق اوسطية، حزيران ١٩٧٤)، تمّ استئناف العلاقات الدبلوماسية، وحاول الاسد إقناعه بتقديم تعهد مكتوب بأن تؤيد الولايات المتحدة حق سورية في استرجاع الجولان بكامله، لكن بدون جدوى لوقوع الرئيس نيكسون (الضعيف والمتهالك تحت فضيحة ووترغيت) في قبضة وزير خارجيته هنري كيسنجر.

اتفاقية سيناء الثانية: شهد صيف ١٩٧٤ أعلى ارتفاع في منسوب علاقات سورية الجديدة بالولايات المتحدة، وشاطر الاسد العرب شعورهم بالارتياح العام لكون واشنطن قد بدأت اخيرًا تهتم اهتمامًا قويًا بمعالجة مشاكل المنطقة. لكن سرعان ما تبدّدت هذه الآمال عندما انفتحت هوة انشقاق عظيمة في الشؤون العربية على اثر توقيع اتفاق فصل القوات الثاني بين مصر واسرائيل (١٩٧٥) التي تمت في إطار دبلوماسية كيسنجر الشرق اوسطية التي لم يعط كيسنجر منها أهمية لإلحاح ملك الاردن، الحسين، في ان لا يبقى خارج دبلوماسيته، وحاذفًا من حساباته (كيسنجر) منظمة التحرير الفلسطينية رغم ما كانت قد حققته من كسب باعلان مؤتمر القمة العربي في الرباط (٢٠ تشرين الاول ١٩٧٤) بأنها «الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني»، وباعطاء المنظمة صفة عضو مراقب في الامم المتحدة.

في منتصف كانون الثاني ١٩٧٥، لقي الملك السعودي فيصل استقبالاً حماسيًا في دمشق حيث أيدّ اصرار الاسد على انسحاب اسرائيل الكامل مع ضمانات لحقوق الفلسطينيين. وكان الصحفي المصري المعروف محمد حسنين هيكل في دمشق لتغطية زيارة الملك، فكان واحدًا من اوائل العرب، بل لعله اول معلق على الاطلاق، يعلن ان كيسنجر ليست لديه أية خطة شاملة لحل ازمة الشرق الاوسط، بل انه ينوي فقط ان يشق صفوف العرب. ولم تؤد دعوة الاسد ووزير الخارجية السوفياتي غروميكو لاستئناف مؤتمر جنيف إلى اية نتيجة.

وتكررت رحلات كيسنجر المكوكية في المنطقة، والتقى خلالها الاسد الذي بقي متمسكًا بأن «السلام يجب ان يقوم على اساس الانسحاب الكامل من الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧، وعلىإعادة الحقوق الكاملة للشعب العربي الفلسطيني».

وتمت، في صيف ١٩٧٥، عملية اخراج مصر من المواجهة بسهولة. وكان من أبرز معالم العملية اجتماع الرئيس الاميركي فورد والسادات في سالزبورغ في النمسا (اول حزيران ١٩٧٥). وفي اوائل تموز، اجتماع سري بين كيسنجر وسيمحا دينيتز، سفير اسرائيل في واشنطن، في جزر فيرجين آيلاندز، حيث تمت الصفقة التي فتحت الطريق امام الاتفاقية الثنائية المصرية الاسرائيلية. وفي اعقاب آخر رحلة مكوكية في

آب (١٩٧٥) تمّ التوقيع بالاحرف الاولى في اول ايلول ١٩٧٥ على اتفاقية سيناء الثانية المكونة من ثلاثة اتفاقات نشرت علنًا واربعة ظلت سرية. ثم تمّ التوقيع النهائي عليها في جنيف في ٤ ايلول ١٩٧٥. وبما ان الولايات المتحدة كانت طرفًا في هذه الاتفاقات فإنها كانت عمليًا اتفاقات ثلاثية اسست سابقة لكامب ديفيد التي تمت بعد ذلك بثلاثة اعوام. وقد قاطع الاتحاد السوفياتي الاحتفال على اساس ان دبلوماسية كيسنجر قد «جمدت» الوضع في الشرق الاوسط لصالح اسرائيل. وبموجب شروط واحكام الاتفاقات المعلنة، تعهدت مصر واسرائيل بحل نزاعهما بالوسائل السلمية (راجع «مصر» في جزء لاحق).

وبالنسبة إلى سورية فإن كيسنجر كان قد اتفق مع دينيتز في فيرجين آيلاندز على انه ليست هناك ضرورة إلا لتعديلات «تجميلية» طفيفة على الجولان. وهكذا جعل فورد يكتب رسالة إلى الاسرائيليين يقول فيها ان الولايات المتحدة، في اية محادثات حول الجولان، ستأخذ بعين الاعتبار موقف اسرائيل من انها يجب ان لا تعود إلى حدود ١٩٦٧. وتعهدت الولايات المتحدة ايضًا بأنها لن تضغط على اسرائيل للتفاوض مع سورية والاردن ومصر مجتمعة، ولكن مع كل واحد منها على انفراد.

عشية توقيع اتفاقية سيناء، زار كيسنجر الاسد للمرة الاخيرة (٣ ايلول ١٩٧٥). «وكان الاجتماع اقصر من المعتاد... وساده شيء غير قليل من البرود الصقيعي». وفي اليوم نفسه، اصدر الاسد والقيادة القومية لحزب البعث بيانًا دعا العرب إلى حشد طاقاتهم وعبّر عن «القلق العميق» لهذه «النكسة الخطيرة».

واندلعت معارك اعلامية بين دمشق والقاهرة، واخرى مع العراق. وصحيح ان اتفاقية سيناء الثانية لم تخلق التناحر بين سورية والعراق، ولكنها زادت من تفاقم صراع ذي دمدمة تعود

الملك فيصل أثناء زيارته للرئيس الأسد في دمشق.

جذورها إلى الانشقاق الدامي في حزب البعث في ٢٣ شباط ١٩٦٦ عندما قامت اللجنة العسكرية في دمشق بالاطاحة بعفلق وجماعته. وبعد عامين (١٩٦٨)، استولى مؤيدو عفلق على السلطة في بغداد التي اصبحت على الفور ملجأ للمنفيين السوريين. ومنذ ذلك الحين راحت العاصمتان تتبادلان المؤامرات والاتهامات والتنافس على الادعاء بالشرعية الحزبية.

وشعر الاسد بأنه يقف وحيدًا ومكشوفًا يتعرض لنيران القاهرة وبغداد، وازداد شعوره بالوحشة بعد اغتيال الملك فيصل (٢٥ آذار ١٩٧٥) على يد شخص مختل في ظاهره ومن افراد العائلة المالكة كان قد تلقى تعليمه في الولايات المتحدة (سبق اغتيال الملك فيصل الموت المفاجىء لعمر السقاف، وزير الخارجية السعودي، في تشرين الثاني ١٩٧٤ في الولايات المتحدة، وكذلك حاكم مؤسسة اصدار النقد العربية السعودية أنور علي الذي لحق به بعد ايام). كان فيصل البسيط المتقشف قوميًا صلبًا ودعامة مفيدة للاسد خلال وبعد حرب تشرين. وكان هو الذي بادر من بين منتجي النفط العرب إلى ضخ الاموال في اقتصاد سورية الذي انهكته الحرب... وكان فيصل قد وافق في بادىء الامر على دبلوماسية كيسنجر ذات الخطوة خطوة على اساس الفهم بانها ستؤدي إلى سلام شامل. ولكن عندما اتضح

ان ذلك لم يكن سوى وهم شاطر فيصل الاسد شعوره بالغضب، وكان سيصبح حليفًا قويًا له بلا شك في الايام العصيبة التي كانت تنتظره» (المرجع المذكور، ص ٤٢٣-٤٢٥).

«الفخ اللبناني»: هذا هو العنوان الذي وضعه باتريك سيل للفصل السابع عشر (ص ٤٣٣-ص ٤٧٠) من مؤلفه المذكور، واستهله بهذه العبارات: «كان كيسنجر واسرائيل بعد توقيع اتفاقية سيناء الثانية قد شكلا وضعًا عربيًا مناسبًا لهما وعلى هواهما. وكان الاسد مصممًا على ان يتحدى هذا الوضع-الذي من شأنه ان يجعل من سورية دولة ضعيفة اخرى، ربما مجرد اردن آخر-وكانت سورية مكشوفة في الوسط، تحت ظل اسرائيل مباشرة، وحولها الاردن ولبنان وكتلة الفلسطينيين البائسين. وكانت هذه المجتمعات معرضة للعطب وهشّة وسهلة الاختراق من اسرائيل، وعلى خط النار، وتعرّض سورية نفسها لخطر حادّ. فاضطر الاسد ان يبعد اهتمامه عن دبلوماسية السلام والمبارزة مع كيسنجر ليركّزه باتجاه محيطه المجاور له مباشرة... فأصبحت بلاد الشام (التي كانت ساحة التمزيق الفرنسي-البريطاني، «سايكس-بيكو») ساحته الاساسية المثيرة لاهتمامه... وكانت اول حركة دفاعية قام بها الاسد هي زيارة نادرة للبنان في مطلع ١٩٧٥ للاجتماع بالرئيس سليمان فرنجية في شتورا».

وفي اليوم نفسه (آذار ١٩٧٥) الذي بدأ فيه كيسنجر عملية فصل القوات الثانية في سيناء، دعا الاسد منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك مع سورية في إقامة «قيادة موحدة»، كذلك فعل مع الاردن في اول زيارة يقوم بها حاكم سوري لهذا البلد منذ ١٩٥٧، ورد الملك حسين الزيارة في آب ١٩٧٥.

وجاء التحدي المباشر من لبنان حيث اندلعت فيه حرب اهلية (نيسان ١٩٧٥)، راحت

فوق: الأسد والرئيس اللبناني سليمان فرنجية في شتورا (٧ كانون الثاني ١٩٧٥). تحت: الأسد والزعيم اللبناني كمال جنبلاط في دمشق (٢٧ آذار ١٩٧٥).

عصاباتها، وهي تتقاتل وتوقع آلاف الضحايا، تتوزع في ما بينها الحصص بالمناطق والمؤسسات، وخرجت الحرب عن السيطرة في الخريف، أي في الوقت الذي عقدت فيه مصر واسرائيل اتفاقيتهما (سيناء الثانية). وهكذا سارت هذه الحرب في خط موازٍ لسياسة كيسنجر في الشرق الاوسط، ويمكن اعتبارها واحدًا من اخطر النزاعات التي فجرّها سعيه للتقدم نحو تمزيق وحدة العرب خطوة خطوة. «وحسب تحليله (الاسد) فإن الحرب الاهلية في لبنان قد نفخت فيها النار حتىاشتعلت لصرف انتباه العالم العربي عما كان كيسنجر يطبخه بين

مصر واسرائيل» (المرجع المذكور، ص ٤٤٦).
وقال الاسد في ذلك الحين ان أمن البلدين (سورية ولبنان) كلّ لا يتجزأ، واختار ثلاثة من مرؤسيه الموثوقين: عبد الحليم خدام، حكمت الشهابي (رئيس الاركان) وناجي جميل (قائد القوة الجوية)، فقاموا بعدة محاولات للجمع بين الاطراف المتناحرة. فكلما نجح وقف لاطلاق النار بعد مفاوضات طويلة وشاقة، كانت تقع جريمة تعيد اشعال الوضع (قصف، قتل، اختطاف...).

وقرر الاسد «ان يتدخل اذا دعت الضرورة لذلك دون ان ينتابه أي شعور بالتردد أو الندم. فقد كان على قناعة صميمية بان اهتمام سورية بلبنان هو من صلب طبيعة الاشياء، أما التدخل من قبل اسرائيل فلا يمكن ان يكون إلا خبيثًا وغير مشروع» (ص٤٤٨).

وتزايد العنف، ووقعت المجازر الجماعية المتبادلة، وارتسمت خطوط التقسيم بين المناطق، وحققت ميليشيات الحركة الوطنية اللبنانية وانصارها الفلسطينيون انتصارات حملتهم إلى عمق المناطق المسيحية التي اصبحت في وضع بالغ الحرج (ربيع ١٩٧٦). فكانت الازمة اللبنانية، عند هذا المفترق، وبالنسبة إلى هنري كيسنجر، آخر فرصة يمارس فيها براعته الخبيثة في المناورة في الشرق الاوسط قبل ان يزيحه من السلطة فوز جيمي كارتر في الانتخابات الاميركية.

فبعد ان كان كيسنجر يتخذ موقف اللامبالاة من الازمة اللبنانية بتركها في إطار التحذير الاميركي المعهود: «تدخل سوري يعني تدخلاً اسرائيليًا...»، ا ستدار فجأة على خطته هذه، وخطرت له «فكرة اكثر دهاء لعلها هبطت عليه وهو متجه إلى المطار في واشنطن في ٢٩ آذار ١٩٧٦ لتحية حسين ملك الاردن. كان الرجلان مشتركين في اسرار كثيرة من ايام ازمة ١٩٧٠. وفي خط الاستقبال بالمطار التقى الملك وكيسنجر مع دين براون، السفير الاميركي السابق في عمان، الذي كان صلة الوصل وضابط الارتباط بينهما في ايام ايلول الاسود. ولعل هذا اللقاء العارض، وكذلك المحادثات مع الملك حسين في ذلك الوقت، هما العاملان اللذان زرعا بذور تلك الخطة البيزنطية الخبيثة في ذهن كيسنجر الخصب. وفي خلال ٢٤ ساعة قام باستدعاء دين براون واخرجه من تقاعده وارسله في مهمة خاصة إلى بيروت. كان الخط المعروف المألوف عن الموقف تجاه لبنان بينما يُترك الفلسطينيون واللبنانيون ليتذابحوا إلى النهاية. كانت هذه هي غريزة اسرائيل، وفي بادىء الامر كانت هي غريزة كيسنجر. ولكن فكرته البارعة المفاجئة الجهنمية كانت قلب هذا المفهوم المألوف رأسًا على عقب. فقد خطر لكيسنجر ان السياسة الصحيحة لم تكن بالتأكيد تخويف الاسد من الدخول، بل تخويفه من عدم الدخول! وبدلاً من ان يُقال له: إذا دخلت فسوف تدخل اسرائيل؛ فإن الرسالة الاكثر دهاء هي ان يُقال له: إذا لم تدخل، فإن اسرائيل ستدخل بالتأكيد (...) ولا بد ان كيسنجر قد استطاب المفارقة الهائلة لموقف يضطر فيه الاسد إلى سحق الفلسطينيين بدلاً من حمايتهم، وذلك لمنعهم من التسبب فيما كان يخشاه اكثر من أي شيء، أي الغزو الاسرائيلي (...) وهكذا وضع كل شيء في محله كاساس لما سمي باتفاقية الخط الاحمر، وهي اتفاقية غير مكتوبة، ولا موقعة، ولا يعترف بها السوريون، وتقضي بأن تقبل بها اسرائيل بوجود قوات سورية في اجزاء من لبنان. وبالطبع جعل الاسرائيليون قبولهم مشروطًا بأن لا تجلب القوات السورية معها صواريخ سام إلى الجنوب من طريق دمشق بيروت. وأصرت اسرائيل ايضًا على ان يكون الانتشار السوري في البحر والجو محدودًا، وهذا الفهم أو التفسير لاتفاقية الخط الاحمر كان موجودًا في رسالة بعث بها وزير الخارجية الاسرائيلي في ذلك الحين إيغال آلون إلى كيسنجر الذي نقلها بدوره إلى دمشق. غير ان الحقيقة هي ان اتفاقية الخط

الاحمر كانت دعوة السوريين كي يدخلوا، وليست تحذيرًا كي يبقوا خارجًا، وهكذا صار بامكان سورية ان تتحرك ضد الفلسطينيين في لبنان مع الفهم بأن اسرائيل لن تتدخل. وقد تم التمهيد لهذا المنعطف بتغيير درامي مفاجيء لنغمة واشنطن تجاه سورية. فإلى نهاية آذار (١٩٧٥) ظلت وزارة الخارجية الاميركية تحذر سورية علنًا من التدخل. ولكن فجأة راح البيت الابيض، وكيسنجر نفسه، ودين براون والسفارة الاميركية في دمشق يصدرون بعد ذلك التاريخ تعبيرات عن موافقتهم على دور سورية «البناء». ولم يحدث قط ان تغير الضوء الاحمر إلى ضوء اخضر بمثل هذه السرعة. وتولى مبعوث كيسنجر، دين براون، الجانب اللبناني من المؤامرة. فزار جنبلاط في قلعته في المختارة وعبّر عن تشاؤمه من مستقبل التعايش بين الدروز والموارنة، وفهم جنبلاط من ذلك موافقة على التقسيم، وبالتالي على استمرار الحرب. أما الزعماء المسيحيون الرئيسيون الثلاثة، فرنجية والجميل وشمعون، المحصورون في استحكامات قلاعهم الجبلية فقد أوضح لهم براون انهم لا يمكن ان يتوقعوا الانقاذ على يد البحارة والجنود الاميركيين كما في ١٩٥٨، ولكن خلاصهم يكمن في تقوية انفسهم من خلال علاقات أوثق مع اسرائيل. ومع تعبئة وشحن آلة الحرب اللبنانية جيدًا، تمّ نصب الفخ» (المرجع المذكور، ص ٤٥١-٤٥٤).

في ٢٧ آذار ١٩٧٦، عقد الاسد اجتماعًا عاصفًا مع كمال جنبلاط، الزعيم غير المنازع لليسار اللبناني الذي كان قد اعلن قبل ايام عن تشكيل «جيش فخر الدين». وحاول الاسد إقناعه بعدم تصعيد القتال وتفويت كل فرصة على اسرائيل: «لماذا تصعدون القتال؟ إن الاصلاحات الواردة في الوثيقة الدستورية تعطيكم ٩٥٪ مما تريدون، فما الذي تسعون إليه بعد؟» (الوثيقة الدستورية أصدرها، في شباط ١٩٧٦، الرئيس سليمان فرنجية، بتشجيع من الرئيس الاسد، وتضمنت مكاسب للمسلمين اللبنانيين كانوا يطالبون بها: التمثيل البرلماني المتساوي مع المسيحيين، سلطات اكثر لرئيس الوزراء السني الذي تقرر ان يختاره البرلمان بدلاً من الرئيس الماروني وان يكون توقيعه ضروريًا على كل المراسيم والقوانين، اضافة إلى المساواة بين الجميع في الوصول إلى المناصب العليا في الادارة، والتأكيد على عروبة لبنان). وخرج جنبلاط من الاجتماع غاضبًا، وعاد إلى بيروت ليصبح التزامه بالحرب أشدّ وأعمق.

وجاء رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، حليف جنبلاط في الحرب اللبنانية، إلى دمشق ثلاث مرات في ربيع ١٩٧٦، ولم تفعل مقابلة الاسد له سوى ان وسّعت الهوة بينهما. إذ كان عرفات يحلم باستقلال حركته وتحررها من التبعية للعرب، وكان العراق ومصر يضغطان عليه كي يقاوم نفوذ الاسد، ويضاف إلى ذلك انه كان قد وصل في بيروت إلى مكانة تجعله ينافس مكانة رئيس لبناني.

في ليلة ٣١ ايار-أول حزيران ١٩٧٦، عبرت الطوابير السورية المدرعة الحدود بقوة، وعلىالفور فكت حصار الفلسطينيين واليساريين اللبنانيين (الحركة الوطنية) عن المعاقل المسيحية بدءًا من مدينة زحلة. فكانت تلك اول مرة يستخدم فيها الاسد القوة منذ حرب تشرين الاولى. ووقعت اشتباكات حادة على طريق بيروت-دمشق وفي ميناء صيدا، وفي «ارض فتح» على سفوح جبل الشيخ، وحول ميناء طرابلس في الشمال. وجعل هذا التدخل الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين يتخذون موقع الدفاع، وغيّر مجرى الحرب الاهلية، ومكّن المسيحيين من التحول إلى الهجوم، وخصوصًا ضد الجيوب المعادية في مناطقهم، ولا سيما ضد مخيم تل الزعتر.

«وقد نظر الكثيرون إلى حرب الاسد على

الفلسطينيين ودفاعه عن المسيحيين على انهـا قلب للتحالفات مذهل اصابهم بصدمة عميقـة. وطوال بقية فترة رئاسته ظـل الاسـد يحمـل عـبء سياسـة أسيء فهمها و لم تكن لها اية شـعبية بـين الجماهير العربية (...) وسمعت الصيحة ضد حرب الاسد في لبنان مـن أقـرب العـالم العربي إلى اقصاه. فقطع السادات علاقاته معه، وقـام رجـل العـراق القـوي صدام حسـين بارسـال قـوات إلى الحـدود السـورية (...) وقطعـت الـدول النفطيـة مسـاعداتها (...) وفزعت القيادة السوفياتية من اتجاه مجرى الاحداث (...) وكانوا يكرهـون ان يُرغمـوا علـى الاختيـار بين الاسـد واليسـار اللبنـاني (...) وكـرّس مؤتمـر القمة العربيـة للمصالحـة في ا لريـاض (١٦ تشـرين الاول ١٩٧٦) انتصـار الاسـد البـاهظ الثمـن. فـأضفيت الشـرعية علـى وجـوده في لبنـان، وتمّ الاعتراف بقواتـه علـى انهـا العمـود الفقـري لقـوة اقترح تشكيلها باسم قوات الردع العربية، ووافقت السعودية والكويت على تمويل ودفع نفقات تدخله (...) وتبنـى ذلـك كلـه مؤتمـر عربـي اوسـع في القاهرة (٢٥ تشرين الاول ١٩٧٦)، وفي منتصـف تشرين الثاني، دخلت القـوات السـورية إلى غربي بـيروت، فـاختفت الجيـوش اليسـارية الخاصـة مـن الشوارع (...) وباختفـاء جنبـلاط (اغتيـل في ١٦ آذار ١٩٧٧)، تقوّض وتساقط الحلف الـذي كـان يقوده ضد سورية. ولكن هـدف الاسـد الاساسـي ظل يروغ منه. فقد قاتل وشق طريقه في لبنان ضد الفلسـطينيين ونيابـة عـن المسـيحيين لكـي يحـرم اسرائيل من حجة التدخل، ولكن حركتـه الباهظـة التكـاليف والمثيرة للخـلاف والجـدل كـانت بـلا جدوى. فمنذ نهايـة ١٩٧٦، كـانت اسـرائيل قـد تورطت في الشؤون اللبنانية تورطًا عميقًا، وكانت تستعرض بشيء من المباهـاة علاقتهـا الحميمـة مـع الموارنة، ممـا أدى إلى صدمـة وإجفـال واشمئزاز في الرأي العام العربي الذي ظل يسعى لأكثر مـن ٣٠ عامًا لإبقاء «الكيان الصهيوني» معـزولاً ومطوقًـا.

ولقد قبل المسـيحيون مسـاعدة سـورية، غـير انهـم أثاروا حنق وغضب الاسد ببحثهم عن «ضمانـات تـأمين» مـن اسـرائيل. وهكـذا راحـت الاسـلحة والاموال و«الخبراء» تتدفق من اسرائيل إلى داخل الاراضي المارونية عـن طريـق مينـاء جونيـه، بينمـا أعيد تركيب جنوبي لبنان لصالح اسرائيل» (المرجع المذكور، ص ٤٦١-٤٦٩).

لقـاء مـع كـارتر ففـراق: منـذ اللحظـات الاولى لاسـتلام جيمـي كـارتر مهامـه رئيسًـا للولايـات المتحـدة بـدا الرجـل صـاحب تكويـن إنساني يعطي مسائل العـدل وحقـوق الانسـان... محلاً محوريًـا في تفكـيره، كمـا بـدا سياسيًا، وإزاء الشـرق الاوسـط، انـه مقبـل، ووزيـر خارجيتـه سايروس فانس، على تخريب ما صنعه كيسنجر.

في سـياق «الأمـل» هـذا، التقـى كـارتر الاسد في جنيف في ٩ ايار ١٩٧٧. فكانت هنـاك لحظة من التفاؤل الحادّ. إذ اكتشف الاسد ان لدى كارتر تفكيرًا منفتحًا حيال المسألتين الحساستين: حقوق الفلسطينيين والانسحاب الاسرائيلي، كمـا شعر كـارتر بـدوره بالطمأنينـة لأنـه وجـد الاسـد مستعدًا للسلام. لكن الأمل الواعـد الـذي بـرق في تلك المقابلة لم يتحقق، و لم يرَ الاسـد كـارتر ثانيـة (إلى ان زاره الاخير بعـد بضـع سـنوات كمواطـن عادي). وانقطعت سورية عن عملية السلام بشكل سريع وحاسم تمامًا كما انقطع الفلسطينيون. وجاء العامل المؤثر بشكل اساسي في هذا الانقطـاع مـن اسرائيل التي فاز الليكود، بزعامة مناحيم بيغـن، في انتخاباتها (أيار ١٩٧٧). واصبحت قضيـة بيغـن، التي تشغله أكثر من غيرها، هي منـع عـودة الضفـة الغربية للعرب، واصبح هدفه المباشر تدمـير سياسـة كـارتر في الشـرق الاوسـط لأنهـا كـانت تهـدد بارجـاع اسـرائيل إلى حدودهـا في ١٩٦٧، ملتقيـة إلى حد بعيـد مـع خطـة روجـرز، وزيـر الخارجيـة الاميركي، سلف كيسنجر. وقد اتبع بيغن خطـة

من شقين: القبول بمؤتمر جنيف وفق شروط يمليها هو، وإغواء مصر واجتذابها إلى اتفاقية ثنائية.

بالنسبة إلى الشق الاول، تمكن اللوبي اليهودي والصهيوني من الضغط على كارتر، فسحب الورقة الاميركية-السوفياتية حول مؤتمر جنيف واستبدلت بورقة «اميركية-اسرائيلية» استبعدت كل إمكانية تفاوض عربي إلا على اساس ثنائي وقبلت بوجود «شخصيات» فلسطينية مثل «وجهاء او رؤساء بلدية». وهذه كانت ضربة اخرى استهدفت، اول ما استهدفت سورية وسياسة الاسد.

وبالنسبة إلى الشق الثاني، «اصطياد السادات منفردًا»، عمل بيغن ووزير خارجيته موشيه دايان بادىء الامر على الاتصال بالزعيم الروماني تشاوشيسكو وشاه ايران محمد رضا بهلوي وملك المغرب الحسن الثاني، فنشط كل منهم في اتجاه «الاتصال الاسرائيلي المصري الثنائي»، وذهب السادات إلى بوخارست وطهران (اواخر تشرين الاول ١٩٧٧). وفي ٩ تشرين الثاني ١٩٧٧، أعلن السادات انه مستعد للذهاب «حتى إلى الكنيست نفسه» بحثًا عن السلام، السلام الذي سيحمل معه الرفاهية للشعب المصري؛ ذلك ان فكرة الإغتراف من الثروة الاميركية في «مشروع مارشال» مصري، كان كيسنجر أول من زرعها في رأسه.

الأسد وكارتر في مؤتمرهما الصحافي في جنيف (١٠ ايار ١٩٧٧).

وقبل يومين من ذهابه إلى الكنيست في ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧، زار السادات دمشق، وواجهه الاسد مطولاً ومحاولاً إقناعه، عبثًا، بمخاطر ما هو مزمع عليه. فكان اللقاء الاخير بين الرئيسين، وأعلن يوم ١٩ تشرين الثاني في سورية يوم حداد وطني عام.

بيغن (الى اليسار) مستقبلاً السادات في مطار اللد.

الأسد والزعيم السوفياتي بريجنيف
(موسكو، ٢٠ شباط ١٩٧٧).

في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٧، ألقى السادات خطابًا في الكنيست عارضًا على اسرائيل السلام والامن، وعلاقات طبيعية مع جيرانها... ومضت شهور عشرة قبل ان يضع بيغن والسادات تواقيعهم على اتفاقيات كامب ديفيد في ايلول ١٩٧٨، ثم ستة شهور اخرى قبل التوقيع على اتفاقية السلام المصرية-الاسرائيلية في ٢٦ آذار ١٩٧٩. وهكذا قامت اسرائيل (والولايات المتحدة) بتحييد أكبر وأقوى دولة عربية، فاصبح من المستحيل تحدّيها تمامًا، كما اصبحت لا تهتم بالضجيج الغاضب الصادر عن سورية وغيرها من الدول العربية. أما كارتر، الذي بدأ مسارًا كفيلاً بتصحيح ما ارتكبه كيسنجر، سرعان ما عاد وأكمل هذا العمل.

جبهة الصمود والتصدي: أدت اتصالات السادات باسرائيل من ١٩٧٧ إلى حين توقيع اتفاقية السلام في آذار ١٩٧٩ إلى تعريض الاسد لخطرين واضحين: التدمير المادي عن طريق هجوم اسرائيلي مباغت، أو التدمير السياسي عن طريق تهميش سورية إذا قيض للسادات ان يجتذب دولاً عربية أخرى. فقام الاسد بجمع ما بقي له من الاصدقاء العرب في جبهة ذات إسم طنان هي «جبهة الصمود والتصدي» التي اجتمعت في العاصمة الليبية (٥ كانون الاول ١٩٧٧) لادانة السادات. «ولكن الجبهة لم تقدم للاسد شيئًا مريحًا في الحقيقة: أكبر اعضاء تلك الجبهة (الجزائر) كانت مشتبكة في صراع مع المغرب حول الصحراء الغربية. أما جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية فقد كانت ضعيفة وبعيدة، وأما منظمة التحرير الفلسطينية فقد كانت خصمًا بقدر ما هي شريك، بينما كانت ليبيا غريبة الاطوار وشديدة الرفض أكثر مما يمكن ان يستسيغه ذوق الاسد المعتدل المتزن. وكان ذلك كله مجرد ملاكمة وهمية تفتقر إلى المحتوى المادي الحقيقي» (المرجع المذكور، باتريك سيل، ص ٥٠٣).

الأسد مع الرئيس الجزائري بن جديد

ولم يبق امام الاسد سوى الاتحاد السوفياتي، فأمضى ١٦ شهرًا مريرة، من تشرين الثاني ١٩٧٧ إلى آذار ١٩٧٩ وهو يناشده ان يقدم له الحد الادنى الكافي لردع اسرائيل، إلى ان وقع مع بريجنيف في ٨ تشرين ا لاول ١٩٨٠ في موسكو اتفاقية للتعاون والصداقة مدتها ٢٠ عامًا. وأثناء هذه العملية الطويلة، استولت اسرائيل على جنوبي لبنان (آذار ١٩٧٨)، وبعد ثلاثة اشهر انسحبت بضغط من الرئيس الاميركي كارتر بعد ان رسمت على طول حدودها مع لبنان منطقة عازلة بامرة ضابط متعاون معها هو الرائد سعد حداد، ووسّعت اتصالاتها بالميليشيا التي كان يقودها بشير الجميل، ما خلق مزيدًا من الارباكات لحكم الاسد الذي كان لديه نحو ٣٠ ألف جندي في لبنان، «ولكنه لم يكن في حالة تمكنه من تحدي الغزاة (...) والمغامرة بصراع شامل، وهكذا بقي خارج القتال وكلفه ذلك غاليًا على الصعيد السياسي» (المرجع المذكور، ص ٥٠٥).

الرئيسان الأسد وصدام في قمة بغداد (١٩٧٨) وخلفهما ياسر عرفات.

الرئيس الأسد والزعيم الليبي معمر القذافي

المصالحة مع العراق: ولمحاصرة السادات ومنع السعودية والاردن من الانضمام إليه، تقرر عقد مؤتمر قمة عربي في بغداد، بدأه العراق بمناشدة الاسد ان يحضر هذا المؤتمر. وتبع ذلك حوار وتبادل زيارات، فجاء طارق عزيز (العضو البارز في مجلس قيادة الثورة في العراق) إلى دمشق مرتين. وقام الاسد نفسه بزيارة للعراق (٢٤-٢٦ تشرين الاول ١٩٧٨) حيث تمّ توقيع «ميثاق العمل القومي» وبعد اسبوع عاد الاسد إلى العراق لحضور مؤتمر القمة (٢-٥ تشرين الثاني ١٩٧٨) لادانة السادات، وحضرته كل الدول الاعضاء في الجامعة العربية. وعندما وقع السادات اتفاقيته المنفصلة مع اسرائيل في ٢٦ آذار ١٩٧٩، قطع العرب علاقاتهم معه وطردوا مصر من الجامعة العربية، وتم اخراج مقر هذه الجامعة من القاهرة. وبعد ذلك بفترة قصيرة علقت عضوية مصر في

منظمة المؤتمر الاسلامي.

«أما التحالف السوري-العراقي التكتيكي الذي تمّ من اجل الحصول على هذه النتائج، فقد عاش بعدها عدة اسابيع اخرى. وفي كانون الثاني ١٩٧٩ قام صدام حسين بزيارة دمشق، وردّ الاسد بزيارة بغداد في حزيران، غير ان العلاقات بعد ذلك مباشرة عادت إلى سيرتها المألوفة القديمة من التآمر والتخريب» (المرجع المذكور، ص ٥٠٨).

مصاعب داخلية: إضافة إلى وضع سورية الخارجي المتأزم والمنذر بخطر جاثم نتيجة لتسلسل التراجعات المتسارعة أمام الخطط الاسرائيلية-الاميركية على العرب والمنطقة، وصل الوضع الداخلي، بحادثة مدرسة المدفعية في حلب (١٦ حزيران ١٩٧٩) التي أودت بحياة عدد كبير من التلاميذ-الضباط العلويين وكان قد سبقها حوادث متفجرات واغتيالات طالت شخصيات وافرادًا معظمهم من العلويين، إلى وضع متفجر أدرك الاسد معه انه يواجه معارضة داخلية خطرة لا تتوقف عن شيء في سبيل الاطاحة به. فأصبح العنف الداخلي همًّا يوميًا للسلطات (١٩٧٧-١٩٨٢) التي شخصت الارهابيين بأنهم «الاخوان المسلمون» الذين استهدفوا، اول ما استهدفوا، البعثيين والعلويين. فاستنفرت السلطات قواتها في حملات قمعية في المدن. وساد جوّ نفسي أكثر صرامة لمواجهة معارضة «الاخوان المسلمون» المسلحة في مؤتمر البعث القطري السابع (٢٣ كانون الاول ١٩٧٩-٦ كانون الثاني ١٩٨٠) عندما تولى شقيق الاسد الاصغر رفعت الدعوة لشن حرب شاملة ضد الارهابيين.

وبعدما تأكد لـ«الاخوان المسلمون» فشلهم في إسقاط الحكومة بالاغتيالات (ربيع ١٩٨٠)، حاولوا خطة أجرأ وهي إغراقها بانتفاضات على نطاق واسع في المدن، واجهتها الحكومة بحملات عسكرية اشتركت الطائرات في بعضها. وفي صيف ١٩٨٠، ألقى الاسد بنفسه في المعمعة، وجال في التجمعات يلقي الخطب الحماسية: «نعم، انني أؤمن بالله، وبرسالة الاسلام...»، ودعا إلى استخدام «العنف الثوري المسلح» ضد «العنف الرجعي، عنف أعداء الاسلام المتاجرين بالدين». ووجهت ضربات عقابية عنيفة بشكل خاص في سجن تدمر، وفي احياء في حلب وحماه، كما جرى تنظيم وتنفيذ اعمال أمنية ضد الاخوان المسلمين خارج الحدود.

وفي حين كانت حرب الاسد طويلة ضد التنظيم السري الاسلامي تقترب من الحل، عاد اعداؤه، في خريف ١٩٨٠، وشنوا حملة اغتيالات شخصية، ونقلوا حوادث تفجيرهم إلى دمشق (آب وتشرين الاول ١٩٨١) فذهب المئات من الابرياء ضحية.

وجاءت المعركة الحاسمة لصالح حكم الاسد في حماه في اوائل شباط ١٩٨٢ (راجع «حماه» في باب مدن ومعالم).

وبعد أقل من شهر من نهاية انتفاضة حماه «ظهر الاسد بصورة دراماتيكية في شوارع دمشق في ٧ آذار ١٩٨٢، عشية الذكرى التاسعة عشرة لثورة البعث، حيث حملته الجماهير الصاخبة على أكتافها ساعتين كاملتين من قصر الضيافة إلى البرلمان. وفي ذلك اليوم، كان حادًا في خطابه الذي القاه: «أيها الاخوة والأبناء، الموت للاخوان المسلمين المجرمين والمأجورين الذين حاولوا نشر الفوضى والدمار في الوطن! الموت للاخوان المسلمين الذين استأجرتهم المخابرات الاميركية، والرجعية والصهيونية» (تمكنت سلطات الاسد من تقديم براهين دامغة على وجود سلاح اميركي متطور جدًا استعمله الاخوان المسلمون، ودعم كان يأتيهم من اسرائيل وعمّان). ولقد نجم عن العبور من السبعينات إلى الثمانينات تغير في اسلوب وتفكير رئيس سورية. تلاشى تفاؤله، واما

ثقته بالمستقبل فقد حلّ محلها حكم على الرجال والقضايا اكثر قسوة وسخرية ومرارة لأن العالم قد أوضح له بأنه مكان معقد وقاس لا يرحم. فاصبحت طبيعة الاسد أكثر تصلبًا وأكثر تشكيكًا بالاعداء الذين يخططون ويتآمرون في الداخل والخارج. وختمت حملة الاخوان المسلمين الارهابية عقدًا من الزمن كان مخيبًا للآمال بشكل ضخم. إذ يجب ان نتذكر انها جاءت مباشرة عقب الصراع الطويل وغير المجدي مع اسرائيل واميركا حول طبيعة التسوية بعد حرب تشرين (المرجع المذكور، ص٥٤٤).

العلاقة مع ايران ثورة الخميني: في غمرة صراعه مع الاخوان المسلمين مدّ الاسد يد المساعدة إلى بعض مساعدي الامام الخميني. «وكان موسى الصدر همزة الوصل بين الاسد وبين معسكر الخميني في السبعينات، ورائدًا من رواد محور دمشق-طهران في الثمانينات، رغم ان الصدر نفسه لم يعش حتى يرى ذلك المحور. ففي آب ١٩٧٨ اختفى بطريقة غامضة عندما كان في زيارة لليبيا.والواقع ان خبر اختفائه وافتراض موته قد انتشر بينما كانت محادثات كامب ديفيد جارية في ايلول من ذلك العام. وقد اصاب موته الاسد بحزن يشبه في مرارته حزنه على خروج السادات من الصف العربي» (المرجع المذكور، ص ٥٧٣).

ورحب الاسد باستيلاء آية الله على السلطة في طهران. وقام وزير خارجية الاسد، عبد الحليم خدام، بزيارة طهران في آب ١٩٧٩. ولعل أهم اسباب دعم الاسد الثورة الايرانية كراهيته لاشتراك الشاه مع اسرائيل في التعاون ضد العرب، خاصة وانه كان التقى الشاه (كانون الاول ١٩٧٥) على أمل إقناعه بالضغط على واشنطن لتكون أكثر انصافًا في مواقفها تجاه الصراع العربي-الاسرائيلي. غير ان تلك الزيارة لم تثمر، إضافة إلى ان الشاه قدّم المساعدة لبيغن لايقاع السادات في الشرك. وبذل الاسد جهدًا لإقناع العرب بأن ايران الخميني لم تعد إيران الشاه، ولأن يروا في ايران وزنًا يعادل ثقل مصر، فإذا كانت اسرائيل قد كسبت مصر عن طريق معاهدة السلام فإنها قد خسرت ايران بقيام الثورة. وجاءت اولى اعمال الثورة الايرانية لتدعم بقوة نظرة الاسد لها ومنطقه: هاجم الخميني اميركا وسمّاها «الشيطان الأكبر»، ومزّق اتفاقيات الشاه معها، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل، وانسحب من حلف معاهدة السنتو، وسلّم مقر السفارة الاسرائيلية في طهران إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

وقبيل اندلاع الحرب العراقية-الايرانية (حرب الخليج الاولى)، كان التباعد بين سورية والعراق في تزايد تغذيه مختلف المسائل (الحزبية، الاقتصادية-حول اقتسام مياه الفرات وحول انابيب النفط-، السياسية والاستراتيجية والنظرة إلى الشيعة... وكان صدام حسين قد ركّز كل السلطات في يده، وبادر إلى تصفية عدد من معارضيه بتهمة التواطوء مع سورية). ومنذ بداية الحرب، شجبها الاسد باعتبارها حربًا خاطئة غير مناسبة من حيث زمانها ومكانها واختيارها لعدوها.

وخلال زيارة قام بها الاسد لموسكو بعد اندلاع الحرب بوقت قصير اصدر بيانًا مشتركًا مع بريجنيف بتأييد «حق ايران الثابت في ان تقرر مصيرها بنفسها بصورة مستقلة وبدون أي تأثير أجنبي»، وبدأت شحنات من الاسلحة السوفياتية تصل إلى ايران، وبدأ متطوعون ايرانيون يعبرون من خلال سورية في طريقهم إلى لبنان لمقاتلة اسرائيل. ومن المعلوم ان هذه الطريق لم تكن الوحيدة التي أمنت السلاح لايران، إذ بذلت اسرائيل ما في وسعها لسد حاجة ايران لمختلف الاسلحة وقطع الغيار، إذكاءً لحرب تعوّض عليها خسارتها لصديقها الشاه، من حيث ان هذه

الحرب ستؤدي إلى إنهاك قوى إثنين من أعدائها.

مبارزة الاسد–بيغن وشامير وشولتز في لبنان ١٩٨٢–١٩٨٤: كان الرجلان في وضع غير متكافيء بصورة كبيرة. فالاسد يصارع الاسلاميين في الداخل وعلاقته سيئة مع الاردن وغير مضبوطة مع المقاومة الفلسطينية والحرب الاهلية مستمرة في لبنان وهو عاجز عن تهدئتها والحدّ من تدخل اسرائيل فيها في حين ان بيغن كان على العكس من ذلك، ففي جعبته معاهدة السلام مع مصر ورصيد كبير جدًا وفّره له الرئيس الاميركي الجديد رونالد ريغن ووزير خارجيته ألكسندر هيغ والحرب الدائرة في الخليج.

بدأ تقاطع السيوف بينهما في أجواء ما سُمّي «ازمة الصواريخ في لبنان» والتي بدأت في نيسان ١٩٨١، ونشأت من الصراع على السيطرة على وادي البقاع الذي كان في يد سورية منذ ١٩٧٦ وتعتبره حيويًا للدفاع عن نفسها. وكانت ميليشيات بشير الجميل المتعاملة مع اسرائيل قد دخلت زحلة قبل ذلك بشهور قليلة، وهو التهديد الذي لم يكن بوسع الاسد التسامح فيه. فقصف المدينة ومناطق بيروت الشرقية (معاقل «القوات اللبنانية»)، الميليشيات التي يتزعمها بشير الجميل). وبعد أن أثبت الاسد موقفه القوي في زحلة، حاول بشير الجميل ان يمد سيطرته في الاسابيع الاولى من ١٩٨١، فجاء بالجرافات لشق طريق يصل زحلة بجبل لبنان المسيحي. فعاود الاسد القصف، وتدخل السلاح الجوي الاسرائيلي واسقط طائرتين مروحيتين سوريتين كانتا تنقلان المؤن والامدادات للقوات السورية (٢٨ نيسان ١٩٨١). وفي اليوم التالي حرّك الاسد صواريخ أرض–جو سوفياتية (سام) إلى البقاع، وبدأت «أزمة الصواريخ».

خلال هذه الازمة، قصفت اسرائيل مفاعل أوزيراك النووي العراقي،وشاكست رغبة الادارة الاميركية بيع خمس طائرات أواكس للمملكةالعربية السعودية، و لم يعد بمقدورها رفض اقتراح واشنطن إرسال مبعوث للرئيس الاميركي (السفير فيليب حبيب) كي يحاول بالطرق الدبلوماسية حلّ ازمة الصواريخ. لكن بيغن صعّد حربه ضد الفلسطينيين في لبنان، وقصف بالطيران الجنوب وبيروت الغربية. وفي هذا الوضع المكفهر استطاع فيليب حبيب، بعد جهود مضنية وبمساعدة من السعوديين، ان يدبر أمر ترقيع هذا الوضع على شكل «تفاهم» ثلاثي بين بيغن والاسد وعرفات في ٢٤ تموز ١٩٨١. وجوهر هذا التفاهم: تحتفظ سورية بصواريخها في مكانها في البقاع على ان يكون مفهومًا انها لن تُطلق، وتستمر اسرائيل في طلعاتها الاستطلاعية فوق لبنان ولكنها لن تهاجم الصواريخ، ويتوقف الاسرائيليون والفلسطينيون عن ضرب بعضهم بعضًا عبر الحدود اللبنانية مع ضمان الاسد لحسن سلوك الفلسطينيين. وحافظت ترتيبات حبيب على السلام طيلة ١١ شهرًا، أي حتى حزيران ١٩٨٢.

قبل هذا الموعد (الذي غزت فيه اسرائيل لبنان)، اغتيل السادات في تشرين الاول ١٩٨١، ووقع واينبرغر وزير الدفاع الاميركي وأريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلي «مذكرة تفاهم» حول التعاون الاستراتيجي في تشرين الثاني ١٩٨١، واعلن بيغن ضم مرتفعات الجولان في ١٤ كانون الاول ١٩٨١، واعتبر الاسد هذه الخطوة اعلان حرب لا يستطيع خوض غمارها فاكتفى برفع القضية إلى مجلس الامن وزعماء العالم.

كان لدى بيغن ثلاثة اهداف: إبادة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان لكي يتغلب على مقاومة الضفة الغربية للحكم الاسرائيلي والمحافظة على «ارض اسرائيل»؛ طرد القوات السورية والنفوذ السوري من لبنان؛ وتنصيب بشير الجميل رئيسًا على لبنان لتوقيع معاهدة سلام مع اسرائيل.

هذه الاهداف تستلزم الحرب، والحرب يجب ان يكون لها ذريعة، والمشكلة كانت هي ان وقف اطلاق النار الذي رتبه فيليب حبيب كان ساري المفعول، والجبهة الشمالية هادئة. كان بيغن وشارون يفضلان الحصول على موافقة اميركا على هجومهما على لبنان. وكانت النتيجة حصول اسرائيل على الموافقة التي ارادتها وإن تعمدت اميركا عدم جعلها صريحة لتتمكن من إنكارها. فاعتبر الاسد في ما بعد الولايات المتحدة مسؤولة كاسرائيل عن المذابح والدمار في لبنان.

في ٣ حزيران ١٩٨٢، وجد بيغن ووزير دفاعه شارون الذريعة في حادث اطلاق نار فلسطينيين على السفير الاسرائيلي في لندن. وفي ٦ حزيران، اجتاحت القوات البرية الاسرائيلية حدود لبنان (٧٦ ألف رجل، ١٢٥٠ دبابة، ١٥٠٠ ناقلة جنود مدرعة، مدعومين بالطيران والبحرية)، تواجهها «قوات نظامية سورية، وفلسطينية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني تعدادها حوالي ٢٥ الف رجل و٣٠٠ دبابة و٣٠٠ ناقلة جنود مدرعة مع حوالي ١٥ الف فدائي تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ما لا يقل عن ٨ منظمات فدائية منفصلة» (المرجع المذكور، ص ٦٠٢). وخلال ٤٠ ساعة، كانت القوات الاسرائيلية قد احتلت معظم جنوبي لبنان ودحرت قوات المنظمة وراحت تتقدم على ٣ محاور: الساحل، الشمال الشرقي باتجاه البقاع وفي الجبال الوسطى.

في ايام الغزو الاولى عكف بيغن على ترداد ان القوات السورية غير مستهدفة في حربه، في حين ان مجريات الغزو العسكرية كانت تشير في الواقع إلى استهداف القوات الاسرائيلية الجيش السوري. «وهكذا تهيأ مسرح الاحداث ليوم حرج في المواجهة السورية الاسرائيلية هو التاسع من حزيران. وكان هجوم اسرائيل في ذلك اليوم سياسيًا وعسكريًا معًا، فطلب بيغن من فيليب حبيب (الذي كان ريغان قد أوفده للمنطقة على عجل) ان يحمل إلى الاسد رسالة كانت في حقيقة الامر إنذارًا مؤداه ان اسرائيل لن تهاجم القوات السورية، ولكن الاسد يجب ان يزيل صواريخه من لبنان ويسحب جميع الوحدات الفلسطينية إلى بعد ٤٠كلم من حدود اسرائيل (...) وبينما كان حبيب ينتظر مقابلة الاسد هوجمت شبكة صواريخ سام كلها في البقاع ودمّرت. فلقد كانت مهمة حبيب نفسها خدعة (...) فأرسل الاسد طائرات اعتراضية في محاولة يائسة لايقاف الطائرات الاسرائيلية المغيرة. وكانت المعارك (٧٠ طائرة سورية و١٠٠ طائرة اسرائيلية نفاثة) من اضخم معارك الحرب الحديثة (...) وفي البر، نشبت معارك (في منطقة راشيا، في الجبهة الوسطى عند قرية عين زحلتا، وعلى جبهة البقاع عند قرية السلطان يعقوب)» (المرجع المذكور، ص ٦١٨-٦٢١).

وفي أجواء عدة قرارات لوقف اطلاق النار التي لم تعرف طريقها إلى التنفيذ بشكل صريح وفعلي (وسط أجواء خلاف في الادارة الاميركية بشأنه)، طار الاسد سرًا إلى موسكو «وعقد اجتماعًا مطولاً مع يوري أندروبوف رئيس المخابرات السوفياتية (كان بريجنيف مريضًا)... وقد أرسى ذلك الاجتماع الاساس لشحنات كثيفة من السلاح والعتاد السوفياتي الذي جُهزت به سورية بعد الحرب» (المرجع المذكور، ص ٦٢١). وقامت القوات الاسرائيلية، يدعمها قصف مدفعي من البر والبحر وغارات جوية، بالهجوم على المواقع السورية والفلسطينية في ضواحي بيروت وعلى التلال المطلة على العاصمة، وضربت حصارًا على بيروت استمر تسعة اسابيع. أُزيح خلالها ألكسندر هيغ وحل محله جورج شولتز وزيرًا للخارجية الاميركية، ووافق بيغن وشارون على مضض على اقتراح ريغان بترك فيليب حبيب يحاول اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت بالمفاوضات.

في هذه الاثناء كان شارون يضغط على بشير الجميل ليقوما معًا بـ«تنظيف بيروت» من الفلسطينيين. ولم يستطع بشير، الطامح إلى كرسي رئاسة كل لبنان، ان يتحمل وزر مثل هذه المذبحة. وساعدته نصائح فيليب حبيب على ان يقول «لا» لشارون. واستطاع حبيب ان يدبّر حلاً لمشكلة الفلسطينيين والسوريين المحاصرين بالاتصال مع الاسرائيليين وعرفات والاسد وزعماء عرب آخرين. وفي اول ايلول (١٩٨٢) كان المقاتلون السوريون والفلسطينيون قد أخلوا بيروت (١٤ الف شخص منهم ١٠ آلاف و٨٠٠ فلسطيني و٦٦٤ امرأة وطفلاً من الفلسطينيين و٣ آلاف و٦٠٠ جندي سوري) تحت إشراف قوة متعددة الجنسيات من الاميركيين والفرنسيين والايطاليين.

«بينما كانت هذه الدراما تتجلى للعيان، كان الاسد يراقب بيروت بكآبة وهي تنسل من قبضته»؛ وفشل في منع انتخاب بشير الجميل رئيسًا للجمهورية اللبنانية، وراح هذا يدعو إلى انسحاب الجيوش الاجنبية، السورية والاسرائيلية والفلسطينية؛ وبذلك «ارتكب في نظر السوريين جريمة شنعاء إذ وضع سورية واسرائيل على قدم المساواة». وجاء اغتياله في ١٤ ايلول (١٩٨٢)، وقبل ايام من تسلمه سدة الرئاسة) مناسبة استغلها شارون ليدير مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا بحجة مزدوجة: الثأر لبشير، واستمرار وجود مقاتلين مختبئين في المخيمات. ونتيجة لفظاعة هذه المجزرة عادت القوات المتعددة الجنسيات، ولكنها رفضت النزول إلى بيروت إلا بعد انسحاب القوات الاسرائيلية.

«كانت خسائر الاسد فادحة: ١٢٠٠ قتيل و٣٠٠٠ جريح و٢٩٦ أسيرًا، وتدمير أكثر من ٣٠٠ دبابة، و١٤٠ ناقلة جنود مدرعة و٨٠ قطعة مدفعية. وقد تحطمت بطاريات صواريخ سام، واسقطت له ٧٦ طائرة وست مروحيات وأخطر من هذا كله انه فقد ٦٠ طيارًا (...) وكان اعداؤه العرب «يشتمون ويتآمرون» كما وصفهم. فمبارك في مصر كان يتهمه بعقد صفقة سرية مع بيغن لاقتسام لبنان؛ وصدام حسين في العراق كان يتهمه بتواطؤ خياني مع اسرائيل، وحسين في الاردن يدينه بتصفية القضية الفلسطينية (...) ولم يمد له أحد يد الصداقة سوى حلفائه الايرانيين الجدد. فقد ارسلوا ٥٠٠ متطوع للقتال إلى جانب قواته في البقاع (...) وظلت موسكو سلبية بشكل غير عادي طيلة الصراع» (المرجع المذكور، ص ٦٤١-٦٤٢).

ومع ذلك، عاد الاسد وباشر على وجه السرعة عملية استنهاض بقصد بناء امكانيات وقواعد المواجهة من جديد. فأخذ يسمح بقدوم المزيد من المتطوعين الايرانيين لينضموا إلى لبنانيين، فيشكلون معًا فرقًا «تعشق الاستشهاد بالعمليات الانتحارية». وفي موسكو، وافقه أندروبوف على «بدء مرحلة جديدة في التعاون العسكري السوري-السوفياتي؛ وسمعه يقول «انني لن أسمح لأية قوة في العالم بأن تهدد سورية». ووفى أندروبوف بوعده، وأخذ العالم يسمع بـ«انظمة التسليح المتقدمة» في سورية. ولكن، وبالمقابل، كان على الاسد ان يتخلى عن بعض حريته في العمل كي يؤمن الاسلحة والحماية.

هكذا، ونتيجة لعملية الاستنهاض هذه، اصبح العالم يسمع ان خسائر اسرائيل-وباعتراف مسؤولين اسرائيليين احيانًا- بلغت ٥٠٠ قتيل (ولم تمر بعد سنة واحدة على غزو ١٩٨٢)، كما اصبح يسمع تصريحات حتى من أشد صقور اسرائيل تشبه تصريح رئيس اركانها رافائيل إيتان الذي أعلن: «ليست لدينا نية في محاربة سورية بسبب الصواريخ الجديدة، ولا لأي سبب آخر»؛ في حين اخذ المسؤولون السوريون، السياسيون والعسكريون، يصرّحون بما يشبه تصريح الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة: «اننا لا نخشى الحرب، ولدينا من القوة ما يكفي للرد على اية ضربة

نتلقاها بضربة اعنف منها» (آذار ١٩٨٣).

ومنذ بدء المحادثات الرسمية بين لبنان واسرائيل في كانون الاول ١٩٨٢، برعاية واندفاع وزير الخارجية الاميركي جورج شولتز، لم تجرِ محاولة لاشراك السوريين. وفي ايار ١٩٨٣، قصد شولتز دمشق في محاولة لإقناع الاسد بالاتفاقية المزمع عقدها بين لبنان واسرائيل. فجوبه بالرفض، وشعر بالمرارة، لكنه استمر بالاتفاقية إلى ان وقعت في ١٧ ايار ١٩٨٣، وجاءت نصوصها لتسلخ لبنان عن محيطه العربي وتجعله محمية اسرائيلية، وبصورة مذلة. ولقد اعترف بهذه الصورة رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان بقوله للوزير شولتز: «ايها السيد الوزير، يجب ان اخبرك بأنني اشعر بالخزي والتعاسة إزاء شروط هذه الاتفاقية التي لن أوقّع عليها إلا بأقصى درجة من التمنع والاحجام. أهذا كل ما تستطيع اميركا العظيمة ان تؤمنه لنا!»؛ وكذلك علق وزير الخارجية، ايلي سالم: «لقد كان علينا ان لا نثق بعمتنا. لقد تعلمتُ بأن القوى العظمى غالبًا ما تكون اقل شرفًا ونزاهة من القوى الصغرى».

وبدا الاسد، مستعدًا للقتال في سبيل إسقاط هذه الاتفاقية التي تجعل من لبنان «شوكة في خاصرة سورية» وتشكلت، بدعم من الاسد، جبهة الانقاذ الوطني التي أقسمت ان تقاتل ضد الاتفاق.

وحرصت الولايات المتحدة على إبقاء الاتصالات بسورية، فزارها شولتز مرة أخرى (٦ تموز ١٩٨٣) وامضى خمس ساعات مع الاسد دون ان يستطيع تليين رفضه. واستبدلت واشنطن حبيب بمساعد مستشار الامن القومي روبرت ماكفرلين الذي قام بزيارته الاولى لدمشق في ٦ آب ١٩٨٣. ورد الاسد بابقاء الباب مفتوحًا لواشنطن، ووافق على تشكيل لجنة عمل اميركية-سورية للتشاور حول لبنان. وفي ٢٩ آب (١٩٨٣)، عزل بيغن نفسه وخلفه اسحق شامير في رئاسة الوزراء.

وانقلب ميزان القوى في لبنان لمصلحة الاسد مع النتائج التي أسفرت عنها حوادث ميليشيا أمل مع الجيش اللبناني (أمين الجميل رئيسًا للجمهورية) وحوادث منطقة الشوف في ايلول ١٩٨٣. فأخذ الاسد يشدّد من شروطه، فقال إنه سينظر في إخلاء لبنان إذا انسحبت اسرائيل بدون شروط، وإذا انسحبت القوة المتعددة الجنسيات، وإذا حكمت لبنان حكومة وحدة وطنية تبادر إلى تمزيق الاتفاق اللبناني-الاسرائيلي: «أميركا خططت وهندست هذا الاتفاق وعلى اميركا ان تلغيه». وبدأت اسرائيل تتراجع عن مناطق كانت قد احتلتها، وكانت عمليات المقاومين اللبنانيين تتعقب قواتها طيلة ١٩٨٤. وبحلول ١٩٨٥، رضيت اسرائيل لنفسها بمنطقة حدودية سمّتها «الحزام الامني» في جنوب لبنان (وتعرضت القوة البحرية الاميركية لعملية أودت بحياة ٢٤١ من رجالها في ٢٣ تشرين الاول ١٩٨٣؛ وفي اليوم التالي، هوجمت كذلك الوحدة الفرنسية في القوات المتعددة الجنسية وصُرع منها ٥٦ رجلاً).

«كان الرابع من كانون الاول ١٩٨٣ يومًا مهينًا للاميركيين بشكل خاص، فقد قتل ثمانية من جنود بحريتهم في المطار وأسقطت لهم نيران المدافع السورية طائرتين، مما أعطى زعيم الحقوق المدنية للسود القس جيسي جاكسون فرصة كسب سياسي عندما جاء إلى دمشق في نهاية العام ليسترجع الطيار الأسير، الذي بقي حيًا، روبرت غودمان. وبعد وقوع انذارات وحوادث مفزعة كثيرة أخرى، أعيدت الوحدات الايطالية والفرنسية والبريطانية والاميركية العاملة في القوات متعددة الجنسيات إلى بلادها في الشهور الاولى من ١٩٨٤ (...) وهكذا فاز الاسد وحلفاؤه (...) وبذهاب الحماة الغربيين، أصبح امين الجميل تحت رحمة الاسد. وفي ٢٩ شباط ١٩٨٤، سافر إلى دمشق لتقديم احترامه للاسد وليعلن استعداده

لإلغاء الاتفاق» (المرجع المذكور، ص ٦٧٦-٦٧٧).

لكن طعم هذا الانتصار لم يكتمل لوقوع الاسد مريضًا عدة اسابيع قبل ان يتعافى ويستأنف نشاطه، ولبروز اخيه رفعت وقد تمكن من ان يصبح على رأس قوة عسكرية وحزبية وسياسية منافسة للاسد، لا بل خطرة عليه وعلى نظامه. ووصلت المواجهة إلى حد ان الأخوين وزّعا قواتهما في دمشق بصورة الاستعداد لمعركة فاصلة بينهما. فتدارك الاسد الوضع في اللحظة الاخيرة، وادار لعبة اقناع أخيه بحنكة ومن موقع الرئيس والأخ الشقيق الأكبر، وعاد وأمسك بالوضع؛ وانتهى رفعت منفيًا في اوروبا مع عدد من مناصريه، واستقر منذ ايار ١٩٨٦ في باريس.

وفي المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث (٥-٢٠ كانون الثاني ١٩٨٥)، مُنح الاسد، «المنتصر في الصراع من اجل لبنان وفي أزمة الخلافة»، صلاحيات خاصة. فكلفه الاعضاء مهمة القيام بنفسه شخصيًا باختيار وتسمية اعضاء اللجنة المركزية. وكانت تلك إشارة إلى الثقة بـ«الساحر السياسي» الذي اوقف الانزلاق في حرب أهلية. وبعد ثلاثة اسابيع، في ١٠ شباط ١٩٨٦، انتخب رئيسًا للجمهورية لولاية ثالثة (مدتها سبع سنوات) بأغلبية ٩٩،٩٧٪ من الاصوات.

إزاء الاردن ومشكلة «الارهاب»: ما إن سيطر الاسد على الازمة في لبنان حتى انفجرت في وجهه ازمة الاردن الذي بدأ يعمل لإجراء مفاوضات منفصلة مع اسرائيل، رأى الاسد فيها «إعادة تكرر واقعة غزو لبنان، ويلعب فيها الملك حسين دور امين الجميل، ويقوم شيمون بيريز (كان قد أصبح رئيسًا للوزراء الاسرائيلي) باكمال ما بدأه مناحيم بيغن، بينما يبحث جورج شولتز عن الثأر لهزيمته».

بدأ هذا المسار الاردني، وتنبه له الاسد، مع دعوة الملك حسين عرفات لزيارة عمان في كانون الاول ١٩٨٣، تمامًا عندما كانت القوات الفلسطينية المنشقة عن عرفات، وتدعمها سورية، تطرد انصار عرفات من طرابلس. ثم عقد الملك اجتماعات كثيرة مع عرفات طيلة ١٩٨٢، وأحيا اللجان المشتركة، وراح يسعى للحصول على التأييد في لندن وواشنطن، واعاد العلاقات الدبلوماسية مع مصر، واستضاف المجلس الوطني الفلسطيني السابع عشر في عمان (تشرين الاول ١٩٨٤) فأخبر الملك اعضاء المؤتمر بأن الوقت قد حان كي تتخلى منظمة التحرير الفلسطينية عن سياسة الحصول على كل شيء او لا شيء وتنضم إلى الاردن في مبادرة للتفاوض على تسوية مع اسرائيل على اساس «الارض مقابل السلام» على ان يكون منبر التفاوض مؤتمرًا دوليًا ترعاه الامم المتحدة. وفي ١١ شباط ١٩٨٥، وبعد اسابيع من المساومات وقع حسين وعرفات إتفاقية اعطت الملك-على ما بدا في حينه-التفويض الذي كان يحتاجه.

وكان رفض الاسد لهذا المسار الاردني (١٩٨٣-١٩٨٥) صلبًا لا مكان فيه للتراخي، اضطر الملك على التراجع. فقام بزيارة لدمشق في نهاية كانون الاول ١٩٨٥، وتخلّى علنًا في شباط ١٩٨٦ عن اتفاقه مع عرفات، وفي ايار ١٩٨٦ سافر الاسد إلى عمان في اول زيارة للاردن منذ ١٩٧٧. وقد ساعدت الاسد على كسب هذه الجولة من الازمة، عوامل اهمها: استفحال الحوادث الامنية التي طاولت اشخاصًا ومؤسسات داخل البلدين (سورية والاردن) وخارجها من دون ان تعلن اية جهة مسؤوليتها عنها؛ وخيبة كبيرة مني بها الحسين عندما فشل زعيم حزب العمل شيمون بيريز في ان يفوز في الانتخابات الاسرائيلية فاضطر إلى الاشتراك مع اسحق شامير في حكومة وحدة وطنية احبط فيها الليكود رغبة

حزب العمل في التفاوض على تسوية حول الاراضي المحتلة مع الاردن؛ ورفض اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الاتفاق الذي كان قد توصل إليه زعيمها ياسر عرفات مع الملك.

وواجه الاسد كذلك مشكلة دُرج على تسميتها عالميًا وتحت تأثير وسائل الاعلام العالمية، «الارهاب»؛ وقد قصد مروّجو هذا التعبير إلصاقه بكل عمل عنفي ولو كان صادرًا عن مقاومة وذا طبيعة تحريرية، مستفيدين طبعًا من بعض العمليات التي استهدفت مدنيين ابرياء مثل خطف طائرة TWA وعمليات احتجاز رهائن. فكان الاسد في وضع المستنفر دائمًا للرد، إذ كان يفرز هذه العملية عن تلك، فيؤيد بقوة العملية الموجهة إلى اهداف اسرائيلية ومواقع عسكرية، ويدين بقوة العملية التي تختطف او تحتجز مدنيين ابرياء. وذلك لعلمه ان الارضية التي تنطلق منها تهمة الإرهاب إنما هي تلك «الخلفية الكامنة في النكسة الخطيرة التي تعرضت لها كل من اميركا واسرائيل في لبنان. فبعد تلك الصدمة تخلت اميركا عن المعالجة المضنية والمثبطة لقضايا النزاعات في الشرق الاوسط وبدأت تركز بدلاً من ذلك على مكافحة الارهاب الرسمي الذي تدعمه الدولة» (...) وكان العلاج هو تجريع الارهابيين من نفس الدواء، بدلاً من تتبع جذور الارهاب وردّ اسبابها إلى تشريد الفلسطينيين وإلى الشعور الملتهب لدى الشيعة بأنهم مظلومون، وإلى الغزو الاسرائيلي للبنان، وإلى حاجة سورية لحماية نفسها من اعتداءات وتطاولات اسرائيل. وهكذا اصبح الارهاب موضوع الساعة في الولايات المتحدة. والحق ان السياسة الاميركية تجاه الصراع العربي-الاسرائيلي كله قد تضاءلت لتصبح قاصرة على مجرد مواجهة الارهاب (...) وكان من العوامل الهامة التي أثرت على الرئيس ريغان محضر جلسات مؤتمر عقد في واشنطن (حزيران ١٩٨٤) ونظمه معهد جوناثان الاسرائيلي، وقد قام بتحرير ونشر وقائع ذلك المحضر فيما بعد سفير اسرائيل في الامم ا لمتحدة بنيامين نتانياهو، ونشرها تحت عنوان: «الارهاب: كيف يستطيع الغرب ان ينتصر؟»... واصبحت النصوص المعتمدة في ذلك المؤتمر هي النصوص المعتمدة في هوس اميركا بهاجس الارهاب في فترة رئاسة ريغان الثانية. بل لقد اصبحت جزءًا من حملة حرب نفسية مفصلة بعناية فائقة ضد منظمة التحرير وسورية وليبيا، وساعدت على اقناع الرأي العام بأن اعداء اسرائيل هم ايضًا اعداء اميركا. وبأن العرب الذين ينازعون اسرائيل هم إرهابيون، وبأن استعمال القوة الوحشية ضدهم ليس امرًا مشروعًا، بل وضروريًا كذلك» (المرجع المذكور، ص ٧٦١-٧٦٢).

صعوبات ١٩٨٥-١٩٨٩

في لبنان: في ٢٥ آذار ١٩٨٥، تشكلت في دمشق جبهة الانقاذ الوطني الفلسطيني (من ست منظمات) المعارضة لياسر عرفات الذي كان يعمل للتقارب بين منظمة التحرير والاردن. وكانت معارك قد دارت حول جميع مخيمات الفلسطينيين في لبنان تقريبًا بعد قرار اسرائيل الانسحاب من جزء من الاراضي اللبنانية التي تحتلها (١٤ كانون الثاني ١٩٨٥)، وكان أنصار عرفات يدافعون في داخل المخيمات في وجه المنشقين عنه (بقيادة ابو موسى) ومعارضيه في المنظمات الاخرى، تدعمهم سورية وحركة «أمل» اللبنانية التي كانت شبه مسيطرة على بيروت الغربية. وفي ١٩ ايار ١٩٨٥، اندلعت «حرب المخيمات» (أكثر من ألف قتيل و٤ آلاف جريح)، وخرج انصار دمشق منتصرين منها، ولكن في اجواء انتقادات عربية للدور السوري: الكويت قررت وقف مساعدتها المالية لسورية (١٧ تموز ١٩٨٥)، والملك حسين هاجم «هؤلاء

في الصورة الاعلى الى اليمين: الأسد محمولاً وسط جماهير محتفية به بعد الاعلان عن شفائه من المرض (١٩٨٤)؛ وبدا على شرفة قصر الرئاسة مع رئيس الوزراء رؤوف الكسم.
في الصورة الاعلى الى اليسار: مع الملك الحسن الثاني في القمة العربية في فاس (٨ ايلول ١٩٨٢).
في الصورة الاسفل الى اليمين: مع الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران اثناء زيارته دمشق في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٤، وبدا في الصورة اثنان من نواب رئيس الجمهورية: رفعت الاسد وزهير مشارقة (الثالث، عبد الحليم خدام لم يظهر في الصورة)؛ والأسد يحيي من شرفة قصر الرئاسة، مظاهرة تأييد ضمت نحو مليون مواطن سوري (١٣ اذار ١٩٨٥).
في الصورة الاسفل الى اليسار: مع الرئيس اللبناني امين الجميل في دمشق (اول اذار ١٩٨٤)؛ وتوقيع الاطراف اللبنانيين «اتفاق دمشق».

الذين يعتبرون انفسهم فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين»، فردّت صحيفة تشرين السورية عليه بقولها: «نعم، السوريون هم فلسطينيون أكثر من بعض الفلسطينيين». وكذلك ايران فإنها لم تكن راضية على زج الشيعة في مثل هذا الدور.

في الوقت نفسه، وعلى ساحة المسيحيين في لبنان، انتفض سمير جعجع (١٢ آذار ١٩٨٥) من داخل «القوات اللبنانية» على التقارب الذي كان باشره حزب الكتائب (الحزب الأم للقوات اللبنانية) مع القادة البعثيين. لكن بعد شهرين، قاد الياس حبيقة إنتفاضة على الانتفاضة، واصبح الرجل الأقوى في ساحة المسيحيين اللبنانيين، واستقبل، رسميًا، في دمشق في ٩ ايلول ١٩٨٥.

والتفتت دمشق إلى الوضع المتأزم في بيروت الغربية حيث كان حلفاء الأمس (أمل والحزب التقدمي) يتراشقون التهم السياسية والصدامات العسكرية وشجعت على إقامة «جبهة الوحدة الوطنية» (٦ آب ١٩٨٥). لكن فشل القمة (الأسد-الجميل، في ٨ آب ١٩٨٥)، أبقى الوضع اللبناني متأزمًا للغاية يتخبط في فوضى أمنية وسياسية عامة. وفي اوائل ايلول ١٩٨٥، دخل الجيش السوري مدينة زحلة بناء على الحاح وجهائها وفي اواخر الشهر نفسه، دخل مدينة طرابلس فارضًا على الاصوليين الاسلاميين تسليم أسلحتهم الثقيلة. وبعد جملة من النقاط التي سجلتها دمشق لمصلحتها (إنفتاح الكتائب عليها، تجميع التقدميين في جبهة واحدة، إعادة السلام إلى زحلة وطرابلس)، جاء دور أن تفرض «إتفاق سلام» في لبنان.

وقّع هذا الاتفاق (الذي سمّي «الاتفاق الثلاثي» أو «اتفاق دمشق»)، في ٢٨ كانون الاول ١٩٨٥ في دمشق، الياس حبيقة (عن القوات اللبنانية)، وليد جنبلاط (الحزب التقدمي) ونبيه بري (أمل)؛ ونص على إنهاء حالة الحرب وإقامة توازن في السلطات بين المسيحيين والمسلمين، وبعدها يُصار إلى إلغاء الطائفية وإجراء اصلاحات في المؤسسات. فكانت المرة الاولى التي يأتي فيها القادة المحاربون، بمعزل عن الزعماء التقليديين (باستثناء وليد جنبلاط)، بمبادرة في مثل أهمية هذا الاتفاق-الرهان الكبير.

لكن هذا الرهان ما لبث ان ضاع بعد نحو اسبوعين فقط. إذ رفض رئيس الجمهورية اللبنانية، أمين الجميل، الانضمام إليه، وقاد سمير جعجع، في ١٣ كانون الثاني ١٩٨٦، انتفاضته الثانية، الموجهة ضد حبيقة والاتفاق الذي وقعه، فوقعت معارك داخل المناطق المسيحية (نحو ٣٠٠ قتيل)، هُزم فيها حبيقة وغادر لبنان إلى سورية عن طريق باريس.

«عاد الوضع إلى تأزمه (...) وموجة من السيارات المفخخة جعلت بيروت جحيمًا. السنيون والشيعة اشتبكوا في معارك دامية، وفي البقاع، عدة صدامات وقعت بين الجنود السوريين وحزب الله (ايار-حزيران ١٩٨٦). الوضع غير مريح لسورية، والياس حبيقة فشل في محاولته لاعادة موقع قدم له في بيروت الشرقية (٢٧ ايلول ١٩٨٦). اشتعلت من جديد حرب المخيمات، ولم يعد من رافض لعرفات إلا منظمة الصاعقة. الجامعة العربية وايران عملتا على ايقاف النار بمعزل عن التحفظات السورية. الفلسطينيون العرفاتيون عاد عدد منهم بمساعدة أعدائهم السابقين (القوات اللبنانية)، وسط دهشة الاسرائيليين انفسهم: «من كان يعتقد، يقول إسحق رابين، انه سيأتي يوم تستخدم فيه جونيه كمعبر تستخدمه قوات منظمة التحرير للدخول إلى لبنان؟!»؛ والرئيس الأسد اعترف (في تصريح للتايم، ١٢ تشرين الاول ١٩٨٦) ان «لبنان مسبّب حقيقي لأوجاع الرأس»

(Pierre Guingamp, Hafez El Assad et le parti Baath en Syrie, 1996, p.298-299).

في كانون الثاني ١٩٨٧، بدأت «حرب

الحلفاء» بين أمل والحزب الاشتراكي، ولم تتوقف إلا بدخول الجيش السوري (نحو عشرة آلاف جندي) بيروت في ١٨-٢٢ شباط ١٩٨٧، ومعالجته الوضع بحزم لم ينج منه حزب الله في بيروت الغربية، ولم يدخل الجيش السوري الضاحية. أمين الجميل عارض هذا الدخول، واسرائيل رأت فيه «تطورًا سلبيًا»، فيما أعادت الولايات المتحدة اعلانًا مكررًا لها بأنها تريد «انسحاب جميع القوات الاجنبية من لبنان»؛ أما المملكة العربية السعودية فقد جرى الكلام على انها شجعت عليه في الخفاء.

في كانون الاول ١٩٨٧، اندلعت «الانتفاضة الفلسطينية» في الضفة وغزة، وجذبت الاضواء والاهتمام العالميين. وحرص قادة البعث في سورية على ان تجري جنازة الرجل الثاني في منظمة التحرير، ابو جهاد، الذي اغتالته عملية كوماندوس اسرائيلية في تونس (١٦ نيسان ١٩٨٨) في دمشق وليس في عمان. وجاء إلى دمشق جميع القادة الفلسطينيين، والتقى عرفات الرئيس الأسد (٢٥ نيسان ١٩٨٨). لكن هذا اللقاء (وما زامنه من مناقشات بين البعث ومنظمة التحرير) لم يثمر ايجابيًا، إذ استمر الجيش السوري يضغط على العرفاتيين في المخيمات (تموز ١٩٨٨)، فترد منظمة التحرير باتهام سورية بتنفيذ مخططات اميركية.

تركز الاهتمام في لبنان على الموعد المقرر لانتخاب رئيس جديد يخلف امين الجميل الذي قاطعته دمشق محمّلة اياه مسؤولية فشل «الاتفاق الثلاثي». وتعقد الموقف، ولم تجرِ الانتخابات الرئاسية، وجاء موعدها على حكومتين عرفتهما البلاد: واحدة برئاسة العماد ميشال عون، والثانية برئاسة سليم الحص. الاول حكم منطقة محاصرة من كل الجهات ولا تتعدى مساحتها ١٥٠٠كلم م.، فأطلق، في ١٤ آذار ١٩٨٩، «حرب التحرير» ضد «المحتلين السوريين» وهو على خلاف تام مع القطب المسيحي الآخر، سمير جعجع قائد «القوات اللبنانية». فاندلعت حرب القصف المدفعي التي جرّت إلى تدخلات عربية واجنبية بحجة ضرورة إيقاف المعارك. فأرسلت فرنسا سفنًا حربية إلى المنطقة اثارت غضب البعث في سورية (آب ١٩٨٩)، وتشكلت لجنة عربية ثلاثية (المغرب، الجزائر والمملكة العربية السعودية) حمّلت سورية مسؤولية المأزق، خاصة لجهة عدم وضعها روزنامة لانسحاب قواتها من لبنان. لكن الرئيس الأسد سرعان ما عاد وتمكن من «الحصول من العربية السعودية والولايات المتحدة على دعم لسياسته الاصلاحية والوفاقية» في لبنان (P. Guingamp، المرجع المذكور قبل قليل، ص٣٠١). ولم تخف الولايات المتحدة معارضتها للعماد عون، وشجعت على محادثات لبنانية-لبنانية اسفرت عن اجتماع ٦٢ نائبًا لبنانيًا في الطائف خرجوا بـ«اتفاق الطائف» (في ٢٢ تشرين الاول ١٩٨٩) أو «وثيقة الوفاق الوطني».

صعوبات داخلية: في ١٠ شباط ١٩٨٥، اعاد السوريون انتخاب الرئيس الأسد لولاية جديدة، وبلغ المقترعون ٩٩،٣٨٪ وفي خطاب قسم اليمين وضع الرئيس محورًا ثنائي الهدف: النهوض بالاقتصاد ومحاربة الفساد. لكن نسبة المقترعين تدنت كثيرًا (٤٢٪) لانتخاب ١٩٥ نائبًا من ٣٠٦٨ مرشحًا، حيث فاز البعث بـ١٢٩ مقعدًا، وفاز أحد اعضاء قيادته، محمد الزعبي برئاسة مجلس الشعب.

في ٨ نيسان ١٩٨٥، جرى تعديل حكومي طال أكثر من نصف الحقائب، وجاء بمحمد عبادي وزيرًا للاقتصاد والتجارة الخارجية، وهو المعروف باطلاقه سياسة الانفتاح منذ بداية الحركة التصحيحية. وقد عنى وجوده ان ليس من عودة إلى المبادىء الاشتراكية الصارمة في الاقتصاد. لكن هذا المنحى الاقتصادي واجه صعوبات جمة: العقوبات التي اتخذها الاميركيون

والاوروبيون، في ١٩٨٦، «لتدفيع سورية ثمن تورطها بالارهاب الدولي»، ردّ عليها البعث بأنها حجج واهية لنزعة امبريالية غربية تسعى إلى اضعاف سورية بالضغط الاقتصادي. زد عليها ان العربية السعودية والامارات، وقد تأثرتا بانخفاض اسعار النفط، تراجعتا عن تقديم المساعدات المقررة؛ وان إقفال الحدود السورية-العراقية قد أضرّ كثيرًا بالمدن الشمالية التي يتوجه نشاطها التجاري تاريخيًا نحو حوض الفرات؛ وان المساعدة الايرانية، على أهميتها، موقوفة إلى حد بعيد على إيقاع العلاقات السياسية بين البلدين. ورغم ذلك، ورغم ما عاناه الاقتصاد السوري من مشكلات ضربت مختلف النواحي الاجتماعية (هبوط في قيمة الليرة، تضخم، سكن، بطالة...) كان ثمة شعور عام بأن البلد يمتلك قدرة اقتصادية مهمة وبنى تحتية قوية؛ وقد رسّخ هذا الشعور استمرار الحكومة في اطلاق مشاريعها الاقتصادية المقررة بدءًا من الاعمال في مرفأ اللاذقية وانتهاء بمشاريع الري في الجولان.

وعلى خط مواز لهذه الصعوبات الاقتصادية، قام وضع مفاجىء عكّر أجواء الاستتباب الأمني (ربيع ١٩٨٦-خريف ١٩٨٧) بحوادث تفجير سيارات في بعض المدن (دمشق، حمص، اللاذقية...) وبحادثة الاعتداء على السفارة السورية في بروكسيل (٧ تشرين الاول ١٩٨٧)، وذكّر بحوادث الاخوان المسلمين في ١٩٧٩-١٩٨٢ (راجع هذه الفترة في موضعها من هذا الباب «عهد الأسد»، و«الاخوان المسلمون» في باب الاحزاب). وتمكنت السلطات من السيطرة على هذه الحوادث، فاعتقلت مفتعليها واعدمت بعضهم وسط شبه تجاهل من الاعلام الرسمي الذي انصب على أنباء الفساد وإجراءات محاربته. ففي ١٩٨٦، اعتقل أكثر من ٢٠٠ متاجر بالعملات الصعبة، وعشرات من المسؤولين في دوائر ووحدات الانتاج، كما أجبر على الاستقالة عدد من المسؤولين.

صعوبات إقليمية ودولية: قاطعت سورية القمة الاستثنائية التي دعا إليها ملك المغرب (٢٠ تموز ١٩٨٥)، ورفضت عرض الوساطة السعودية في نزاعها مع العراق، ونجحت دبلوماسيتها في كسب الملك حسين بعد ان خاب أمله بالوعود الاميركية في البدء بمفاوضات السلام، فزار دمشق والتقى الرئيس الأسد (كانون الاول ١٩٨٥). لكن هذا النجاح الدبلوماسي عكّرته أحداث إقليمية ودولية ضاغطة: اعتراض الطائرة الليبية (٤ شباط ١٩٨٦) التي كانت تقل عبد الله الأحمر الامين العام المساعد في القيادة القطرية لحزب البعث، معزوفة التهديد بـ«الارهاب» التي عادت الولايات المتحدة لتزخيمها في وجه سورية وليبيا وايران، المناورات البحرية الاميركية قرب الشواطىء الليبية، وقصف الطيران الاميركي مدينتي طرابلس الغرب وبنغازي (١٥ نيسان ١٩٨٦). ولم يؤد هذا العدوان إلى عقد قمة عربية استثنائية تحمّست لها سورية، إذ وقفت ضدها (عقد القمة) غالبية البلدان العربية.

وازدادت الضغوط على سورية: في ٢٤ تشرين الاول ١٩٨٦، قطعت بريطانيا علاقاتها الدبلوماسية معها، وغادر سفيرا اميركا وكندا دمشق، وقررت المجموعة الاوروبية تعليق كل اتصال دبلوماسي رفيع المستوى مع دمشق ووضع البعثات الدبلوماسية السورية والخطوط الجوية السورية تحت المراقبة (١٠ تشرين الثاني ١٩٨٦)، وبعد أربعة ايام، أعلنت الولايات المتحدة عن عقوبات اقتصادية «لإقناع سورية أن كل دعم تقدمه دولة من الدول للارهاب الدولي لن يسمح به العالم المتحضر» (راجع العنوان الفرعي «معزوفة الارهاب»). ثم جاء انكشاف الاتصالات السرية الاميركية-الايرانية وتسليم واشنطن أسلحة لطهران ليغرق إدارة ريغان في الحيرة والفضيحة،

وليخفف عبء الضغط الديبلوماسي على سورية.

في القمة الخامسة لمنظمة المؤتمر الاسلامي في الكويت (٢٦ كانون الثاني ١٩٨٧)، بدا الأسد متساهلاً مع تأكيده في الوقت نفسه على خطه السياسي العام منتقدًا سياسة مصر والمغرب (كان الملك الحسن الثاني قد أجرى محادثات مع شيمون بيريز في إيفران في تموز ١٩٨٦. وعلى أثر الاعلان عن هذه المحادثات قطعت سورية العلاقات مع المغرب). وبالنسبة إلى حرب الخليج، بدأت سورية، وللمرة الأولى، تسمع إيران بأنها لا يمكن ان تقبل باحتلال اراض عربية. وقبل الأسد، بطلب من الاتحاد السوفياتي والاردن والعربية السعودية، مقابلة صدام حسين (٢٦ نيسان ١٩٨٧ على الحدود العراقية الاردنية؛ وظلت المقابلة سرية إلا ان كشف عنها الاردن في ٦ تموز ١٩٨٧، وسورية في ايلول). لكن الاحداث التالية، بما حملته من اتهامات متبادلة، أظهرت عدم اتفاق الرئيسين.

سياسة الاعتدال والمعادلة والتوازن التي انتهجها الأسد، في هذا الوقت، إقليميًا ودوليًا (وتسببت في صراع صامت بينه وبين ايران انعكس على الاراضي اللبنانية) أوجزها لوسيان جورج (في الجريدة الفرنسية الشهيرة، «لوموند»، ١٧ تموز ١٩٨٧) بالعبارة التالية: «تلعب دمشق في الوقت الحاضر دورًا معقدًا للغاية حيث تسعى للموافقة في آن بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وبين العراق-أو الأصح بين البلدان العربية-وايران». وأولى نتائج هذه السياسة كان اعلان الكويت استئناف مساعداتها المالية لسورية، ثم الدور البارز والناجح للدبلوماسية السورية في إطلاق الرهائن الاوروبيين والاميركيين، ودخول القوات السورية بيروت الغربية (كما تقدم سابقًا)، واعلان المانيا الغربية (منذ ٢٠ شباط ١٩٨٧) عن أملها في استئناف العلاقات بين البلدين، وقرار المجموعة الاوروبية (١٣ تموز ١٩٨٧) استئناف هذه العلاقات على أعلى المستويات، وعودة السفير الاميركي (٢ ايلول ١٩٨٧) إلى مهماته في دمشق في سياق إحاطة الاميركيين السياسة السورية والسوريين بكثير من الرعاية والإطناب ما جعل هؤلاء (السوريين) في وضع حرج إزاء شركائهم الايرانيين واللبنانيين. وعند نهاية ١٩٨٧، تدفق الزائرون الأجانب، من رئيس الدبلوماسية الفرنسية والسوفياتية إلى الدبلوماسيين العرب والايرانيين، على دمشق. وبهذا «حقق الأسد، خلال نحو سنة واحدة، موقعًا مميزًا لسورية على المسرحين الدولي والاقليمي من دون ان يقدم تنازلات موجعة وباستعماله لتكتيك يتقنه جيدًا: فن تقديم الذات على أساس انها عنصر ضروري» (P. Guingamp، المرجع المذكور، ص٣٠٨).

ومع ذلك، ثمة صعوبات ثلاث كبرى أضنت دمشق وجعلتها تستشعر اخطارًا جدية كبرى؛ فـ«وحده انقلاب على المستوى الاقليمي يعيد خلط الاوراق قد يمكّن حافظ الأسد من إعادة جعل الوضع وفق مصلحته» (P. Guingamp، المرجع المذكور، ص٣١٠. وبالفعل وقع هذا الانقلاب، بعد نحو عامين ونيف، وتمثل بحرب الخليج الثانية):

الصعوبة الأولى جاءت من القمة العربية في عمان (٨-١١ تشرين الثاني ١٩٨٧) وما نتج عنها من إعادة مصر إلى «الاسرة العربية» وبقوة، ومن إدانة لايران و«حربها على العراق». فرأت سورية في عودة مصر «ضربة للتضامن العربي»، ووقفت ضد إدانة ايران «لأن ايران لم تبدأ الحرب» (كما صرّح وزير الخارجية السوري فاروق الشرع، غداة القمة).

الصعوبة الثانية، في الجديد الذي طرأ على العلاقات السورية-السوفياتية. ففي زيارة الأسد لموسكو (نيسان ١٩٨٧) سمع من غورباتشوف (وقد التقاه لاول مرة) ما لم يكن قد سمع مثيلاً له من قبل من مسؤول سوفياتي: الديون السورية تعرّض استمرار التعاون العسكري بين البلدين،

و«التوازن الاستراتيجي» مع اسرائيل الذي تعمل له دمشق منذ عشر سنوات هو «بجرد وهم».

الصعوبة الثالثة، في قبول ايران وبدون شروط وقف اطلاق النار (١٨ تموز ١٩٨٨)؛ ما ترتب عليه خروجًا لصدام حسين من الحرب قويًا، وترتيبًا لدوره العربي بدأه بحشد جيشه في الجزيرة على الحدود مع سورية، ثم تدخله في لبنان داعمًا لمنظمة التحرير وللعماد عون، ثم اقتراحه انتخابات ديمقراطية في الدولتين البعثيتين بهدف اتحادهما (٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٨)، ثم تقديمه المساعدة لمصر لاعادة دمجها في الاسرة العربية، ثم اطلاقه لـ«مجلس التعاون العربي» (١٦ شباط ١٩٨٩) الذي ضم العراق ومصر والاردن واليمن.

أظهرت قمة الدار البيضاء (٢٣ ايار ١٩٨٩)، وما تلاها على صعيد علاقات سورية العربية والايرانية، مرونة كبيرة أبداها الرئيس الأسد في تعاطيه مع هذه المستجدات، يقابلها تمسك قوي بـ«الورقة اللبنانية». فـ«خلال نحو يومين من المناقشات الحادة والجدال (في قمة الدار البيضاء)، خاصة مع العراقيين، تخلّى الأسد عن أمور كثيرة، عودة مصر إلى الجامعة العربية، دور منظمة التحرير الفلسطينية، الخ... مقابل شيء واحد: اطلاق يده في لبنان. وبالنسبة إلى الباقي، اخذت الدبلوماسية السورية تتكيف مع المعطى الاقليمي الجديد وتسعى للاستفادة منه» (P. Guingamp، المرجع المذكور، ص٣٠٩، بنصه الفرنسي. والكتاب صادر في اواخر ١٩٩٦، ووصل إلى مكتبات بيروت في اواسط حزيران ١٩٩٧، ولم توضع له بعد ترجمة عربية).

«معزوفة الارهاب»: (قبل إقفال عقد الثمانينات، لا بد من عودة ولو سريعة إلى «معزوفة الارهاب»، السلاح الذي طالما رفعته، ولا تزال، الولايات المتحدة واسرائيل ضد سورية وبلدان عديدة أخرى. والجدير ذكره ان دراسات بدأت تكشف، وستزداد هذه الدراسات ولا ريب ويزداد معها الكشف عمّا يخبئه هذا الموضوع في ثناياه المعقدة من أحابيل ومظالم تائهة في مهب اعلام مدروس، مركّز وطاغ. ومرجع الفقرات التالية، بتصرف من مؤلف هذه الموسوعة:

P. Guingamp, «Hafez El Assad et le Parti Baath en Syrie, p361-364):

على اثر قرار المجموعة الاوروبية (تشرين الثاني ١٩٨٦) اتخاذ عقوبات سياسية واقتصادية ضد سورية بذريعة انها من الدول المحرّضة على «الارهاب»، ردّ الأسد بكلام فيه من المنطق حدوده القصوى، بحيث ان كل متابع لتصريحات الاميركيين والاسرائيليين والغربيين عمومًا حول الارهاب، سواء قبل رد الأسد أو بعده، لم يقف على ما يوازيه، أو حتى يدانيه حجة ومنطقًا. فتغافلوا عنه، واستمروا في استعمال اللفظة (الارهاب) بصورة مطيفة واقرب ما يكون إلى الشعار الديماغوجي.

فبعد تأكيده، مرة جديدة، أن سورية تدين الارهاب، وانها نفسها ضحيته، اذ ذهبت الموجة الارهابية الأخيرة (آذار ١٩٨٦) بارواح نحو ١٥٠ شخصًا، وبالعدد نفسه تقريبًا من الجرحى، ومع ذلك لم يُسمع منهم أحد يتكلم عن ذلك. وهذا دليل واضح ان ثمة مكيالين تقاس بهما الامور، وان ثمة مخططًا اسرائيليًا-اميركيًا يُعمل على تنفيذه ويُستخدم فيه الاوروبيون، وذلك «لخلق اجواء مؤاتية لعدوان» ضد سورية. والاميركيون، يتابع الأسد، أخذوا «بالتعريف الاسرائيلي للارهاب؛ وهو تعريف يمنع، في آخر المطاف، كل فعل مقاومة ضد اسرائيل وكل نضال مسلح ضد الاحتلال» (٢٧ كانون الثاني ١٩٨٧). وقد وجد الأسد بسهولة حججه يرفعها في وجه الاميركيين: «هؤلاء، الذين غزوا غرانادا باسطولهم، وغيّروا اتجاه الطائرات المصرية والليبية، وقتلوا الملايين من الفيتناميين، وسلحوا نيكاراغويين ضد بلدهم،

وهاجموا ليبيا لقتل رئيسها، وتسببّوا بمساعدتهم اسرائيل في تهجير الشعب اللبناني، هؤلاء هل يمكنهم بعد كل ذلك اتهام سورية بالارهاب؟». وقبل كل شيء، ما المقصود بالارهاب؟ فمن اجل ان تعطى الكلمة معنى مقبولاً من جميع الاطراف، دعا الأسد إلى «تشكيل لجنة عربية-اوروبية، أو عربية-اميركية-سوفياتية-اوروبية لتحديد ما هو الارهاب بالضبط. انه التحدي الذي نرفعه والذي يتيح لنا ان نعرف من هو الارهابي ومن هو اللاإرهابي» (١٦ تشرين الثاني ١٩٨٦). والحقيقة ان هذا الاقتراح-التحدي لن يكون له في الحقيقة فرصة ان يكون مقبولاً ومتبنيًا. ذلك ان عددًا كبيرًا من القضايا والامور لا تزال اكثر الحكومات تعمل على إبقائها جارية تحت ستار من الصمت المطبق.

وتمكن الأسد (١٩٨٦-١٩٨٧) من ترتيب الامور التي جاءت في أغلبها لمصلحة سياسته (كما سبق اعلاه). و لم يعد هناك من يتكلم عن الارهاب الشرق اوسطي في البيت الابيض الذي أدار انتباهه كله ناحية اميركا الوسطى. فها هو دين براون، مبعوث الرئيس الاميركي السابق إلى الشرق الاوسط، يصرّح بقوله: «إذا سألتموني ما هي أهمية لبنان اليوم في السياسة الاميركية، فإنني مجيبكم: تقريبًا صفر». وهكذا بالنسبة إلى فرنسا وبقية اوروبا، حيث الظاهرة نفسها: الهدف الذي كان أولويًا، أي محاربة الارهاب، اختفى فجأة تمامًا كما ظهر فجأة. فمثل هذه الوقائع، المتصلة بالشرق، غالبًا ما تقع فيها السياسة الغربية بصورة مدهشة في تنافرها.

في ربيع ١٩٩٢، عاد التوتر فجأة بين سورية والولايات المتحدة واوروبا. وعادت الاتهامات تمطر على دمشق: دعم حزب الله في جنوبي لبنان؛ انتهاك حقوق الانسان؛ حماية ألوا برونر، احد معاوني أيخمان و«كان وصل سورية منذ ١٩٥٦ وعمل مستشارًا لعبد الحميد السرّاج؛ وإزاء عدة طلبات لاستراداده تقدمت بها فرنسا والمانيا، كانت سورية تجيب دائمًا بأنه «غير موجود». وقد بقيت على موقفها، ويبدو انها، بحسب بعض المصادر (والكلام للمرجع المذكور، ص٣٦٣) قد تخلصت من هذا الضيف المزعج، وانه اصبح (حزيران ١٩٩٥) في الارجنتين.

في بداية التسعينات، بدأ الأسد يتخذ اجراءات انفراجية وفق قرارات الامم المتحدة حول الارهاب. فتبعًا لقرار مجلس الامن القاضي بفرض عقوبات على ليبيا لحمايتها عملاء مسؤولين عن عملية طائرة بان اميركان (٢١ كانون الاول ١٩٨٨)، علقت سورية رحلاتها الجوية باتجاه طرابلس الغرب (٢٠ نيسان ١٩٩٢).

ومع ذلك لم تعدل واشنطن من موقفها، وأبقت سورية على لائحة البلدان الداعمة للارهاب. «أحد من مسؤولي الادارة الاميركية الذين التقيتهم، يؤكد الأسد في ٢٧ تشرين الاول ١٩٩٤، تمكن من إعطائي مثلاً واحدًا على تورط سورية مع ارهابيين». وما يدعم الرئيس الأسد في موقفه هذا ان جميع التحقيقات التي أجريت على مختلف العمليات التي وصفت بالارهابية أكدت بطلان اتهام سورية: العملية المنفذة ضد طائرة اسرائيلية في لندن (نيسان ١٩٨٦) ظهر انها من صنع الموساد؛ وعمليات التفجير في باريس (١٩٨٦) من مسؤولية ايران؛ وتوقيف كارلوس (١٥ آب ١٩٩٤) لم يُشر إلى أي تورط سوري في عملية تفجير في شارع ماربوف (المرجع المذكور، ص٣٦٣).

في ربيع ١٩٩٦، عاد الارهاب إلى واجهة الاحداث عقب ثلاث عمليات تفجير كبرى لمنظمة حماس داخل اسرائيل. فأطلقت، على الفور، فكرة «قمة مواجهة الارهاب»، وعلى الفور ايضًا دعمتها الولايات المتحدة واسرائيل والسلطة الفلسطينية، وعقدت في ١٣ آذار

١٩٩٦. هنا، لاحظت سورية انه سبق لها ودعت إلى مثل هذه القمة، دون جدوى، منذ عشرة اعوام. وأعلن الهدف من هذه القمة، وهو إدانة البلدان التي، برأي اسرائيل والولايات المتحدة، تعيق عملية السلام، منها ايران، وبصورة أخف سورية. وعلى كل حال، لم تكن مسألة اشتراك سورية في هذه القمة، بنظر دمشق، مطروحة اطلاقًا طالما ان هذه القمة تماثل كل عمل ضد الاحتلال الصهيوني في فلسطين وجنوبي لبنان بالارهاب. وعلى الرغم من مشاركة سورية في عملية السلام في المنطقة، استمرت الحكومة الاسرائيلية في سعيها إقناع واشنطن بمعاملة سورية مثل معاملتها ايران وليبيا على اساس انها «دول ارهابية».

«بسبب الاتساع الذي بلغه في اواخر الثمانينات، أحلّ الارهاب بالعلاقات الدولية، وأتاح للقوى الضعيفة قدرة إفشال الأقوياء باستعمالها وسائل مبرّرة في مقاصدها النهائية. ولقد أظهرت الولايات المتحدة واوروبا، إزاء هذا الأمر، عجزًا كاملاً في فهم الابعاد الحقيقية لهذا التحدي، كما كتب بصدده رينيه سيرفواز (جريدة «لوموند» الفرنسية، ٧ كانون الثاني ١٩٨٨). لماذا الارهاب في الشرق الاوسط؟ لم يكن أحد في واشنطن مستعدًا، في حينه، لطرح هذه المشكلة الأساسية التي تغوص جذورها في قلب القضية الفلسطينية. وليس هناك ما يؤكد، اليوم، ان الامور قد تغيرت حقيقة» (P. Guingamp، المرجع المذكور، ص٣٦٤).

أضف إلى ذلك، وزيادة في تعميم الفائدة حول مفهوم «الارهاب»، ننقل بعض ما جاء في مقال مطول لباتريك سيل («الحياة»، العدد ١٢٥٤١، تاريخ اول تموز ١٩٩٧، ص١٨) تحت عنوان فرعي «حرب المفاهيم»:

«صياغة المفاهيم أمر عظيم الأهمية في الصراعات السياسية، ومن وسائل تحقيق التفوق الفكري والسياسي ان تفرض على الخصوم منظومة لغوية معينة. وفي مجال صياغة المفاهيم استطاعت اسرائيل واصدقاؤها الاميركيون ان يحققوا نصرًا مبينًا على العرب والايرانيين معًا. ومن الامثلة الواضحة على ذلك كلمة «ارهابي» التي استخدمت بصورة منتظمة خلال السنوات الماضية لتشويه سمعة أي طرف من منظمة التحرير الفلسطينية في الماضي إلى «حزب الله» في الوقت الحاضر ومن يجرؤ على النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية. ومن الامثلة الأقرب عهدًا عبارة «الدول الناشزة» (أو الدول الخارجة على الاعراف الدولية) التي دخلت لغة الصحافة بل وحتى اللغة الأكاديمية لتعني البلاد التي توجد خلافات بينها وبين اسرائيل والولايات المتحدة».

النظام الاقليمي الجديد

سورية وحرب الخليج الثانية: خرج الرئيس العراقي، صدام حسين، من القمة العربية الاستثنائية (٢٢ ايار ١٩٩٠، وقد غابت سورية عنها) مستشعرًا مزيدًا من القوة بعد قبول ايران، قبل نحو سنتين، وقف اطلاق النار في حرب الخليج الاولى دون قيد أو شرط. فراح ينتهج سياسة الضغط على سورية من خلال ثلاث زوايا اساسية: اتخاذ مختلف مبادرات التقرب والدعم إزاء مصر، دعم منظمة التحرير الفلسطينية التي كان رئيسها ياسر عرفات بأمس الحاجة له بعد بروز «حماس» (تأسست في ١٩٨٧) على الساحة الفلسطينية ومعارضتها له، ودعم معارضي سورية في لبنان وعلى رأسهم العماد ميشال عون.

بدأ الرئيس حافظ الأسد ردّه بتسريع تقربه من مصر. فزارها في ١٤ تموز ١٩٩٠ (وكانت الزيارة الاولى بعد ١٤ عامًا) بناء على دعوة تلقاها من الرئيس المصري حسني مبارك.

وفي حين كان الأسد منهمكًا على الساحة

اللبنانية التي بدأت تشكل خطرًا وشيكًا على سياسته، انقلب الموقف في المنطقة بصورة سريعة وغير متوقعة. إذ ادار صدام حسين ظهره فجأة لكل سياسته التي كان دعا إليها وبدأها في قمة ٢٢ ايار ١٩٩٠، فركّز كل اهتمامه على الكويت.

بعد ثمانية ايام من اندلاع الحرب، عقدت قمة عربية في القاهرة، وكانت المواقف: ليبيا ومنظمة التحرير ساندتا العراق، الاردن والسودان وموريتانيا في موقف متأرجح وملتبس، الجزائر واليمن (اليمن الجنوبي واليمن الشمالي كانا قد حققا وحدتهما منذ ٢٢ ايار ١٩٩٠) لم يحضرا، مصر وسورية أدانتا غزو العراق للكويت وقررتا إرسال قوات عربية إلى مسرح العمليات الحربية. فأرسلت سورية ١١٠٠ جندي من قواتها إلى العربية السعودية «للحيلولة دون انفجار الوضع في المنطقة»، متهمة بغداد بتقديم الذريعة للاميركيين لارسال قواتهم إلى المنطقة، محتفظة في الوقت نفسه بلهجة فيها الكثير من الاعتدال، وتاركةً للمنظمات الفلسطينية العاملة على ارضها حرية التهجم والتحريض على الوجود العسكري الاميركي في المنطقة العربية ودعم العراق. وقدّم قادة البعث في سورية صيغًا مبسّطة للازمة لكنها حقيقية وفعّالة: «القوات الاجنبية لن تنسحب من المنطقة إلا إذا اعتمد العرب اجراءات فعالة تنتزع من هذه القوات كل ذريعة للاصطياد في الماء العكر» (راديو دمشق، ٢٧ آب ١٩٩٠). والرئيس الأسد قال: «لنعثر نحن على الحل لمشكلاتنا فتنسحب القوات الأجنبية من الخليج» (١٢ ايلول ١٩٩٠).

وتوقعت سورية ان المنطقة مقبلة على نزاع حتمي، فأخذت توثق علاقاتها بالمصريين والايرانيين. فدعمت عودة مقر الجامعة العربية إلى مصر في اقرب وقت ممكن، وزار الأسد الجمهورية الاسلامية في ايران (٢٢ ايلول ١٩٩٠) حيث اعلن البلدان عن «اتفاق شامل» بينهما لادانة الغزو العراقي وإقامة «نظام أمني إقليمي».

«في ١٤ ايلول ١٩٩٠، زار وزير الخارجية الاميركي جيمس بايكر دمشق. واثناء محادثاته مع الأسد التي وصفت بـ«المعمقة جدًا»، حدّد الأسد بدقة بعض النقاط: ليس هناك من مجال للكلام على أي تحالف سوري-اميركي ضد العراق. وفيما تبقى فإن سورية تلتزم احترام قرارات الامم المتحدة (...) وفي طريق عودته من زيارة السعودية، عرّج الرئيس الاميركي جورج بوش على جنيف حيث التقى الرئيس الأسد. وقد أظهر هذا اللقاء أهمية «الورقة السورية» في الاستراتيجية الاميركية. وقد أكد الرئيس الاميركي للرئيس السوري رغبته في الانكباب جديًا على حل النزاع العربي-الاسرائيلي. وبالنسبة إلى لبنان، اتفق الرئيسان على اعتبار الحل في اتفاقيات الطائف» (بيار غينغمب، المرجع المذكور، بالفرنسية، ص٣١٧-٣١٨).

وبعد ان طلبت سورية من صدام حسين الانصياع لقرارات الامم المتحدة القاضية بانسحاب جيشه من الكويت لتجنيب «الامة العربية مخاطر حرب مدمرة»، أعلمت الاميركيين، على لسان وزير الخارجية فاروق الشرع، انه إذا تدخلت اسرائيل في النزاع، حتى ولو في حال الرد على عدوان، فستغير سورية موقفها.

في ١٧ كانون الثاني ١٩٩١، اطلقت الغارات الجوية الاولى على العراق... وبعد خمسة اسابيع من القصف الجوي المتواصل، بدأ صدام حسين سحب قواته من الكويت في ٢٦ شباط ١٩٩١. وكان التوتر في المنطقة يبلغ أوجه. وخرج العراق منهكًا وخارج دائرة الفعل المؤثر في مجريات احداث المنطقة، بما فيها أحداث المناطق الكردية في العراق التي اندلعت مباشرة فور انتهاء الحرب والتي أقلقت، جراء المبادرات والتدخلات الاميركية والبريطانية والفرنسية والروسية هناك، العواصم الثلاث دمشق وأنقرة وطهران التي دخلت

في مشاورات إزاءها.

على المسرح العربي، حاولت سورية ومصر إنشاء قوة لحفظ السلام في الخليج تبعًا لما اتفق عليه في اتفاق دمشق (٥ آذار ١٩٩١). فسارعت الكويت وأعلنت عن استقبالها لقوات اميركية فقط لأمنها. ولم ترَ قوة حفظ السلام المقترحة النور، ولكن الاتصال الوثيق استمر بين دمشق والقاهرة. فكانت وجهتا نظر الرئيسين، الأسد ومبارك، حول الموقف من العراق، موحدتين. فإذا كان الرئيسان يضغطان على صدام حسين للامتثال لقرارات الامم المتحدة لإنهاء الحظر المفروض على العراق، فإنهما يدينان في الوقت نفسه سياسة واشنطن التي تغافلت عن مبادىء المساواة في تعاملها مع العراق قياسًا على تعاملها مع اسرائيل بصورة شديدة الوضوح والنفور والمهانة.

غيّر الملك حسين فجأة موقفه المعتدل من صدام حسين، ومنح (١٠ آب ١٩٩٥) حق اللجوء السياسي لصهري صدام (حسين كمال حسن وصدام كمال حسين) الفارين من العراق. فرأت دمشق في هذا الموقف امتثالاً من الملك لارادة الولايات المتحدة، فاتهمه البعث في سورية بالسعي لاقامة نظام ذي نزعة هاشمية، يعمل على عقد معاهدة سلام مع اسرائيل على غرار ما فعله الاردن. وقد أقلق هذا الامر مصر والعربية السعودية إضافة إلى سورية. ولم يتمكن الضابطان من نيل ثقة المعارضة العراقية، وطلبا العودة إلى العراق، وفي يوم عودتهما لقيا مصرعهما. وكان الملك حسين قد دعي لزيارة الرياض (١٢ شباط ١٩٩٦)، حيث جرى الكلام على إتمام مصالحة هاشمية-سعودية، وعلى وقف الاردن لمبادراته حول مستقبل العراق. ما اعتبر ضربة للاستراتيجية الاميركية طمأنت سورية التي بدأت تعتقد ان بقاء صدام حسين في السلطة أقل الحلول سوءًا. فأقامت دمشق حدًّا أدنى من العلاقة مع بغداد خصوصًا لجهة المشاورات، على مستوى الخبراء، حول الموقف الواجب اتخاذه إزاء تركيا في مسألة توزيع مياه الفرات. وجاء تعنت الولايات المتحدة في عدائها للعراق واندفاعها غير المحدود ضده، ليجعل الأسد عاملاً بنشاط على حماية مواقعه من الغرب، مقوّيًا من علاقاته مع مصر ومدعّمًا وجوده في لبنان.

تسوية الوضع وضبطه في لبنان: لم يحرك الأسد ساكنًا عندما أعلن العماد ميشال عون نفسه «رئيس لبنان الحر» في ٧ تشرين الثاني ١٩٨٩، أي بعد اسبوعين من توقيع اتفاق الطائف ومعتبرًا الرئيس الهراوي (الذي انتخب رئيسًا للجمهورية بعد اغتيال الرئيس رينيه معوض) مجرد «عميل لدمشق».

«ارتأى حافظ الأسد ان عملية عسكرية قد تضر بمصالحه في الظروف الحالية. فترك في يد الفرقاء اللبنانيين مسألة توضيح الوضع بأنفسهم في مرحلة أولى، وهو الحريص على تكتيكه الذي خبر صلاحيته مرات عدة؛ ولم تزعجه بالطبع رؤيته الفريق المسيحي وقد اصبح ناضجًا للاقتتال. والعماد عون ليس الرجل الذي يقبل باقتسام السلطة. فقرر حل الميليشيات المسيحية (القوات اللبنانية، بقيادة سمير جعجع) ونزع سلاحها. فاغتاظت القوات اللبنانية، وبدأت المعارك (بين الفريقين المسيحيين، عون وجعجع) في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٠. المأزق السياسي مطبق. نحو ٢٠٠ ألف مسيحي يفرون إلى المناطق الاسلامية. الولايات المتحدة تحمّل عون المسؤولية، والرئيس الهراوي يستعجل سورية التدخل، والأسد عند موقفه؛ إذ إن هذا الاقتتال بين الأشقاء المعادين، تقليديًا، للوجود السوري، من حقه ان يضعفهم. وبعد ستة أشهر من المعارك بينهم، ومن غير تدخل أو مبادرة من سورية، وجد الجيب المسيحي المعزول نفسه مخربًا. وكان الأسد يحرص على

القـول لـلرئيس اللبنـاني ان المسـألة، مهمـا كـانت مدعاة للأسف، يجب ان لا تحول دون البدء بتنفيـذ اتفاقيـات الطـائف.... وبـالفعل، اقـترع البرلمـان اللبناني علـى التعديـلات الدسـتورية، وهـي الأولى منـذ ١٩٤٣... ووقعهـا الهـراوي في ٢١ ايلـول ١٩٩٠، فولدت معها الجمهوريـة اللبنانيـة الثانيـة. أما عون، المحصّـن في جيـب لا يتعـدى ٢٦٧ كلـم م.، فقد رفض كل هذه الاجراءات واستعد لمقاومة الجيش اللبناني (وكان هو نفسه يقود، داخل جيبه، فريقًـا مـن هـذا الجيـش) الـذي بـدأ في ٢٨ ايلـول ١٩٩٠، بفـرض حصـار علـى الجيـب المسـيحي. دمشق لا تزال تلتزم الصمت، وسـلطاتها منهمكـة بالازمة الدولية الناشئة عن الغزو العراقي للكويـت. واقتراح بغداد مناقشة «كل الاحتلالات» في مؤتمر دولي لم يُعجب دمشق ولا واشـنطن. إذ مـا الـذي يدعو طرح المسألة اللبنانية في مؤتمـر دولي طالما ان الحل يـأخذ مجراه في «إطـار اتفاقيـات الطـائف»؟ ولقـد أكـد جيمـس بـايكر للأسـد ان الولايـات المتحدة ليس عندها أي شيء يخـالف هـذا المنطـق. وبعد ايام قليلـة، تحركـت القـوات السـورية باتجـاه الجيب المسيحي، وانتقلت إلىالهجوم في ١٣ تشرين الاول ١٩٩٠، يدعمها الطيران. وبعد ساعات من بـدء المعـارك، أعلـن عــون الاستسـلام ولجـأ إلى السـفارة الفرنسـية (...) وإذا بـدت السياسـة السورية مصممة هذه المرة أكثر من أي مرة سابقة، فلأن الأسد اعتبر ان ازمة الخليـج أوجـدت مناخًـا اقليميًا ودوليًـا مؤاتيًـا لتشـديد النظـام السـوري في لبنان. فليس هناك، إذًا، من وقت، لاضاعتـه. فقـام عبد الحليم خـدام، نـائب الرئيـس السـوري، وبـدأ خطة إعـادة إقامـة المؤسسـات الشـرعية (...) وفي ٢٠ آذار ١٩٩١، اجتمعـت الحكومــة اللبنانيــة وأقـرت مبـدأ حـل الميليشـيات الـتي اصبـح عليهـا تسليم اسلحتها الثقيلة والمتوسطة في مهلـة اقصاهـا ٣٠ نيسـان ١٩٩١. ومثـل هــذه المهمـة ليسـت بالمسألة الهينة، فكان على رئيس الاركان السـوري نفسه، حكمت الشهابي، السهر على تنفيذها(...) وفي قصر الشـعب، في دمشـق، وقّـع الرئيسـان السوري واللبنـاني، في ٢٢ ايـار ١٩٩١، معـاهدة أخـوة وتعـاون وتضـامن (...) ولاحـظ وزيـر الخارجية السوري فاروق الشـرع انهـا المرة الاولى التي تعترف فيها سورية بالدولة اللبنانيـة، مـا ذكّـر بتصريـح شـهير لـلرئيس الأسـد (٩ تشـرين الاول ١٩٩٠) يقـول فيـه: «لبنـان وسـورية امـة واحـدة وشعب واحد. ولكن هل هما دولتـان؟ انـي أول قـائد سـوري أجيـب بـ نعـم، ومـن منطلـق مسـؤولياتي، علـى هـذا السـؤال» (...) (ب. غينغمب، المرجع المذكـور، بالفرنسية، ص٣٢١-٣٢٦).

مؤتمر السلام الـدولي: «في كـانون الثـاني ١٩٩٠، أخـذت الصحافـة السـورية تلـح علـى ضـرورة ان يتكيـف العـالم العربـي مـع «الوضـع الـدولي الجديـد». إنهـا لغـة سياسـية جديـدة في دمشق. فهل ان البعث عاكف على تحضير الشعب لنوع من مراجعة المبادىء القديمة التي كانت تحـرّك السياسـة السـورية في كـل مـا يتعلـق بفلسـطين واسرائيل والعلاقات الدولية؟ وإذا كانت هذه هـي الحال فما هي الوقائع التي دفعت الرئيـس السـوري إلى مثل هـذا التطور؟» (ب. غينغمـب، المرجـع المذكور، ص٣٢٧).

مجمل احداث السنوات الأخيرة، في المنطقة والعـالم، جـاءت بتطـورات إنقلابيـة دراماتيكيـة بالنسبة إلى ما اعتادت عليـه سورية، لغـة سياسـية وممارسـةً سياسية وفكرًا سياسيًا منـذ اسـتقلالها وخاصـة في الخمسينات والستينات والسـبعينات حتى اواسط الثمانينات، مثل هذه التطورات:

- إعـادة الحـوار بـين الاتحـاد السـوفياتي واسـرائيل (تمـوز ١٩٨٥) الـذي أدّى، بعـد ٤ سنوات، إلى هجرة اليهود السوفيات. ولدفع هؤلاء باتجـاه اسـرائيل وليـس الولايـات المتحـدة أو أي

مكان آخر، عدّلت الادارة الاميركية من أنظمتها المتعلقة بالهجرة إليها، فأدانت سورية «التواطؤ الاميركي-السوفياتي». وحاول الأسد، في زيارته لموسكو (٢٨ نيسان ١٩٩٠) إنقاذ ما يمكن إنقاذه نتيجة هذا التعاون بين الدولتين.

– كثافة الاتصالات، الرسمية والسرية، بين عرب واسرائيليين، وخاصة بين فلسطينيين واسرائيليين. ففي ١٦ حزيران ١٩٨٨، صرّح بسام ابو شريف، احد المقربين من ياسر عرفات، بقوله: «إن مفتاح حل الازمة متعلق بمفاوضات مباشرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين. وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٨، قرر المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في الجزائر قبوله القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ واعلان دولة فلسطين واعتبار «القدس الشريف» عاصمة لها. وفي حين كانت ردود الفعل العربية مشجعة لهذه الخطوات الفلسطينية، رأى البعث السوري (وإعلامه وسياسته) ان لا يكون ناطقًا باسم الفلسطينيين أو وصيًا عليهم مع ابدائه الكثير من الشكوك حول مسار قادتهم. وبدت سورية عاجزة عن إيقاف المبادرات الدبلوماسية المتلاحقة لياسر عرفات عند حد. وفي كانون الاول ١٩٨٨، أعلنت منظمة التحرير عن إدانتها «الارهاب»، والتزمت بصورة نهائية الحوار مع الولايات المتحدة.

– في ١٩٩٠، تسارعت الاحداث المناقضة للمصالح السورية: نقض الاتحاد السوفياتي لكل تعهداته «السورية والعربية» السابقة، التدخل المتزايد والضاغط للولايات المتحدة في المنطقة، المبادرات الفلسطينية المتلاحقة من جانب واحد، وتفاقم الازمة الاقتصادية في الداخل.

«أدرك حافظ الأسد ان الوضع خطير إلى درجة انه نادرًا ما بلغ مثل هذا الحد من الخطورة سابقًا، وان عليه، تاليًا، تليين موقفه. وفي ١٨ آذار ١٩٩٠، زار الرئيس الاسبق للولايات المتحدة، كارتر، دمشق، وصرّح عقب محادثاته مع الأسد ان مضيفه سمح له ان يقول بأن سورية على استعداد لـ«محادثات ثنائية» مع اسرائيل!! و لم يجر هناك من ردود فعل رسمية تؤكد أو تنفي هذا التصريح» (ب. غينغمب، المرجع المذكور، ص٣٢٨). وأثناء زيارة بايكر لدمشق (١٤ ايلول ١٩٩٠) افهمه الأسد ان حسن النية العربية لا يمكن تصورها دون التزام الاميركيين بتنفيذ قرارات الامم المتحدة والدعوة إلى مؤتمر دولي. وبعد لقائه الرئيس بوش في جنيف (٢٣ تشرين الثاني ١٩٩٠)، جمع الأسد الجبهة الوطنية التقدمية واعلن امامها ان الرئيس الاميركي أكّد له التزامه السير في حل القضية الفلسطينية مباشرة في اعقاب حل ازمة الخليج.

– جاء قطع دول الخليج مساعداتها عن منظمة التحرير لوقوف رئيسها إلى جانب صدام حسين في الحرب، واغتيال أبو إياد، الرجل الثاني في المنظمة (١٤ كانون الثاني ١٩٩١)، وبروز حماس في الاراضي المحتلة، لتشكل جميعًا ضربة كبرى لموقع عرفات، ولمنظمة التحرير التي اصبحت معزولة وضعيفة وعلى حافة الانهيار؛ وأصبح عرفات في موقع المطالب بالحفاظ على نفوذه وشرعيته مقابل التزامه النهائي في مفاوضات السلام.

– بدأ الاميركيون، في شباط ١٩٩١، مناوراتهم الدبلوماسية حول السلام، فقدموا مشروع مؤتمر دولي ترعاه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ويشكل اطارًا لمحادثات ثنائية. حاز هذا المشروع على موافقة مبدئية من اسرائيل ومصر والاردن (نيسان ١٩٩١)؛ وعارضه الأسد على اساس ان سورية تعمل لسلام شامل: «لا سلام منفصل مع اسرائيل ولا سلام منفصل بين اسرائيل والفلسطينيين». على حد تعبير وزير الخارجية السوري فاروق الشرع.

استمرت واشنطن في اندفاعها وقدم وزير خارجيتها، بايكر، مقترحات جديدة مستندة هذه المرة على قرارات الامم المتحدة وهادفة إلى السلام

الشامل، وذلك بعد ان وجه انتقادات عنيفة لاستمرار المستوطنات في الاراضي المحتلة. فوصف الأسد هذه المبادرات الاميركية (١٤ تموز ١٩٩١) بـ«الايجابية والمتوازنة». وفي ٣٠ تموز ١٩٩١، التقى بوش وغورباتشوف في موسكو، واعلنا عن التزامهما المتبادل لتشجيع السلام والمصالحة بين الدول العربية، اسرائيل والفلسطينيين، ولاحظا ان هناك فرصة تاريخية لذلك يجب عدم تفويتها، وقررا الدعوة إلى مؤتمر دولي حول الشرق الاوسط في اول تشرين الاول ١٩٩١. وقبل حلول هذا الموعد، أي في ١٨ و١٩ ايلول، التقى بايكر الأسد، وتباحث معه على مدى ١٨ ساعة. وكانت النتيجة ان سورية ستشارك في المؤتمر، ولكن ليس في المفاوضات المتعددة الاطراف (خاصة وان اعمال المؤتمر لا تفرد أي دور للامم المتحدة)، ولن تدخل هذه المفاوضات، كما أكد الرئيس الأسد، إلا عندما تؤدي الاتصالات الثنائية إلى نتائج.

– في ٣٠ تشرين الاول ١٩٩١، افتتح «مؤتمر السلام الدولي» في مدريد برئاسة (ورعاية) مشتركة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وفي جلسة الافتتاح، ألقى الشرع خطابًا كان أهم كلمات الجلسة، التي في نهايتها، ردّ الشرع بعنف على أسحق شامير رئيس وزراء اسرائيل الذي اعتبر ان اصل النزاع ليس الاراضي المحتلة بل رفض العرب شرعية وجود اسرائيل، متهمًا سورية بأنها «أكثر الأنظمة قمعًا في العالم». ومن رد الشرع انه بدأ بإظهار صورة لاسحق شامير تبيّن انه مطلوب لـ«اعمال ارهابية»، وأكد ان «السلام واغتصاب اراضي الآخرين شيئان متناقضان»، وان «السلام إذا ما أريد له ان يكون ثابتًا ودائمًا يجب ان يشمل كل اطراف النزاع وعلى كل الجبهات»، وان سورية تطالب بانسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة و«تحقيق الحقوق الوطنية والسياسية المشروعة للشعب الفلسطيني بدءًا بحقه في تقرير مصيره».

ومهما يكن من امر فإن مؤتمر السلام الدولي في مدريد أعطى اشارة الانطلاق، رسميًا، للمناقشات الثنائية بين العرب والاسرائيليين.

المفاوضات السورية–الاسرائيلية: وجد السوريون والاسرائيليون أنفسهم، إذًا، يجلسون على طاولة مفاوضات للمرة الاولى منذ هدنة ١٩٤٩. لكن لقاءاتهم الثنائية لم تحقق تقدمًا رغم الجهود الاميركية؛ والعائق الأهم تمثل في قرار اسرائيل (الذي أدانه مجلس الامن في ٦ شباط ١٩٩٢) طرد الفلسطينيين وتكثيف اقامة المستوطنات اليهودية في الاراضي العربية المحتلة. وبدا للعالم ان انفراجًا يمكن ان يحدث إذا ما تغيرت الحكومة الاسرائيلية نتيجة لانتخابات ربيع ١٩٩٢.

نجح حزب العمل في هذه الانتخابات، واصبح إسحق رابين رئيسًا للوزراء (٢٣ حزيران ١٩٩٢)؛ ومما بادر إليه انه قرر تجميد «المستوطنات السياسية» مع احتفاظه بـ«المستوطنات الاستراتيجية». ودارت الجولة السادسة من المفاوضات (٢٤ آب–٢٥ ايلول ١٩٩٢) في جو خفّ فيه التوتر؛ وصرّح إيتامار رابينوفيتش رئيس الوفد الاسرائيلي (خبير في القضايا السورية) بقوله: «إننا نعتبر ان القرار ٢٤٢ يجري تطبيقه في مفاوضات السلام بين سورية وبيننا». وفي المقابل، تصدى موفق علاف رئيس الوفد السوري، وللمرة الاولى، لموضوع توقيع السلام مع اسرائيل مقابل استرداد جميع الاراضي المحتلة (٣ ايلول ١٩٩٢).

استقبلت دمشق ياسر عرفات والملك حسين ووزراء الخارجية العرب. فكانت مناسبة للأسد ليعيد تمسكه بضرورة وقف العرب صفًا واحدًا في المفاوضات. لكن منظمة التحرير استمرت ماضية في اتصالاتها الثنائية، السرية ——

الرئيسان الأسد وكلينتون في لقائهما في جنيف (كانون الثاني ١٩٩٤) وبدا الى جانب كلينتون وزير خارجيته كريستوفر ومنسق السياسة الاميركية في الشرق الأوسط روس، والى جانب الرئيس الأسد وزير خارجيته فاروق الشرع.

الرئيسان الأسد وكلينتون في مطار دمشق (٢٧ تشرين الاول ١٩٩٤).

والعلنية، التي شجعت على اتفاقات منفصلة. ما دعا عددًا من المنظمات الفلسطينية في دمشق (الجبهة الشعبية، حماس، الجهاد الاسلامي...) إلى تشكيل «جبهة رفض» (تشرين الاول ١٩٩٢)، في وقت طردت فيه اسرائيل إلى لبنان ٤١٥ ناشطًا اسلاميًا فلسطينيًا، وأعلنت في صحافتها عن قيام مفاوضات سرية بينها وبين «قيادة منظمة التحرير» (١٢ تموز ١٩٩٣)؛ وأكدّ عرفات هذه المعلومات، فأخذت الاحداث تتسارع: في ٢٦ آب ١٩٩٣، أعلنت اسرائيل عن استعدادها اعادة غزة وأريحا إلى الفلسطينيين ليقيموا عليهما حكومة مستقلة ذاتيًا (وليس دولة)؛ وبعد اسبوعين، باشر الفلسطينيون واسرائيل إجراءات الاعتراف المتبادل؛ وفي ١٣ ايلول ١٩٩٣، وقّع الطرفان إعلان مبادىء ترتيبات الحكم الذاتي بضمانة من الولايات المتحدة وروسيا، حيث يصار إلى تنفيذه في مدة خمس سنوات على الاراضي المحتلة، ويبدأ تطبيقه في مرحلة أولى في غزة وأريحا. وكان هذا الاتفاق قد بدأ البحث فيه من خلال اجتماعات سرية بين الفلسطينيين والاسرائيليين منذ كانون الثاني ١٩٩٣ في أوسلو.

تناول الاميركيون هذا الاتفاق على اساس انه «اختراق اساسي». وفي العالم العربي، وحدها مصر وبلدان الخليج رحبت بالاتفاق، في حين رفض السوريون واللبنانيون والاردنيون ان يُوضعوا امام الامر الواقع. و لم يقتنع الأسد بالذرائع التي قدمها عرفات في اجتماع بينهما، في دمشق (٥ ايلول ١٩٩٣) استمر ست ساعات حول اتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني، إذ كيف يمكن الكلام على مثل هذا الحكم واسرائيل تصادر ٦٥٪ من اراضي الضفة الغربية و٤٥٪ من اراضي غزة؟

في ١٦ كانون الثاني ١٩٩٤، التقى الرئيسان، الاميركي كلينتون والسوري الأسد في جنيف. وبعد اجتماع بينهما دام أربع ساعات ونصف الساعة وُصف بالبالغ الاهمية، عقد الرئيسان مؤتمرًا صحافيًا اظهر تفاؤلاً اميركيًا وتحفظًا سوريًا. وفي حين أبدى الأسد بعض الاطمئنان لاستمرار الولايات المتحدة في التزامها خيار السلام، وأشرفت المفاوضات الثنائية على الاستئناف، وقعت مجزرة الخليل (٢٥ شباط ١٩٩٤) على يد مستوطن يهودي قتل ٢٩ فلسطينيًا.وعلى الفور، انسحبت الوفود السورية واللبنانية والاردنية، فيما استمر عرفات في طريقه ووقع اتفاقًا جديدًا (القاهرة، ٤ ايار ١٩٩٤) حول نقل السلطة إلى غزة وأريحا. فكان هذا الاتفاق بمثابة «محمية تحت السيطرة الصهيونية» بنظر البعث، و«خيانة جديدة» بنظر منظمات جبهة الرفض الفلسطينية. وادار عرفات ظهره لهذه الانتقادات، وغادر تونس (١١ تموز ١٩٩٤)، حيث كان يقيم مع منظمة التحرير منذ ١١ سنة، متوجهًا إلى غزة ليقيم فيها «السلطة الفلسطينية».

المصافحة، التي أحيطت بهالة اعلامية كبرى، بين رابين والحسين (٢٥ تموز ١٩٩٤) جاءت لتعلن عن اتفاق سلام وشيك بين اسرائيل والاردن، وتاليًا، عن ضربة أخرى تسدّد للرفض السوري. وبذل كلينتون جهودًا لطمأنة الأسد عن ان إنهاء حال العداء بين اسرائيل والاردن «فرصة للذهاب إلى الامام». و لم يكن هذا رأي الأسد، إذ إن «الحلول المنفصلة، ومهما كانت مبرراتها، تضعف العالم العربي وتجبره على الخضوع لشروط اسرائيل» (صحيفة «تشرين»، ٢٧ تموز ١٩٩٤). وفي كلامه الموجه إلى الجيش السوري، قال الأسد: «نقض البعض التضامن العربي والموقف الموحد، وعليهم ان يتحملوا مسؤولية هذا الوضع امام شعبهم والشعوب العربية». ووقعت المعاهدة الاسرائيلية-الاردنية (١٧ تشرين الاول ١٩٩٤) متضمنة ترتيبات اقليمية رفضها الرئيس السوري بقوة متهمًا الملك حسين بـ«انتهاك الحرمات». وكتبت جريدة «البعث» بأن سورية «ستدافع عن حقوقها ولن تتنازل عن شبر واحد من اراضيها

الوطنية». فكانت هذه الانتقادات والتهديدات، في الحقيقة، وفي تلك الظروف، الحد الاقصى الذي كان بامكان سورية ان تقدم عليه بعد ان فشلت (أو أُفشلت) في الحفاظ على وحدة الصف العربي. وها قد اصبحت مستفردة (ومعها لبنان) في مواجهة الاسرائيليين والاميركيين.

سعى الأسد لكسب دعم مصر والعربية السعودية. وفي قمة مستعجلة ضمته والرئيس مبارك والملك فهد في الاسكندرية (٢٨-٢٩ كانون الاول ١٩٩٤)، قدّم حصيلة ما أسفرت عنه عملية السلام منذ قبل ثلاث سنوات (أي منذ مؤتمر مدريد) مدعّمًا إياها بالوقائع التي تثبت ان العالم العربي مسؤول عن هذا الضعف الذي أوقع نفسه فيه، وانه (الأسد) لا يزال مقتنعًا بأن الاسرائيليين لم ولن يكون بنيتهم اطلاقًا احترام اتفاقاتهم الموقعة مع منظمة التحرير، إذ إن تعنتهم في موضوعات المياه والقدس خير دليل على ذلك. ووافقه الملك فهد والرئيس مبارك: لن يكون هناك سلام عن طريق العجلة ولا بأي ثمن. وبعد هذه القمة، أخذت بلدان الخليج، والاردن، تخفف من اندفاعها باتجاه اسرائيل وتبدي بعض الصمود في وجه ضغوطات واشنطن.

جاءت احداث الشهور الاولى من ١٩٩٥ لتؤكد نظرة سورية التشاؤمية لمجريات «السلام». فالفيتو الاميركي على قرار الامم المتحدة إدانة اسرائيل والطلب منها إلغاء مصادرة الاراضي في القدس (١٧ ايار ١٩٩٥) صعق العالم العربي، ثم اضافت واشنطن على ذلك قرارها إعفاء اسرائيل من احكام معاهدة عدم الانتشار النووي. ومع ذلك، استمرت عملية الحكم الذاتي الفلسطيني، واخلى الجيش الاسرائيلي، في اواخر ١٩٩٥، سبع مدن في الضفة الغربية وفقًا لاتفاقات طابا الموقعة في ٢٤ ايلول ١٩٩٥. وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٦، انتخب فلسطينيو الاراضي المحتلة (١،٢ مليون نسمة) ياسر عرفات رئيسًا لمجلس الحكم الذاتي، وكانت هذه الانتخابات هزيمة لجبهة الرفض الفلسطينية التي دعت إلى مقاطعتها، وخطوة إضافية باتجاه «دولة فلسطينية».

وعلى خط مناقض لهجمة «السلام» هذه كانت المفاوضات السورية الاسرائيلية مجمّدة وفي مأزق حقيقي منذ قبل نحو سنتين. لكن منذ اواخر ١٩٩٤، بدأت تظهر إشارات لتذويب الجليد. فأثناء زيارة الرئيس كلينتون لدمشق (٢٧ تشرين الثاني ١٩٩٤)، صاغ الرئيس الأسد بدقة موقف بلاده، إذ قال: «أعلمتُ الرئيس عن عزم سورية احترام متطلبات السلام باقامة علاقات سلمية طبيعية مع اسرائيل مقابل انسحابها الشامل من الجولان حتى خطوط ٤ حزيران ١٩٦٧ ومن جنوبي لبنان».

«هل هناك اتصالات سرية بين سورية واسرائيل؟ الصحافة الصهيونية تشير إليه بانتظام، لكن سورية تكذبه بصورة منهجية. وفي الواقع، قبلت سورية باجراء اتصالات مع الاسرائيليين على هامش المفاوضات الرسمية لكن بشرط ان تجري بحضور الاميركيين. ففي ٢٢ كانون الاول ١٩٩٤، التقى رئيس الاركان السوري حكمت الشهابي، في واشنطن، الجنرال إيهود باراك لمناقشة ترتيبات أمنية على طول الجبهة بين البلدين. وكان الاجتماع قصيرًا، إذ اعتبر السوريون مقترحات الاسرائيليين «غير مقبولة»، وهي تقضي بأن يكون لكل كلم م. واحد منزوع السلاح من جهتهم ٩كلم م. من الجهة السورية. وهضبة الجولان هذه، التي احتلها الاسرائيليون في ١٩٦٧ وضموها في ١٩٩١، أصبحت بالنسبة إلى السوريين رمز المقاومة ضد توسع الدولة الصهيونية. وسكانها البالغ عددهم ١٦٥٠٠ نسمة الذين بقوا فيها ورفضوا الجنسية الاسرائيلية ما فتئوا يعلنون تعلقهم بوطنهم سورية من خلال اضرابات ومظاهرات واحتفالات سنوية. والأهمية الاستراتيجية لهذه الهضبة ذات المساحة ١٦٧٥كلم م.، المشرفة على

الرئيس الأسد مرحباً بالرئيس الفرنسي جاك شيراك في دمشق (٢٠ تشرين الاول ١٩٩٦).

بحيرة طبريا ومصدر عدة روافد لنهر الاردن، تفسّر ايضًا رغبة سورية في استعادة كامل اراضيها» (المرجع المذكور، أي P. Guingamp, «Hafez El Assad et le Parti Baath en Syrie», p.334).

وضاعف الاميركيون جهودهم لإعادة الحوار السوري-الاسرائيلي. ففي ١٢ حزيران ١٩٩٥، رشح عن الرئيس الاسرائيلي عازر وايزمن ان الحكومة الاسرائيلية تدرس انسحابًا «حتى الحدود الدولية» التي تصل إلى ضفاف نهر الاردن وبحيرة طبريا. ومن جهتها، خرجت من دمشق إشارات تعرب عن قبول بـ«عدم تماثل جغرافي» في ما يتصل بترتيبات أمنية معينة على الحدود، أي نزع سلاح على شريط حدودي للجهة السورية أوسع من الشريط القائم من الجهة الاسرائيلية. فبدا استئناف المسار التفاوضي أقرب منالاً، وبدأت في واشنطن (٢٧ حزيران ١٩٩٥) محادثات بين حكمت الشهابي وأمنون شاحاك.

ورفضت سورية مطلب اسرائيل القاضي باقامة محطات إنذار اسرائيلية في الجولان، ثم اشترطت لقبوله ان «يتم تشغيل هذه المحطات من قبل قوات دولية أو صديقة». وعاد كل شيء إلى نقطة البداية، وحمّلت سورية الولايات المتحدة مسؤولية وقوفها إلى جانب اسرائيل اكثر من كونها وسيطًا، واصبحت على قناعة تامة بأن الرجلين، كلينتون ورابين اتفقا على تجميد كل تقدم في المحادثات بانتظار نتائج انتخابات ١٩٩٦ في البلدين، اسرائيل والولايات المتحدة. وفاجأت العالم أحداث دراماتيكية في اسرائيل.

المأزق: «إتفاق الإثم»، بهذا الإسم نعت اليهود المتطرفون الاصوليون الاتفاق الاسرائيلي-الفلسطيني حول توسيع الحكم الذاتي الموقع في واشنطن في ٢٨ ايلول ١٩٩٥، ثم راحوا يزيدون من معارضتهم للحكومة الاسرائيلية ويضغطون

الرئيس الأسد بين الأمير عبد الله والرئيس مبارك (حزيران ١٩٩٦).

عليها لالغائه. رئيس الحكومة، اسحق رابين، استنكر أعمال «اللوبي اليهودي الاميركي» الداعم للمتطرفين اليهود والمعرقل للسلام. وبلغ التوتر أوجه في اسرائيل عندما اغتيل رابين على يد متطرف يهودي في ٤ تشرين الثاني ١٩٩٥. وبعد ايام، أسمعت سورية كلامًا يفيد عن استعدادها لاستئناف المفاوضات ما إن يصبح قادة اسرائيل «على استعداد للتفاوض على قاعدة قرارات الامم المتحدة».

اعترف رئيس الوزراء الاسرائيلي الجديد شيمون بيريز بالدور-المفتاح لسورية في المنطقة، ودعا إلى شراكة اقليمية وتمنى العودة إلى مفاوضات دون شروط مسبقة، معيدًا التأكيد على دور الولايات المتحدة الأساسي؛ وقال: «ان السلام مع دمشق يجب ان يكون شاملاً ويجب ان يعني السلام لكل الشرق الاوسط». ووافق الأسد على استئناف المفاوضات وعهد بها إلى سفيره في الولايات المتحدة وليد المعلم. والتقى الوفدان السوري والاسرائيلي قرب واشنطن (٢٧ كانون الاول ١٩٩٥) لاجراء سلسلة من المحادثات في إطار من السرية. وبعد اسبوعين، زار وزير الخارجية الاميركي وارن كريستوفر دمشق حيث أبدى تفاؤله بتأكيده «اجتياز عتبة مهمة» على طريق السلام. لكن جريدة «البعث» رفضت، في اليوم نفسه، «المحاولات الاسرائيلية للحصول من سورية على أمور بعيدة عن القواعد المتفق عليها وعن قرارات الامم المتحدة». واستمر الأسد على موقفه: لا مجال لحرق المراحل بطرح مواضيع التعاون الاقتصادي بين سورية واسرائيل؛ فهذه النقطة، ومثيلاتها، لا يمكن طرحها إلا بعد الانسحاب الاسرائيلي من الجولان ومن جنوبي لبنان. وبعد نحو شهر وسلسلة ثانية من المحادثات، اعترف كريستوفر باستمرار «وجود خلافات عميقة»، فدلّ ذلك على وجود مأزق حقيقي. وفي ٢٨ شباط ١٩٩٦، عاد المتفاوضون من جديد إلى محادثاتهم، ثم فجأة انسحب الوفد الاسرائيلي بعد يوم واحد، إثر ثلاث عمليات نفذتها «حماس» في اسرائيل، فقررت اسرائيل قطع عملية السلام مع

الفلسطينيين ومع السوريين، وأخذ بيريز على الأسد انه يستضيف في دمشق جبهة الرفض ويدعم حزب الله وحماس. وتمسكت دمشق بموقفها الذي طالما عبّرت عنه: إن عمليات التفجير في جنوبي لبنان كما في فلسطين ليست سوى نتيجة للاحتلال الصهيوني.

بدا الموقف مجمدًا بعد نحو خمسة اعوام من مؤتمر مدريد. وعجزت قمة شرم الشيخ التي عقدت على عجالة في ١٣ آذار ١٩٩٦ عن تقديم حل. وقرر شيمون بيريز عملية حربية في لبنان لاسكات حزب الله وتقوية حكومته قبيل الانتخابات في اسرائيل. وبدأ القصف الاسرائيلي في ١١ نيسان ١٩٩٦ وطاول جميع الاراضي اللبنانية. وبعد عشرة ايام من القصف المتواصل ظهرت اسرائيل عاجزة عن زعزعة تصميم المقاومين، كما ان استهدافها المدنيين (خاصة في قانا الجليل) اثار نقمة عارمة عليها في الرأي العام العالمي. فنشطت الدبلوماسية الفرنسية، ورأت واشنطن نفسها مضطرة للضغط على اسرائيل وجرها إلى مفاوضات. وبدا الدور السوري اساسيًا، مرة جديدة، عندما اجتمع في دمشق (٢٠ نيسان ١٩٩٦) دبلوماسيون فرنسيون واميركيون وروس وايطاليون (كانت ايطاليا ترأس المجموعة الاوروبية) وايرانيون لمناقشة الازمة. ولم تنل مختلف اوجه الضغط أو التحريض أو الاغراء من موقف الأسد، ولم يتردد في تأجيل مقابلة لوزير الخارجية الاميركي معه لأربع وعشرين ساعة في عزّ مفاوضات الازمة. ووقع في الاخير اتفاق وقف النار بين لبنان واسرائيل في ٢٦ نيسان ١٩٩٦، وكانت سورية ضامنة له بمشاركتها في «مجموعة المراقبة» التي ضمت ايضًا الولايات المتحدة وفرنسا ولبنان واسرائيل. وهنا ايضًا كانت الشروط السورية هي الغالبة، بخلاف الرأي الاميركي، وتقضي بأن تتشكل هذه الهيئة من ضباط وأن يكون مقرها لبنان (دعيت «مجموعة المراقبة» وايضًا مجموعة «تفاهم نيسان»)، وعقدت عدة اجتماعات عقب احداث امنية في الجنوب؛ وآخر اجتماع عقدته-في وقت كتابة هذه السطور-في ٧ تموز ١٩٩٧ للنظر في شكويين تقدم بهما لبنان وشكويين تقدمت بهما اسرائيل بعد اشتباكات بالسلاح وتراشق مدفعي).

لم تمكّن العملية العسكرية الاسرائيلية في لبنان بيريز من إقناع الرأي العام الاسرائيلي بالوقوف إلى جانبه في انتخابات ٢٩ ايار ١٩٩٦ التي جاءت باليمين الراديكالي (الليكود) إلى السلطة، وبنيامين نتانياهو رئيسًا للحكومة. فبادر نتانياهو إلى القول بأنه لم يعد واردًا بالنسبة إلى اسرائيل القبول بدولة فلسطينية والتفاوض حول القدس، كما لم يعد واردًا الانسحاب من الجولان، وإذا استؤنفت المفاوضات مع سورية فسيتزامن ذلك مع «تقوية وتنمية» المستوطنات الاسرائيلية في الجولان كما في غيرها من الاراضي المحتلة.

رأت سورية في هذه السياسة الاسرائيلية «اعلان حرب على مسار السلام»، وأجرت اتصالات بمصر والعربية السعودية. وزار الرئيس مبارك والامير عبد الله دمشق (٧ حزيران ١٩٩٦) حيث صدرت الدعوة لعقد قمة عربية. وعقدت القمة في القاهرة (٢٢ حزيران ١٩٩٦)، وهي الأولى منذ حرب الخليج في ١٩٩٠، وحضرتها ١٤ دولة عربية، ودعت إلى استئناف المفاوضات على قاعدة مبادىء المؤتمر الدولي في مدريد، وأكدت على ضرورة التمييز بين الارهاب وبين أعمال مقاومة الاحتلال التي تشكل «حقًا لا يجوز التصرف به».

ونشطت سورية على جبهة اقناع «الاخوة العرب» لاعادة النظر بمبادراتهم الآيلة إلى تطبيع علاقاتهم مع اسرائيل. لكن الامر بدا على غاية من الصعوبة. فمصر والاردن أصبحا في وضع مالي شديد التبعية للولايات المتحدة. وتكاد سورية تكون وحدها في مواجهة استراتيجية اسرائيلية

تعمل على عزلها، والدليل الأسطع على ذلك اقتراح نتانياهو (أول آب ١٩٩٦) الذي وصفته الصحافة السورية بـ«الفخ الفظ»، والذي يقضي بانسحاب اسرائيل من جنوبي لبنان مقابل نزع سلاح حزب الله وتوقيع اتفاق سلام مع بيروت (وهو الاقتراح أو المبادرة التي عرفت بـ«لبنان أولاً»).

أواخر ١٩٩٦-أوائل ١٩٩٧، عقبة كبرى انتصبت في طريق المسار التفاوضي السوري-الاسرائيلي تمثلت بادخال طاقم وزاري واستشاري جديد إلى الادارة الاميركية على رأسه وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت المعروفة بانحيازها السافر إلى اسرائيل وبعدائها العنصري لجميع العرب. وسارع نتانياهو إلى استغلال هذا الوضع لتوسيع مشاريع المستوطنات في الضفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان. كما استغل، في الوقت نفسه، توصله إلى اتفاق «الخليل» (إعادة انتشار) مع السلطة الوطنية الفلسطينية. ومحادثاته مع كلينتون في واشنطن (شباط ١٩٩٧) حيث أعلن عن قبوله «معادلة مدريد» لاظهار رغبته «السلمية» في مقابل «تعنت» سورية (راجع «الجولان» في باب «مدن ومعالم»).

إزاء العراق: قنوات إتصال تخرق قطيعة ممتدة منذ ١٩٨٠: جاءت زيارتا الوفدين العراقيين، التجاري والصحافي، في ١٣ و١٧ حزيران ١٩٩٧، عبر معبر «التنف» الحدودي، واللتين تزامنتا مع جولة نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام إلى الدول الخليجية واليمن والدول العربية الأخرى، ومع العملية العسكرية التركية في شمالي العراق، تتويجًا لسجل هادىء للعلاقات بين الدولتين كان مطموسًا أو خافت الصوت في خضم ضجيج القطيعة والاتهامات المتبادلة منذ ١٩٨٠، وأهم نقاط هذا الاتصال:

- فتحت الحدود مرات عدة في ١٩٩٦ امام خبراء المياه السوريين والعراقيين المتخصصين في بحث موضوع الفرات، وذلك تحت ضغط الحاجة إلى جلب كل منهما «الحليف» الآخر لمواجهة الموقف التركي الضاغط على البلدين والرافض لقسمة مياه الفرات لقناعته انه «نهر عابر للحدود» و«ليس دوليًا»، أو «نهرًا تتشاطأ عليه» الدول الثلاث كما يريد الجانب العربي. وبعدما شكل ملف الفرات نقطة صراع وتبادل اتهامات خصوصًا في ١٩٧٤ بعد استكمال سورية سد الثورة، صار في السنوات الأخيرة نقطة التقاء دائمة بين الجانبين تحت عنوان «الخلاف السياسي لا يمنع الدفاع عن المصالح القومية للبلدين». وقال مسؤولون عراقيون أكثر من مرة إن «ملف المياه في أيدي إخوتنا السوريين ونحن ملتزمون ما يقررونه مع الاتراك».

- في كانون الثاني ١٩٩٧، سمحت دمشق لثلاثة دبلوماسيين عراقيين باستخدام الاراضي السورية للوصول إلى بلادهم بعدما افرجت عنهم السلطات اللبنانية من الاعتقال بتهمة قتل معارض عراقي في ١٩٩٤.

- في مبادرة من مكتبي الرئيسين، حافظ الأسد وصدام حسين، فتحت الحدود في شباط ١٩٩٦ امام موكب زعيم حركة «أمة الاسلام» (في اميركا) لويس فرخان الذي اجتمع إلى كبار المسؤولين السوريين بعدما التقى المسؤولين العراقيين، ودعا إلى «إعادة العلاقات بين الاخوة» في البلدين.

- يبقى ان التطور الابرز حصل في كانون الاول ١٩٩٥ عندما وقّع وفدا خبراء البلدين اتفاقًا لترسيم الحدود في ختام محادثات كانت لجنة فنية تجريها سريًا منذ ١٩٩٢، أدّى إلى تثبيت ٢٢ نقطة حدودية بين الجانبين وفق اتفاق نيو كامبيه للعام ١٩٢٣»، وحصلت سورية بموجبه على بئر نفطي باسم «صفية-٣٩». وفي ٢٢ تموز ١٩٩٧، أعلن أن وفدًا يضم خبراء من وزارة الخارجية السورية

العلم السوري في معرض الادوية في بغداد (تموز ١٩٩٧).

سيغادر إلى بغداد نهاية الشهر الجاري (تموز ١٩٩٧) لـ«استكمال المحادثات المتعلقة بترسيم الحدود». وفي ٢٨ تموز، أعلن في دمشق ان السلطات السورية سمحت للمواطنين بالسفر إلى العراق.

– في إطار اجتماعات لمؤسسات عربية أو دولية، كان مسؤولون عراقيون يزورون دمشق، منهم وزير الاعلام حامد حمادي في اجتماعات وزراء الاعلام العرب. وذلك في سياق ما كان المسؤولون السوريون يحرصون على الاعلان رسميًا بأن حضور العراق ضروري لـ«إحياء التضامن العربي».

– حفاوة السوريين بالفريق الرياضي العراقي القادم إلى بيروت للاشتراك بـ«الدورة العربية الرياضية الثامنة» (ثاني دورة تقام في بيروت بعد نحو ٤٠ سنة على الأولى). لكن الفريق العراقي أجبر على عدم اجتياز الحدود اللبنانية بحجة «حرص السلطات اللبنانية على عدم إفشال الدورة بسبب تحذير الفريق الكويتي بالانسحاب إذا اشترك الفريق العراقي» (تموز ١٩٩٧). وقد جابت باصات الرياضيين العراقيين شوارع دمشق وهي ترفع صور الرئيسين الأسد وصدام. وبعد نحو اسبوعين، رفعت صور الرئيسين كذلك في معرض الادوية السوري في بغداد.

ومن الطبيعي ان تكون المؤسسة الحزبية السورية (البعث) أكثر اللاعبين حماسًا لمزيد من العمل على هدم جدار القطيعة. إلا ان القرار السياسي الرسمي لا يزال يوازن بدقة متناهية أي إجراء يمكن اتخاذه على هذا الصعيد، لحساسيته المفرطة، سوريًا وعراقيًا (تبعًا لتجارب سابقة في التقارب وحتى الاتحاد والوحدة)، وعربيًا (إذ إن بلدانًا عربية، خليجية على وجه الخصوص، لا تزال تناصب العراق الخصومة المفرطة)، ودوليًا (إذ إن أي موضوع متصل بالعلاقة «السورية-العراقية» متصل بالضرورة بموضوعات الأمن والاستراتيجية في المنطقة العربية والشرق الاوسط). من هنا يُفهم لماذا لم تمانع سورية على البيان الختامي لاجتماع وزراء خارجية دول «اعلان دمشق» (اللاذقية، اواخر حزيران ١٩٩٧) الذي طالب العراق بالتزام تنفيذ قرارات مجلس الأمن واطلاق الأسرى والمحتجزين الكويتيين، والتعاون الجاد مع جهود اللجنة الخاصة المكلفة إزالة اسلحة الدمار الشامل العراقية، والامتناع عن أية اعمال استفزازية أو عدوانية على الكويت.

دول «اعلان دمشق»: (إستكمالاً لما ورد في الموسوعة في مادة «الخليج العربي» تحت باب «مجلس التعاون الخليجي» والعنوان الفرعي «اعلان دمشق»، ج٨ ص١٢٦، نورد بعض ما استجدّ في صدده في ضوء اجتماع دول الاعلان في اللاذقية اواخر حزيران ١٩٩٧):

منذ تشكله، في آذار ١٩٩١، عقد هذا التجمع العربي (دول «اعلان دمشق»: دول مجلس التعاون الخليجي ومصر وسورية) ١٥ دورة، بما فيها الدورة الأخيرة، في اللاذقية في اواخر حزيران ١٩٩٧، التي اكتست اهمية استثنائية لأنها اعتبرت بديلاً من مؤتمر قمة عربي شامل تعذّر انعقاده.

الجديد ذكره، بالعودة إلى اعمال اجتماعات هذا التجمع ونتائجها، انه لم يستطع حتى الآن الاتفاق على وثيقة دائمة ونهائية كإطار للعمل المشترك. أما الوثيقة التي وضعها وزراء خارجية الدول الثماني المعنية في نهاية ١٩٩٥ لتحقيق التنسيق بين «دول الاعلان» في المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية فما تزال تنتظر تصديقها من حكومات الدول الاعضاء.

وقد بدت مسألة عقد دورة جديدة (اواخر حزيران ١٩٩٧) لدول الاعلان في غاية الأهمية بالنسبة إلى القيادة السورية تحديدًا، نظرًا إلى الموقف الصعب الذي تواجهه دمشق التي تتوالى عليها الضغوط من مختلف الجبهات، بينما العمل العربي المشترك يعاني من تصدعات تجعله عاجزًا عن خوض أي مواجهة جادة من أي نوع كان. والمثال الابرز على ذلك تعذر إقناع القيادة المصرية، وقيادات عربية أخرى، بعقد قمة عربية شاملة على غرار قمة حزيران ١٩٩٦ لتجديد الالتزامات التي جرى تحديدها في تلك القمة، خصوصًا ما يتعلق بوقف التطبيع مع اسرائيل ما لم تطرأ تطورات ايجابية على صعيد التسوية السلمية (و لم تطرأ هذه التطورات الايجابية، بل على العكس حلت محلها تطورات سلبية). كذلك تعذر اقناع دولة قطر بصرف النظر عن استضافة «مؤتمر التعاون الاقتصادي للشرق الاوسط وشمالي افريقيا» المقرر عقده في الدوحة في تشرين الثاني ١٩٩٧، الذي اعتبر الباعث الرئيسي لقلق دمشق وخشيتها من توالي خطوات التطبيع مع اسرائيل، في الوقت الذي تتمادى فيه الحكومة الاسرائيلية في انتهاك الحقوق العربية.

كل هذا جعل الدبلوماسية السورية تركز اهتمامها على تأمين انعقاد اجتماع وزراء خارجية دول الاعلان الثماني، لا سيما وان مؤتمر الدوحة المقرر يتعلق بـاحدى دول الاعلان (أي قطر) للوصول بهذا المسعى إلى احدى نتيجتين: إما ممارسة ضغط مباشر على الحكومة القطرية لحملها على الاعتذار عن استضافة المؤتمر، وإما خلق المبررات الكافية لاقدام دول الاعلان الأخرى على مقاطعة المؤتمر في حال عقده.

وكان جدول اعمال الدورة الاخيرة لوزراء خارجية الدول الثماني (دول «اعلان دمشق») في اللاذقية، حزيران ١٩٩٧، متضمنًا: -العدوان الاسرائيلي وانهيار التسوية السلمية؛ -التطبيع مع اسرائيل وموضوع عقد مؤتمر الدوحة؛ -التحالف التركي الاسرائيلي واخطاره على الدول العربية؛ -الاجتياح التركي لشمالي العراق واحتمال إقامة حزام امني دائم في المنطقة على غرار الحزام الامني الاسرائيلي في جنوبي لبنان؛ -موضوع الانفتاح على العراق والوقوف إلى جانب الشعب العراقي في معاناته المستمرة؛ -العلاقة مع ايران في ضوء استمرار احتلالها للجزر الاماراتية الثلاث؛ -تعزيز الروابط الاقتصادية والامنية بين دول اعلان دمشق.

وقد يكون الموضوع الوحيد الذي حظي باجماع الدول المشاركة في اجتماع اللاذقية هو تشخيص المرحلة الراهنة من تطور الصراع العربي-الاسرائيلي والمسؤولية الاسرائيلية في انهيار التسوية السلمية. كذلك تأكيد الحقوق الشرعية

للأطراف العربية المعنية بهذا الصراع، خصوصًا ما يتعلق بوجوب انسحاب اسرائيل إلى ما وراء خطوط حزيران ١٩٦٧. وانتهى البحث في الوسائل المؤدية لبلوغ هذه الاهداف إلى التذكير بـ«المبادىء التي تضمنتها المواثيق والقرارات العربية، وآخرها قرارات قمة القاهرة التي عقدت في حزيران ١٩٩٦، والتركيز بصورة خاصة على أهمية تنفيذ ما اتخذه القادة العرب من قرارات، والتعامل مع المستجدات التي تواجه الأمة العربية في ضوء متطلبات المرحلة الراهنة وظروفها» (البيان الختامي).

بالنسبة إلى موضوع «تعزيز الروابط الأمنية»، برزت رغبة سورية ومصرية مشتركة في توقيع «بروتوكول أمني» تشارك فيه الدول الثماني، ويكون بمثابة رد أولي عليا لتحالف التركي-الاسرائيلي، كما يؤسس لتعاون مستمر في المجالات الامنية والعسكرية؛ غير ان معظم الدول الخليجية تحفظت على هذا الاقتراح بسبب الالتزامات التي قد يفرضها، حاليًا وفي المستقبل. وفي حين تقول الدول الخليجية المعارضة للاقتراح ان وثيقة «اعلان دمشق» الاساسية لا تتضمن توقيع بروتوكول أمني، فإن وثيقة «إطار العمل المشترك» التي وضعت في ما بعد تشتمل على بنود عديدة خاصة بالتنسيق الأمني بين دول المجموعة، بالاستناد إلى معاهدة الدفاع العربي المشترك.

الحلف التركي-الاسرائيلي: سورية، وضعًا ودورًا، على رأس استهدافات الحلف التركي-الاسرائيلي الذي ارتسمت معالمه، لا بل أعلن عنه الطرفان أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة في السنة الاخيرة ١٩٩٦-١٩٩٧. وهذا الاستهداف، أخذ الدارسون يدرجونه كأمر

منطقي وكحقيقة واقعة، لا بل أخذ الطرفان المعنيان نفسهما يعلنان عنه بوضوح وصراحة ويبلغانه للعالم. فهو لم يعد يحتاج إلى استنتاج، أو استقراء أو استنباط.

الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز وضع لائحة موجزة بالعلاقات التركية-الاسرائيلية الموصلة إلى الحلف الحالي في مقال مطول («الحياة»، العدد ١٢٥٠٣، تاريخ ٢٤ ايار ١٩٩٧، ص١ و١٨):

«- اعترفت تركيا باسرائيل في ٢٨ آذار ١٩٤٩، وأيّدت الغرب في صيف ١٩٥١ محتجة على قرار مصر منع مرور السفن الاسرائيلية عبر قناة السويس.

- وجه رئيس الوزارة التركية، عدنان مندريس، أثناء زيارته لواشنطن، لومًا شديدًا إلى العرب، وطالبهم بالاعتراف بحق اسرائيل في الحياة. واتخذ وقتها خطًا معاديًا للعرب.

في ١٩٥٨، اقامت تركيا واسرائيل نوعًا من التحالف العسكري اطلقتا عليه إسم «الاتفاق الاطاري» في اعقاب قيام الوحدة بين مصر وسورية. وقد ضم الاتفاق بنودًا تنظم التعاون في المجال العسكري، وتبادل المعلومات، والتدريب المشترك، وتبادل التكنولوجيا، ومساهمة الاسرائيليين في بناء بعض المطارات في تركيا. كما تضمن تعهدات اسرائيلية بدعم المطالب التركية المتعلقة بقبرص التي كانت في طريقها إلىالاستقلال عن بريطانيا، وتأمين حصول الاتراك على بعض القروض المالية.

- استمر التعاون بين اسرائيل وتركيا في الثمانينات. ومن الامثلة على ذلك ما حدث لقواعد منظمة أسالا Asala الارمنية (المختصر الانكليزي لاسم «الجيش الارمني السري لتحرير أرمينيا») في البقاع اللبناني التي دمرتها اسرائيل خلال اجتياحها لبنان عام ١٩٨٢، لأنها كانت تهاجم المصالح التركية في كل مكان. كما تعاونت تركيا مع الولايات المتحدة واسرائيل في تزويد ايران بالاسلحة اثناء الحرب الايرانية-العراقية، حين سمحت تركيا للطائرات الاسرائيلية بعبور المجال التركي لنقل السلاح إلى مدينة تبريز الايرانية.

- وفي الذاكرة ايضًا دور تركيا خلال الحرب الايرانية-العراقية في «ترتيب» عملية هجرة ٣٠ ألف يهودي ايراني إلى اسرائيل مقابل تزويدها ايران بالاسلحة خلال الحرب.

- وفي ٣١ آذار ١٩٩٤، وقعت اسرائيل وتركيا «اتفاق الأمن والسرية»، ويومها أكد وزير الخارجية التركي، حكمت تشيتين، ان هذا الاتفاق وليد جهازي المخابرات في البلدين: الموساد والميت (MIT).

- ولا نغفل وجود مجموعة يهودية تركية تتركز في اسطنبول، عددها يقارب ٢٤ ألف نسمة، ولها نفوذ كبير يتجاوز هذا العدد بسبب ثرائها وموقعها البارز في الحياة التجارية منذ العهد السلطاني. كما يقدر عدد اليهود الاتراك الذين يعيشون في اسرائيل بـ١٢٠ ألف نسمة، غالبيتهم هاجروا في الستينات والسبعينات وما زالو يقومون بنشاط واسع في سبيل تركيا التي سعت للحفاظ على هذه الرابطة كعنصر ايجابي في العلاقة التركية-الاسرائيلية.

- ومنذ ١٩٥٠ وحتى العام الحالي (١٩٩٧)، بلغ مجموع الاتفاقات التركية-الاسرائيلية-طبقًا للمعلن عنه-عشرًا، في جميع المجالات، وذلك بخلاف الاتفاقات الأخرى التي احيطت بنطاق من السرية والغموض» (ينتهي كلام خالد بن سلطان بن عبد العزيز).

وقد ازدادت وتيرة هذا التطور في العلاقات التركية-الاسرائيلية بعد مؤتمر مدريد (١٩٩١)، وحدث توسع ملحوظ في العلاقات السياسية والاقتصادية والسياحية بين البلدين. وبدأت هذه العلاقات تصل إلى مرحلة الذروة مع أول زيارة

يقوم بهـا مسؤول سياسـي تركـي رفيع المستوى لاسرائيل وهي رئيسة الوزراء التركية تانسو تشـيلر في تشرين الثاني ١٩٩٤ التي أبرمـت مـع اسـرائيل اتفاقات مهمة للتعـاون الثنـائي كاتفـاق تعـاون في مجال مكافحة الارهاب وفي مجال الاتصالات، كما تمّ بحث فكـرة التعـاون العسـكري بـين البلديـن، ومشروعات مياه وتجارة حرة.

ومع بداية ١٩٩٥، بـدأت اخبـار التعـاون العسـكري تتسرب إلى الصحـف. ففـي كـانون الثاني، اشارت تقارير إلى وجود اتصـالات تركيـة لتحديث طائرات فانتوم في اسرائيل لصالح القـوات المسلحة التركية، كما اشارت تقارير اخرى إلى ان مصر رفضـت اقتراحـًا اميركيًا لاقامـة حلـف عسـكري مـع تركيـا والاردن واسـرائيل لتنفيـذ مهمـات الامـم المتحـدة في المنطقـة، وقـام الرئيـس التركي بزيارة لاسرائيل أعلن بعدهـا عـن احتجـاز السـلطات التركيـة لشـحنة اسلحة ايرانيـة كـانت مرسلة إلى مقاتلي حزب ا لله في جنوبي لبنان. وفي ٨ شباط من العام نفسه (١٩٩٥) قام نائب رئيـس الاركـان الـتركي بزيـارة لاسـرائيل بحـث خلالهـا موضـوع التعـاون العسـكري بـين البلديـن؛ وبعـد مضـي سبعة اسـابيع، كشـف النقـاب عـن توقيـع اتفاقيـة بـين تـل أبيـب وأنقـرة للتعـاون في مجـال التدريـب العسـكري. وعلـى الصعيـد الاقتصـادي ارتفع حجم التبادل التجاري بين البلدين من ٢٦٣ مليون دولار خـلال ١٩٩٠ إلى نحـو ٣٦٣ مليونـًا خلال ١٩٩٥. وقد استمر هذا التعاون صعودًا، في عهـد تشـيلر، إلى ان وصـل إلى ذروتـه بـالتوقيع علىاتفاقيـة التعـاون العسـكري (شـباط ١٩٩٦) الـذي بـدأت معـه مقولـة «الحلـف الـتركي-الاسرائيلي» تأخذ كـل ابعادهـا، سـواء في الاطار الدراسي الأكاديمي أو في إطار ما يُسمع ويُشـاهد علـى ارض الوقـائع السياسـية والجيوبوليتيكيـة والاستراتيجية.

مـا الـذي دفـع تركيـا، وبهـذا الزخـم، إلى إقامة حلفها مع اسرائيل؟

خـالد فيـاض، في «السياسـة الدوليـة» المصرية (عـدد ١٢٩، يوليـو ١٩٩٧، ص١٨٢) كتب يقول:

«تعتـبر تركيـا مـن اكـثر الـدول في النسـق الاقليمـي ادراكـًا لعمـق واهميـة مكانتهـا الجيوإستراتيجية. وعلى هـذا الاسـاس تعـاملت مـع جميع القوى الفاعلـة مـن خـارج أو داخـل منطقـة الشرق الاوسط. ومن خلال إدراك تركيا لاهدافها الاستراتيجية عمومًا ومع اسـرائيل خصوصًا فإنهـا تنظر لذاتها على انها الدولة التي ليس كمثلها دولـة في الشرق الاوسط سوى اسرائيل التي تتشابه معهـا في كثير من السمات، بينهـا ان كـلا منهمـا محـاط بـدول تنخـرط معهـا في علاقـات تصارعيـة منـذ نشأتها حتى الآن. فتركيا محاطة بكـل مـن سـورية والعـراق وارمينيـا وروسـيا وبلغاريـا واليونـان، واسرائيل محاطة ايضًا بالدول العربية. كما ان كـلاً منهمـا تقـع في الشـرق ولكنهمـا تتوجهـان إلى الغرب، ويختلف النسـق القيمـي لكـل منهمـا عـن النسق القيمـي السـائد في منطقـة الشـرق الاوسـط على الأقل من الناحيـة الثقافيـة، أي انهمـا دولتـان غربيتان في المنشأ والعرق والثقافة. من هذا المنظـور ادركـت تركيـا أهميـة الارتبـاط الاسـتراتيجي مـع اسرائيل، وخاصـة بالنسبة إلى اسـتراتيجية القطـب الوحيد في النظام الدولي الجديد (الولايات المتحدة) كمرتكز اساسي في منطقة الشرق الاوسط، وذلك بما يؤدي إلى تعظيم مقدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية لتحقيق المكانة عند وضـع القـوة حتـى تضمـن تأهيلهـا لأن تكـون قـائدة للتفـاعلات في النسق الاقليمي لمنطقة الشرق الاوسط».

هذه الأبعـاد الـتي يمكـن القـول إنهـا أبعـاد بنيوية عميقة كامنة وراء اندفاع تركيا للتحالف مع اسـرائيل، يمكـن ان نضيـف إليهـا اسـبابًا ظرفيـة طارئة، ولكنها مهمة في عمليات التشكل السياسي والاسـتراتيجي (مشـكلات اقتصاديـة، المشـكلة

الكردية والعلاقة التركية مع سورية والعراق، العنف الاصولي...) ترى تركيا ان في تحالفها مع اسرائيل تجد حلولاً لها.

ما هي أهداف الحلف؟

أوجزها خالد بن سلطان بن عبد العزيز في «الحياة» (المرجع المذكور) بالكلام التالي:

الرئيس الاسرائيلي عازر وايزمن، زار أنقرة وصرّح قائلاً: «إن الاتفاقية تمثل حركة كماشة حول سورية لدفعها للتسوية السلمية مع كل من اسرائيل وتركيا». وفي ٧ نيسان ١٩٩٦، تحدث مدير معهد الدراسات الاستراتيجية في تل أبيب، مارتن كرامر، عن موقف اسرائيل من احتلال اريتريا جزيرة حنيش الكبرى، وعن الاتفاق الذي تمّ بين تل ابيب وأنقرة، قائلاً: «إن نشر طائرات اسرائيلية شرقي تركيا وانتزاع جزيرة حنيش من اليمن، يندرجان في إطار استراتيجية إقليمية وقائية تنفذها اسرائيل لمواجهة التهديدات المحتملة». وفي ٢٦ نيسان ١٩٩٧، اعتبر وزير الدفاع الاسرائيلي، إسحق موردخاي، ان التعاون العسكري بين اسرائيل وتركيا يمكن ان يكون بمثابة «قوة ردع» لمواجهة أي هجوم «قد تفكر في شنه دولة مثل ايران أو العراق أو سورية». وفي اوائل ايار ١٩٩٧، شددت الصحف التركية على ان المناورات المتوقعة جزء من استعدادات تمكّن الدول الثلاث-تركيا واسرائيل والولايات المتحدة-من الرد السريع في اطار التحالف الاستراتيجي بينها على أي تهديد ايراني أو سوري، أو لمواجهة اية ازمة محتملة في منطقة الخليج.

يتابع خالد بن سلطان بن عبد العزيز مبينًا ما تحققه اسرائيل من حلفها مع تركيا:

١- ان استخدام اسرائيل للقواعد الجوية التركية يعطيها مزايا في المدى لا تحلم بها، إذ يجعل منابع البترول في المنطقة وخطوط مواصلات نقله إلى الخارج في متناول الذراع الطويلة لاسرائيل.

٢- إن السماح للطيران الاسرائيلي باختراق المجال الجوي التركي، يعني إحكام قبضة اسرائيل على سورية برًا وبحرًا وجوًا. ومن ثم فالاتفاقية تعد بمثابة ورقة ضغط في يد اسرائيل، بخاصة عند التفاوض حول الترتيبات النهائية للوضع في الجولان.

٣- تحقق الاتفاقية هدف اسرائيل في تشكيل نظام أمني في المنطقة يرتكز على تفوقها المطلق، مستفيدة من الدعم العسكري والتعاون الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، والتعاون مع دول الجوار الجغرافي وفي مقدمتها تركيا.

٤- إن هذه الاتفاقية، من خلال العمق الذي سُمح للقوات الجوية الاسرائيلية بالوصول إليه، تفتح الباب على مصراعيه لقصف العراق وايران وسورية، واستطلاع الاوضاع العسكرية فيها.

٥- إن سماح تركيا للطائرات الاسرائيلية بالتدريب في مجالها الجوي وفتح جبهة أخرى امام سورية في الشمال هو نوع من الضغط التركي على سورية لاجبارها على التخلي عن دعمها لحزب العمال الكردستاني، كما انه يمكّن تركيا من ممارسة لون من الضغط ايضًا على السوريين والعراقيين ليخضعوا لاتفاقيات تقسيم المياه.

أما كيف واجه العرب هذا الحلف؟ فأمر لم يجد الكاتب، خالد بن سلطان بن عبد العزيز (في مقاله المذكور)، سوى ذكر «المواجهات» التالية:

- أعرب بعض القادة عن قلقهم إزاء الاتفاقية وطالبوا تركيا باعادة النظر فيها.

- واعتبر المؤتمر البريطاني العربي ان الاتفاقية خروج على قرارات منظمة المؤتمر الاسلامي.

- ووصف بعض الصحف الاتفاقية بانها تضر بمصالح العرب والدول الاسلامية، وانها عنصر جديد للتوتر وعدم الاستقرار، وتمثل اعتداء على سيادة تركيا وتحديًا صارخًا لمشاعر الشعب التركي المسلم، وستحول تركيا إلى قاعدة لانطلاق

الطائرات الحربية الاسرائيلية. ودعت هذه الصحف تركيا إلى احترام العلاقات التاريخية مع الدول العربية، أو على الأقل اتخاذ موقف عادل من الصراع الحالي بين العرب واسرائيل.

- وانتقدت الجامعة العربية الاتفاقية ووصفتها بأنها «حلف عدواني جديد» في المنطقة وتشكل تهديدًا لسورية ولبنان والعراق بشكل خاص.

بعد كل ما تقدم (وكان مرجعاه الرئيسيان: خالد بن سلطان بن عبد العزيز في «الحياة»، ٢٤ ايار ١٩٩٧؛ وخالد فياض في مجلة «السياسة الدولية» المصرية، تموز ١٩٩٧)، يبقى ان نذكر جانبًا آخر خاصًا بسورية التي هي، كما تقدم، على رأس لائحة أهداف الحلف التركي-الاسرائيلي. وهذا الجانب متصل باستراتيجية سورية مضادة تتوسل العمل على عمق إضافي زيادة على العمقين العربي والايراني، وهو عمق اليونان. يقول بصدده الباحث في الشؤون التركية محمد نور الدين («الحياة»، العدد ١٢١١٤، تاريخ ٢٥ نيسان ١٩٩٦، ص١٧):

الرئيس التركي سليمان ديميريل (الى اليمين) ورئيس الوزراء الاسرائيلي (السابق) شيمون بيريز.

جاء الاتفاق التركي-الاسرائيلي (شباط ١٩٩٦) في لحظة حساسة في العلاقات بين تركيا واليونان. وتتناقل الاخبار ان وزير الدفاع اليوناني السابق، أرسينيس، قام في اوائل الخريف الماضي (١٩٩٥) بتجديد توقيع اتفاق «سري» مع نظيره السوري في دمشق، كان قد أبرمه سابقًا رئيس الوزراء اليوناني السابق، أندرياس باباندريو في العام ١٩٨٥ مع سورية. ويسمح للطائرات اليونانية باستخدام المجال الجوي السوري في حال نشوب حرب بين تركيا واليونان. ويلفت النظر في هذه المسألة ان وزير الخارجية السوري، فاروق الشرع، اجتمع في مطلع تشرين الثاني الماضي (١٩٩٥) مع نظيره اليوناني، ومع وزير الدفاع الروسي بافيل غراتشوف، في اثينا. وأبلغ الشرع الصحافيين ان اليونان وسورية اتفقتا على تعزيز التعاون بينهما لمواجهة تهديدات من طرف ثالث (يقصد تركيا). وردًا على سؤال عن احتمال تقديم سورية دعمًا تقنيًا لسلاح الجو اليوناني، اجاب الوزير السوري بان التعاون بين البلدين «واسع جدًا»، مضيفًا: «لا نريد ان تنتهك أجواؤنا الجوية أو ان تتعكر علاقاتنا مع جيراننا لكننا لا نقبل بأي تهديد من أي كان». وفي إشارة واضحة إلى تركيا قال الشرع «إن اليونان وسورية لا تهاجمان أحدًا. لكن دولاً أخرى تفكر في مهاجمتهما».

«ونقلت المصادر التركية حينها (يتابع محمد نور الدين) ان دمشق وأثينا وقّعتا بالفعل اتفاقًا حول استخدام الطائرات الحربية لكل منهما لقواعد في البلد الآخر. وعلى هذا يدرك المسؤولون الاتراك جيدًا ان اليونان، عدوة تركيا التاريخية الاولى في القرنين الاخيرين، هي مصدر الخطر الاساسي على الأمن والمصالح الحيوية التركية في إيجه (راجع «إيجه، جزر»، ج٤، ص١٢٦-١٣٠) واوروبا. وتوقيع الاتفاق التركي-الاسرائيلي هو محاولة تركية واضحة للضغط على سورية لفك

ارتباطها باليونان والتخلي عن تقديم الدعم والتسهيلات لها» (انتهى كلام نور الدين).

(وحول العلاقات السورية-التركية، راجع ايضًا «تركيا»، ج٦، العنوان الفرعي «مع سورية»، ص٢٣٤).

أخيرًا، ثمة نقطة عالقة في ملف العلاقات السورية-التركية، تطرح بين حين وآخر في نطاق ضيّق، وتتعلق بضريح سليمان شاه، مؤسس الأسرة العثمانية، الذي غرق مع ابنه في بداية القرن الخامس عشر عندما كانا يتنزهان. فارتأى أحفاده دفنه حيث توفي أي بالقرب من قلعة جعبر (قرب مدينة الرقة السورية)، وذلك في ضوء نتائج تقسيم الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى. إذ إن «اتفاق أنقرة» في ١٩٢١ بين تركيا وفرنسا (الدولة المنتدبة على سورية) ترك الضريح في اراضي سورية وأعطى الحق لأنقرة في ارسال سرية عسكرية لحمايته تأتي إليه بشكل دوري من عمق الاراضي التركية. وسمح الاتفاق بارسال ١٢ عسكريًا إلى «قره قوزاق» التي تبعد نحو ١٥كلم عن الحدود المشتركة، مرة كل شهر، فيتناوب هؤلاء على حراسة الضريح الذي يرفع عليه العلم التركي. ونتيجة للمشاريع المائية-الزراعية السورية في المنطقة (بحيرة الأسد، سد تشرين)، فتحت مفاوضات بين سورية وتركية حول مكان الضريح، قالت بشأنها «مصادر مطلعة لـ«الحياة» (ابراهيم حميدي، عدد ٢٤ آذار ١٩٩٧، ص١) ان المفاوضات الاولية التي حصلت في ايلول ١٩٩٦ بين خبراء فنيين وضباط عسكريين، أدت إلى الاقتناع ببقائه ضمن الاراضي السورية... واشارت مصادر دبلوماسية مطلعة إلى وجود قرار تركي عالي المستوى بابقائه في سورية... وقالت مصادر أخرى ان الاجتماع الذي عقد بداية الشهر الجاري (آذار ١٩٩٧) بين الطرفين أظهر ان الوفد التركي ليست لديه صلاحيات بت موضوع نقل الضريح، إذ استندت الحجة التركية إلى ان غمر القبر يعني ان مياه البحيرة ستغمر الحدود والاراضي التركية (في إشارة واضحة إلى معارضة تركيا لمشروع البحيرة من الأساس)؛ وأشارت إلى ان احد الحلول المقترحة بناء قاعدة اسمنتية حول القبر في البحيرة. وتستند الحجة السورية بنقله إلى تركيا إلى ان بقاءه يدل على تناقض في توجهات تركيا إذ إنها تتمسك بموقفها في وقت اعادت اضرحة قادتها القدماء ولم يبق سوى هذا الضريح، ما يعني ان هناك بعدًا وراء ذلك. وقال خبير قانوني إن الموقع بكامله ارض سورية، وتتمتع سورية بحق السيادة وتطبيق احكام القانون السوري عليه، وبالتالي فان القبر يجب ان يخضع للقوانين المحلية وإن كانت الارض ملكًا لتركيا، مؤكدًا ان ملكية القبر لا تعطي المالك أي سيادة على المكان لأن المادة ٩ من اتفاق أنقرة اجازت لتركيا استثناء توفير حراس ورفع العلم التركي، في حين انه لو كان ارضًا تركية لكان لأنقرة كل حقوق السيادة فيه من دون حاجة للنص الخاص الذي ورد في هذه المادة. وكان الجانب السوري اقترح نقله إلى أحد الموقعين في خربة صريصات أو قرق مغار، أي تقريبه من الحدود لتقصير المسافة التي يقطعها ١٢ عسكريًا بشكل شهري».

مسألة المياه (الفرات): راجع كامل مادة «حوض نهري دجلة والفرات»، ج٨، ص٩٩-١٠٥؛ ومادة «تركيا»، ج٦، العنوانان الفرعيان: «مع سورية»، ص٢٣٤، و«مسألة مياه الفرات»، ص٢٧٧؛ وهذه المواد سيضمها ايضًا كتاب للمؤلف، تحت الطبع، بعنوان «سورية المعاصرة، مشهد تاريخي وسياسي عام».

العلاقات مع ايران: (في ما يلي إضافة على ما ورد عن العلاقات السورية-الايرانية الأكثر من الودية والأقرب إلىالتحالفية في سياق الكلام الذي أرّخ للاحداث منذ ١٩٨٠ وصاعدًا-في هذا
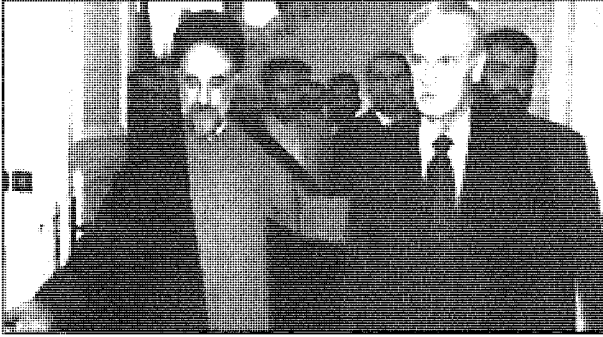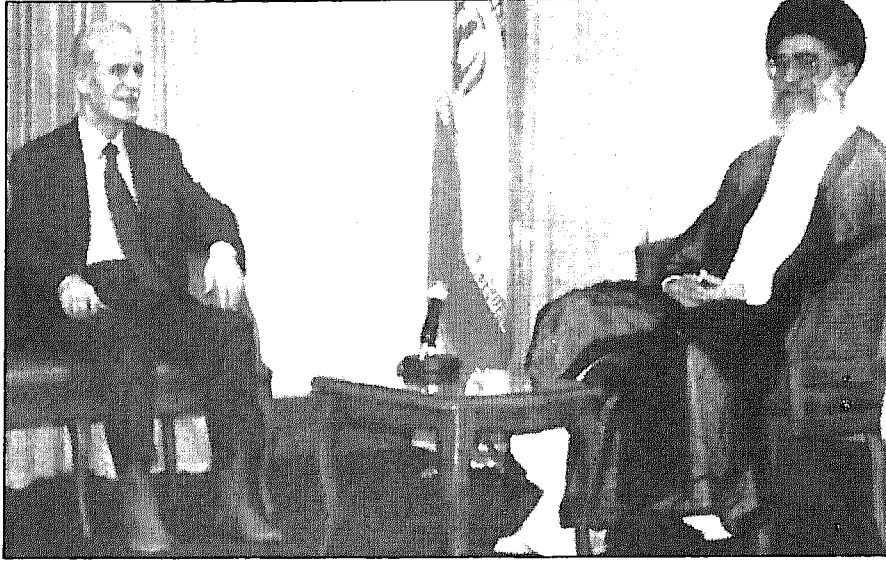
اوائل آب ١٩٩٧ في طهران:
فوق، مرشد الجمهورية الاسلامية علي خامنئي مستقبلاً الأسد؛
الوسط، الأسد مع الرئيس الايراني المنتخب محمد خاتمي؛
تحت، الرئيس الجديد محمد خاتمي يتسلم مرسوم التفويض من مرشد الجمهورية الاسلامية، وبدا (الى اليسار) الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني.

الباب «عهد الأسد»- وعلى ما ورد في مادة «ايران» في هذه الموسوعة، ج٤، تحت عنوان فرعي «مع سورية ولبنان وإزاء غزة أريحا»، ص١٦٢، وتحت باب «مناقشة: تعاون اميركي- اسرائيلي-تركي لاحتواء التهديد الايراني»، ص١٦٦-١٧٠):

جاءت التطورات الاخيرة، خصوصًا منها تلك المتعلقة بالحلف التركي-الاسرائيلي، لتشهد على صوابية دعوات السياسة السورية المتكررة وطوال سنوات طويلة لتقريب العرب من ايران وايران من العرب. وقد بدا في الاشهر الأخيرة (ربيع واوائل صيف ١٩٩٧) أن آذانًا صاغية، من العواصم العربية وفي طهران، بدأ أصحابها يحققون افعال التقارب وينسجون علاقات حميمة بين عواصم عربية كانت قبل اشهر قليلة توجه نقدًا لاذعًا للسياسة الايرانية، وبين طهران. والفقرات التالية حول تقرير غير رسمي، أعده مقربون إلى الادارة الايرانية، يبين المستوى الذي وصلت إليه العلاقات العربية-الايرانية، وتاليًا تأثير السياسة السورية التي بقيت، وبصورة دائمة تقريبًا منذ ١٩٨٠، ثابتة حول محور حل كل خلاف عربي- ايراني وإحلال كل وفاق وتقارب محله، مع محاولة الافادة من أي بعد دولي، اوروبي، فرنسي وروسي على وجه التحديد («الوسط»، العدد ٢٨٥، تاريخ ١٤ تموز ١٩٩٧، ص٢٩):

«منحت التحركات العربية الاخيرة في ضوء تعثر عملية السلام والتهديد المستمر من تركيا للامن القومي العربي، خصوصًا سورية ولبنان، بعد التحالف التركي-الاسرائيلي العسكري، ايران قوة إضافية للدور الاقليمي لطهران. وفي الخلفيات فإن زيارة نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام ووزير الخارجية فاروق الشرع لطهران الشهر الماضي (حزيران ١٩٩٧) جاءت بعد محادثات بين المسؤولين السوريين والمصريين بما عزز الاعتقاد لدى طهران بأن سورية بدأت فعليًا جهودًا جديدة لاحداث تقارب بين طهران والقاهرة. وفي هذا السياق، ان زيارة الموفد السعودي الخاص (كما علمت «الوسط» من مصادر رفيعة المستوى) وزير الدولة عبد العزيز بن عبد الله الخويطر إلى طهران في مهمة وصفت بأنها «مهمة للغاية»، تدخل في هذا الاطار بما سمح لوزير الخارجية الايراني الدكتور علي أكبر ولايتي بالقول إن ايران قررت بعد زيارة الموفد السعودي الخاص فتح صفحة جديدة في علاقاتها العربية. فيما دعت صحيفة مقربة إلى الحكومة الايرانية جميع دول المنطقة إلى اتباع دعوة القيادة السعودية إلى تعزيز التضامن بما يضمن الوقوف بوجه الضغوط الرامية إلى عقد مؤتمر الدوحة الاقتصادي حول الشرق الاوسط وشمالي افريقيا بمشاركة اسرائيل. واقترحت «ايران نيوز» مؤتمرًا بديلاً من دول اوروبية معينة مثل فرنسا ودول الشرق الاقصى (ماليزيا واندونيسيا وسنغافورة) للخروج بنتائج أفضل، كما دعت إلى عقد قمة خليجية عاجلة تشارك فيها ايران وسورية والسعودية والعراق ودول اخرى في المنطقة.

ولفت التقرير إلى ان سورية وايران ادركتا بشكل كامل التهديد الذي يشكله التعاون الاسرائيلي-التركي ضد المنطقة وقال «إنهما قررتا مواجهته بحسم». وتعتقد القيادات الايرانية ان العامل الذي يضمن نجاح مساعي طهران ودمشق إلى إيجاد قوة مشتركة يتمثل في جذب انتباه الدول العربية لهذا الخطر من ناحية، والحصول على تعاون قوى كبرى مثل روسيا وفرنسا من الجهة الاخرى. واشارت تقارير إلى ان خدام طمأن المسؤولين الايرانيين إلى ان موسكو، مثل طهران ودمشق، تدرك خطر توسيع النفوذ الاميركي وراء حدودها، وانها مستعدة للتعاون للحد من هذا النفوذ والسيطرة عليه. واعلن السفير الروسي لدى دمشق ان حكومته مستعدة لبيع سورية الاسلحة التي تحتاجها للدفاع عن نفسها. وقدم اقتراحًا مماثلاً إلى ايران خلال محادثات سرية. وإضافة إلى ذلك فإن

الروس، وبالتوافق مع ايران وسورية والدول العربية ادانوا الاجتياح التركي لشمالي العراق. وتعتقد مصادر مطلعة ان فشل عملية التسوية والضغوط التي تمارسها كل من تركيا واسرائيل، وكذلك خيبة الامل في الدعم الاميركي المتواصل لاستفزازات اسرائيل وحلفها مع تركيا، قرّب وجهات النظر بين المسؤولين الايرانيين والسوريين بخصوص القضايا الراهنة بما بلور مشروع تضامن عربي-ايراني».

واكتسبت زيارة الرئيس الأسد الأخيرة (٣١ تموز-أول آب ١٩٩٧) لإيران، وهي الأولى منذ ١٩٩٠، أهمية بالغة، إذ أكد الجانبان السوري والإيراني أنهما جاءت في ظل ظروف اقليمية ودولية «حساسة وإستثنائية». وفي تعليقات اخبارية ومستندة إلى تحليلات ظرفية وإلى ما رشح عن الزيارة في العاصمتين (طهران ودمشق) أن الزيارة حملت دلائل رمزية ارادها الأسد رسالة إلى من يعنيهم ملف عمليات السلام في الشرق الاوسط علمًا ان الوفد السياسي والعسكري الرفيع المستوى الذي رافق الرئيس السوري إلى طهران ضم نحو ٣٠٠ شخص، ولعله الوفد الأضخم الذي رافق الأسد في أي زيارة. وعلى رغم ان للزيارة اهدافًا «طارئة» منها الحرص السوري على الحصول على إيجابات واضحة من القيادة الإيرانية في شأن موقفها «العملي» في حال استهدفت سورية عسكريًا، فإن اوساط الوفد السوري شددت على ان الأسد كان راغبًا في معرفة حقيقة توجهات السياسة الخارجية للرئيس الإيراني الجديد سيد محمد خاتمي، خصوصًا ما يتعلق بنمط العلاقة مع سورية خلال العهد الجديد في إيران. ولا شك ان ما سمعه الأسد من خاتمي لم يطمئنه فحسب بل أوجد ايضًا انسجامًا بين الرجلين، خصوصًا ان السوريين سمعوا للمرة الاولى من مسؤول إيراني ان مواقف دمشق «واقعية» إضافة إلى كونها «جريئة ومبدئية». ومما أعلنه الأسد اثناء الزيارة: «سيفشل اعداء البلدين في فصلهما عن بعضهما بعضًا وإحداث شرخ في علاقاتهما»؛ وإنه تأكد ان الاعتدال الذي يميز خاتمي «لن يطاول الثوابت الاستراتيجية»، ومنها العلاقة مع سورية، وهو ما سمعه من خامنئي، الرجل الأقوى في النظام الإيراني، الذي يملك الكلمة الفصل في قضايا مركزية تتعلق باستراتيجية السياسة الخارجية والأمن القومي للجمهورية الاسلامية.

مناقشة

(١) «تباين شاسع بين الرؤية السورية والرؤية الاسرائيلية للسلام»: (هذا هو العنوان الفرعي الأخير لمقال باتريك سيل الذي نشرته «الحياة» في عددها ١٢٥٤١ تاريخ أول تموز ١٩٩٧، ص١٨. وسيل هو كاتب وصحافي بريطاني وخبير في شؤون الشرق الاوسط. وهو نفسه مؤلف كتاب «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط» الذي اعتمد مرجعًا رئيسيًا في باب «عهد الأسد» لأحداث سنوات ١٩٧٠-١٩٨٥. جاء في المقال، وتحت العنوان الفرعي المذكور):

السلام الذي تريده سورية سلام يحتوي اسرائيل ويوقف توسعها في الارض والنفوذ، ويردعها عن استخدام القوة ضد جيرانها، ويكون مضمونًا بنوع من توازن القوى بين اسرائيل والعرب.

والرؤية الاسرائيلية للسلام على طرف نقيض. فالسلام الذي تريده اسرائيل سلام يعطيها أمنًا مطلقًا حتى ولو كان ذلك على حساب تعريض أمن جيرانها العرب للخطر، بل من الافضل ان يكون الامر كذلك، سلام يؤكد هيمنة اسرائيل الاقليمية ويدعم هذه الهيمنة. وهذا السلام يؤدي، عن طريق اعادة هيكلة المنطقة، إلى الحيلولة دون ظهور أي تجمع عربي معاد، كما سيؤدي مرة واحدة وإلىالأبد إلى إخماد جميع القوى الداعية إلى القومية العربية وإلى استعادة فلسطين وإلى النضال الاسلامي، سلام يفتح امام اسرائيل الابواب للوصول إلى كل ركن من اركان المنطقة خصوصًا الموارد الطبيعية والثروات المالية في الخليج.

وليس من اليسير ان نرى سبيلاً للتوفيق بين هاتين الرؤيتين المتناقضتين، وهذه هي خلفية التناقضات الحادة للموقف في الوقت الحالي.

وقد بذلت في الآونة الأخيرة بعض المحاولات لإحياء المفاوضات على المسار السوري التي توقفت في شباط ١٩٩٦ (راجع العنوان الفرعي أعلاه «المأزق»)، إلا ان الفجوة لا تزال واسعة. وترغب سورية في استئناف المفاوضات من النقطة التي توقفت عندها، ويعني ذلك انها تريد من حكومة نتانياهو ان تقبل تعهدين مشروطين التزم بهما رابين وبيريز. الأول هو الالتزام بالانسحاب من الجولان، والثاني هو اتفاقية حول اهداف ومبادىء الترتيبات الامنية تتضمنها وثيقة اقترحتها سورية ووضعتها الولايات المتحدة في صيغتها النهائية ووافقت عليها سورية واسرائيل عام ١٩٩٥.

وتقول اسرائيل في الوقت الحاضر (حزيران ١٩٩٧) انها غير ملتزمة بأي من هذين التعهدين وتريد العودة إلى مائدة التفاوض من دون شروط مسبقة، ومعنى ذلك في نظر سورية ان نتانياهو يريد العودة إلى نقطة البداية، دون أدنى مبالاة بنتائج سنوات من المفاوضات منذ مؤتمر مدريد ١٩٩١.

ومن الواضح انه ما لم تُستأنف المحادثات بين سورية واسرائيل من الممكن ان تنساق المنطقة إلى الحرب، ومن غير المستبعد ان تتصاعد إلى استخدام الاسلحة غير التقليدية، ولدى اسرائيل ترسانة كاملة من اسلحة الدمار الشامل، كما ان بعض الصواريخ السورية مجهزة دون شك برؤوس كيماوية (راجع «الجولان» في باب «مدن ومعالم»).

قبل نحو اسبوع من نشر مقال سيل، أي في ٢٦ حزيران ١٩٩٧، نشر «المعهد الدولي لابحاث السلام» في السويد (نشأ المعهد في ستوكهولم منذ ١٩٩٦ ويموله البرلمان السويدي) تقريره السنوي، وفيه ان الحكومة الاسرائيلية ورغم انها أكدت التزامها السلام، اتخذت إجراءات تسير في الاتجاه المعاكس، وان «دينامية جديدة ستظهر وتحل محل السلام... وستكون هذه الدينامية دموية على

الارجح... وان عددًا من تصريحات حكومة اسرائيل وافعالها تشير إلى ان نتانياهو ليس مقتنعًا بأهمية تسويات بالنسبة إلى اسرائيل في إطار صيغة الارض مقابل السلام وقرارات مجلس الامن التي ترتكز عليها عملية السلام».

(٢) استراتيجية: ننقل، معربة، أهم النقاط التي أوردها بيار غينغمب في كتابه: (Hafez El Assad et le Parti Baath en Syrie, p 346-371)

في نهاية السبعينات، وبعد طرد السوفيات من مصر، اصبحت الهيمنة الاميركية ساحقة في الشرق الاوسط. لكن عدة احداث كبرى تسارعت لتزرع القلق في واشنطن: قيام الجمهورية الاسلامية في ايران، المملكة العربية السعودية قاطعت اتفاقيات كامب ديفيد، الاتحاد السوفياتي تدخل في أفغانستان... فرأت الولايات المتحدة إليها تهديدًا لمواقعها في الشرق العربي، أي في المنطقة التي تحوي على ثلثي المخزون العالمي من النفط. عندها قرّر الرئيس ريغان ان يجعل من حوض البحر الابيض المتوسط المكان المميز لتجميع عناصر الحرب الباردة. وكان لكل «شيطانه الأكبر». الإمام الخميني رآه في واشنطن، وريغان جعله في موسكو «عاصمة امبراطورية الشر». واخذ الاميركيون يستجمعون كل وسائل سياستهم: زادوا ميزانية الدفاع ثلاثة اضعاف في اربع سنوات، وأنشأوا (في آذار ١٩٨٠) قوات التدخل السريع وجعلوا عديدها ٣٠٠ ألف رجل، كما قررت واشنطن كذلك توريط الحلف الاطلسي في المتوسط وتوجيه إمكانياته ناحية المشرق العربي، واعتبار مصر واسرائيل كدولتين تتمتعان باهتمام خاص من الحلف. هكذا، عندما نزلت القوات الاميركية والاوروبية إلى لبنان في إطار القوة المتعددة الجنسيات (١٩٨٢) كان من حق سورية رفض تدخل «قوات الحلف الاطلسي» في بلد عربي.

القلق كبير جدًا، إذًا، في دمشق. فكل جيران سورية تقريبًا، من الشمال إلى الجنوب، قبلوا التعاون الاستراتيجي المقدم إليهم من واشنطن. وقدمت اسرائيل، بطبيعة الحال، نفسها على انها رأس حربة ضرب الوجود السوفياتي، ونعمت، كما دائمًا، بالامتيازات، ولم يكن البيت الابيض ليبخل بأي وسيلة من حقها اضعاف موسكو وحلفائها. وبرّر واينبرغر (حزيران ١٩٨٧) الوجود الاميركي في الخليج بضرورات «إبعاد ان يقوم في المنطقة فراغ يستغله الاتحاد السوفياتي». وكان الرئيس ريغان قد أطلق في ١٩٨٣ مبادرة الدفاع الاستراتيجي المتضمنة برنامج تسلح واسع من حقه جرّ الاتحاد السوفياتي إلى منافسة مرهقة. فحوّل التنافس، بين الدولتين العظميين، المتوسط إلى برميل بارود. وكشفت الحرب بين العراق وايران عن وجود سلاح كيميائي وصواريخ بعيدة المدى، كما لم يعد امتلاك اسرائيل السلاح النووي سرًا من الاسرار.

وادخل انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية التهديد السوفياتي للثروات الاستراتيجية في المنطقة، وتاليًا السيطرة المطلقة للولايات المتحدة، الشرق الاوسط في عصر جديد. فأصبحت الولايات المتحدة ساهرة على ثلاث مصالح لها تكتسي درجة الاهمية نفسها بالنسبة إليها: وضع اليد على الاحتياطي النفطي، محاربة كل مَن وما من شأنه تخريب خططها ودعم غير محدود وغير مشروط لاسرائيل. الهدف الاول ضمنته الولايات المتحدة بوضع بلدان الخليج النفطية تحت الحماية بحيث أمنت لها أمنها وحصة متزايدة في السوق العالمي. الهدف الثاني، العراق وايران، «المخرّبان» اللذان تنفذ الولايات المتحدة إزاءهما استراتيجية «الاحتواء المزدوج» (dual containment). الهدف الثالث، المساعدة الضخمة لاسرائيل (٣ مليارات دولار في السنة) التي تسمح لها بمتابعة برنامجها العسكري. فأطلقت في ٥ نيسان ١٩٩٥

جدول مقارن

المعطيات	سورية	العراق	الاردن	مصر	اسرائيل
المساحة (كلم م)	١٨٥,١٨٠	٤٣٨,٣٢٠	٩٧,٨٠٠	١,٠٠١,٤٠٠	٢١,٩٥٠
عدد السكان (١٩٩٥) ، مليون نسمة	١٤,٧	٢٠,٤	٥,٤	٦٢,٩	٥,٦
معدل الزيادة ٪	٣,٧	٣,٠	٤,٠	٢,٣	٣,٠
أقل من ١٥ عاماً ٪	٤٨	٤٤	٤٣	٤٠	٣١
تقديرات عدد السكان عام ٢٠٢٥	٤١	٤٤	١٠	١٠٥	٧
معدل الحياة	٦٧	٦٦	٦٨	٦٤	٧٦
الأمية ٪	٢٠,٠	٣٥,٠	١٣,٤	٤٨,٠	٥,٠
عدد الأطباء / ألف نسمة	٠,٨٢	٠,٦٠	١,٥٤	٠,٧٦	٢,٩٠
الكثافة السكانية / كلم م	٧٩,٣	٤٦,٥	٥٥,٢	٦٢,٨	٢٥٥,١
السكان في المدن ٪	٥١,٩	٧٤,١	٧٠,٨	٤٤,٥	٩٠,٥
اراضي زراعية ٪	٣١	١٣	٤	٣	٢١
استيراد المواد الغذائية ٪					
من الولايات المتحدة	١٥	٣٤	٦	٢١	٣٣
من المجموعة الاوروبية	٢٧	١٠	٢٤	٢٥	٣٥
الدخل السنوي للفرد (دولار)	٥٢٢٠	٣٥٠٠	٤٠١٠	٣٠٠٠	١٤٨٩٠
زيادة الدخل القومي في ١٩٩٤ ٪	٥,٥	١,٠	٥,٧	٢,٠	٦,٣
الدين الخارجي في ١٩٩٣ (مليار دولار)	١٩,٩٦	٨٦,٠	٥,٥٥	٤٠,٨	١٦,٤
التضخم ٪	١٥,٠	٦٠,٠	٤,٩	١٢,٠	١٤,٤
النفقات على التعليم ٪	٤,٢ (٩١)	٥,١ (٨٨)	٤,٠ (٩١)	٥,٠ (٩١)	٥,٨(٩٠)
نفقات عسكرية ٪	١٦,٦	–	٨,٠	٥,٠	١٠,٩
القوات المسلحة (آلاف الرجال)	٤٠٨	٤٠٠	٩٩	٣٤٠	١٧٢
الحصة من الناتج العام ٪					
الزراعة	٣٠	١٥	٥	٢٠	٩
الصناعة	١٣	١٥	١٣	١٣	٤٠
الخدمات	٤٧	٤٥	٧٥	٥٢	٥٠
المناجم	١٠	٢٥	٧	١٥	١
اليد العاملة ٪					
الزراعة	٢٥	٤٠	٧	٣٦	٥
الصناعة	٢٠	٢٢	١٨	١٨	٣٥
الخدمات	٥٠	٣٤	٧٣	٤٠	٦٠
المناجم	٥	٤	٢	٦	–

المصدر : بيار غينغمب P. Guingamp ، في كتابه بالفرنسية :

"Hafez El Assad et le Parti Baath en Syrie" , l'Harmattan , 1996 , p. 346

نقلا عن :

l'état du monde , éd. 1966 ; La Découverte , Paris , 1995 ; MERIP ;
US Department of Agriculture ; Programme des Nations Unies ;
The Military Balance .

أول قمر تجسسي فوق سورية والعراق وايران. وفي حين ان جميع البلدان العربية موقّعة على معاهدة عدم الانتشار النووي، تبقى اسرائيل وحدها «المسموح» لها امتلاك هذا السلاح وتطويره وتوسيعه في المنطقة.

«إن انتهاء الحرب الباردة إنما هو الحرب» على حد قول سمير أمين. عندما تكلم جورج بوش امام الكونغرس الاميركي عن «النظام العالمي الجديد»، أكد ان دور الولايات المتحدة هو في «منع انتشار الصواريخ البالستية، الكيميائية أو البيولوجية، وفوق كل ذلك التكنولوجيات النووية». ولكن واشنطن، منذ انتهاء حرب الخليج، وقعت عقودًا سنوية قيمتها ٩ مليارات دولار مع دول المنطقة لتسليمها مختلف انواع الاسلحة بعد ان نجحت في إبعاد المنافسين الاوروبيين؛ كما ان هناك ٢٢ ألف جندي اميركي يتمركزون بصورة دائمة في المنطقة، واحتمال التدخل الاميركي المباشر أصبح شيئًا مألوفًا لدى الاستراتيجيين في واشنطن.

إذا كانت كل هذه المعطيات حاضرة في الذهن فقد يُفهم عندها ان سورية عاكفة على تنمية وضع «القلعة المحاصرة» الذي باتت فيه. لكن الحقيقة ان حافظ الأسد (على نقيض ما كان عليه قادة سورية في الستينات) ليس من هذا النوع الذي يتصلب عند الايديولوجيات. فرغم الضعف الذي سبّبه لسورية توقيع مصر اتفاقيات كامب دايفيد، قاد الأسد سورية، سنة بعد سنة، حتى أمّن لها محلاً في الصف الامامي بين دول المنطقة، معتمدًا نهج التمسك بالقوة العسكرية، وفي الوقت نفسه بالدبلوماسية الحازمة والحصيفة في آن.

لمواجهة نحو مئة رأس نووي تمتلكها اسرائيل، دعّمت سورية قوتها العسكرية الكلاسيكية، بما فيها سلاحها الكيميائي. فوقعت مع روسيا عقدًا جديدًا حول تموين بأسلحة جديدة؛ ولتنويع مصادرها، اتجهت دمشق ايضًا ناحية بكين وبيونغيانغ للحصول على سكود-ب. وسخر الأسد من نقد الاميركيين: «الولايات المتحدة تشجع اسرائيل على انتاج كميات من الصواريخ محاولة منعنا من شراء صاروخ واحد! كيف يكون هذا الأمر متوافقًا مع عالم العدالة الجديد الذي يتكلمون عنه؟» (١٢ آذار ١٩٩٢). ويعي الأسد تمامًا تفوق اسرائيل العسكري، لذلك يتجنب المواجهة المباشرة ويحرص على عدم الانزلاق في مغامرة عسكرية. ولإبقاء الضغط على العدو تقدم سورية لحلفائها الدعم الضروري.

ولتجنّب سيطرة اسرائيل والولايات المتحدة الاقتصادية على المنطقة في حال إتمام السلام، تسعى الاستراتيجية السورية إلى الاستناد على اوروبا وعلى شبكة من التحالفات الاقليمية. فقاطعت سورية المؤتمر الثاني للتنمية الاقتصادية في الشرق الاوسط وشمالي افريقيا المنعقد في عمان في ٢٩-٣٠ تشرين الاول ١٩٩٥ بمبادرة من الولايات المتحدة. وبالمقابل، (ورغم المشاركة الاسرائيلية) حضرت سورية مؤتمر برشلونة في ٢٧-٢٨ تشرين الثاني لارساء قواعد «الشراكة الاجمالية» للسنوات العشر القادمة بين اوروبا والبلدان المتوسطية. والمجموعة الاوروبية (الاتحاد الاوروبي) لها حضورها في المنطقة، فهي تساهم بأكثر من ٣٠٪ في تنمية بلدان المتوسط الشرقية؛ ومع ذلك ليست ذات وزن ضاغط بسبب انصياعها لما تمليه واشنطن التي تعمل على إبعادها بانتظام عن مفاوضات السلام (أما شبكة التحالفات الاقليمية، مع ايران على وجه الخصوص ثم مع مصر والعربية السعودية، راجع بشأنها ما احتوته العناوين الفرعية اعلاه في هذا الباب، «عهد الأسد، خاصة تلك التي تبدأ بحرب الخليج الأولى وصاعدًا).

أضعفت ضراوة الهجوم الاميركي على العراق هذا البلد وخلقت فيه وضعًا متفجرًا، خاصة لجهة انبعاث المسألة الكردية. فبؤرة التوتر

هذه كشفت عن شهية تركيا التي لم تعد تخفي رغبتها في تعديل الحدود مطالبة بالموصل (إعلان ديميريل في ٢ ايار ١٩٩٥). وأقلقت هذه التطورات سورية التي ما انفكت علاقاتها بتركيا موصوفة بـ«المتلبدة بالغيوم» منذ سلخ لواء الاسكندرون. أضف إلى ذلك المشاريع الضخمة التي تنفذها أنقرة على الفرات والتي تهدد المشاريع الزراعية السورية، و لم تتوصل سورية إلى الحصول من العالم العربي على دعم فعّال في هذه المسألة. وفي ٢٣ شباط ١٩٩٦، وقعت تركيا واسرائيل اتفاقًا للتعاون العسكري. فرأت سورية إلى هذا الأمر خطرًا مباشرًا على العالم العربي وحلفًا اميركيًا-اسرائيليًا-تركيًا. فأصغت البلدان العربية هذه المرة للتنبيهات السورية، وعقدت قمة القاهرة (حزيران ١٩٩٦) التي دعت تركيا إلى إعادة النظر في اتفاقها مع اسرائيل. وفي الوقت الذي كانت اسرائيل فيه تشن هجومها على جنوبي لبنان (نيسان ١٩٩٦)، كانت تجري تمارين حربية جوية اسرائيلية-تركية قرب أنقرة، ما جعل سورية تشعر بأنها موضوعة بين فكي كماشة، فاستدعت احتياطيها إلى الحدود كإجراء وقائي، واتهمت تركيا، بعد نحو شهر، بانها وراء بعض حوادث التفجيرات على الاراضي السورية بحجة دعم سورية للحزب الكردستاني الذي يتزعمه أوجلان.

عن سورية، كتب إدوار صعب في ١٩٦٧: «هذا البلد الموقوف على مصير كبير، كان ولا يزال مركز ثقل الشرق الاوسط وملتقى نقاطه. فالذي يمسك مقدراته يمكنه ان يتعهد أمن واستقرار البلدان العربية التي تجاوره».

وجاءت احداث المنطقة المتوالية لتؤكد هذه الرؤية. وغالبًا ما كان ظل مصر، عملاق العالم العربي، يقبض على الدور الحقيقي لسورية ويحول دون فهم حقيقته وأهميته. ولقد وقع الغرب، لمدة طويلة، في محدودية نظرته إليها كصخرة معيقة تتحطم عليها الخطط المعتبرة مقبولة. وفقط منذ نحو ١٥ سنة جرى الاعتراف بسورية كلاعب مهم للغاية وكشريك محتوم ومعترف بفضله في كل مبادرة حول مستقبل المنطقة.

(٣) «النظام العالمي الجديد»: (ننقل القسم الاخير من كتاب د.رياض سليمان عواد، «حافظ الأسد والتعددية الاقتصادية في سورية»، دمشق، ١٩٩٧، ط١، ص٢٩٣-٢٩٩: والقسم بعنوان «من اقوال السيّد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية عن النظام العالمي الجديد»):

– «وفي اعتقادنا ايضًا ان مستقبل السلام في العالم مرتبط بالتوصل إلى نظام اقتصادي عالمي جديد يضيق الفوارق الكبيرة بين الشعوب ويحفظ لشعوب العالم الثالث حقوقها في ثرواتها الطبيعية والحصول على موارد عادلة من هذه الثروات تمكنها من السير على طريق التنمية والتقدم»
(من كلمة الرئيس الأسد في مأدبة العشاء التي اقامها على شرفه الرئيس الفرنسي فاليري ديستان ١٧ حزيران ١٩٧٦).

– «وهناك الظلم الاقتصادي الفادح الذي تعاني منه بلدان عدم الانحياز وبلدان العالم الثالث عامة. إن إيجاد نظام اقتصادي عالمي جديد هو أمر أساسي لتحقيق السلام والأمن العالميين، إذ كيف يستتب السلام مع شعور غالبية شعوب العالم بأنها موضع استغلال فظيع، ومحرومة من مقومات التقدم والتنمية الحقيقة.

*** لا يمكن ان يستقر أي نظام عالمي كاملاً، إلا إذا وفّر الحرية لكل الشعوب.**

*** في العالم لا يوجد نظام واحد، لأن تقاليد الشعوب لم تكن دائمًا واحدة، تراثها وثقافتها ليست واحدة.**

*** العالم دائمًا متحرك، وعالم اليوم ليست هذه صورته النهائية.**

*** في ضوء التجارب التاريخية، لم يستقر العالم على صورة، كصورة العالم الآن.**

*** ليس من الصحيح القول بوجود نظام عالمي إسمه نظام جديد، انه ليس نظامًا، انه وضع جديد، حالة عامة.**

*** حالة الفوضى المسماة نظامًا جديدًا عالميًا، من**

سماتها الأساسية فقدان المبادىء، بمعنى انها لا تقوم على المبادىء، وبالتالي لا تقوم على القانون، تقوم على المزاج وعلى عواطف غير مستقرة ايضًا.

* ليس هناك نظام عالمي، هناك مسألة هامة أو وضع عالمي جديد. طالما نقول حالة أو وضع، معناه ليس هو الصيغة النهائية في العالم.

* أي وضع عالمي غير عادل، لن يستطيع ان يحقق الاستقرار العالمي ابدًا.

* حتى يعتاد الناس على نظام عالمي جديد، توجد أمامهم صعوبات، وهذا ما يحدث في يومنا الراهن، تجاه ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

* أحدنا يحتاج إلى زمن لكي يتأقلم مع المستجدات الدولية عند حدوثها.

* أمر طبيعي ان تحدث خلخلة، نتيجة تبديل النظام إلى نظام آخر، ولا تصيب الخلخلة شريحة من الناس، بل تصيب مجموع الناس في البلد. مهما تكن طبيعة النظام، يجب ان ينصب جهد الفرد في بوتقة الجماعة. وهذه الحقيقة تحتاج إلى توعية، إلى جهد مستمر» (في مؤتمر القمة الخامس لبلدان عدم الانحياز، ١٧ آب ١٩٧٦).

- «إن الاساسين الرئيسيين اللذين ينبغي ان يقوم عليهما هذا النظام الاقتصادي المنشود هما العدالة والمساواة. ورسالة السلام واضحة وصريحة في الحض على العدالة والمساواة، غنية بالمبادىء التي تستطيع البشرية ان تعتمد عليها في سعيها نحو إيجاد نظام اقتصادي عادل يساوي بين شعوب الارض صغيرها وكبيرها» (من رسالة الأسد إلى المؤتمر الاقتصادي الدولي في ٥ تموز ١٩٧٧).

- «كما ان الوضع الاقتصادي العالمي يشكل مدعاة لقلق شعوب العالم لأنه لا يحقق العدالة ويتناقض مع ضرورات الامن والسلم الدوليين، ومن الصعب ان يتحقق الاستقرار العالمي بينما أكثرية شعوب العالم تتعرض للاستغلال المستمر من قبل الدول الأكثر تقدمًا. إن الهوة تزداد اتساعًا بين دول الثالث والدول المتقدمة. لا بد من إعادة النظر في النظام الاقتصادي العالمي ويجب ان يتصاعد النضال من اجل ذلك، بحيث يقوم هذا النظام على أسس عادلة تضيّق الهوة بين شعوب العالم وتساعد على التنمية الاقتصادية والاجتماعية بشكل متوازٍ (في الذكرى ٢٥ لثورة ٨ آذار، في ٨ آذار ١٩٨٨).

- «وفي المجال الاقتصادي فإن النظام الاقتصادي العالمي الحالي هو نظام مجحف بحق بلدان العالم الثالث، ولا بد من إقامة نظام اقتصادي جديد يضمن تكافؤًا في العلاقات،ويتيح لشعوب العالم الثالث ان تستثمر ثرواتها الطبيعية لمصلحتها ولمصلحة التعاون الدولي القائم على قاعدة التكافؤ (في المؤتمر السابع لرؤساء دول وحكومات بلدان عدم الانحياز، في ٩ آذار ١٩٨٣).

-« إن في العالم شيئًا جديدًا يجب ألاّ نجهله أو نتجاهله. لقد كان العالم مستقرًا طوال عقود من الزمن وفق توازنات معينة وقد حدثت تغيرات هامة ضمن هذه التوازنات الامر الذي غيّر في ركائز الاستقرار القائم مما سبب خللاً، فحركة مضطربة ليست واضحة الطريق والمحطة الاخيرة، فالعالم يموج الآن» (من كلمة الأسد امام مجلس الشعب بمناسبة أدائه القسم الدستوري، ١٢ آذار ١٩٩٢).

- «إن تعبير النظام الجديد لا يبدو دقيقًا لأن النظام كي يكون عالميًا يجب ان يتمسك بالشرعية وان نكون نحن وغيرنا جزءًا منه، ونحن لا يمكن ان نكون مع نظام ينحاز ضدنا ويعتدي على المعتدى عليه، والتاريخ علّمنا انه لا يمكن لقوة باغية ان تسيطر على العالم، ولا يمكن ان تستقر في السيطرة إلا قوى عادلة يشارك فيها العالم كله، ونتمنى ان يقوم نظام عالمي جديد على أساس من الشرعية والعدل والمساواة بين الشعوب كافة» (في مأدبة الإفطار التي اقامها الأسد تكريمًا للعلماء ولرجال الدين، في ٣١ آذار ١٩٩٢).

- «إن موضوع الشرعية الدولية، نهتم به جميعًا، ولكن عندما يطرح هذا التعبير فإنه يذكرنا بأن هذه الشرعية ليست مستقيمة الطريق، وهذه الشرعية نريدها ان تطبق في كل مكان وليس في مكان يُنتقى انتقاء. نريدها ان تطبق على الجميع وليس على البعض، من هنا نحرص على شرعية دولية حقيقية تحقق السلام في هذا العالم» (في المؤتمر الصحافي في ختام زيارة الرئيس مبارك لدمشق، في ١٣ كانون الثاني ١٩٩٣).

- «إن توفر المساواة والديمقراطية يجعلنا نعيش بتفاهم وتعاون لدفع الحضارة العالمية إلى الامام وتحقيق السلام

وصولاً إلى عالم تنعدم فيه الحروب والفقر والمرض. هذا العالم الجديد الذي يتحدثون عنه سيعيش إذا كان عادلاً تتعامل فيه الدول بحرية ومساواة وديمقراطية» (في لقاء مع العلماء ورجال الدين، في ٢٧ شباط ١٩٩٣).

– **«إن العالم يموج ويمور، ونحن جزء من هذا العالم ولنا اصول وقيم ومفاهيم ومُثُل تتعرض لهزة بل لهزات عنيفة. ونحن في سورية يجب ان ندرك ذلك وان نتحمل مسؤولياتنا لنكون أكثر ثقة بحاضرنا ومستقبلنا. إن التطورات العالمية جعلت الوضع أصعب بكثير لنا ولمجموع بلدان العالم الثالث، والمرحلة التي يمر بها العالم اليوم قد تطول وقد تقصر، وفي هذا المناخ العالمي يجب ان نفكر طويلاً، وان نجاهد طويلاً كيلا نخطىء الطريق»** (في لقاء مع العلماء ورجال الدين بمناسبة شهر رمضان، في ١٧ آذار ١٩٩٣).

– **«نحن لا نتجاهل وضع العالم اليوم، ولا نبتعد عن التطورات الهامة التي جرت في العالم، ولكن نقول بصدق إن المستقبل العربي سيكون سيئًا جدًا إذا خضع لاعتبارات وهمية. إن الوضع العالمي الجديد لم يتبلور بعد، ولم يصل إلى صورة نهائية، وهذا ما يدعونا لأن نكون يقظين، كما ان شعوبًا كبيرة في العالم متيقظة ولا تشعر بطمأنينة كاملة لهذا الوضع»** (من حديث الأسد إلى رئيس مجلس ادارة صحيفة الاخبار المصرية، في ٢١ ايلول ١٩٩٣).

«ندعو إلى تحقيق عالمية حقيقية لمعاهدة انتشار السلاح النووي دون أي استثناء، لأن استثناء أي دولة من الانضمام لمعاهدة انتشار السلاح النووي سوف يقوّض مصداقية هذه المعاهدة ويجهض أهدافها، الأمر الذي يفتح الباب أمام سباق جديد للتسلح يحمل في طياته مخاطر جسيمة على البشرية جمعاء» (من رسالة الرئيس الأسد إلى الرئيس سوهارتو في الذكرى الاربعين لمؤتمر باندونغ، في ٢٣ نيسان ١٩٩٥).

الاحزاب

الاحزاب والجمعيات في سورية حتى نهاية الانتداب: إضافة إلى ما تقدم سابقًا عن مختلف الجمعيات والاحزاب (في باب «الانتداب»)، وما سبقه من موضوعات في اواخر العهد العثماني حتى الحرب العالمية الاولى)، نوجز الكلام بالتالي:

كان اول الاحزاب السورية هو حزب الاتحاد السوري الذي تألف إبان الحرب العالمية الاولى في القاهرة، بعد ان تقدمت لجنة تعمل في نطاق حزب اللامركزية، مؤلفة من سبعة اشخاص هم: رفيق العظم، د.شهبندر، فوزي البكري، الشيخ كامل القصاب، خالد الحكيم، مختار الصلح وحسن حماده، بكتاب إلى وزير الحربية البريطانية طرحوا فيه سبعة اسئلة تتعلق بحدود البلاد العربية وموقف بريطانيا من استقلال العرب. فصدر إليهم التصريح المعروف بـ«العهد البريطاني» (١٦ حزيران ١٩١٨). وأعلن هذا الحزب برنامجًا من ١٤ مادة تهدف إلى تكوين دولة سورية بوحدتها القومية من طوروس شمالاً إلىالعقبة جنوبًا، ومن الفرات والصحراء شرقًا إلى البحر الابيض المتوسط غربًا.

وفي شباط ١٩١٩، نشأ حزب الاستقلال الذي انبثق عن جمعية العربية الفتاة، وحزب التقدم وهو المظهر البرلماني لحزب الاستقلال. وتألف الحزب الديمقراطي وهو الجبهة البرلمانية المحافظة في

معارضـة الجبهـةا لبرلمانيـة للعربيـة الفتـاة. وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٠، نشأ الحزب الوطني السوري وتميز بوجـود عـدد مـن الاشـراف الحجــازيين في صفوفـه والوجهـاء. وقـد تميزت هــذه الاحــزاب بنزعتها القومية.

بعد إخراج فيصل من دمشق، تولى حـزب الاتحـاد السـوري في القـاهرة الدعـوة إلى مؤتمـر في جنيـف اشــترك فيــه حــزب الاســتقلال العربــي والجمعيـة الاسـلامية المسيحية في نـابلس والوفـد الفلسطيني واللجنـة الفلسـطينية في مصـر والجمعيـة الوطنية السورية في بوسطن والحزب الوطني العربي في الارجنتين وحـزب تحريـر سـورية في نيويـورك وحزب ا سـتقلال سـورية ووحدتهـا في سـانتياغو (تشـيلي)، وغيرهـا، انبثقـت عنـه اللجنـة التنفيذيـة للمؤتمر السوري-الفلسطيني.

وفي داخل سورية، أخذت تظهر الاحـزاب والجمعيات السرية، منها: الحزب الحديدي، حـزب الشبيبة، حزب الاحرار، حزب سورية الفتـاة؛ وفي وثـائق وزارة الخارجيــة الفرنســية ترجمـة لبعـض نشـراتها. ثـم تـألفت جمعيـة حقــوق الانســان في ١٩٢٤ كواجهة لمناهضـة الانتـداب. وفي ١٩٢٥، تـألف حـزب الشـعب وأذن لـه رسميًا بعقــد اول اجتمـا ع في ايـار ١٩٢٥ ولعــب دورًا رئيسـيًا في ثورة ١٩٢٥. وفي تشـرين الاول ١٩٢٧، ظهـرت الكتلـة الوطنيـة الـتي تجمـع فيهـا كبـار الملاكـين والبورجوازيـين في البـلاد مــن مختلــف الاحــزاب واخذت تلعب الدور الرئيسي في القيادة الوطنية في معارضة الاحزاب والقوى المتعاونة مع الانتداب.

وعلى أثـر ظهـور الكتلـة الوطنيـة وحتــى ١٩٣٥، عند بلوغ المد الوطـني في ذروتـه، عرفـت سورية اكـثر مـن ٢٥ حزبًا كـان اهمهـا: حـزب الاصـلاح برئاسـة حقـي العظـم، وحـزب الاتحـاد الوطـني برئاسـة سـعيد محاسـن وزيـر الداخليــة في حكومـة الشـيخ تـاج، والحـزب الملكــي ومعظــم اعضائه من رجال الجندية القدمـاء، وحـزب الامة الملكي الذي تميز بدعوته إلى الانتخاب علـى درجـة واحدة، والرابطة الملكية، والحزب الحر الدستوري، وحـزب الائتـلاف، والجبهــة المتحــدة، والاتحـاد الوطني العام، والحزب الشيوعي السوري، والحزب السوري القومي الاجتماعي وعصبة العمل القومي.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانيـة، تلاشـت اكـثر هــذه الاحــزاب، وتزايــدت قــوة الحــزب الشيوعي والحــزب الســوري القومـي الاجتمـاعي، وظهر حـزب البعـث بزخـم، وكذلـك «الاخـوان المسلمون»؛ وصمدت، إلى سنوات، الكتلة الوطنية وعصبة العمل القومي. وهذه الاخيرة (عصبة العمل القومي) نشـأت في سـورية في ١٩٣٣، وتأسسـت لها فروع في البلدان العربية المجـاورة، مـن زعمائهـا عبـد الـرزاق الدندشـي وصـبري العسـلي وفهمــي المحـايري، وانضـم قسـم مـن رجالاتهـا إلى الكتلـة الوطنية بعد التوقيع على معـاهدة ١٩٣٦، وتعـاون القسم الاكبر مع جناح شـكري القوتلـي المعـارض داخل الكتلة. وخلال الحرب العالمية الثانية، فقدت العصبة تماسكها.

الكتلة الوطنية: بدأت بيانات «الوطنيـين» في سـورية تصــدر منــذ ١٩٣١ باســم «الكتلـة الوطنية» مذيلة بتوقيع هاشم الاتاسي. وكانوا قـد أخذوا يُعرفون في اعقاب الثـورة السـورية الكـبرى باسم «الوطنيين» لتمييزهم عن «المتعاونين» الذيـن كان على رأسهم حقي العظم أو الداماد أحمد نامي أو صبحي بركات أو الشـيخ تـاج الديـن الحسـني. وتوجـت هـذه المرحلـة ببيـان «الوطنيـين» الشـهير الذي صدر عقب أول مؤتمر عقد في بيروت في ١٩ تشـرين الاول ١٩٢٧ لـلرد علـى بيـان المفـوض السامي الجديد بونسو الذي دعا فيـه إلى «التعـاون النزيــه» (مــن هنــا «الوطـــني» الـــذي يقابلـــه «المتعـاون»). وعلـى أثـر ذلـك خـاض الوطنيـــون انتخابات الجمعية التأسيسـية في ١٩٢٨ في دمشـق وحمص وحماه وحلب، ونجحوا بالفوز برئاسة هـذه

الجمعية وبالسيطرة على لجنة صياغة الدستور، وأخذت مواقفهم من الخلاف مع المفوض السامي تزيد صفوفهم تماسكًا.

إلا ان الكتلة الوطنية لم تعلن قانونها الاساسي ونظامها الداخلي إلا في مؤتمر حمص في ٤ تشرين الثاني ١٩٣٣. وقد تضمنت تشكيلاتها التنظيمية العليا:

– المكتب الدائم، وتألف من سبعة اعضاء ينتخبهم مجلس الكتلة لمدى الحياة، وانتخب هاشم الأتاسي رئيسًا وابراهيم هنانو وفارس الخوري نائبين للرئيس وجميل مردم سكرتيرًا وشكري القوتلي امينًا للصندوق.

– مجلس الكتلة وتألف من ٣٨ عضوًا، إضافة إلى الاعضاء الطبيعيين في المجلس وكانوا خارج سورية: د.عبد الرحمن الشهبندر (المقيم في القاهرة)، إحسان الجابري والامير شكيب ارسلان ورياض الصلح (المقيمون في جنيف باسم المؤتمر السوري-الفلسطيني) بالاضافة كذلك إلى ثمانية اعضاء من لبنان.

وبالنظر إلى مبادئها الاساسية، وخاصة المتعلقة منها بوحدة البلاد السورية، نلاحظ تحولاً لدى الكتلة من المادة ٢ من دستور ١٩٢٨ (الذي تعتبره اهم مفاخرها) التي تنص على ان «البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية ذات وحدة سياسية لا تتجزأ ولا عبرة لكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب حتى اليوم»، ثم تتنازل، في مفاوضاتها مع فرنسا حول معاهدة ١٩٣٦، عن مطالبتها باستفتاء لبنان على الوحدة مع سورية، وعن الاقضية الاربعة.

لقد ضمت الكتلة الوطنية بين صفوفها شخصيات الاحزاب القديمة: الاستقلال، الشعب، الوطني الديمقراطي، واعضاء من الأسر العريقة وكبار الملاكين والتجار؛ كما ضمت ممثلين عن التيارين السياسيين الكبيرين في البلاد: تيار الاتجاه إلى العراق والولاء للهاشميين، وتيار الاتجاه إلى المملكة العربية السعودية.

بعد فشلها في الحكم (١٩٣٧)، عادت إليه مرة أخرى بزعامة شكري القوتلي. ثم ما لبثت ان انشقت إلى حزبين وتيارين، ثم تلاشت امام الانقلابات العسكرية منذ بداية الخمسينات (راجع الابواب ومختلف العناوين المتعلقة بفترة الانتداب وحتى «الجمهورية العربية المتحدة»).

حزب الشعب: أسس في سورية في ١٩٢٠ للدعوة إلى الوحدة العربية. من أهم اهدافه إلغاء الانتداب وإقامة جمهورية سورية في نطاق الاتحاد مع جميع البلدان العربية المستقلة، وكان من ابرز اعضائه عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وسعيد الغزي وتوفيق شامية. يرجع إلى نشاط الحزب اشتعال ثورة ١٩٢٥ في دمشق وجبل العرب، ولما قضت عليها السلطات الفرنسية وحكمت على الزعماء بالنفي ضعف الحزب وتفرق شمله. سمح بعد سنوات بعودة الزعماء، وتألفت الهيئة الشعبية بزعامة الشهبندر. وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية، أعيد تأليف حزب الشعب في حلب ببرنامج يستهدف مقاومة الدعوة الاشتراكية والشيوعية، واكتسب نفوذًا كبيرًا في شمالي سورية، وتمكن بزعامة رشدي الكيخيا وناظم القدسي ان يؤلف معارضة قوية، وفاز في انتخابات ١٩٤٩ وألف الحكومة برئاسة القدسي. وفي كانون الاول ١٩٥١، حلّ أديب الشيشكلي مجلس النواب، ثم الاحزاب السياسية. لكن بعد القضاء على نظامه الدكتاتوري، برز حزب الشعب ثانية في انتخابات ١٩٥٤، وصار القوة السياسية الثانية في البلاد. ظفر القدسي برئاسة مجلس النواب واصبح في طليعة المرشحين لرئاسة الجمهورية. وفي خلال العامين التاليين، فقد الحزب شعبيته امام مدّ البعث العربي. وبقيام الوحدة بين مصر وسورية حلّ مع بقية الاحزاب.

الحزب السوري القومي الاجتماعي: جاء في «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ج٢، ط١، ١٩٨١، ص٣٠٨-٣١٠) ما حرفيته:

حزب سياسي اقليمي الانتشار، مجال نشاطه سورية الطبيعية، ولبنان اهم مواقعه:

أسس انطون سعاده (من بلدة الشوير قضاء المتن الشمالي في لبنان) الحزب السوري القومي الاجتماعي في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٢. وكانت الخلية الاولى لهذا الحزب تضم طلابًا من الجامعة الاميركية في بيروت حيث كان سعاده يدرّس اللغة الالمانية. وقد نصّت مبادىء الحزب على إقامة نظام جديد في سورية الطبيعية التي حددها سعاده في المبدأ الاساسي الخامس:

«الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامة السورية. وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الاحمر في الجنوب، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب، شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية والخليج العربي في الشرق».

وقد ركزت مبادىء هذا الحزب على فصل الدين عن الدولة (العلمنة) وإقامة نظام إقتصادي جديد. وحدّد سعاده غاية حزبه بقوله: «غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الامة السورية حيويتها وقوتها، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الامة السورية استقلالاً تامًا وتثبيت سيادتها، وتأمين مصالحها ورفع مستوى حياتها، والسعي لانشاء جبهة عربية».

بقي الحزب سريًا إلى ان اكتشف امره من قبل سلطات الانتداب الفرنسي في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٥ حيث اعتقل مؤسس الحزب وعدد من قياداته، وحكم عليه بالسجن عدة اشهر. وبعد خروج سعاده من السجن نشر كتابه الاساسي «نشوء الامم» الذي أنجزه في السجن، وتضمن المنطلقات النظرية الاساسية في كيفية نشوء الامم وتحديد معنى الامة. وقد انتشر الحزب في الثلاثينات في لبنان وسورية ولاحقت سلطات الانتداب اعضاءه واعتقل مؤسسه مرتين، وفي المرة الثالثة استطاع الهرب إلى اميركا الجنوبية. وفي غيابه، استمر الحزب في نشاطه.

بعد استقلال لبنان (١٩٤٣)، انتهجت قيادة الحزب (أسد الأشقر، نعمه ثابت ومأمون أياس) خطًا لبنانيًا إنعزاليًا في غياب انطون سعاده الذي اضطر للبقاء في الارجنتين لأن السلطات الفرنسية كانت تلاحقه بتهمة العمل ضد سلطات الانتداب بتحريض من قوى المحور.

عندما عاد انطون سعاده إلى بيروت في ٢ آذار ١٩٤٧ ألقى خطابًا في حشد ضخم جاء لاستقباله حمل فيه على الكيان اللبناني وعلى فكرة انعزال لبنان. وعلى الفور أصدرت السلطات اللبنانية مذكرة توقيف بحقه. وقد استطاع سعاده ان يتوارى عن الانظار حوالي تسعة أشهر قام خلالها بتطهير قيادة الحزب من العناصر التي نادت بـ«الواقع اللبناني»، وعزل القيادات كافة التي اعتبرها منحرفة. وبعد ان تم ترتيب الاوضاع بين الحزب والسلطة اللبنانية بالغاء مذكرة التوقيف عاد سعاده ليكشف نشاطه العلني وليقوم بجولات على فروع الحزب كافة في لبنان وسورية.

وخلال سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩، حدثت مجابهة سياسية عنيفة بين الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب الكتائب اللبنانية المدعوم من السلطة اللبنانية، وانتهت المجابهة بحادث الجميزة في ١١ حزيران ١٩٤٩ حيث هاجمت ميليشيا الكتائب مطابع جريدة «الجيل الجديد» التي كان يصدرها انطون سعاده. وفي اليوم التالي، استنفرت قوات الجيش والشرطة وبدأت بملاحقة انطون

سعاده واعضاء الحزب. ولجأ سعاده إلى دمشق حيث ما لبث ان أعلن ثورته على الحكومة اللبنانية، وهاجمت ميليشيا الحزب مخافر الدرك في عدة مناطق من لبنان، واستمرت المناوشات بين اعضاء الحزب والسلطات اللبنانية إلى ان قام حسني الزعيم، رئيس سورية آنذاك، بتسليم انطون سعاده إلى السلطات اللبنانية التي عمدت إلى إعدامه على الفور، وذلك في ٨ تموز ١٩٤٩.

بعد إعدام سعاده، دخل الحزب مرحلة جديدة. فسار خلال الخمسينات في خط سياسي مضاد لحركة القومية العربية الصاعدة الممثلة بحزب البعث العربي الاشتراكي وبالحركة الناصرية. وقد عمد أحد اعضاء الحزب إلى قتل عدنان المالكي، الضابط البعثي (حول هذه الحادثة البالغة الاهمية على مسار الحزب في سورية ولبنان، راجع «عدنان المالكي» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة») في دمشق في ٢١ نيسان ١٩٥٥. وعلى الفور بدأت سلسلة ملاحقات بحق اعضاء الحزب وحظر نشاطه في سورية، فلجأت قيادته إلى بيروت، وحدث بعد ذلك إنشقاق فقاد جورج عبد المسيح مجموعة في حين قاد اسد الاشقر الذي أعيد إلى صفوف الحزب مجموعة أخرى.

استمر اسد الاشقر في اتجاهه السياسي المعروف بـ«اللبناني» أو «الواقع اللبناني»، وقاد الحزب في مواجهة الناصرية وانتفاضة ١٩٥٨ اللبنانية. وقد اثرت هذه المواقف على نمو الحزب وانتشاره نتيجة إبتعاده عن المنطلقات النظرية لمؤسسه.

جرت محاولات ترميم لوضع الحزب في اواخر الخمسينات لكن هذه المحاولات توقفت بعد ان نفذ الحزب انقلابًا فاشلاً في لبنان في ١٩٦١ واعتقل معظم قياداته لفترة امتدت حتى ١٩٦٨.

المرحلة الجديدة في تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي بدأت عمليًا بعد «مؤتمر ملكارت» (آذار ١٩٦٩) الذي عقده بعد الافراج عن قادته في لبنان. وفي هذا المؤتمر برز للمرة الاولى، ومنذ اعدام المؤسس، خط سياسي جديد يدين بشكل حازم «الممارسات اليمينية والتعاون مع الرجعية»، وفي ذلك إشارة واضحة إلى احداث ١٩٥٨ في لبنان، والتعاون بين قيادات الحزب المتلاحقة في الخمسينات وبين «القوى الرجعية الاستعمارية»، وشدّد قادة الخط السياسي الجديد على يسارية الحزب وعلى ان منطلقاته اشتراكية، كما اعتبر ان المنطلقات النظرية للحزب ليست مضادة للعروبة. وقد لعبت عدة عوامل في نشوء هذا التيار الجديد داخل صفوف الحزب، أهمها نمو المقاومة الفلسطينية، وتطور حركة الكفاح المسلح، وما افرزه من جو ثوري؛ وهزيمة حزيران (حرب ١٩٦٧)، وأثرها على القوى والتنظيمات الشعبية كافة.

ضمن هذه الظروف والعوامل، أعلن قادة الحزب التزامهم بالثورة الفلسطينية ووقوفهم إلى جانب القوى اليسارية (الحركة الوطنية اللبنانية). ومع هذه الانطلاقة الجديدة حدثت مواجهة بين التيار اليميني الذي يريد إبقاء الحزب في مسيرته السابقة (أسد الأشقر-عصام المحايري) وبين التيار اليساري (عبد الله سعاده-إنعام رعد). واستمرت المواجهة إلى ان تمّ خروج المجموعة اليمينية بقيادة الياس جرجي قنيزح التي اعلنت عن رفضها العمل في إطار الحركة الوطنية اللبنانية، في حين ان التيار اليساري ظل ملتزمًا مقررات مؤتمر ملكارت، فوقف جنبًا إلى جنب مع حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية (إلى هنا ينتهي ما جاء في «موسوعة السياسة»؛ وراجع «لبنان» في ج١٣، لاحقًا، في هذه الموسوعة).

الحزب الشيوعي السوري: مع تأسيسه، في اوائل العشرينات حتى ١٩٤٣ كان اسمه «الحزب الشيوعي السوري-اللبناني»، ذلك ان الشيوعيين في سورية ولبنان عقدوا اول اجتماع

لهم في تشرين الثاني ١٩٢٤، وقرروا فيه إنشاء حزب شيوعي. وقد انبثق عن الاجتماع لجنة مركزية ضمت فؤاد شمالي ويوسف ابراهيم يزبك وفريد طعمة، وكان اول قرار لها إنشاء واجهة علنية للحزب تحت إسم «حزب الشعب اللبناني» واصدار جريدة «الانسانية» لتكون الناطقة باسمه. وبعد ذلك انضمت إليه «عصبة سبارتاكوس» الارمنية التي كان قد أسّسها أرتين مادويان وهيكازون بويادجيان في ١٩٢٠ وذلك على اثر الاحتفال الذي اقامه الشيوعيون في بيروت بمناسبة اول ايار ١٩٢٥ (عيد العمال العالمي). وقد حضر جوزف برغر الاجتماع التأسيسي بوصفه مندوبًا عن الكومنترن.

وفي العام نفسه (١٩٢٥)، اعاد الحزب تنظيم صفوفه وانتخب لجنة مركزية من ٥ اعضاء هم: أرتين مادويان، هيكازون بويادجيان، يوسف يزبك، فؤاد الشمالي وجاكوب تيبر. وكان هذا الاخير يهوديًا روسيًا هاجر إلى فلسطين ثم قدم منها إلى بيروت حيث لعب دورًا كبيرًا في الحزب تحت إسم حركي هو «الرفيق شامي». وعقد الحزب مؤتمره الاول في كانون الاول ١٩٢٥ فأدخل عضوين جديدين إلى اللجنة المركزية، وحضر المؤتمر ١٥ مندوبًا عن منظمات بيروت وزحلة وبكفيا وحلب ولواء الاسكندرون ودمشق.

ساند الحزب الشيوعي الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥)، وأصبح فؤاد الشمالي الامين العام للحزب، وظل في هذا المنصب حتى ١٩٣٣، وكان الحزب، تحت قيادته، يركز على المهام الوطنية والقومية منسقًا بينها وبين المهام الاممية. وحلّ خالد بكداش محل فؤاد الشمالي (١٩٣٣)، وبدأ الحزب تحت قيادته يولي المهام الاممية اهتمامه الاول، ويقيم علاقات قوية مع الحزب الشيوعي الفرنسي. ومع وصول «الجبهة الشعبية» في فرنسا إلى الحكم (١٩٣٦)، أصبح تعاون الحزب الشيوعي السوري اللبناني معها هو حجر الاساس في سياسة هذا الحزب، كما اصبحت المعاهدة السورية-الفرنسية (١٩٣٦) هي المطلب الأكثر إلحاحًا بالنسبة إليه. أما القوى القومية المعارضة للمعاهدة ولحكومة الكتلة الوطنية، فقد أخذ الحزب الشيوعي يهاجمها في إطار سياسة انتهجها تدعو إلى «تهدئة وطنية وطبقية» لا تزعج سلطات الانتداب الفرنسي. فالمسألة الوحيدة التي كانت تستحق النضال، في رأيه، آنذاك هي مسألة النضال ضد الفاشية التي كانت تهدد الاتحاد السوفياتي «قاعدة الثورة الاشتراكية في العالم». ففي مطلع ١٩٣٧ ابتدأت تركيا تطالب بضم لواء الاسكندرون إليها مستفيدة من تنافس دول المحور والدول الاوروبية المعادية لها (فرنسا وبريطانيا) لكسبها إلى جانبها. وخوفًا من انحياز تركيا إلى المحور عمدت فرنسا (الحكومة الاشتراكية) بالاتفاق مع بريطانيا إلى سلخ لواء الاسكندرون عن سورية وضمه إلى تركيا. وقد بادر الحزب الشيوعي السوري إلى تأييد هذه المعاهدة دون غيره من القوى والاحزاب السياسية في سورية، مما أدّى إلى عزله عن حركة النضال القومي وجعل العديد من اعضائه يتخلون عنه.

استمر الحزب الشيوعي السوري-اللبناني في مهادنته للانتداب حتى بعد سقوط حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، وأعلن بعض قادته (خالد بكداش، رفيق رضا، فرج الله الحلو ونقولا الشاوي) استعدادهم للتطوع في الجيش الفرنسي. غير ان هذا الموقف لم ينقذ الحزب من الملاحقة، فعاد مجددًا إلى العمل السري. وخلال ١٩٤٠-١٩٤١، اعتقل عدد من قادته بينهم فرج الله الحلو ورشاد عيسى. ومع الغزو النازي للاتحاد السوفياتي ودخول القوات الانكليزية والفرنسية إلى سورية ولبنان في ١٩٤١ بذل الحزب الشيوعي نشاطًا كثيفًا للدعوة إلى التعاون مع فرنسا، «حليفة الاتحاد السوفياتي».

في هذه الاجواء، عقد الحزب مؤتمره الثاني دون ان يشير إلى مؤتمره الاول (١٩٢٥) ومكتفيًا بالقول «إنه اول مؤتمر علني يعقده الحزب»، ودعاه رسميًا «المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في سورية ولبنان». وبصدد هذا المؤتمر قال بكداش (في محاضرة ألقاها في فندق النورماندي في ٢٧ شباط ١٩٤٤) إنه قد عقد على اثر حل الاممية الشيوعية بوصفها مركزًا دوليًا للحركة الشيوعية العالمية... (وإن هذا الحل) قد جعل حزبنا مستقلاً تمامًا في إطاره الوطني فلم تبق له اية صلة مع أي مركز دولي. وقد تحرر بشكل خاص من الالتزامات الناجمة عن النظام الداخلي للاممية الشيوعية وعن مناهجها وقرارات مؤتمراتها الدولية السابقة». وأهم قرارات المؤتمر هي تلك الخاصة بوجود حزبين شيوعيين منفصلين نظريًا ولكن متحدين عمليًا تحت سلطة مركزية واحدة برئاسة خالد بكداش. وكان أبرز اعضائها: فرج الله الحلو، نقولا الشاوي، رشاد عيسى، مصطفى العريس، يوسف خطار الحلو وعبد القادر اسماعيل؛ وكذلك إقرار الميثاق الوطني الذي كان اول برنامج معلن للحزب الشيوعي في سورية ولبنان تميز بخطه الاصلاحي البورجوازي وبتجاهل قضية بناء الاشتراكية وتحقيق اصلاح زراعي. وقد برّر خالد بكداش ذلك بقوله «إن ميثاقنا ليس ميثاقًا للشيوعيين وحدهم أو لطبقة واحدة معينة. انه ميثاق جميع الوطنيين المخلصين، جميع العمال والفلاحين والمعلمين والطلاب والتجار والصناعيين الوطنيين. انه يريد ان يكون ميثاق الامة بأسرها».

وفي ٢٣ تموز ١٩٤٤، اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان وقررت تحقيق استقلالية كل حزب تنظيميًا وماليًا على ان يستمر التعاون في الشؤون السياسية. واستمرت لجنة مشتركة للاشراف على صحيفة الحزب الصادرة في بيروت إلى ان يصبح للحزب الشيوعي السوري جريدة خاصة به.

اعطت نهاية الحرب العالمية الثانية، بانتصار الحلفاء وبروز الاتحاد السوفياتي، زخمًا جديدًا للشيوعيين، فشهد الحزب آنذاك احدى أهم فترات توسعه إلى ان جاءت حرب فلسطين لتوجه إليهم ضربة غير متوقعة بسبب موقف الاتحاد السوفياتي المؤيد لتقسيم فلسطين (٢٩ كانون الاول ١٩٤٧)، ثم اعترافه باسرائيل (١٩٤٨). وبدلاً من ان تتذرع قيادة الحزب بـ«استقلاليتها» التي حصلت عليها بعد حل الكومنترن في ١٩٤٣، إذا بها تنهي حملتها ضد مشروع التقسيم، لا بل دأبت على تبريره. فمنعت السلطات السورية واللبنانية الحزبين الشيوعيين. فعادا إلى العمل السري، واعادا مؤقتا توحيدهما برئاسة خالد بكداش.

بعد وفاة ستالين (١٩٥٣)، استفاد الحزب الشيوعي في سورية (ولبنان) من الخط الجديد للقيادة السوفياتية المؤيد لحركة التحرر العربي، وعاد النشاط إليه، ولعب دورًا بارزًا في مناهضة حلف بغداد ومشروع الدفاع المشترك، وأسهم في سقوط الشيشكلي، وكان خالد بكداش اول شيوعي ينتخب نائبًا في الدول العربية.

في ١٩٥٦، أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان ان الوحدة العربية اصبحت ضرورة حتمية. وعادت اللجنة إلى تأكيد موقفها هذا في كانون الثاني ١٩٥٨ عشية قيام الوحدة بين مصر وسورية. إلا ان خالد بكداش، وكان خارج سورية، ناهض قرار اللجنة وتسبّب في ازمة داخل الحزب، وطال قمع سلطات الوحدة عددًا كبيرًا من الشيوعيين. وفي فترة الانفصال، سيطر بكداش على الحزب وعمل جاهدًا لتأييد حكم الانفصال.

بعد حركة شباط ١٩٦٦، دخل لأول مرة في سورية وزير شيوعي إلى الحكومة هو سميح عطية، وسُمح للحزب بمزاولة نشاطه ضمنًا، أي بدون تصريح رسمي. ولم يتكرس ذلك رسميًا إلا بعد الحركة التصحيحية، في ١٩٧٠، ودخول

الحزب الشيوعي فيها بممثلين في لجنتها المركزية وبوزيرين في الحكومة. وفي الوقت الذي تمّ فيه تخصيص دور محدد للحزب في السياسة الرسمية من خلال الجبهة الوطنية والتقدمية، فقد منع من ممارسة نشاطه بين الطلاب والعسكريين.

في ١٩٦٩، وفي المؤتمر الثالث للحزب (بعد انقطاع ٢٥ عامًا)، انتخب خالد بكداش امينًا عامًا، ومكتبًا سياسيًا ضمّ، بالاضافة إلى بكداش، ابراهيم بكري، دانيال نعمة، رياض الترك، ظهير عبد الصمد، عمر قشاش ويوسف فيصل. انتقد المؤتمر ممارسات الحزب السابقة و«خرق العمل الجماعي ومبادىء المركزية الديمقراطية... وتبني مواقف فكرية وسياسية غير صحيحة... كالنقص في موقفنا من قضية الوحدة العربية...» وقد أقرت خلال المؤتمر وثائق ابرزها النظام الداخلي، وبرنامج اقتصادي وآخر زراعي. لكن المؤتمر لم يقر البرنامج السياسي بسبب الانقسام الذي أثاره بين انصار خالد بكداش وخصومه. واستمر الخلاف بعد المؤتمر، وكان له انعكاسات سياسية منها الموقف من العمل الفدائي ومشروع روجرز. وعرض الخلاف على «الرفاق السوفيات من علماء وساسة» الذين مالوا لجانب بكداش ويوسف فيصل في مواجهتهما لخصومهما، ابرزهم دانيال نعمة، ظهير عبد الصمد، رياض الترك ويوسف نمر. وفي اواخر كانون الاول ١٩٧٣، عقد المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي السوري الذي لم يوفق في توحيد جناحي الحزب، بل كرّس انقسامه إلى حزبين. ولم تعترف الحكومة السورية إلا بالجناح الموالي لبكداش كعضو في الجبهة الوطني التقدمية، وشارك في الحكومة بوزيرين، واصبح له سبعة مقاعد في مجلس الشعب (١٩٧٩).

واستمرت انقسامات الحزب حتى وصلت إلى ان تكون موزعة إلى ستة فصائل:

- الحزب الشيوعي السوري (جناح خالد بكداش)، وهو البنية الاساسية التي تفرعت عنها المجموعات الاخرى.
- «جناح رياض الترك»، وهو أول جناح يخرج من الحزب ويتبنى طروحات جديدة الآفاق خصوصًا على صعيد الوحدة العربية والقضية الفلسطينية والعلاقة مع السوفيات.
- «منظمات القاعدة»، وهو الجناح الذي تزعمه مراد يوسف اثر أزمة ١٩٧٩ وظلت طروحاته قريبة من خالد بكداش.
- «جناح يوسف الفيصل»، وهو الجناح الذي خرج بدوره اثر الازمة التي تصاعدت في اواسط الثمانينات.
- «حركة اتحاد الشيوعيين في سورية»، وهي تنظيم خرج عن جناح رياض الترك بزعامة يوسف نمر.
- «اللجنة الموقتة في سبيل وحدة الحزب الشيوعي السوري المبدئية»، وتتضمن مجموعة الكادرات التي وقفت على الحياد، ويتزعمها الدكتور بدر الدين السباعي.
- إضافة إلى هذه الفصائل، ظهرت مجموعات شيوعية صغيرة حاولت النهل من تجربة غيفارا والتروتسكية وتجربة اليسار الجديد في العالم، مستفيدة من الارضيتين اللبنانية والفلسطينية، لكنها بقيت عاجزة عن الفعل، وحتى عن إصدار نشرة؛ وكان الشيوعيون «التاريخيون»، بمختلف فصائلهمن يدينون طروحاتهم الفكرية وممارستهم ويعتبرونها من قبيل «المغامرة العابرة».
- «وفي الاطار الشيوعي كذلك، أو الأصح الاطار «الماركسي القومي» يمكن الحديث ايضًا عن مجموعة علي صالح السعدي التي كانت في حزب البعث ثم قرأت الماركسية بطريقتها الخاصة، وشكلت حزبًا إسمه «حزب العمال الثوري»، وهو حزب قومي ماركسي نظّر لطروحات ياسين الحافظ الذي اشتهر مع الياس مرقص بنقدهما العنيف لبرامج الاحزاب الشيوعية

العربية والماركسية السوفياتية كما كان يسميانها. ويعتمد هذا الحزب على النخبة المثقفة التي تطرح افكارها ضمن هذا الاطار. وقد جمعت اعمال ياسين الحافظ بعد موته ونشرت على التوالي، ومن أهمها: الهزيمة والايديولوجيا المهزومة وكانت موجودة في المكتبات السورية عند صدورها. ومن بين الشخصيات التي تولت قيادة هذا الحزب حمدي عبد المجيد وطارق ابو الحسن، وهو شخصية ادارية معروفة، ويعمل في وزارة النفط السورية. واثارت طروحات ياسين الحافظ نقاشات جادة عند صدورها، إلا ان الشيوعيين السوريين اعتبروها تحريفية، وعوملت باهمال من قبلهم. لكن تقاربًا حصل في السبعينات بين حزب العمال الثوري وجناح المكتب السياسي في الحزب الشيوعي السوري الذي يقوده رياض الترك. وفي ما بعد اعاد الحزب الشيوعي السوري الموحد (يوسف- الفيصل) الاعتبار إلى الياس مرقص وياسين الحافظ في المؤتمر السابع بعد ان غير هذا الحزب برنامجه متبنيًا طروحات جديدة تتعلق بالقضية الفلسطينية والوحدة العربية في مرحلة ما بعد البيريسترويكا» (عماد نداف، كاتب وصحافي سوري، «الحياة»، ١٦ ايلول ١٩٩٦).

جرت محاولات حثيثة لاعادة وحدة الشيوعيين السوريين منذ نحو ربع قرن. و لم تثمر هذه المحاولات إلا في ١٩٩١ عندما توحدت غالبية الفصائل المذكورة في فصيل واحد تحت إسم «الحزب الشيوعي الموحد» (يوسف الفيصل بالتعاون مع دانيال نعمة ومراد يوسف ويوسف نمر وظهير عبد الصمد وابراهيم البكري). فأصبح الشيوعيون السوريون موزعين بين هذا الحزب وبين «الحزب الشيوعي السوري» (خالد بكداش، وبعد وفاته تولت زوجته وصال فرصة قيادة الحزب). والحزبان ممثلان الآن في الجبهة الوطنية والتقدمية وفي مجلس الشعب. ويقف الشيوعيون السوريون الآن بجدية امام تقييم مرحلة التحالف الماضية مع حزب البعث من منطلق الحفاظ على هذا التحالف والعمل على تطويره في مواكبة المتغيرات الدولية والاقليمية.

الاشتراكيون العرب، «الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي»: بلغ الاشتراكيون أوج قوتهم مع أكرم الحوراني، في الخمسينات وعند انضمامهم إلى حزب البعث العربي الذي اتخذ، مع هذا الانضمام إسم «البعث العربي الاشتراكي». لكنهم، مع قيام الحركة التصحيحية، ومن ثم الجبهة الوطنية التقدمية، كانوا مشتتين، وكانت المجموعة الاساسية منهم هي التي انضمت إلى الجبهة الوطنية التقدمية، ويقودها الدكتور عبد العزيز عثمان وعبد الغني قنوت.

في ١٩٧٢، انعقد المؤتمر العام لحركة الاشتراكيين العرب بعد الحركة التصحيحية بنحو عامين، وذلك في مدينة دوما القريبة من دمشق، وانتخب عبد الغني قنوت امينًا عامًا للحركة حين كان الدكتور عثمان يعاني من مرض عضال اقعده عن الحركة. وعندما تحسن وضعه الصحي اعتبر نفسه خارج الحركة، لكنه ظل عضوًا في القيادة المركزية للجبهة الوطنية منذ ذلك الوقت، ومؤيدًا للحركة التصحيحية التي قادها الرئيس الاسد. وبعد فترة طويلة من الصمت امتدت حتى ١٩٩٤، أصدر عثمان العدد الاول من صحيفة «العربي» الناطقة باسم حركة الاشتراكيين العرب (المكتب السياسي) التي نشرت في صفحتها الاولى صورة الرئيس الاسد، وأعلنت في افتتاحيتها ان اجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد في مدينة حمص في ١٠ حزيران ١٩٩٤ اعاد الحركة إلى مسارها الصحيح. و لم تلق هذه الخطوة معارضة من عبد الغني قنوت. وما حصل في حركة الاشتراكيين العرب حصل في حركة الوحدويين الاشتراكيين التي قادها فايز اسماعيل الذي عاد بعد حلّ حزب البعث اثناء الوحدة، وشكل هذه الحركة في تشرين

الثاني ١٩٦١. ففي ١٩٧٤، كانت مجموعة من هذه الحركة قد خرجت منها وشكلت في ١٠ تشرين الاول ١٩٧٤، الحزب الوحدوي الاشتراكي الذي عقد مؤتمره الاول التأسيسي في هذا التاريخ. إلا ان تشكيل هذا الحزب لم يعن بالضرورة دخوله إلى الجبهة الوطنية التقدمية إلا في ٣١ كانون الاول ١٩٨٨ تحت إسم «الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي» الذي يقوده أحمد الاسعد، وهو اول حزب يدخل الجبهة بعد تشكيلها.

«الاخوان المسلمون»: جاء في «موسوعة السياسة» (ج١،ص١١٢-١١٣) كلامًا موجزًا على هذه الجماعة: «منظمة سياسية دينية تهدف لاقامة الدولة الاسلامية. أسسها، في ١٩٢٩، في مدينة الاسماعيلية المصرية الشيخ حسن البنا، وهو مدرّس سابق. والدولة الاسلامية كما افترضها البنا ستستمد قوانينها من الشريعة الاسلامية التي تعتبر متفوقة على جميع المؤسسات الغربية، ومن ثم فهي لن تكون شيوعية ولا ديمقراطية غربية. انتشرت بسرعة في مختلف ارجاء مصر والوطن العربي. ولكن الطابع السياسي بدأ يغلب على الطابع الديني فيها شيئًا فشيئًا. وفي ١٩٤٨، اغتيل النقراشي باشا، رئيس وزراء مصر، بعد ان اصدر أمرًا بحل الجماعة ومصادرة اموالها. وبعد بضعة اسابيع اغتيل الشيخ البنا مؤسس الحركة ومرشدها العام. وفي ١٩٥٠، أعيد تنظيمها من جديد، ولكن الرئيس عبد الناصر عاد فحلّها وصفّاها إلى جانب جميع الاحزاب المصرية الاخرى في ١٩٥٤. وكان الاخوان قد أُدينوا بمحاولة اغتيال عبد الناصر في ذلك العام. ولحركة الاخوان فروع وامتدادات في العديد من الاقطار العربية (والاسلامية). ومن الملاحظ انها تقوى وتشتد بتأييد من قوى اليمين العربي (والاسلامي) المحافظ عندما تتعاظم الموجة العربية التقدمية ولا سيما في الاردن وسورية. ويعتبر سيّد قطب أبرز كتاب الحركة».

في معرض تأريخه للاحداث المتعلقة بالمعارضة الاسلامية (وخاصة معارضة «الاخوان المسلمون») المسلحة ضد الحكم القائم في سورية الذي تمكن من القضاء عليها، يقول باتريك سيل («الاسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ترجمه للعربية «المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع»، ص ٥٢٢-٥٢٨):

الحقيقة ان تيارًا من النشاط الاسلامي المنظم قد تواجد في الحياة العامة في سورية منذ الثلاثينات. وقد نبعت وقامت جيوب من المقاومة الاسلامية ضد الحكم الفرنسي في مدن سورية عديدة في النصف الثاني من ذلك العقد. وقد اندمجت هذه الجيوب والمجموعات في ١٩٣٨ (في دمشق «الشبان المسلمون»، وفي حمص «جمعية الهداية الاسلامية»، وفي حلب «دار الأرقم» التي سميت كذلك على اسم الدار التي كان الرسول يجتمع فيها مع اصحابه) وأصبحت كلها تنظيمًا واحدًا آنذاك، وعرف باسم «شباب محمد».

وفي ذلك الوقت بالذات عاد الشاب السوري مصطفى السباعي إلى دمشق من دراسته في القاهرة، حيث كان قد وقع تحت سحر مؤسس الاخوان المسلمين، حسن البنا، الذي بنى من بدايات صغيرة في ١٩٢٨ حركة شعبية واسعة في مصر مصممة على إنهاء الحكم البريطاني وإقامة دولة اسلامية مكانه. وفاض الغليان الجيّاش في مصر إلى اقطار عربية أخرى، وإلى سورية بمساعدة السباعي الذي اخذ تنظيم «شباب محمد» بيده وربطه بالاخوان المسلمين. وبحلول ١٩٤٣، كان قد كوّن قوة سياسية لها من القوة ما مكّنها من ارساله إلى البرلمان في دمشق. ومنذ ذلك الحين بقي الاسلام السياسي عاملاً متواجدًا بشكل ثابت على المسرح السوري. ولكن هذا التيار لم يكن من القوة بحيث يسيطر، ولا من الضعف بحيث يتم

قمعه أو اقتلاعه. وكأنه نوع من الحمى التي تصعد أو تهبط حسب الظروف المحلية في الداخل، والمناورات المحركة من الخارج.

وكان صعود البعث إلى مكانة بارزة اعتبارًا من ١٩٥٥ فما بعده ضربة مريرة للمسلمين الناشطين الذين شعروا بالغضب والقلق لرؤية المجتمع السني التقليدي تنقلب فيه الامور على يد متشددين علمانيين. وعندما استولى البعث على الدولة لجأت مجموعات من المتصلبين الاسلاميين إلى العمل السري في حلب وحماه لتنظيم المقاومة المسلحة. ففي ١٩٦٣، أسس الشيخ عبد الرحمن أبو غدة حركة تحرير اسلامية سرية في حلب. أما في حماه (في ١٩٦٥) فان مروان حديد كان من الناشطين القدامى، وقد وضع في السجن فترة قصيرة بسبب اشتراكه في حركة مسلحة قامت ضد البعث في ١٩٦٤، وبدأ بتنظيم قوة ضاربة سرية اطلق عليها إسم «كتائب محمد». وبما ان البعث كان منهمكًا في اقتتال حزبي داخلي آنذاك فإنه لم يتنبه إلى كون المتشددين الاسلاميين قد بدأوا بتكوين الخلايا وتكديس السلاح واستعمال الاسماء الحركية، وإجراء اتصالات خارجية، وتدريب اعضاء كوادرهم على قتال المدن. وعندما قام البعث باجتذاب اعداد كبيرة من معلمي المدارس البعثيين إلى العمل في الحكومة فإنه أفسح بذلك المجال للاخوان المسلمين كي يوزعوا أنفسهم في المدارس ويؤثروا على الشباب.

واصبحت حلقات الدروس في المساجد، حيث يذهب الطلبة لدراسة اللغة العربية والقرآن اماكن تجنيد وتطويع للاعمال المسلحة. فكان المرشح للعمل في صفوفهم يُطلب منه إخفاء قطعة سلاح، ثم إعادتها، ثم أخذها ثانية والتدرب على تفكيكها وتركيبها... وربما كانت المرحلة التالية هي إشراكه في مراقبة مسؤول حزبي بعثي أو استطلاع مبنى حكومي. ثم يقول له مسؤوله أو مرشده: «انك الآن واحدًا منا، ورقبتك على خشبة النطع مثل رقابنا». ومن بين الطرق الوحشية التي استخدمت لتقسية قلوب الشباب جعلهم يقتلون عمالاً غير محميين مثل منظفي الشوارع الذين كان طبيعة عملهم تقتضي خروجهم مبكرين وقد قتل العديدون منهم بهذه الطريقة.

ولم يكن النشاط السياسي الاسلامي كله سريًا. وكان الضوء الهادي للفرع السوري من الاخوان المسلمين هو عصام العطار الذي كان يرفع صوته بانتقاد البعث، ولم يُسمح له بالعودة إلى سورية بعد قيامه بالحج إلى مكة في ١٩٦٤، فأقام مقر قيادته في مدينة آخن في المانيا الغربية. ومن هناك بدأ يشن حربًا كلامية ضد دمشق اعتبارًا من ١٩٦٨ في مجلته «الرائد». وكانت التهجمات أشد في نشرة إسلامية اخرى هي «النذير» التي كانت تعكس وجهة نظر المجموعات المقاتلة في داخل سورية. وكانت الاموال والتجهيزات تصل من خلال شبكات دولية (كاتحاد الطلبة المسلمين في اوروبا) يديرها عصام العطار من قاعدته في آخن ومن فروع الاخوان في البلدان المجاورة، ولا سيما الاردن.

وفي بدايات حملة الاخوان الارهابية وحملة السلطة المضادة القمعية لهم، حصل الاخوان المسلمون على شهيد في شخص متشدّد منهم هو مروان حديد الذي ظل يقاتل البعث بطريقة أو بأخرى منذ ان كان طالبًا جامعيًا في القاهرة خلال الخمسينات؛ وكان إمامًا لجامع بريدة يلقي من على منبره خطبًا معادية للبعث (كان له أخ بعثي وآخر شيوعي). وعندما ألقي القبض عليه وأودع السجن في ١٩٧٦ اضرب عن الطعام، وتوفي في حزيران ١٩٧٦، فأصبح على الفور مصدر إلهام لأتباعه الذين أقسموا على الثأر له، ولكن بدء حرب المدن على نطاق واسع قد تأخر ثلاثة اعوام حتى وقعت مجزرة مدرسة المدفعية في حلب في حزيران ١٩٧٩ (إلى هنا ينتهي ما جاء في المرجع

المذكور؛ واستكمالاً، راجع باب «عهد الاسد»).

في الاعوام اللاحقة لحرب الاخوان ضد الحكم السوري (١٩٧٩-١٩٨٢) وانتصار الحكم عليهم بصورة ساحقة (لقي الكثيرون حتفهم، وسُجن الآلاف منهم، وفرّ الباقون إلى خارج الحدود)، وضع أكثرهم أنفسهم في احضان الحكم العراقي وراهنوا عليه خصوصًا بعد ان حسّنت عمان علاقاتها مع دمشق وقلّصت حرية حركتهم على اراضي الاردن، فوضعت بغداد تحت تصرفهم امكانات هائلة مادية ومالية واعلامية وعسكرية بما في ذلك اذاعة خاصة ومعسكرات تدريب ووسائل اتصال. ذلك ان العلاقات بين سورية والعراق شهدت أسوأ مراحل توترها آنذاك على إيقاع الحرب العراقية-الايرانية، ووقوف سورية بجانب ايران. فاصبح الاخوان أسيري الصراع الاقليمي المرير بين الشقيقين اللدودين.

مناقشة:

عن تطور العلاقة بين الحكم السوري والاخوان، من انتهاء حربهم على النظام في ١٩٨٢ إلى اوائل ١٩٩٧، كتب محمد خليفة مقالاً مطولاً في «الحياة» (العدد ١٢٤١٤، تاريخ ٢٣ شباط ١٩٩٧، ص ١٣) تتضمن في جملة ما تتضمن:

في هذه الفترة انقسم الاخوان إلى فريقين: فريق يتزعمه عدنان سعد الدين الذي ابعد عن منصب المراقب العام، وفريق يمثل الاغلبية بزعامة المراقب العام الجديد الشيخ الدكتور حسن هويدي. وجاء هذا الانقسام انعكاسًا لطبيعة النظرة السياسية إلى سورية والحكم فيها ، ومستقبل التنظيم وتحالفه مع بغداد. فالاتجاه الاول نما نحو مزيد من التطرف العدائي تجاه النظام في سورية ووثق ارتباطه المباشر بالعراق على حساب استقلالية التنظيم. أما الاتجاه الثاني فحاول ان يحافظ على نوع من الاستقلالية عن النظام العراقي، وقد حرص المراقب العام (حسن هويدي) على ألا يقيم في بغداد وظل وحده مقيمًا في دولة عربية خليجية دون بقية القيادة. وعبّر هذا الاتجاه عن تميزه بمحاولة أو إثنتين لاعادة فتح قنوات الاتصال والحوار مع دمشق جرتا في ١٩٨٧ و١٩٨٨ في العاصمة الفرنسية؛ لكنهما تعثرتا لأن رهان الاخوان على بغداد كان لا يزال كبيرًا، وكانوا يعتقدون ان الرئيس العراقي صدام حسين لا بدّ ان يصفي حساباته مع الرئيس الاسد خلال ١٩٩٠، وكان يوحي لهم بذلك في حين انه هاجم الكويت في ذاك العام.

لكن مع انهيار قوة بغداد نتيجة الحرب الخليجية الثانية، وجد الاخوان ان رهانهم انقلب وبالاً عليهم، فأخذوا يسعون لمصالحة دمشق، وبدأ الاستعداد لنقد ذاتهم وتحمل مسؤولية ما جرى في سورية خلال فترة صراعهم مع الحكم (١٩٧٩-١٩٨٢)، بل والاعراب عن رغبتهم في الانتقال من موقع العدو اللدود إلى الحليف والشريك. فبدأوا الطرق على ابواب دمشق منذ ١٩٩٤ مقدمين تنازلات جوهرية بما فيها التراجع عن كل خطابهم السياسي والديني السابق واستبداله بخطاب يركّز على امتداح الرئيس الاسد واعتباره بطلاً عربيًا واسلاميًا صامدًا في مواجهة اسرائيل. ولم تكن العوامل الانسانية (بسبب الضيق الذي عاشه الاخوان في شتاتهم خارج الحدود) وحدها وراء هذا الخطاب الجديد، بل إن هناك عوامل ايديولوجية اصبحت تلتقي مع مجموع حركة الاخوان. إذ إن ادعاء تنظيمات الاخوان في مصر والاردن والجزائر وغيرها التخلي عن العنف والقوة كمنهاج للتغيير أو كوسيلة لمهاجمة الحكومات غير الاسلامية-كما يعتبرونها-في الدول العربية يحتم على هذه التنظيمات ان تضغط على جماعة (إخوان) سورية لنقد نفسها عما اقترفته في الماضي وطلب الصفح والصلح من النظام، وذلك بهدف تسييد الخط الجديد في جميع الساحات والفروع

العربية. ويمكن ملاحظة أثر هذا العامل في كون الشيخ الدكتور حسن هويدي، المراقب العام السابق لتنظيم سورية، قد أصبح الآن نائبًا للمرشد العام للتنظيم الدولي للاخوان، ولا يعقل ان يوضع هذا الرجل في هذا المكان وهو يدعو للعنف. كما تجدر الاشارة إلى ان المراقب العام الجديد للاخوان في سورية علي البيانوني، يمتاز مثل الهويدي بميلهما الشديد للسياسة والحوار و لم يعرف عنهما في الماضي تأييدهما العنف، وكان الاثنان في مقدمة الذي غادروا سورية عندما بدأت الاضطرابات في ١٩٧٩ و لم يشاركا في قيادة العمليات العسكرية. بل إن البيانوني هو الذي قاد الحوار مع دمشق في ١٩٨٨ (كما سبق ذكره)، وهو رجل مثقف ومطلع على تيارات الفكر وغير متخصص في الشريعة وحدها ولا يعد من «الشيوخ».

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو عن «المصلحة» في إتمام هذه المصالحة، وخاصة من ناحية دمشق التي لم يعد الاخوان قوة يحسبون لها أي حساب لا في الداخل ولا في الخارج. وربما كانت الاجابة عن هذا السؤال تكمن في طبيعة المرحلة التي تمر بها سورية حاليًا وبعض التغيرات التي حدثت في القاعدة الاجتماعية والشعبية، وفي طبيعة التفكير السياسي لصناع القرار في دمشق. وتجب الاشارة في هذا الصدد إلى ان القيادة السورية تمتاز ببعض المرونة العملية في النظر والتعاطي مع ظاهرة الحركات الاسلامية العربية. فهي ليست حدية أو ضدية فيها مثل بقية الانظمة العربية، بل تطمح إلى كسب دعمها في مواقفها السياسية تجاه اسرائيل وعملية السلام، لا سيما وان من أهم حلفائها الآن حركة حماس ومنظمة الجهاد الفلسطينيتين وحزب الله اللبناني والجمهورية الاسلامية في ايران، وربما غيرها. ولهذا ايضًا وجدنا دمشق حريصة على تتويج زيارة وفد «جبهة العمل الاسلامي» الاردنية برئاسة الدكتور اسحق فرحان (اواخر ١٩٩٦) إليها بوثيقة تحالف وعمل مشترك مكتوبة وموقع عليها.

وقد سبق هذه الزيارة وساطة اخرى محلية قام بها أمين يكن احد رموز الاخوان السابقين (في مطلع ١٩٩٧)، وكذلك محاولة سابقة قام بها الشيخ عبدالفتاح ابو غدة في نهاية ١٩٩٥. وثمة مساع في الاتجاه نفسه لم تحظ بالمقدار نفسه من الاهتمام الاعلامي، كتلك التي قام بها حزب الرفاه التركي بناء على تفويض وإلحاح من الدكتور حسن الهويدي، المراقب العام السابق للاخوان المسلمين السوريين، ونائب المرشد العام للتنظيم العالمي حاليًا؛ أو تلك التي قامت بها شخصيات عربية خليجية غير حكومية قريبة من الاخوان وتربطها علاقات طيبة بدمشق.

وثمة قواسم مشتركة بين جميع هذه المحاولات. أولها انها كلها جاءت من طرف الاخوان باتجاه القيادة السورية وليس بينها أي واحدة بالعكس؛ وان الاخوان المسلمين السوريين هم الذين وسّطوا الاطراف الاخوانية الاخرى من اردنية وتركية وخليجية وسورية وربما سواها. وثانيها ان الاخوان يطرحون في هذه الوساطات على القيادة السورية خيارات كثيرة «إيجابية» جدًا من حيث المبدأ، تبدأ بـ«المصالحة» التي تسمح بعودة آلاف الاعضاء وعائلاتهم، وتنتهي على استعداد اخواني للتحالف مع حكم الرئيس الاسد والانضمام إلى «الجبهة الوطنية التقدمية» التي تشكلت منذ ١٩٧١، وتضم الاحزاب السورية الموالية تحت شعار: «حشد الطاقات الوطنية لمواجهة التحدي الاسرائيلي في هذه المرحلة الحرجة حربًا أو سلمًا». بل وتبدي قيادة الاخوان استعدادها لنقد ذاتها وتحمل المسؤولية السياسية والاخلاقية عما وقع في سورية من مصادمات وعمليات اغتيال وقتل ونسف وتخريب قبل ١٨ عامًا. وهي في الواقع بدأت ذلك بالحديث همسًا عن «خطئها الكبير» في فهم شخصية الرئيس الاسد وتقويمه بمعايير مذهبية ضيقة بدل المعايير

القومية والوطنية الواسعة.

ومن المهم ملاحظة ان دمشق لم توصد ابوابها في وجه تلك الوساطات التي بذلها الاخوان، بل تعاطت معها بمزيج من التحفظ التقليدي من جهة، والايجابية التي تميزها في التعامل مع القوى الشعبية على الساحة العربية ورغبتها في توثيق روابط التعاون مع مختلف القوى بما يخدم مصالحها وسياستها العربية من جهة ثانية.

«الناصريون»: إسم شمل مختلف التيارات والاحزاب والتنظيمات والهيئات والتجمعات التي استلهمت، نظريًا، «فلسفة الثورة» (التي صدرت طبعتها الاولى في ١٩٥٣ وحملت توقيع الرئيس المصري جمال عبد الناصر)، لكنها بقيت منجذبة، في المقام الاول، نحو شخصية الرئيس عبد الناصر، مقدمةً العملي على النظري. فلبست أكثر من ثوب نظري واحد وتجذّرت وتعمقت بهدي الممارسة اكثر منها بهدي النظرية. وجاءت الوثيقة المهمة الثانية، «الميثاق»، (١٩٦٢)، لتؤكد على هذا المنحى، فتحرص على الاهتداء بالتجربة والممارسة، لأن من شأن منهج التجربة والخطأ ان يقود «نحو وضوح فكري يضع التصميم الهندسي لبناء المجتمع الذي نريد...». وربما كان اهم تطور طرأ على الناصرية نظريًا وعمليًا تحولها من «ناصرية مصرية» إلى «ناصرية عربية» (وقد تبوّأ مفهوم القومية العربية مكانة الصدارة في الخطاب الناصري)، وكان السوريون أكثر العرب انجذابًا نحو عبد الناصر في الخمسينات والستينات، قبل الوحدة واثناءها ورغم انتكاستها بالانفصال الذي أدّى إلى هزيمة ١٩٦٧.

«كان الذهاب إلى القاهرة شيئًا مثيرًا باعتبارها مقر حكومة عبد الناصر الثورية. ولاستعادة روح الخمسينات يجب ان يتذكر المرء ان المجتمع العربي كان لا يزال مصابًا بصدمة هزيمة ١٩٤٨ وضياع فلسطين، وكان العرب في حيرة من أمرهم لمعرفة كيف يحمون أنفسهم من الغرب واسرائيل. وعندما ظهر عبد الناصر بجاذبيته الشخصية على المسرح دلّ ما احفاه الناس عليه من قوى خارقة على عمق حاجة العرب إلى منقذ يقودهم ويخرجهم من هذا التيه. ومن بين جميع العرب كان السوريون الاكثر انجذابًا نحوه بسبب ما لاقوه من معاملة سيئة على يد الغرب ولأنهم كانوا يتطلعون إلى استقلال غير مقيّد. وقد ازداد الانجذاب نحوه حين تمكن من جعل مصر تحصل على دبابات وطائرات ومدافع سوفياتية بموجب ما عرف باسم صفقة الاسلحة التشيكية لعام ١٩٥٥... وهكذا اكتسبت دعوة عبد الناصر للعرب ليثبتوا وجودهم مصداقية فورية، أما في سورية فقد صعد نجمه إلى الأعالي (باتريك سيل، «الاسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ص٩٠؛ وراجع ما سبق في باب «١٩٤٥-١٩٧٠» عن فترة الخمسينات والستينات).

وعن خريطة توزع «الناصريين» أو «الحركة الناصرية» في سورية، كتب عماد نداف، صحافي وكاتب سوري («الحياة»، ١٧ ايلول ١٩٩٦)، مقالاً، جاء فيه:

الناصريون في سورية، الذين كانوا يتجمعون داخل حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، بدأ تعدد اتجاهاتهم قبل قيام الحركة التصحيحية في ١٩٧٠ (وبدء عهد الاسد). وكانت مجموعة محمد الجراح موجودة قبل هذا التاريخ وتحمل في توجهها رؤية اسلامية للناصرية، لكنها لم تشارك في البحث عن صيغة للعمل الجبهوي مع الاحزاب الاخرى التي شكلت الجبهة الوطنية على رغم ان امين عام حركة الوحدويين الاشتراكيين فايز اسماعيل أبدى رغبته في مشاركة هذه المجموعة في هذا البحث باعتبارها تنطلق في عملها من الايمان بمبادىء الوحدة والحرية والاشتراكية.

وبعد شهور من بدء المشاورات بقيام الجبهة الوطنية بدا الناصريون في كتلتهم الرئيسية

والكبيرة أكثر إلحاحًا في بلورة صيغة الجبهة. وفي ٥ كانون الاول ١٩٧٠، ألقى زعيم الناصريين في سورية جمال الأتاسي (وكان بعثيًا سابقًا) كلمة باسم «التحالف الوطني الكبير الذي لم تشهده سورية من قبل» في قصر الضيافة في دمشق مؤيدًا بذلك الحركة التصحيحية ومتحمسًا لقيام الجبهة الوطنية. لكنه في ١٩٧٣، خرج الدكتور الأتاسي من الجبهة؛ لكن الناصريين، الذين شكلوا «القيادة المؤقتة لحزب الاتحاد الاشتراكي العربي في سورية»، دانوا خروجه، وعقدوا مؤتمرًا انتخبوا فيه فوزي الكيالي امينًا عامًا لحزب الاتحاد الاشتراكي على اساس تكريس شرعية التوجه الجبهوي للاتحاد الاشتراكي.

بدا الكيالي مترددًا في اتخاذ الموقف المناسب من الاخوان المسلمين. فعقد الاتحاد الاشتراكي مؤتمرًا استثنائيًا في الاول من ايار ١٩٨٠، وسحب الثقة من فوزي الكيالي، فيما نجحت محاولات الدمج بين المجموعات الناصرية في هذا المؤتمر، فتوحدت مجموعات اسماعيل القاضي وانور حمادة مع الحزب، وتم الاتفاق على تشكيل قيادة مؤقتة تحضر للمؤتمر العام، وانتخب القاضي امينًا عامًا ويوسف جعيداني امينًا عامًا مساعدًا. وفي مطلع ١٩٨١، أعلن الاتفاق النهائي لهذه الوحدة.

في غضون ذلك، كانت شخصية صفوان القدسي تفرض وجودها داخل هذا الحزب (الاتحاد الاشتراكي)، بل إن المؤتمر الاستثنائي الذي سحب الثقة من الكيالي انعقد في بيته، وكان الصراع واضحًا بين خط القدسي وبين الآخرين، وهذا ما جعل الامور تتصاعد مرة أخرى في الشهور التالية؛ فتمت تنحية يوسف جعيداني عن منصب الامين العام المساعد وانتخاب صفوان القدسي بديلاً منه، وسارع جعيداني إلى تشكيل حزب جديد إسمه «الحزب التقدمي الناصري» في تموز ١٩٨٢.

وبعد سنة ونصف السنة ، عقد مؤتمر استثنائي في فندق «ميريديان» في دمشق، رفض اسماعيل القاضي حضوره لخلافاته مع صفوان القدسي. فسحبت الثقة منه، وانتخب القدسي امينًا عامًا، في ما ظل اسماعيل القاضي يعمل تحت إسم «الاتحاد الاشتراكي العربي» مع مؤيديه.

ومع تعقد خريطة المجموعات الناصرية، بذلت محاولات حثيثة لاقامة الوحدة بينها. ولعب حزب البعث دورًا في تقريب وجهات النظر بينها. وتوحدت فعلاً مجموعات اسماعيل القاضي ويوسف جعيداني وصفوان القدسي في مؤتمر عقد في ١٩٨٥. لكن هذه الخطوة لم تعمّر طويلاً، إذ عادت الخلافات إلى سابق عهدها. فخرج يوسف جعيداني مرة ثانية معلنًا في ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٢ تشكيل «الاتحاد العربي الديمقراطي» الذي عقد مؤتمرًا عامًا في ١٩٩٤، وتولى أمانته العامة غسان عثمان، ومن قيادييه وزير الدولة لشؤون مجلس الشعب في سورية عبد الاله الملاّح.

هذا بالنسبة إلى «الاتحاد الاشتراكي العربي» (الناصري) والمجموعات التي في داخله. أما خارجه، فقد برزت تيارات ناصرية عديدة، مثل «التنظيم الشعبي الناصري» في سورية، ومجموعة أخرى طرحت افكار الدكتور عصمت سيف الدولة... إلا انها تلاشت أو انصهرت داخل الاتحاد الاشتراكي.

حزب البعث العربي الاشتراكي: البداية، مثل كل بدايات الاحزاب تقريبًا: أفكار، مناقشات، منشورات، صحف... ثم أشكال وأطر تنظيمية ممهّدة: «منتدى»، «حركة»... إلى ان كانت نهاية ١٩٤٤ ومطلع ١٩٤٥ حيث بدأ القادة المؤسسون (خاصة عفلق والبيطار) يضعون لوائح العضوية ويبدلون كلمة «حركة» لتصبح «حزب» البعث. وفي تموز ١٩٤٥، تقدم عفلق والبيطار بطلب رخصة لتكوين حزب سياسي وقد رفض الفرنسيون الطلب في حينه، إلا انه أجيب بالموافقة من السلطات الوطنية بعيد رحيل

الفرنسيين.

«وقرر أتباع الارسوزي وشباب عفلق الاندماج، وشكلت لجنة صياغة قضت اسابيع في محاولة التوفيق بين آراء الجماعتين. كان أتباع الأرسوزي، ومن بينهم الدكتور وهيب الغانم يريدون جرعة من الاشتراكية أقوى مما كان يحتمله القادة الدمشقيون المنحدرون اساسًا من طبقة وسطى ومن فئة التجار والحرفيين. وفي اجتماع حاسم في اللاذقية في وقت مبكر من ١٩٤٧ أقر عفلق والبيطار والغانم نص دستور واتخذوا الترتيبات لعقد مؤتمر تأسيسي. وطوال ثلاثة ايام مثيرة من النقاش الحاد، من يوم الجمعة في ٥ نيسان إلى الاحد ٧ نيسان (١٩٤٧) جمع المؤتمر في دمشق ٢٤٧ من الشباب الذين جاءوا من جميع أنحاء سورية، ومعهم حفنة من شباب شرقي الاردن ولبنان والعراق، واحتشدوا في مقهى الرشيد المطل على حديقة وسينما صيفية كانت تعرف باسم لونا بارك (في الموقع الذي يقوم عليه اليوم المركز الثقافي «السوفياتي»-وربما اصبح «الروسي» حاليًا). ولم يحضر زكي الأرسوزي المؤتمر ولم يُعط منصبًا في الحزب الجديد» (باتريك سيل، «الاسد الصراع على الشرق الاوسط»، ص ٦٢).

هكذا، جاء المؤتمر التأسيسي الاول لهذا الحزب ليتوج مرحلة تمهيدية دامت نحو سبع سنوات. فركّز المؤتمر، فكريًا، على «الايديولوجية العربية الثورية الجديدة» والتميز والاستقلالية عن التيارات الفكرية السائدة، وعلى مبادىء «الوحدة والحرية والاشتراكية». وتنظيميًا، نصت المادة الاولى من المبادىء العامة للدستور على ان الحزب «حزب عربي شامل تُؤسس له فروع في سائر الاقطار العربية ويعالج السياسة القطرية من وجهة نظر المصلحة العربية العليا»، ولم يكن هناك بعد فروع للحزب خارج سورية في ١٩٤٧، إلا ان نواتها كانت موجودة في الجامعة السورية وفي الجامعة الاميركية في بيروت. وسياسيًا، فقد برزت في البيان السياسي الذي اقره المؤتمر التأسيسي عدة نقاط تتجاوز ما كان يطرح على الصعيد السياسي التقليدي، إذ «جرى تحديد للقوى التي تقف موقفًا عدائيًا من الامة العربية وتغتصب اجزاء من الارض العربية وتؤازر الصهيونية وتستلب ثروة الوطن العربي»: - انكلترا التي تحتل وادي النيل وفلسطين وشرقي الاردن والعراق وليبيا والمحميات؛ - فرنسا التي تحتل الجزائر وتونس ومراكش؛ - اسبانيا التي تحتل قسمًا من مراكش (الريف)؛ - تركيا التي اغتصبت كيليكيا ولواء الاسكندرون؛ - ايران التي اغتصبت منطقة الاهواز؛ - واميركا التي تتدخل في شؤون الشرق الاوسط وتدعم موقف تركيا وتؤيد الاستعمار البريطاني وتؤازر الصهيونية وتستلب ثروة الوطن العربي. وفاز ميشال عفلق عميدًا للحزب، وصلاح الدين البيطار وجلال السيد ووهيب الغانم للهيئة التنفيذية.

بين المؤتمر التأسيسي (نيسان ١٩٤٧) والمؤتمر القومي الثاني (حزيران ١٩٥٤)، اجتمع مجلسان للحزب: الاول، في كانون الاول ١٩٥٠، وشدّد على فكرة الحياد الايجابي من خلال التأكيد على قيام عالم ثالث يضم الشعوب المناضلة من اجل التحرر، وطالب باقامة وحدة اقتصادية بين سورية ولبنان وسائر الاقطار العربية، ونادى على الصعيد الداخلي بتأميم الشركات الاجنبية؛ والثاني، في تموز ١٩٥١، فكشف عن هوية المرحلة وتخاذل الحكومات العربية والموجة الرجعية التي اشتدت بعد النكسة (ضياع فلسطين)، وطالب بتنحية الاقطاعيين عن الحكم وبالحد من الملكية وتوزيع الاراضي وشن تشريع للفلاحين والعمال.

في حزيران ١٩٥٤، انعقد اول اجتماع لممثلي قيادات الحزب في سورية والاردن والعراق ولبنان، انتخبت فيه اول قيادة قومية، وأقر فيه اول نظام داخلي قومي. لذلك اخذ الاجتماع المذكور طابع «مؤتمر قومي ثاني». وبين هذا المؤتمر والمؤتمر الثالث (١٩٥٩)، شهدت الساحة، من المنظور

القومي العام والبعثي، «أروع إنجاز» بقيام وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر. «إلا ان هذه المرحلة لم تنج في الاخير من اعراض الازمة. فقد انتكست الحركة الوطنية في الاردن وانحرفت ثورة ١٤ تموز وبدأت تجربة الوحدة في الجمهورية العربية المتحدة تتعثر».

بين ٢٧ آب وأول ايلول ١٩٥٩، انعقد المؤتمر القومي الثالث، وجاءت قراراته لتحدد الاستراتيجية الجديدة للعمل الحزبي: - التزام الديمقراطية المركزية؛ - العمل على تحقيق مبدأ القيادة الجماعية في مختلف مستويات الحزب؛ - تمتين وحدة الحزب القومية. كما أقرت توصية «بضرورة التعاون مع جميع القوى الثورية في المشرق والمغرب العربيين وتكوين جبهة شعبية صلبة مع هذه القوى (...) وترسيخ الوحدة بين سورية ومصر والدفاع عنها (...) والاصرار على موقع الحياد الايجابي وتدعيمه (...) وتوسيع وتقوية التضامن الآسيوي-الافريقي...».

في اواخر آب ١٩٦٠، انعقد المؤتمر القومي الرابع، واعتبر، من حيث جدية التحضير وشمول التقارير، في المرتبة الثانية من الأهمية بعد المؤتمر الاول (التأسيسي). دعت توصياته إلى بناء الحزب «بناءً ثوريًا يجعله في مستوى رسالته («أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة») ومسؤولياته القومية»، وإلى اعطاء العمل الفكري الاولوية في العمل الحزبي، والعمل على «تحقيق اوضاع ديمقراطية في الجمهورية العربية المتحدة لتفسح المجال للمشاركة الشعبية عن طريق المنظمات التقدمية لحماية الوحدة وتنمية التفاعل الشعبي داخلها» وعلى «توضيح فردية النظام القائم (نظام عبد الناصر) وتكوين رأي عام عربي للضغط على الجمهورية العربية لتصحيح اوضاعها وأساليبها في العمل القومي». ولأول مرة يتوقف مؤتمر للحزب على ازمة الحزب ويحدد اسبابها، ويتناول بالتحليل قرار حل الحزب في الجمهورية العربية المتحدة، ويحدد دور الحزب في حياة العرب كحركة تاريخية يتعدى دورها تحقيق الوحدة السياسية بين الاقطار القائمة إلى تحقيق المجتمع الاشتراكي وتحقيق انسانية الانسان العربي. ويحدد المؤتمر، اخيرًا، اسلوب العمل الحزبي، وموقف الحزب من الحكم (عبد الناصر) وتحديد الشروط الثورية لاستلام الحكم.

أما المؤتمر الخامس فقد جاء بعد الانفصال (إنفصال سورية عن مصر، «الجمهورية العربية المتحدة»)، وانعقد، في حمص في ايار ١٩٦٢، وتمحور جدول اعماله حول تحديد مفهوم الوحدة (التي هي أقوى واعمق دافع لوجود البعث) واستراتيجية العمل الوحدوي في ضوء تحليل اسباب فشل تجربة الوحدة وقيام الانفصال، واتخاذ المواقف العملية من بعض العناصر القيادية التي اتخذت مواقف متناقضة (البداية العملية في مسار الخلافات والانشقاقات)، ودعا هذا المؤتمر إلى إعادة الوحدة بين سورية ومصر على «اساس المفهوم الثوري المبدئي القائم على وحدة العلاقة بين مفاهيم الوحدة والحرية والاشتراكية، وقرر اعادة تنظيم الحزب في سورية على «اساس النضال من اجل تحقيق هذا الهدف».

وأما المؤتمر السادس فقد انعقد في تشرين الاول ١٩٦٣، وسبقه وصول حزب البعث إلى الحكم في كل من سورية والعراق وتوقيع ميثاق الوحدة الثلاثية (سورية، العراق، مصر) في ١٧ نيسان ١٩٦٣ ثم انسحاب مصر منه. ومما عالجه المؤتمر وبحثه «قضايا التحويل الاشتراكي في القطرين السوري والعراقي، وقضايا النضال العربي كقضية الوحدة الاتحادية بين سورية والعراق والموقف من عدوان الرجعية المغربية على الجزائر ومن تحويل نهر الاردن ومن ثورة اليمن ومن نظام

عبد الناصر ومن فكرة إنشاء جبهة تحرير فلسطين وجبهة عربية تقدمية على مستوى الوطن العربي...».

وبعد أقل من أربعة شهور، أي في شباط ١٩٦٤، كان لا بد ان ينعقد مؤتمر قومي سابع موسع، في ظروف مختلفة عن ظروف المؤتمر السادس. فقد «وقعت نكسة» ١٨ تشرين الثاني في العراق (جماعة الشوفي) بعد اقل من شهر على نهاية المؤتمر القومي السادس، ودخلت الازمة إلى واقع القيادة القومية ذاتها، فكان لا بد من انعقاد مؤتمر قومي للحزب لتدارك الوضع وتطويق النتائج الخطيرة التي اخذت تنعكس على تجربة الحزب في القطر السوري ايضًا، ومعالجة الازمة وتحديد اطارها وعواملها وانتخاب قيادة جديدة تتولى معالجة الاوضاع والظروف الجديدة التي دخلت فيها تجربة الحزب. لقد كانت نكسة ١٨ تشرين الثاني (١٩٦٣) صدمة مذهلة، وخاصة بالنسبة إلى القواعد الشديدة المراس في القطر العراقي. ولم تكن الفترة الزمنية التي انقضت بين تلك النكسة وبين موعد انعقاد المؤتمر القومي السابع كافية لانضاج تقييم لأسباب نكسة حكم الحزب في العراق. لذلك بقي هذا التقييم للمؤتمر القومي الثامن الذي انعقد بعد عام، أي في شهر نيسان ١٩٦٥، وفيه جرى تعديل النظام الداخلي للحزب وإقرار تقرير اقتصادي ورفض تقرير عقائدي قدم للمؤتمر، كما جرى فيه الاتفاق على صيغة محدّدة لعلاقة الحزب بالجيش والسلطة (المرجع الرئيسي لهذا المبحث عن البعث، بين عدد كبير من منشورات ومؤلفات ظهرت في الستينات واوئل السبعينات، «نضال حزب البعث العربي الاشتراكي عبر مؤتمراته القومية ١٩٤٧-١٩٦٤»، دار الطليعة، بيروت، ط١، حزيران ١٩٧١؛ وراجع، استكمالاً، احداث النصف الثاني من الستينات وما فوق، الباب السابق «عهد الأسد»).

«الجبهة الوطنية التقدمية» في سورية: أهم اشكال التحالف الوطني لحكم البلاد. تأسست في ١٩٧٠ من الاحزاب المشاركة فيها منذ ١٩٧٠، وامتازت بعدم حدوث اية أزمة تصدّعها منذ تأسيسها حتى الآن (حزيران ١٩٩٧)، وتجتمع الاحزاب ضمن إطار الجبهة بموجب بنود الميثاق الصادر من ٧ آذار ١٩٧٢ والذي شارك في صوغه قادة هذه الاحزاب آنذاك، وكانت خمسة احزاب: حزب البعث العربي الاشتراكي، حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، الحزب الشيوعي السوري، تنظيم الوحدويين الاشتراكيين وحركة الاشتراكيين العرب. ويستدل من وثائق هذه الاحزاب انها تؤلف تيارين فكريين كبيرين: الاول، يتبنى الفكر القومي ويدعو له؛ والثاني، التيار الماركسي اللينيني (الحزب الشيوعي السوري، واجنحته خارج الجبهة).

بعد قيام ثورة آذار ١٩٦٣، جاءت مرحلة اخرى (بعد مراحل عديدة ارتبطت فيها الاحزاب في سورية ارتباطًا مباشرًا بالاوضاع التي كانت تعيش فيها البلاد) يمكن تسميتها بمرحلة «التوازن القلق» للحياة السياسية في سورية، لم تعامل فيها تلك الاحزاب كهيئات سياسية اعتبارية حين وضع المؤتمر القومي التاسع الاستثنائي لحزب البعث في ١٩٦٨ (بالنسبة إلى المؤتمرات الثمانية سابقة، راجع «حزب البعث» في هذا الباب، «الاحزاب») اسسًا للتعامل مع هذه القوى والاحزاب، من بينها: عدم الاقرار الرسمي بوجودها، وعدم السماح لها بممارسة أي نشاط حزبي علني، في حين دعا إلى إشراك اعضاء هذه المنظمات-باعتبارهم عناصر تقدمية- في اللجان الشعبية والجيش الشعبي والمنظمات الشعبية

بالاضافة إلى فتح حوار مع البعثيين لجعلهم يتبنون مواقف حزب البعث. وحسمت مرحلة ما بعد ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ (الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس الأسد) مسألة التعامل بقيام الجبهة الوطنية التقدمية التي دعت في ميثاقها الاحزاب المشاركة فيها إلى ممارسة نشاطها السياسي العام في إطار الجبهة.

وإلى جانب الميثاق (اوائل ١٩٧٢) الذي يحدّد اهداف الجبهة وآفاق عملها، هناك، للجبهة، نظام داخلي ينظّم آلية العمل على مختلف مستوياتها القيادية، كما ينظّم آلية عمل مكاتبها ويبين طبيعة عمل هذه المكاتب وأنشطتها. وفي بداية التسعينات اصبحت الجبهة مؤلفة من: حزب البعث العربي الاشتراكي، حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، تنظيم الوحدويين الاشتراكيين، الحزب الشيوعي السوري (خالد بكداش)، الحزب الشيوعي السوري (يوسف فيصل)، حركة الاشتراكيين العرب، الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي (ضم إلى الجبهة في ٣١ كانون الاول ١٩٨٨)، الاتحاد العام لنقابات العمال، والاتحاد العام للفلاحين. والاتحادان الاخيران جرى ضمهما إلى الجبهة منذ ١٠ نيسان ١٩٨٠، وحزب البعث موجود فيهما، وكذلك باقي اعضاء الجبهة.

الأسد مترئساً أحد اجتماعات الجبهة الوطنية.

زعماء، رجال دولة وسياسية

* **ابراهيم هنانو** (١٨٦٩-١٩٣٥): أحد كبار زعماء الثورة السورية الكبرى. ولد في كفر حارم، غربي حلب. تعلم في المدرسة الملكية في الآستانة. تنقل في بعض المدن التركية، مدير ناحية، فقائمقامًا، عاد إلى بلدته في ١٩٠٦. انتخب عضوًا في المجلس العمومي في حلب فاقام فيها مدة قصيرة وحلّ المجلس وعاد إلى زراعن. وبدخول الجيش العربي إلى حلب عاد وانتخب في المؤتمر السوري في دمشق، وكان عضوًا في جمعية الفتاة السرية. انتدب لتأليف عصابات عربية تشاغل الفرنسيين الذين احتلوا مدينة انطاكيا جاعلاً مقره حلب، وسُمّي رئيسًا لديوان واليها. بعد نكبة ميسلون واحتلال الفرنسيين دمشق وحلب، امتنع في بلاد بيلان، شمالي حلب، على رأس قوة من المتطوعين الوطنيين. قاتله الفرنسيون، فطفر وألّف حكومة وطنية ولقب بـ«المتوكل على الله»، وكثرت جموعه واتسع نطاق نفوذه. خاض ٢٧ معركة لم يصب فيها بهزيمة واستمر عامًا كاملاً ينفق مما يجبيه عماله في الجبهات التي انبسط فيها سلطانه. كاتب الامير عبدالله بعد البيان الذي اذاعه بأنه جاء لتحرير سورية. ثم قصده للاتفاق معه على توحيد الخطط، فلما كان في شرقي سلمية، على مقربة من حماة وهو في عدد من فرسانه اعترضته قوة كبيرة من الجيش الفرنسي فقاتلهم ونجا وبعض من كان معه فبلغ عاصمة الاردن فلم يجد فيها ما أمل، واعتقله البريطانيون في القدس وسلموه إلى الفرنسيين. وحوكم في حلب محاكمة شغلت سورية عدة شهور انتهت باعتبار ثورته «سياسية مشروعة». وتحول إلى الميدان السياسي واجتمعت على زعامته سورية. كان منهاجه: لا اعتراف بالدولة المنتدبة ولا تعاون معها (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج١، ط١، ص ٢٠).

في معتركه السياسي، ناصبه الكثيرون من السياسيين العداء، وتعرض لمحاولة اغتيال (١٩٣٢) نفذها المدعو نيازي كوسا الذي اصابت رصاصته قدم هنانو. فعاش هنانو بعد ذلك ثلاثة اعوام اصابه خلالها داء السل الذي قضى عليه وهو في بيته في دمشق.

* **إحسان الجابري** (١٨٧٨-؟): ولد في حلب ودرس فيها الابتدائية والرشدية، وفي استنبول الاعدادية والحقوق حيث حصل على الاجازة في ١٩٠٢، ومارس المحاماة مدة سنتين. سجن مدة ستة اشهر بتهمة تلقيه رسائل من عبد الرحمن الكواكبي وبعض الهيئات العربية المعادية. عمل في سكرتارية السلطان، فخدم عبد الحميد الثاني، ومحمد رشاد ومحمد الخامس. بعد سقوط الدولة العثمانية، بدأ العمل السياسي، فجاب بلدانًا اوروبية وعربية، وعاد إلى سورية بدعوة من الملك فيصل. فتولى رئاسة بلدية حلب، ثم اختير عضوًا في مجلس الشورى، فاشترك في اعلان استقلال سورية بصفته كبير الامناء ورئيس ديوان فيصل (٨ آذار ١٩٢٠). أُخرج مع فيصل من سورية، وانفك عنه بعد قبوله (فيصل) العرش على العراق. انتخب في المؤتمر السوري-الفلسطيني (هو والامير شكيب ارسلان وسليمان كنعان، وبعد وفاة الاخير انتدب رياض الصلح). عاد، في العهد الوطني، إلى سورية (١٩٣٧) فعين محافظًا للاذقية. وفي نهاية العهد الوطني، اعتقل وحددت إقامته في لبنان (في عينطورة) مدة اربع سنوات. بعد وفاة اخيه، سعد الله الجابري، انتخب نائبًا عن حلب وترأس قائمة الوطنيين (الحزب الوطني) وانتخب رئيسًا للجنة الشؤون الخارجية. أعيد انتخابه في ١٩٥٤، ورأس التجمع القومي إلى ان تمت الوحدة بين سورية ومصر، فرأس «اتحاد الدول العربية». وبعدها، أقام في القاهرة.

* **أحمد اسكندر أحمد** (١٩٤٤-١٩٨٣): ولد في حمص. اتم دراسته الثانوية في سورية. تخرج في كلية الآداب، جامعة القاهرة، في ١٩٦٥. انتسب إلى حزب البعث منذ مطلع شبابه. وأثناء خلاف الحزب مع الرئيس عبد الناصر، كان من بين الطلاب العرب الذين أُبعدوا في تموز ١٩٦٣ من القاهرة. وعاد إلى القاهرة، في ١٩٦٥، لاكمال دراسته ونيل الاجازة.

عمل مباشر، بعد تخرجه، في القسم السياسي من صحيفة «البعث» السورية، وعين مديرًا للمكتب الصحفي لرئيس مجلس الوزراء، ثم شغل في ١٩٦٦-١٩٦٧ منصب رئيس تحرير وكالة الانباء العربية السورية «سانا». نقل إلى وزارة الاعلام-مديرية الرقابة، ثم التحق بالخدمة العسكرية الالزامية (١٩٦٨-١٩٧٠). في ١٩٧١، عين مديرًا عامًا لمؤسسة الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع، ورئيسًا لتحرير صحيفة «الثورة» الصادرة عن الدار نفسها. انتخب، في ١٩٧٢، أمينًا عامًا مساعدًا لاتحاد الصحفيين العرب، وشغل في الوقت نفسه منصب نائب رئيس اتحاد الصحفيين في سورية. عين وزيرًا للاعلام منذ الاول من ايلول ١٩٧٤ حيث عمل على تطوير عمل هذه الوزارة وتحديثها.

عن أحمد اسكندر أحمد، وعن عمله ودوره، كتب باتريك سيل («الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ص ٥٥٢):

«وكان مخترع طقوس عبادة الشخصية هو أحمد اسكندر أحمد، وزير اعلام الأسد من اول ايلول ١٩٧٤ حتى وفاته في غير أوانه بسرطان المخ في ٢٩ كانون الاول ١٩٨٣، فكان واحدًا من اطول الوزراء بقاء في منصبه خلال رئاسة الأسد، وأقربهم إليه. وكان صحفيًا علويًا موهوبًا من حمص، وقد لفت نظر الأسد خلال حرب تشرين عندما كان يصدر مرتين كل يوم صحيفة اخبار يكتب فيها افتتاحيات ترفع المعنويات. وعندما ارتقى إلى منصب وزير الاعلام قام بتنظيم وتنشيط اجهزة اعلام سورية بتجميع الرجال السبعة المسوولين عن الاعلام في فريق مترابط (وهم: مدراء الاذاعة، والتلفزيون، والصحف اليومية الثلاث: البعث والثورة وتشرين، ووكالة انباء الدولة: سانا، ومؤسسة الاعلان والتوزيع الصحفي) لزيادة تمجيد الأسد. وكان مفتاح نجاحه هو قدرته على التقاط وتفهم اتجاه وتفكير الأسد وتهيئة الرأي العام لتغيرات السياسة. وفي فورة اتقاد الحماس السياسي العربي يكون وزراء الاعلام شديدي الأهمية؛ وكان أحمد اسكندر أحمد بالنسبة للأسد يشبه إلى حد كبير ما كان محمد حسنين هيكل بالنسبة لعبد الناصر: أي وكيل النشر والاعلان، وبوق الدعاية، وصانع الصورة، وكان الدليل على عبادة الشخصية هو تكرار الجميع لاسمه، وصوره الضخمة المعلقة في المباني البارزة، وتماثيله العديدة التي اقيمت من أقصى البلد إلى أقصاه، كالتمثال البرونزي الثقيل الغارق في التفكير الجالس على مدخل مكتبة الأسد الجديدة التي افتتحت في دمشق عام ١٩٨٥».

* **أحمد عزت العابد**: راجع «عزت العابد» في هذا الباب «زعماء، رجال دولة وسياسة».

* **أحمد قدري** (١٨٩٣-١٩٥٨): أبوه أحد امراء الجيش العثماني. مولده ووفاته في دمشق التي تعلم فيها وفي الآستانة، وبيروت وباريس. وكان من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة» السرية ويحمل الرقم ١٠٧ج. عاد إلى سورية في ١٩١٣. وعند قيام الحرب العالمية الاولى كان طبيبًا للدرك في دمشق برتبة رئيس. وفي اواخر الحرب العالمية الاولى، التحق بالامير فيصل في العقبة قبل دخوله دمشق. ودخلها معه وعين طبيبًا خاصًا ومستشارًا له، وصحبه في اكثر رحلاته وكان موضع ثقته. ثم

عين استاذًا في كلية الطب في دمشق. ولما احتل الفرنسيون دمشق عقب معركة ميسلون، رحل إلى مصر، وحكم الفرنسيون باعدامه غيابيًا.

عين في القاهرة قنصلاً عامًا للعراق في ١٩٣٠ وأسس المفوضية العراقية في باريس ١٩٣٥، وتولى إدارة الكلية الطبية في بغداد ١٩٣٦. وفي تلك السنة عاد إلى دمشق إبان الحكم الوطني ١٩٣٦-١٩٣٩، ثم غادرها إثر سقوط هذا الحكم إلى بغداد ثم أخرج من العراق ارضاء للانكليز عقب ثورة الكيلاني، فعاد إلى دمشق في ١٩٤١، وعين امينًا عامًا للصحة في ١٩٤٣، ومثّل سورية في كثير من المؤتمرات الصحية الدولية. نشرت له وزارة الثقافة السورية، في ١٩٩٣، مؤلفه الذي هو بعنوان «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى».

* **أحمد مريود** (١٨٨٦-١٩٢٦): قائد ثورة الجولان وجنوبي لبنان وشرقي فلسطين ضد الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان بعد الحرب العالمية الاولى، وكان إسمه بين المحكوم عليهم بالاعدام عندما احتل الفرنسيون دمشق في ١٩٢٠، فنزح إلى شرقي الاردن واشترك في إنشاء حكومتها في ١٩٢١، وكان يتسلل بين الحين والآخر إلى اطراف القنيطرة يتفقد رجاله وانصاره في منطقة نفوذه.

هو أحمد بن موسى بن حيدر مريود، ولد ونشأ في قرية جباتا الخشب. ينتمي إلى قبيلة المهادوة التي كانت تقبض على إمارة وزعامة البلقاء في الاردن وتعود جذورها التاريخية إلى قبيلة السلالة العربية. تلقى دروسه الابتدائية والرشدية في مدارس القنيطرة، وأتم التعليم الاعدادي في دمشق والثانوية في مكتب عنبر في دمشق وتخرج منها.

دخل في جمعية «العربية الفتاة»، ودأب خلال الحرب العالمية الاولى على تجهيز الفارين من

أحمد مريود.

مظالم الاتحاديين الاتراك للحاق بثورة الشريف حسين في الحجاز وأصحابهم بمن يرشدهم إلى بلوغ البادية. وعندما ظهر الخطر الفرنسي، تولى مريود قيادة عصابات لمناوأتهم: معارك المطلة، مرجعيون، النبطية، الحماري، القليعة، إبل السقي، الخصاص. وتمكن رجاله من مهاجمة موكب الجنرال غورو وإصابته (٢٣ حزيران ١٩٢١). واستغل الفرنسيون هذا الحادث واعتقلوا أدهم خنجر (أحد قادة الثورة في جبل عامل) أثناء وجوده في دار سلطان الأطرش، وأعدموه. وعاد مريود إلى شرقي الاردن، فقام يعمل هو وانصاره على ان تكون إمارة الاردن قاعدة لإقلاق الفرنسيين ومحاولة اخراجهم من البلاد الشامية. واختلف اتجاه الامير عبدالله يومئذ عن هذا الاتجاه. فعمد إلى وساطات سلمية يريد بها تصفية الجو بينه وبين جيرانه المحتلين الفرنسيين، فقبض على أحمد مريود وبعض أنصاره وأبعدهم إلى الحجاز. رحل مريود بعد ذلك إلى العراق، ثم عاد إلى وادي التيم بعد اندلاع الثورة في ١٩٢٥؛ فاستمال الفرنسيون بعض سكان الاقليم من الجراكسة، ففاجأوه في منزله فقاتلوه حتى رمقه الاخير (من «موسوعة السياسة»، ج٢، ص ١٠٥؛ ومحمود عبيدات، «أحمد مريود»، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩٧).

* **أحمد نامي، الداماد** (١٨٧٨-؟): رئيس دولة سورية (٢٦ نيسان ١٩٢٦-٨ شباط ١٩٢٨). لقّب «الداماد» لزواجه بالاميرة عائشة سلطان، ابنة السلطان عبد الحميد الثاني. و«الداماد» كلمة فارسية الاصل مستعملة في اللسان العثماني ومعناها «الصهر»، وتطلق مسبوقة بلقب «صاحب السمو» على كل من ينال شرف الزواج من احدى الاميرات بنات سلاطين آل عثمان الاتراك.

يتحدر الداماد أحمد نامي من عائلة سورية وسلالة شركسية ترجع إلى إمارة قبيلة «شابسيك» القفقاسية استوطنت سورية منذ الربع الاول من القرن التاسع عشر. اقام والده، فخري بك، في بيروت حيث تولى رئاسة بلديتها (أنشأ «خان فخري بك» وحديقة «الحميدية» في ساحة البرج). درس أحمد نامي على اساتذة خصوصيين، فرنسيين، متثقف ثقافة فرنسية. فاز بامتحان الجامعة الحربية في الآستانة ودخل سلك ضباط الحربية زمنًا يسيرًا ثم هجره مفضلاً العلم الاداري، فالتحق بمكتب الديون العامة العثمانية، ثم عين أمين سر ولاية بيروت، ثم أمينًا عامًا في مدينة أزمير، بمعية الوزير كامل باشا. أقام في سويسرا طيلة سني الحرب العالمية الاولى. جاء بعد الهدنة إلى باريس حيث تعرف بعدد من رجال السياسة العرب، ودخل المعترك السياسي. فقام بدور في تقويض الحكم الفيصلي لصالح الانتداب الفرنسي. كافأه الفرنسيون باسناد رئاسة الدولة له في أحرج فترة من تاريخ الانتداب، وهي الفترة التي وصلت فيها البلاد إلى تلاشي الدولة وانعدام السلطات المدنية. عاون سلطات الانتداب على تصفية الثورة والتحضير لانتخاب جمعية تأسيسية لوضع النظام الأساسي للبلاد تطبيقًا لصك الانتداب. انتخب نائبًا عن دمشق في الجمعية التأسيسية (١٩٢٨)، إلا انه وجد ابواب الحكم، من جديد، مسدودة امامه في أي من المناصب الرئيسية. وبين ١٩٣١ و١٩٣٣، أي في الفترة التي كثر فيها الكلام حول اختيار مرشح لعرش سورية، طالبت جماعات من الصيادلة والاطباء والصناعيين في دمشق وحلب وبعض النواب بترشيحه. واعتمد هو نفسه، في مطالبته رسميًا، على رسالة موجهة إليه من المفوض السامي دي جوفنيل بهذا الصدد.

* **أديب الشيشكلي** (١٩٠٩-١٩٦٨): ولد قرب حماه، من أصل كردي، ودرس في الكلية العسكرية السورية في اوائل الثلاثينات. في الحرب الفلسطينية عمل نائبًا لفوزي القاوقجي. كان ايديولوجيًا، على علاقة وثيقة بمفهوم «سورية الطبيعية» الخاص بالحزب السوري القومي الاجتماعي، وآمن بدولة جمهورية غير طائفية، لذلك كان خصمًا للأماني التوسعية الهاشمية.

في ١٩٤٩، كان شريك حسني الزعيم في الانقلاب الذي اطاح وزارة العظم وارغم القوتلي على ان ينشد اللجوء في خارج سورية، ولكنه سرعان ما اختلف مع الزعيم حول قضية أنطون سعاده، فحاول الزعيم نفيه بتعيينه ملحقًا عسكريًا في العربية السعودية. وانضم الشيشكلي إلى الزعيم الحناوي لتحقيق خلع الزعيم. ومنذ آب ١٩٤٩ حكم الشيشكلي في الواقع سورية بمساندة أكرم الحوراني.

في اواخر نيسان ١٩٥١، اقام رئيس مجلس الوزراء مأدبة كبرى تكريمًا لترفيع الشيشكلي، حضرها عدد كبير من الوزراء وضباط الجيش، فأطرى الرئيس العظم رئيس الاركان الجديد-الشيشكلي-واعلن «إن الحكومة تشدّ أزركم للقيام بدوركم النبيل»، ورد العقيد نظام الدين باسم الجيش فقال: «إن الجيش يحترم الحرية إلى ابعد الحدود، ولكنه لن يصبر على الخيانة أكانت خفية أم مقنّعة». وهكذا بات في علم الحكومة ان الجيش هو الأعلى.

وقد علا إسم الشيشكلي حين عاد من

العربية السعودية بقرض من الملك ابن سعود قيمته ستة ملايين دولار. ثم ولج رئيس الاركان العامة باب السلطة علنًا حين حاول الدواليبي عرض مشروعي قانونين على البرلمان كانا يعيدان الدرك إلى وزارة الداخلية ويؤديان إلى عزل الشيشكلي من رئاسة الاركان.

وكان الشيشكلي منذ ١١ نيسان ١٩٥١ يدلي بتصريحات سياسية. فقد عقد ذلك اليوم مؤتمرًا صحفيًا في القاهرة ذكر فيه انه يعتقد ان انتخابات لمجلس نواب جديد غير لازمة، ثم طعن ان الانتخابات ليست في صالح البلاد لأنها «ستخلق الاضطراب وتثير الخلافات»؛ وحين سُئل عن موقف الجيش من مشروع القدسي الاتحادي قال: «إن الجيش سيعلن وجهة نظره حين يطرح المشروع على بساط البحث»؛ وحين سئل عن تدخل الجيش في السياسة، رد «لا» وان «الجيش هو الشعب».

وقاد الشيشكلي انقلاب ٢٩ تشرين الثاني (١٩٥١) الذي خلع وزارة الدواليبي المشكلة وعمرها يوم واحد، واعتقل وزراءها جميعهم ما عدا اثنين، وانتهت الازمة السياسية التي دامت ثلاثة اسابيع بتدخل الجيش العلني للمرة الثالثة في ١٨ شهرًا، وكان الانقلاب ابيض لم تسفك فيه دماء واستعادت البلاد احوالها الطبيعية في غضون ساعات قليلة.

وعرض على الدواليبي ووزرائه المعتقلين في سجن المزة ان يفرج عنهم إذا استقالوا أو حلّوا مجلس النواب، وقد عمل الرئيس الأتاسي «وسيطًا» في هذه القضية ونقل شروط الجيش إلى السجناء. ولكن الدواليبي طالب متصلبًا ان يخلى سبيل السياسيين المعتقلين دون شروط، ولذلك لم يتم التوصل إلى أي اتفاق. وأثناء ذلك اجرى رئيس الجمهورية، الأتاسي، محادثات مع الزعماء السياسيين على أمل تشكيل وزارة غير حزبية تشرف على انتخابات جديدة، إلا ان رفض

أديب الشيشكلي.

الدواليبي تقديم استقالته قضى على هذا الجهد.

في الصباح الباكر من يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١، اذاع الجيش البلاغ رقم ١ ونصه: «تحيط رئاسة الاركان العامة الشعب السوري علمًا ان الجيش قد استلم زمام الأمن في البلاد وترجو ان يخلد الجميع إلى الهدوء والسكينة وتسهيل مهمة الجيش ومتابعة أعمالهم دون قلق أو اضطراب، كما وتنذر من تسوّل نفسه الاخلال بالأمن باشد الاجراءات». التوقيع: أديب الشيشكلي رئيس الاركان العامة (ما ورد في هذه المادة، إلى هنا، من جوردون هـ. توري، «السياسة السورية والعسكريون»، ترجمة محمود فلاحة دار الجماهير، ط٢، ص ٢١٧-٢١٩، استنادًا إلى العرض اليومي للصحافة السورية في حينه).

مع اعتقال الدواليبي ووزرائه، اعتقل الشيشكلي ايضًا رئيس مجلس النواب وبعض النواب، وعيّن فوزي سلّو رئيسًا للوزارة.

وبانسحاب رئيس الجمهورية، الأتاسي، راح الشيشكلي يدير الحكم من مكتب الاركان العامة للجيش. ثم تولى رئاسة الجمهورية. فألغى الاحزاب، وأعلن عن تأليف «حركة التحرير» كحزب وحيد في البلاد. وضع دستورًا جديدًا عرف بدستور ١٩٥٣، ودعا إلى انتخابات عامة، إلا ان الاحزاب قاطعتها وطالبت بمؤتمر عام للعودة إلى الشرعية. اضطر الشيشكلي إلى التنازل عن الحكم إثر الانقلاب الذي قاده ضباط بعثيون في حلب، ومكّنه تضارب الاتجاهات السياسية من مغادرة البلاد دون محاكمة. لكنه لقي مصرعه على يد أحد شباب جبل العرب في البرازيل إنتقامًا منه على القمع الذي اذاقه الدروز، وخاصة سلطان باشا الأطرش، خلال الايام الاخيرة من حكمه.

الجدير ذكره، لأهميته على الصعيد الخارجي، أن احداث فترة الشيشكلي كانت موضع تتبع محموم «من قبل السفارتين البريطانية والاميركية مع ملاحظة ان الاهتمام البريطاني في فترة اشتداد المقاومة الشعبية ضد أديب الشيشكلي قد جعل انطوني إيدن وزير خارجية بريطانيا يتلقى شخصيًا وبوتيرة تكاد تكون اسبوعية تقارير سفيره في دمشق، ولا شك ان ذلك كان ناجمًا عن شدة التنافس الاستعماري علىالنفوذ في سورية بين بريطانيا والولايات المتحدة التي كانت تدعم، مع النظام السعودي، الحكم العسكري لأديب الشيشكلي، وهو التنافس الذي كان من اسباب انقسام العالم العربي آنذاك إلى منطقة نفوذ اميركية، ومنطقة نفوذ بريطانية هاشمية، كانتا في معظم الاحيان مع اموال البترول المتدفقة عليهما، الاداتين اللتين استعملهما الغرب فيما حدث بسورية من انقلابات، بينما كان الشعب العربي في سورية يحاول ان يمضي قدمًا في طريق البناء والديمقراطية البرلمانية متحررًا من أي نفوذ استعماري» (من مقدمة السيدة نزيهة الحمصي زوجة أكرم الحوراني، لكتاب جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء الحوراني، دار المعارف بحمص، ط١، ١٩٩٧).

*** أكرم الحوراني (١٩١١-١٩٩٦):**

ارتبط اسمه بـ«رجل الجيش»، و«ثعلب دمشق»، و«التركيز على الاصلاح الزراعي»، و«مبدأ الديمقراطية والنظام الجمهوري»، و«عدم الانحياز»، و«كان للبعث كما لينين للماركسية»؛ كما ارتبط إسمه أكثر ما ارتبط بحياة سورية السياسية بين ١٩٥٤ و١٩٥٨ «عندما كان لسورية أكبر التأثير في الاتجاه العربي الوحدوي الديمقراطي التقدمي الذي ساد تطلعات الشعب العربي من المحيط إلى الخليج».

ولد أكرم الحوراني في حماة. توفي والده، رشيد، خلال الحرب العالمية الاولى وكان تاجرًا للأقمشة وملاكًا صغيرًا للاراضي ورجلاً ورعًا ومن وجهاء حماة، انتخب كأحد ممثلي المسلمين في مجلس إدارة حماة. وقد قال أكرم الحوراني «ان والده كان يدعم الفلاحين والتجار في تلك الفترة ضد عوائل الملاكين الكبار مثل عائلة الأتاسي في حمص والكيلاني والبرازي والعظم في حماة، ولم تكن مثل هذه المعارضة للعوائل الاقطاعية أمرًا غير مألوف، فظروف حياة الفلاحين كانت تدعو لليأس، وعلاقاتهم بالعائلات الاقطاعية كانت متوترة لدرجة انها كانت محفوفة بالعنف في كثير من الحالات. ورشح الحوراني الأب نفسه لاحقًا لعضوية مجلس «المبعوثان» الذي يمثل حماة وحمص في استنبول ولكنه لم يعين. وأرجع الحوراني عدم نجاح والده بسبب معارضة العوائل الكبيرة...» (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء الحوراني-إبنة أكرم-دار المعارف بحمص، ط١، ص٣٦).

بدأ وعيه السياسي يتكون على وقع احداث ثورة سورية الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧)، و«ليس من الصعب تصوره مساندًا للثورة مع بقية

أكرم الحوراني.

الطلاب فقد كان يدرس في دار التربية والعلم مع أبناء العوائل الاقطاعية (من ضمنهم أديب الشيشكلي)، هذه المدرسة التي أسسها الملك فيصل في قصر العظم في حماة (...) وذكر الحوراني انه تأثر بفرد آخر من العائلة (إضافة إلى تأثيره بوالده التي كانت والدته تحدثه عنه) يدعى عثمان الحوراني وكان من المشاركين في ثورة ١٩٢٥، وكان مدرسًا للتاريخ في المدرسة التي درس فيها أكرم؛ وعثمان لم يعلم طلابه التاريخ فقط وإنما غذّى في طلابه روح الحرية والاستقلال والمقاومة المسلحة والفخر بالارث العربي، وقد ذكر أكرم الحوراني ان عينيه كانتا تغرورقان بالدموع عندما كان عثمان الحوراني يتحدث عن معركة ميسلون...» (المرجع المذكور، ص٤٠-٤١).

بعد تخرج الحوراني من معهد العلم والتربية في حماة ذهب إلى دمشق فانتسب إلى مدرسة النخبة الثانوية التابعة للدولة (مكتب عنبر) والتي خرجت عددًا من القادة الوطنيين، ومنها تخرج الحوراني وكان من الاوائل. ثم انتسب إلى الجامعة اليسوعية في بيروت لدراسة الطب؛ لكنه عاد بعد سنة إلى دمشق (١٩٣١) حيث التحق بجامعتها لدراسة الحقوق. وثمة رواية عن تركه بيروت أكدها الحوراني نفسه، وتتعلق بـ«اشتراكه في التخطيط لاغتيال صبحي بركات («العميل الفرنسي» الذي اصبح نائبًا بمساعدة الفرنسيين)». وبعد تخرجه من كلية الحقوق عمل الحوراني في المحاماة إلى ان انتخب نائبًا في ١٩٤٣.

كان أول اشتراك لأكرم الحوراني في العمل السياسي المنظم في ١٩٣٦، بعد تخرجه من كلية الحقوق، عندما انتسب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي منجذبًا إلى المبادىء الاساسية لهذا الحزب (فصل الدين عن الدولة، القضاء على الاقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على اساس مصلحة الامة والدولة، تكوين جيش قوي...). «قال الحوراني خلال إحدى مقابلاته إنه استقال من الحزب بعد سنة من انتسابه، ولكنه لم يقطع صلاته به نهائيًا وإنما أبقى على نوع من الاتصال إلى الوقت الذي اغتيل فيه العقيد عدنان المالكي على يد أحد أفراد الحزب، ولكن أحد أعضاء الحزب المؤسسين تحدى تأكيد الحوراني تركه الحزب بعد سنة واحدة حيث أكد انتساب الحوراني للحزب عام ١٩٣٦، وبقائه كعضو ناشط حتى ١٩٣٩ إلى ان فصله الحزب سنة ١٩٤٩» (المرجع المذكور، ص٤٥).

انهمك الحوراني بالعمل في حزب «الشباب الحموي» خلال ١٩٣٦ مع قريبه عثمان الحوراني، وصعد إلى موقع القيادة بسرعة. وبالنسبة إلى باتريك سيل (في مرجعه الاساسي المذكور في باب «عهد الأسد») فإن هذه المنظمة الصدامية لم يكن لها أي ايديولوجية إلا محاربة الانتداب والحكومة (الكتلة الوطنية).

في ١٩٤١، أسرع أكرم الحوراني وبعض ضباط الجيش، ومتطوعون من أ نصار ميشال عفلق، أحدهم جمال الأتاسي، بالذهاب إلى بغداد لمؤازرة حكومة رشيد عالي الكيلاني في ثورتها ضد البريطانيين. وبعد ان تمكن هؤلاء من قمع الثورة،

غادر الحوراني وبقية المتطوعين السوريين العراق إلى سورية «حيث تمّ احتجازهم لفترة من قبل حكومة فيشي في دير الزور على الحدود السورية- العراقية. وتشير بعض المصادر إلى ان اتصالات الحوراني الناجحة بالجيش السوري، وبعفلق والبيطار، من خلال الدكتور جمال الأتاسي، قد بدأت على اثر هذه الواقعة» (المرجع المذكور، ص ٥١، نقلاً عن سيل وغيره).

انتخب الحوراني، على لائحة الحزب الوطني، نائبًا في ١٩٤٣. فبدا المجلس النيابي بالنسبة إليه المنصة التي بدأ يطل من خلالها على كل ارجاء الساحة الوطنية، فيرسم معالم رؤياه السياسية والاجتماعية لسورية.

قبل انسحابها النهائي، كانت فرنسا تطالب بمعاهدة تحفظ لها «الحقوق الخاصة». فاندلعت المظاهرات في وجهها، وقصفت مدينة دمشق، وجرى قتال في مدينة حماة (آذار ١٩٤٥) شارك به الحوراني وضباط الجيش الشباب الذين نجحوا في طرد الفرنسيين من معقلهم في المدينة.

وعن علاقة الحوراني بالجيش، جاء في المرجع المذكور (جوناثان أوين، نقلاً عن لسان الحوراني نفسه خلال مقابلة اجراها المؤلف معه في ١٣ كانون الاول ١٩٨٨):

«إن هذه العلاقة بدأت في الاربعينات مع عدد من الضباط». ويضيف أوين: «وربما كانت تلك الاتصالات تعود لفترة أبعد، أي منذ ١٩٣٩ حيث ان موقع الكلية العسكرية كان في حمص بالقرب من حماة (...) ولم ينظر الحوراني للجيش كجزء منفصل عن الشعب (...) ومن المثير للانتباه ان الحوراني لم ير ان يكون قائد النضال لاخراج فرنسا من سورية عسكريًا وإنما مدنيًا، وهذا المدني هو نفسه. وضمن هذه النظرة، عزّز الحوراني بعد انتخابه نائبًا (١٩٤٣) صلاته ببعض الضباط الشباب امثال عدنان المالكي وأديب الشيشكلي...».

وقف الحوراني (نائبًا ووزيرًا)، بقوة ضد سيطرة الاقطاع، وكان وراء كل قانون إصلاحي اقتصادي (خاصة زراعي) واجتماعي صدر في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية (راجع «ثورة الفلاحين» في باب «١٩٤٥-١٩٧٠»).

تطوع، وهو نائب، للقتال في فلسطين (وتطوع معه نائب آخر هو الدكتور عبد السلام العجيلي)، وصحبه عدد من ضباط الجيش مثل أديب الشيشكلي.

صلة الحوراني بالجيش تبقى الميزة الأساسية في سياسته، واكسبته شعبية كبيرة داخل الجيش حتى ان فان دوسن، Van Dosen الذي وضع دراسة مهمة في الموضوع (وهي أكثر المراجع التي يعتمدها جوناثان أوين في كتابة المذكور)، يقول إنه كان لضباط الاربعينات وبداية الخمسينات «واحد من ثلاثة التزامات: تأييد أحد الحزبين، السوري القومي أو البعث، أو الولاء لقائد واحد هو أكرم الحوراني الذي كان يقف إلى جانب حقوق الجيش وضباطه في الفترة التي تزايد فيها انتقاد السياسيين لهذا الجيش».

هذه الصلة كانت، ولا تزال، موضوع نقاش، خاصة لجهة طبيعة المسؤولية التي تتحملها في الحياة السياسية السورية، إبانها وفي الفترات اللاحقة. فيرى كثيرون من المدنيين ان الحوراني أكثر السياسيين تحملاً لمسؤولية تسييس الجيش بعد الاستقلال. «ولكن هذه التهمة تتجاهل نوعية الافراد الذين انتسبوا للجيش بعد ١٩٤٦، وطبيعة التفكير السياسي للضباط. إذ كانوا قد تسيّسوا تمامًا قبل وصولهم إلى الكلية العسكرية، وكانوا مستعدين لمتابعة تحقيق معتقداتهم باستعمال الاساليب العسكرية إذا لزم الامر (...) فالجيش السوري لم يكن محتاجًا للحوراني إو إلى أي سياسي مدني آخر لتخطيط انقلاباته وتدخلاته» (أوين، المرجع المذكور، ص ١٠٨، نقلاً عن دراسة فان دوسن).

وفي السياق ذاته تقول السيدة نزيهة الحمصي، زوجة أكرم الحوراني، في المقدمة التي وضعتها لكتاب جوناثان أوين المذكور: «لقد حاول أكرم الحوراني (...) ان يوجد نوعًا من التوازن بين الحكم المدني وبين الجيش السوري الذي لم يتعود بعد، بحكم وضعه كجيش في بلد حديث الاستقلال، على قواعد الحياة الديمقراطية التي تقضي بامتثال العسكر للحكم المدني، يضاف إلى ذلك التدخل الخارجي الذي يجد دائمًا ان الحكم العسكري والتعامل مع الحاكم الفرد هو السبيل الأقرب لتحقيق اهدافه الاستعمارية مثلما حدث بصورة صارخة بعد انقلاب حسني الزعيم، كما كان وضع سورية كدولة مواجهة هامة مع اسرائيل المبرر الجاهز دائماً لمحاولة الجيش السوري المستمرة للتدخل في الحياة السياسية والحكم المدني (...) ولقد عبر المفكر العربي في لبنان الاستاذ منح الصلح عن هذا الوضع الفريد لأكرم الحوراني في محاولته عدم قطع «شعرة معاوية» بين العسكر والحكم المدني عندما وضع عنوانًا لكلمته التي القاها في حفل التأبين الذي أقيم للحوراني في عمان وكان عنوانها: أكرم الحوراني،ا لديمقراطي زمن الانقلابات، والانقلابي زمن البرلمانات».

ومن النقاط البارزة والمؤثرة في تاريخ سورية المعاصر والمرتبطة بنضال أكرم الحوراني السياسي، إحداثه (وهو رئيس اللجنة الحكومية المكلفة بمراجعة قانون الانتخاب بعد انقلاب الحناوي) تغييرات مهمة في قانون الانتخاب، أهمها: إلغاء المقاعد النيابية المخصصة للاقليات الدينية وتقليص عدد مقاعد البدو من ١٠ مقاعد إلى ٦ واشتراط كون نواب هذه المقاعد غير اميين. وكذلك إعطاء المرأة حق الانتخاب وخفض السن القانوني للانتخاب من ٢١ سنة إلى ١٨، وارتباط هذا الحق للمرأة بكونها حاصلة على شهادة التعليم الابتدائي. وقد اثار هذا التغيير الاخير (حق المرأة بالانتخاب) عاصفة من المعارضة من قبل هيئات دينية، فكان لوقوف الرئيس هاشم الأتاسي (للهالة الكبرى التي يتمتع بها) إلى جانب الحوراني في هذا المطلب أن أخذ طريقه للتنفيذ.

يلخص حازم صاغية الجوانب المتبقية من سياسة الحوراني، ودوره، وما آل إليه في أواخر حياته، بقوله («الحياة»، ٢٧ شباط ١٩٩٦، ص١):

الشيوعيون، يتذكرونه جيدًا بصفته ذلك الحليف «البورجوازي الوطني» الذي وقف، هو وخالد العظم (كان الحوراني وزيرًا في حكومة العظم)، إلى جانبهم في الحقبة البرلمانية للخمسينات، ضد «الاحلاف» وضد الاخوان المسلمين.

وهؤلاء الاخيرون لا ينسون ضراوة حملته عليهم باسم العلمانية والتحرر، فضلاً عن اتهاماته لهم بـ«العمالة للاستعمار».

والمعنيون بالشأن الدبلوماسي، وكتبة تقارير السفارات، عرفوا فيه «ثعلب دمشق» الذي كان اسمه يختصر «الصراع-في الخمسينات-على سورية» بين المحور العراقي الهاشمي الموالي للغرب، والمحور المصري الناصري المحالف للسوفيات.

والناصريون لا يمكن ان ينسوه في دورين مزدوجين وبالغي التناقض: مرة كمدافع متحمّس إلى الوحدة مع مصر، وهي التي ما إن تحققت في ٢٢ شباط ١٩٥٨ حتى سُمّي فيها نائبًا لرئيس الجمهورية العربية المتحدة، ولم يكن الرئيس غير جمال عبد الناصر. ومرة حين انقلب على الوحدة، واستقال من مسؤولياتها في ١٩٥٩. فانتقل الحوراني يومذاك إلى لبنان وشرع يشن الهجوم تلو الهجوم على «الاستعمار المصري» وعلى «التواطؤ بين القاهرة وتل أبيب». وما كاد انقلاب ٢٨ ايلول ١٩٦١ ينهي حكم الوحدة حتى انتقل الحوراني إلى دمشق وبات من اركان «العهد الانفصالي»، هو الوحدوي العريق. ويقول الذين كانوا يترددون عليه، في ايامه الاخيرة، ان حقده

على عبد الناصر لم يفتر و لم يفقد شيئًا من زخمه الاول، كما لو ان الرجل يعيش في ١٩٥٩ (يقول باتريك سيل، ص ١١٣: كان لدى الحوراني اسباب شخصية وراء مرارته، نظرًا إلى ان وضعه السياسي قد تضرر تحت حكم عبد الناصر. فقبل الوحدة كان هو صانع الحكام في سورية، كان قويًا في اوساط الجيش، محبوبًا من الفلاحين، وكان الرائد الاول لأبناء الريف. ثم جاء عبد الناصر وانتزع منه كل ذلك واعطاه بالمقابل منصبًا شكليًا فارغًا في حكومة الجمهورية العربية المتحدة إلى ان رمى الحوراني بهذا المنصب باشمئزاز).

أما البعثيون (يتابع حازم صاغية)، فقصته معهم تطول. فالحوراني بدمج حزبه «العربي الاشتراكي» بحزب «البعث العربي»، أوائل الخمسينات، كان ينوي تصليب الجبهة المعارضة للشيشكلي. غير ان الأمر ظل أعقد من هذا بكثير. ففيما حمل البعثيون معهم بعض الطلبة وبعض الافكار (حقيقة الأمر ان كلمة «بعض» التي استعملها الاستاذ حازم صاغية هنا ليست دقيقة، إذ من المعروف كحقيقة تاريخية وموضوعية ان حزب البعث كان قد حقق شوطًا كبيرًا على طريق كونه حزبًا جماهيريًا وعقائديًا كبيرًا، خصوصًا في اوساط الطلاب)، حمل الحوراني زعامة شعبية وتأثيرًا واسعًا بين صغار الضباط الذين نفذ صبرهم وهم ينتظرون التغيير. وهكذا مع سقوط الشيشكلي ضعفت مبررات الاستمرار في حزب واحد، وتعاظمت الفوارق بين اسلوب «الاستاذ» أكرم الذي ظلّ يفضل لقب «المناضل الشعبي»، واسلوب «المناضلين» عفلق والبيطار اللذين بقي «الاستاذ» أقرب إلى قلبيهما.وعلى أية حال، وفر حل الحزب في سورية، مع اعلان الوحدة، مخرجًا للجميع. إلا ان ذهاب الحوراني بعيدًا في تأييد الانفصال جعل القطيعة نهائية. فلئن وقّع البيطار، هو الآخر، على وثيقة الانفصال، وباركه عفلق بخجل، إلا ان الاثنين سريعًا ما تراجعا تاركين أكرم وحده يمعن في انفصاليته. وبقيام انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ الذي حمل البعث إلى السلطة، كان الحوراني أحد المغضوب عليهم الذين بالغوا في الخروج من بيت الحزب الواحد. وإذا بالضباط الذين أدخلهم الحوراني إلى الحزب والسياسة يُخرجونه من السياسة ويجرّدونه من حقوقه المدنية، فضلاً عن اعتقال دام فترة وجيزة.

مذّاك وأكرم الحوراني يتجول في بلاد الله الواسعة، من بيروت إلى بغداد، ومن بغداد إلى باريس، ومنها إلى عمّان، عجوزًا فقيرًا وخائب الامل. مرةً يحاول التعويل على قدامى الرفاق العراقيين، فلا يلبث ان يعود إلى المربع الاول، ومرة يحاول تجميع المعارضين السوريين فينتبه إلى ان الزمن تغيّر، وان الذي كان يقود في الخمسينات لا يستطيع ان يقود في التسعينات، لا سيما ان عقله لم يتغير كثيرًا.

توفي أكرم الحوراني في عمان، في شباط ١٩٩٦، ودفن فيها.

* **أمين الحافظ** (١٩٢١-): تلقى علومه في الكلية العسكرية في حمص وكان من اوائل الذين انتسبوا للبعث في صفوف الجيش. برز إسمه في الخمسينات، وكان من الضباط الذين أيّدوا قيام الوحدة مع مصر. عارض الانفصال، فأبعد إلى موسكو، ثم إلى الارجنتين كملحق عسكري. عندما قامت حركة ٨ آذار ١٩٦٣، استدعاه حزب البعث ليتولى وزارة الداخلية، و لم يلبث ان خلف الفريق لؤي الأتاسي في رئاسة مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء. رأس وفد سورية في مؤتمر ملوك ورؤساء الدول العربية في القاهرة (١٩٦٤). أصبح امينًا للقيادة القطرية لحزب البعث في سورية وعضوًا في القيادة القومية للحزب. قاوم حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦، وأودع السجن بعد ان علّق النظام الجديد للدستور وحلّ المجلس الوطني للثورة. افرج عنه إبان حرب حزيران ١٩٦٧، وقصد

باسل الأسد.

بشار الأسد (إلى اليسار) خلال حفل تخرجه.

للأقامة في لبنان وبعده العراق.

* **بشّار الأسد** (١٩٦٥-): إبن الرئيس حافظ الأسد، ويتوسط أبناءه الخمسة: الدكتورة بشرى (مولودة ١٩٦٠)، ثم الرائد باسل (مولود ١٩٦٣، وتوفي في ٢١ كانون الثاني ١٩٩٤ إثر حادث سير فيما كان يقود سيارته في طريقه إلى مطار دمشق الدولي متوجهًا إلى المانيا. وكان ضابطًا برتبة رائد في الحرس الجمهوري، ويحمل إجازة في الهندسة، وقد انخرط في الحقل السياسي، وبرز قائدًا واشتهر باندفاعه في محاربة الفساد)، ثم بشّار الذي يليه النقيب ماهر والمهندس مجد.

بعد انتهاء دراسته في مدرسة «اللاييك» المعتبرة واحدة من أهم مدارس العاصمة، انتقل بشّار الأسد إلى جامعة دمشق ليدرس الطب. وبعدما أتمّ اختصاصه في «مستشفى تشرين العسكري» في دمشق بين ١٩٨٨ و١٩٩٢ انتقل

إلى لندن حيث اضطر، بعد أقل من سنتين، إلى قطع دراسته هناك والعودة إلى سورية إثر وفاة شقيقه الرائد باسل. وبسرعة اتخذ قراره الانتقال إلى العمل السياسي من دون حاجة إلى «وقت طويل للتفكير». فبدأ عمليًا باعلان الحرب على الفساد وملاحقة القيمين عليه ومحاسبتهم؛ وشكل فريق عمل متكاملاً يتلقى شكاوى المواطنين، وفريق عمل آخر يقوم بمتابعة تنفيذ الحل. ويولي الملف اللبناني أهمية كبرى في عمله السياسي. تابع دورة «الضباط الاركان» في كلية المدرعات في حمص، وتخرج في تشرين الثاني ١٩٩٤ برتبة «رائد اركان». في اول تموز ١٩٩٧، وبعد ان أمضى بشار ثلاث سنوات برتبة رائد، رفّع إلى رتبة مقدم ركن «وصار على قمة تجربة المهندسين القياديين نظرًا إلى تفوقه في دورة أركان الحرب الأخيرة وتقديمه أول بحث عملي وعلمي أكاديمي في الجيش العربي السوري ونال عليه درجة مئة في

المئة». وكان الدكتور بشار أنهى في نيسان ١٩٩٧ دورة أركان في «الأكاديمية العسكرية العليا» استمرت نحو سنتين.

* **تاج الدين الحسني، الشيخ** (١٨٩٠-١٩٤٣): مراكشي الأصل. ولد في دمشق وتوفي فيها. أبوه الشيخ بدر الدين المحدث المشهور المنقطع للتدريس والعبادة. استغل تاج الدين رغبة الحكام في ارضاء ابيه فانصرف إلى الاتصال بهم. فعين مدرسًا للعلوم الدينية في المدرسة السلطانية في دمشق (١٩١٢). ثم صار عضوًا في مجلس اصلاح المدارس وبعدها عضوًا في المجلس العمومي لولاية سورية. وأصدر الجيش الرابع (العثماني) جريدة «الشرق» عام ١٩١٦ فجعله أحد صاحبيها. صار في العهد الفيصلي عضوًا في مجلس الشورى، ثم في محكمة التمييز فقاضيًا شرعيًا للعاصمة. وقام بتدريس اصول الفقه في معهد الحقوق في دمشق. تولى رئاسة الوزارة في عهد الانتداب مرتين: الاولى ١٩٢٨-١٩٣١، الثانية ١٩٣٤-١٩٣٦ (وعرف بصداقته للكابتن كوليه، رئيس استخبارات المندوبية الفرنسية في دمشق). وامتاز ببراعته في بدء توليه الحكم حين وضع إسمه في قائمتين متضادتين أثناء الانتخابات النيابية، قائمة الوطنيين المتطرفين، حسب تعبير ذلك العهد، وقائمة المعتدلين الموالين للانتداب، مما هيأ له الفوز في الانتخابات دون ان يقوم أي اعتراض على حسن سيرها.

استقال بعد احداث كبيرة (مظاهرات، اضرابات، اعتقالات-١٩٣٦) وسافر إلى باريس حيث اقام. وظل هناك إلى ان عهد إليه المندوب العام لفرنسا الحرة في الشرق، الجنرال كاترو، بمهمة رئاسة الجمهورية السورية، فبقي إلى ان توفي، صريع مرض مفاجيء حار فيه الأطباء، وأثارت الصحافة الشكوك من حوله إلى حد قيل معه انه مات مسمومًا، خاصة وان الشيخ تاج كان بين مطرقتين: المطرقة الفرنسية لحمله على عقد معاهدة بين سورية وفرنسا، والمطرقة البريطانية التي كانت تعمل على تحقيق المزيد مما في نفس الشيخ من رفض واصرار ضد المعاهدة. ولكن في الوقت نفسه، كان يريد نيل استقلال هادىء غير مثير للقلاقل، على عكس منطق الوطنيين الذين كانوا لا يرون امكانية للوصول إلى الحرية والاستقلال من دون صراع.

* **جميل مردم** (١٨٩٣-١٩٦٠): أحد الزعماء البارزين الذين ساهموا في تحقيق الاستقلال ومن اجل توثيق أواصر الوحدة العربية.

ولد في دمشق من أسرة عريقة. بعد ان أنهى تحصيله الابتدائي والثانوي في معاهد الآباء اللعازاريين في دمشق، قصد باريس للتخصص في العلوم الزراعية، وانتسب في الوقت نفسه إلى معهد العلوم السياسية هناك. بدأ نشاطه السياسي بالاشتراك في تأسيس «العربية الفتاة»، ثم العمل على انعقاد المؤتمر العربي الاول (باريس ١٩١٣)، وكان سكرتيرًا له. أوفد في الحرب العالمية الاولى للدعاية لفرنسا في دول اميركا اللاتينية ولجمع التبرعات وتسجيل المتطوعين للفرقة التي دعا إلى تشكيلها شكري غانم لخوض الحرب إلى جانب فرنسا. وعندما صدرت لوائح الاعدام، في محكمة عاليه العرفية، كان مردم ما يزال في فرنسا، وقد صدر الحكم عليه بالاعدام غيابيًا. في اواخر الحرب، انضم إلى الشريف فيصل، واسمع صوت سورية في خطاب ألقاه اثناء مؤتمر الصلح في فرساي (شباط ١٩١٩)، وعاد مع فيصل إلى سورية في ربيع ١٩١٩، وأصبح مستشاره الخاص بعد اعلان الاستقلال (٨ آذار ١٩٢٠)، كما عين معاونًا لوزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في حكومة الرئيس هاشم الأتاسي.

في اعقاب الثورة السورية، فرّ إلى حيفا حيث ألقي القبض عليه وسلم إلى الفرنسيين ففرضت عليه سلطات الانتداب الاقامة الجبرية في

جزيرة أرواد مدة شهرين. في ١٩٢٨، انتخب نائبًا عن مدينة دمشق، وساهم، مع فوزي الغزي، في وضع الدستور. وأعيد انتخابه في ١٩٣٢ حيث لمع نجمه في المناورات السياسية. وكان عضو الوفد السوري للمفاوضة على مشروع المعاهدة السورية-الفرنسية (١٩٣٦). وأعيد انتخابه نائبًا عن دمشق في مجالس ١٩٣٦ (حيث نجحت القائمة التي ترأسها عن مدينة دمشق والغوطتين بكاملها) و١٩٤٣ و١٩٤٧.

دخل الوزارة (وزيرًا للمالية) لأول مرة في ١٩٣٢ باسم الوطنيين وانسحب من الحكم لافشال التصديق على مشروع معاهدة حقي العظم-دو مارتيل. شكل اول حكومة في ٢٢ كانون الاول ١٩٣٦ إلى ٢٨ شباط ١٩٣٨، وسافر خلال هذه المدة مرتين إلى باريس وجنيف، وتراجع امام الضغوطات الفرنسية حول اتفاقات بشأن الاقليات وامتيازات الشركات والجيش. غادر سورية في اوائل الحرب العالمية الثانية إلى العراق والسعودية وعاد إليها (ايار ١٩٤١) مع رجحان كفة ا لحلفاء في الشرق الاوسط. تولى وزارة الخارجية (آب ١٩٤٣-تشرين الاول ١٩٤٤)، ثم وُلّيها مع وزارتي الدفاع والاقتصاد (تشرين الاول ١٩٤٤-آذار ١٩٤٥). ومن جديد تولى وزارة الخارجية مع الدفاع من آذار ١٩٤٤ إلى آب ١٩٤٥، وشغل في هذه الأثناء رئاسة الوزارة بالوكالة في غياب فارس الخوري في سان فرنسيسكو. انتدب وزيرًا مفوضًا في تشرين الاول ١٩٤٥ إلى مصر لتأسيس المفوضية السورية (وكان زار مصر في ١٩٤٢ بالاشتراك مع الشيخ بشاره الخوري)، وإلى السعودية في تشرين الثاني ١٩٤٥ للغرض نفسه.

في كانون الاول ١٩٤٦، ألف حكومة أشرفت، في تموز ١٩٤٧، على إجراء اول انتخابات بعد الجلاء. واعاد تشكيل الحكومة في تشرين الاول ١٩٤٧، وتولى بنفسه وزارة الدفاع عندما بدأت العمليات الحربية (فلسطين) في ايار ١٩٤٨، وفي كانون الاول (١٩٤٨) قدّم استقالة الحكومة. وغادر سورية، في كانون الثاني ١٩٤٩، إلى القاهرة فاقام فيها إلى ان وافاه الأجل.

* **حافظ الأسد** (١٩٣٠-): رئيس الجمهورية العربية السورية الحالي.

ولد حافظ الأسد في قرية القرداحة التي تبعد ٣٠ كلم عن اللاذقية، في وسط اجتماعي ريفي فقير، وفي عائلة كسبت سلطة على اهالي القرية، منذ اواخر القرن التاسع عشر، بفضل القوة الجسدية ومهارة استعمال البندقية اللتين تميّز بهما سليمان جدّ حافظ الأسد، والذي أصبح بمرور الزمن «يمارس بطرق سلمية السلطة التي كسبها بقوته الجسدية (...) وورث علي سليمان-والد حافظ الأسد-كثيرًا من صفات أبيه، فكان قويًا وشجاعًا ومحترمًا وراميًا ممتازًا (...) فواصل تقليد عائلته في التوسط في فض النزاعات وتقديم الحماية للمحتاجين (...) وكسب مديحًا خاصًا في اوائل العشرينات لمساعدته للاجئين الارمن المعدمين الذين انتشروا إلى الجنوب باعداد كبيرة عندما سلمت فرنسا أجزاء من شمال سورية إلى الاتراك (...) ولقد عرف علي الحكم العثماني، وقاتل فترة قصيرة ضد الفرنسيين عند مجيئهم إلى سورية، وظل يعيش إلى سنة ١٩٦٣، حتى رأى ثورة حزب البعث التي جاءت بولده إلى السلطة (...) وكان علي، قبيل ولادة إبنه حافظ، قد استطاع ان يتحول من فلاح بسيط إلى واحد من الوجهاء، كنوع من المكافأة على الاحترام الذي كسبته عائلته عبر جيلين من الزمن (...) وكان ذا شخصية وقورة (...) ومن القلة المتعلمة (...) وقد صمّم على ان يتيح لأبنائه الصغار فرصة التحصيل الثقافي (...) فعندما فتحت في القرداحة مدرسة ابتدائية (كان الفرنسيون قد أدخلوا التعليم إلى القرى النائية للمرة الاولى)، تمكن علي سليمان من

الرئيس حافظ الأسد.

إدخال الأسد فيها، وبذلك جعله أول واحد من اولاده يتلقى تعليمًا رسميًا، وواحدًا من حفنة من الاطفال المحظوظين في قريته» (باتريك سيل، «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ص١٣-٢١؛ استنادًا إلى مقابلة مع جابر الأسد، ومقابلات مع المسنين من أهل القرداحة، ومن السجلات البلدية لقرية القرداحة؛ والمؤلف المذكور هو المرجع الرئيسي لهذه السيرة الذاتية للأسد حتى استلامه السلطة في ١٩٧٠).

في ١٩٣٩-١٩٤٠، ارسله والده إلى المدرسة في اللاذقية على الساحل. يقول الأسد بشأنها: «ربما كانت تلك أهم نقطة تحول في حياتي»، إذ تلقى يومها درسه الاول في معنى ان يكون منتميًا لأقلية مضطهدة. إذ لم تكن للعلويين مكانة جيدة في اللاذقية التي كان ثلاثة ارباع سكانها من المسلمين السنة والربع الباقي من طوائف مسيحية مختلفة. كان عدد العلويين لا يتجاوز بضع مئات، وكانوا موضع إهمال بشكل عام. وبعد تلك السنة المليئة بالعبر والدروس، عاد إلى مدرسة قريته الصغيرة. وبعد عامين (١٩٤٢)، كان واحدًا من اربعة اولاد فقط من ابناء قريته تتاح لهم فرصة دخول امتحان الشهادة الابتدائية في اللاذقية.

وكان الأسد مدينًا لتأثير والده في الاهتمام طول حياته بالكتب والشعر واللغة العربية. «ونظرًا لثقافته وشخصيته القوية، فسرعان ما أصبح ينظر إليه كوريث لسليمان ولعلي سليمان. ونظرًا لشيخوخة والده-الذي كان في الثمانين عندما كان الأسد في الخامسة والعشرين-فقد أخذ الأسد على عاتقه بعض المسؤوليات العائلية، وراح يساعد

والدته في تربية أخويه الاصغرين، جميل ورفعت، اللذين كانا أقل منه جدية وتصميمًا، وهكذا نشأ على التطلع إليه كرمز للوالد الصارم المطاع الذي أخذا يطلبان موافقته، ولكنهما كانا يجبان أن يتحديا سلطته. وكان الأسد أول واحد من عائلته يخلف عالم القرداحة وراء ظهره، فقد بقي والده وعمّاته وأعمامه وأبناء عمومته واخوته غير الأشقاء مغروسين في القرية، عندما خرج إلى معترك الحياة وحده في وقت مبكر وراح يتعلم ان يفكر لنفسه وان يغدو صاحب اهتمامات وطموحات تتجاوز أفقهم» (ص٢٩).

«نشأ حافظ الأسد في واحد من أغرب التجمعات السياسية في العصر الحديث: دولة علوية سكانها ٣٠٠ ألف شخص اقتطعتها ورسمت حدودها فرنسا في زاوية متخلفة من ممتلكات الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى. وقدّر لهذه الخلفية غير العادية ان تؤثر عليه تأثيرًا دائمًا. فالمفارقة المركزية في حياته هي ان الرجل الذي أصبح يجسّد القومية العربية المقاتلة قد بدأ حياته في موضوع خلفي منعزل، انفصالي، خاضع للغرب، وطائفي علي وجه التحديد...» (ص٣١).

إرث طويل من الشعور بالظلم الحاد حمله العلويون (راجع «بلاد العلويين» في باب مدن ومعالم) «لم يحدث إلا في الخمسينات ان بدأ جيل علوي جديد-هو جيل حافظ الأسد-يشق طريقه بذراعه إلى المجرى الاساسي للحياة العامة في سورية. فأخذت هذه الطائفة المقهورة تنقض انقضاضًا عنيفًا بقوة جامحة ومحمومة على اقتناص فرص الحصول على التعليم والثروة والسلطة... ولا شك ان الأسد الشاب كان يشارك ابناء طائفته عواطفهم من السخط على الماضي، ومعاناة الحرج من الدور الفرنسي الغامض الذي لا يمكن الاعتراف به. ولكنه منذ ايام شبابه الاولى قد تمرّد على هذه الخلفية، ورمى بعيدًا بالاحقاد الطائفية وانضم إلى أكثر الاحزاب اتجاهًا نحو العروبة، حزب البعث، واصبح في خاتمة المطاف حاكمًا لسورية تحت لوائه. وكان عليه ان يعمل بجدّ لاقناع المتشككين بأنه قد خلّف عُقَدَ الاقلية وراء ظهره، وبأنه ملتزم، جسدًا وروحًا، قلبًا وقالبًا بالتيار القومي الرئيسي العام» (ص٤٤-٤٥).

نقم على الظلم الطبقي الذي كانت مظاهره جلية بين الطلاب في الثانوية وخارجها في المدينة. وتبين ملفاته «الدراسية فيما بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٦ انه كان الاول في صفه. ولم ينس الشعر والادب، بل كان يمضي الساعات الطوال محدقًا في امواج الابيض المتوسط، وهو يحاول ان يسكب عواطفه في قصائد (كما أسرّ لطالبة مدرسة سورية اعطاها جائزة الشعر لعام ١٩٧٤)».

في اواخر الاربعينات، كانت مدرسة الأسد (في اللاذقية)، ومثيلاتها من المدارس في جميع أنحاء سورية تضج بالجدل والخصومات والمعارك السياسية. وكان كل طالب يسأل الآخر عن موقعه السياسي، و«كان الجواب المتواضع لا يعدو واحدًا من ثلاثة هي: قومي سوري، وشيوعي أو بعثي» (ص٥٠). وأما الأسد، فكان جوابه «البعث»، وكان في السادسة عشرة عندما انضم إليه. وداخل البعث، كان جوابه إلى جانب زكي الارسوزي في كل سؤال يطرح من يكون الأب المؤسس للبعث، الأرسوزي أم عفلق. ووضع الأسد في صدارة العمل الحزبي السياسي الطلابي في اللاذقية، وكان المسؤول الحزبي الطبيب وهيب الغانم الذي قال فيه: «كان واحدًا من فدائيينا. فقد كنا بحاجة إلى شباب شجعان يقاتلون من اجل الحزب» (ص٦٤).

وفي غضون سنتين من المؤتمر التأسيسي، كان البعث في اللاذقية قد تجاوز منافسيه الأساسيين، الشيوعي والقومي السوري، ودخل في مواجهة حامية مع الاخوان المسلمين؛ وكان يضم عددًا كبيرًا من الشباب العلويين مما أقلق مسؤول

والد الرئيس حافظ الأسد، علي سليمان الأسد؛ ووالدته السيدة ناعسة زوجة علي سليمان؛ وشقيقه اسماعيل (ابو توفيق) امام بيت الاسرة في القرداحة مسقط رأس الرئيس الأسد واشقائه (هذه الصور والصور الثلاث التالية من كتاب: **Lucien Bitterlin,**
"HAFEZ EL ASSAD, le parcours d'un combattant", Ed. du Jaguar, 1986. والصور
نفسها نشرها باتريك سيل في كتابه «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»).

الحزب في اللاذقية الدكتور وهيب الغانم من أن يبدو الحزب وكأنه حزب طائفي. ولذلك عندما كانت تلوح نذر اقتتال مع الاخوان المسلمين كان يحث العلويين على الابتعاد عن الشوارع لكي يتركوا لرفاقهم السنة أمر مقاتلة الاخوان. إلا ان الأسد كان يرفض مثل هذه التكتيكات الخجولة. فغريزته كانت ضد نزعة الحذر وتبني موقف الدفاع، هاتان الصفتان اللتان ميّزتا طائفته زمنًا طويلاً. لهذا كان يتصدر المظاهرات ويبحث في الشوارع عن حلفاء بين السنّة الأشداء الذين كانوا هم ايضًا يعارضون مثله المؤسسة الحاكمة. وفي سن مبكرة من حياته كانت التحالفات الطبقية تبدو للأسد أكثر أهمية من التضامن الطائفي، وكان الوصول إلى حلفاء طبقيين وسياسيين عبر الخط الفاصل بين السنيين والعلويين سيصبح من صفات حياته السياسية فيما بعد (ص٦٥-٦٦).

في آخر عامين من دراسته الثانوية (١٩٤٩-١٩٥١)، تمّ انتخابه رئيسًا للجنة الشؤون الطلابية في مدرسته، فأصبح على اتصال بلجان المدارس الأخرى في سائر انحاء البلاد، حيث لم يكن هناك من حدث سياسي في سورية، في تلك السنوات إلا وكان للطلبة المناضلين رد فعل حياله. وفي ١٩٥١، انتخب رئيسًا للمؤتمر العام لكل طلبة سورية. ومنذ ذلك الحين كان يعتبر نفسه سياسيًا قبل كل شيء حتى عندما ارتدى زيه العسكري في القوات الجوية.

كان الأسد في العشرين عندما غادر اللاذقية في صيف ١٩٥١ إلى قريته القرداحة حاملاً شهادة البكالوريا وثقة عالية بالنفس كقائد طلابي ولا شيء غير ذلك. فكّر بأن يكون طبيبًا، وبموافقة ابيه اتصل هاتفيًا بجامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت ليسأل عما إذا كان باستطاعته الالتحاق بكلية الطب فيها. فقيل له إن هناك اوراقًا كثيرة يجب ملؤها وان افضل شيء هو ان يذهب بنفسه لاجراء مقابلة ولكنه كان غير قادر على الوصول إلى بيروت، إذ كان ابوه قد شاخ و لم يكن لدى اسرته فائض من المال يمكن الاستغناء عنه لدفع اقساط الدراسة الطبية. فكان الجيش، الذي كان بدأ يستقطب الطموحين الوطنيين والقوميين من الشباب الفقراء مثله مثل المدرسة الثانوية، بديلاً مغريًا له. فدخل الأسد الكلية العسكرية في حمص (خريف ١٩٥١). وفي طلب الدخول ذكر صراحة: «بعد ان كنت رئيسًا لاتحاد الطلاب فقد اصبح من المستحيل ان أخفي ذلك»، أي انتماءه إلى البعث؛ والواقع انه كان من التهور بمكان ان يكشف طالب الكلية العسكرية، وسورية تحت حكم اديب الشيشكلي، عن انتمائه الحزبي. وفي ١٩٥٥، تخرج ضابطًا طيارًا ونال كأس فوزه بالحركات البهلوانية الجوية (ص٦٧-٧١).

ومثلما ساءت الأسد امتيازات الاغنياء في اللاذقية فقد أغضبه ايضًا الحرمان الذي يعيشه الفلاحون في الجبل. فقد اعطت ثورة الفلاحين التي ارتبطت باسم أكرم الحوراني للأسد أكثر مما أعطاه عفلق والأرسوزي، إذ قدّم له الحوراني نموذج ثورة الريف على المدينة التي كان على جيله ان يقوم بها فالأسد وامثاله كانوا «الجسر الهام الذي جمع بين الريف الذي استيقظ وبين الطبقات الوسطى من الأجراء في المدن، والذين زودوا جميعًا البعث بطاقته المحركة (راجع «ثورة الفلاحين» في باب «١٩٤٥-١٩٧٠»).

بعد سقوط الشيشكلي (١٩٥٤)، واشتداد الصراع السياسي النشيط، خاصة بين البعث والسوري القومي، واغتيال المالكي (١٩٥٥)، انفتح طريق واسع امام نشاط البعثيين. واختير الأسد (١٩٥٥) للذهاب إلى مصر من اجل مزيد من التدرب على الطيران، وكانت تلك اول رحلة له إلى الخارج وتتضمن الترقي من العمل على الطائرات ذات المحرك إلى العمل في الطيران النفاث. وقد سرّ جدًا بالذهاب إلى مصر عبد الناصر (وكان عبد الناصر زاد من قوة مركزه في

«قبل الاستقلال الفعلي في ١٧ نيسان ١٩٤٦، كان بعض الاساتذة يلقنون طلابهم مبادىء القومية، وبين هؤلاء الطلاب كان حافظ الأسد (واقفاً في اقصى اليمين) الذي انضم الى حزب البعث في ١٩٤٧. وفي ثانوية اللاذقية الرسمية، التي ستحمل في ما بعد اسم «ثانوية جول جمال الرسمية»، انهى الأسد دراسته الثانوية، ليصبح بعدها مباشرة، وبسرعة، مناضلاً ومسؤولاً عن اتحاد الطلاب السوريين.

قلوب السوريين بعد ان عقد مع سورية معاهدة دفاعية). وبعد عودته، كان مقر عمله (إبان حرب السويس ١٩٥٦) محطة جوية قرب دمشق، وقد طار في عدة طلعات متعقبًا طائرات استطلاعية معادية، وقد أطلق النار على إحداها (بريطانية). وفي منتصف ١٩٥٨، كان الأسد واحدًا من مجموعة صغيرة من الطيارين السوريين وقع عليهم الاختيار للذهاب إلى الاتحاد السوفياتي للاشتراك في دورة تدريب على الطيران الليلي بطائرات ميغ ١٥ وميغ ١٧ التي كانت سورية قد تزودت بها حديثًا. وكان قبل ذلك بشهور قليلة قد تزوج من إحدى قريباته البعيدات، أنيسة مخلوف.

قبيل مغادرة الأسد إلى الاتحاد السوفياتي كان عبد الناصر قد استقبل في دمشق وكأنه صلاح الدين الأيوبي وقد بُعث من جديد «وسط مشاهد من الاهتياج الشعبي الذي لم يُعرف ما يماثله في العصر الحديث». ولكن، حين عاد الأسد كان السخط يسود، «وكان لدى السوريين الكثير مما يستحق الشكوى كالمنافسة غير العادلة مع المصنوعات المصرية والقيود على أعمال المصارف والتجارة والشغل السري للجواسيس والمخبرين المصريين وحتى إشاعات عن تدفق للفلاحين المصريين إلى المناطق البكر في اراضي الجزيرة التي كان السوريون يفكرون فيها على انها كنزهم الدفين. وكان هناك ضربة أخرى، فلسوء حظ عبد الناصر تعرضت سورية طيلة سنوات الوحدة لجفاف قاحل جلب البؤس للريف وساعد على نسف الاصلاح الزراعي الذي كان الحوراني وفلاحوه يأملون بأنه سيحطم قوة ملاك الاراضي الاقطاعيين (...) فكل القرارات كانت تتخذ في القاهرة (...) ولم تعد دمشق أكثر من مركز محافظة (...) ونقل سرب الأسد للطيران الليلي المؤلف من طائرات الميغ ١٩ إلى مصر التي وجدها (الأسد) مكتئبة مثل اكتئاب سورية (اواخر ١٩٥٩)، وانتاب الأسد واصدقاءه، وهم في القاهرة، شعور بالصدمة والسخط ضد عفلق والبيطار اللذين اتخذا قرار حل الحزب سنة ١٩٥٨ بدون استشارة قواعده (...) واستذكر الأسد تلك الايام بقوله: «لقد اصبحنا فاقدي الثقة في التزامهما باهداف الوحدة والاشتراكية، وشعرنا بأنهما كانا يتاجران بالشعارات... لقد شعرنا بعداوة هائلة حيال حزبنا، وهي عداوات كانت تنزل مسلسلة من عبد الناصر نفسه. وعندئذ بدأنا نتنبأ بان الوحدة نفسها ستنتهي بكارثة» (...) وفي هذا الجو المتشائم والمكفهر بدأ الأسد واربعة من رفاقه الضباط مشروعًا قدّر له فيما بعد أن يغيّر مجرى تاريخ سورية. ففي ١٩٦٠ أقاموا تنظيمًا سريًا اطلقوا عليه إسم «اللجنة العسكرية» (...): النقيبان حافظ الأسد وعبد الكريم الجندي، والرائدان صلاح جديد وأحمد المير، والمقدم محمد عمران (...) وكان اول عمل قاموا به هو أنهم أقسموا على السرية (...) كانت اهدافهم هي اعادة بناء حزبهم المشتت، وحماية الوحدة، (...) وتزايدت مخاوفهم عندما وصلتهم الاخبار من دمشق حول إجراءات المشير عامر والعقيد السرّاج المفروضة بالقوة، وعن ازدياد تململ السكان (...) وبسرية عظيمة اقامت اللجنة العسكرية شبكة من دزينتين أو ثلاث دزينات من الضباط الذين نجم من بين صفوفهم بعد عقد من الزمن عدة شخصيات هامة في الحياة العامة في سورية (...) وكان عفلق، الذي انصبت عليه شكوك اللجنة العسكرية، يصارع من اجل العمل من مدينة بيروت كرئيس للقيادة القومية للحزب (...) وعقد البعث مؤتمرين في بيروت: الاول في آب ١٩٥٩، والثاني بعد سنة من ذلك تمامًا، لدراسة امور الحزب ومصيره. واقر مؤتمر ١٩٥٩ قرار عفلق بحل الحزب. ولكن مؤتمر ١٩٦٠ الذي حضره صلاح جديد كمندوب سريّ عن اللجنة العسكرية قد عكس ذلك القرار. وكان ذلك مؤشرًا على روح التمرد التي بدأت تتحرك

وتتململ منذ ذلك الحين» (ص١٠٠-١١٤).

بعد الانفصال (٢٨ ايلول ١٩٦١)، أودع الأسد وزملاؤه في السجن إذ كانوا لا يزالون في مصر. وبعد ٤٤ يومًا، اطلق سراحه وأعيد، وزملاؤه، إلى سورية في عملية مبادلة مع مجموعة من الضباط المصريين كانوا محتجزين فيها. وفي سورية، صرفت القيادة العليا الجديدة برئاسة اللواء عبد الكريم زهر الدين ٦٣ ضابطًا بعثيًا من الجيش، بمن فيهم اعضاء اللجنة العسكرية الخمسة جميعًا الذين راحوا يعملون بشكل جدي على توسيع التنظيم السري الذي بدأوه في القاهرة. وفي غضون ايام ستة (٢٨ آذار-٢ نيسان ١٩٦٢) غاصت سورية في حلقة مفرغة من الانقلاب والانقلاب المضاد، اقتحم اثناءها البعثيون والناصريون قلعة حلب وقتلوا آمر حاميتها. وانضم اليهم الأسد وجديد وعمران. وتمكن الأسد من الهرب جنوبًا عن طريق ميناء طرطوس إلى لبنان، إلا ان السلطات اللبنانية قبضت عليه وسجنته لمدة اسبوع في بيروت قبل ان تعيده إلى سورية ويجد نفسه في سجن المزة لمدة ايام.

وفي سياق اتصالات اللجنة العسكرية بمختلف تيارات الجيش وشعورها بضرورة ان يكون لها «واجهة» من ضباط كبار، نجحت في استمالة العقيد زياد الحريري، زعيم تيار الضباط المستقلين، وآمر قطاع الجبهة مع اسرائيل. فتشكلت عصبة مؤلفة من ستة رجال في اواخر ١٩٦٢: الأسد وعمران وجديد والحريري وقطيني والصوفي. وكان الاعضاء البعثيون وحدهم، وسط هذه التيارات، يملكون كيانًا متماسكًا وقيادة موحدة وبرنامجًا واحدًا: اعادة البعث إلى السلطة اولاً، ثم النظر في أمر قضية الوحدة العربية.

وفي اعقاب مؤتمر البعث (حمص، ربيع ١٩٦٢)، «جرت اتصالات بين عفلق واللجنة العسكرية التي لم تطلع الزعيم العجوز على سرها وعلى تفاصيل خططها، إلا ان الضباط حصلوا منه على تعهد بدعمهم للقيام بانقلاب كان هناك الكثير من المخادعة بين الجانبين. إلا ان الرابط الذي جمع بينهما (عفلق واللجنة العسكرية) هو التفاهم الصامت على انه بعد ان يتم استخدام الناصريين للتخلص من الانفصاليين فإنهم لم يكرروا غلطة تسليم السلطة إلى الزعيم المصري ولكنهم لم يتفقوا على مقدار السلطة التي سيتقاسمونها، إذ ترك الأمر معلقًا» (ص١٢٨).

وفي ٨ شباط ١٩٦٣، افاق الأسد ورفاقه على الأخبار المبهجة بأن رفاق حزبهم في بغداد قد اسقطوا وصرعوا الدكتاتور العراقي عبد الكريم قاسم. واصبحت اللجنة العسكرية على أهبة الاستعداد لتحذو حذو العراق. وفي ليلة ٧-٨ آذار ١٩٦٣، نفذ أعضاء اللجنة إنقلابهم الناجح بدون إراقة دماء؛ لكن في غضون اربعة اشهر اعقبت الانقلاب، استطاع الأسد وزملاؤه في اللجنة العسكرية ان يقضوا على كل مقاومة منظمة لحكمهم.

مال أعضاء اللجنة إلى اليسار. وفي المؤتمر البعثي القطري (ايلول ١٩٦٣) انتخب حمود الشوفي-مثقف بعثي متمركس-امينًا قطريًا والأسد عضوًا في قيادة قطرية جديدة تألفت من ٨ أعضاء. ولم يستطع عفلق، ولا البيطار، ولا أي واحد من مؤيديهما ان يجعل نفسه فيها. أما في المؤتمر القومي، فقد استطاع عفلق ان يبقى امينه العام، لكن البيطار سقط بينما صعد إلى القيادة للمرة الاولى بعثيون عسكريون: صلاح جديد وامين الحافظ (سورية)، وأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش (العراق). وانحنى صلاح البيطار للقوى الجديدة التي ظهرت في المؤتمرين القطري والقومي وقدّم استقالته من رئاسة الوزارة، وحل محله الفريق امين الحافظ الذي شكل وزارة وضعت فيها اللجنة العسكرية محمد عمران نائبًا له كي يراقبه. اما صلاح جديد، الرجل الثاني في اللجنة (كان عمران وجديد لا يزالان أعلى رتبة من ـــــ

حافظ الأسد، تلميذ ضابط في مدرسة السلاح الجوي في حلب.

في الاتحاد السوفياتي حيث تابع الأسد دورة تدريبية لمدة ١١ شهراً على طائرات الميغ ١٥ و١٧.

الأسد واكثر شهرة)، فقد رفّع من رتبة مقدم إلى رتبة لواء. وهكذا أصبح اعضاء اللجنة العسكرية في أهم وأخطر المناصب؛ فعمران راح يراقب جهاز الحكومة، وجديد راح يدير الجيش، أما مهمة الأسد الخاصة في ذلك الحين فكانت توسيع شبكة مؤيدي وانصار الحزب في القوات المسلحة لخلق «الجيش العقائدي» على نقيض «الجيش المتدخل في السياسة» الذي عرفته سورية في الماضي. ولذلك انكب الأسد على خلق جهاز حزبي في الجيش على غرار الحزب المدني. ومن اجل الاسترشاد العقائدي في هذه المهمة لجأ الأسد إلى خصم عفلق القديم الفيلسوف زكي الأرسوزي الذي الهم الأسد خطاه السياسية الاولى عن طريق الدكتور وهيب الغانم. وكان الأرسوزي حينذاك متقاعدًا منذ فترة طويلة، إلا ان الأسد أخرجه من عزلته وراح يصحبه معه في جولاته على معسكرات الجيش وجعله يحاضر في الجنود ويلتقي بالضباط. ولقد ابتهج الأرسوزي العجوز باهتمام الأسد فراح يكتب مقالات افتتاحية في صحافة الحزب والجيش كما انه أعطى الأسد نفسه لمحات عقائدية كان لها اهميتها في تطوره في ذلك الوقت. وعمل الأسد فيما بعد على تأمين معاش تقاعدي للأرسوزي ظل يتقاضاه حتى وفاته في دمشق (٢ تموز ١٩٦٨). وقال الأسد حين رثاه: «لقد عاش فقيرًا، ومات فقيرًا، ولكنه كان يتمتع باحترام كل الذين عرفوه». وفي هذه الأثناء كان الأسد يعمل على وضع كل وحدة من وحدات الجيش تحت مراقبة اللجنة العسكرية التامة وذلك عن طريق وضع ذوي الولاء في القيادات الحساسة وعدم إهمال عملية التثقيف السياسي للقوات. ولدى قيامه بهذه المهمة، أظهر الأسد براعة فائقة في التفاصيل واهتمامًا بالتخطيط المتأني الذي ينمّ عن عقل ضابط يتمتع بالذكاء. وقد ساهمت معرفته العميقة والمعمقة بالقوات المسلحة في صعوده المقبل (ص١٥٠-١٥١).

أمسك صلاح جديد بالسلطة، عقب انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦، وبات الجميع في الحزب والجيش والجهاز الحاكم من «جماعة صلاح» غير ان الطامحين الشبان في هذه الجماعة، وهو النقيب البعثي سليم حاطوم، الذي لعب دورًا بارزًا في الانقلاب المذكور، لم يكتم شعوره بالغبن اللاحق به في الجيش والحزب. وتعبيرًا عن غبنه قاد، اواخر ١٩٦٦، تمردًا شاركه فيه أكثر من طرف في جبل العرب (الدروز). وعندما توجه صلاح جديد إلى السويداء للاطلاع على ما يجري وتهدئة الاوضاع، احتجزه حاطوم، و لم ينقذه إلا تدخل صديقه ورفيقه وزير الدفاع الذي يسيطر على القوات الجوية، حافظ الأسد.

لكن حافظ الأسد (وهنا، سرد تأريخي آخر يوجز ما جاء به باتريك سيل في كتابه المذكور أكثر من مرة في هذه المادة؛ وهذا الايجاز نشرته «الوسط»، العدد٨٣، تاريخ ٣٠ آب ١٩٩٣، ص٣٩-٤٠)، مع هذا، بقي ولاؤه مشروطًا، ويبدو انه لم يشاطر جديد دائمًا التفكير على الموجة نفسها. فهذا إنما كان صعبًا حقًا.

ففي ذاك العهد (١٩٦٦-١٩٧٠) بدأ الكلام على حرب الشعب الطويلة الامد، والتهيئة لإلغاء دور الجيش «النظامي» ومنح الحرية المطلقة للمقاومة. فأخذت البلاد تعيش كابوسًا أمنيًا لا يرحم، وأخذت ترقية الضباط البعثيين بوتيرة متعاظمة وبلا حسيب فيما سرّح غير البعثيين. وتوالت التأميمات حتى كادت سورية ان تفرغ من كل ما يمكن تأميمه، واستشرت حملة لا سابق لها على العائلات وأبناء العائلات، فيما وجد الموظفون دخولهم تتآكل من دون ان تتوقف مطالبتهم بالتقشف عند حد. وفي ذلك العهد ايضًا انفجرت موجة الهجرة من الارياف إلى المدن بكل مضاعفاتها الاقتصادية والديمغرافية، وكل حساسياتها الاجتماعية والطائفية. و لم يبق هناك من حليف كامل للنظام. حتى الاتحاد السوفياتي

الـذي اطمـأن إلى عـداء دمشـق لـ«الرجعيـة والامبرياليـة»، خـاف تطرفهـا وميلهـا إلى المزايـدة علـى السياسـات العربيـة لعبـد النـاصر، في ظـل قطيعتها شبه التامة مع غالبيـة الانظمـة في المنطقـة. ولئـن عـاد خـالد بكـداش إلى بـلاده يومـذاك، وتمّ توزيـر شـيوعي (سميـح عطيـة) للمـرة الاولى في سـورية، كمـا اتفـق مـع موسـكو علـى بنـاء سـدّ الفرات، فإن الحذر لم يفارق السوفيات حيال الميل التوريطي للنظام الذي يبالغ في الالحاح على حرب الشعب، وهو الميل الذي نجح في جـرّ عبـد النـاصر إلى سحب القـوات الدوليـة واغـلاق شـرم الشيـخ واستدعاء حرب ٥ حزيران ١٩٦٧.

هذه جملة من القضايـا الـتي لم يكـن وزيـر الدفاع (حافظ الأسـد) موافقًـا عليهـا كلهـا. فمـا كان مهموسًا به عن معارضته اصبح مكشوفًا بعد هزيمة حرب ١٩٦٧. وساءه جـدًا ان تنسب إليـه هزيمة لم يكن مساهمًا في السياسـات الـتي أفضـت إليهـا. وتعـددت اسـباب الخـلاف وتنوعـت. فالاولويـة، بحسـب الأسـد، ينبغـي ان تذهـب إلى الجيش لا إلى حرب الشعب، وإلى الجبهة الداخليـة لا إلى الصراع الطبقي، وإلى التنسيق العربـي لا إلى العزلة المتطرفة. و لم تعوز الشـواهد حـافظ الأسـد: ففي آب ١٩٦٧، قاطعت سـورية مؤتمـر الخرطوم فقـدم المؤتمـر مسـاعدات ماليـة إلى مصـر والاردن وحجبها عن سورية. وفي تشرين الثـاني، انفـردت دمشق عن القاهرة وموسكو في رفض قـرار مجلس الامن ٢٤٢. وفي ١٧ تمـوز ١٩٦٨ فوّتـت فرصـة تقارب مع العـراق نجمـت عـن وصـول البعـث إلى السـلطة في بغـداد. صحيـح ان الذيـن وصلـوا هـم البعثيـون الآخـرون، إلا ان الاعتبـارات العقائديـة والحزبيـة ينبغـي ألا تحـول، في رأي الأسـد، دون درجة من التنسيق الممكن.

وجـاء المؤتمـر القطـري الرابـع في ايلـول ١٩٦٨ ليعلن على الملأ ازدواجية السـلطة وصـراع القـائدين رفيقـي الأمـس، صـلاح جديـد وحـافظ الأسد الذي لم يتباطأ في اتخاذ الاجـراءات المناسبة ضد انصار جديد، من إبعاد أحمد المير إلى سفارة مدريد، إلى إزاحة شـقيقه عـزت عـن قيـادة اللـواء ٧٠، وصولاً إلى محاصرة عبد الكريم الجندي الذي انتحر في ١٩٧٠.

وبات واضحًا ان صلاح اضحـى في موقـع دفاعي، لا ينفعه فيه «الخـط العقـائدي الصـائب»، إلا انه توهّم فك الحصار عنه بـالمزيد مـن التصعيـد ثوريًا، غافلاً كليًا عن ان النظام الذي يرعاه مفلـس ومكروه على الصعد كلها. وجاءت الخطوة القاتلة مع انفجار الحـرب الاهليـة في الاردن، بعـد رفـض دمشـق والمقاومـة الفلسـطينية مشـروع روجـرز للسلام. فالتدخل العسكري البري للقوات السورية بقـي مكشـوفًا بـلا غطـاء جـوي، مـا اوقعـه تحـت النـيران الاردنيـة. ودعـا جديـد إلى مؤتمـر طـارىء للقيادة القومية الموالية لدمشق في ٢٠ تشرين الاول «لمحاسبة الأسد». فانعقد المؤتمر بعد يومين من وفاة عبد الناصر. وما إن انتهى المؤتمر الـذي أكـد خـط صلاح جديد ونهجه، حتى عاجل الأسـد، في ١٦ تشـرين الثـاني ١٩٧٠، بـ«الحركـة التصحيحيـة» (استكمالاً، راجع باب «عهد الأسد»).

شـكلت «الحركـة التصحيحيـة» موضـوع تـأريخ وتقويـم لعـدد كبـير مـن الكتابـات والدراسات، جمع أكثرهـا «دار البعـث» (دمشـق، ١٩٩٥) بمناسبة «مؤتمـر اليوبيـل الفضي للحركـة التصحيحية»)، منها مـا كتبـه الكـاتب والسياسـي اللبناني منح الصلح الذي قال، في جملة ما قال:

«قـام الرئيـس حـافظ الأسـد مـن خـلال الحركة التصحيحيـة بـأول مراجعـة جديـة لتجربـة اشتراكية، في وجه الريـاح الـتي ذهبـت في مـا بعـد بتجارب مماثلة في العـالم. لقـد كـان عنـده حـدس عميق بأن تحولات مهمـة بـدأت تعصـف بالعـالم، وإن لم تتجسد بعد بتغييرات؛ فإما ان يبـادر القـادة التقدميون بالتغييرات المناسبة وإما ان تتعثر وتسقط علـى ايـدي أعدائهـا. أجـرى التغيـير في اللحظـة

التاريخية الصحيحة فصان الدولة والمجتمع والخط الوطني العربي من الانهزام. أدرك قبل الكثيرين من قادة العالم ان الطريق مسدود قطريًا وقوميًا وعالميًا امام التزمت العقائدي والفكر المغامر ووهم القدرة على تأدية الخدمات للامة دون الانفتاح على الآخر في الداخل والخارج. أخرج من نفوس المسؤولين الرسميين والناس معًا، أو كاد، نزعة العزل السياسي والتحجر العقائدي وتلخيص المجتمع بالدولة وحدها. فالسياسة حق للمواطنين جميعًا، والاقتصاد مسؤولية القطاع العام والقطاع الخاص معًا، والثقافة الوطنية هي الرافعة لمستوى الشعب العام. الحقوق الوطنية والقومية، التضامن العربي، وقف التداعي في الجبهة امام الخصم، السلام العادل، تلك هي السقوف التي وضعها حافظ الأسد لسياسة سورية الخارجية».

* **حسن الحكيم** (١٨٨٦-؟): ولد في دمشق، وحصل علومه الابتدائية والثانوية فيها، والعالية في الآستانة. كان مديرًا للبريد والبرق في العهد الفيصلي. اعتبره بعضهم مسؤولاً عن الخطأ الذي وقع في تأخر وصول موافقة فيصل على إنذار غورو. غادر سورية لدى مغادرة فيصل لها. صار مدير المالية العام في حكومة «الشرق العربي» التي شكلها رشيد طليع (إبان الثورة السورية الكبرى). ثم عاد إلى دمشق. نفي إلى جزيرة أرواد بعد ان حوكم هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر وآخرين بسبب الاضطرابات التي وقعت في دمشق لدى زيارة كراين لها في ١٩٢٢. اشترك في إنشاء حزب الشعب (١٩٢٤) وصار سكرتيرًا له، وساهم بصفته هذه بفعالية في إحباط اصدار النظام الأساسي الذي أعده الفرنسيون لتقديمه إلى عصبة الأمم بالاستناد على استطلاعات رأي محصورة فقط بافراد مختارين. شارك في الثورة السورية (١٩٢٥)، وغادر البلاد بعدها واستقر في مصر وصار عضوًا في لجنة المؤتمر السوري-الفلسطيني ممثلاً لحزب الشعب. أعلن اعتزاله للسياسة على اثر المهاترات التي وقعت بين اعضاء اللجنة وانقسامها. عين في ١٩٣٣ مديرًا للبنك الزراعي في يافا. وفي ١٩٣٧، بعد عودته إلى سورية، عين مديرًا للاوقاف، ثم مديرًا عامًا للمصرف الزراعي. تولى وزارة التربية (١٩٣٩)، ورئاسة مجلس الوزراء (١٩٤١-١٩٤٢). انتخب نائبًا مستقلاً عن دمشق في ١٩٤٧. صار وزيرًا للدولة في وزارة ناظم القدسي ١٩٥١.

* **حسن الخراط** (١٨٦١-١٩٢٥): ثوري عربي سوري من عامة الشعب. اصبح أحد مشاهير القادة المقاتلين في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) في غوطة دمشق وأحد شهدائها. ولد في دمشق و لم يتلق أي تعليم في الكتّاب أو في المدارس. تولى حراسة مزروعات الشاغور وبساتينه، ثم التحق بسلك الحراس التابع لمديرية شرطة دمشق وترقى إلى رتبة نقيب حراس. تعاطف مع الثورة والثوار منذ البداية. فقام ببعض المهمات التنظيمية والدعائية السرية. ثم خرج إلى الغوطة للالتحاق بالثورة علانية، وشكل جماعة بقيادته، فأمرت سلطات الانتداب باحراق داره وحرمانه من حقوقه المدنية. شارك مع مجموعته ومجموعات اخرى من الثوار في أولى معارك الثورة في الغوطة (معركة جوبر) التي انهزمت فيها القوة الفرنسية وتراجعت حتى باب توما (١٣ تشرين الاول ١٩٢٥)، ثم في معارك الزور والضمير. وقد أثار الثوار قيام ا لفرنسيين باعتقال ٢٤ رجلاً من ابناء القرى المحيطة بالمليحة واعدامهم وعرض جثثهم في دمشق على انهم من الثوار، فقاموا بمهاجمة دمشق في ١٨ تشرين الاول ١٩٢٥ بثلاث مجموعات، بينها مجموعة حسن الخراط، وتمكنوا من الدخول إليها وتكبيد القوات الفرنسية نحو ١٠٧ قتلى. وإزاء هذا الهجوم المباغت اصدر المفوض السامي الفرنسي قرارًا بقصف دمشق

بالمدفعية المتمركزة في القلاع المنتشرة على قمم الجبال الغربية الشمالية. و لم يتوقف القصف إلا بعد يومين (٢٠ تشرين الاول ١٩٢٥) بعد احتجاج قناصل الدول الاجنبية. وفرض المفوض ساراي على السوريين غرامة حربية مقدارها ١٠٠ ألف ليرة عثمانية ذهبًا و٣ آلاف بندقية. وخشي الخرّاط ان يستغل البعض هذه الظروف للاعتداء على المسيحيين في دمشق، فاتخذ التدابير اللازمة لحراسة مناطقهم ومنع أية تعديات عليهم. ونتيجة لضرب دمشق بالقنابل وفرض الغرامات الباهظة عليها ومناعة مواقع تمركز الفرنسيين وتحكمها بالمدينة، اضطر الثوار إلى إخلاء العاصمة، والانسحاب إلى الغوطة للافادة من طبيعة بساتينها التي تساعد على حرب العصابات. ومنذ ذلك الوقت اخذ القتال طابعًا جديدًا، فكان الفرنسيون يرسلون الدوريات إلى الغوطة للقيام بعمليات التعقب والتمشيط، فيكمن لها الثوار ويصطدمون معها. وخلال إحدى هذه العمليات، وقعت مجموعة الخراط في كمين في حي الشاغور، وأسفر عن استشهاده. فغدا رمزًا لابن الشعب الذي يرقى بنضاله إلى مصاف القادة («موسوعة السياسة»، ج٢، ص٥٣٦).

ومن كتاب ألّفه نزار الأسود («حسن الخراط»، مؤسسة غبور للطباعة، دمشق ١٩٩٦)، وعلى لسان احد رفاق حسن الخراط، محمد خير حموش الذي كان كاتم اسرار الخراط وكاتب رسائله، وخطيب جامع الصمادية في حي الشاغور، انه «في بداية اعمال الثورة هاجم حسن الخراط مخفر الشرطة في الحي وتم أسر رئيسه (كوميسّير) ما دفع سلطة الانتداب إلى وضع مكافأة مقدارها ١٠٠ ليرة ذهبية لمن يأتي بحسن الخراط حيًا أو ميتًا، وظل المفوض رهينة بايدي الثوار إلى ان استشهد الخراط فتم قتل الكوميسير (...) وان الخراط هرّب شكري القوتلي إلى جبل العرب عندما قررت سلطات الانتداب اعتقاله، والتقى هناك بالثوار وشاهد تحضيراتهم، فعاد إلى الغوطة ليشعل ثورة عامة ضد الفرنسيين».

* **حسني البرازي** (١٨٩٣-؟): من كبار الملاكين الزراعيين في حماه. تلقى علومه العالية في القسطنطينية وتخرج فيها من معهد الحقوق. كان عضوًا في «العربية الفتاة»، وفي حزب العهد السوري والعراقي، ثم في حزب الاستقلال عندما تحولت العربية الفتاة إلى حزب علني. في ١٩٢٦، تولى وزارة الداخلية في وزارة الداماد أحمد نامي باعتباره من الوطنيين (العاملين للاستقلال، ومقارنة بـ«المتعاونين»). وعندما رفض، هو وزميلاه فارس الخوري ولطفي الحفار، التوقيع على بيان يحمل الثورة مسؤولية ما وقع وما سيقع من خراب وخسائر في الارواح، أقيل ونفي معهما. انتخب نائبًا عن حماه إلى المجلس التأسيسي (١٩٢٨). وزير التربية في ١٩٣٤. رئيس الوزارة ووزير الداخلية في رئاسة الشيخ تاج (١٩٤٢-١٩٤٣)، ثم محافظ حلب حتى ١٩٤٩. أعيد انتخابه نائبًا عن حماه في ١٩٤٩، وعين نائبًا للحاكم العسكري في ١٩٤٩. شارك في العمل ضد أديب الشيشكلي، ابن أخته، وحضر مؤتمر حمص ووقّع بيانه. في ١٩٥٤، اسس مجلة «الناس» الاسبوعية، وفي ١٩٥٥ تنحى عن العمل السياسي وراح يتنقل بين تركيا ولبنان.

* **حسني الزعيم** (١٨٩٧-١٩٤٩): زعيم اول انقلاب عسكري في سورية في التاريخ المعاصر. ولد في دمشق، «من اصل كردي، وقد اشترك، رغم تخرجه من الاكاديمية الحربية العثمانية في اسطنبول، في الثورة العربية على الاتراك، ثم التحق في ١٩٢١ بالقوات الحربية الفرنسية في سورية، فتلقى تدريبًا عسكريًا في فرنسا. وفي الحرب العالمية الثانية حارب مع قوات فيشي حيث سجنته قوات ا لحلفاء بعد انتصارها، وفي ١٩٤٤،

أخلي سبيله بأمر من الرئيس القوتلي وعاد فالتحق بالقوات السورية. إن الزعيم رجل قلب (متقلب) بالغ الطموح، وكان شديد التأنق في ملبسه ويضع مونوكلاً وكأنه يتبع التقاليد العسكرية البروسية... أصبح بطلاً وطنيًا في شتاء ١٩٤٨-١٩٤٩ العاصف» (جوردن هـ. توري، «السياسة السورية والعسكريون»، ترجمة محمود فلاحة، دار الجماهير، ص١٣٣).

قام بانقلابه ليلة ٣٠ آذار ١٩٤٩، مبتدئًا سلسلة الانقلابات التي سببتها مباشرة هزيمة فلسطين، مستغلاً تذمر الناس من فساد الحياة السياسية ونقمة الجيش لتهجم بعض عناصر البرلمان عليه. فحكم حكمًا مطلقًا مدة ١٣٦ يومًا. اتخذ لقب «المشير»، ودعا إلى انتخابه رئيسًا للجمهورية، فانتخب في ٢٦ حزيران ١٩٤٩. وتوالت اعترافات الدول بحكومته. حوصر منزله فجر ١٤ آب ١٩٤٩، واعتقل، وضم إليه رئيس وزرائه محسن البرازي، فاقتيد الاثنان إلى مكان قريب من سجن المزة حيث حوكما بتهمة الخيانة، وقرر المجلس العسكري الذي حاكمهما برئاسة الزعيم سامي الحناوي، في اقل من ساعة، إعدامهما رميًا بالرصاص.

في مقدمتها لكتاب جوناثان أوين («أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء الحوراني، صادر في ١٩٩٧) لخصت نزيهة الحمصي، زوجة أكرم الحوراني، بجمل ما جاء في هذا الكتاب عن «تورط» الولايات المتحدة بانقلاب حسني الزعيم (ص٨٢-٨٧):

«يقول أوين (في كتابه المشار إليه) وبتعابير ليس فيها أي غموض: لقد تأكد حديثًا بعد السماح بنشر بعض الوثائق السرية (بعدما يقرب من اربعين عامًا من انقلاب حسني الزعيم) تورط الولايات المتحدة بأول انقلاب عسكري في العالم العربي، وكان قد أشيع لمدة سنوات بأنها ساندت انقلاب حسني الزعيم، كما كان مايلز كوبلند، عضو المخابرات المركزية السابق، قد ذكر في كتابه «لعبة الامم» المساعدة الاميركية لحسني الزعيم. ولكن روايته لم تؤخذ آنذاك على محمل الجد، واستنادًا لما كتبه فإن سورية كانت على حافة اضطراب سياسي عنيف بينما كانت حكومة الكتلة الوطنية عمياء عنه، ورأى السفير الاميركي في سورية ان الاوضاع ستأخذ أحد مجريين، إما احتمال قيام «الانتهازيين» قريبًا، مع مساعدة السوفيات، بانتفاضة دموية، أو ان يسيطر الجيش على السلطة بمساعدة الاميركيين السرية للمحافظة على الامن والنظام إلى حين إحداث ثورة سلمية. ويقول المؤلف ايضًا: وهكذا شرعت المفوضية الاميركية بالقيام بعملية هدفها تشجيع الجيش السوري على القيام بانقلاب من اجل الحفاظ على سورية من الاختراق السوفياتي وجلبها إلى طاولة السلام مع اسرائيل، و لم يكن حسني الزعيم الخيار الاول لفريق العمل السياسي الاميركي المشرف على العملية ولكنه اصبح هدفها لأنه لم يكن هنالك الكثير مما يمكن عمله. لقد رأى فيه الاميركيون نواحي إيجابية عديدة، فقد كانت له «مواقف شديدة العداء للاتحاد السوفياتي وكان يرغب في الحصول على مساعدات عسكرية اميركية بالاضافة لكونه مستعدًا لعمل بنّاء بخصوص المشكلة العربية الاسرائيلية. كما يقول (المؤلف): واستنادًا للوثائق السرية التي سمح بنشرها التقى الزعيم حسني الزعيم مرات مع مسؤول من السفارة الاميركية للنقاش حول الانقلاب، وقد بدأت هذه اللقاءات في اواخر ١٩٤٨ وانتهى الاعداد للانقلاب اوائل ١٩٤٩، وفي شهر آذار من العام نفسه تقدم حسني الزعيم بطلب المساعدة من الاميركيين للقيام بانقلابه».

وجاء في الحاشية ٣ من المقدمة (ص١٠): في تلك الفترة لم يكن للاتحاد السوفياتي أي نفوذ في سورية حيث كان الشعب يغلي، بسبب نكبة فلسطين، بالنقمة على الغرب وبصورة خاصة على

الولايات المتحدة التي كانت تحاول فرض الهدنة مع اسرائيل على سورية التي تأخرت في اقرارها عن غيرها من الدول العربية، كما كانت الشركات البترولية الاميركية تحاول إمرار انابيب البترول السعودي عبر سورية (التابلاين) وقد استجاب حسني الزعيم، بجرة قلم، لطلب الولايات المتحدة، بينما كان الشعب السوري ومجلسه النيابي الذي حلّه حسني الزعيم معارضين لأي نفوذ للشركات البترولية في سورية.

* **حمود الشوفي** (١٩٢٧-): برز إسمه عقب انقلاب ١٩٦٣ على يد اللجنة العسكرية (راجع «حافظ الأسد» في باب زعماء، رجال دولة وسياسة) وفي ظروف شعور اعضاء هذه اللجنة بحاجتهم إلى «ايديولوجي منظّر» يلتقي وطروحاتهم الراديكالية بعد رفضهم لاتجاهات عفلق والبيطار. ومن المفيد، هنا، الكلام على هذه الظروف، والتعرف على حمود الشوفي، من خلال ما كتبه باتريك سيل (ص١٤٥، ١٤٦، ١٥٤):

لقد ألقى انقلاب ١٩٦٣ الأسد في لجة السياسة. وواجه، هو ورفاقه الشباب البعثيون الذين استولوا على السلطة في دمشق وبغداد في ذلك الربيع، مهمة ترجمة ميولهم وغرائزهم اليسارية إلى سياسات عملية. فلقد كانوا قد صرفوا جلّ طاقاتهم في تحصين انقلابيّهما (في بغداد ودمشق) لا في التفكير في برنامج مفصّل. وقدّم البعثيون العراقيون مثالاً صارخًا في مدى عدم الجاهزية. فبعد انقلابهم كان عليهم ان يذيعوا بيانًا بسياستهم للشعب العراقي الذي كان متلهفًا تلهفًا مفهومًا لمعرفة ما الذي ينتظره. ولكن من يكتب هذا البيان وماذا يكتب فيه؟ وهكذا استدعي الدكتور منيف الرزاز من الاردن والدكتور عبد الله الدايم من سورية إلى بغداد ليضعا مسودة هذه الوثيقة. وقد تألّم علي صالح السعدي، صانع الانقلاب الكادح البروليتاري وهو يقول فيما بعد: «لقد ضِعنا في الحكم ومتاهاته».

وتخبط السوريون تخبطًا مماثلاً. فلم يكن باستطاعة ضباط اللجنة العسكرية ان يتجهوا إلى عفلق والبيطار طلبًا للارشاد لأنهم كانوا يحتقرون رؤيتهما الاصلاحية البورجوازية.

وهكذا كانوا بدون عدة نظرية، وبحاجة إلى مساعدة عقائدية تضاهي ميولهم الثورية واتجاهاتهم الراديكالية فأمسكوا بما كان يسمى بالفئة الماركسية التي تشكلت على أيدي عدد من البعثيين السابقين بعد حل الحزب. وكانت هذه المجموعة من «المفكرين» يتزعمها معلم مدرسة درزي شديد الحماسة اسمه حمود الشوفي، وقد جعلته القراءة النهمة للادبيات الاشتراكية وتجربته القاسية في السجن خلال سنوات الوحدة يساريًا بكل معنى الكلمة. وقد استطاع رغم كثير من العقبات الضخمة ان يبقي على خلية بعثية سرية في السويداء، وأصبح مثير شغب في منطقته. وقد تأثر كثيرًا بعلي صالح السعدي، الثوري العراقي، وبياسين الحافظ، المنظر الماركسي السوري من دير الزور، المركز المتقدم على نهر الفرات الذي قدم للسياسة السورية-برغم بعده الجغرافي-عددًا مدهشًا من الشخصيات من كل نوع ولون. كان واضحًا ان اللجنة العسكرية والماركسيين قد اعتقدوا بأن لديهم أشياء كثيرة مشتركة، ولذلك وحّدوا قواهم فسيطروا على مؤتمر القيادة القطرية (ايلول ١٩٦٣) الذي انتخب الشوفي امينًا قطريًا.

وعلى اثر انشقاق خطير داخل حزب البعث في العراق وطرد السعدي دخل عفلق والضباط في تحالف تكتيكي ضد الماركسيين. ففي مؤتمرين طارئين (قطري وقومي) في شباط ١٩٦٤، طُرد السعدي وتلميذه الشوفي من الحزب ومعهما مؤيدوهما.

وعين حمود الشوفي، بعد ذلك، سفيرًا لسورية في الامم المتحدة؛ ثم عاد وانفصل عن النظام في ١٩٧٩.

خالد بكداش.

*** خالد بكداش** (١٩١٢-١٩٩٥): ولد في دمشق من عائلة كردية فقيرة لم يُعرف افرادها بأي نشاط سياسي. درس ونال البكالوريا، فرع الرياضيات، وانتسب لمدة قليلة إلى معهد الحقوق في دمشق ولكنه لم يكمل دراسته فيه إذ فرّ من وجه السلطة لملاحقتها له وحكمها عليه بالسجن.

«بدأ بكداش حياته السياسية مع الكتلة الوطنية، وكان يبدو منسجمًا نسبيًا مع هذه البداية، ولكنه ما لبث ان اختار طريقًا آخر ليعبر عن وطنيته ومعاداته للانتداب فانتسب «فجأة» للحزب الشيوعي في ١٩٣٠ لأسباب غير واضحة، ويقول مجيد خضري بأن التمييز ضد الاكراد في الكتلة الوطنية وعدم التزامها باصلاحات ديمقراطية ربما كان وراء قطع صلته بالكتلة الوطنية، أما السبب المحتمل الآخر هو إدراك السوفيات بأن جذب الملتزمين للحزب يتطلب رئيسًا مسلمًا (كان رئيس الحزب الشيوعي، قبل بكداش، مسيحيًا من حلب) لفرع الحزب الشيوعي في سورية، ولذلك تمّ تجنيد بكداش ليلعب هذا الدور. ويقول فيليب خوري ان تحول بكداش للشيوعية كان خلال دراسته للحقوق في جامعة دمشق، وارسل بعدها إلى الاتحاد السوفياتي للدراسة والتدريب وعاد إلى دمشق في منتصف الثلاثينات ليصبح رئيسًا للحزب الشيوعي في لبنان وسورية، منغمسًا في النشاط السياسي، مثل قيامه بدور المساعد في مفاوضات ١٩٣٦ بين الحكومة السورية وحكومة ليون بلوم (الاشتراكية) في فرنسا» (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، دار المعارف بحمص، ط١، ١٩٩٧، ص٦٠-٦١؛ استنادًا إلى مرجعين: مجيد خضرُي، «عرب معاصرون، دور الشخصيات في السياسة، بالانكليزية؛ وفيليب خوري، في مؤلفه عن العظم والكيلاني، بالانكليزية ايضًا).

اشترك، بصفة «رئيس الوفود العربية» في المؤتمر السابع للاممية الشيوعية الذي عقد في موسكو ١٩٣٥ وقرر العمل على إقامة جبهات وطنية من مختلف الاحزاب المعارضة للاستعمار والفاشية.

في ١٩٥٤، انتخب نائبًا عن دمشق وأعيد انتخابه مع ستة من أعضاء حزبه في انتخابات ١٩٧٣. ومثل حزبه، بجناحيه وزيران في الحكومة السورية (١٩٧٧) التي رئسها عبد الرحمن خليفاوي. تعرضت قيادته لنقد شديد داخل الحزب بسبب تسلطه ومعارضته للقومية العربية (وللوحدة). عضو القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية منذ تأسيسها، ونائب في مجلس الشعب السوري منذ ١٩٧٢. لقب بـ«شيخ الشيوعيين العرب»، وظل متمسكًا بمنصبه ومهماته رغم مرضه العضال الذي استمر نحو عقد من دون ان يحمله على الاستقالة.

وكان بكداش رفض في السنوات التي تلت سقوط الشيوعية في عقر دارها «التقاعد السياسي» أو أن يجري انقلابًا على أفكاره التي اعتنقها في ١٩٣٠. وبقي مصممًا في خطابه السياسي ولقاءاته الصحافية على التمسك بالشيوعية وعلى «ان الاحداث التي حصلت في العالم برهنت على قوة الافكار الشيوعية».

في مقال حاول إيجاز شخصية خالد بكداش، كتب جورج البطل، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني («الوسط»،

العدد ١٨٣، تاريخ ٣١ تموز ١٩٩٥، ص١٦-١٧):

«خالد بكداش، في اواخر ايامه، آخر الاحياء من اعضاء اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية المعروفة باسم الكومنترن الذي تمّ حله رسميًا وصفيت مؤسساته في اثناء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣ (...) كان هو وخالد العظم المرشحين الوحيدين اللذين فازا منذ الدورة الاولى (انتخابات ١٩٥٤، بعد الاطاحة بالشيشكلي) وبعدد كبير من الاصوات. وهو ايضًا القائد الشيوعي العربي الوحيد الذي لعب قبل الحرب العالمية الثانية دورًا في دعم الجبهة الشعبية في اسبانيا وانتدب من قبل الكومنترن للذهاب إلى شمال افريقيا في محاولة لثني الجنود المغاربة عن تنفيذ اوامر الجنرال فرنكو الذي زحف، في اواسط الثلاثينات بقواته من الصحراء الغربية والمناطق المغربية الاخرى التي كانت تستعمرها اسبانيا لضرب الجمهورية الاسبانية وإقامة دكتاتوريته ونظامه الفاشي في مجزرة من أكبر المجازر التي عرفتها البشرية (...) وإذ هادن بكداش السوفيات في عهد بريجنيف ولجأ إليهم لدعمه في وجه الشيوعيين وفي وجه منتقديه في قيادة الحزب الشيوعي السوري وفي صفوفه، فإنه اتخذ موقفًا معاديًا لنظريات غورباتشوف المعروفة بالبيريسترويكا وانتقدها بشدة واعتبر ما حصل في الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي مجرد مؤامرة معادية للاشتراكية نجحت بفعل خيانة قادة الاحزاب. ومات على هذه القناعة (...) ولا بد، لفهم دور بكداش وشخصيته وما رافقهما من تناقض، الاشارة إلى انتسابه في آن، إلى قوميتين لم تكونا دائمًا على وفاق. فهو نشأ وترعرع في قلب الحركة الوطنية الاستقلالية العربية، إلا انه من اصل كردي، وعاش سنوات طويلة، عند وجوده في دمشق، في قلب حارة الأكراد وتأثر بنبض شارعها. فكانت مواقفه من القضايا القومية تحمل على الدوام أثر هذا التناقض والازدواجية في الانتساب القومي» (راجع «الحزب الشيوعي» في باب الاحزاب).

خالد العظم.

* **خالد العظم** (١٩٠٠-١٩٦٥): ولد في دمشق ونشأ في اسرة ارستقراطية عريقة في الحكم، برز منها عدة وجهاء وباشوات، سيطروا على الحياة الاجتماعية والسياسية في دمشق منذ القرن الثامن عشر (أبرزهم ومؤسس وجاهتهم إسماعيل باشا العظم، والي دمشق في ١٧٢٤، راجع باب «في التاريخ الحديث»، العنوان الفرعي «سورية ولايات عثمانية»). تخصص خالد العظم في الاقتصاد، وتقلب في مناصب حكومية عدة. لم ينضم اثناء فترة الانتداب إلى حزب الكتلة الوطنية الذي قاد سورية إلى الاستقلال واستلم الحكم في الفترة اللاحقة، بل ظلّ متمسكًا باستقلاليته. عين وزيرًا عدة مرات، وعين رئيسًا للوزراء مرارًا: من ١٩٤١ إلى ١٩٤٢ تحت حكم فيشي، من ١٩٤٨ إلى ١٩٤٩ حين اطاح انقلاب حسني الزعيم بوزارته، ومن ١٩٤٩ إلى ١٩٥١. شغل ما بين ١٩٥٥-١٩٥٧ منصب وزير الدفاع والمالية ونائب رئيس الوزراء. توقف عن ممارسة أي نشاط سياسي علني بعد إعلان الوحدة؛ ثم عاد بعد الانفصال فشغل مرة أخيرة منصب رئيس الوزراء (١٩٦٢-١٩٦٣)، وأطاحت حكمه حركة ٨

آذار ١٩٦٣، فلجأ إلى لبنان، وتوفي في بيروت ودفن فيها.

تميزت سياسة خالد العظم بالليبرالية الاقتصادية وتبني البرلمانية الغربية وتأييده للانفصال (سورية عن مصر)، وتحالفه مع الشيوعيين السوريين، وتقوية علاقات سورية بالكتلة الاشتراكية. وكان وراء القطيعة الاقتصادية بين لبنان وسورية (١٩٥٠)، وإقامة الحواجز الجمركية والاقتصادية بين البلدين. له «مذكرات خالد العظم»، صدر في بيروت، في ثلاثة أجزاء.

*** زكي الأرسوزي (١٩٠٠-١٩٦٨):**

ولد في اللاذقية (في اسرة متواضعة) ثم انتقلت عائلته، بعد ولادته بقليل إلى انطاكية في لواء اسكندرون السوري حيث أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في مدينة قونيه. تابع دراسته في بيروت ثم التحق بجامعة السوربون الباريسية (١٩٢٧)، فخرج منها بإجازة في الفلسفة، وبحماسة لا حدود لها للشعر الفرنسي، والرسم، والحضارة الفرنسية. في ١٩٣٢، عين مدرسًا في مدرسته القديمة في انطاكية حيث ظهرت عليه علامات النبوغ. «إلا ان استيقاظه كان عنيفًا فقد كان المسؤولون الفرنسيون في الواقع الميداني من طينة تختلف تمامًا عن طينة الشعراء والرسامين والاساتذة الذين احبهم حتى العبادة في باريس. كان أولئك الفرنسيون الذين يديرون الانتداب إما مجرد موظفين تافهين من درجة منخفضة، يجهلون التقاليد المحلية ويحتقرونها، أو ضباطًا كيّفتهم تجربتهم في الحكم الفرنسي لأقطار شمالي افريقيا الذي كان احتقار الأهلين أبرز خصائصه. فعندما تسربت أنباء ما كان يجري في صفوف مدرسته صرخ الفرنسيون: «كيف تجرؤ على تدريس ما تعلمته في السوربون؟ إن ما يهم هنا هو المصلحة الفرنسية، لا الثقافة الفرنسية». وعندما عثر مفتش مدرسة فرنسي على الأرسوزي يبث افكار الثورة

زكي الارسوزي.

الفرنسية بين طلابه أوقفه في منتصف الجملة وأخرجه من الصف. فالحرية والمساواة والعدالة لم تكن للشعوب الخاضعة للاستعمار» (باتريك سيل، ص٥٢، نقلاً عن مقابلة مع الدكتور وهيب الغانم في ١٥ نيسان ١٩٨٥). وفي ١٩٣٤، أسس المدرّس الشاب (الأرسوزي) نادي الفنون الجميلة بهدف نشر الوعي بالفن وتقديره بين أبناء بلده، ولكن عندما واجه الفرنسيون حتى هذا النشاط بغضب، ترك الأرسوزي الثقافة الفرنسية واهتم بدلاً منها بالسياسة السورية، فأصبح قوميًا وأخذ يحرّض.

فانتسب إلى عصبة العمل القومي وتزعم حركتها في لواء الاسكندرون. ثم ما لبث ان تجاوزها وأنشأ جريدة «العروبة» وبدأ ينادي بالانبعاث العربي.

وفي أزمة لواء الاسكندرون (١٩٣٦) والتآمر على سلخه عن سورية وضمه إلى تركيا،

قاد حركة مقاومة سلخ اللواء فسجن. وفي ١٩٣٧ أنشأ «نادي العروبة» وأقام مكتبة اطلق عليها إسم «البعث العربي». وعندما دخل الجيش التركي اللواء عنوة، قاد الأرسوزي افواج المهاجرين العرب من اهالي اللواء الذين اختاروا سورية والنضال فيها، مشيًا على الاقدام إلى حلب، حيث تابع مهنة التدريس داعيًا إلى عروبة الاسكندرون، مندِّدًا بتواطوء حكم الكتلة الوطنية وتخاذله.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، قدم من حلب إلى دمشق، واقام «قيادته في مقهى الهافانا تحيط به هالة كبطل قومي. وسرعان ما التف حوله عدد من المريدين الشباب الذين بشّرهم بقرب انبعاث الامة العربية، وبأن العرب عندما يتحررون فسوف يساهمون في تقدم مسيرة الحضارة الانسانية ويعيدون إحياء امجاد امتهم الماضية. ولكن حلقة مريدي الأرسوزي وتلاميذه لم تكبر قط لتتحول إلى حركة سياسية لأن الفرنسيين لم يتركوه وشأنه... وراحوا يطاردونه من مدينة إلى أخرى فمنعوه من التعليم في المدارس بل وحتى من اعطاء الدروس الخصوصية بحجة انه يسمّم عقول الشباب فعاش حياته فقيرًا مضطهدًا» (سيل، ص٥٣). غادر دمشق إلى بغداد ابتعادًا عن مضايقة الفرنسيين وطلبًا للعمل في التدريس. وما لبث هناك ان وجه انتقاداته إلى زيف موقف حكومة نوري السعيد من قضية لواء الاسكندرون، الأمر الذي أدّى إلى إبعاده، فعاد إلى دمشق حيث حافظ على خطه النضالي، لكن وسط اضطهاد السلطات وفقر شديد «فأصبح قلقًا كئيبًا منعزلاً عن الحياة ومنطويًا على خياله الملتهب».

أظهر الحكم السوري، بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣ (خاصة أعضاء اللجنة العسكرية، وبالأخص منها حافظ الأسد-راجع «حافظ الأسد» في هذا الباب: زعماء، رجال دولة وسياسة) تقديرًا خاصًا له. فخصّص له معاشًا تقاعديًا، ثم اقام له في ذكرى وفاته تمثالاً في ساحة المدفع في حي ابو رمانه في العاصمة. وقامت وزارة الثقافة السورية بنشر مؤلفاته الكاملة في ستة مجلدات.

«عني الأرسوزي عناية خاصة بدراسة التاريخ وفقه اللغة العربية، وتأثر بعدد من المفكرين الفرنسيين والالمان مثل برغسون ونيتشه وديكارت وكانط، وبشكل خاص بفكر فيخته الذي شدّد على أهمية اللغة في الوحدة القومية. ودرس الأرسوزي الشعر الجاهلي وتاريخ الشعوب السامية القديمة والامثال الشعبية والفكر الاسلامي. أما فكرته الاساسية حول المفهوم القومي ومقومات الوحدة القومية للعرب فقد قدمها في كتابه «العبقرية العربية في لسانها»، حيث اورد ان جذور وحدة الامة العربية تمتد إلى قبل ا لاسلام، وإن كان الاسلام مناسبة لتجلّيها الروحي، لأن هذه الوحدة لا تتحدد علىالصعيد الاجتماعي فقط، بل وعلى الصعيد الروحي واللغوي (الفيلولوجي). فاللغة عنده ليست اداة تواصل وحسب، بل نظام فكر وبنية ثقافية يصنعان وحدة الفرد والجماعة عبر العصور» («موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ص٤٣).

* **ساطع الحصري** (١٨٨٠-١٩٧٠):
قومي عربي وعالم تربوي ومؤرخ، ومن ابرز دعاة القومية العربية والمنظّرين لها. ولد في صنعاء من أبوين سوريين. قضى فترة الطفولة متنقلاً مع ابيه القاضي في محاكم الاستئناف العثمانية من صنعاء إلى اسطنبول وطرابلس الغرب وأنقرة وأضنه فاسطنبول، حيث استقر وأكمل فيها دراسته التكميلية والعالية. أتقن، إلى جانب العربية، التركية والفرنسية، وتخصص في العلوم الادارية والسياسية بالاضافة إلىالعلوم الطبيعية. بدأ حياته المهنية مدرسًا للعلوم في ثانوية يانيا الواقعة على الحدود بين اليونان وألبانيا (١٩٠١)، حيث بقي

ساطع الحصري.

خمسة اعوام، ثم شغل عدة وظائف في الادارة العثمانية حتى ١٩١٨، استطاع من خلالها ان يكتشف تململ الاقليات غير التركية من الاستبداد العثماني. التحق بالحكم العربي في سورية (١٩١٨) بقيادة فيصل الذي عينه عضوًا في مجلس المديرين ثم وزيرًا للمعارف بعد اعلان الاستقلال (١٩٢٠). وقد شهد ساطع الحصري، من خلال موقع المسؤولية في الحكم الفيصلي، معركة ميسلون بكل تفاصيلها (كتابه «يوم ميسلون» شكل مرجعًا رئيسيًا لكتابة حقبة الانتداب على سورية في هذه الموسوعة)، خاصة وان الوزارة كانت عهدت إليه بالتفاوض مع الجنرال غورو عقب تقدم جيوشه الغازية نحو سفوح ميسلون. بعد ذلك رافق الحصري الملك فيصل في رحلته إلى اوروبا، والتي انتهت إلى تكريس التجزئة العربية كما رسمتها الاتفاقيات الاستعمارية (سايكس-بيكو، سان ريمو، وعد بلفور).

أمضى الحصري بعد ذلك قرابة عام في مصر يطلع على الاوضاع التربوية والتعليمية فيها، في الوقت الذي كان فيه الملك فيصل ينتقل بين العواصم الغربية والحجاز محاولاً إنقاذ ما يمكن انقاذه. وبعد ان توّج فيصل ملكًا على العراق استدعاه للعمل مستشارًا لشؤون المعارف. ثم تسلم طيلة ما يقارب العشرين عامًا مناصب تربوية (نائب وزير المعارف، استاذ في دار المعلمين العليا، مراقب التعليم العام، مدير الحقوق...) اسهم من خلالها في تكوين نهضة علمية وتعليمية وثقافية في العراق وسط معارضة شديدة من البريطانيين وبعض العراقيين ممن ارتبطت مصالحهم بهم. وبوفاة فيصل (١٩٣٣) واستلام الامير عبد الله الوصاية على العرش، فقد الحصري حرية تحركه، وسنحت الفرصة للتخلص منه. ثم جاءت ثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١) التي تعاطف معها كل القوميين العرب، لتعطي الذريعة لطرد الحصري وسحب جواز سفره. فانتقل الحصري من العراق إلى لبنان حيث اقام اربع سنوات، ثم دعته الحكومة السورية للعمل لديها مستشارًا فنيًا في الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية (١٩٤٨) واستاذًا في معهد التربية العالي. أسس في اطار الجامعة متحفًا للثقافة العربية (١٩٤٩) ثم تقدم بمشروع إنشاء معهد للدراسات العربية تابع لجامعة الدول العربية، فووفق عليه وافتتح في العام الدراسي (١٩٥٣-١٩٥٤) بعد ان عين الحصري مديرًا له واستاذًا للقومية العربية فيه. استقال من المعهد في ١٩٥٨ بعد ان أيقن ان المعهد قد تحول عن الغرض الذي أنشىء من اجله واصبح ادارة بيروقراطية روتينية تحت إشراف الجامعة العربية المباشر، واعتزل جميع مناصبه الرسمية وتفرغ للبحث والتأليف. عاد إلى العراق بعد ان أُعيدت إليه الجنسية العراقية، وظل فيه حتى وفاته.

ترك ساطع الحصري عددًا كبيرًا من المؤلفات السياسية والتربوية والتاريخية والاجتماعية، إلا ان فكرة القومية العربية والدفاع عنها كانت الهاجس الرئيسي في كل ما كتب. من هنا فقد خاض معارك فكرية وسياسية ضارية ضد اعداء الوحدة العربية، ورفض فكرة الرابطة

الافريقية والاسلامية والمتوسطية كبدائل للوحدة العربية، ووقف بقوة إلى جانب الوحدة المصرية السورية وعارض الانفصال. واقام علاقات قوية بقادة البعث، ذلك انه حين قرأ دساتير الاحزاب القومية فضل ا لبعث عليها جميعًا، باعتبار انه «الحزب العربي الشامل» وباعتبار ان دستوره يفرد للمواد المتعلقة بالعروبة اضعاف ما هو مسطور في دساتير الاحزاب الاخرى. فوجد ساطع الحصري في البعث ممثل «الفكر القومي الكامل». ومع ذلك انتقد الحصري بعض كتابات البعث خاصة بعد انفصال سورية في ١٩٦٣ («موسوعة السياسة»، ج٣، ص٨١-٨٢).

شغل فكر ساطع الحصري، ولا يزال يشغل، مدى واسعًا من الدراسات والابحاث السياسية والقومية. وحرب الخليج الثانية عادت وزخّمت المناقشات حوله. وما ذكره حازم صاغية في مقاله المطول والمذيّل بـ٣١ مرجعًا وحاشية («الحياة»، ٢٤ و٢٥ كانون الثاني ١٩٩٧) يشير إلى أهم نقاط هذه المناقشات المزخمة من جديد: «مع الغزو العراقي للكويت، وما أثاره من اهتمام بالافكار المرشدة لصدام حسين، وُجد من يسترجع ساطع الحصري، ويحسبه أحد أبرز صانعي تلك الافكار. وبناء على هذا الاسترجاع، أُشير مرارًا إلى «عنصرية ساطع الحصري»، وفي ذهن المشيرين صلته الوطيدة بالفكر القومي الألماني الذي يُعدّ منظر العروبة الاول (الحصري) ابرز تلامذته العرب (...) وأكثر ما أعجب به الحصري في التجربة الالمانية، حدة الانفصال بين الامة والدولة، والتوق، تاليًا إلى تكرار عربي لـ١٨٧١ الالمانية، حيث جُمعت الدولة الجديدة من اشلاء دول عدة. فأيديولوجي القومية العربية لم يكفّ عن العودة إلى تمييزه الدقيق والدائم بين الامة والدولة كما لو انه القاعدة التي تقوم عليها نظريته كلها».

* **سامي الجندي** (١٩٢١-١٩٩٦): ولد في بلدة السلمية (وسط سورية). تخرج في جامعة دمشق طبيبًا للاسنان في ١٩٤٤. كان من أبرز تلامذة زكي الأرسوزي في «عصبة العمل القومي». شارك في تأسيس حزب البعث واحتل فيه مناصب قيادية. مدير الدعاية والأنباء في الاقليم الشمالي (سورية) بعد قيام الوحدة مع مصر. وزير الاعلام في حكومة البعث الاولى (١٩٦٣) والناطق الرسمي باسم مجلس قيادة الثورة. شارك في الوفد السوري الذي أجرى مفاوضات مع مصر لاعادة الوحدة. كُلف تشكيل الوزارة، لكنه اعتذر واكتفى بحمل حقيبتي الثقافة والاعلام. عين سفيرًا في فرنسا حتى ١٩٦٨. وبعد سنوات قضاها في مدن عدة كانت الاخيرة بيروت حيث اقام طويلاً، عاد إلى السلمية في ١٩٨٢ ليزاول مهنته الاولى طبيبًا للاسنان ويعيش في بيته القديم حتى رحيله إثر نزيف حاد في الدماغ. ومع انتهاء مهمته الدبلوماسية في باريس انصرف إلى الترجمة والتأليف. قال فيه المفكر اللبناني منح الصلح: «عندما كانت السياسة اختًا للوطنية وللثقافة في مطلع حركة العروبة الحديثة كان سامي الجندي وعدًا من وعود هذه السياسة، ذا فعل قوي في بيئة الشباب والناس البسطاء. وعندما اصبحت السياسة فنًا محضًا بان في سلوكه وفكره ارتباكه... ظلّ في آخر ساعة من حياته وفيًا لمجد الكلمة... يتمنى الرجل العادي في بلده ان يكون كل أهل السياسة والفكر في مثل صفائه وبساطته ونظافته» («الحياة»، ٨ كانون الثاني ١٩٩٦).

* **سامي الحناوي** (١٨٩٨-١٩٥٠): زعيم ثاني انقلاب عسكري في سورية. ولد في أدلب. تخرج في مدرسة دار المعلمين في دمشق (١٩١٦). دخل المدرسة العسكرية في اسطنبول. خاض الحرب العالمية الاولى في صفوف الجيش العثماني، فاشترك في معارك القفقاس وفلسطين. دخل المدرسة الحربية في دمشق (١٩١٨) وتخرج

بعد عام برتبة ملازم ثـان، وألحق بـالدرك في لـواء الاسكندرون. كان مـن قـادة الجيش السـوري في معركة فلسطين (١٩٤٨)، فرقـي إلى رتبـة عقيـد. أبرق بتأييد انقـلاب حسـني الزعيـم علـى القوتلـي وأعلن ولاءه، فجعلـه الزعيـم زعيمًـا وقـائدًا للـواء الاول. استغل نقمة اعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي في الجيش على حسني الزعيم لتسـليمه انطون سـعاده للسـلطات اللبنانيـة، فقـام بـانقلاب عليه وكان من اعوانه ثلاثة من السورين القوميـين الاجتماعيين، أشدهم حماسة فضل الله ابو منصور، وذلـك فجـر ١٤ آب ١٩٤٩، واقـاموا حكومـة مدنية يشرف على سياستها عسكريون في مقدمتهم الحناوي. لعب فيهـا عديلـه الدكتـور اسـعد طلـس (مـن حلـب ومـن كبـار موظفـي وزارة الخارجيـة حينئذ) دورًا مهمًا للاتجاه نحو العراق. انتفض عليـه اديب الشيشكلي فسجنه مـدة، ثـم اطلـق سـراحه فغادر دمشق إلى بيروت، حيث ترصده محمد أحمـد البرازي فاغتاله بالرصاص في ٣٠ تشـرين الاول ١٩٥٠ انتقامًا لمحسن البرازي. دفـن في دمشـق («موسوعة السياسة»، ج٣، ص١٠١).

* **سـعيد الجزائـري، الامـير** (١٨٨٣-١٩٨١): ولد في دمشق. حفيد الامير عبـد القـادر الجزائري. تلقى علومه الدينيـة في الريحانيـة ودخـل مدرسة «عنبر» الثانوية في دمشق ثم المدرسة العليـا (حي الاجانب في اسطنبول) ونال إجـازة الحقـوق في اسطنبول. قـدم إلى العقبـة بعـد اعـلان «الثـورة العربية» في الحرب العالمية الاولى في زيـارة غامضـة وخاطفـة عـاد بعدهـا إلى دمشـق، وقبيـل دخـول الجيشين العربي والانكليزي إلى دمشق تقلد رئاسـة الدولة فيها. حـافظ علـى مبـالغ مـن ماليـة الدولـة سلّمها إلى الامـير فيصـل. إلا ان تصرفـه أزعـج الانكليز فنحّوه، ثـم اعتقلـوه وأبعـدوه، فتدخـل الفرنسيون وعملوا على استقدامه إلى فرنسا. وكان أحد المرشـحين لعرش سـورية بعـد فيصـل. إلا ان فتنـة داخليـة، أثـير فيهـا أولاده ضـده، عرقلـت ترشيحه.

عنـد تنحيتـه عـن الحكـم في دمشـق، بعـد جلاء الوالي التركي، وقبيـل دخـول فيصـل، تسـلم زمام الامر شكري الايوبي مـدة يومـين. وبوصـول فيصل عـين رضـا الركـابي حاكمًـا علـى دمشـق، وشكري الايوبي حاكمًا عسكريًا على بيروت.

* **سـلطان الأطـرش** (١٨٨٥-١٩٨٢): قائد ثورة وطنية وزعيم شعبي تاريخي.

ولـد سـلطان الأطـرش في قريـة «القريّـا»، قضاء صلخد في جبل العرب. وثمـة حكايـة شـعبية عن ولادته ذكرها باتريك سيل («الأسد، الصـراع علـى الشـرق الإوسـط»، ص٢٧٥) مفادهـا ان سلطان باشا الأطرش «كان مقدرًا لـه تسـنم ذروة المجد منذ ولادتـه الـتي حدثـت ليـس في يـوم جمعـة فحسـب، بـل وفي ٢٧ مـن رمضـان، أي في ليلـة القدر، وهاتان علامتـان تبشـران بوعـد اسـتثنائي. وتضيف هذه الحكايـة التقليديـة بـأن ملاكًـا ظهـر لأمـه في المنـام وقـال لهـا: «سمّي ولـدك سـلطانًا، وسوف يكون سلطانًا». ويقول الـدروز انـه طيلـة سبعين عامًا من الحـروب الـتي بـدأت عندمـا شـنق الاتراك والده فإن سلطانًا لم يجـرح ولم يؤسـر، ولم يقتل حصانـه مـن تحتـه، وهـذه دلالـة علـى حمايـة ربانيـة لـه» (أورد سـيل هـذه الحكايـة اسـتنادًا إلى مقابلة اجراها مـع منصـور الأطـرش، ابـن سـلطان باشا، ونجيب البحـري مسـاعد سـلطان باشـا مـن ١٩٥٤ إلى ١٩٨٢، في القريّا والسـويداء في ٢٨-٢٩ نيسان ١٩٨٥).

وكـان لحـادث اعـدام والـده، ذوقـان الأطـرش، اثـر بعيـد في تكوينـه وسـيرته السياسـية وموقفه الحذر من الحكومات.

أدّى الخدمة العسـكرية في بـلاد الروملـلي. ومنذ عودته تابع الاتصال بالحركات العربية بفضل علاقتـه الدائمـة بدمشـق. فصـارت القريّـا ملجـأ

ومعقلاً للفارين من الحكم العثماني وللمناضلين الملتحقين بالثورة العربية في العقبة. وكان سلطان الاطرش اول من رفع علم «الثورة العربية» على ارض سورية قبل دخول جيش فيصل، إذ رفعه على داره في القريّا. وبعث رسله للاتصال بفيصل في العقبة، وظلّ وفيًا لعلاقته بفيصل وللمبادىء التي نادى بها. ومنذ البداية، رفض ان يكون لجبل الدروز (جبل العرب) كيان خاص.

كانت ثورته الاولى علىىا لفرنسيين في ١٩٢٢ لاعتدائهم على التقاليد العربية في حماية «الدخيل» حين اعتقلوا أدهم خنجر الذي كان في حمايته وكان هو غائبًا عن داره. وكان خنجر قد لجأ إليه وطلب حمايته بعد عملية اشترك بها واستهدفت اغتيال الجنرال غورو.

اختير الأطرش رئيسًا للمجلس الوطني للثورة (١٩٢٥) وقائدًا عامًا لجيوشها، فأذاع اول بيانات الثورة: وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، وقيام حكومة شعبية تقوم بانتخاب مجلس تأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الامة المطلقة وسحب القوى المحتلة من البلاد. نزح، بعد فشل الثورة، بجماعات من الثوار إلى الازرق في الاردن، إلا ان حكومة الاردن ألزمتهم-بعد الاتفاق بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني-بالنزوح إلى وادي سرحان. عاد إلى البلاد بعد توقيع مشروع معاهدة ١٩٣٦ بالاحرف الاولى في باريس واعلان العفو العام. نزح مرة أخرى عن البلاد في عهد أديب الشيشكلي، فكانت حملة هذا الأخير على الجبل وموقفه من سلطان الأطرش سببًا عجل في الانقلاب عليه.

موقف سلطان المؤيد للثورة العربية في الحرب العالمية الاولى، ثم للثورة السورية في عهد الانتداب، جعل منه، مع مرور الايام، زعيمًا دون منازع للجبل الدرزي الذي كان منقسمًا «إلى فريقين، فريق مع سلطان، وآخر، وهو الأقوى، ضده، وضم الرؤساء الروحيين ورجال الحكومة وشمل، باستثناء اخوة سلطان، سائر الطرشان (...) وأعلن افراد الفريق المعارض لسلطان عن تأييدهم للسلطة المنتدبة والمحلية في اجتماع عام بحضور المستشار ترانكا دعا سليم الأطرش إلى عقده في السويداء. وارسل الرؤساء الروحيون والزمنيون إلى كاترو، باسم الطائفة الدرزية، برقيات استنكار لثورة سلطان وتجديد الولاء للسلطة المنتدبة. وطلب الحاكم سليم الأطرش إلى الناس التنصّل من تبعة اعمال سلطان. انها المرة الثالثة التي يتقسم فيها جبل الدروز بين سلطان الثائر على السلطة وسليم الاطرش ممثلها. أما المرة الاولى، فحين أيد سلطان الثورة العربية وثار على الاتراك ووقف سليم الاطرش إلى جانبهم وضد الثورة العربية. والمرة الثانية حين عارض سلطان الانتداب الفرنسي وتعاون سليم الاطرش مع هذا الانتداب على خلق الدولة الدرزية وتأسيس حكومتها. إنه انقسام الجبل إلى فئتين: فئة تناصر سلطان الذي يؤيد الوحدة العربية، وفئة تناصر الحاكم سليم الأطرش، صديق الانتداب الفرنسي (د.حسن امين البعيني، «دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي»، المركز العربي للابحاث والتوثيق، ١٩٩٣، ط١، ص١٦٠-١٦١).

في أجواء تنامي المعارضة في وجه الشيشكلي الذي «جمع ٥٧ قياديًا في السجن بينهم الحوراني وعفلق والبيطار»، كانت انتفاضة جبل الدروز مستعرة، رأى إليها «السفير البريطاني انها ردة فعل عفوية املتها اللحظة عندما اعتقل أبناء سلطان باشا وبعد محاولة اعتقاله، وتابع (السفير) يقول: «إن الحكومة السورية تعتقد ان العراق لعب دورًا كبيرًا في هذا التمرد» فقد كانت العلاقات السورية العراقية متوترة منذ زمن، ولم يحاول السياسيون العراقيون إخفاء اهتماماتهم بالسياسة السورية الداخلية، وقد وجدت قطع سلاح في بيت سلطان باشا اعتقدت السلطات انها أتت من العراق، وكان اتهام الملحق العسكري العراقي

شكري القوتلي.

بالقيام بأعمال تتنافى مع مهام عمله الدبلوماسي دليلاً آخر من قبل الحكومة السورية على دور العراق بما حدث، فالحكومة السورية اعتقدت ان انتفاضة الجبل كانت ناجحة، ولدرجة كبيرة عن تحريض العراق... على كل حال، وبغض النظر عما إذا كانت الانتفاضة في الجبل منظمة أم لا فإنها بدت وكأنها حركة احتجاج على اعتقال قادة المعارضة...» (أوين، ص٢٠٥).

«ولكن برغم هذا الماضي فقد ظل سلطان باشا الأطرش في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية على علاقة فاترة، بل وعدائية احياناً، مع دمشق. وهكذا فعندما جاء الأسد ليكرّم هذا الوطني القديم، وليقول بأنه استمرار لجيله فإنه قد خرج عن النطاق الضيق المغلق الذي كان يميز البعث ايام صلاح جديد. وعندما توفي سلطان باشا سنة ١٩٨٢ وحضر جنازته حوالي مليون شخص، جاء الأسد ثانية (كانت المرة الاولى في ١٩٧٠) ليقدم احترامه وأصدر رسالة حداد شخصية تنعي القائد العام للثورة العربية الكبرى» (باتريك سيل، «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ص٢٧٥).

* **شكري القوتلي** (١٨٩١-١٩٦٧): رئيس جمهورية سابق. ولد في دمشق من عائلة مالكي الارض والتجار الاغنياء. تلقى علومه الابتدائية في مدرسة الآباء اللعازاريين والعلوم الثانوية في المدرسة الاعدادية والعالية في الكلية الشاهانية في الآستانة وتخرج منها يحمل الليسانس. عمل في صفوف شبيبة المنتدى الادبي ثم صار عضواً في العربية الفتاة. اعتقل في الحرب العالمية الاولى، إلا انه نجا من المحاكمة بديوان الحرب في عاليه بعد محاولته الانتحار «مفضلاً الموت على كشف أي معلومات عن الجمعية. والتقارير عن بطولة القوتلي، وحتى المشكوك بها، رفعته إلى دائرة الاضواء كبطل قومي. وخلال فترة الانتداب الفرنسي استمر القوتلي في نشاطه الوطني وتخلل هذا النشاط فترات من الاعتقال والنفي. وكان أحد الاعضاء المؤسسين للكتلة الوطنية في ١٩٣٢ التي تحولت فيما بعد إلى الحزب الوطني المنادي باستقلال سورية كهدف اساسي له، واستلم وزارة المالية والدفاع في وزارة الكتلة الوطنية التي تشكلت في ١٩٣٦ بناء على عزم سورية عقد معاهدة مع الحكومة الفرنسية؛ وفي ١٩٤١ كان قائد الكتلة الوطنية، وفي ١٩٤٣ اصبح السياسي الأكثر شعبية في سورية، وانتخب كأول رئيس للجمهورية بعد الاستقلال» (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء الحوراني، دار المعارف بحمص، ١٩٩٧، ص٥٤). أعيد انتخابه رئيسًا للجمهورية بعد تعديل الدستور، فأطاحه انقلاب حسني الزعيم (١٩٤٩)، فلجأ إلى مصر واقام في الاسكندرية. وأعيد انتخابه مرة ثالثة في ١٩٥٦، وتنازل عن منصبه لصالح الوحدة بين سورية ومصر وانتخب عبد الناصر رئيسًا لها، ولقد أطلق على شكري القوتلي نتيجة لذلك لقب «المواطن العربي الاول».

مثّل شكري القوتلي مثالب النظام ونقائصه؛ ولعل خير وصف للرجل هو ما قال عنه السيد محمد كرد علي، وهو علامة سوري، فقد ذكر ان الرئيس القوتلي تلقى هدايا من اعضاء

المجلس النيابي كما منح اعوانه أعطيات من اموال الدولة. كان يرغم رئيس الوزراء على اختيار الوزراء الذين يختارهم، ولم يكن مفاجئًا ان بين أقوى مؤيديه رجالاً انقلبوا ليصبحوا أكبر الخونة وأحط اللصوص. كما يمنح الاوغاد امتيازات واستثناءات ووظائف وهدايا، كما وظّف كثيرًا من أقاربه واعضاء حزبه كان بعضهم أميًا وحاز على وظائف لا عمل لها، وعين له المجلس النيابي مخصصات دون ان يطلب منه أي حساب، ولقد تدخل في تعيينات صغيرة كثيرة» (جوردون هـ. توري، «السياسة السورية والعسكريون، ص٨٤-٨٥؛ نقلاً عن محمد كرد علي، المختارات، ص ٢١١).

* **صالح العلي**: راجع «بلاد العلويين» في باب مدن ومعالم.

* **صلاح جديد** (١٩٢٦-١٩٩٣): ولد في قرية دوير بعبدا القريبة من مدينة جبلة الساحلية، وينتمي إلى أسرة متوسطة من عشيرة الحدادين التي هي أهم وأكبر العشائر العلوية.

«أما سياسيًا، فكان ولاؤه الاول للحزب السوري القومي ثم أبدل موقعه وانضم إلى البعث عندما كان ملازمًا ثانيًا في الخمسينات. ولهذا التغيير قصة. فقد اصطدم ذات يوم مع آمره المباشر فلجأ طالبًا المساعدة من مصطفى حمدون الذي كان أحد رجالات الحوراني ويعمل في المخابرات العسكرية. وبعد ان حل حمدون مشكلته ادخله في الحزب. وهذا مثال على الكيفية التي كان الحوراني والبعث يكسبان بها اصدقاء عسكريين مفيدين. أما شقيقه غسان جديد فقد بقي في الحزب القومي واصبح واحدًا من قادته. ولكن في أعقاب اغتيال المالكي اغتيل غسان في احد شوارع بيروت ١٩٥٧ (...) كان (صلاح جديد، الانيق، ذو الشعر الفاحم) شخصية مناقضة لمحمد عمران. كان يابسًا، صموتًا، دقيقًا وكانت له سمة الضابط البروسي. كان يؤثر الاستماع أكثر من التكلم ولذلك كان يجعل الآخرين يحسّون وكأنه يحصي عليهم كلماتهم ليستعملها ضدهم ذات يوم. كان ذكيًا، ذا مبادىء، وله آراء واضحة اليسارية، وحين احتدم الصراع على السلطة قدّر له ان يكون منافس الأسد الرئيسي (...) كانت الجذور الاجتماعية لعمران وجديد من خلفية ملاّكي الارض تجعلهما أعلى بدرجة في السلم الاجتماعي من عائلة الأسد التي كانت أفقر منهما. ولكن الثلاثة كانوا ريفيين مثقفين يجمعهم الالتزام بالثورة والتعطش للصعود...» (سيل، ص ١٠٨؛ راجع «حافظ الأسد» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

ساهم، بصفته واحدًا من ضباط «اللجنةالعسكرية» بسحق الانقلاب الناصري الذي قاده جاسم علوان في ١٨ تموز ١٩٦٣، ما دفع عبد الناصر إلى إلغاء ميثاق الوحدة الثلاثية مع سورية والعراق. وكان أشد قيادات «اللجنة» حماسة إلى أعمال المؤتمر القومي السادس وطروحاته، إذ نادى بـ«الاشتراكية العلمية» و«الحزب القائد» و«الجيش العقائدي».

في الطريق إلى السيطرة على الحزب والسلطة، تمت خطوات عدة لم يكن صلاح جديد بعيدًا عن أي منها (إطلاق الأرسوزي ليحل محل عفلق، قصف مدينة حماه عقب اضطرابات اتهم بها «الاخوان المسلمون»، حركة تأميمات واسعة طاولت القطاع التجاري واقتصاد المدن)؛ لكن الواجهة كانت معطاة لضابط بعثي من حلب هو أمين الحافظ الذي سُمّي رئيسًا لـ«مجلس الرئاسة». بيد ان انحياز امين الحافظ إلى عفلق في لعبة الصراع على السلطة، فضلاً عن انحياز محمد عمران الذي أفشى أمر «اللجنةالعسكرية» للقيادة القومية، جعل الصدام امرًا محتومًا. فحلّت القيادة القومية القيادة القطرية التي يشغل فيها صلاح جديد نيابة امانتها

صلاح الدين البيطار.

العامة، وكلفت البيطار تشكيل حكومة جديدة يحتل فيها محمد عمران حقيبة الدفاع. فما كان من صلاح جديد، ورفاقه، إلا ان بادروا بالانقلاب الذي نفذ في ٢٣ شباط ١٩٦٦، والذي بدأ معه حكم صلاح جديد الفعلي، علمًا ان جديد احتفظ بمنصبه الحزبي «الامين العام القطري المساعد». أما الواجهة الجديدة فكان رئيس الدولة، إبن العائلة الحمصية العريقة نور الدين الأتاسي (عن حكم صلاح جديد وسقوطه في انقلاب ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، «الحركة التصحيحية»، راجع «حافظ الأسد» في هذا الباب، «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

أعلن عن وفاته، في سجن المزة، في ٢٠ آب ١٩٩٣.

*** صلاح الدين البيطار** (١٩١٢-١٩٨٠): رفيق ميشال عفلق وصديقه منذ دراستهما في السوربون (راجع «ميشال عفلق» في هذا الباب «زعماء، رجال دولة وسياسة»، وكذلك مختلف الابواب والموضوعات المتصلة بالثلاثينات حتى ١٩٨٠).

عن صلاح الدين البيطار، جاء في مؤلف باتريك سيل (٥٣٣-٥٣٥):

«لقد كان البيطار شريكًا لميشال عفلق في تأسيس الحزب وكان من رعيل البعثيين المدنيين الذين اطاح بهم انقلاب اللجنة العسكرية في ١٩٦٦، وقد حكم عليه بالموت غيابيًا عام ١٩٦٩، وقد عفا عنه الأسد في ١٩٧٠، وعاد إلى سورية لفترة قصيرة في محاولة لاجراء مصالحة. ولا شك في ان الأسد كان يأمل ان يستقر البيطار في دمشق كثقل مضاد لعفلق في بغداد. غير ان خمس ساعات من المحادثات في كانون الثاني ١٩٧٨ فشلت في رأب الصدع بينهما. فعاد البيطار إلى منفاه في باريس حيث راح يطبع مجلة دورية بمساعدة بعض المال من الخليج وأطلق عليها إسم «الإحياء العربي»، وكان ذلك صدى للاسم الذي أطلقه مع عفلق على الحلقة الصغيرة من أتباعهما ومريديهما في الأربعينات. وشن في أعمدتها حملات للمطالبة بالحريات الديمقراطية والحقوق الانسانية في سورية. فقد نشر في شهر شباط ١٩٨٠ مثلاً مطالبة نقابة المحامين السوريين باعادة حكم القانون. وألحّ بشكل جارح على قاعدة النظام الطائفية-أي العلوية- وكان ذلك جريمة في نظر دمشق. وقد أشيع انه كان يضغط على السعوديين ليقطعوا المعونة عن سورية. والأسوأ من ذلك ما قيل بأن البيطار قد اتصل بأعداء الأسد في بغداد، وبأكرم الحوراني، وبالفريق امين الحافظ، العسكري الذي عمل كواجهة للجنة العسكرية حتى ١٩٦٦، وبمحمود الشوفي، السفير السوري السابق في الامم المتحدة والذي انفصل عن النظام في ١٩٧٩، وبغيرهم من اصحاب الأسماء ذات الماضي والتي كان بريقها يخبو، وبذلك أصبح نقطة جذب لأنواع مختلفة من المعارضة السورية. وقد بدا في إحدى اللحظات ان البيطار يمكن ان يشكل خطرًا حقيقيًا. وان شيئًا مثل هذه المخاوف قد أسهم في اتخاذ قرار بوضع نهاية له (...) وتسبب

اغتياله في باريس في ٢١ تموز ١٩٨٠ بأعظم القلق والبلبلة. و لم يثبت انه كانت هناك أصابع سورية (...) وبعد موته نقلت زوجته، ملك، جثمانه ليدفن في بغداد حيث بحثت عن ملجأ وسط أعداء الأسد الألداء. وربما لم يكن الرجال من امثال البيطار ليشكلوا خطرًا على الأسد، ولكن انتقاداتهم كانت تمسّ عصبًا حساسًا إذ كانت تنصبّ على منطقة بدا فيها الأسد وكأنه قد ابتعد عن النهج القومي العربي الصحيح».

* **عبد الحليم خدام** (١٩٣٢-): نائب رئيس الجمهورية الحالي. ولد في بانياس، محافظة طرطوس حيث أتم تحصيله الثانوي ثم نال إجازة في الحقوق من جامعة دمشق وعمل محاميًا.

يقول باتريك سيل («الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ص٦٦ و٢٩٢): «في هذه الفترة (١٩٤٩-١٩٥١) عقد الأسد صداقة مع طالب بعثي آخر، هو عبد الحليم خدام، الذي كان شابًا يتميز بالحيوية والاندفاع وكان سنيًا آتيًا من خلفية متواضعة من بلدته الصغيرة بانياس. وقد قدر له ان يخدم الأسد كوزير لخارجيته لإثني عشر عامًا ثم ان يصبح نائبًا له (...) وكان خدام قد عمل كمحام ومدير مدرسة قبل ان يدخل في خدمة الحكومة في منصب محافظ تحت حكم البعث في الستينات، في حماه، ثم في القنيطرة (حيث كان يعمل حينما سقطت المدينة في يد اسرائيل في حرب الأيام الستة ١٩٦٧) واخيرًا في محافظة دمشق. وفي اواخر الستينات رفع إلى منصب وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية ويعتقد بأنه كان عين الأسد في معسكر صلاح جديد المنافس له. وقد كافأه الأسد بوزارة الخارجية التي اصبح فيها بمرور الاعوام رجل الواجهة الاول في الدبلوماسية السورية بعد ان اظهر كثيرًا من الحيوية والروح القتالية، وأغضب كثيرين بأسلوبه الفظ المتغطرس، ولكنهم يعرفون بأنه أداة فعالة لتنفيذ إرادة الأسد».

خلفه على رأس وزارة الخارجية فاروق الشرع، لكنه ظل ممسكًا بمهمات خارجية على درجة كبيرة من الأهمية، خاصة تلك المتصلة بعلاقات سورية بدول الخليج العربي (دول «اعلان دمشق»)، وبـ«الملف اللبناني» منذ بداية الحرب اللبنانية، الذي كان آخر فصوله (حتى اليوم، اواسط ١٩٩٧) زيارته لبيروت، اوائل حزيران ١٩٩٧، حيث عالج خلافًا بين أهل الحكم اللبناني، وحيث أكد للمتكلمين وللعاملين لحوار «مسيحي-سوري» ان الحوار لا يكون إلا مع الدولة.

* **عبد الحميد السراج** (١٩٢٥-): ولد في حماه وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها، ثم التحق بالكلية العسكرية في حمص وأوفد في دورة اركان حرب إلى فرنسا. اشترك في حرب فلسطين (١٩٤٨) في جيش الانقاذ. لعب دورًا مهمًا عندما كان رئيسًا للمكتب الثاني، جهاز المخابرات في الجيش، منذ ١٩٥٥ بالتعاون مع حزب البعث للحيلولة دون سقوط سورية في شبكة الاحلاف الغربية. كافأه الرئيس عبد الناصر باختياره وزيرًا للداخلية في الاقليم الشمالي (سورية) بموافقة «القوى الوطنية التقدمية» من سياسيين وعسكريين، وذلك على دوره في قيام الوحدة بين سورية ومصر وكشف مؤامرة على حياته ومصادرة المبالغ التي دفعت لتنفيذها ومقدارها ١٩ مليون ل.س.. وفي ايلول ١٩٦٠، بعد استقالة صبري العسلي، أسندت إليه رئاسة المجلس التنفيذي للاقليم الشمالي، إضافة إلى وزارة الداخلية والاشراف على الدعاية والأنباء وأمانة سر الاتحاد القومي وجهاز المخابرات. وعندما تمّ توحيد الحكم في وزارة مركزية في القاهرة يتبعها وزراء تنفيذيون اختير نائبًا لرئيس الجمهورية للشؤون الداخلية. فاعتبر ذلك إبعادًا له وانتصارًا

للقوى التي تعتبره مسؤولاً عن بعض مساوىء الحكم، فاستقال بعد ذلك بشهر، قبل حدوث الانفصال. اعتقلته سلطات الانفصال في ايلول ١٩٦١ واتهمته باساءة استعمال السلطة. وتمكن من الهرب إلى القاهرة. وكان هو الوحيد بين اللاجئين السياسيين السوريين في القاهرة الذي اسند إليه الرئيس عبد الناصر وظيفة رسمية في الدولة: رئاسة شركات التأمين في مصر التي ظل يمارس مهامها حتى تقاعد، فانهى بذلك حياته السياسية («موسوعة السياسة»، ج٣، ص٨١٢).

اختلفت الآراء حول مسؤولية السرّاج، غير المباشرة وبسبب انتهاجه سياسة قمعية، في الانفصال. فاعتبر البعض ان اسلوبه القمعي قدّم مبرّرات للانفصال، بينما رأى آخرون ان هذا الأسلوب كان ضروريًا لحماية الوحدة. ومن هؤلاء جوردون هـ توري في كتابه «السياسة السورية والعسكريون» (ترجمة محمود فلاحة، دار الجماهير، ص٤٢٠): «وفي التعديل الأخير (٧ آب ١٩٦١، اعادة تنظيم الجمهورية العربية المتحدة) أصبح السرّاج نائب رئيس الجمهورية للشؤون الداخلية ونقل إلى القاهرة، وكانت هذه هي الخطيئة الكبرى التي اقترفها عبد الناصر منذ ان تولى السلطة، ومع ان حافز عبد الناصر على هذا قد يكون تخفيف القلق بنقل السرّاج البغيض جدًا في سورية إلا ان زوال السرّاج أقصى أكبر القوى الكابحة في سورية فعالية، وبغيابه أحسّت العناصر السورية المعادية للنظام انها حرة مرة أخرى لتتآمر من اجل فصل سورية عن مصر» (راجع باب «١٩٤٥-١٩٧٠»، العنوان الفرعي «الوحدة، الجمهورية العربية المتحدة»).

*** عبد الرحمن شهبندر** (١٨٨٢-١٩٤٠): سياسي وطبيب وخطيب وكاتب. ولد في دمشق. تخرج طبيبًا في الجامعة الاميركية في بيروت (١٩٠٤). «أتقن الانكليزية إتقانه لغته العربية، مما

عبد الرحمن شهبندر.

مهّد له سبيل الاختلاط بالساسة البريطانيين والاميركيين واستجلاب عطفهم على إنصاف سورية في عصبة الامم» (يوسف الحكيم، «سورية والانتداب الفرنسي»، دار النهار للنشر، ص٣١١).

دخل جمعية الاتحاد والترقي، وناوأها في اتجاهها إلى التتريك. دعم فكرة الوحدة العربية واستقلال العرب ورأى الطريق إلى ذلك بالتعاون مع الحلفاء. توارى لدى نشوب الحرب العالمية الاولى ثم سافر إلى العراق فالهند ومنها إلى مصر حيث جاهر بالدعوة إلى التعاون مع الانكليز في الحرب، في مجالسه وفي معسكرات أسرى الحرب بالمعادي حيث كان يتردّد لاقناع العرب منهم بالتطوع في جيش الشريف. تولى تحرير جريدة «الكوكب» التي أنشأتها دائرة الاستخبارات البريطانية، وفي ١٩١٨ عندما اتضحت معالم السياسة البريطانية قدّم استقالته منها إلى الجنرال كلايتون. وكان احد السبعة الذين تقدموا بمذكرة إلى هوغارت وجاءهم الرد الذي اشتهر باسم «التصريح إلى السبعة». عاد إلى سورية في ١٩١٩ وعين وزيرًا للخارجية (١٩٢٠) في وزارة هاشم الأتاسي. غادرها مع الاحتلال إلى مصر حيث اقام سنة ثم عاد. اعتقل في ١٩٢٢ لدى زيارة كراين

لسورية والمظاهرات والحفاوة التي رافقت الزيارة وحوكم مع نفر من صحبه ثم رحل إلى جزيرة أرواد لمدة سنتين وبضعة أشهر. عمل على إنشاء حزب الشعب في دمشق وتولى رئاسته واطلق على نفسه لقب «الزعيم». نجا من قبضة الفرنسيين عند قيام الثورة السورية، والتحق بصفوف الثوار في معاقلهم في جبل العرب و لم يفارق الجبل إلا لفترة قصيرة زار فيها الاردن وعاد. كان عقل الثورة المفكر وكاتب أكثر بياناتها. غادر مع سلطان الأطرش في ١٩٢٧ إلى الاردن. ثم اتجه إلى مصر حيث اقام وتابع نشاطه السياسي، واختلف فيها مع اكثر العاملين لاستقلال سورية من اصدقائه الأقدمين، عندما انشقت لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني إلى لجنتين وانحاز فيها إلى جانب الامير ميشال لطف الله. فتناولت الصحف موقفه له وعليه. فانصرف إلى الاشتغال بالطب زمناً، ثم اراد الاستقرار في دمشق فعاد إليها في ١٩٣٨ («موسوعة السياسة»، ج٣، ص٨٢٦-٨٢٧).

«وفي يوم الأحد ٧ تموز ١٩٤٠، كان الدكتور في عيادته في حارة الشعلان-القريبة من شارع المجلس النيابي ومن مديرية الصحة والاسعاف العام-يعاين زائريه المرضى، عندما جاء اربعة أشخاص، وأطلق أحدهم النار على شهبندر وأرداه. واعتقل الاربعة (أحمد عصاصة واحمد المصري واحمد الطرابيشي والشيخ احمد معتوق)، واعترف احمد عصاصة بأنه اقدم على قتل الشهبندر لقاء مبلغ ٤٠٠ ليرة ذهبية ستدفع له من قبل جميل مردم بك. وانتشرت في دمشق شائعة أن أكبر زعماء الكتلة الوطنية، شكري القوتلي وجميل مردم ولطفي الحفار وسعد الله الجابري يقفون وراء اغتيال شهبندر، وقد اقتنع معظم الناس بصحتها، وقتئذ، حين بلغهم ان هؤلاء الزعماء قد هربوا إلى العراق. وقد برأت المحكمة الزعماء الاربعة الذين لم يطل مكثهم في العراق لشعورهم بعدم ثقة البيت الهاشمي المالك وانصاره بهم منذ مغادرة الملك فيصل سورية، فتحولوا نحو الملك ابن سعود، فاكرم مثواهم وسمع شكواهم من معاملة الفرنسيين لهم، فتوسط لدى المفوض السامي الفرنسي بأمر السماح لهم بالعودة إلى وطنهم. وما إن عادوا بسلام، بعد اعلان براءتهم من المؤامرة، حتى اخذوا يعيدون اعتبارهم ويستردون سابق نفوذهم» (يوسف الحكيم، ص٣٠٦-٣١٢).

* **عبد الفتاح أبو غدة، الشيخ** (١٩١٧-١٩٩٧): رجل دين والمراقب العام السابق لـ«الاخوان المسلمون» في سورية بين ١٩٦٥ و١٩٧٥، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي. ولد في حلب ونشأ في بيت لم يعرف بالعلم الشرعي. تلقى في سورية العلوم الشرعية على يد كبار علماء مدينته، منهم الشيخ محمد راغب الطباخ وعيسى البيانوني. سافر إلى مصر لاكمال دراسته في الازهر (١٩٤٤) حيث انتظم في كلية الشريعة. ولازم طيلة وجوده في مصر مرشد الاخوان المسلمين العام الشيخ حسن البنا. قدم في اواخر الستينات إلى السعودية مع بداية تأسيس جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الرياض. وأُعفي من التدريس في جامعة الامام في ١٩٨٨، فانتقل بعدها للتدريس في جامعة الملك سعود لمدة عامين. واستقال في ١٩٩١ وتفرّغ للتأليف.

كان الشيخ ابو غدة، بعد عودته من مصر إلى سورية في ١٩٥١، قد تولى الخطابة في جامع الخسروية، ثم عين مدرسًا للتربية الاسلامية في المدارس الثانوية التابعة لوزارة المعارف واستمر كذلك ١١ عامًا، وكان في بيته يعقد درسًا لمدرّسي التربية الاسلامية يشرح لهم كتاب ابن رشد، «بداية المجتهد». وفي ١٩٦٢، فاز أبو غدة في الانتخابات النيابية ممثلاً للوجهة الاسلامية. ثم عاد للتدريس في كلية الشريعة في جامعة دمشق

حيث ظل ٣ سنوات، قام بعدها برحلة علمية لطلب العلم الشرعي لمدة ثلاثة أشهر إلى الهند وباكستان (١٩٦٢)، ومرّ ببغداد، ثم قدم إلى الرياض (١٩٦٣)، ثم عاد إلى سورية حيث سجن فترة. وفي ١٩٦٥ تعاقد مع كلية الشريعة في الرياض التي كانت نواة لجامعة الامام الاسلامية باستدعاء من مفتي السعودية حينها الشيخ محمد بن ابراهيم، وبقي في الرياض حتى توفي فيها.

اعتبر الشيخ ابو غدة صمام الأمان في الجماعة (الاخوان المسلمون) التي يقل فيها العلماء-ويكثر التنظيميون الحزبيون والسياسيون- الامر الذي جعل الاخوان يتمسكون به مع انه كان يميل إلى العلم الشرعي أكثر من العمل الحزبي التنظيمي.

تبرأ الشيخ ابو غدة من كل ما فعلته جماعة الاخوان المسلمين خلال احداث ١٩٧٩-١٩٨٢، وطلب التماسًا من القيادة السورية التي اظهرت احترامًا له وبدت استعدادها لارسال طائرة خاصة لاعادة جثمانه إلى حلب، لكنه دفن في المدينة المنورة لأسباب دينية (عن «الوسط»، العدد ٢٦٥، تاريخ ٢٤ شباط ١٩٩٧ ص٢٤-٢٥؛ وراجع «الاخوان المسلمون» في باب الاحزاب).

* **عبد الكريم الجندي** (١٩٣٢-١٩٦٩): ولد في السلمية (المركز الاسماعيلي القديم). أورد باتريك سيل عنه (ص١٠٩، ٢٤٧، ٢٥١) انه كان من بين اعضاء «اللجنة» الأكثر لفتًا للنظر، شابًا عاطفيًا ناري الطبع يكاد يكون غير متزن انفجر فيما بعد غضبه على شكل اعمال شديدة الوحشية. كان ذكيًا ونشيطًا ولكن كان في تركيبه شيء ليس طبيعيًا تمامًا. كانت غرائبه وقسوته توحي بأنه كان فوضويًا أو حتى عدميًا أكثر منه اشتراكيًا متصلبًا متشددًا. وقيل إن زوجته، التي لم يكن متفقًا معها، كانت سيدته الوحيدة. وكان يعتبر النكت الموجهة ضده انتهاكات إجرامية. فعندما سمع ان بعض الناس تداولوا حكايات وإشاعات عنه في اجتماع خاص للمحامين وغيرهم من الحرفيين بدأ يطاردهم، فهرب بعضهم مشيًا على الاقدام عبر الجبال إلى لبنان وظلوا هناك إلى حين سقوطه.

مع بدء أفول نجم صلاح جديد وتصاعد قوة حافظ الأسد في القوات المسلحة، ظل جديد مسيطرًا على الأمن والمخابرات بواسطة عبد الكريم الجندي الذي قام، بصفته مديرًا لمكتب الأمن القومي في الحزب اعتبارًا من ايلول ١٩٦٧، بتوسيع اجهزة الدولة القمعية توسيعًا كبيرًا. فجنّد جيشًا من المخبرين الصغار، وحدثت اعتقالات تعسفية كثيرة، ومظالم أخرى. وبدأت تنتشر قصص تعذيب لم تكن معهودة في سورية من قبل على الاطلاق، فتنشر جوًا من الرعب. و«التصق كثير من هذا القرف الكريه باسم عبد الكريم الجندي» (سيل، ص٢٧٤).

«بينما كان المتنافسان (جديد والأسد) لا يزالان يختاران للتعبير عن نزاعهما لغة الخلافات السياسية، فإن مؤيديهما المتنمّرين «القبضايات» راحوا (بدءًا من شباط ١٩٦٩) يتضاربون. وعلى مستوى المسدس والقبضة كان يدير الصراع مدير قوى الأمن التابع لجديد، العقيد عبد الكريم الجندي، وشقيق الأسد الأصغر رفعت الذي كان عندئذ في الحادية والثلاثين (...) انفجر القتال عندما بدأ رفعت يعتقد بأن جديد يخطط لاغتيال شقيقه (وجاءت حوادث التصادم لتصب في مصلحة الأسد: طرد رئيسي تحرير «الثورة»، و«البعث» واستبدالهما بموالين للأسد، طرد أتباع جديد من مكاتب الحزب والحكومة في اللاذقية وطرطوس، اعتقال رفعت لسائقي اسطول سيارات الجندي التابعة لمديرية الأمن...). وعندما أخذ سائق الجندي نفسه أدرك الجندي أن وقته قد حان. وفي وقت ما خلال ليلة ١-٢ آذار ١٩٦٩، وبعد مشادة كلامية بالهاتف مع مدير المخابرات

العسكرية علي ظاظا، قتل الجندي نفسه باطلاق الرصاص على رأسه. ولا شك في انه كان يعلم انه سوف يعتبر مسؤولاً عن جرائم كثيرة. ولعله خشي ان يتعرض لمصير كمصير سليم حاطوم، الرفيق الحزبي الذي عذّبه قبل ان يبعث به إلى الاعدام قبل ذلك التاريخ بعامين. كان الجندي رجلاً متعجرفًا لا يطيق بسهولة فكرة مواجهة التحقيق والمحاكمة وصدور الحكم عليه. ولا بد انه شعر والاحداث تدهمه وتطبق عليه بأنه في عزلة نظرًا لأن قليلين فقط من أبناء طائفته الاسماعيلية ظلوا في مراكز التأثير في الجيش أو الحزب. وكان الجندي فقيرًا بدون موارد مالية أو اصدقاء أو رغبة في ان يبدأ لنفسه حياة جديدة خارج سورية. ولذلك لم يكن لديه خيار الهرب إلى الخارج. واقدمت زوجته على الانتحار بعد ذلك ببضعة اسابيع» (سيل، ص٢٤٧-٢٤٩).

* **عبد الله الأحمر** (١٩٣٦-): تلقى تحصيله الابتدائي والاعدادي والثانوي في التل، التابعة لمحافظة دمشق وحصل وهو معلم على إجازة في الحقوق من جامعة دمشق. في ١٩٦٥ تولى وظيفة مدير مكتب في شركة الدبس لمدة نصف سنة تقريبًا نقل بعدها موظفًا في وزارة الخارجية حتى ١٩٦٧، ثم عين محافظًا لحماه حتى ١٥ حزيران ١٩٦٩، حيث نقل محافظًا لإدلب حتى ١٩٧٠. انتسب لحزب البعث وتدرج في المناصب الحزبية، في شعبة دوما والتل ثم اختير عضوًا في قيادة «فرع الاطراف» في ١٩٦٤، ثم انتخب عضوًا فأمينًا للفرع في ١٩٦٥ وأيد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ ضد القيادة القومية. انتخب في القيادات الحزبية الحاكمة بعد ١٩٧٠ («موسوعة السياسة»، ج٣، ص٨٤٣-٨٤٤). وبعد استلام الأسد للسلطة، صعد الأحمر ليصبح امينًا عامًا مساعدًا للقيادة القومية، أي مساعد الأسد الحزبي الأساسي، وأخذ نفوذه يتزايد باطراد.

عدنان المالكي.

* **عدنان المالكي** (١٩١٨-١٩٥٥): ولد في دمشق. تزوج بلبنانية من صيدا. قاوم صعود أديب الشيشكلي إلى الحكم في إطار التيار التقدمي عامة وحزب البعث العربي الاشتراكي خاصة الذي كان حديث الاندماج: العربي الاشتراكي والبعث العربي.

أمر الشيشكلي باعتقاله، بعد ان كان (الشيشكلي) قد ذهب إلى القاهرة آمنًا على وضعه في دمشق لتهنئة الجنرال محمد نجيب وبقية القادة المصريين على نجاح انقلابهم، «وعند عودته استقبله المفتش العام العقيد عدنان المالكي، وهو ضابط له شعبيته في صفوف الجيش، وقدّم له ثلاثة طلبات ملحة: ١- حل حزب التحرير العربي؛ ٢- إعادة الحريات السياسية؛ ٣- التعددية الحزبية (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء الحوراني، ص١٨٤-١٨٥).

ويضيف أوين (نقلاً عن سيل، في مؤلفه المذكور «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، النسخة الانكليزية الأصلية، ص١٢٧): «يقول باتريك سيل ان المالكي لم يكن يتصرف بشكل منفرد، وانه نقل للشيشكلي اسماء الضباط الذين

يؤيدون مطالبه، فأمر الشيشكلي باعتقاله. ونقلت تقارير أخرى ان الشيشكلي بادر بالاعتقالات لتفادي ما اعتقده مصدر خطر على نظامه. ففي ٢٢ كانون الاول ١٩٥٢، اخبر الشيشكلي السفير الاميركي بأن القوات الموالية له تمكنت من إحباط انقلاب على نظامه (عن برقية من ا لسفارة الاميركية في ٢١ كانون الثاني ١٩٥٢-الارشيف القومي للولايات ا لمتحدة)».

عاد عدنان المالكي إلى الجيش فور نجاح الانقلاب على الشيشكلي، وتسلم منصب معاون رئيس الاركان العامة للجيش فكان عنيدًا في مقاومة الاحلاف حينذاك وأهمها حلف بغداد.

«ويظن الكثيرون ان العقيد المالكي هو عضو في حزب البعث المسيطر على الجيش، وفي الواقع فإنه حليف لحزب البعث وكما ذكر باتريك سيل الصحفي والمؤرخ البريطاني في حاشية الصفحة ٣١٣ من كتابه «الصراع على سورية» (ص٣١٣، النسخة الانكليزية):

«فإن حماسته (المالكي) للبعث قد فترت منذ هزيمة أخيه في انتخابات ١٩٥٤، إذ اعتبر ان الحزب لم يمنح أخاه رياض الدعم الكامل وبالمقابل فقد عيّن المالكي في هيئة الاركان العامة ضابطين مناهضين للبعث، هما أمين النفوري وأحمد عبد الكريم» (ابراهيم يموت، «الحصاد المر، قصة تفتت قيادة حزب وتماسك عقيدة»، دار الركن، ص٢٨٤).

وفي ظل الحماس «لعقد الميثاق العربي الثلاثي بين مصر وسورية والمملكة العربية السعودية واحتدام المعارضة له في الاوساط الرجعية وفي جو انعقاد مؤتمر باندونغ دبر الحزب السوري القومي اغتياله (المالكي) في الملعب البلدي، في حفلة عامة في ٢٢ نيسان ١٩٥٥ وانتحر القاتل. واعتبر التحقيق ان هناك دولة أجنبية وراء الحزب الذي دبّر الاغتيال للعمل على قلب الحكم والاوضاع السياسية في سورية. وبدلاً من ان يتحقق هذا الأمر، فإن اغتيال العقيد المالكي كان مدعاة لتصفية الحزب السوري القومي سياسيًا وعسكريًا وتعميق التيار التحرري العربي بمزيد من التقارب مع مصر وتصفية الاتجاهات المناوئة والعاملة مع الاحلاف الغربية» («موسوعة السياسة»، ج٤، ص٣٤).

«وقد أذيع ان قاتل العقيد المالكي هو القومي الاجتماعي يونس عبد الرحيم، الرقيب الاول في السرية الاولى من الشرطة العسكرية، وان الحزب، ببعض مسؤوليه-جورج عبد المسيح واسكندر شاوي وغسان جديد-متهم بتدبير الاغتيال (...) وحُكم عبد المسيح وشاوي غيابيًا بالاعدام. كما حُكم بالاعدام على القومي الاجتماعي مُنعم الدبوسي الرقيب الاول في فوج الشرطة العسكرية في الجيش الشامي وعلى الوكيل في الجيش بديع مخلوف، ونفّذ فيهما الحكم (...) وكان من المحكومين المسؤولين حزبيًا الأمينة الاولى وعصام ا لمحايري وفؤاد الشواف وكامل حسّان» (ابراهيم يموت، المرجع المذكور، ص٢٨٣).

شغلت قضية المالكي (شخصًا ودورًا، واغتيالاً، وتحقيقات ومحاكمات، ونتائج خاصة لجهة تصفية الحزب السوري القومي الاجتماعي في سورية وتنامي البعث العربي الاشتراكي...) كثيرًا من الكتابات والمؤلفات التي استندت، أساسًا، إلى التحقيقات وحيثيات المحاكمات، ووقائع بعضها ما كان معيوشًا من مسؤولين وقادة في الحزب السوري القومي، وسواهم... وكلها تقريبًا، والأكثرها حبكًا ومنطقًا وموضوعية، توصلت إلى نتيجة مفادها: يونس عبد الرحيم ينتمي إلى الحزب القومي فعلاً، وانه قُتل و لم ينتحر فور تنفيذه الجرم... لكن الاغتيال جاء في سياق مؤامرة محبكة الخيوط بدقة والهدف سورية بجميع طاقات وطنييها ومبادئهم... حتى ان قياديًا عسكريًا وبعثيًا كبيرًا، مصطفى طلاس، انتهى إلى القول:

«وصدر الحكم بهذه القضية، منذ ثلاثة

وثلاثين عامًا، وانا لليوم اتساءل من قتل عدنان المالكي؟ ولماذا؟ تساءلت من موقع الحزبي، والسياسي، والعسكري، والقيادي، والكاتب خصوصًا من موقع القاضي، الذي ياما توقف عند اضابير، وملفات يستحلفها بالصبر المرير، لتقول له الحقيقة!. ثلث قرن من القلق النفسي، والوجداني، وخصوصًا العلمي ولا أتوصل إلى نتيجة؟ بل أخيرًا توصلت إلى قناعات، انا طارحها امام القارىء. وحسبي ان انزلتها عن كاهلي، وارتحت، ومن شاء ان يشاركني راحتي، فأنا قد فعلت... ومن شاء العكس فستثبت له الايام انه كان يعيش مع الاوهام... هناك مقولة في عالم الحقوق الجنائية تقول: فتش عن المستفيد من الجريمة لتعرف من دفع إلى ارتكابها! فإن انطلقت من هذا التوجيه، وانت تعالج هذه المسألة، فإنك سوف يدهشك فيها كثرة المستفيدين الذين كانوا أكثر من الهموم الجاثمة على قلب الامة... بلى لو كنت أقدر لكان عليّ أن أجرّ إلى التحقيق مثلاً كل من استفاد من اغتيال عمر بن الخطاب، حتى ولو وصلت إلى إيوان كسرى، وعرين قيصر...» (العماد مصطفى طلاس، «مرآة حياتي، العقد الاول»، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٩٢، الفصل السادس: «مصرع النسر»، ص٤٠٢-٤٠٣).

* **عز الدين القسام، الشيخ** (١٨٨٢-١٩٣٥): رجل دين، ثار في سبيل الاستقلال في سورية وجاهد ضد الانتداب البريطاني والصهيونية في فلسطين. ولد في جبلة، قضاء اللاذقية. انتقل إلى حيفا عقب ثورة ١٩٢٥ في سورية والتي كان قائدًا بارزًا فيها (راجع «فلسطين» في جزء لاحق من الموسوعة).

* **عزت العابد** (١٨٥٥-١٩٢٤): ولد في دمشق. أبوه محي الدين ابو الهول المسمّى هولو باشا ابن عمر بن عبد القادر العابد. تلقى علومه في دمشق، وتابع في بيروت، وأتقن الفرنسية والتركية بالاضافة إلى لغته العربية. عين مفتشًا للعدلية في سورية. اعتبر واحدًا من أشهر سياسيي عهد انهيار السلطنة العثمانية، وعُدّ في بدء أمره من انصار الاصلاح واصدر جريدة اسبوعية بالعربية والتركية أسماها «دمشق». ثم سافر إلى الآستانة وخدم السلطان عبد الحميد الثاني فأصبح مستشاره الأقرب خصوصًا في ما يتعلق بسياسة السلطان الاوروبية إذ كان هذا شديد الخشية من اوروبا ويعمل على مسالمتها، فأعانه عزت العابد على انتهاج سياسة تحول دون اتفاق الدول الاوروبية على بلاده. كثرت فيه اقوال الناس بين معجب بدهائه، وبين ناقد يتهمه بالاشتراك في فظائع عبد الحميد والعمل على توطيد اركان استبداده. كان اتصاله الاول بالسلطان عن طريق الشيخ ابو الهدى الصيادي الذي ما لبث ان وجد نفسه منافسًا له. من أهم ما هو معروف عن عزت العابد مسعاه الدؤوب لإنشاء سكة الحديد الحجازية. غادر البلاد العثمانية بعد انقلاب ١٩٠٨. فذهب إلى لندن ثم أخذ يتنقل بين انكلترا وسويسرا وفرنسا إلى ان استقر اخيرًا في مصر حيث توفي، ونقل جثمانه إلى دمشق. قال فيه جورج انطونيوس («يقظة العرب»، ص١٤١-١٤٣): «كانت صفته البارزة ان نظره الثاقب المصيب كان يتغلغل إلى معرفة جوانب الضعف في النفس الانسانية، وفي هذه الصفة يكمن سر نجاحه المدهش، فقد مكّنته من ادراك جبن سيده السلطان وغروره، وجعلته يحس احساسًا صادقًا بحالة سيده النفسية في اللحظة التي يكون فيها ويميزها تمييزًا صحيحًا. وكان في قرارة نفسه يحتقر عبد الحميد احتقارًا شديدًا، وذلك يفسّر لنا، بعض الشيء، مقدرته على التلاعب بمشاعره بسهولة. ومجرى حياته مهم لسببين: الاول عام وهو انه اصبح محور سياسة عبد الحميد العربية، والثاني خاص وهو مد سكة حديد الحجاز. فهناك من الدلائل ما يشير إلى ان فكرة

مد سكة حديدية من الحجاز قد نبتت اولاً في ذهن عزت باشا، وإن لم تكن الدلائل يقينية، وأيا كان الامر فقد كان هو العامل الأكبر على تنفيذها وإتمامها. وكانت خطته مد سكة حديدية من دمشق إلى المدينة ومنها إلى مكة، والهدف الوحيد منها في الظاهر تيسير سبيل الحج، ولكنها في الحقيقة ذات أهداف سياسية وحربية قبل كل شيء (...) وأهم نتائج هذه السكة، وهي نتيجة ربما لم تخطر ببال عبد الحميد، انها جعلت وسائل السفر في الولايات العربية الواقعة في الغرب أسرع مما كانت، وبذلك ساعدت على نقل الافكار وتبادلها».

* **عصام المحايري** (١٩١٨-): ولد في دمشق. تلقى علومه الابتدائية في مدارس الفرير في القاهرة حيث كان والده يعمل تاجرًا. وبوفاته، انتقل عصام إلى دمشق (١٩٢٩) فدخل المدرسة الأرثوذكسية ونال فيها البكالوريا الاولى (الثانوي قسم اول) في ١٩٣٨، ثم حصل على القسم

فارس الخوري.

الثاني، فرع الرياضيات في مدرسة اللاييك (معهد فرنسي علماني) في ١٩٣٩. وبعد ان قضى سنوات موظفًا في المصرف الزراعي التحق بكلية الحقوق في ١٩٤٥. انتمى إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي (١٩٤٤) وتدرج فيه حتى صار عميده في سورية. انتخب نائبًا عن دمشق إلى الجمعية التأسيسية في ١٩٤٩، ولعب دورًا في عهد الشيشكلي إذ كان حزبه الحزب الوحيد المتعاطف مع عهده علنًا («موسوعة السياسة»، ج٤، ص١١٢). وحول علاقة المحايري، وحزبه القومي، بالشيشكلي فإن هذا الاخير أوقف نشاط «كل الاحزاب باستثناء القومي السوري (...) ولكن الشيشكلي عاد واغلق جريدة القومي السوري، «الجيل الجديد»، فكان هذا الحظر هزة عنيفة للقومي السوري الذي فسّر ذلك على انه بدء اضمحلال نفوذه لدى الشيشكلي الذي بقي عضوًا في الحزب إلى ١٩٥٢ (مقابلة مع أحد اعضاء القومي السوري بتاريخ ٩ حزيران ١٩٩٠)، ونقل ان مبعوثًا من الحوراني التقى بالمحايري وعرض عليه ان ينضم الحزبان لمعارضة نظام الشيشكلي (النشاط السياسي السوري منذ انتهاء شهر رمضان-الأرشيف القومي للولايات المتحدة-). ولكن المحايري رفض الاقتراح مفضلاً الانتظار حتى يعرف إذا كان هنالك مكان للقومي السوري في النظام السياسي الجديد» (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، الترجمة العربية، ص١٨٠).

* **فارس الخوري** (١٨٧٣-١٩٦٢): سياسي وأديب. ولد في قرية الكفير التابعة لقضاء حاصبيا (لبنان)، وتعلم فيها وفي المدرسة الاميركية في صيدا، ثم في الكلية الانجيلية السورية التي سميت بعد ذلك «الجامعة الاميركية في بيروت». استقر في دمشق ترجمانًا للقنصلية البريطانية (١٩٠٢-١٩٠٨) وانتخب نائبًا عن دمشق في مجلس

«المبعوثان» العثماني (١٩١٢) ثم احترف المحاماة. وقبل انتهاء الحرب العالمية الاولى سُجن بتهمة التآمر على الدولة، وبُرئ. وبعد الحرب، عُين استاذاً في معهد الحقوق، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي (١٩١٩) فعدّ من مؤسسيه. عين وزيراً للمالية السورية، إلى ان احتل الفرنسيون دمشق (٢٥ تموز ١٩٢٠)، فعاد إلى المحاماة. نفاه الفرنسيون إلى أرواد (١٩٢٥)، ثم أعادوه وولّوه وزارة المعارف (١٩٢٦)، وحُلّت الوزارة بعد ٤٧ يومًا، فأُبعد مع اعضائها منفيين حتى ١٩٢٨. انتخب رئيسًا لمجلس النواب (١٩٣٦)، وأعيد انتخابه لهذا المنصب اكثر من مرة في عهد شكري القوتلي (١٩٤٣-١٩٤٩) فرئيسًا للوزارة (١٩٤٤-١٩٤٥)، ومثّل سورية لدى منظمة الامم المتحدة مرات. توفي في دمشق. من مؤلفاته «اصول المحاكمات الحقوقية» و«موجز في عالم المالية» («موسوعة السياسة»، ج٤، ص٤٤٥-٤٤٦؛ راجع ايضًا «الانتداب» واحداث العقدين الاولين من الاستقلال في الابواب السابقة).

آخر وزارة شكّلها فارس الخوري (وآخر عهد له في الحكم) كانت في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٤ واستمرت إلى ١٣ شباط ١٩٥٥ (في عهد هاشم الأتاسي) عندما خلفه صبري العسلي في تشكيل وزارة جديدة. وكان فيضي الأتاسي وزير خارجية الخوري. وعن هذه الحكومة وبيانها الوزاري وسياستها يقول مصطفى طلاس («مرآة حياتي»، ١٩٢٢، ص٣٨٨-٣٩١): «جاء البيان الوزاري مخيبًا لآمال التقدميين الذين كانوا يتوقعون، وروائح الاحلاف تزكم الأنوف، ان يتعرّض البيان إليها، ولو بإشارة. وجوبه فارس الخوري في جلسة الثقة بالمجلس النيابي بانتقادات لاذعة كادت تنتهي بحجب الثقة عن حكومته لولا انه تعهد شخصيًا بأن سورية لن تدخل أي حلف... لماذا هو بالذات، فارس الخوري (الوطني والمناضل) جاء ببيان كله من الزئبق؟!... أحقًا القول إنه استحى من رفاقه في حزب الكتلة الوطنية، فلم يخرج عن مصانعتهم... وهم الذين صانعوا الغرب ووالوه ليحكموا هم وينتفعوا بمغانم الحكم... ويعود فيضي الأتاسي (وزير خارجية الخوري، ولكنه من حزب الشعب) ليوهم لجنة الشؤون الخارجية (بعد ان حضر اجتماع وزراء خارجية الدول العربية في القاهرة في كانون الاول ١٩٥٤) بأن العرب، جميعًا اغتربوا، أي صاروا مع الغرب، وان سورية وحدها المهددة بعزلة مخيفة (...) ويصل عدنان مندريس إلى دمشق قادمًا من بغداد بعد يوم واحد لتعلن حكومة فارس الخوري ان وصوله كان صدفة، كما يعلن كميل شمعون ان وصول جلال بايار إلى لبنان كان ردًّا على زيارة شمعون إلى أنقرة... في حين عرف الناس أن لا شيء يجيء بالصدفة. ودعا عبد الناصر، رؤساء وزراء الحكومات العربية، إلى اجتماع في القاهرة... واعتذر العراق، ولبّى فارس الخوري الذي كان يؤكد خلال اجتماعات مطولة على وجوب جعل الوحدة العربية حقيقة واقعة! وإن العرب يجب ان يحايدوا في السلم، ويتصرفوا وفق مصالحهم في الحرب. وان العراق، لو كان حاضرًا، فربما وافقنا على ما أنجز! وأكد ان لسورية حدودًا طويلة، مع العراق وتركيا، وانها حريصة على علاقات حسن الجوار، وانه لا يستطيع ان يلزم سورية باي حلف ما لم يُعرض على مجلس النواب! وأدّى هذا الموقف المترجرج لفارس الخوري والمخادع لوزير خارجيته فيضي الأتاسي وسيطرة حزب الشعب (من خلال فيضي الأتاسي) على السياسة الخارجية إلى تذمر كبار ضباط الجيش، وتحرّك السياسيين بهدف إسقاط الحكومة، وتشكيل أخرى... وبمساعدة محمود رياض الذي نقل بالطبع إلى بعض الاوساط استياء عبد الناصر من موقف الخوري فقد انسحب وزراء الحزب الوطني (الكتلة الوطنية) من الحكومة، فسقطت...».

* **فـوزي القـاوقجي** (١٨٩٠-١٩٧٧): ولد في طرابلس الشـام، وخدم ضابطًا في الجيش العثماني. كان على صلة بقيادة الثورة السورية قبل انطلاقها، وكان ضابطًا في الجيش المرابط في قلعة حماه. فوضع خطة ارسل من يأخذ موافقة سلطان الأطرش والدكتور عبد الرحمن شـهبندر عليهـا. في تشرين الاول ١٩٢٥، قام بتنفيذ الجانب المتعلق منها بحماه. حكمت عليه فرنسا بالاعدام. وبعد فشل الثورة غادر البلاد إلى بغداد حيث دخل كليتها الحربية. اشترك في ثورة فلسطين في ١٩٣٦ على رأس مجموعات من المتطوعين. شمله العفو العام على أثر توقيع مشروع المعاهدة السورية-الفرنسية (١٩٣٦)، فعـاد إلى سـورية. وعندما قامت حركة رشيد عالي الكيلاني كان قد سارع إلى المشاركة فيها وطاردته الطائرات البريطانية بعد فشل الحركة إلى الحدود السورية فقتل بعض رفاقه (حمد صعب) ونجا، فلجأ إلى برلين حيث بقي حتى انهيار الحكم النازي. وقد اعتقله السوفيات في ٢٩ ايار ١٩٤٦ ثم اطلقوا سراحه بعد شهر عندما ثبت لهم ان تعاونه مع الالمان، إنما كان بدافع وطنيته وكراهيته للبريطانيين الذين كانوا يستعمرون فلسطين. عاد إلى سورية، وفي ١٩٤٧ عينته الجامعة العربية قائدًا لجيش الانقاذ المؤلف من متطوعين من مختلف الاقطار العربية لنصرة قضية فلسطين. وقد شارك بفعالية في الحرب العربية-الاسرائيلية الاولى. وبعد هزيمة فلسطين، شارك العديد من ضباطه في عدة انقلابات عسكرية في سورية. وقد شعر فوزي القاوقجي بمرارة الهزيمة وبفداحة الخسارة القومية وبجسامة المسؤولية التي يتحملها الرؤساء العرب فاعتزل وانزوى في دمشق ثم في بيروت حيث توفي. ترك مذكرات بعنوان «مذكرات فوزي القاوقجي» صدرت في ١٩٧٥ في بيروت تحت إشراف الباحثة العربية خيرية قاسمية («موسوعة السياسة»، ج٤، ص٦٣٠؛ وعن دوره في ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، وفي حرب

فوزي القاوقجي.

١٩٤٧-١٩٤٨، راجع «فلسطين في جزء لاحق من هذه الموسوعة).

* **فـوزي الكيـالي** (١٩٢٢-): ولـد في كفرنخاريم (محافظة أدلب). بدأ حياته العملية دركيًا كوسيلة لاتمام تحصيله العالي. وبعد حصوله على إجازة في الحقوق من جامعة دمشق انتقل إلى سلك التعليم مدرسًا ثم مديرًا لثانوية المعرّي في حلب وثانوية أدلب. في عهد الوحدة، عين مديرًا للشؤون الاجتماعية والعمل في حلب ثم مديرًا لمؤسسة التأمينات الاجتماعية وانتدب للعمل في القاهرة. بعد الانفصال، عاد للعمل في وزارة التربية والتعليم رئيسًا لهيئة التفتيش ثم مديرًا للتعليم الخاص. في العمل السياسي، انتسب بداية إلى الحزب العربي الاشتراكي (حزب أكرم الحوراني) ثم اصبح عضوًا في حزب البعث العربي الاشتراكي (بعد الاندماج). وفي عهد الانفصال وما بعده انتمى إلى الفئات الناصرية وعمل في الاتحاد الاشتراكي الذي ترأسه الدكتور جمال الأتاسي. عين باسم الحزب نائبًا في مجلس الشعب المعين بعد ١٩٧٠، ثم انتخب نائبًا في الدورة التشريعية التالية وما بعدها ايضًا. تولى، مرشحًا عن الحزب، وزارة الثقافة من ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٠ إلى اول آب ١٩٧٦. قاد في منتصف ١٩٧٣ جناحًا معاكسًا

لجمال الأتاسي، الامين العام للحزب وظل مواليًا للحكم وهو أمين عام الاتحاد الاشتراكي المشترك في الجبهة الوطنية التقدمية، وعضو في قيادتها. تعرضت قيادته للاتحاد الاشتراكي لهزة قوية بعد ان سحب معظم اعضاء قيادة التنظيم ثقتهم منه («موسوعة السياسة»، ج٤، ص٦٣١).

* **لؤي الأتاسي** (١٩٢٦-): ولد في حمص. تخرج في الكلية الحربية السورية في ١٩٤٧، واشترك في حرب ١٩٤٨ كقائد فصيل. أيد الوحدة المصرية-السورية وعارض الانفصال وحكومته وكان على رأس فريق من الضباط الناصريين عندما استولوا على حلب وحمص وطلبوا عن طريق الاذاعة امدادات عسكرية من الجمهورية العربية المتحدة (احتفظت مصر بهذه التسمية الرسمية لها رغم الانفصال وأبقت عليها إلى أن غيرها أنور السادات فأصبحت «جمهورية مصر العربية»). لكن القيادة العامة في دمشق اتخذت موقفًا حاسمًا وهددت باستعمال القوة ودفعت بقوات باتجاه حلب. فأعلن الأتاسي من اذاعة حلب عن إلغاء طلب المساعدة العسكرية من الجمهورية العربية المتحدة. وبعد بضعة ايام، عاد الهدوء إلى حلب وحمص وابعدت السلطات السورية لؤي الأتاسي، وعينته ملحقًا عسكريًا في السفارة السورية في واشنطن حيث بقي حتى اوائل ١٩٦٣ حين استدعي إلى سورية للادلاء بشهادته خلال محاكمة قادة الانتفاضة التي جرت في حلب. وفي ٨ آذار قام ضباط بعثيون وناصريون ومستقلون بانقلاب (أو «حركة» أو «ثورة» ذلك ان هذا الانقلاب جاء تتويجًا لنحو عامين من المظاهرات والاضطرابات التي اجتاحت المدن السورية واكثرها مؤيدًا للوحدة ومعارضًا لحكم الانفصال) أطاح حكم الانفصال. وشارك الأتاسي في الانقلاب وكان أحد الاعضاء التسعة الذين ألفوا «مجلس قيادة الثورة». وعين الأتاسي قائدًا عامًا للقوات المسلحة السورية ورقي إلى رتبة لواء. وفي ٢٤ آذار (١٩٦٣) عين رئيسًا لمجلس قيادة الثورة الذي كانت صلاحياته واسعة، مثل تعيين الحكومة وإقالتها باكثرية ثلثي الاصوات. في ١٨ تموز (١٩٦٣) سافر الأتاسي مع وفد عسكري إلى مصر للبحث في شؤون الوحدة. وقام الناصريون في اليوم نفسه بحركة انقلابية فاشلة أدّت إلى خروجه من السلطة.

* **محمد الأشمر** (١٨٩٢-١٩٦٠): أحد قادة الثورة السورية (١٩٢٥) ومن المشاركين في الثورة الفلسطينية (١٩٣٦، على رأس مجموعة من المتطوعين السوريين في معارك طولكرم؛ راجع «فلسطين» في جزء لاحق).

خاض الأشمر معركة ميسلون، ثم عاد إلى حوران حيث اقام زمنًا، واشترك في المعارك ضد الحملات التأديبية التي كان الفرنسيون يرسلونها إلى حوران، ولما طلبه الفرنسيون نزح إلى الرمثا شرقي الاردن، ثم عاد سرًا إلى دمشق مع نفر من الشباب ودخلوا غوطتها وشاركوا في معارك الثورة فيها. ولما انتهت الثورة رجع الأشمر إلى شرقي الاردن، ولكنه ظل يشترك في الهجمات التي كان الثوار يشنونها على مراكز الفرنسيين في جنوبي سورية (منطقة اللجاة). ثم عاد إلى سورية بعد صدور العفو العام عن الثوار. في دمشق ظلّ على صلة بالثورة الفسطينية وقادتها، والتقى بالمفتي محمد امين الحسيني خلال زيارته دمشق في حزيران ١٩٣٧، وكانت دمشق، في هذا الوقت، قد اصبحت مركز إدارة الثورة الفلسطينية وتوجيهها. دُعي الأشمر إلى زيارة الاتحاد السوفياتي في ١٩٥٧، و لقي فيه الحفاوة والتكريم ومنح وسامًا رفيعًا. كان معتل الصحة في السنوات الأخيرة من حياته.

* **محمد سليمان الأحمد** (بدوي الجبل):

راجع «بلاد العلويين» في باب «مدن ومعالم».

* **مصطفى حمدون:** ولد في حماة. من الضباط الوطنيين الذين تأثروا وهو في سن مبكرة بأكرم الحوراني واسلوبه السياسي ثم بحزب البعث العربي الاشتراكي. تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدارس حماة ثم دخل الكلية العسكرية وتخرج فيها. لمع نجمه في الانقلاب الذي أدى إلى إطاحة أديب الشيشكلي في ٢٥ شباط ١٩٥٤. كان أحد القادة في مجلس الدفاع الذين التقوا بعبد الناصر في قصر أنطونيادس في الاسكندرية للاتفاق على الوحدة بين القطرين. تولى وزارة الاصلاح الزراعي. فاز بالنيابة في الانتخابات المحلية في الاقليم الشمالي (سورية) في ١٩٦٠. عين وزيرًا للشؤون الاجتماعية في حكومة البعث في ١٩٦٣.

عن حزبيته في البعث، وضع جوناثان أوين، (في كتابه، «أكرم الحوراني»، المعرّب عن الانكليزية، ص٢٠٦) الحاشية التالية: «لم يكن بين ضباط الجيش السوري من هو منتسب للبعث بسبب قرار الحزب بعدم تشكيل نظام حزبي في الجيش الامر الذي يناقض الانضباط العسكري وإن كان للحزب انصار في الجيش، وكان الشاب الحزبي يحلّ من يمينه عند الانتساب للكلية العسكرية»، علمًا انه عرّف به، في متن الكلام، بأنه «عضو حزب البعث ومن الموالين لأكرم الحوراني».

وفي اجواء المظاهرات المناوئة للشيشكلي، وتمرد جبل الدروز، واعتقالات الشيشكلي لعدد كبير من الضباط والسياسيين، يقول أوين (ص٢٠٦-٢٠٨) بشأن التمرد الذي قاده حمدون:

«لم يكن الشيشكلي مسيطرًا على الوضع بالرغم مما بدا، ولقد اثبتت الحوادث التالية ذلك؛ ففي ليلة ٢٤-٢٥ شباط قام عصيان ثكنة حلب وألقي القبض على آمرها، الضابط الثاني في الثكنة، واحتلت قطعات الجيش المباني المهمة بما فيها مبنى الهاتف والاذاعة، وقبيل الفجر أعلن المقدم مصطفى حمدون عصيان الثكنة في اذاعة حلب، وطالب المتمردون باستقالة الشيشكلي ومغادرته البلاد بحلول مساء ذلك اليوم، وما إن حلت الظهيرة حتى كانت ثكنات أخرى في دير الزور واللاذقية وحمص وحماة قد انضمت إلى التمرد بينما بقيت ثكنات الجنوب الموالية للشيشكلي باستثناء واحدة أو إثنتين، لكن الشيشكلي قدم استقالته كما طلب منه، وغادر البلاد إلى بيروت في طريقه إلى السعودية (...) كان على رأس هذا التمرد المقدم مصطفى حمدون آمر وحدات المشاة، وآمر وحدات مشاة آخر يدعى كمال المالكي، وكان لحمدون والمالكي اتصالات محدودة جدًا مع ثكنات الشمال الأخرى (...) لقد كان التمرد مجازفة جريئة من قبل بعض الضباط فتمكنوا من النجاح بسهولة أدهشت الجميع (...) وقد كان تمردًا عسكريًا بحتًا، و لم يكن للسياسيين المدنيين أي دور فيه».

* **مصطفى طلاس** (١٩٣٢-): ولد في الرستن (قرب حمص). والده عبد القادر كان مختار الرستن وأحد وجهائها. تنتمي العائلة إلى قبيلة عبس، «كنا-معشر العبسيين أي جدودنا- قد دخلنا الرستن في العام ٢٨هـ تحت راية القائد سراقة العبسي الذي كان له شرف الانضواء تحت راية خالد بن الوليد أثناء فتح حمص» (مصطفى طلاس «مرآة حياتي»، ص٢٢). أما إسم «طلاس» فهو «إسم لامرأة، وانتساب العائلة لها كانتساب المناذرة إلى أمهم ماء السماء عن فخر لا عن جهالة الأب». ذلك ان «جدتي طلاس لم ترتح لهذا الواقع المرير» (واقع طرد ابناء العائلة من القرية إثر إغارة شنتها عائلة أخرى في اوائل القرن التاسع عشر)، فقامت تستنهض همم الرجال وتقودهم في إغارة ثأرية استرجعوا بها بيوتهم في الرستن، فأصبح الانتساب العائلي يُعرف باسمها...

مصطفى طلاس الى يسار الصورة (الى يمين الرئيس الأسد) في حفل خاص بالاطفال؛ والى يسار الرئيس حكمت الشهابي.

«كما يوجد لنا اقارب في حلب، ولكنهم حذفوا الألف فأصبح بيت طلس. ولنا بلبنان في بعلبك خصوصًا في قرية بريتال وطرابلس الشام اقارب أمالوا الألف فاصبحت طليس» (المرجع المذكور، ص٣٦-٣٨).

لما بلغ مصطفى طلاس الخامسة من عمره، دفعه أبوه إلى بيت الكتّاب (مدرسة الحروف الاولى، بغرفة واحدة، يبدأ العلم فيه بأبجد هوز... وينتهي بحفظ القرآن الكريم، ص٣١)، وبعده إلى المدرسة الابتدائية، وبعدها أتم الدراسة الثانوية في حمص، وخلالها، وقبل ان يتقدم لفحص الشهادة الثانوية (١٩٥٠)، انتسب إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وبعد نيل الشهادة الثانوية عمل مدرسًا، ثم التحق بالكلية الحربية في حمص.

«وحين دخل الأسد (الرئيس حافظ الأسد) الكلية العسكرية في حمص في خريف ١٩٥١ كان واحدًا من دفعة مكونة من تسعين طالبًا، وهناك التقى وصادق مصطفى طلاس وهو شاب سني من قرية الرستن القريبة من حمص وقد اصبح حليفه ومساعده المخلص لعشرات من السنين. كان طلاس، مثل الأسد، طالبًا بعثيًا برز كقائد كشفي في الحزب. وكانت صداقتهما تعبيرًا عن تجاوز الخط الطائفي في التحالفات، وهو ما كان يتصف به الشباب الثوريون في ذلك الوقت (...) وخطوة بعد خطوة راح الأسد يخرج رجال صلاح جديد من مراكز النفوذ في القوات المسلحة. وكان ابرز مثال على ذلك هو طرد رئيس الاركان أحمد سويداني في شباط ١٩٦٨ وتعيين صديق الأسد المقرب مصطفى طلاس في مكانه (...) وكان حلول طلاس محل سويداني امرًا في غاية الأهمية بالنسبة للأسد. فمصطفى

طلاس ظل الصديق الصدوق للأسد منذ لقائهما في الكلية العسكرية في حمص عام ١٩٥١. وكلاهما كانا طالبين بعثيين، وكانا يحبان الشعر، واصبحا ضابطين لعدم توفر الفرصة الأفضل: فالأسد كان يريد ان يصبح طبيبًا، بينما طلاس يحلم بأن يدرس الادب والفلسفة في السوربون. ويُعرف عن طلاس انه دائم الابتهاج، لمّاح الذكاء، وهو رفيق أنيس، ويُعتمد عليه، ويشتهر في اوساط الجيش بأنه يبقى هادئًا مهما كانت الظروف. كان مع الأسد خلال الوحدة في القاهرة، وبعد انقلاب ١٩٦٣ تمّ ضمه إلى اللجنة العسكرية، وغداة اضطرابات حماه عام ١٩٦٤ ترأس المحاكم الخاصة التي أقيمت لمحاكمة الخصوم السياسيين، وفي شباط ١٩٦٦، حرّك لواءه لدعم الهجوم على عفلق. والآن وقد رفع إلى منصب نائب وزير الدفاع قام طلاس، بمساعدة الأسد، بإحكام قبضته على القوات المسلحة، وإعادة «العناصر الجيدة». أي الرجال المخلصين لهما الذين أُخرجوا من الحكومة. وبالتدريج وبهدوء راح طلاس ينتزع الرجال الموالين لجديد واحدًا بعد آخر كما تنتزع اوراق ثمرة الارضي شوكي (...) وكوفيء طلاس بتعيينه وزيرًا للدفاع في آذار ١٩٧٢، وهو منصب ظل محتفظًا به. وكان ترفيع طلاس إلى مكانة في السلك العسكري تلي مكانة الأسد قد أدّى إلى مشكلة صغيرة تتعلق بالرتبة، فالأسد كان برتبة فريق، وهي رتبة احتفظ بها عندما اصبح رئيسًا، و لم يعد بإمكان احد بعد ذلك ان يتخطاه، وهكذا فلتمييز طلاس عن القائد الذي يعلوه وعن حملة رتبة «لواء» الذين هم دونه، تمّ خلق رتبة خاصة هي رتبة «العماد» التي حملها وحده عدة اعوام، إلى ان رفّع إليها ايضًا حكمت الشهابي عندما أصبح رئيسًا للاركان، وتلاه في ١٩٨٤ نائبه علي أصلان» (سيل، ص٦٩، ٢٤٤، ٢٩٠ و٢٩١).

اهتمامات مصطفى طلاس الكتابية والثقافية واسعة ومرموقة. يشرف على دار نشر هي أكثر دور النشر السورية نشاطًا ونتاجًا، خاصة في الحقلين الأدبي والسياسي. وضع طلاس سلسلة من الكتب العسكرية والتاريخية، أبرزها «استراتيجية العدو الصهيوني»، «الثورة العربية الكبرى»، «مرآة حياتي»، وسواها.

* **معروف الدواليبي** (١٩٠٧-؟): ولد في حلب. حصل بعد الدراسة الثانوية على شهادة كلية الشريعة في حلب (١٩٢٧) في العلوم الاسلامية والعربية، من هنا لقبه «الشيخ»، كما حصل على إجازة في الحقوق من الجامعة السورية (١٩٣٥) وعلى إجازة في الآداب في العام نفسه، ثم على شهادة دراسات عليا في الحقوق الرومانية في ١٩٤٠ ودكتوراه في الحقوق من جامعة باريس في ١٩٤١. بدأ حياته العملية بممارسة المحاماة. صار عضوًا في مكتب الكتلة الوطنية (١٩٣٦) في حلب وعضو المجلس الأعلى للكتلة في دمشق (١٩٣٨). ذهب للتخصص في اوروبا من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥. عين استاذًا في الجامعة السورية في ١٩٤٧ وانتخب في العام نفسه نائبًا عن حلب فكان من الكتلة الدستورية التي تحولت فيما بعد إلى حزب الشعب. تولى وزارة الاقتصاد الوطني باسم الحزب من ٢٧ كانون الاول ١٩٤٩ إلى ٤ حزيران ١٩٥٠. أعيد انتخابه إلى الجمعية التأسيسية التي تحولت إلى مجلس نيابي. انتخب رئيسًا لهذا المجلس في ٢٣ حزيران ١٩٥١، ثم تولى رئاسة الوزارة لفترة قصيرة اعتقله الشيشكلي على أثرها. وبعد اطاحة الشيشكلي تولى وزارة الدفاع في ١٩٥٤ فحاول وضع حد لتدخل العسكريين في الشؤون السياسية. عارض الوحدة مع مصر. تولى رئاسة الوزارة في عهد الانفصال (١٩٦١-١٩٦٢) وعمل على التراجع عن بعض الاجراءات السياسية التي تحققت في زمن الوحدة. وبعد إطاحته، سافر إلى المملكة العربية السعودية حيث عمل مستشارًا سياسيًا لدى حكومتها («موسوعة

السياسة»، ج٦، ص٢٤٤).

عن معروف الدواليبي، وسياسته، في ١٩٥١، كتب جوناثان أوين («أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء الحوراني، دار المعارف بحمص، ص١٥٩-١٦١):

«بعد فشل عدد من المحاولات قام بها السياسيون لتشكيل الوزارة، تمكن الشيخ معروف الدواليبي «المنتمي ليسار حزب الشعب والمشهور بأقواله المؤيدة للشيوعية (كان الدواليبي قد صرّح بما معناه: انه يفضل ان تصبح سورية جمهورية سوفياتية على الرضوخ للضغوط الاميركية، مما أدى إلى اطلاق الصحافة عليه لقب «الشيخ الأحمر») من تأليف وزارة معظم اعضائها من حزب الشعب. ولم يكن معروف الدواليبي خياراً سيئاً فقد كان يتمتع بعدة مزايا: فبالاضافة لكونه رجل دين فقد كان يساري الاعتقاد معاد للهاشميين، وكان ممن ينادون بالحياد في السياسة الخارجية، ولكن من وجهة نظر أخرى، للدواليبي علة كبيرة لانه معاد لتدخل الجيش في صنع القرار السياسي ولا يتردد في الافصاح عن ذلك (...) وكان الدواليبي الشخص المؤهل للقيام بهذه المهمة، فقد كان مصمماً على ازاحة الشيشكلي وتقليص دور الجيش في الحياة السياسية السورية من خلال اصدار التشريعات اللازمة، وبرهن الدواليبي انه يعني ما يقول فقد أسند وزارة الدفاع إليه نفسه واصبح اول وزير دفاع مدني منذ سنة ونصف، وقد وقع هاشم الأتاسي مراسيم الوزارة (...) وبعد ٢٤ ساعة من تسلم الدواليبي للسلطة (أي في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١) تحرك الجيش للسيطرة على مدينة دمشق، واعتقل الدواليبي ومعظم اعضاء حكومته ووجه الاتهام إلى حزب الشعب بارتكاب جرائم ضد الدولة أهمها التآمر على الاستقلال السوري (الوحدة مع العراق)... وتحدثت عدة مصادر عن ضغوط كبيرة على الدواليبي من اجل تقديم استقالته ولكنه صمد ثلاثة ايام قبل ان يفعل».

ميشال عفلق.

* **ميشال عفلق** (١٩١٠-١٩٨٩): أحد أهم القادة المؤسسين لحزب البعث العربي الاشتراكي. ولد في دمشق «لتاجر حبوب أرثوذكسي، وكان لبيئته تأثير كبير عليه حيث كانت تجري دائماً نقاشات سياسية بينه وبين والده الذي كان يشارك في النشاطات السياسية للكتلة الوطنية» (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، ترجمة وفاء حوراني، ط١، ١٩٩٧، دار المعارف بحمص، ص٥٩). إسم والده يوسف عفلق، وأسرة عفلق «فرع من أسرة ابو عسلة من راشيا الوادي في البقاع. وكانت أمه السيدة رسمية تنتسب إلى أسرة زيدان من حمص. وكان لخاله الدكتور شكري زيدان أثر كبير في توجيه قراءاته ومطالعاته» («في سبيل البعث»، الكتابات السياسية الكاملة، ج١، ٢ شباط ١٩٨٥).

تلقى علومه الابتدائية والثانوية في دمشق. حصل في ١٩٢٨ على منحة للدراسة في السوربون حيث درس التاريخ، و بقي هناك حتى ١٩٣٣ مشاركاً في إنشاء الجمعيات العربية (خاصة «اتحاد

الطلاب العرب») التي ألفها المثقفون العرب لنصرة القضايا العربية. «تعرف على تعاليم ماركس، وحضر لفترة اجتماعات الحزب الشيوعي ولكنه لم ينتسب إليه ابدًا» (أوين، ص٥٩). شغف باعمال نيتشه، ماركس، دوستويفسكي، تولستوي، بيرغسون، أناتول فرانس وأندريه جيد.

منذ منتصف الثلاثينات (عاد إلى دمشق في ١٩٣٤)، «بدأت تتبلور لديه ملامح نظرية الانبعاث القومي، وقد تجلت في المقالات التي كانت تنشر في صحف دمشق ومجلة «الطليعة»، وأبرزها «عهد البطولة» (١٩٣٥) و«ثروة الحياة» (١٩٣٦). وكانت مهنة التدريس التي مارسها عفلق الطريق الأساسي لتكوين النواة الاولى للبعث، وكانت مقاومة الاحتلال الفرنسي (الانتداب) والدعوة للوحدة العربية ونصرة العراق (١٩٤١)، ولربط الاشتراكية بحاجات النهضة الحديثة، الملامح الأساسية التي عكست الهوية الجديدة للحركة السياسية التي انصرف عفلق إلى بنائها. وقد استقال من مهنة التدريس في ١٩٤٢، وكرّس حياته لتأسيس حزب البعث الذي انعقد مؤتمره الاول في ٤-٧ نيسان ١٩٤٧ وانتخب فيه أمينًا عامًا للحزب» («موسوعة السياسة»، ج٦، ص٥١٥).

عن هذه المرحلة التمهيدية ودور عفلق فيها، كتب باتريك سيل (مرجع مذكور مرارًا، ص٥٤-٦١):

«كان الوطنيون الشباب المتحمسون يجمعون حولهم شبابًا أصغر منهم لينشروا الدعوة إلى استقلال العرب والثورة الاجتماعية. فمثلاً كان الشاب الحموي النشيط أكرم الحوراني -يقود الشبيبة بهذه الطريقة، كما كان المحامي جلال السيد، في المدينة النائمة عبر الصحراء (دير الزور) يدير ناديًا للشبيبة ذا نكهة قومية قوية قُدّر له فيما بعد ان يصبح أول فرع لحزب البعث في سورية الشرقية. ولكن أهم تجمعات الشباب في ذلك الوقت كانت تلك الملتفة حول ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. وكانا قد تخرجا من السوربون مثل زكي الأرسوزي؛ ولدى عودتهما (١٩٣٤) اصبحا مدرسين في ثانوية التجهيز الاولى في دمشق، وكانت أضخم وأشهر مدرسة ثانوية في سورية. أما عفلق المسيحي الأرثوذكسي فكان يدرّس التاريخ، وأما صديقه البيطار السني المسلم الذي يصغره بعامين فكان يدرّس الرياضيات والفيزياء. وكان القمع الفرنسي الغاشم، والتخلف السوري، وطبقة الساسة العاجزين عن الوقوف بوجه التحديات في ذلك الوقت، قد جعلتهما يريان بأن المجتمع كان في حاجة إلى عملية اصلاح جذرية عميقة تنهض به. فالتخلص من الفرنسيين لم يكن كافيًا، بل كانت هناك حاجة لاعادة تكوين العقول والافكار والمواقف وصياغة الوعي نفسه من جديد لتحقيق النهضة العربية. وبحلول ١٩٤٠ كان الصديقان قد جمعا حولهما دائرة من المدرسين اخذت تلتقي في ايام الجمعة. ثم بدآ نشر أولى كراساتهما في ١٩٤١، ثم تركا مهنة التدريس كي يتفرغا للسياسة تفرغًا تامًا عند نهاية العام الدراسي ١٩٤٢ ومن ثم أخذا يعيشان حياة المحرّضين المحترفين المليئة بالخطر والجوع ولكنها مثيرة ومنعشة في الوقت نفسه. كان عفلق خطيبًا مفوهًا بارعًا في استخدام هنيهة الصمت الدراماتيكية، مع موهبة في معالجة المواضيع النظرية المجردة. وبادىء ذي بدء اطلق عفلق والبيطار على مجموعتهما إسم حركة الاحياء العربي، وتحت هذا الاسم صدرت أوائل الكراسات. ثم وقعت في ايار ١٩٤١ ثورة رشيد عالي الكيلاني القصيرة، المثيرة، ضد بريطانيا في العراق؛ وفي غمرة الحماس القومي الذي اثاره هذا الفعل الشجاع في تحدي قوة اوروبية طاغية، تبنى عفلق والبيطار كلمة «بعث»، وتركا كلمة «إحياء» لأن الاولى كانت أكثر جذرية وعمقًا، فسمّيا مجموعتهما حركة البعث العربي، وهو إسم قال زكي الأرسوزي أنهما قد

سرقاه منه. وكان من الحتمي ان يتحرك سيل من الرجال والافكار بين عفلق والأرسوزي، إذ كانت دمشق مدينة صغيرة آنذاك ولم يكن بمقدور الناس المهتمين بالقضية نفسها ان يتجنبوا التعارف. ولكن المعلمين المتنافسين (عفلق والأرسوزي) لم يطق أحدهما الآخر. كان عفلق قصير القامة، ويرتدي طربوشًا طويلاً جدًا، فكان الأرسوزي يعلق ساخرًا: كيف يأمل أي شخص ان يقود ثورة بطربوش كهذا. وبالرغم من تلك المشاحنات كانت أفكار البعث قد ألهبت خيال جيل كامل (...) وللتعبير عن التاريخ العربي صاغ مؤسس البعث شعار: أمة عربية واحدة ذات رسالة عربية خالدة. ولكن قومية عفلق لم تكن شوفينية ضيقة (...) وأعلن عفلق ايضًا دليل عمل مؤلف من ثلاث كلمات: وحدة، حرية، اشتراكية (...) وواجه عفلق مشكلة التوفيق بين القومية العربية والاسلام (...) وكان طرح شخص مسيحي لهذه الآراء (في محاضرة في جامعة دمشق في ذكرى مولد الرسول، ١٩٤٣) يتطلب قدرًا نادرًا من الشجاعة، ولذلك فإنه لم يكن من المستغرب ان يستثير عفلق المسلمين المتدينين بسبب إيحائه بأن الاسلام كان ثمرة العبقرية العربية أكثر منه وحيًا من عند الله. كما انه استثار بعض المسيحيين الذين لقبوه «محمد عفلق» واتهموه بأنه باع كل شيء للجانب الآخر. ولكنه كان يعرف ما يريد. فقد كان احترام الاسلام طريقة لمواجهة دعوة الاخوان المسلمين الذين كانوا أخطر منافس له برؤياهم للعصر الذهبي لدولة اسلامية نقية؛ أما منتقدوه المسيحيون فقد ذكّرهم بأن الاسلام كان تاريخ العرب وفلسفتهم ومادة قوانينهم وتشريعاتهم وإرثًا كاملاً يجب ان يتفاخر به كل قومي، مسلمًا كان أم مسيحيًا، باعتزاز عظيم (...) وغالبًا ما كان عفلق والبيطار يُشاهدان على رأس المظاهرات، وقد ظهرا في صور كاريكاتيرية في الصحف يسيران بملابس رثة وياقات ممزقة وطرابيش قذرة. وكان هذا التصوير، على قسوته، صحيحًا ودقيقًا، فقد كانا عاطلين عن العمل، وعازبين، ويرتديان أسمالاً ويعيشان على الكفاف. وكنتَ تستطيع في تلك الايام ان تشتري من مطعم رخيص صحنا من الحمص بخمسة عشر قرشًا ورغيفًا بعشرة قروش اخرى. ولكن الرغيف كان من الممكن الحصول عليه من المخبز بخمسة قروش فقط، وكان صاحب المطعم يسمح لك بجلبه معك. وهذا ما كان يفعله عفلق والبيطار».

وأوجزت «موسوعة السياسة» (ج٦، ص٥١٥-٥١٦) أهم نقاط مسيرة عفلق بعد تأسيس حزب البعث بالتالي:

«- كان على رأس الشباب العربي الذي تطوع وقام بواجب الدفاع عن ارض فلسطين في ١٩٤٨. وقد اعتقل في هذا العام في دمشق، لأنه كان يقوم بفضح موقف السلطة في القطر السوري من القضية الفلسطينية ومن قضية الحريات.

- اعتقل في ١٩٤٩ بعد الانقلاب العسكري الاول (حسني الزعيم) ثم تولى وزارة المعارف بعد إطاحة ذلك الانقلاب وأحدث فيها تحولات اساسية لمصلحة الاجيال العربية الجديدة.

- اعتقل في عهد أديب الشيشكلي الذي أطاحه نضال الحزب في ١٩٥٤.

- وضع كل امكانيات الحزب في دعم ثورة الجزائر، وقام شخصيًا بدور اساسي في توفير كافة اشكال الاسناد لهذه الثورة.

- كرّس جهوده لقيادة الحزب وتعزيز انتشاره بعيدًا عن المشاركة في السلطة، وقام بدور رائد في تحقيق وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر.

- قاوم الانفصال على دولة الوحدة، وكشف عن ابعاده كمؤامرة خطيرة ضد فكرة الوحدة وضد وحدة النضال في الوطن العربي ١٩٦١-١٩٦٣.

- وضع كل ثقله الفكري ونشاطه لكشف ابعاد نكسة الحزب في ٢٣ شباط، والنكسة القومية

في ٥ حزيران ١٩٦٧، وكان لذلك دور حاسم في متابعة مسيرة الحزب وانعقاد المؤتمر القومي في ١٩٦٨».

النقد الأساسي الذي وجه له تناول نقطتين أساسيتين: قبوله حل الحزب في ١٩٥٨، وتردده وارتباكه في لحظات القرار.

توفي في احد مستشفيات باريس في ٢٤ حزيران ١٩٨٩، ثم نقل جثمانه إلى بغداد حيث جرت مراسم دفنه وتأبينه.

والمعروف ان نبأ وفاته تضمن ايضًا نبأ اعتناقه الاسلام قبيل وفاته. وقد شاهد العالم، على شاشات التلفزيون، جنازته تجري بحسب مراسم الدفن والتأبين الاسلامية.

سيلٌ من المؤلفات والدراسات تناول، ولا يزال، فكره، خصوصًا لجهة علاقة الاسلام بالعروبة والعروبة بالاسلام. وآخرها كتاب محمد عمارة (الكاتب المصري الغزير النتاج في الاسلام وفي القومية) «التيار القومي الاسلامي» (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧) الذي تحتل كتابات عفلق، والمؤلفات التي كتبت عنه بعد وفاته، غالبية مصادره. وفي مقدمة الكتاب يقول مؤلفه محمد عمارة إنه «لم يكن يتوقع ان تكون هذه هي مكانة الاسلام في المشروع القومي»، مؤكدًا انه اعاد اكتشاف هذا المشروع من خلال حقائق موثقة، وان كتابه «دعوة للقوميين كي يعيدوا النظر في مكانة الاسلام في مشروعهم القومي، ودعوة للاسلاميين كي يصححوا تصوراتهم عن القومية والقوميين، ونداء لتياري الاصالة-الاسلاميين والقوميين- لتتلاحم صفوفهم تحت رايات الاسلام والعروبة. فذلك هو توق نجاة الامة من التحديات الشرسة التي تهدّد وجودها».

أهم مؤلفات عفلق: «في سبيل البعث»، «معركة المصير الواحد»، «نقطة البداية»، «في السياسة العربية»، «النضال ضد تشويه حركة الثورة العربية»، «الشعب العربي في معركة التحرر»، «البعث والتراث»، «في السلوك الحزبي». ويقول محمد عمارة في كتابه المذكور («التيار القومي الاسلامي»، ص١٠): «بلغت كتابات عفلق المجموعة والمطبوعة-في سبيل البعث، الكتابات السياسية الكاملة- قرابة ألفي صفحة في خمسة مجلدات، وذلك غير ما تناثر في كتاب نضال البعث البالغ ثلاثة عشر جزءًا... فمشروعه الفكري هو أشهر وأبرز المشروعات الفكرية للمفكرين القوميين العرب المعاصرين».

* **نور الدين الأتاسي** (١٩٢٩-١٩٩٣): من عائلة سياسية معروفة. درس الطب في جامعة دمشق. انضم إلى حزب البعث، وتقلب في عدة مناصب رسمية وحزبية. أيد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦، فعين رئيسًا للدولة في ظل الرجل القوي صلاح جديد، حتى «الحركة التصحيحية» (١٩٧٠). اعتقل وسجن. توفي في احد مستشفيات باريس بعد قليل من اطلاق سراحه.

* **هاشم الأتاسي** (١٨٧٥- ١٩٦٠): ابن مفتي حمص. ولد وتلقى علومه الابتدائية في حمص والثانوية والعالية في المكتب الملكي بالآستانة. عين مأمورًا بمعية والي بيروت في ١٨٩٤ ثم قائمقامًا ثم متصرفًا في ١٩١٣. اختير عضوًا في المؤتمر السوري الاول في ١٩١٩، ثم انتخب رئيسًا له في ١٩٢٠. تولى رئاسة الوزارة مدة قصيرة في ايار ١٩٢٠ اواخر ايام فيصل. اختير رئيسًا للكتلة الوطنية لدى تشكيلها في ١٩٢٧. وظل رئيسها حتى انشقاقها. انتخب نائبًا عن حمص إلى الجمعية التأسيسية (نيسان ١٩٢٨)، ثم رئيسًا لها، وهي الجمعية التي وضعت دستورًا عطل الانتداب الفرنسي أهم مواده بالمادة الملحقة ١١٦ وحل الجمعية. أعيد انتخابه في ١٩٣٢ بالتزكية عن حمص هو وقائمته. فقاد مجموعة النواب الوطنيين (الكتلة الوطنية) لاحباط التصديق على معاهدة حقي العظم-دو

هاشم الاتاسي.

مارتيل. ترأس الوفد السوري إلى المفاوضة في باريس (١٩٣٦). أعيد انتخابه من جديد نائبًا عن حمص، ثم انتخب رئيسًا للجمهورية في كانون الاول ١٩٣٦ حتى استقالته في تموز ١٩٣٩. تولى حكومة انتقالية لاعادة الاوضاع الدستورية والاستقرار في البلاد بعد الانقلاب الثاني في ١٤ آب ١٩٤٩ إلى ما بعد انتخاب الجمعية التأسيسية، فانتخبته رئيسًا للدولة في ١٤ كانون الاول ١٩٤٩. وبعد اتمام الدستور والتصديق عليه انتخبته الجمعية التأسيسية التي تحولت إلى مجلس نيابي رئيسًا للجمهورية. إلا انه استقال احتجاجًا على تدخل أديب الشيشكلي. وعارض حكمه ورعى مؤتمرًا من الاحزاب في حمص لمناهضته، ونشر بيان المؤتمر باسمه. وبعد إطاحة الشيشكلي عاد إلى رئاسة الجمهورية واستمر حتى ١٩٥٥ («موسوعة السياسة»، ج٧، ص٢٨-٢٩).

* **يوسف العظمة** (١٨٨٤-١٩٢٠): شهيد ميسلون. ولد وتعلم في دمشق، واكمل دروسه في المدرسة الحربية في الآستانة (١٩٠٦)، وخرج برتبة «يوزباشي» اركان حرب. تنقل في الاعمال العسكرية بين دمشق ولبنان والآستانة. وارسل إلى المانيا للتمرن عمليًا على الفنون العسكرية، فمكث سنتين، وعاد إلى الآستانة فعين كاتبًا للمفوضية العثمانية في مصر. ونشبت الحرب العالمية الاولى فهرع إلى الآستانة متطوعًا، وعين رئيسًا لاركان حرب الفرقة العشرين ثم الخامسة والعشرين. وكان مقر هذه في بلغاريا، ثم في غاليسيا النمسوية، ثم في رومانيا. وعاد إلى الآستانة فرافق أنور باشا (ناظر الحربية العثمانية) في رحلاته إلى الأناضول وسورية والعراق. ثم عين رئيسًا لاركان حرب الجيش العثماني المرابط في القفقاس (قفقاسيا)، فرئيسًا لاركان حرب الجيش الأول بالآستانة. ولما وضعت الحرب أوزارها عاد إلى دمشق، فاختاره الامير فيصل مرافقًا له، ثم عينه معتمدًا عربيًا في بيروت، فرئيسًا لاركان الحرب العامة برتبة قائم مقام في سورية. ثم ولي وزارة الحربية (١٩٢٠) بعد اعلان تمليك الامير فيصل في دمشق. فنظم جيشًا وطنيًا يناهز عدده عشرة آلاف جندي. واستمر إلى ان تلقى الملك فيصل انذار الجنرال غورو، الذي كان يحتل السواحل السورية، بوجوب فض الجيش العربي وتسليم سلطة الانتداب الفرنسية السكك الحديدية وقبول تداول ورق النقد الفرنسي السوري، وغير ذلك مما فيه القضاء علىاستقلال البلاد وثروتها. فتردد الملك فيصل ووزارته بين الرضى والإباء، ثم اتفق اكثرهم على التسليم، فأبرقوا إلىالجنرال غورو، وأوعز فيصل بفض الجيش. ولكن، بينما كان الجيش العربي المرابط على الحدود يتراجع منفضًا (بأمر الملك فيصل) كان الجيش الفرنسي يتقدم (بأمر الجنرال غورو)، ولما سئل غورو عن الأمر، أجاب بأن برقية فيصل بالموافقة على بنود الإنذار وصلت

إليه بعد ان كانت المدة المضروبة (٢٤ ساعة) قد انتهت. وعاد فيصل يستنجد بالوطنيين السوريين لتأليف جيش أهلي يقوم مقام الجيش المنفض، في الدفاع عن البلاد، وتسارع شباب دمشق وشيوخها إلى ساحة القتال في ميسلون، وتقدم يوسف العظمة يقود جمهور المتطوعين على غير نظام، وإلى جانبهم عدد يسير من الضباط والجنود. وكان العظمة قد جعل على رأس «وادي القرن» في طريق المهاجمين ألغامًا خفية، فلما بلغ ميسلون ورأى العدو مقبلاً أمر، باطلاقها، فلم تنفجر، فأسرع إليها يبحث، فإذا بأسلاكها قد قطعت، فعلم ان القضاء قد نفذ، فلم يسعه إلا ان ارتقى ذروة ينظر منها إلى دبابات الفرنسيين زاحفة نحوه، وجماهير الوطنيين من ابناء البلاد بين قتيل وشريد، فعمد إلى بندقيته- وهي آخر ما بقي لديه من قوة- فلم يزل يطلق نيرانها على العدو حتى اصابته قنبلة. ودفن بعد ذلك في المكان الذي استشهد فيه. وقبره إلى اليوم رمز التضحية تحمل إليه الأكاليل كل عام من مختلف الديار السورية. وكان يوم ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠. كان يوسف العظمة يجيد العربية والتركية والفرنسية والالمانية وبعض الانكليزية («موسوعة السياسة»، ج٧، ص٤٥٩).

عن مصير زوجة يوسف العظمة وابنته، نشرت «الحياة» (١٨ آب ١٩٩٥) رسالة كتبها من لندن محمود الدغيم، قال فيها إنه «قبل توجه يوسف العظمة إلى ملاقاة العدو قابل الملك فيصل، فسأله الملك عن وصيته، فنظر إليه وقال «أوصيكم بابنتي الرضيعة وأمها خيرًا». وبعدما استشهد يوسف العظمة رحلت ارملته ومعها ابنته إلى

يوسف العظمة.

اسطنبول مسقط رأس الام. ويقال إن الملك فيصل كان يرسل لها معاشًا سنويًا، وفي ظروف غامضة بعد ذلك قطع المعاش الذي كان يرسل إلى ابنة وأرملة شهيد ميسلون (...) وخلال إقامتي (يقول محمود الدغيم) في اسطنبول من تموز ١٩٨٣ حتى شباط ١٩٩٠، كان هاجسي البحث عن سلالة الشهيد يوسف بك العظمة. وبعد ست سنوات من البحث علمت ان هناك سيدة اسمها زينب من اصل سوري عريق، وبعد جهود بذلها الاصدقاء التقيت مع زينب في منزلها المطل على مضيق البوسفور في محلة بيك أوغلي. وبعدما عاينت ما لديها من اوراق رسمية تبين لي بالدليل القاطع ان هذه السيدة هي زينب العظم وليست زينب العظمة. وجدت في اسطنبول ابنة العظم، و لم اعثر على ابنة الشهيد يوسف بك العظمة».

خريطة سورية وعليها
مواقع بعض المدن المهمة.

مدن ومعالم

* **أدلب:** مدينة سورية، قاعدة محافظة أدلب. تقع المدينة فوق هضبة واسعة قطرها نحو ٢كلم، عند منتصف الطريق بين حلب واللاذقية، وترتفع عن سطح البحر نحو ٤٤٦م. كان عدد سكانها في العام ١٩٨٥ نحو ٦٩ ألف نسمة، ويقدّر حاليًا (١٩٩٧) بنحو ١٧٥ ألفًا.

وإسم «أدلب» يرجعه بعض الباحثين إلى أصول كلدانية قديمة. «ويقول العلامة خير الدين الأسدي (١٩٠٠-١٩٧١) إن إسم أدلب مشتق من اللغة الآرامية من اللفظة المركبة «أردلب» وتعني: «أر»: هواء، و«د»: أداة بين المضاف والمضاف إليه، و«لب»: القلب، ومعنى اللفظة هواء القلب، أي ينعش القلب، وحقيقتها كذلك» (المهندسة سهام بدوي، «المدينة العربية»، عدد ٦٣، تشرين الثاني-كانون الاول ١٩٩٤، ص٨٨؛ نقلاً عن موسوعة حلب المقارنة، ج١، ص٩١). ويقال إن المدينة كانت تدعى «وادي لب»، وقد ضبطت لفظة أدلب في بعض المؤلفات بالذال المعجمة «أذلب». وتلقب أدلب بأدلب الخضراء، وارض الزيتون وأدلب الصابون.

لقد كانت أدلب بلدة صغيرة منسية، واصبحت مركز محافظة في مطلع الستينات من هذا القرن؛ فتركزت فيها كل المديريات ومعظم الدوائر الرسمية، واخذت تشهد نهضة شاملة على كل الاصعدة.

وفي أدلب مجموعة من المعالم الاثرية المهمة كالجامع العمري (نسبة إلى عمر بن الخطاب)، وخان الشحاذين، وكنيسة السيدة العذراء، ومتحف أدلب الذي أنشىء في ١٩٨٧ ويقع في الساحة المركزية، وتم إفتتاحه في ٢٥ ايلول ١٩٨٩، وقد رافق حفل الافتتاح «ندوة دولية لتاريخ أدلب ولآثارها» استمرت اربعة ايام وشارك فيها مجموعة من أشهر العلماء العرب والأجانب. ويتألف المتحف من اربعة اجنحة وأشهرها وأهمها جناح «إيبلا». ويعتبر المركز الثقافي في مدينة أدلب من أنشط المراكز الثقافية في سورية.

هذا عن مدينة أدلب، أما عن محافظة أدلب (التي تضم مناطق ونواحي)، فقد قامت على ارضها أقدم وأعرق الحضارات المتعاقبة والتي تتمثل

في ما يزيد عن ٤٠٠ موقع أثري موزعة في مختلف مناطق المحافظة، منها تل إيبلا (مرديخ)، تل السلطان، قلعة المعرة، قلعة حارم، قلعة البارة، كنيسة قلب لوزة، كنيسة السيدة العذراء، آثار وخرائب البارة، دير قنية، دير اليعقوبية، الجامع العمري، ضريح المعري، ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز (في قرية دير الشرقي)، الجامع الكبير... وإن تنوع آثار المحافظة ومناطقها وجمال طبيعتها انعكس على هذه المحافظة التي اصبحت منطقة جذب سياحي.

* **أرواد:** راجع «طرطوس» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **أريحا:** مدينة سورية تقع على سفح جبل الاربعين على بعد ١٤كلم من مدينة أدلب، وهي قاعدة منطقة أريحا (في محافظة أدلب)، وتعد نحو ٤٥ ألف نسمة، ويطلق عليها لقب «عروس مصايف الشمال». وصفها ياقوت الحموي (في معجم البلدان) بأنها «من أنزه بلاد الله واطيبها... ذات بساتين واشجار وأنهار». تطورت، منذ مطلع السبعينات، تطورًا عمرانيًا كبيرًا خاصة في مجال السياحة والاصطياف في جبل الاربعين. وتتميز المدينة بقربها من الأوابد الأثرية المنتشرة في جبل الزاوية كآثار البارة وسيرجله ودير لوزة ودير سنبل، وغيرها.

* **آفاميا:** مدينة أثرية في منطقة حماه. كانت تدعى قديمًا فرناكه Pharnake، ثم اتخذت إسم بيلا Pella (بعد فتح الاسكندر) وهو إسم مدينة في مقدونيا كانت مسقط رأس الملك فيليب والد الاسكندر. وفي العهد السلوقي وسع سلوقس نيكاتور هذه المدينة وحسّنها وسمّاها باسم الاميرة أبامي الفارسية وجعل فيها اصطبلات للفيلة والخيول وذلك لقربها من السهل والمراعي الخصبة كما اقام فيها خزانته ومستودعات للمؤن والذخائر. وذكر استرابون انه كان لسلوقس فيها ٣٠٠ جواد و٣٠ ألف فرس و٥٠٠ فيل.

وكانت للمدينة قلعة حصينة بقيت إلى زمن الرومان حيث هدمها بومبي الروماني في العام ٦٤ق.م. وتقوم قلعة المضيق الحالية مكانها. وعرفت آفاميا الرخاء في العهد الروماني، واصبحت مركز اسقفية في العهد البيزنطي. وفي منتصف القرن السادس تعرضت لغارات الفرس المتعددة، ويغلب الظن انها تهدمت في ٦١٢ إثر الحروب التي قامت بين الروم وكسرى الثاني المعروف باسم كسرى أبرويز، كما ان الزلازل التي اصابتها في فترات متلاحقة، وأهمها زلزال ١١٥٧، أكملت هدم ما تبقى من المدينة. وفي ٦٣٨، دخل ابو عبيدة بن الجراح سورية فوجد مدنًا كثيرة خربة كليًا أو جزئيًا ومنها مدينة آفاميا فلم يعمرها واكتفى بحصنها (الأكروبول) الذي حمل إسم فاميا أو فامي، وهي قلعة المضيق الحالية. وفي الحروب الصليبية، استولى تانكريد امير انطاكيا على قلعة المضيق (١١٠٦)، وبقي فيها إلى ان غزاها نور الدين زنكي في ١١٤٩ واستخلصها منه، ثم دخل الموقع في أيدي المماليك كما حصل في شيزر. ودخلت المدينة بعدها في النسيان نحو ثمانية قرون، أي إلى ان أجرت البعثة الأثرية البلجيكية، بين ١٩٣٠ و١٩٣٥، حفريات عدة في شمالي المدينة على طول كيلومترين عند حدود السهول على الضفة اليمنى من العاصي فكشفت بعض أوابدها وأظهرت قسمًا من آثارها. كما أقامت البعثة في بروكسيل نموذجًا للشارع المستقيم في آفاميا داخل حديقة المتحف الخمسيني Musée du Cinquantenaire وجعلته بطول ٣٥م يمثل رواقًا مزخرفًا وأعمدة حلزونية وجدارًا طبق الاصل عن الجدار الذي وجدته في مكانه. ومنذ ١٩٨٣، تحولت أعمال التنقيب والترميم إلى ورشة عمل متواصلة، تزخمت بدءًا من ١٩٩٠ ولا تزال ــــ

الشارع الرئيسي في آفاميا بعد الترميم.

الخان العثماني وقد حوّل الى متحف آفاميا. وفي خلفية الصورة قلعة المضيق، وفي الاطار فسيفساء بيزنطية اكتشفت في حماه.

متواصلة حتى تمّ ترميم مئات الاعمدة ورفعها على قواعدها. والممول الأساسي لهذا المشروع الاحيائي هو رجل الاعمال السوري الدكتور عثمان العائدي رئيس الشركة العربية للمنشآت السياحية، ويتابعه بصورة مباشرة الخبير الآثاري الدكتور عبد الرزاق زقزوق.

واستطاعت تلك الجهود اخراج معلم مهم آخر في المدينة هو الخان العثماني وتحويله إلى متحف باسم «متحف آفاميا» تيمناً بالمدينة البيزنطية التاريخية التي تعود إلى الحياة بصورة تدريجية. ويقع مبنى الخان إلى الجنوب الغربي من قلعة المضيق التي هي بناء عربي عريق أقيم على انقاض «الأكروبول» البيزنطي الذي كان تابعًا لمدينة آفاميا قبل سيطرة العرب عليها. ويجاور الخان جامع صغير الحجم نسبيًا، ويبدو انهما بنيا في العهد العثماني. وقاعات الخان اصبحت تضم اليوم مجموعة كبيرة من اللقى عثر عليها في موقع آفاميا نفسه وفي مواقع آثارية اخرى قريبة من المدينة البيزنطية القديمة. وأبرز ما في المتحف لوحات الفسيفساء التي تعود إلى القرون الميلادية الاولى، وأهمها لوحة سقراط ولوحة الحكماء السبعة.

والواضح ان الاهتمام العثماني كان مركزًا على الخان والجامع المجاور، في حين لم تحظ قلعة المضيق بأي رعاية على رغم اهميتها البالغة في مرحلة الحروب الصليبية. غير ان الخان نفسه سقط في النسيان منذ مطلع القرن إلى ان أنقذته دائرة الآثار منذ بدء ورشة الترميم (١٩٨٥) وحولته إلى واحد من أجمل المتاحف الصغيرة لجهة تخصصه في عرض لوحات الفسيفساء (مرجع هذه المادة «آفاميا»، «الحياة»، اعداد: ١١ ايلول ١٩٩٤؛ و١٤ تشرين الثاني و٦ كانون الاول ١٩٩٥).

«هنا، في سورية، التقى الشرق والغرب، فكل تل وكل آبدة وكل مدينة تحكي قصة هذا اللقاء (بين الشرق والغرب)، وهذا ما نلمسه في آفاميا أكثر من أي مكان آخر. سحرت تلك المدينة الرابضة على هضبة تشرف على العاصي والتي كانت تدعى «فارناكا» سلوقس نيكاتور احد قادة الاسكندر الكبير، فاستقر فيها مع الاميرة الفارسية «آفاميا» التي تزوجها في سوسة. ومن اجلها رفع تلك الاعمدة المحزّزة على نحو لولبي والتي لا تزال تحف بجانبي الشارع الرئيسي الذي يخترق المدينة القديمة» («النهار»، ٢٧ ايلول ١٩٩٤، نقلاً عن المجلة الفرنسية «الاكسبرس»، عدد اول ايلول ١٩٩٤).

* **أم التليل:** راجع «سورية»، ج٩، العنوان الفرعي «حفريات أم التليل»، ص٣٣٢.

* **أوغاريت:** راجع «سورية»، ج٩، ص٢٣٢-٢٣٤؛ و«اللاذقية» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **إيبلا:** راجع «سورية»، ج٩، العنوان الفرعي «إيبلا وماري، أقدم مملكتين في سورية»، ص٣٣٢-٣٣٣.

* **البارة:** إحدى أكبر وأهم مجموعة المدن والقرى الأثرية البائدة المنتشرة إلى الجنوب من مدينة أدلب بحوالي ٣٥ كلم (شمالي سورية). وتقع البارة على اطراف منحدر واد عريض وعر يرتفع نحو ٨٥٠م فوق سطح البحر وتكسو كامل مساحته بقايا عدد لا يحصى من الابنية القديمة التي يمكن مشاهدتها من خلال اشجار الزيتون.

كانت البارة مدينة مهمة في القرن الثاني ق.م.، وعرفت آنذاك باسم «كفرنبارتا»، وفي العصر الروماني اطلق عليها إسم «كاروبيروا». ووجود المقابر الاسلامية القديمة والمساجد الصغيرة والنقوش العربية تدل على استمرار الحياة الثقافية

والزراعية فيها لقرون عدة قبل الغزوات الصليبية وبعدها. وقد عرفت بـ«كفر البارة» ثم «الكفر» لتستقر اخيرًا على «البارة». وتذكر المصادر التاريخية انها احتلت من قبل الصليبيين في اواخر القرن الحادي عشر، وحرّرها نور الدين زنكي بعد ذلك بنحو ٢٥ عامًا، وبقيت مزدهرة فترة طويلة

بقايا فيلا رومانية في البارة.

احد القبور الهرمية في البارة.

من الزمن حتى فقدت قوتها الاقتصادية وهجرها سكانها خاصة بعد ان تعرضت لعدد من الزلازل التي أتت على الكثير من مبانيها. وكانت البارة تتميز بوجود العديد من معاصر العنب والزيتون، وكان انتاجها يصدر إلى القسطنطينية. وفيها عدد من الآثار، أهمها حصن ابي سفيان والقبور الهرمية الاربعة، وأبرزها يطلق عليه السكان في المنطقة إسم «المزوقة»، وخمس كنائس بيزنطية أكبرها كنيسة الحصن. وإلى الشمال من البارة تنتشر عدة أبنية رومانية شيدت على شكل فيلات ريفية، وتعتبر الفيلات الوحيدة الباقية في الشرق، اشهرها فيلا دير السيباط، وهي عبارة عن مبنى دير تحيط به حديقة كبيرة من اشجار الزيتون. ويحفل الطرف الشرقي للمدينة بالآثار التاريخية. وكل الاراضي الجبلية الوعرة الواقعة بين وادي البارة والطريق بين مدينتي حلب وحماه إلى الشرق مغطاة بآثار وأطلال لمدن وقرى قديمة بائدة اصغر حجمًا من البارة. وتشكل البارة، على حد تعبير العالم الأثري الماركيز دو فوجين الذي كشف النقاب عنها في ١٨٦٠ «حلقة مفقودة من التاريخ العالمي للفن والعمارة، وهي توضح مرحلة مجهولة من تاريخ سورية القديمة التي بلغت خلالها مستوى من الفن والغنى والازدهار لم تبلغها بقعة أخرى من العالم القديم حينذاك» («المدينة العربية»، الكويت، العدد ٤٠، تشرين الثاني ١٩٨٩، ص٨٣).

* **بصرى الشام:** مدينة سورية واقعة في سهل النقرة الخصب على اطراف اللجا الجنوبية وعلى بعد ١٤١كلم جنوبي دمشق.

تعني كلمة بصرى في الكتابات السامية القديمة «الحصن»، مما يوحي بأنها كانت، منذ تأسيسها، موقعًا استراتيجيًا لمنطقة حوران. وأول ذكر لمدينة بصرى جاء في لوحات تل العمارنة المكتشفة في مصر، كما ارتبط اسمها بالانباط، —

آثار مسجد مبرك الناقة في بصرى الشام.
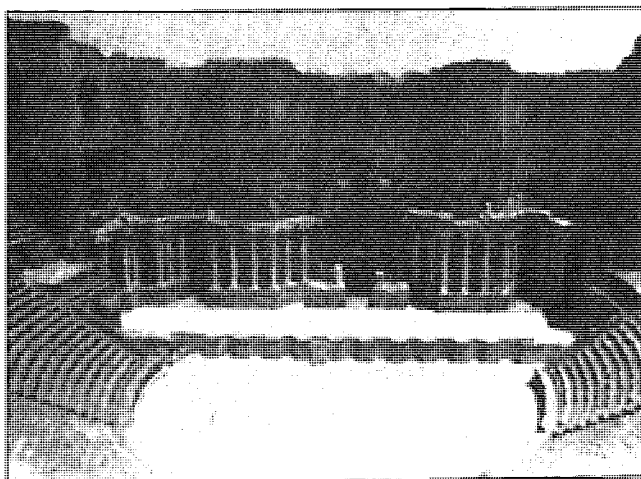
المدرج الروماني وحوله القلعة العربية في بصرى الشام.

واقدم نص نبطي عثر عليه فيها يعود إلى نهاية القرن الثاني ق.م. وخلال القرن الميلادي الاول، جعل آخر ملوك الأنباط رابيل الثاني (٧٠-١٠٦) بصرى عاصمة له، والحقت بلاد الأنباط بالامبراطورية الرومانية، وبعد احتلال القائد كورناليوس بالما للمنطقة اقام قنوات وخزانات المياه، وشهدت المنطقة للمرة الاولى تطورًا زراعيًا منظمًا مما أدى إلى تطور عمراني واضح ظهر في الشوارع والأقواس والمخازن. وفي عهد اسكندر سيفر منحت البصرى القابًا جديدة، وشق طريق بصرى-عمان وبصرى-حيفا. وفي العهد البيزنطي ظهرت دولة الغساسنة الذين اشتهر منهم الحارث بن جبلة باشتراكه في الحروب ضد البيزنطيين خلال الخلافات المذهبية. وعند الفتح الاسلامي ساهم سكانها في مقاتلة البيزنطيين، واقيمت فيها بعد ذلك المنشآت العمرانية.

أهم آثار ما قبل الفتح الاسلامي: المعبد النبطي ومعبد حوريات الماء و«اللكيبة» (وتعني مساكن الريف). ومن الآثار الاسلامية: الجامع العمري وهو اول مسجد بناه المسلمون في سورية عند الفتح ايام عمر بن الخطاب، ثم مسجد فاطمة الذي بني في العصر الايوبي، ثم جامع الخضر الذي أمر بتجديده امين الدولة ابو منصور كمشتكين الأتابكي والي بصرى، واخيرًا جامع مبرك الناقة الذي يعتقد ان الرسول صلى فيه قبل نبوته عند زيارته لمدينة البصرى. وهناك اعتقاد آخر يربط المسجد بأول نسخة من القرآن الكريم وصلت إلى سورية. ولذلك يعتبر هذا المسجد أحد أهم المساجد التي يقترن بناؤها بذكريات تاريخية ودينية. كما تكمن أهمية هذا المسجد في انه اصبح خلال العهد الأتابكي (القرن العاشر-القرن الثاني عشر) مركزًا للدراسات والعلوم الدينية والفقهية. ويرجع تاريخ مدرسته إلى العام ٥٣٠هـ (١١٣٦ ميلادية) كما هو مذكور على كتابة واضحة في الواجهة الشمالية للمدرسة.

وتشتهر بصرى بأبوابها واقواسها التاريخية، مثل باب المدينة أو «باب الهوى»، وهو مدخل المدينة من جهة مدينة درعا جنوبي سورية. ويعود تاريخ بنائه إلى القرن الثاني. وبعد اجتيازه، تقع الساحة وهي على شكل بيضوي، وقواعد وتيجان أعمدة منحوتة على الطراز الايوبي كانت تشكل رواقًا بني على جانبي الشارع المستقيم الذي يخترق المدينة القديمة من الغرب إلى الشرق مرورًا بالقوس المركزي والباب النبطي. وهذا الشارع ما زال حتى الآن محتفظًا ببلاطه الأساسي المؤلف من الحجر البازلتي. وداخل المدينة القديمة يقوم القوس المركزي أو باب القنديل كما يسميه سكان بصرى. ولعل هذا الباب من اضخم الابواب في سورية لجهة ارتفاعه، فهو مؤلف من ثلاثة اقواس. ويعود تاريخ هذا القوس إلى القرن الثالث، وعليه كتابة لاتينية تشير إلى انه شيد تخليدًا لذكرى انتصار جوليوس جوليانوس، قائد الفرقة البارتية الاولى التابعة لجيش الامبراطور فيليب العربي. وهناك الباب النبطي في المدينة القديمة كذلك، ويعود تاريخ بنائه إلى القرن الاول ق.م..

ومن أشهر آثار بصرى الشام ايضًا المسرح الروماني والقلعة العربية التي تجاوره. فبعد دخول العرب إلى بصرى سدّوا جدران المسرح ومنافذه ليتحول إلى حصن منيع. وفي العهد الفاطمي تم بناء ثلاثة ابراج ملاصقة لجدار المسرح الخارجي. لكن تاريخ القلعة الحالية يبدأ في عهد الملك العادل ابي بكر بن ايوب أخي صلاح الدين.

وتجدر الاشارة إلى ان معظم الآثار والأوابد في بصرى، الاسلامية وغير الاسلامية، مبنية كلها من الحجر البازلتي القاسي الذي يصعب التعامل معه لجهة البناء ولجهة حفر النقوش والزخارف عليه. والمنطقة الجنوبية من سورية منطقة بركانية تنتشر فيها بكثرة الصخور البازلتية.

* **بلاد العلويين:** أطلق الفرنسيون هذا

الإسم-بلاد العلويين-بعد احتلالهم المنطقة الغربية من سورية على المناطق التي كانت تشمل، في العهد العثماني، لواء اللاذقية، التابع ولاية بيروت، ويلحق به، عدا مديريات النواحي المحيطة بمركزه، ثلاثة اقضية هي جبلة والمرقب وصهيون، كما تشمل كثيرًا من القرى في لواء طرابلس وبعض القرى في لواء حماه وفي ولاية حلب.

ومع اطلاقهم هذا الاسم على هذا الجزء من المنطقة الغربية من سورية، قسّم الفرنسيون المنطقة إلى قسمين، شمل الاول لبنان الكبير، وشمل الثاني لواء اللاذقية بأقضيتها الثلاثة مضافًا إليه ما فك عن لواء طرابلس من ملحقات (قضاء صافيتا والحصن-تل كلخ-ومديرتا طرطوس وأرواد مع قضاء مصياف الذي كان تابعًا للواء حماه) وخمسة اقضية كانت تابعة لولاية حلب.

و لم يعد خافيًا ان الفرنسيين، في ما هم منكبون على ترتيباتهم التقسيمية للبلاد السورية التي كانوا منتدبين عليها، إنما استندوا إلى واقع ديمغرافي (الأكثرية الغالبة في المنطقة من العلويين)، وآخر تاريخي ذي موروث لعب الفرنسيون على وتره، وهو متصل بما تحمله العلويون في معظم العهد العثماني من اضطهاد اقترن باعتبارهم منبوذين من أهل السنّة.

الكولونيل نييجر Nieger، الحاكم الفرنسي من مقره في اللاذقية، ألف (١٩٢٠) مجلسًا استشاريًا تمثيليًا على اساس طائفي، بطريقة الانتقاء والتعيين في المرة الاولى ثم بالانتخاب الشعبي في أكثر من مرة. فكانت اكثريته من العلويين ورئيسه جابر العباس، واعضاؤه عبد الواحد هارون واسحق نصري وأحمد الحامد وابراهيم الكنج ونقولا بشور. وكان الكولونيل نييجر، فور تعيينه حاكمًا على بلاد العلويين (١٩٢٠) «دعا إلى منزله القاضي الشرعي محمد العجان واستحصل منه على وثيقة خطية يؤيد فيها استقلال العلويين عن السنيين في المذهب. وفي اليوم الثاني أسرع الحاكم بالسفر إلى بيروت حاملاً تلك الوثيقة الخطية وبسط امام المفوض السامي واركانه ما تفضل به عليه القاضي الشرعي من معلومات، ثم عاد إلى اللاذقية حاملاً قرار المفوض السامي المتضمن اعتبار العلويين طائفة مستقلة تمام الاستقلال عن المسلمين السنيين، مما يستدعي إقامة محاكم مذهبية خاصة بهم. ونفذ الحاكم مضمون هذا القرار وعين من المشايخ العلويين مفتين شرعيين يرئسون المحاكم المذهبية الخاصة بأبناء شيعتهم» (يوسف الحكيم، «سورية والانتداب الفرنسي»، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٣، ج٤، ص٦٦).

و لم تكن امور هذه الترتيبات سهلة ومقبولة من العلويين كما تصورها الفرنسيون، فواجهوا في الجبل العلوي مقاومة فورية سرعان ما انتشرت إلى القرى المتفرقة في المرتفعات وأصبحت تضم الآلاف من الثوار. ووجدت هذه المقاومة قائدًا لها في احد زعماء العلويين هو الشيخ صالح العلي الذي نادى وجهاء وأعيان الساحل لعقد اجتماع في قرية الشيخ بدر للبحث في سبل مواجهة الاحتلال الفرنسي. وعقد الاجتماع في ٥ كانون الاول ١٩١٨. وكانت أكبر معركة جرت بين الثوار وبين القوة الفرنسية المطاردة هي التي وقعت بالقرب من قلعة المرقب، استبسل فيها الشيخ صالح وجماعته ووقع قائد الحملة الفرنسية الكومندان مينو والكابتن جواني جريحين. وأكسبت هذه المعركة الشيخ صالح العلي شهرة واسعة استقبلها زعيم المناطق السورية الشمالية الأكبر، آنئذ، إبراهيم هنانو بانشراح وتفاؤل باتساع رقع الثورة ضد الفرنسيين. فأخذ يمد العلي بما توفر لديه من سلاح. وراح هذا يوسع حملاته شمالاً إلى قرى القرداحة والمزيرعة ودبلش. «وهناك صورة قديمة لهذا الوطني المبكر (صالح العلي) تظهره متوشحًا سيفًا معقوفًا ومرتديًا درعًا من المعدن المطروق محزومًا فوق عباءته. وقد مكنته طبيعة الارض

الملائمة لحرب العصابات من ان يتحدى فرنسا أكثر من عامين. وكان من بين انصاره والد حافظ الأسد، علي سليمان، الذي تتذكره الأساطير الشعبية المحلية ممتطيًا صهوة جواده للغارة على موقع فرنسي. وأخيرًا عيل صبر الفرنسيين، فوجهوا ضد معقل العلويين في الجبل ثلاثة طوابير بآلياتها في ايار ١٩٢١، وراحوا ينزعون سلاح القرى واحدة بعد أخرى، وما إن حلّ شهر تشرين الاول ١٩٢١ حتى كانت تلك الثورة قد انتهت، فاستسلم الشيخ صالح وسجن في إحدى القلاع الصليبية على جزيرة أرواد الصغيرة مقابل الساحل السوري قرب طرطوس، حيث لا تزال هناك ثكنة تحمل إسمه» (باتريك سيل، «الأسد والصراع على الشرق الاوسط»، ص٣٥). بعد مدة قصيرة صدر قرار بالعفو عن الشيخ صالح العلي، فعاش معتزلاً في الجبل حتى وافته المنية في نيسان ١٩٥٠ (ولد في قرية المرقب في ١٨٨٣).

كشفت ثورة صالح العلي للفرنسيين معطيات ممزوجة بخيبة من جماعة طالما اعتقدت الادارة الفرنسية ان هذه الجماعة رهينة سياستها. فبدأت هذه السياسة تعمل على «ان تستميل إليها مسلمي اللاذقية وتحول دون تعلقهم بالمنطقة الشرقية من سورية، فعولت على تخفيف وطأة الحكم العسكري باجراءات إدارية يقوم بتنفيذها مدنيون من ابناء المقاطعة» (يوسف الحكيم، المرجع المذكور اعلاه، ص٦٤). وعرض الفرنسيون إغراءات شتى لاستمالة المتعاونين، من جميع الفئات، فنجحوا حينًا وفشلوا احيانًا، وكانوا يغيرون من الوضع السياسي والاداري لمنطقة العلويين التي بدأت «دولة»، ثم «اقليم الحكم الذاتي»، ثم «دولة»، ثم «حكومة اللاذقية»، ثم تلحق، أكثر من مرة، ببقية سورية... على مدى سنوات الانتداب إلى الاستقلال النهائي.

وفي طليعة المغريات التي قدّمت، والخاصة بالعلويين، تجنيد شبابهم في «قوات المشرق الخاصة»، وهي قوة محلية أنشئت في ١٩٢١ تحت إمرة ضباط فرنسيين. «وشعر هؤلاء الشباب العلويون لأول مرة في حياتهم بأنهم يتمتعون بدخل صغير ولكنه ثابت، كما انهم اصبحوا منظمين ومدربين ومعرضين لافكار جديدة (...) وكان أبرز المتعاونين الاخوة كنج وهم الفلاحون الدهاة الذين ايدوا الفرنسيين من لحظة وصولهم في ١٩١٨، فكوفئوا بالثروة والنفوذ (...) وكان هناك عمود ثالث للادارة الفرنسية يتمثل في آل عباس زعماء عشيرة الخياطين الدينية... كان الشيخ جابر العباس متعلمًا ومعتدلاً فساعد الفرنسيين في حملة التهدئة في مطلع العشرينات. لكنه في ١٩٣٣ انشق عنهم لينادي بالاتحاد مع الجمهورية السورية (...) وضمن تجمع اسر الكلبية، التي كانت تنتسب إليها عائلة الأسد كان يوجد وطنيون ومتعاونون. وكان النجم الحقيقي للكلبية وأحد شخصياتها الدينية الرئيسية هو المثقف الشيخ سليمان الأحمد عضو المجمع العلمي العربي الذي تأسس بدمشق ١٩١٩. وحياة ابنه محمد الذي ذاع صيته في جميع انحاء الوطن العربي تحت إسمه المستعار «بدوي الجبل» توضح المد والجزر في الولاء العلوي تحت الانتداب. كان في اول الأمر وطنيًا، ثم سكرتيرًا للمتعاون ابراهيم كنج حتى ١٩٣٦، ثم عاد وطنيًا عنيفًا ضد الفرنسيين وعضوًا في البرلمان بدمشق قبل تعيينه استاذاً للعربية في دار المعلمين العالية ببغداد حيث يقال إنه أيد ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد بريطانيا ١٩٤١. أما جدّ الأسد، سليمان، فلم يتفق مع الانتداب قط ولم يذعن للمتعاونين الذين كانوا مدينين ببروزهم للفرنسيين. وحدث ان ثمانين شخصًا من هؤلاء المتعاونين وقّعوا على رسالة كتبها ابراهيم كنج لرئيس الوزراء الفرنسي ١٩٣٦ وقال فيها إن الغالبية العظمى من العلويين يرفضون الانضمام لسورية ويرغبون في البقاء تحت الحماية الفرنسية. حصل ذلك بينما كان في باريس

وفد سوري يحاول التفاوض على معاهدة فرنسا تكون خطوة على الطريق نحو الاستقلال. وكان من بين المواضيع المهمة بين فرنسا والوطنيين مصير الدويلتين اللتين خلقتهما فرنسا، الدويلة العلوية والدويلة الدرزية. كان الوطنيون يريدون توحيدهما مع سورية، بينما كان الفرنسيون يركزون على وضعهما الخاص ويريدون إبقاء حاميات فرنسية فيهما (... وكان عزيز الهواش ابرز علوي وقف في صف الوطنيين السوريين...). وفي شباب الأسد كان الرجال عندما يتحدثون في السياسة يتداولون اسماء كنج وعباس وهواش. غير ان كل هذه الشخصيات سواء أكانت من المتعاونين أم من الوطنيين كانت تطغى عليها شخصية سليمان المرشد المزخرفة المتوهجة، رجل الدين والسياسة، الذي كان هو نفسه يمشي على الحبل المشدود بين السلطة الفرنسية ودمشق (...) إلى ان رأى الفرنسيون ان هذا الواعظ الشاب- سليمان المرشد- أخذ يتطور إلى سياسي يمكنهم ان يستخدموه (...) فبدأوا بتضخيمه والرفع من شأنه... فاصبح لديه، في ١٩٣٩، ٥٠ ألفاً من الأتباع وترسانة من السلاح زوده بها الفرنسيون (...) وفي اعقاب رحيل آخر جندي فرنسي عن سورية (نيسان ١٩٤٦)، بدأت دمشق باخضاع تلك الاجزاء التي سادت فيها النزعة الاقليمية والتي شجعها الفرنسيون على الميل للانفصال، مثل جبل الدروز، وبدو العشائر في الصحراء، وجبل العلويين. فارسلت قوات ضد مقر قيادة المرشد... واعتقل سليمان المرشد وأُخذ إلى دمشق حيث تمّ شنقه في ساحة المرجة في تشرين الثاني ١٩٤٦. وفي ١٩٥٢، وخلال عهد أديب الشيشكلي قُتل أحد أبناء المرشد، واسمه مجيب بعد ان زُعم انه كان يحاول احياء مطامح أبيه الانفصالية» (باتريك سيل، المرجع المذكور اعلاه، ص٣٧-٤٢). وبعد ان يقدم سيل وصفاً موجزًا لحياة العلويين البائسة طيلة عهد الانتداب مستندًا إلى مقابلاته مع المعمّرين وإلى كتاب جاك ويلرس الشهير «بلاد العلويين» (طبع مدينة تور سنة ١٩٤٠)، يخلص إلى رسم صورة مغايرة أخرى لحياة نشطة ومزدهرة بدأ العلويون يتحصلونها منذ الخمسينات والستينات، وقد «شقوا طريقهم إلى القمة بالقتال وبالدراسة» (ص٧٣٧).

ولكن، من هم العلويون؟

كان العلويون يعرفون أصلاً باسم «النصيرية» نسبة إلى مؤسس هذا المذهب، أو الداعية الرئيسي له الفقيه الشيعي محمد بن نصير في القرن التاسع (تسمية «العلويون» حديثة وتعود إلى ايام الانتداب). ونتيجة للاضطهاد الديني الذي ألحقه السنّة بهم، لجأوا «إلى انتهاج فلسفة التقية التي تقوم على الازدواجية الحذرة التي تبرر إخفاء معتقداتهم الحقيقية. وعندما استعاد المذهب السني سيطرته واصبحت له اليد الطولى لجأت تلك الجيوب الطائفية إلى كل مكان استطاعت ان تجده... والعلويون يقولون بأن اجدادهم اتجهوا غربًا نحو الابيض المتوسط قبل عدة قرون قادمين من جبل سنجار المعقل الحصين في جبال العراق الحالي، وقبل ذلك من الجزيرة العربية» (سيل، ص٢٢؛ ويوافقه إلى حد بعيد بيار غينغمسب في كتابه-بالفرنسية-«حافظ الأسد وحزب البعث في سورية»، ١٩٩٦، ص٣٥).

ويتابع باتريك سيل بنبذة موجزة عن تاريخ العلويين (ص٢٣-٢٥، مستندًا إلى: صاموئيل ليد: «الأنصارية والاسماعيلية»، لندن ١٨٣٣، و«اللغز الآسيوي»، لندن ١٨٦٠؛ وإلى رينيه دوسو، «تاريخ ودين النصيريين»، باريس ١٩٠٠؛ وسليمان أفندي الأضنة، «كتاب الباكورة السليمانية»، بيروت ١٨٦٣، وقد ترجمه إلى الانكليزية ادوارد سالزبوري في «مجلة الجمعية الشرقية الاميركية»، المجلد الثامن، ١٨٦٤؛ وهنري لامنس، «دراسات دينية»، باريس ١٨٩٩، وكذلك كتابه المعنون «سورية»، باريس ١٩٢١،

وكتاب «الاسلام»، باريس، ط٢، ١٩٤١؛ و«الموسوعة الاسلامية المختصرة»، طبع ليدن بهولندا ١٩٥٣؛ وفيليب حتي، «تاريخ سورية»، لندن ١٩٥١، ص٥٨٦):

«تاريخ الاعتقاد لدى النصيرية يلفه الضباب الغامض فعلاً. وتأتي اولى الاشارات إليها من الكتابات الجدلية الدرزية في القرن الحادي عشر عندما قام الدعاة النصيريون بالتبشير في صفوف الدروز الذين وصلوا آنذاك إلى جنوب لبنان، فأثار ذلك العمل غضب رجال الدين الدروز. ويظهر النصيريون في ذكر عابر في كتابات الصليبيين التاريخية وفي بعض حكايات الرحالة وتقارير القناصل الاوروبيين. ولم تبدأ أية محاولة جادة لإلقاء الضوء عليهم إلا في منتصف القرن التاسع عشر على يد صاموئيل ليد في كتابه «اللغز الآسيوي» المطبوع بلندن سنة ١٨٦٠ وقد بنى كتابه هذا على أول نص نصيري لفت انظار الباحثين الغربيين وهو كتاب يدعى «كتاب الشيوخ» اشتراه من تاجر مسيحي في اللاذقية وقع الكتاب في يده أثناء الغزو المصري لبلاد الشام في ثلاثينات القرن التاسع عشر. وجاء التقدم التالي في هذا الميدان بطبع كتاب رينيه دوسو سنة ١٩٠٠ تحت عنوان «تاريخ ودين النصيريين». وكان المرجع الأساسي الذي اعتمد عليه دوسو كتابًا طبع في بيروت سنة ١٨٦٣ من تأليف سليمان الأضنه، النصيري المرتد إلى النصرانية، والذي قتل فيما بعد بسبب ارتداده؛ وكان كتابه يحتوي على الأدعية الرئيسية، والتعاليم، وتفاصيل اعتقاداتهم الأساسية. وعلى هذه الأسس المهتزة كوّن الباحثون المحدثون صورة أكمل وأوضح للطائفة إلا انهم يعترفون بأن المسألة لا تزال «لغزًا لم يتم حل غوامضه إلا جزئيًا» كما يقول فيليب حتي.

«ويبدو مما لا شك فيه ان النصيريين هم فرع منشق عن المجرى الرئيسي للطائفة الشيعية الإمامية الاثني عشرية. ولقد كان تاريخهم عبر

الشيخ صالح العلي.

الشيخ سليمان الاحمد.

فلاّح علوي.

الألف سنة الماضية تاريخ بقاء عنيد في وجه الغزو والقمع. فالفرنجة في الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٨) استولوا على النقاط الحصينة في المعاقل الجبلية وأقاموا فيها قلاعًا. وفي اوائل القرن الثاني عشر انطلق الاسماعيليون الاقوياء من قاعدتهم في السهل في السلمية واقتحموا تلك الاماكن واقاموا قلاعًا كذلك في بلاد النصيريين حيث بقيت منهم جيوب حتى يومنا هذا وهم مختلفون مع جيرانهم باستمرار. وغزا صلاح الدين الجبل وطالب بالجزية. أما سلاطين المماليك الذين تبعوه في القرن الذي تلا ذلك فقد دحروا الاسماعيليين وطردوا آخر الصليبيين وحاولوا ان يعيدوا الانصاريين بالقوة إلى الاسلام السني. وعندما مرّ الرحالة المعروف ابن بطوطة بمنطقة الجبل في القرن الرابع عشر سجّل ان النصيريين أرغموا على بناء المساجد، أما الفقيه السوري ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨) المدافع عن المذهب السني فقد أدان النصيريين بأنهم أخطر من النصارى وحث المسلمين على الجهاد المقدس ضدهم، وهي فتوى لا تزال تعطي ذخيرة لخصومهم ومعارضيهم في القرن العشرين.

«وتلا ذلك في التسلط عليهم الاتراك العثمانيون الذين غزوا سورية في مطلع القرن السادس عشر وقاموا بمحاولة جديدة لفرض المذهب السني على النصيريين.

«وقد استمر الحكم العثماني إلى سنة ١٩١٨، وقوطع لمدة عشر سنوات بحكم المصريين اعتبارًا من ١٨٣٢ الذي لم يجلب للنصيريين أي فرج، بل كان يعني القمع الأكثر تنظيمًا والأشد قسوة، وفي ذلك الوقت كان سكان الجبال مدانين عمومًا باعتبارهم هراطقة مارقين منبوذين» (انتهى كلام سيل).

في كتاب «افريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر»، الفصل الثامن، قيد الطبع، كاتبه محمد الفاسي، وزير التربية ومدير الجامعات المغربية سابقًا، وفي معرض الكلام عن الدولة العلوية في المغرب، يضع الفاسي الهامش التالي: «يلقب بـ«علوي» جميع أحفاد علي بن ابي طالب، ابن عم الرسول صلعم، وزوج ابنته فاطمة الزهراء. لكن علويي سورية لا علاقة لهم بالخليفة علي».

وفي «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ج٤، ص١٨١) ان العلويين، «في معظمهم، من الشيعة الاثني عشرية رغم انهم لا يتبعون المراجع الشيعية العليا في النجف. ويأخذ معظم العلويين اجتهاداتهم الدينية عن الشيخ الحسين بن حمدان الخصيبي الذي يقال إن ضريحه يقع في جوار حلب. وقد ورد في كتاب «اعيان الشيعة» للسيد العلامة محسن الأمين انه كان موثوقًا من الشيعة الاثني عشرية. ويتشكل المجتمع العلوي من عشائر متحدرة أصلاً، حسب بعض المصادر التاريخية، من القبائل العربية في جنوبي شبه الجزيرة العربية وكانت قد هاجرت إما في العصور السابقة للاسلام وإما خلال الفتح العربي إلى شمال غربي سورية حيث اختلطت مع سكان المنطقة الآراميين».

وفي كتيب صدر حديثًا، لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن الخيّر، بعنوان «يقظة المسلمين العلويين في مطلع القرن العشرين» (مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٦، ص١٢-١٧) تأكيد آخر على صعوبة البحث التاريخي الذي لا يزال يلف كل دراسة تاريخية حول العلويين: «يصعب جدًا على الباحث في تاريخ العلويين ان يستند من كتبهم على التحديدات الزمنية ذلك لأنه لم يصل إلينا من آثار علمائهم شيء يبحث في غير الدين، اللهم إذا استثنينا بضع كتب في ترجمة الأولياء الصالحين من العلماء المدققين ترجمة دينية تشير إلى ملخص اعتقادهم وبعض اشعارهم الدينية. ويندر ان تذكر هذه الترجمات سنتي الولادة أو الوفاة، فلا

تكاد تخرج عما استثنيناها منه. لكن مع كل هذا فإن التدقيق في دراسة اساليب التعبير ومقابلة التراجم الجمة والتعمق والتقصي، كل هذا يبرهن على ان بدء الجمود كان في النصف الاول من القرن الثامن للهجرة، حيث تكاد اعمال المؤلفين تقتصر في ذلك الحين وما يليه على إعادة وتكرير ما كتبه سابقوهم من العلماء، دون ان يضيفوا شيئا يذكر لا من قبل التوضيح ولا من قبل حسن التبويب وسهولة المأخذ، وهذا يدل على قلة الاطلاع على شتى فروع العلوم وانواعها. ومن المعلوم ان جمود الخاصة يسبب انحطاط الجمهور. وها نحن اليوم نراقب نتائج ذلك الانحطاط بمرارة أسف مؤلمة».

وكذلك، تأكيد آخر من المؤلف الشيخ عبد الرحمن الخيّر (في كتابه المذكور) على إسلام العلويين: «النصيريون-كما كانوا يدعون من قبل-والعلويون-كما دعوا في عصر الاحتلال هم إحدى فرق الاسلام-رضي السفهاء المغرضون أم كرهوا، وأقرّوا ذلك أم نفوه-مسلمون إماميون وعرب أقحاح، قضت عليهم أسباب جمّة، أهمها ضغط بعض الحكام الظالمين في عصور التاريخ الاسلامي، ان يتجمعوا في جبال هذه البلاد، منذ بضعة قرون ونيف، ملتجئين من جور السياسة الخرقاء والتعصب الاعمى إلى احراج البلاد ومعاقلها المانعة، وإلى التكتم في إقامة شعائرهم الاسلامية الخاصة، والتساهل في التظاهر ببعض شعائر الاقوياء المسيطرين يومئذ، حفظًا لكيانهم الطائفي وحقنًا لدمائهم. وعلى توالي الايام اصبح التكتم شبه غريزة فيهم، ودخل ذلك التظاهر ببعض الشعائر الاجنبية عن الاسلام في عداد عاداتهم، لا يستنكره جمهورهم ولا تقره خاصتهم. وهذا ما جعل الظنون تحوم حول معتقداتهم، وذهاب الآراء في التخمين والتقول كل مذهب (...) وأبْين ما عرف به العلويون تخصصهم للاشتغال الدائم، منذ اقدم ايامهم حتى اليوم، بعلم التوحيد: أي معرفة الله تعالى بالبراهين العقلية المستندة إلى الشواهد النقلية من نصوص القرآن الكريم (...) ومن أظهر ما عرف به العلويون عنايتهم بالفلسفة الروحية العالمية ومقابلتها بالاديان الإلهية...».

الشاعر المعروف، أدونيس، لخّص، بكلمات قليلة، تاريخ العلويين ومعتقدهم الديني، وخاصة وجدانهم ومعاناتهم: «العلويون على المستوى الثقافي جزء اساسي من الشيعة. وليست لهم هوية تراثية منفصلة عن الهوية الشيعية. هيام العلويين بأهل البيت وبالحسين أعمق مما يوصف. مع ذلك ليست لديهم الاحتفال الشيعي التقليدي بمأساة كربلاء. هناك شعور بالاضطهاد والظلم والاهمال والتهميش، لكنه شعور قلما يجدون القدرة على التعبير عنه. اللهم إلا في القصائد التي يتناشدونها ويتداولونها في مجالسهم. شعور غائر مكبوت في النفس» («الوسط»، العدد ٢٥٣، تاريخ ٢ كانون الاول ١٩٩٦، ص٥٣).

* **بلودان:** بلدة ومصيف. تقع في قلب قمة جبل هو امتداد سلسلة جبال لبنان الشرقية، على علو ١٥٠٠م عن سطح البحر وعلى بعد ١٥٥كلم عن دمشق. تعد نحو ٦ آلاف نسمة، ويصبح عدد سكانها نحو ٢٠٠ ألف نسمة خلال الصيف، ويزورها نحو نصف مليون سائح في ايام العطل والاعياد. وتتوسط بلودان مصايف عدة، أشهرها سرغايا وعين صور من الشمال، مضايا وبقين من الجنوب، الجبل الشرقي من الشرق والزبداني من الغرب. وكانت غالبية أهلها، ولسنوات خلت، يعملون في الزراعة إلى جانب بعض الحرف الصغيرة وأعمال البيع والشراء. أما الآن وبسبب تحول بلودان إلى أهم مصايف سورية، فقد توجه الجميع إلى السياحة والاصطياف. ولا يكاد يخلو بيت فيها لا يعمل افراده اما في احد المقاهي أو الفنادق أو المحلات

التجارية، أو يؤجر بيته، أو غرفًا منه في الصيف. ويقال إن أول من شجع وفتح باب الاصطياف في بلودان هو القنصل البريطاني المستر ود سنة ١٨٦٩، وان جمال باشا اعتاد على قضاء بعض الوقت فيها في ١٩١٩.

بعض الدراسات السامية القديمة ذكرت ان بلودان كلمة آرامية مؤلفة من مقطعين: بلو، وتعني التفاح أو اللوز؛ ودان، تعني القرية. وعلى هذا، تكون بلد اللوز أو بلد التفاح. وهناك تعبير آخر لأصل الاسم يقول إن «بيل» إسم إله، ودان موقع أو معبد، وبهذا تكون معبد الاله بيل. وورد إسمها بالذال (بلوذان) في ديوان شاعر الشام ابن عنين الذي عاش في القرن السادس الهجري. وهناك اسماء قديمة تطلق على بعض احيائها، كزوراب باخوس نسبة إلى إله الخمر، وجبل يونان الشهير. وفي الزوراب دير قديم مهدم عثر فيه منذ سنوات على أثر برونزي يمثل بقرة على صينية كتب عليها «هدية من الصياد الظريف إلى إله الشمس»، وهو محفوظ الآن في المتحف الوطني في دمشق ويعود تاريخها إلى ٢٨٠٠ سنة ق.م. وعلى قمة وعرة وشاهقة (على علو ١٨٣٢م) بالقرب من بلودان يقع دير يونان وهو هيكل وثني قديم لا تزال بعض احجاره الضخمة المنحوتة ماثلة للعيان. وأورد المعلم بطرس البستاني عن بلودان في دائرة المعارف (قاموس العام لكل فن ومطلب) انها «قرية من لواء دمشق الشام تبعد عن دمشق نحو ٧ ساعات إلى جهة الشمال الغربي وهي ذات موقع حسن وهواء جيد ومياه طيبة وعدد سكانها نحو ٥٠٠ نفس ثلثاهم مسلمون والباقون روم أرثوذكس وبناء بيوتها غير جيد وأهلها يتعاطون الزراعة وأكثر محصولاتهم الفواكه والخضر والحبوب» (من تحقيق «الوسط»، العدد ٢٨٨، تاريخ ٤ آب ١٩٩٧، ص٤٥-٤٩).

* **تدمر:** قبل الكلام على تدمر الأثرية، نمر بإيجاز على تدمر الحديثة الملاصقة بتدمر الأثرية بل المتداخلة بها في بعض المواقع. أقصر الطرق إليها من دمشق يبلغ طوله ٢٤٥كلم. شوارعها واسعة متعامدة، وأبنيتها منظمة. «فالمدينة حديثة نسبيًا، وهذا ليس غريبًا إذا علمنا ان أهلها قبل ان ينتقلوا إليها كانوا يقطنون داخل وحول معبد «بل» حتى عام ١٩٢٩، و لم يكن يتجاوز عددهم آنذاك أكثر من ٤ آلاف نسمة. أما الآن فيقطن تدمر ٥٠ ألف نسمة على مساحة قدرها ٨ آلاف هكتار وتنعم بشكل جيد بالكهرباء وخطوط الهاتف والمدارس والمرافق العامة. أما بالنسبة إلى المياه فهي متوافرة بكثرة وتصل إلى كل منزل في المدينة لكنها كلسية وغير صالحة للشرب، وهناك بعض المعاناة في الحصول على المياه العذبة للشرب؛ لكن حديثًا اكتشفت بئر مياه عذبة تكفي المدينة مدة ٥٠ عامًا على الأقل، وقد بدأ تنفيذ مشروع ايصال هذه المياه إلى المنازل. يعمل معظم اهالي تدمر بالزراعة، وتحتل مزارع الزيتون والنخيل مساحات واسعة بالاضافة إلى زراعة المحاصيل الموسمية مثل القطن والحبوب. وهناك قسم من الأهالي يعمل في شركات الفوسفات التي لا تبعد كثيرًا عن المدينة، وقسم أكبر يعمل في التجارة حيث تعتبر تدمر سوقًا مركزيًا للبادية... وكثير من اهالي تدمر يعملون بتربية الأغنام والاتجار بها... وبتربية الجواد العربي والمحافظة عليه... وبصناعات يدوية وحرفية يأخذها السياح تذكارًا للمدينة من المحلات» («العربي»، العدد ٤٣٤، كانون الثاني ١٩٩٥، ص١٥٧-١٥٨).

أما تدمر الأثرية، فنمر بتعريف مختصر لها باديء الامر:

مدينة أثرية تقع في واحة وسط الصحراء السورية على طريق القوافل بين آسيا وموانيء المتوسط وبين روما عاصمة الامبراطورية آنذاك. في القرن الاول ق.م. احتلت تدمر مكانة تجارية مهمة تمر عبرها منتوجات الشرق الفاخرة باتجاه روما.

زنوبيا.

جانب من منحوتة تدمرية
في متحف اللوفر في باريس.

منظر عام لبقايا مدينة تدمر.

واستمر ازدهار المدينة حتى القرن الميلادي الثالث عندما قطع عنها حكام فارس الساسانيون طريق الخليج. ومنذ العام ١٧م كانت تدمر، التي اطلق عليها الاغريق والرومان إسم «بالميرا» (Palmyra)، ترزح تحت السيطرة الرومانية. وفي ٢٦٧م، حكمتها الملكة زنوبيا التي وقفت في وجه الغزو الروماني إلى ان أسرها الامبراطور أورليان في العام ٢٧٣. وفي العام ١٢هـ. (٦٣٣م) دخلها العرب بقيادة خالد بن الوليد. حضارة تدمر مزيج من العناصر اليونانية والرومانية المختلطة بمزايا حضارتي بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام (الآرامية، ثم العربية). أشهر آثارها: هيكل «بل» (٣٢م) وقد نبش حرمه الرئيسي، وكذلك معبد بعل شمشن والرواق الكبير والمسرح الروماني. وفي خراج المدينة، توجد مدافن تحتوي على معابد وابراج، واخرى تحت الارض، وجميعها مزخرف بنحوت ورسوم تدمرية.

كلمة «تدمر» تعني الاعجوبة باللغة التدمرية القديمة، كما كان يطلق عليها ايضًا «تدمرتو» وتعني الجميلة، والاسمان مطابقان لتلك البقعة القائمة وسط الصحراء، وليس أدل على ذلك من زعم عرب الجاهلية بأن الجن هم من قام ببناء تدمر، ولعلهم زعموا ذلك بسبب عظمة مبانيها ودقتها («العربي»، المرجع المذكور أعلاه، ص١٥١).

«أما أصل حياة هذه الواحة الشهيرة فهو نبع ماء عرف منذ القديم باسم «عين أفقا» وإليه يعود الفضل بقيام أول تجمع بشري في تدمر. وأفقا بالآرامية تعني «مخرج الماء». وهو حسب المصادر محفور بيد الانسان ويجري في كهف طوله ٣٥٠م حتى قوس النصر، ومن ثم يروي عبر ساقية مكشوفة كل بساتين المدينة من نخيل ورمان وزيتون، وحرارة مياهه ثابتة طوال السنة (٣٣ درجة مئوية) وهي مياه معدنية خالية من الجراثيم والطفيليات... وحرص التدمري قديمًا على هذا النبع ووزعت مياهه بأمر من إله الشمس «يرحبول» لإكسابه الطابع الالهي، وقد ظل معظم سكان تدمر يشربون منه حتى ١٩٦٣، إلا انه بدأ يخف تدريجيًا ربما لحفر بعض الآبار حوله، وللأسف فقد توقف منذ أشهر (أي في ١٩٩٥) نهائيًا عن التدفق، وخلت قناته من قطرة ماء واحدة، إلا ان الجهود تبذل حثيثًا لمعالجة هذه الأزمة... وإلى جانب عين أفقا هناك عدة آبار في تدمر كقناة آبار العمي، آبار المدينة، قناة ابي الفوارس... كما انتشرت الحمامات بشكل واسع وهي مقسمة على غرار الحمامات الحديثة...» («الوسط»، العدد ٢٥٠، تاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٩٦، ص٤٨-٤٩).

«يعود تاريخ تدمر إلى ما قبل القرن التاسع عشر ق.م. ولكن ذكرها كمدينة مهمة لم يبدأ فعلاً إلا مع الفتوحات اليونانية لبلاد المشرق في القرن الرابع ق.م. وخلال القرن الثالث ق.م. أصبحت تدمر إمارة مستقلة ذات نفوذ كبير، وبدأت تتوسع في تجارتها وقوتها حتى اصبحت خلال القرن الاول ق.م. قوة لا يُستهان بها. وعندما تحولت سورية إلى مستعمرة رومانية خلال القرن الاول ق.م.، اخذت تدمر تفقد تدريجيًا استقلاليتها لتتحول في ما بعد إلى مستعمرة رومانية كسائر المدن السورية آنذاك. وبلغت تدمر عصرها الذهبي خلال القرن الثاني بعد الميلاد، إذ وصلت تجارتها إلى الهند والصين وايطاليا في الغرب واقترنت شهرتها باسم ملكتها زنوبيا التي لمعت كثيرًا بجمالها وقوة سلطتها خلال القرن الثالث الميلادي، فتحدّت سلطة الرومان ودخلت الحرب ضدهم، لكنها خسرت في النهاية على رغم بعض الانتصارات المهمة. وظلت تدمر تلعب دورًا مهمًا في التجارة العالمية بعد زنوبيا، ولكن شمسها الساطعة أفلت نحو الغروب ابتداء من نهاية القرن الرابع. ومع نهاية القرن الخامس دخلتها قبائل الغساسنة العربية. ومع انها حافظت على بعض

لمعانها خلال العصر الاموي، لكن شهرتها انطفأت نهائيًا خـلال العصر العباسي وتحولت إلى مدينة صغيرة عادية. وكان شعب تدمر مؤلفًا من اكثرية آرامية واقلية عربية، والتاريخ يشهد على الاندماج الكامل بين الفئتين. وكما لعبت الاقلية الآرامية دورًا كبيرًا في تاريخ الأنباط، كذلك لعبت الاقلية العربية دورًا كبيرًا في سياسة تدمر وانتشارها التجاري العالمي. حتى ان هندسة مدينة تدمر، التي هي مزيج من الفن السوري بشتى اشكاله الارامية واليونانية والرومانية، تُظهر بصمات التأثير العربي من نواح عدة، خصوصًا في الشعائر الدينية» (شفيق ابو زيد، «الحياة»، العدد ١١٧١١، تاريخ ١٥ آذار ١٩٩٥، ص١٨).

أما أهم معالم تدمر الأثرية، فهي:

– أحدثها عهدًا، قلعة فخر الدين المعني الثاني الكبير الذي تمكن من بسط إمارته التي امتدت لتشمل إضافة إلى جبل لبنان، اجزاء واسعة من سورية حتى وصلت إلى حدود الاطراف الشرقية للبادية السورية شاملة بذلك مدينة تدمر (اواخر القرن ا لسادس عشر–مطلع القرن السابع عشر). وتسمى هذه القلعة ايضًا قلعة «ابن معن». تقع على قمة جبل إلى الغرب من آثار مدينة تدمر بارتفاع نحو ١٥٠م فوق سطح المدينة. يحيط بسورها العديد من الابراج الدفاعية. وثمة رأي يقول إن القلعة كانت قائمة قبل الأمير المعني، ويعيد أصحاب الرأي تاريخ بناء القلعة إلى العهدين الأتابكي والايوبي. و لم تكتسب هذه القلعة شهرة كبيرة، لأن عظمة مدينة تدمر باسوارها ومعابدها وساحاتها وشوارعها ومسرحها ومدافنها وأعمدتها الضخمة التي تزيد على الف عمود، قد طغت على القلعة المعنية وساهمت في الاقلال من شأنها، يضاف إلى ذلك حجم القلعة الصغير نسبيًا ودورها المحدود في سياق الاحداث التاريخية بالقياس إلى الادوار التي لعبتها قلاع سورية أخرى.

– المتحف: يقع عند مدخل المدينة في ساحة الملكة زنوبيا. على مدخله الخارجي تمثال أسد تدمر المكتشف في معبد اللات في ١٩٧٧، وهو من منحوتات القرن الاول ق.م.. وفي داخل المتحف غرف مخصصة للحضارات المختلفة المتعاقبة في تدمر والمنطقة، وآثار أخرى غربية وشرقية وجدت إثر غزو أو فتح، أو إثر علاقات وصداقات مع شعوب أخرى. وأهم معروضات المتحف لوحة تحوي موجزًا عن اللغة والكتابة التدمرية وأبجديتها وارقامها. واللغة التدمرية لهجة آرامية. وتمتلىء قاعات المتحف بتماثيل الآلهة والقادة، والواح عليها كتابات تدمرية وعملات قديمة تعود لعدة حضارات، وأوان خزفية، ومومياوان محنطتان تعودان إلى بداية القرن الميلادي الثالث، وهما لشخصين من عامة الشعب، مما يدل على ان التحنيط كان متبعًا وبشكل واسع في تدمر. وفي إحدى قاعات المتحف مذبح يمثل الربة العربية اللات (رمز الحرب والسلام).

– وادي القبور: أولى التدمريون عناية فائقة بمدافنهم واطلقوا عليها إسم «بيوت الابدية». وكان لكل أسرة مدفنها. ومن المشاهد التي تثير الاعجاب في مدافن التدمريين مشهد «الوليمة الجنائزية» الذي يتصدر عادة الجناح الرئيسي في المدفن، وهو تمثال يجمع مؤسس المدفن وزوجته واولاده الممسكين بأكاليل الغار في لقاء رمزي. واعتمد التدمريون في مدافنهم اربعة انواع هي: البرجية والارضية والبيتية والفردية. ولعل النوع البرجي (ثلاثة أو اربعة طوابق) أندرها، إذ لا وجود لمثله في مدن الشرق القديم.

– المسرح: يقع على يسار الشارع الطويل بين معبد «نبو» وميدان المدينة (الأغوار)، وهو شيد على شكل نصف دائري. ولكثرة ما فيه من أعمدة مزينة واتقان معماري، ولصغر حجمه، اعتبره المؤرخون انه كان مسرحًا للخاصة من الناس، وقالوا انه لا بد من وجود مسرح كبير لا يزال مدفونًا، كغيره من آثار تدمر، تحت الرمال،

قوس النصر والشارع الطويل في تدمر.

المسرح الدائري في قلب اطلال مدينة تدمر.
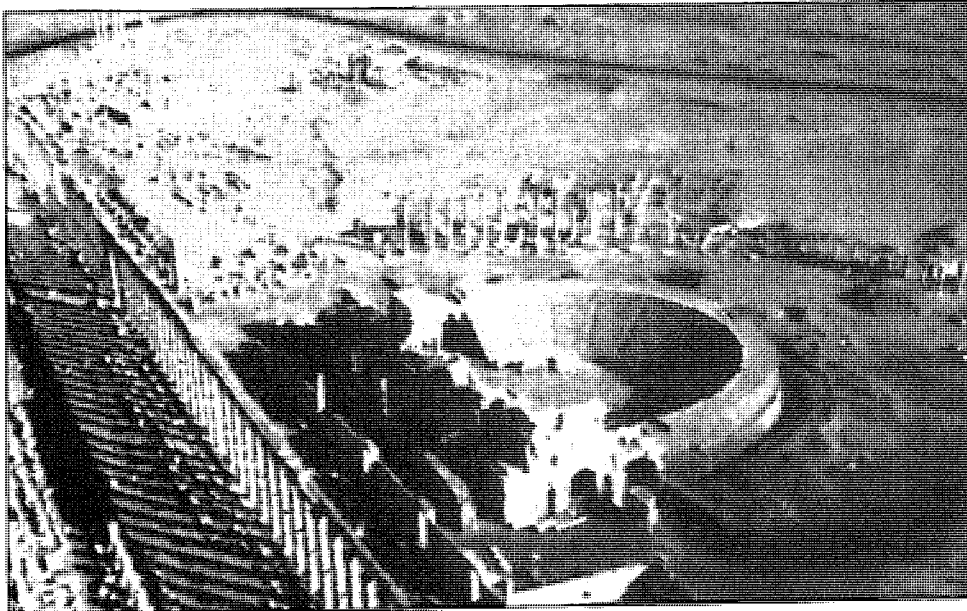
قلعة فخر الدين المعني في تدمر.

منطقة المدافن البرجية... لكن باطن الارض يحوي مدافن من نوع آخر.

أو لعل ايدي الرومان التي حطمت أغلب معالم المدينة أتت عليه. وخارج المسرح، يقوم الميدان أو السوق الرئيسية حيث تعقد الاجتماعات العامة وتتم المبادلات التجارية.

– وفي تدمر القديمة، هناك الكنائس والاسوار ومعسكر ديوقلسيان وبوابة دمشق والمصطبة التي تسمى (التترابيل) وهي مفترق الطريقين الرئيسيين. وكذلك الكثير من المعابد، كمعبد بل الذي اقيم على أنقاض معبد آخر واعتبر مقرًا لمجمع الارباب التدمريين، وهو يشابه في زخرفته هياكل بعلبك التي قامت بعده بنحو قرن. وهناك معبد نبو ومعبد بعلشمين ومعبد اللات ومعبد بلحمون ومناة. وقد أطلق عدد من علماء الآثار على مدينة تدمر القديمة الكثير من الأسماء والألقاب نتيجة لفخامة عمارتها وضخامتها وامتدادها على مساحة واسعة. ومن بين تلك الالقاب، لقب «مدينة المعابد». وكان لموقع المدينة في وسط البادية السورية كنقطة التقاء واستراحة وتموين للقوافل التجارية العابرة من الشرق إلى الغرب وبالعكس، اثر اساسي في تنوع المعابد؛ إذ تأثرت المدينة-المملكة بما كانت تلك القوافل تحمل من ثقافات وعبادات مختلفة. وهذا ما يمكن ملاحظته عند إلقاء نظرة سريعة على معابد المدينة واسمائها: معبد «بل» خصص لعبادة بل-مردوخ البابلي، ومعبد «بعلشمين» لعبادة الرمز الكنعاني على الساحل السوري بعل، ومعبد «اللات» لعبادة اللات الربة الأم عند العرب القدماء... وهكذا. وهذا الأمر بالذات، الذي تتشابه به إلى حد كبير المدن-المحطات التجارية كمدينة تدمر، جعل أكثر المؤرخين يقولون بأن مدن القوافل ليست محطات تجارية بقدر ما هي قواعد حضارية متقدمة.

ولا بد من الاشارة، في متابعة منطقية لأهمية تدمر اثارًا وتاريخًا ودورًا، إلى ان متحف اللوفر الفرنسي، الذي اصبح منذ اواخر ١٩٩٣ أكبر متحف في العالم، يضم في صالاته المخصصة للفنون السورية في القرون الاولى بعد الميلاد منحوتات رائعة من تدمر. وقد اصدرت إدارة المتاحف الوطنية في باريس (في ١٩٩٣) كتابًا بعنوان «آثار تدمر في متحف اللوفر» أعده فريق من البحاثة. وينقسم الكتاب إلى قسمين: الاول، حول تاريخ تدمر السياسي والاجتماعي؛ والثاني يحتوي دراسة مفصلة لأبرز المنحوتات التدمرية في اللوفر التي تبلغ ٩٢ منحوتة حصلت إدارة المتحف على القسم الأكبر منها في ١٩١٨. وكان الفرنسيون اظهروا اهتمامًا واضحًا بالحضارة التدمرية منذ القرن التاسع عشر.

وفي ٢٥-٢٨ ايلول ١٩٩٥، عقدت «جمعية آرام» لدراسة حضارات بلاد الشام وما بين النهرين ندوة دراسية عن مدينة تدمر في جامعة أوكسفورد البريطانية، وشارك فيها أكثر من ستين باحثًا جاءوا من مختلف انحاء العالم برعاية وزيرة الثقافة السورية الدكتور نجاح العطار.

* **تلبيسة، قرية:** راجع «حمص» في هذا الباب، «مدن ومعالم».

* **تل حلف:** راجع «رأس العين» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **جبلة:** مدينة سورية، على ساحل المتوسط حيث تمتد اراضيها بطول ٢٩كلم، تحدها منطقة القرداحة من الشمال والشمال الشرقي وجبال اللاذقية من الشرق. وهي أكبر مدينة في محافظة اللاذقية بعد مدينة اللاذقية. تعد نحو ٥٠ ألف نسمة، ويبلغ عدد قراها ومزارعها ١١٩ قرية ومزرعة إضافة إلى ناحيتيها: القطيلبية وعين الشرقية.

«يشتق إسم جبلة من «غابالا» Gabala، وهو الاسم الذي اطلقه الرومان عليها. وعندما

احتها ريمون دو سان جيل (الحروب الصليبية) غيّر إسمها ودعاها «زيبل». وعرّب العرب اسمها الروماني القديم، واطلقوا عليها اسمها الحالي. وتلقب جبلة بـ«الأدهمية» نسبة إلى السلطان ابراهيم بن أدهم (توفي ٧٧٨)، المتصوف الزاهد المعروف. وفي اليمن مدينة تحمل الإسم نفسه. وقد قال القرماني: «سميت جبلة باسم بانيها جبلة بن الأيهم الغسّاني... كما قال بهذا الرأي البغدادي في خزانته... والصحيح هو ما ذكرناه آنفًا» («المدينة العربية»، العدد ٣١، ايار ١٩٨٨، ص٥٤).

تاريخيًا: جبلة مدينة فينيقية. ورد ذكرها في الواح رأس شمرا (أوغاريت) التي تعود إلى القرن الرابع ق.م. وتاريخ هذه المدينة العريقة يعود إلى فترة ابعد من هذا التاريخ.فقد فتح الآشوريون جبلة وأصبحت في مرحلة تالية تابعة لمملكة أرواد الفينيقية. وأصبحت في القرن الخامس ق.م. مستعمرة يونانية، ثم اصبحت من ممتلكات الدولة السلوقية في عهد سلوقس نيكاتور. وفي عهد الامبراطور بومبيوس اصبحت جبلة مدينة رومانية وأولتها روما بعض العناية. وفي القرن الاول للميلاد تبعت جبلة بطريركية انطاكيا، ثم اصبحت مركزًا لأسقفية. تعرضت لزلزال عنيف في ٤٧٦. وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب فتحت جبلة على يد الصحابي عبادة بن الصامت الانصاري في ٦٣٧. وفي العهد العباسي تبعت جبلة بغداد مركز الخلافة، ودمشق مقر الوالي. وفي ٨٦٤، تبعت ولاية حمص وأصبحت ضمن إمارة سيف الدولة الحمداني. استولى عليها الروم في ٩٦٨، وعادت إلىالحظيرة الاسلامية في ١٠٨٠، ثم احتلها ريمون دو سان جيل في ١٠٩٨ (الحملة الصليبية)، وفي ١١٠٩ احتلها القائد البيزنطي تنكرد. ثم استولى عليها صلاح الدين الايوبي في ١١٨٨، ثم احتلها الظاهر بيبرس في ١٢٨٥، واصبحت في ١٥١٦ مدينة عثمانية. ضربتها الكوليرا في ١٨٧٥. وفي ١٩١٨ احتلها الفرنسيون بعد إنزال قواتهم على الساحل السوري إلى ان غادروها في ١٩٤٦. تحولت في عهد الاستقلال من قضاء إلى منطقة. بدأت تعرف حركة ازدهار منذ ١٩٦٣. تلقب بـ«مدينة القسام» على إسم أحد أبنائها المجاهدين، عز الدين بن عبد القادر القسام.

أشهر معالمها التاريخية:

- القلعة والمسرح الروماني: تقع في مركز المدينة، بنيت في القرن الخامس الميلادي. يتسع المسرح لنحو ٨-١٠ آلاف متفرج. وصفه أرنست رينان بأنه «من أجمل الآثار الرومانية على الساحل الفينيقي». في ١٩٥٠-١٩٥٢، رفعت الدولة الانقاض عن القلعة والمسرح، فاصبحا مقرًا لاحتفالات ومهرجانات الفنون الشعبية. إضافة إلى هذه القلعة، في جبلة قلاع أخرى، أهمها: قلعة بني قحطان وقلعة القلع.

- جامع السلطان ابراهيم بن ادهم: بني منذ أكثر من تسعة قرون، ويضم ضريح المتصوف الشهير ابراهيم بن أدهم، ويقع على بعد ٩٠م. من المدرج الروماني.

- الجامع المنصوري: يقع في حي زقاق البحر، ويوجد على أحد مداخله كتابة عربية كوفية تعود إلى ١٠٩٥. تحول إلى كنيسة ايام الصليبيين. وهناك نقش آخر يعود إلى ايام المماليك (١٣٥٠). كان الشيخ عز الدين القسام خطيب هذا الجامع وإمامه قبل ان يغادر سورية إلى فلسطين ويفجّر هناك الثورة التي ارتبطت باسمه.

- التلال الأثرية: في جبلة مجموعة كبيرة من التلال الأثرية. ويعتبر تل سوكاس أشهرها. يقع جنوبي جبلة على بعد نحو ٦كلم ويشرف على البحر مباشرة. يعود أعمق طبقاته إلى الألف السادس ق.م. اكتشفت فيه لقى ثمينة موجودة حاليًا في متحف دمشق الوطني (في قاعة حضارة سورية الساحلية): جرة فخارية، نماذج من الاسلحة البرونزية، واختام اسطوانية.

* **الجزيرة**: يطلق هذا الاسم على الهضبة المنبسطة بين الفرات ودجلة. يقع القسم الغربي منها في سورية، والقسم الشرقي في العراق، وترتسم الحدود بين البلدين حوالي ٥٤كلم شرقي الخابور.

بدأت الحياة الزراعية في الجزيرة في الألف الثامن ق.م. وسارت جنبًا إلى جنب مع حياة البدوي الراعي للأغنام. وتدل الابحاث الأركيولوجية على ان الحضارة في سورية عاشت فترة ازدهارها الاولى في الألف السابع ق.م.

لقد كانت الجزيرة، لوقوعها جغرافيًا بين مجالات الحضارة السورية القديمة والحضارة الآشورية البابلية، وسيطًا للتبادل بين التراث الحضاري المتوسطي والأناضولي والآشوري-البابلي. فهي، لذلك، غنية بالمعطيات التاريخية منذ فجر التاريخ وحتى العهد العثماني. أهم موقعين تاريخيين مهمين في الجزيرة: ماري ودورا أوروبوس.

– ماري والعموريون (١٩٠٠-١٧٥٨ق.م.): تمكن العموريون حوالي ١٩٠٠ق.م. من تولي زمام الحكم في ماري، وذلك انطلاقًا من ترقا (تل العشارة) الواقعة على بعد ٦٠كلم فقط شمالاً، وبهذا عاشت هذه المدينة المئة والخمسين سنة الأخيرة من تاريخها الزاهر تحت سيادة السلالة العمورية التي لمعت في نهايتها الشخصية التاريخية البارزة الملك زيمري-ليم الذي تعتبر فترة ولايته من افضل الفترات الموثقة تاريخيًا وذلك بفضل لقى السجلات الكتابية في قصر ماري. وتكشف الالواح المسمارية (وعددها بالآلاف) عن علاقات ماري الدولية وتعطي صورة عن توسع منطقة نفوذها في حوض الخابور والفرات باتجاه المنبع حتى مصب البليخ (راجع «سورية»، ج٩، العنوان الفرعي «إيبلا وماري، أقدم مملكتين في سورية، ص٣٣٢-٣٣٣).

– دورا أوروبوس: إسمها حاليًا «الصالحية». بنيت حوالي العام ٣٠٠ق.م. كمستعمرة عسكرية، على أنقاض سلفها دورا السامية، وتبعًا لسياسة الاستيطان السلوقية التي كانت تعتمد انشاء مستعمرات عسكرية، إلى جانب بناء المدن الجديدة، لحماية المملكة. وجاء تأسيسها منذ بادىء الأمر كمدينة محصنة ذات قلعة ممدودة على طول سفح الفرات الشديد الانحدار لحماية طريق الفرات الرابط بين سورية والمنطقة البابلية. وعندما احتل البارثيون دورا أوروبوس في ١٢٠ق.م. تسامح الحكام الجدد معها وأبقوها مدينة إغريقية. ثم غزاها الرومان وجعلوا منها حصنًا يحمي الحدود على الفرات في منتصف القرن الثاني الميلادي. وكان انحطاط المدينة بدأ مع الساسانيين الفرس الذين غزوا المملكة البارثية، فدمروا المدينة وهجروا سكانها خلال حملة شابور الاول على سورية (٢٥٦ق.م.).

دير الزور أهم مدن الجزيرة.

* **جسر الشغور**: مدينة سورية تقع على نهر العاصي إلى الجنوب الغربي من مدينة أدلب، وتبعد عنها نحو ٥٠كلم. وهي قاعدة منطقة (من مناطق محافظة أدلب) جسر الشغور. شهيرة بجسرها (جسر الشغور) الذي كان يمر من فوقه رصيفان رومانيان، الاول يتجه من اللاذقية إلى حلب، والثاني من أفاميا إلى انطاكية. ويطلق اهالي هذه المدينة عليها لقب «جنة الفردوس» و«أم الجسرين)، كما تعرف باسم «درة العاصي». ويقول العلامة الأسدي في موسوعته «ولا نعلم سبب تلقيبها بقولهم «بز الدنيا»... عسكر فيها صلاح الدين الايوبي قبل هجومه على حصون الصليبيين المجاورة (١١٨٨). وقد ورد إسم المدينة في دائرة المعارف الاسلامية ولكن تحت إسم «جسر الشغُر».

من البلدات الشهيرة في ناحيتها، بلدة دركوش التي يمر في وسطها نهر العاصي، وتبعد ٢٥كلم عن جسر الشغور. إسمها مشتق من ديركوشن بن كنان. يبلغ عدد سكانها نحو ١٥

ألف نسمة. تشتهر بصناعاتها اليدوية كصناعة الفخار وشباك الصيد واطباق القش وسلال القصب وقوارب الصيد. فيها العديد من الآثار والخرائب الرومانية.

* «**جنة علماء الآثار الجديدة**»: هذه التسمية أطلقتها مجلة «إكسبرس» الفرنسية في عددها الصادر في اول ايلول ١٩٩٤ وفي تحقيق طويل تحت عنوان «معجزات التنقيب الأثري في سورية» (نشرته «النهار»، معربًا، في عدديها: ١٢ و٢٧ ايلول ١٩٩٤)، وركّزت على آخر المكتشفات في أوغاريت وماري وإيبلا وتدمر... وسواها (راجع ج٩، ص ٣٣٢-٣٣٤ من هذه الموسوعة بخصوص أوغاريت وماري وإيبلا، وفي هذا الباب «مدن ومعالم» بخصوص تدمر وغيرها من المدن والمواقع الأثرية). وهذا بعض ما جاء في التحقيق المذكور:

في ١٩٩٣، عثرت بعثة سورية-يابانية مشتركة تنقب في شمالي حلب، في تلال عفرين، على هيكل عظمي لطفلة نياندرتالية (إنسان العصر الحجري من نوع «نياندرتال» الذي عاش بين ٨٠-٣٥ ألف سنة ق.م.)، ويعتبر الأقدم في المنطقة. وهذا يثبت ان هذا الجزء من العالم، بين البحر الابيض المتوسط وسلسلتي جبال الأناضول وطوروس، شهد مرورًا والتقاء واستقرارًا لأول الكائنات البشرية «المتطورة» منذ العصر الحجري القديم (العصر الباليوليتي). فسورية الواقعة عند ملتقى القارات الثلاث، الاوروبية والافريقية والآسيوية، يحتوي كل شبر من ارضها على آثار الحضارات العظيمة. وتعيين السيد سلطان محيسن، من وزيرة الثقافة الدكتور نجاح العطار، في منصب مدير عام الآثار والمتاحف في سورية لم يكن وليد الصدفة. فهو أخصائي بعصور ما قبل التاريخ ومعروف بين زملائه، وأنهى تدريبه في جامعة ليون

ملصق معرض «سورية، ذاكرة وحضارة» الذي اقامه معهد العالم العربي في باريس بين ١٣ ايلول ١٩٩٣ و٢٨ شباط ١٩٩٤.

وفي كهوف بريغور Perigord في فرنسا، وهو الذي كان يترأس عمليات التنقيب في مغاور عفرين.

«ويبدو ان جميع ما تستند إليه الحضارة الغربية ولد هناك: الدين والزراعة، الكتابة والتنظيم العمراني، التجارة والشعر. وينتظر المؤرخ الكبير غبريال سعاده منذ ربع قرن ان يعترف العالم بعبقرية الارض التي ولد عليها، فهو يقول: في الشرق الاوسط، كان تاريخ الامبراطوريتين الكبيرتين: سومر وبابل. وهو محور الاهتمام إضافة إلى جيرانهما الاقوياء الفرس والحثيين. أما الآن فقد أدرك العالم ان هذه البقعة اتاحت للشعوب تبادل البضائع والافكار أكثر من شن الحروب».

يصعب على المرء ان يصدق ان البادية الحالية حيث تتناثر النباتات الشوكية كانت بين العصر الحجري القديم والفتح العربي مغطاة بالحقول والغابات. بضعة قرون من الجفاف كافية كي تنضب الينابيع وكي تتغير طبيعة شمال البلاد. بيد ان هذه المساحات الرملية المغرية اللون التي قلما تعرف الاودية، لا تزال تحتفظ بعظمتها الغابرة، ومنها تلك التلال الغريبة التي تشكلت من تفتت جدران المدن القديمة المبنية من اللبن. إذ انصب اهتمام العالم على تلال العراق فقط لاعتقاد الخبراء بعدم وجود حضارة عظيمة سوى في بلاد الرافدين. غير اننا نعلم الآن ان المدن-الدول التي ترقى إلى العصر البرونزي نشأت على امتداد طريق القوافل من الأناضول إلى الخليج العربي ومن البحر الابيض المتوسط إلى سوسة وبرسيبوليس. وعرفت هذه المدن التنظيم العمراني واستغلال الموارد المائية وكانت مجتمعاتها تعتمد على الفاعلية التكنولوجية أكثر من أي موقع آخر في الحقبة ذاتها، إذ بنوا الأسوار العظيمة والقنوات الكبيرة وأنشأوا شبكات الري على امتداد عشرات الكيلومترات. وهكذا استطاع الانسان الشرقي ان يسيطر بذكاء على بيئته. وابلغ مثال نواعير حماه على العاصي التي يبلغ ارتفاع بعضها ٣٠م والمستخدمة لرفع مياه النهر بغية الري. ويقول عبد الرزاق زقزوق مدير آثار حماه إنها صممت قبل خمسة آلاف عام (تنتهي المقتطفات من «الاكسبرس»).

واهتمام علماء الآثار في العالم بالمكتشفات الأثرية السورية يترجمه واقع تدفقهم، من مختلف الجنسيات، لا سيما من الجامعات الغربية ذات الخبرة الطويلة والتكنولوجية المتطورة جدًا، منذ نحو عقد من الزمن وإلى اليوم، على سورية، بحيث اضحت البقعة التي يستهدفونها بدراساتهم الاركيولوجية أكثر من أي بقعة في العالم. وكذلك معرض «سورية، ذاكرة وحضارة» الذي اقامه معهد العالم العربي في باريس (١٣ ايلول ١٩٩٣- ٢٨ شباط ١٩٩٤) والذي اعتبر أكبر معرض في نوعه اقيم حتى الآن في باريس، وتناول الحضارة السورية منذ فجر بزوغها ما قبل التاريخ حتى القرن التاسع عشر. وقد تضافرت جهود رسمية وعلمية عدة لاقامته، إذ جمعت الآثار خلال عامين من التحضير من متاحف سورية (دمشق، حلب، أدلب، السويداء، الشهبا، الرقة، تدمر، اللاذقية، حماه، آفاميا، دير الزور). كذلك الأمر بالنسبة إلى عدد من المتاحف الفرنسية (متحف السيراميك في سيفر ومتحف الانسان ومرصد باريس واللوفر...)، واستعارة نماذج أخرى من المتاحف الاوروبية، مثل متحف نورنبرغ في المانيا، وبنياكي في اثينا، والمتاحف الملكية في بروكسيل، إضافة إلى مجموعات خاصة.

يقول مدير البعثة الاوروبية، مارك لوبو، وهو بلجيكي الجنسية: «تحتل سورية الآن المكانة الاولى في العالم في ميدان النشاط الأثري، ويتواجد على ارضها حاليًا أكثر من ١٢٠ بعثة وفريق عمل وطنيًا وأجنبيًا. وثلث هذا العدد يعمل هنا في مساحة تقارب ٣٠ ألف كلم م. أي ما يعادل مساحة بلجيكا أو هولندا، وهو أكبر تجمع للبعثات الأثرية في العالم. ويتعدى نشاط هذه البعثات

مناطق غمر السدود التي يجري بناؤها. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعضًا من هذه البعثات: فالاميركيون يعملون في تل ليلان وتل المسيزر، ويتابع البريطانيون العمل في تل براك ويعمل الايطاليون في تل بري، والسويسريون في تل الحميدية، والالمان في تل الشيخ حمد، والهولنديون في حمام التركمان، والفرنسيون في تل مشنقة وتل أحمد دياب وترقه. وهناك إسبان وبلجيكيون وفرنسيون ودنماركيون وايطاليون يعملون إلى الشرق منا» («الحياة»، العدد ١١٣٥٧، تاريخ ٢٢ آذار ١٩٩٤، ص١٨).

وفي حديثه نفسه، قال الخبير مارك لوبو عن عمله: «كان عليّ ان أضيّق دائرة بحثي لاجعله أكثر تخصصًا، فاخترت فترة الألف الثالث ق.م. التي يعود هذا الموقع (تل البيدر) إليها. وهذه الفترة من تاريخ البشرية مهمة جدًا وتسمى مرحلة الثورة المدنية لأنها شهدت تشكل المدن، وتنظيم السلطات ونشوء الاختصاصات المهنية، وتطور الزراعة النوعي واتساع العلاقات التجارية ونمو الحرف والصناعات والغنى في الاحداث السياسية. لقد وضعت البشرية في هذه الفترة اللبنات الاولى التي قامت عليها حضارتها المعاصرة. وعندما ابحث عن تاريخ هذه الفترة فإنني أبحث عن اصول حضارتي شخصيًا».

* **الجولان:** ١- في الاسم: ورد في المنجد الجغرافي: «سميت الهضاب شرقي نهر الاردن بالجولان لنوعية الاتربة التي تسفّها الرياح، ولكثرة ما جرى على ارضها من حروب». وجاء في القاموس المحيط ان «الجَولان والجُولان» هو التراب الذي تجول به الرياح، وجَولان على وزن فعلان هو من الجَوْل، مصدر بمعنى الجماعة من الخيل المنتقاة. أما الجُول فهو البئر في جانب الجبل والفعل منه جَالَ، والمصدر جولة وجَوْلاً، ويضم جُوَّةً

(من «الوسط»، العدد ١٧٥، ٥ حزيران ١٩٩٥)

ومعناه جماعة الخيل والإبل ويكون بـالتحريك جولانـا، أي القـوم انكشـفوا ثـم كـروا علـى اعدائهـم». كمـا ورد الإسـم نفسـه في المصنفـات الكلاسيكية الاغريقية والرومانية بعد إضافة النهاية Tis فجاً بشكل Gaulanitis. والجولان هضبة مـن الارض ارتفعت وكانت تسمّى قديمًا بـ«الشـعْراء» أي الارض الكثيرة الاشجار، مما يـدل علـى ان اراضي هذه المنطقة كانت عامرة بـالاحراج، وهـي اشجار قصيرة تنمو ببطء.

٢- في المساحة والموقع: تبلغ مساحة هضبة الجـولان ١٧٥٠كلـم م.، وتمتـد مـن الشـمال إلى الجنـوب مسـافة ٨٠كلـم بعـرض ١٨-٢٠كلـم وارتفاع ٩٠٠-١٣٠٠م عن سطح البحر. وتعتبر الجـولان عمومًـا هضبـة مرتفعـة، وتتمـيز بوجـود مجموعة من التلال (تل وردة، تـل ابـو النـدى، تـل الفرس...)، وينتصـب جبـل حرمـون علـى شـكل حـاجز كبـير في الطـرف الشـمالي مـن الجـولان، ويتجاوز ارتفاع بعض قممه الألفي متر.

يشـكل موقـع الجـولان عمومًـا، ووسـطها خصوصًا، مركز دائرة يلامس محيطها أهـم المراكـز الحيويـة القائمـة في «بـلاد الشـام»، وهـي دمشـق وبيروت وعمان والقدس وتل أبيـب. ويقـع مركـز البطيحة في منتصـف المسافة مـا بـين دمشـق وتـل أبيب، أي نحو ٩٠كلـم في كـل اتجـاه. كمـا تبعـد مدينة دمشق عن خط وقـف اطـلاق النـار الحـالي بمقدار ما تبعـد مدينـة تـل أبيـب عـن خـط وقـف اطـلاق النـار في ٤ حزيـران ١٩٦٧ أي نحـو ٦٠كلم.

ففـي حزيـران ١٩٦٧، احتلـت اسـرائيل ١٢٥٠كلم م. من الجولان.ونتيجة حـرب تشـرين ١٩٧٣، استعادت سـورية ١٠٠كلـم م.. وتحتـل اسرائيل حاليًا (١٩٩٦-١٩٩٧) نحو ١١٧٦كلـم م. من اراضي الجولان، بما في ذلك نحو ١٠٠كلـم م. مساحة المناطق التي كـانت مجـردة مـن السـلاح وفق اتفاقية هدنة ١٩٤٩.

قبل تقسـيمات سـايكس-بيكـو (١٩١٦) كان إقليم الجولان ما يزال وحدة جغرافيـة بحـدود طبيعية معروفـة حتـى تقلّصـت هـذه الحـدود وفقـًا للسياسـة الدوليـة. فـاصطلاح الجـولان حاليًـا لا يشـمل سـوى الهضبـة، حيـث عُدلـت التسـميات الادارية في ١٩٥٣ في سورية، وأُطلـق إسـم قضـاء القنيطرة بدلاً من الجولان، علمًـا ان القنيطـرة هـي عاصمة الاقليـم (إقليـم الجـولان). وقـد تـأرجحت حدود الاقليم بين التوسع والانكماش، لهذا فـإن في غربي حوران قرية تدعى «سحم الجولان».

عـودة إلى الموقـع: تقـع منطقـة الجـولان في الزاوية الجنوبية الغربيـة لسـورية، والزاويـة الجنوبيـة الشـرقية للبنـان، والشـمالية الشـرقية لفلسـطين، والشمالية الغربية للاردن. ويبلغ طول جبهتهـا مـع فلسـطين ١٠٠كلـم، وعمقهـا ٢٠-٣٠كلـم. وتشرف الجولان على سهل الحولة الخصب وبحيرة طبريا. وبسبب هـذه الهيمنـة الطبيعيـة علـى الغـور وسهوله كثر الكلام عن «هضبة» الجولان للإيحـاء ان المنطقة مجرد مرتفعات قليلـة السـكان. والجدير ذكره ان هذه التسمية «هضبة» لا توردهـا سـورية في مصطلحاتها الجغرافية.

٣- في السـكان: في ١٩٦٧، كـان عـدد سكان الجولان قد بلغ ١٥٤ ألف نسمة، نحـو ٥٤ ألفًا في مدينة القنيطـرة (قـاعدة الجـولان)، وتـوزع الباقون على ما يقارب ٣١٠ قرى ومراكز سكنية. وقـام الاسـرائيليون المحتلون بتشـريد ١٤٠ ألـف نسمة بارغـامهم علـى مغـادرة قراهـم نـازحين إلى قرى ومدن محافظتي درعا ودمشق. لكن اهالي قرى مجدل شمس ومسعدة وعين قنية والفجر لم يغـادروا قراهم وتمسكوا بأرضهم.

تعيـش علـى ارض الجـولان مذاهـب وإتنيـات، غالبيتهـا العظمـى مـن العـرب. فهنـاك المسلمون مـن السنة والشيعة والعلويـة والتأويلية والاسماعيلية، وهناك الـدروز والشراكسـة، وهنـاك اليوروك (يرى بعض المؤرخين انهم لا يختلفون مـن

قبل اعادتها الى سورية قام الاسرائيليون بتدمير مساكن القنيطرة بصورة منظمة وفي خلفية الصورة المرتفعات التي لا تزال اسرائيل تعلن تمسكها بها.

حيث الاصل عن التركمان الذين قدموا من الاناضول)، والتلاّوية (اقوام من ذوي البشرة السمراء، يبلغ عددهم ٨ آلاف تلاّوي ويعيشون على اراضي طمي شديدة الخصوبة، حينما هُدّدوا من قبل الفئات الباقية لأنهم ليسوا اصحاب املاك استنجدوا بباشا كردي-من وجهاء دمشق يعيش في الجولان وله املاك كثيرة-فسجّل اراضيهم باسمه، فانقلبوا إلى فلاحين تحت إمرة عبد الرحمن باشا الكردي)، والزنوج (يتجمعون في قرية الرفيد ويرتبطون، عبوديًا، مع امراء قبائل الفاعور، شيوخ قبائل الفضل في الجولان).

أما التوزع المذهبي لسكان الجولان: ٨٥٪ من المسلمين هم من السنة، ويأتي بعدهم الدروز ثم العلويون ثم المتاولة (ويعني إسمهم «موتوا يا انصار علي»، وكان هذا شعارهم في معاركهم مع بقية المذاهب) ثم الاسماعيليون. والمسيحيون ينقسمون ايضًا إلى مذاهب بين الكنيسة الارمنية في القنيطرة، والكنيسة اليونانية التي يتوزع أتباعها على القنيطرة وحينة وعرنة وخسغبن وعين الشعرة، والكنيسة السريانية ويقطن أتباعها عين الشعرة وفيق، والموارنة ويتجمعون قرب القرى الدرزية.

٤- في الآثار: على ارض الجولان عدد من القلاع والحصون. مثل قلعة الصبيبة شرقي بانياس، وبرج فيق، وقلعة العال وغيرها في الجهة الجنوبية الغربية. وتوضح آثار الجولان تعاقب الحضارات عليها، خاصة لجهة دلالاتها الدينية: ربة المياه وربة الصيد (ديانا)، ورب الفنون والموسيقى ابولون وزيوس وهيراقليس وذو الشرى واسكولاب. وقد ضمّت المتاحف، من آثار الجولان، لقى فخارية وزجاجية ومعدنية وذهبية وحلي وأسلحة ونقود وغيرها.

ومن خلال الدراسات والمسح الأثري الذي أجراه العالم الالماني شوماخر عام ١٨٨٠ تبين وجود ٢٠٩ مواقع اثرية في الجولان، إضافة إلى مواقع عديدة مسجلة لدى وزارة الثقافة السورية. وتتوزع هذه المواقع حسب العصور التاريخية على النحو التالي: ١٥ موقعًا تعود للعصر الحجري؛ ٤٢ للعصر النحاسي القديم والوسيط والحديث؛ ٤ للعصر الهلليني؛ ٩٨ للعصر الروماني والبيزنطي؛ ٧٢ للعهد الاسلامي.

٥- نبذة تاريخية: في الألف الثالث ق.م. سكن الجولان الآراميون والعموريون، وشكلوا ممالك ومدنًا مثل بيت معكه، بيت رحوب، آرام صوبه وبيت جيشور. وسيطر الآشوريون على الجولان في ٧٣٢ق.م. فأنهوا بني اسرائيل في ٧٢١ق.م.، كما فعل بعد ذلك نبوخذنصر عام ٥٨٦ق.م. زمن الدولة الكلدانية.

ويؤكد المؤرخون ان القبائل الآرامية التي أسست ممالك في الجولان، أسست ممالك أخرى في جنوبي لبنان وجنوبي دمشق. وألحق الجولان بحكم الدولة الرافدية البابلية (القرن الثامن ق.م.)، ثم الدولة الفارسية (القرن السادس ق.م.) التي

شكل الجولان وحدة إدارية في عهدها، كان اسمها ولاية «عبر نهرا» أي عبر الفرات. وبعدها خضعت للاسكندر، وبعد وفاته آل الجولان إلى الامبراطورية البطليمية. وفي هذا العصر الهلليني شهد الجولان ازدهارًا عمرانيًا؛ وبعده، سيطرت القبائل العربية، من الأنباط والغساسنة، على الجولان (القرن السابع). وجاء الفتح الاسلامي ومعركة اليرموك الفاصلة التي رسّخت استقرار العرب في الجولان بقيادة ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد.

زار الخليفة عمر بن الخطاب، الجولان بعد فتح المسلمين القدس، وعقد فيها «مؤتمر الجابية» تداول خلاله قادة الجيوش المسلمة السبل الكفيلة بفتح باقي ارض الشام. وفي العهد الاموي صار الجولان مركزًا تجاريًا مهمًا لتموين دمشق، أما في العهد العباسي فقد تعرّض لأكبر كارثة حلت به بعد غزو القرامطة له. وفي ١١١٨، استطاع الصليبيون الاستيلاء على الجولان باستثناء قلاعه الحصينة كقلعة الصبيبة قرب بانياس وقلعة الحصن قرب فيق. وقد لعبت تلال الجولان وقلاعه وممراته خط الدفاع الاول عن دمشق وسائر بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، إلى ان تمّ تحريرها على يد صلاح الدين الايوبي قبيل معركة حطين الشهيرة التي جرت في طبريا والتي يطل عليها الجولان إطلالة مباشرة.

وفي فترة الانتداب الفرنسي، خاض سكان الجولان معارك عدة من اجل نيل الاستقلال، أهمها معركة قصر الخصاص الاولى والثانية بقيادة الامير محمد الفاعور (كانون الثاني ١٩١٨)، ومعارك مرجعيون ووادي الحرير والعرقوب وحباتا الخشب التي انتهت بمقتل قائدها أحمد مريود، فضلاً عن محاولتي اغتيال هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني في فلسطين، ومحاولة اغتيال الجنرال غورو الشهيرة على طريق دمشق-الجولان. وفي معارك فلسطين ١٩٤٨، خاض مواطنو الجولان أعنف المعارك، وأهمها الهجوم الشهير على منطقة كعوش حيث مركز التشكيلات اليهودية، ومعركة سمخ، وتحرير الغريزيات ليلاً بالسلاح الابيض بعد إخفاق الهجوم نهارًا.

في حزيران ١٩٦٧، احتلت اسرائيل الجولان. وفي حرب تشرين ١٩٧٣، أقامت اسرائيل وجهزت على قمة جبل الشيخ مرصدًا ضخمًا اعتبرته عينها ليس على سورية فقط بل على المنطقة برمتها. ولهذه القيمة الاستراتيجية للجولان شحنت الولايات المتحدة معدات واسلحة الوحدات العسكرية الاميركية المرابطة في المانيا إلى مناطق القتال عام ١٩٧٣ لنجدة اسرائيل عندما أطبق الجيشان السوري والمصري عليها بهدف تحرير الارض العربية المحتلة.

٦- الاطماع الاسرائيلية بمياه الجولان: في ١٤ كانون الاول ١٩٨١، قام الكنيست الاسرائيلي فجأة باتخاذ قرار عاجل يقضي بتطبيق القوانين الاسرائيلية على الاراضي الواقعة في منطقة الجولان المحتلة. وهذا القرار، وإن لم يستخدم كلمة «ضمّ» فعلاً، إلا انه جاء افتئات على سيادة الدولة صاحبة الاقليم شرعًا وهي سورية. وقد رددت وزارة الخارجية الاسرائيلية، ما يمكن اعتباره مقدمة لعملية الضم: «يمكنكم ان تسمّوا هذا القانون كيفما شئتم ولكن منطقة الجولان جزء من الارض الاسرائيلية، وهي من الناحية الجغرافية غير محدودة ولكنها تضم كحد أدنى كل الاراضي التي احتلتها اسرائيل في سورية عام ١٩٦٧، وزيادة على ذلك قد تمتد لتضم اجزاء من الاردن وجنوبي لبنان».

ومنذ احتلال اسرائيل الجولان، أيد الاسرائيليون، من مختلف اتجاهاتهم السياسية، إبقاءها تابعة لاسرائيل ليس بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي، الذي كان ذا قيمة كبيرة في السابق، أي قبل تهميش التكنولوجيا العسكرية المتطورة لدور العامل الجغرافي إلى درجة العدم تقريبًا، بل بسبب ما تزخر به من ثروات تأتي المياه في

مقدمتها.

في ١٩٢٠، وجه بن غوريون باسم اتحاد العمل الصهيوني مذكرة إلى حزب العمال البريطاني جاء فيها: «من الضروري ألا تكون مصادر المياه التي يعتمد عليها مستقبل البلاد، خارج الوطن القومي في المستقبل. فسهول حوران التي هي جزء من البلاد، يجب ألا تنسلخ عنها. لهذا طالبنا دائمًا بأن تشمل ارض اسرائيل الضفاف الجنوبية لنهر الليطاني واقليم حوران من منبع اللجاة جنوبي دمشق».

وجاء في المذكرة التي تقدمت بها المنظمة الصهيونية العالمية إلى المجلس الاعلى لمؤتمر السلام في باريس، في ٣ شباط ١٩١٩: «... وجبل الشيخ هو أبو المياه الحقيقي بالنسبة لفلسطين...». وعشية انعقاد مؤتمر سان ريمو الذي كان يبحث موضوع اقتسام سورية الطبيعية، وجه زعيم الحركة الصهيونية آنذاك حاييم وايزمان رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج جاء فيها: «... لا داعي للقول إن الصهيونيين لن يقبلوا تحت اية ظروف خط سايكس-بيكو حتى كأساس للتفاوض، لأن هذا الخط لا يقسم فلسطين التاريخية ويقطع عنها منابع المياه، التي تزوّد الاردن والليطاني فحسب، بل يحرم الوطن القومي بعض اجود حقول الاستيطان في الجولان وحوران....».

وتمتاز هضبة الجولان بغزارة امطارها وثلوجها؛ وتزيد كميات الامطار فيها عن ٥٠٠ملم في السنة (١،٥ مليار متر مكعب سنويًا). ويناسب تكوينها الجيولوجي تخزين المياه، فيقدر عدد ينابيعها بـ١٥٥ نبعًا. وإجمالي مياه الجولان تقدره اسرائيل بـ٢٠ مليار متر مكعب. ومن اهداف حرب ١٩٦٧، كما اعلنتها اسرائيل نفسها، السيطرة على منابع نهر الاردن واليرموك والتحكم في المياه الجوفية في المنطقة. هذه الغزارة في مصادر مياه هضبة الجولان جعلتها محط اطماع اسرائيل.

٧- وبالثروات الاخرى: نتج من تنوع التضاريس والمناخ في الجولان تنوعًا في الانتاج الزراعي يتراوح بين النباتات الاستوائية كما في منطقة الحمة التي تنخفض ١٢٦م تحت سطح البحر، ونباتات المناطق المعتدلة وحوض البحر الابيض المتوسط كما في غالبية مناطق الجولان السهلية والهضبة، ونباتات المناطق الباردة كما في سفوح جبل الشيخ شمالي الجولان. واكبر محاصيل الجولان هو القمح (ربع الاراضي المستثمرة)، ثم الشعير والحمص والعدس... أما زراعة الرز التي كانت ناشطة (٧٠٠ طن سنويًا) فبدأت تتناقص وحلت محلها زراعة التبغ الحديثة. الكرمة والزيتون من اقدم الاشجار المثمرة في المنطقة يليهما التفاح الذي شجعت الدولة زراعته، فتطور كمًا ونوعًا إلى درجة اصبحت فيه القنيطرة مركزًا لمعرض سنوي للتفاح، وتنتشر زراعته في المنطقة الشمالية المرتفعة في سهل المرج التابع لقرى مجدل شمس ومسعدة وبقعاثا. وتغطي الاحراج مساحات واسعة في الجولان تزيد عن ١٨١٢٨ هكتارًا وتغلب فيها اشجار السنديان واللزاب والزعرور والبلوط والدلب. وتشتهر الجولان بتربية الماشية (الابقار والجواميس) التي أدخلها الشركس إلى المنطقة، ثم الاغنام والماعز والخيول والدواجن.

أما المعادن، فالتنقيب عنها في الجولان حديث العهد بسبب وضع المنطقة السياسي والعسكري. ومع ذلك، فقد اكتشف الرصاص في كتلة جبل الشيخ (منطقة جباتا الزيت)، والنحاس في حوض عرنة، والرمل الكوارتزي المستغل في صناعة الزجاج ويكثر في منطقة جبل الشيخ. واضخم ثروة معدنية في الجولان هي المارن وهو موجود بكميات كبيرة في سلسلة جبل الشيخ، وهو يشكل الاساس لصناعة الاسمنت. وتعد المياه الكبريتية في منطقة الحمة من الثروة المعدنية المهمة في المنطقة.

فـ«الأهمية الأمنية استراتيجيًا» التي

للجولان بالنسبة إلى اسرائيل يبدو انها سقطت وانكشفت محلها حقيقة الاستيلاء للفوز بالثروات المائية وغيرها. وهذا باتريك سيل يكتب التالي («الحياة»، العدد ١٢٥٤١، اول تموز ١٩٩٧، ص١٨):

«والآن نجد امامنا تأكيدًا لافتًا للنظر من مصدر ليس باقل من الجنرال موشي دايان، وهو الذي أعطى الاوامر عام ١٩٦٧ بصفته وزيرًا للدفاع في اسرائيل بالاستيلاء على الجولان. وكان دايان، الذي توفي في ١٩٨١، قد أدلى بحديث صحافي قبل وفاته بخمس سنوات لمراسل شاب هو رامي تل و لم ينشر إلا في ٢٧ نيسان ١٩٩٧ في «يديعوت أحرونوت»، وأثار جدلاً كبيرًا في اسرائيل حول الأسباب الحقيقة للاستيلاء على الجولان، وحول أهميتها الاستراتيجية في الوقت الحاضر... ويتضمن الحديث تصريحًا لدايان يهدم الاسطورة التي روجتها اسرائيل حول الجولان من أساسها، إذ يقول إن اسرائيل لم تستول على الجولان لحماية أمن مستوطناتها بل طمعًا في الاراضي الخصبة. وذكر دايان لرامي تل: «أستطيع ان أوكد بثقة مطلقة ان الوفد الذي جاء لاقناع أشكول (رئيس وزراء اسرائيل في ١٩٦٧) بالاستيلاء على الجولان لم يكن يفكر في تلك الامور (يعني تهديدات الامن) بل في اراضي المرتفعات، و لم يحاول اعضاء الوفد إخفاء اطماعهم في تلك الارض». استغرق الامر (يتابع باتريك سيل)، ثلاثين عامًا لوضع الحقائق التاريخية في سياقها الصحيح وهذه خطوة جيدة وفي الاتجاه

دروز الجولان خلال مسيرة احتجاج في ذكرى ضم اسرائيل الهضبة (شباط ٩٧).

تنادي أقارب لها في القسم المحتل تسأل عن حالهم.

السليم، لكن هل يعني ذلك ان اسرائيل ستكون الآن على استعداد لاعادة الجولان إلى اصحابها الشرعيين؟ للأسف لا يوجد اساس لمثل هذا التفاؤل».

٨- ضم الجولان، والرفض: في ١٤ كانون الاول ١٩٨١، اتخذت حكومة مناحيم بيغن قرارًا سرعان ما وافق عليه الكنيست بالاغلبية، هذا نصه: «-إن قانون الدولة الاسرائيلية وصلاحياتها واداراتها ستطبق على مرتفعات الجولان؛ -يعمل بهذا القانون فور موافقة الكنيست؛ -يكلف وزير الداخلية تنفيذ هذا القانون».

لكن مجلس الأمن الدولي أصدر صباح ١٩ كانون الاول ١٩٨١ قرارًا بالاجماع رقم ٤٩٧، مستندًا إلى ميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي وقرارات مجلس الامن السابقة ذات الصلة بالاراضي المحتلة، نص على بطلان القرار الاسرائيلي المتعلق بالجولان والطلب من الدولة القائمة بالاحتلال (اسرائيل) إلغاء قرارها فورًا ودون إبطاء والاعلان ان كل احكام معاهدة جنيف الموقعة في ١٢ آب ١٩٤٩ المتعلقة بحماية الاشخاص المدنيين في اوقات الحرب، لا تزال سارية على الارض السورية التي تحتلها اسرائيل منذ ١٩٦٧.

الرئيس الاميركي، رونالد ريغان، أعرب عن «مفاجأته» بالقرار الاسرائيلي، لكنه رفض في الوقت نفسه الاجابة عما إذا كان على اسرائيل الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة بما في ذلك الجولان مكتفيًا بالقول: «إن ذلك متروك للمفاوضات المرتكزة على القرارين ٢٤٢ و٣٣٨».

ومنذ الايام الاولى للقرار الاسرائيلي بدأ مواطنو الجولان السوريون سلسلة من الاضرابات والاعتصامات، تخللتها أعمال عنف، و«بدت الطرق في الجولان ملأى بالدبابات والسيارات العسكرية وناقلات الجنود واعداد كبيرة من الشرطة التي نقلت من الجليل إلى الجولان»، وأصدروا «الوثيقة الوطنية لكافة المواطنين السوريين في المرتفعات السورية المحتلة»، أهم ما جاء فيها، بعد التأكيد على الهوية السورية والعربية ورفض الاجراءات الاسرائيلية: «-هضبة الجولان المحتلة جزء لا يتجزأ من سورية العربية؛ -الجنسية العربية السورية صفة ملازمة لنا؛ -لا نعترف بأي قرار تصدره اسرائيل من اجل ضمنا للكيان الاسرائيلي؛ -لا نعترف بشرعية المجالس المحلية والمذهبية لكونها عينت من قبل الحاكم العسكري الاسرائيلي؛ -قررنا قرارًا لا رجعة فيه وهو: كل من يتجنس بالجنسية الاسرائيلية أو يخرج عن مضمون هذه الوثيقة يكون مجحودًا مطرودًا من ديننا وترابطنا الاجتماعي ويحرم التعامل معه...». وجاءت هذه الوثيقة لتتوج اضرابًا استمر ستة أشهر وبدأ في ١٤ شباط ١٩٨٢. ولدى انطلاق الانتفاضة في ١٩٨٧، ساعدها سوريو الجولان بشاحنات الغذاء والدعم المادي لقطاع غزة، وساروا بعشرات المظاهرات في الجولان ضمت كلا منها أكثر من ٥-٦ آلاف وهو عدد كبير قياسًا على حجم سكان الجولان. ونظمت هذه المظاهرات ايضًا يوم «استشهاد ابو جهاد» (خليل الوزير)، ويوم مجزرة الحرم الابراهيمي وايام حصار المخيمات في لبنان.

٩- تهويد الجولان بالمستوطنات: يبقى ملف المستوطنات اليهودية والمياه في الجولان أهم الملفات وأكثرها تعقيدًا في مسار التسوية السلمية في المنطقة.

عن هذه المستوطنات، حتى ربيع ١٩٩٤، وعلى لسان الخبير السياسي السوري عز الدين سكاس، رئيس مركز «الارض للدراسات» التابع لوزارة الدفاع السورية والمعتبر مرجعًا سياسيًا لمفاوضات السلام إنها اصبحت ٤٥ مستوطنة، أكبرها كتشرين، يسكنها ١٦ ألف مستوطن، ٣٠٪ منهم عاملون في الجيش الاسرائيلي، و١٥٪

في الصناعة، و١٥٪ في الخدمات. يقابلهم ٥ قرى عربية، أكبرها مجدل شمس والقرى العربية الأخرى: الفجر، عين قنيا، مسعدة وبقعاثا. وقال سكاس ان الاسرائيليين يخططون لتوطين نحو ١٥ ألف مستوطن آخر في الجولان.

كان هذا في ربيع ١٩٩٤. وفي خريف ١٩٩٦، أكد تيسير مرعي، المدير العام لـ«الجمعية العربية للتطوير» التي تنشط في الجولان في سبيل احتفاظ سكان الهضبة العرب بهويتهم العربية السورية، ان اسرائيل تعتمد سياسة في الجولان تشبه إلى حد كبير سياستها في القدس الشرقية، وانها تتعاطى مع القرى العربية الخمس الباقية في الجولان والتي تضم الآن ١٦ ألف نسمة بعد ان كان عددها ١٣٩ قرية وعدد سكانها-برأيه- ١٣٩ ألفًا قبل الاحتلال، بطريقة تختلف عن تعاطيها مع سكان الضفة الغربية وغزة إذ تحاول ان تفرض وجودها القانوني وتدمج السكان رغمًا عنهم في الدولة الاسرائيلية بعد مصادرة ممتلكاتهم وزعزعة بنيتهم التحتية وإلغاء هويتهم العربية. وعلى رغم انه يُمنع على سكان الجولان العرب الاجتماع بمسؤولين سياسيين عرب أو بالحصول على مساعدات مادية منهم تحت طائلة السجن فقد صمدوا بفضل تنشيطهم المشاريع الانمائية والصحية والزراعية والتعليمية في مناطقهم. وقال تيسير مرعي ايضًا إن عدد السكان السوريين الذين قبلوا بحمل الجنسية الاسرائيلية لا يزيد حاليًا (اواخر ١٩٩٦) عن مئة شخص من اصل ١٦ ألف مواطن.

أدركت حكومة العمل الاسرائيلية السابقة (قبل ان تخلفها حكومة ليكود في ايار ١٩٩٦) ان العبور إلى «الشرق أوسطية» (وهو التعبير الذي كان يتحمس له شيمون بيريز وألّف كتابًا حوله) لا يمكن ان يتم من دون اتفاق سلام مع سورية، ولو تطلب ذلك إعادة الجولان كاملاً لسورية وفقًا لترتيبات امنية معينة. لكن حكومة ليكود بزعامة بنيامين نتانياهو أكدت، أكثر من مرة، حتى الآن (ايار ١٩٩٦-تموز ١٩٩٧) تصميمها على الاحتفاظ بالجولان بصورة عملية من خلال الاعلان عن إقامة تجمعات استيطانية واسعة تضم ٩٠٠ وحدة سكنية جديدة ترفع عدد المستوطنين في الجولان إلى ٢٥ ألفًا عند مشارف عام ألفين. وقد حرص نتانياهو على ان يؤكد ذلك في كل مناسبة، وكان آخرها تصريحه في واشنطن (اول حزيران ١٩٩٧) الذي جاء فيه: «من الواضح اننا نعتقد ان الجولان ارض اساسية وحيوية للدفاع عن اسرائيل».

١٠- سورية عند حقها في استرداد الجولان: قبل ايلول ١٩٩٣، كان الموقف السوري في شأن مسألة الانسحاب الاسرائيلي يشمل الضفة الغربية وغزة، كما كان قبل هذا التاريخ يشمل مختلف الاراضي العربية المحتلة. أما بعد توقيع اتفاق أوسلو أخذ ذلك الموقف يتحدد بالجولان والجنوب اللبناني. فالانسحاب الاسرائيلي من جنوبي لبنان لا يزال يمثل جزءًا من الموقف السوري ليس فقط بسبب الارتباط الوثيق والخاص بين سورية ولبنان لكن ايضًا نظرًا إلى القيمة الاستراتيجية للجنوب والبقاع اللبنانيين وبخاصة لأن عملية التفاف عسكري اسرائيلي حول سورية أو النفاذ إليها عبر هاتين المنطقتين في حال افتراض التركيز على الجولان وحده والتوصل إلى اخلائه من القوات الاسرائيلية. فبدت سورية دائمًا حريصة على التمسك بموقفها، و لم تعلن عن أي تعهد أو التزام يكون من شأنه إضعاف ذلك الموقف التفاوضي.

في المفاوضات، عرف الموقف الاسرائيلي من مسألة الانسحاب من الجولان وما اقترن به من ترتيبات أمنية واقتصادية بعض المرونة بعد اغتيال اسحق رابين وتولي شيمون بيريز سدة الحكم. فقد تحدث بيريز صراحة عن الثمن الضروري الذي قد تضطر اسرائيل إلى دفعه مقابل السلام التام مع

سورية، كما دارت مناقشات مكثفة داخل غرف المفاوضات لتضييق الخلاف في شأن مواضيع الانذار المبكر والمناطق المجردة من السلاح والمناطق المخففة التسلح وإعادة انتشار قوات الدولتين. إلا ان المباحثات توقفت على اثر حدوث تفجيرات القدس وتل أبيب وعسقلان (شباط ١٩٩٦).

يبقى ان الهوة بين اسرائيل وسورية لا تزال ضخمة فيما يتعلق بنطاق الانسحاب ومداه أو خط الانسحاب الذي سيصبح خط الحدود بين الدولتين. فبينما تصر سورية على الانسحاب الاسرائيلي حتى خطوط الرابع من حزيران (أي قبل حرب حزيران ١٩٦٧)، يبدو ان اسرائيل تتمسك بخط الانتداب بين فلسطين وسورية. والفارق بين الخطين يتمثل في منطقتي الحمة السورية وبانياس في جنوبي الجولان. وهما منطقة الانحدار على الهضبة، وفيها جزء مهم من موارد مياه الجولان (راجع «مسألة الحدود السورية-الفلسطينية» في هذا الباب «مدن ومعالم»).

وجاء موقف حكومة ليكود ليخلق (كما تقدم ذكره) وضعًا جديدًا على المسار السوري جعل من استمرار عملية السلام أمرًا مستحيلاً. ومما يقوي موقف ليكود هذا ان اسرائيل لا تواجه اليوم، على المسار السوري، أي ضغط دولي مؤثر لمتابعة مسيرة السلام. فحلفها مع تركيا، ومباركة الولايات المتحدة لهذا الحلف واعلانها عن رغبتها في المشاركة في المناورات العسكرية المشتركة، ومحاولة عزل سورية والضغط عليها، كلها عوامل تجعل حكومة ليكود غير مكترثة بالسلام. ومن جهتها، فإن سورية بدورها لا تنفك تعلن انها لن تقبل باقل من عودة الجولان كاملاً ضمن شروط تعاقدية مقبولة.

باتريك سيل، الصحافي والخبير البريطاني في شؤون الشرق الاوسط، وخاصة في سورية، والذي شكل كتابه «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، مرجعنا الرئيسي في باب «عهد الأسد» من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٥، عاد في اول تموز ١٩٩٧ لتنشر له «الحياة» (العدد ١٢٥٤١، تاريخ اول تموز ١٩٩٧، ص١٨) مقالاً مطولاً بعنوان «الاسطورة الاسرائيلية حول الجولان، هل يمكن لسورية ان تصل إلى اتفاق سلام مع نتانياهو؟». وقد يكون مفيدًا تكرار حرفية ما أنهى به مقاله: «وعلى رغم ان الجولان لها أهمية قصوى بالنسبة إلى سورية إلا ان المسألة الجوهرية في نظر الرئيس الأسد ليست حول استعادة هذا الجزء أو ذاك من الاراضي المحتلة، الأمر يتعلق في نظره بمسألة مختلفة تمامًا. المسألة الحقيقية في نظره هي: من الذي ستكون ارادته هي الارادة الغالبة في المنطقة، ارادة اسرائيل أو ارادة العرب؟ هل سيكون العرب سادة في بيتهم أم مقضيًا عليهم بأن يعيشوا إلى الأبد تحت ظل القوة الاسرائيلية، مع كل ما يعنيه ذلك من ضياع الاستقلال والسيادة واحترام الذات والشعور الدائم بعدم الأمان».

أخيرا، لو أجّل سيل نشر مقاله اقل من شهر واحد لكان، على الارجح، عدّل الكثير من الآراء المتبدية فيه في اتجاه تركيزه أكثر فأكثر على الايغال الاسرائيلي في سياسة ضرب المفاوضات حول الجولان. إذ كان وقف، كما وقف العالم، على نبأ (٢٤ تموز ١٩٩٧) اتخاذ البرلمان الاسرائيلي «لخطوة تمهيدية نحو سن قانون يجعل من المستحيل التخلي عن اجزاء من المرتفعات السورية المحتلة مقابل سلام مع سورية، وبفضل دعم من رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو». ومشروع القانون هذا يشترط موافقة ٨٠ نائبًا اسرائيليًا من مجموع النواب الـ١٢٠ في الكنيست على أي انسحاب من ا لجولان. وردّت سورية بتنديدها بهذ الخطوة واعتبرتها «تصعيدية وعدوانية ومحاولة للتنصل من تنفيذ قرارات الشرعية الدولية وعملية السلام التي أقرها مؤتمر مدريد للسلام». وفي مؤتمر صحافي عقده الرئيس الأسد والرئيس المصري مبارك (بعد محادثات بينهما في دمشق، ٢٩ تموز

الرئيس الأسد في لقائه اعضاء الوفد العربي الاسرائيلي في دمشق (١٢ آب ١٩٩٧).

١٩٩٧)، أشار الأسد إلى صعوبة الحديث عن «آمال في ضوء الوضع القائم، في ضوء الوقائع لا شيء يبرر ان نكون متفائلين أو اننا على ابواب السلام... ومن فم الاسرائيليين نستنتج انه في أحسن الاحوال سيستمر الجمود إلى ان تكون هناك معطيات جديدة... إن ارادتنا وتصميمنا سيحافظان على شخصيتنا، ولن نتخاذل وسنتحدى ونتصدى لمجموع النيات التي ترسم لنا».

وفي ١٢ آب ١٩٩٧ نقلت وسائل الاعلام نبأ لقاء الرئيس الأسد أعضاء وفد فلسطينيي ١٩٤٨، حيث سمع من النائب العربي الاسرائيلي نواف مصالحة مضمون رسالة خطية من زعيم حزب العمل إيهود باراك لم يتسلمها أي مسؤول سوري. وجاء في نص الرسالة التي كتبت بالانكليزية: «إلى الرئيس الأسد العزيز، أغتنم زيارة الوفد الاسرائيلي-العربي الذي دعي إلى سورية لأشيد بهذه الدعوة التي وجهت إلى وفد يمثل جزءًا مهمًا من الشعب الاسرائيلي والنظام السياسي. من خلال تجربتي الشخصية في اجتماعات رؤساء الأركان مع العماد (حكمت) الشهابي يمكنني أن اشهد لأهمية اللقاءات الشخصية والحوار وجهًا لوجه في عملية السلام والمصالحة بين الأعداء السابقين. كلنا يعلم ان المفاوضات وعملية السلام هي الآن في مرحلة صعبة. وبصفتي زعيمًا للمعارضة اقوم بكل ما في وسعي للمساعدة في إحياء عملية السلام ومعاودة المفاوضات. وآمل أن نعمل معًا بهذه الروح ونعود إلى مناقشة السلام عوض تبادل الكلام عن المواجهة والحرب الذي عاد ويا للأسف أخيرًا ليطبع الأجواء بين البلدين» («النهار»، ١٣ آب ١٩٩٧، ص١و١٦).

ومما نقلته وسائل الاعلام عن الرئيس الأسد قوله في اللقاء إن الوضع في الشرق الاوسط «معقد... ولا إنسان يحب الحرب. والبشر عندما يكونون مظلومين يريدون ان يرتفع الظلم عنهم، وعندما يكونون تحت الاحتلال يريدون أن ينتهي الاحتلال... الحرب كريهة جدًا وآمل أن لا نصل إلى ما هو أسوأ مما نحن فيه...(وأكد أن سورية) لن تستسلم ولن تقبل بسلام غير عادل وشامل...».

وأثارت زيارة الوفد (ستة نواب عرب في الكنيست) سيلاً من الانتقادات لدى الاسرائيليين، خاصة من اليمين المتشدد الذي لم يتردد في وصف الوفد بأنه يشكل «طابورًا خامسًا» في اسرائيل. وقد ركز الاسرائيليون انتقادهم على ما صدر عن اعضاء الوفد من مدائح في حق الرئيس حافظ الأسد، وعدم إشارتهم في دمشق إلى أنهم مواطنون اسرائيليون، وزيارتهم الرمزية إلى منزل الشيخ عز الدين القسّام الذي يحمل الجناح العسكري لـ«حركة المقاومة الاسلامية» (حماس) إسمه،

واجتماعهم مع أحمد جبريل الأمين العام لـ«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين-القيادة العامة» الذي يعارض اتفاقات السلام الفلسطينية-الاسرائيلية.

وقبيل مغادرة الوفد دمشق (١٥ آب ١٩٩٧) قابل نواف مصالحة وزير الخارجية السوري فاروق الشرع؛ وقال مصالحة لـ«الحياة» في دمشق قبل عودته إن «اللقاء المنفرد حصل بعد الكلام الذي دار في اسرائيل عن رفض المسؤولين السوريين تسلم رسالة باراك». وأضاف أنهم «تسلموا الرسالة، إذ أكد الشرع في المقابل أمله في أن يتوحد الاسرائيليون في الحكومة والمعارضة على خيار السلام»، وأن ينتهز نتانياهو «الفرصة الذهبية» لتحقيق السلام الشامل في المنطقة («الحياة»، ١٦ آب ١٩٩٧، ص١).

ويذكر ان الفلسطينيين الذين بقوا في ارضهم بعد حرب ١٩٤٨، يشكلون ١٨٪ من سكان اسرائيل. وعكست زيارة ممثليهم إلى دمشق وضعهم الدقيق داخل الدولة. فهؤلاء هم من جهة أولى شديدو التعلق بهويتهم الفلسطينية، ومن جهة أخرى مواطنون اسرائيليون. ويذكر ايضًا ان النواب العرب في الكنيست هم الذين رجحوا الكفة في الكنيست لصالح اتفاق توسيع الحكم الذاتي الذي أبرم في ١٩٩٥. وهذا الأمر يعكس واقع الازدياد المطرد لوزنهم في الحياة السياسية في اسرائيل، الأمر الذي يزعج الاسرائيليين، خاصة اليمين الاسرائيلي، إزعاجًا حقيقيًا.

(المراجع الرئيسية التي استند إليها هذا المبحث حول الجولان: -هشام الدجاني، «المطامع الصهيونية في الجولان»، شؤون فلسطينية، آذار ١٩٨٢؛ -د. أديب سليمان باغ، كتاب «الجولان-دراسة في الجغرافيا الاقليمية»، ط١٩٥٨؛ -زهير مكي، «اتجاه»، العدد الاول، نيسان ١٩٩٦، ص١٠-١٩؛ -«العربي»، العدد ٤٣٧، نيسان ١٩٩٥، ص٤١-٥٧؛ -غازي الموسى، «تاريخ الجولان تجسيد لانتماء عربي»، جريدة تشرين السورية، ١٥ شباط ١٩٩٦؛ - متابعة يومية للصحف، أخصها «الحياة» في أعدادها التي حملت مقالات للكتاب: أحمد سيف، ١٧ ايار ١٩٩٤ ص٧؛ هشام شيشكلي، ٣١ تشرين الاول ١٩٩٥، ص١٦؛ مصطفى علوي، ١٩ آذار ١٩٩٦، ص١٨؛ سمير ناصيف، ١٠ تشرين الاول ١٩٩٦، ص١٨؛ باتريك سيل، ١ تموز ١٩٩٧، ص١٨؛ و«الوسط»، ابراهيم حميدي، العدد ١٠٦، ٧ شباط ١٩٩٤، ص٢٦-٣٠).

* **حارم:** مدينة سورية تقع في أقصى شمالي محافظة أدلب وقاعدة منطقة حارم. ترتفع ١٣٨م عن سطح البحر، وتبعد عن مدينة أدلب ٦٥كلم. وصفها صاحب معجم البلدان بأنها «حصن حصين... وفيها اشجار كثيرة ومياه»، وفسّر إسمها «حارم» بقوله «... وهي فاعل من الحرمان أو من الحريم، كأنها لحصانتها يحرمها العدو وتكون حرمًا لمن فيها». تعد نحو ٣٥ ألف نسمة. وتشتهر بقلعتها البيزنطية التي بنيت في ٩٥٩. وقد وصف فان برشين هذه القلعة بأنها «قلعة عربية البناء أيوبية الطراز، تشبه في باحاتها قلاع حلب وحماه وحمص، وتشبه في سورها نصف الدائري قلعة بصرى الشام». وتعتبر كنيسة قلب لوزة أشهر آثار مدينة حارم.

* **حلب:** يعرّف معجم «لو روبير» (Le Robert) الفرنسي الشهير بأسماء العلم مدينة حلب بالشكل التالي:

مدينة تقع في الشمال الغربي من سورية. قاعدة محافظة حلب. تعد مليون و٣٠٨ آلاف نسمة (تاريخ طباعة المعجم في ١٩٩٤؛ والتقديرات الحالية لعدد سكان المدينة انه يفوق المليوني نسمة). كرسي اسقفي ماروني (من غير ذكر للطوائف والاديان الأخرى علمًا ان مجموع

الموازنة في كل سورية لا يتعدى ٢٠-٢٥ ألف نسمة؛ وربما المقصود بذلك ابراز صفة مميزة عن سائر المدن السورية). جامعة. جوامع أثرية عديدة. اسواق مسقوفة شهيرة تعج بالمحلات والجوامع التي يعود بناؤها إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر. قلعة تشرف على المدينة. مركز تجاري وصناعي مهم (أقمشة، معاصر زيت الزيتون، صناعة ميكانيكية، صناعة الجلود، والتبغ، والاسمنت). شكلت المدينة، قديمًا، معبرًا مميزًا للقوافل من الصحراء، وهي اليوم عقدة مواصلات برية. تاريخيًا: كانت حلب جزءًا من الامبراطورية الحثية (الألف الثاني ق.م.)، ضمها الآشوريون في العام ٧٣٨ق.م.، وبقيت تحت حكم الأخمينيين إلى ان جاء الاسكندر الكبير، وبعده أصبحت من ممتلكات سلوقوس نيكاتور، وبنى السلوقيون عليها مدينة حديثة دعوها بيرويا (Beroia). احتلها الرومان في العام ٦٥ق.م. وهدمها الفرس بعدهم، واصبحت مدينة اسلامية إثر الفتح العربي الاسلامي، فعرفت مرحلة من الازدهار في عهد الأمويين. في القرن العاشر، توصل الحمدانيون إلى ان يجعلوا منها إمارة مستقلة ومزدهرة. وبعد عصرها الذهبي هذا، وقعت حلب، وبصورة متوالية، تحت حكم الفاطميين (١٠١٥)، ثم السلجوقيين (١٠٨٦-١١١٧)، ثم الزنكيين والايوبيين. غزاها هولاكو ودمرها في ١٢٦٠، ثم حكمها المماليك وبعدهم العثمانيون (بدءًا من ١٥١٦) الذين جعلوا منها ولاية حتى ١٩١٨. وفي ١٩٢٠، جعلها الفرنسيون قاعدة دولة مستقلة، دولة حلب (١٩٢٠-١٩٢٤) قبل ان يعيدوا ضمها في إطار دولة سورية تحت الانتداب الفرنسي (انتهى ما جاء في «لو روبير» تحت مادة Alep؛ ولمزيد من التفصيل حول النبذة التاريخية لحلب، راجع ابواب التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر، إضافة إلى ما يلي حول أهم آثار المدينة). يقول سوفاجيه، العالم الفرنسي الشهير بمؤلفاته حول سورية القرن التاسع عشر التي اعتبرت في مقدمة المؤلفات ثقة: «إننا إزاء إحدى المدن الاقدم في العالم التي لا تزال مأهولة ومزدهرة».

في السنة ١٥هـ جرت إلى الشمال الغربي من حلب وفي السهل الواقع غربي مدينة قنسرين آخر المعارك الكبيرة بين العرب المسلمين والروم، فسَهُل بعدها فتح مدينتي قنسرين وحلب، وبعدهما مدينتي الرقة والرها (في الجزيرة)، ثم انطاكية اعظم مدن المنطقة في تلك الايام. وقد جاء في الكامل لإبن الأثير «ان هرقل خرج من الرها، فنزل بشمشاط، ثم أدرب منها نحو القسطنطينية، فلما أراد المسير منها على نَشَز، ثم التفت إلى الشام فقال: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود اليك رومي ابدًا إلا خائفاً».

ودخل المسلمون حلب، سلمًا، بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد، من باب انطاكية. ووقفوا داخل الباب، ووضعوا اتراسهم في مكان فبني ذلك المكان مسجدًا، وهو المسجد المعروف بالغضايري، ويعرف الآن بـ«مسجد شعيب»، و«جامع التوتة»؛ إلا ان إسمه الرسمي «المدرسة الشعيبية». ففي مدينة حلب، إذًا، مسجد من القرن الهجري الاول، ومن سنة ١٥هـ على وجه الدقة. لماذا تتعدد اسماؤه؟

دعي هذا المسجد اولاً «مسجد الأتراس» لأنه بني في المكان الذي وضع فيه المسلمون أتراسهم، ثم عُرف بـ«مسجد الغضايري» نسبة لابي الحسن علي بن عبد الحميد الغضايري (توفي ٣١٣هـ) الذي تفرغ للصلاة فيه مدة طويلة من الزمن، ثم بـ«المدرسة الشعيبية» نسبة إلى الفقيه الشيخ شعيب بن ابي الحسن الأندلسي الذي جعله نور الدين محمود زنكي مدرسًا فيها على مذهب الامام الشافعي. وهذا المسجد لا يزال يحمل إسم «جامع الشعيبية».

وفي وسط مدينة حلب القديمة يقوم

«الجامع الكبير» عند جمهور الحلبيين، وهو المسجد الاموي الذي بنى في العصر الاموي المعروف، رغم قصر مدته، بنهضة عمرانية هائلة. وكان هذا الجامع قد بني في ارض خلاء كانت في العهد اليوناني «أغورا» المستعمرة التي بناها سلوقس نيكاتور، ثم اصبحت في العهد البيزنطي بستانًا للكنيسة العظمى. ولما فتح العرب المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الذي بني في زمن الوليد أو في اوائل عهد أخيه سليمان بن عبد الملك. وقد تهدم هذا الجامع مرات وجدّد مرات. ولقد نقل بنو العباس الكثير من زخارفه إلى جامع الأنبار، واحرقه نقفور (نيكاتور) امبراطور الروم حين دخل حلب واحرقها (٩٦٢)، ثم أحرق ثانية في زمن نور الدين محمود، ثم احرقه التتر (١٢٥٩). وكان الفضل في إعادة بنائه يعود إلى سيف الدولة وابنه ابي المعالي، وإلى نور الدين محمود الذي ضم إليه سوق، وإلى الملك الظاهر بيبرس والملك الناصر قلاوون، وفيه تجديدات تمت في العهد العثماني وفي اوائل القرن العشرين. ويرتبط «تاريخ المسجد الاموي في حلب بحادثة نادرة تدل على تسامح العرب. فامام بابه الغربي ينتصب باب المدرسة الحلوية التي كانت ذات يوم كاتدرائية القديسة هيلانة والتي بقيت بيت عبادة نصراني خمسة قرون كاملة. ولنتصور مدى التسامح وسعة الافق اللذين كان يعيش اهالي حلب مستمتعين بهما في ظل الحكم العربي، إذ يتجاور المسجد الاموي الكبير وكنيسة حلب العظمى، ليس من بعد بابيهما سوى طريق لا يتجاوز عرضه ثلاثة امتار. وهكذا بقي عرب حلب بين اوائل القرن الثامن واواخر القرن الحادي عشر، يدخلون سوق الحدادين، فيتجه المسلمون إلى مسجدهم شرقًا ويدخل المسيحيون كاتدرائيتهم القائمة في غربي المسجد. ولم تحول الكنيسة إلى مسجد إلا في سنة ١١٢٤ حين حاصر الفرنجة الصليبيون حلب، وعاثوا فسادًا فيما يحيط بهما، ونبشوا قبور المسلمين، وشتموا من خارج السور اهل المدينة، عند ذاك عمد القاضي ابو الحسن بن الخشاب إلى اربع كنائس داخل حلب فصيّرها مساجد، ومنها الحلوية» (محمد فريد جحا، «المدينة العربية»، العدد ٥٨، شباط ١٩٩٤، ص٤٣).

وفي مواجهة المدخل الرئيس لقلعة حلب الشهيرة، وقرب المدرسة السلطانية، تقع المدرسة الخسروية (وهي عبارة عن جامع ومدرسة وتكية ومطبخ) التي أمر ببنائها خسرو باشا العثماني الذي عين واليًا على حلب ابتداء من ١٥٣٧. بناها المعماري الحلبي فروخ بن عبد المنان عام ١٥٤٦، وتعتبر اول جامع يصمم مخططاته المهندس الاول في تاريخ الامبراطورية العثمانية سنان باشا (١٤٨٩-١٥٨٨، وكان مسيحيًا) على غرار كنيسة آيا صوفيا الشهيرة. وفي المدرسة (والجامع) غرف لسكن الطلاب، ومطبخ كان يوزع الطعام على الفقراء. وقد أوقف للجامع ومدرسته الاوقاف العديدة لتأمين مصادر التمويل، من بينها خان الشونة وخان قورت بك وخان النحاسين وسواها.

والمعروف عن المسجد بصورة عامة انه كان يتمتع قديمًا بقيمة وظيفية إلى جانب دوره الاساسي كمكان للعبادة. وكثيرًا ما تلحق به تكية أو مطبخ أو مدرسة أو زاوية أو كتاب لتعليم الاطفال أو حتى قسطل (بئر ماء) لتوزيع المياه على سكان الحي. وبمرور الزمن اخذ المسجد يفقد ذلك الدور الوظيفي ويكتفي بكونه مكانًا للعبادة، نتيجة لدخول عناصر مدنية حديثة إلى الحي القديم، وبالتالي فقدانه لعدد من صفاته وعناصره التقليدية. هذه القاعدة التي باتت تشمل معظم الاحياء العريقة القديمة في العالم العربي تشذ عنها المدرسة الخسروية (أو الجامع الخسروي) في حلب القديمة إذ إنها تضم ثانوية شرعية تمنح طلابها درجة «الثانوية الشرعية»، وهي افتتحت قبيل استقلال

منظر عام لمدينة حلب وقلعتها القائمة على تلة مشرفة على المدينة.
«القلعة، بهيئتها الحالية بناها الايوبيون في القرن الثاني عشر، والمماليك في القرن السادس عشر» (أونيفرساليس، ج ١٥، ص ٦٧٤). لكن من المؤرخين من يعيد بناءها الاساسي الى قرون سابقة.

واجهة جامع ومدرسة الشعيبية.

سورية عن الانتداب الفرنسي باسم «المدرسة الخسروية» لتعنى بتدريس العلوم الاجتماعية والدينية والفقهية. وبلغ عدد طلابها آنذاك ٨٠ طالبًا. ولغرض عدم انقطاع دورها، تمّ تشكيل لجنة تدريسية برئاسة مفتي حلب آنذاك الشيخ عبد الحميد الكيالي.

وحلب القديمة واحدة من المدن التي لا يكاد يخلو حي من احيائها من وجود مدرسة قديمة أو زاوية تعليمية تعود لفترات زمنية مختلفة. وتتنوع في ما بينها لجهة طراز عمارتها واتساعها تبعًا للعهد الذي شيدت فيه ولاستتباب الامن أو اضطرابه، واهتمام الحكام والولاة أو انعدامه. وأمكن احصاء ما يزيد عن ٦٠ مدرسة أثرية قديمة وأكثر من ٢٥ زاوية دينية تعليمية، منها ما اندثر ومنها ما هو باق حتى الوقت الحاضر. والمدرسة الصاحبية واحدة من تلك المدارس القديمة التي ما تزال صامدة في وجه الزمن منذ أكثر من ٦٠٠ عام. والمدرسة الصاحبية تسمّى حاليًا «جامع الفستق»، وسمّيت بالصاحبية نسبة إلى بانيها احمد بن يعقوب الصاحب الذي شيدها في العام ١٣٦٤. وهناك مدرسة شاذبخت (في حلب القديمة كذلك) التي تعرف لدى العامة باسم مسجد الشيخ معروف بن جمّر. وشاذبخت هو الامير جمال الدين شاذبخت الهندي الاصل الذي كان مملوكًا لنور الدين زنكي وقائدًا عامًا لقلعة حلب. وعندما توفي نور الدين زنكي (١١٧٤) استطاع هذا الامير ان يؤمن الخلافة للصالح اسماعيل الابن الاصغر لنور الدين عن طريق الحصول على ولاء كبار الامراء في حلب.

وتشتهر حلب القديمة بخاناتها التي تنامت نتيجة للتنامي المطرد في النشاط الاقتصادي والتجاري للمدينة واتساع علاقاتها التجارية لتصل إلى الهند والصين وأقاصي اوروبا. فتحولت الخانات التي بنيت في القرن الثالث عشر إلى مقر لاقامة الجاليات الاجنبية، خصوصًا الاوروبية منها. فخان النحاسين للجالية البلجيكية، وخان الحبال للفرنسيين، وخان الجمرك للانكليز، وخان البنادقة لتجار البندقية... واشهر خانات المدينة خان الوزير وخان الجمرك. شيّد الاول أحد ولاة حلب، في ١٦٨٢، قبل ان يصبح وزيرًا في الآستانة، ويقع إلى الشرق من الجامع الاموي الكبير. أما خان الجمرك فهو ايضًا واحد من اضخم الخانات في حلب القديمة، شيّده ابراهيم خان زاده محمد باشا في ١٥٧٤، ويقع جنوبي الجامع الكبير، وضخامته وتنوع مخازنه واسواقه دعت البعض إلى تشبيهه بمجمع تجاري ضخم، واعتباره الاضخم والأكبر في مدن الشرق. وهناك العديد من الخانات الاخرى المنتشرة في ارباض المدينة القديمة.

ومن معالم حلب التاريخية-الثقافية ما هو متصل بالصحافة والطباعة. وأول مطبعة عربية ظهرت في حلب في ١٧٠٢، ونشأت أولى الصحف العربية على يد واحد من أبنائها هو رزق الله حسون الانطاكي الحلبي (١٨٥٥)، في الآستانة. ناوأت هذه الصحيفة العثمانيين، فاضطر صاحبها ان يرحل بها إلى روسيا ثم لندن، مثلما ارتحل آخرون عن حلب كجبرائيل دلاّل وفرنسيس وعبد الله مراش وغيرهم.

وعاشت الطباعة في حلب بمنأى عن رعاية الدولة، ولكن بنشاط من رجال الدين المسيحيين (كانت الدولة العثمانية تخشى من وصول المطبوعات والصحف إلى رعاياها من المسلمين خاصة). وأول صحيفة في حلب هي «فرات» الرسمية، وأول مطبعة حكومية ظهرت في حلب في ١٨٦٧ في عهد وال عالم مؤرخ هو جودت باشا.

وجاء الانتداب الفرنسي والمطابع في حلب لا تتجاوز السبع. وفي غضون اعوام قليلة؛ قدمت المطابع الحديثة، لكن المطبوعات أصبحت بأغلبيتها سياسية بعد ان كانت لصالح الأدب. وظلت الطباعة في حلب (وسورية عمومًا) متراجعة عما حققته في لبنان ومصر. وكان للأرمن، بصورة

خاصة، دور مهم في إغناء حركة الطباعة والصحافة وتطورها خلال هذه الفترة في حلب. وعرفت حلب الوانًا من الجرائد بلغات اربع: العربية والتركية والأرمنية والفرنسية، وظهرت فيها مجلات ادبية عدة لا يزال بعضها يصدر حتى الآن. وعرفت حلب ايضًا الصحافة المتخصصة، التجارية والزراعية والعلمية والدينية والفكاهية والمدرسية، بالاضافة إلى الصحافة السياسية والادبية والنسائية. ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية وبدء عهد الاستقلال، ازدهرت الطباعة والصحافة. لكن التقلبات السياسية ابقتهما، مع ذلك، في حالة متأخرة نسبيًا، ليعودا إلى الانتعاش منذ الستينات برعاية مباشرة من الدولة.

* **حماه:** رابع مدينة سورية من حيث عدد السكان بعد دمشق وحلب وحمص، إذ يبلغ عدد سكانها نحو نصف مليون نسمة. قاعدة محافظة حماه. تقع وسط منطقة خصبة، على ضفاف العاصي، وتبعد عن دمشق ٢٠٩كلم، وترتفع نحو ٣٠٠م عن سطح البحر، ويمر فيها الطريق الرئيسي الواصل بين دمشق وحلب. ويعد موقعها همزة وصل بين الداخل والساحل ومركزًا للاستراحة على طرق القوافل التجارية القديمة لتوسطها المدن السورية. تتطاول في الامتداد من الغرب إلى الشرق، ففي الغرب سهل الغاب الخصيب وجبال العلويين التي تفصلها عن البحر المتوسط، وفي الشرق الارض المفتوحة على بادية الشام، وفي الشمال محافظة أدلب والجنوب محافظة حمص. وأهم ما يميزها ويقترن باسمها العاصي ونواعيره والذي يقسمها إلى قسمين: الحاضر في شرقيه والسوق في غربيه، وتتناثر بيوتها على ضفتيه. وفي وسطها قلعة اثرية تحوي آثار ما قبل التاريخ. والعناوين الكبرى في تعريف حماه اليوم انها سوق تجاري ومدينة سياحية ومركز منجمي (الحديد) وصناعي (الاقمشة، خاصة القطنيات والحرائر، والاشغال اليدوية، والصناعات الغذائية والجلود).

عن إسم، أو أسماء «حماه»:

«أورد ياقوت الحموي في معجم البلدان بان حماه بالفتح بلفظ حماه المرأة وهي أم الزوج وقال حماه ايضًا عصبة الساق غير ان الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط أوردها في مادة حمى كأنها مشتقة من الحماية. ولحماه أسماء قديمة وأخرى جديدة: يقال إنها سميت نسبة إلى حماثي بن كنعان الذي ينسب بناؤها إليه وإذا رجعنا إلى ما سجل على الانصاب وما اكتشف فيها من آثار نرى ان حماه تعني قلعة أو حصن من الاسم الآرامي لقلعة أو حصن. ويرى أنغولت ان اسمها جاء اسم اول ملك آرامي حكمها حيث اعتبرت مملكة حماه الآرامية في طليعة ممالك المنطقة وتنافس جاراتها بعد مملكة دمشق الآرامية. تبدل إسمها إلى إبيفانيا Epihina نسبة إلى الملك السلوقي انطونيوس إيبفان الرابع الذي اعاد للمدينة عظمتها وحملت إسمه تخليدًا له. أما ألقابها الجديدة: مدينة النواعير، لكثرتها في المدينة وضواحيها؛ مدينة ابي الفداء؛ وابو الفداء هو ملكها الأيوبي المؤرخ والجغرافي العربي عماد الدين اسماعيل المؤيد (١٢٧٣-١٣٣١) وصاحب كتابي المختصر في اخبار البشر وتقويم البلدان» («المدينة العربية»، الكويت، العدد ٣٨، حزيران ١٩٨٩، ص٢٨-٢٩).

وغالبًا ما لا يذكر إسم حماه إلا مقترنًا بنهر العاصي والنواعير عليه، فهما الطابع المميز لمدينة حماه. و«يعود تاريخ النواعير إلى عهد الآراميين، وقد كانت الناعورة في شكلها البدائي تحمل سطولاً من الجلد ثم تطورت ووصلت لشكلها الحالي في السنوات الاولى للميلاد. وقد تم العثور على لوحة فسيفساء في شارع الاعمدة في مدينة آفاميا الأثرية (تبعد ٥كلم شمالي غربي حماه) ترجع لعام ٤٢٠ وعليها صورة طبق الاصل لشكل الناعورة الحالية وتحفظ هذه اللوحة في المتحف

من نواعير حماه على العاصي.

الوطني في دمشق (راجع «جنة علماء الآثار الجديدة» في هذا الباب «مدن ومعالم»). والناعورة آلة مائية دائرية دائمة الحركة معدة لرفع الماء تتكون من دولاب خشبي كبير مؤلف من اخشاب مختلفة في طولها وعرضها وحجمها يدور حول محور خشبي ضخم من خشب الجوز يدعى القلب يرتكز على قاعدتين خشبيتين موضوعتين على قواعد حجرية قوية وثابتة. ويتراوح قطر الناعورة بين ٥ و٢١م وعدد صناديقها بين ٥٠ و١٢٠ صندوقًا وسعة الصندوق الواحد ٥٥ سنتيمًا مكعبًا من الماء. وبلغ عدد النواعير المنتشرة في محافظة حماه في اربعينات القرن الحالي ١٠٢ ناعورة (بما فيها ١٦ ناعورة في حنايا مدينة حماه نفسها) منتشرة على مسافة تقارب ٧٠كلم أولها قرب جسر الرستن وآخرها عند قرية العشارنة (تبعد ٤٦كلم شمال غربي حماه). وقد كانت النواعير حتى اوائل السبعينات ملكية خاصة يقوم الافراد بصنعها وصيانتها على نفقتهم الخاصة لأنهم كانوا يستفيدون منها في سقاية البساتين وتأمين المياه للحمامات والشرب وحاليًا فقدت وظيفتها وتولت السلطات الأثرية عملية تصنيعها وصيانتها والحفاظ عليها كظاهرة سياحية ارتبط إسمها بمدينة حماه. ويوجد نواعير خارج سورية في مدينة فاس في المغرب، والفيوم في مصر، وبوردو في فرنسا، وقرطبة وأشبيليا في اسبانيا، وبايروت في المانيا الغربية. يقول سوبرنهايم: «إن فيما اقتبسه الصليبيون من بلاد الشام صنع النواعير ايضًا فأوجدوا في واد صغير في فرنكفورت على مقربة من بايروت نواعير كالتي في حماه لا تزال دائرة» (ملخص دراسة مفصلة أعدّها المهندس المعماري محمد أيمن حمدي قطرنجي، «المدينة العربية»، الكويت، العدد ٣٨، تموز ١٩٨٩، ص٢٨-٣٨).

ويرتبط إسم حماه بمعلمين أثريين مهمين في منطقتها: قصر ابن وردان، وخاصة قلعة شيزر.

يقع قصر ابن وردان في قلب البادية السورية في منتصف الطريق الواصلة بين بلاد

الرافدين وبلاد الشام، وعلى بعد ٧٠كلم شرقي مدينة حماه. ويتكون هذا القصر من ثلاثة ابنية: القصر والكنيسة والثكنة. وتؤكد الكتابة اليونانية على عتبة مدخل القصر والكنيسة انه بني في عهد الامبراطور البيزنطي جوستنيانوس الاول (٥٢٧-٥٦٥). وقد جرت عليه ترميمات حديثة، وهو ذو طراز معماري فريد في نوعه في سورية.

أما قلعة شيزر، الواقعة على بعد ٢٥كلم شمال غربي حماه على طول امتداد جرف صخري حاد يشرف على الضفة الغربية لوادي نهر العاصي، فتعتبر من أهم القلاع والحصون العربية لمنعتها وتاريخها الحافل بالحوادث وموقعها الاستراتيجي المتناسب مع الاغراض العسكرية. وتؤكد المصادر التاريخية إن إسم «شيزر» ورد للمرة الاولى حوالي القرن الخامس عشر ق.م. في عهد تحوتمس، احد فراعنة السلالة الثامنة عشرة المصرية، في سياق وصفه لحملاته العسكرية على سورية باسم «سيزر». ومنذ ذلك التاريخ، توالت أسماؤها حتى الوقت الحاضر عندما استقرت على إسمها العربي «شيزر». ولموقعها المتميز استراتيجيًا، بسيطرتها على وادي نهر العاصي وعلى الطريق البرية الداخلية في سورية (دمشق-حماه-حلب)، أهمية كبرى في اعطائها مكانتها بين القلاع والحصون، وفي جعلها عرضة للغزوات والحصارات والاجتياحات بدءًا من الفراعنة مرورًا بالآشوريين واليونانيين والرومان وصولاً إلى الصليبيين والعثمانيين. وتعد قلعة شيزر نموذجًا حقيقيًا لفن العمارة العسكرية والحربية في العهد الأيوبي، وتظهر فيها معالم التحصين على الطراز العربي على الرغم من تهدم الجزء الأكبر من سور القلعة ومعظم ابراجها.

حماه في التاريخ:

تعتبر حماه (ومنطقتها، وادي العاصي) من اقدم مواقع سكن الانسان في سورية، يرجع تاريخها إلى الألف الخامس ق.م. كما دلت على ذلك الحفريات الأثرية التي اجرتها البعثة الدانماركية برئاسة العالم هارالد أنغولت (١٩٣٢-١٩٣٨) في موقع القلعة الحالي.

تعاقب على حماه عدد كبير من الشعوب. فمن السومريين والأكاديين إلى العمالقة (قدماء العرب أهل شمالي الحجاز) الذين أزاحهم الأموريون عام ٢٥٠٠ق.م. (قبائل نصف حضرية قدمت من البادية) الذين تعرضوا لغزوة قام بها ملك كيشتو ثم غزوة ثانية لسرجون البابلي ٢٣٠٠ق.م. ثم غزاهم حمورابي عام ٢١٠٠ق.م. فوجدوا انفسهم تجاه غزوات متلاحقة وسط سهول غير منيعة فبنوا مدينة حماه في الشمال ومدينة بعلبك في الجنوب عام ٢١٠٠ق.م. وفي عام ٢٠٠٠ق.م. سيطر الحثيون (من العرق الآري) الذين تآخوا مع الأموريين فازدهرت المدينة ازدهارًا عظيمًا توقف في ١٧٥٠ق.م. لاجتياح الهكسوس فخضعت لنير عبوديتهم حتى ١٥٨٠ق.م. ثم ازدهرت في الفترة ١٥٨٠-١٤٨٠ق.م. أثناء الاحتلال الميتاني وخضعت لحكم الفراعنة حتى فترة تل العمارنة، ثم جاءها الآراميون وأسسوا مملكة حماه الآرامية ١١٠٠ق.م.، ثم تعرضت لغزوات متلاحقة من الأشوريين حتى ٧٢٠ق.م. حيث دمرها الملك الأشوري سرجون الثاني وقضى على مملكة حماه الآرامية بعد معركة قرقر الثانية. وحين تهاوت أركان الآشوريين على يد الكنعانيين اغتنم الفرعون نخو الثاني بن بسماتيك ضعف الآشوريين واستولى على سورية وضمنها حماه من ٦٠٧ق.م. حتى ٦٠٤ق.م. حين استرجعها نبوخذنصر الكلداني؛ وبوفاته (٥٦٢ق.م.) انهارت الدولة الكلدانية واستولى قورش الفارسي على ممتلكاتها ومنها حماه بعد ان أحرقها.

ولما اجتاز الاسكندر المقدوني الأناضول وتغلب على الفرس في معركتي أفسوس (٣٣٣ق.م.) وأربيل دخلت حماه تحت نفوذه.

بوابة قصر ابن وردان وعليها كتابة يونانية.

الحصن (٧٥٠م فوق سطح البحر) على واحدة من قمم وادي النضارة.
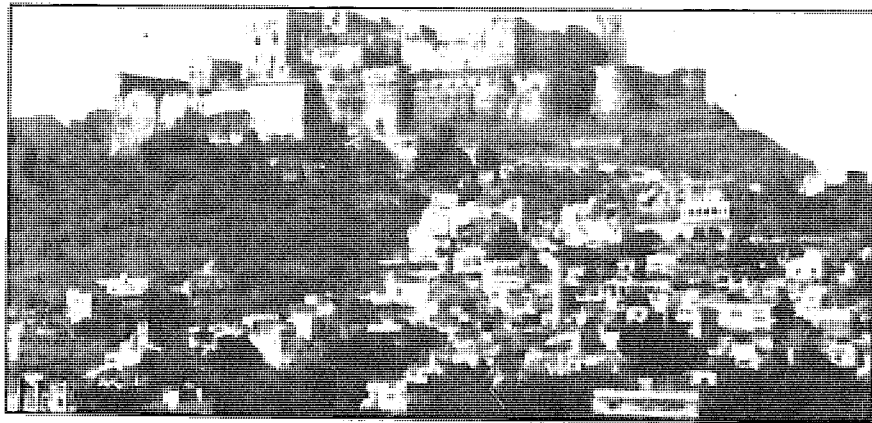
وبوفاته، اقتسم خلفاؤه ممالكه الواسعة فكانت سورية من نصيب سلوقس نيكاتور والسلوقيين من بعده، فاستعادت قسمًا من ازدهارها.

احتل الرومان حماه في ٦٤ق.م. وعرفت نوعًا من الاستقلال الداخلي، ثم عاشت في ظل الاحتلال البيزنطي بدءًا من ٣٩٥ إلى الفتح الاسلامي حيث عقدت المدينة صلحًا على يد الصحابي ابو عبيدة عامر بن الجراح (٦٣٨)، وبقيت في العهدين الراشدي والاموي تابعة لجند حمص. ثم اصابها الاهمال ايام العباسيين كغيرها من بلاد الشام لانتقال مركز الخلافة إلى بغداد. وفي ايام صلاح الدين الايوبي اصبحت مركزًا لامارة ايوبية وسادها استقرار وازدهار خاصة في عهد ملكها أبي الفداء (١٣١٠-١٣٣١) قضى على بعضه هولاكو، وعلى معظمه تيمورلنك. ثم اصبحت تحت سلطة المماليك ثم العثمانيين.

«لم تكن حماه مدينة كبيرة في اواخر الحكم العثماني، فلم يكن عدد سكانها يتجاوز الخمسين ألفًا، وكانت المناطق المحيطة بها مملوكة من قبل العوائل الاربعة: العظم، البرازي، طيفور والكيلاني؛ كما كانت مع حمص امتدادًا لولاية دمشق، وكما عاشت حماه في ظلال الجروف التي تحيط بها عاشت في ظلال أهم مدينتين في سورية العثمانية وسورية الانتداب: حلب ودمشق. لم تكن حماه مدينة متميزة في أي من المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو الزراعية، ولم تكن المدينة ميسورة، طبقتها المتوسطة صغيرة، ومعظم سكانها يعملون بالزراعة، وبالرغم من بعدها عن دمشق وقربها النسبي من حلب فإن انظارها كانت تتجه إلى دمشق لأن عائلتين من العوائل الاربعة المهمة، العظم والكيلاني كانت لهما فروع في دمشق» (جوناثان أوين، «أكرم الحوراني»، تعريب وفاء الحوراني، ط١، ١٩٩٧، ص٣٤؛ استنادًا إلى فيليب خوري، في مؤلفه بالانكليزية «سورية والانتداب الفرنسي، القومية العربية والسياسية»). ولم تكد تنعم بخروج العثمانيين (١٩١٨) حتى احتلها الجيش الفرنسي في ١٩٢٠ إلى ان جاء عهد الاستقلال.

وهناك محطتان بارزتان، في تاريخ حماه المعاصر، متصلتان بكونها قلعة تقليدية لسلطة ملاّك الاراضي من جهة، ومركزًا للنزعة الاصولية السنية من جهة ثانية.

بالنسبة إلى المحطة الاولى، راجع «ثورة الفلاحين» باب «١٩٤٥-١٩٧٠» و«أكرم الحوراني» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة». أما بالنسبة إلى المحطة الثانية، وإضافة إلى ما ورد حول احداث ١٩٧٩-١٩٨٢ في باب «عهد الأسد»، فيمكن إيجاز الكلام عليها استنادًا إلى ما كتبه باتريك سيل («الأسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ص٥٣٧-٥٤١) تحت عنوان «إنتفاضة حماه»-في سياق احداث ١٩٧٩-١٩٨٢-بالتالي:

في الساعة الثانية من ليلة ٢-٣ شباط ١٩٨٢، كانت وحدة من الجيش تقوم بتمشيط المدينة القديمة (حماه القديمة)، فوقعت في كمين وقتل القناصون من على سطوح المنازل حوالي ٢٠ جنديًا. وبعد محاصرة الجنود لمقر القائد المحلي عمر جواد المعروف بـ«أبو بكر»، أعطى هذا الأمر بالقيام بانتفاضة عامة. فخرج المئات من المقاتلين الاسلاميين (الاخوان المسلمون) يقتلون وينهبون ويهاجمون بيوت المسؤولين والقادة الحزبيين، ويقتحمون مخافر الشرطة. وبعد ساعات فقط (صباح ٣ شباط ١٩٨٢) كان سبعون من كبار البعثيين قد ذُبحوا، وأعلن المقاتلون المدينة «محررة». واعتبرت السلطة في دمشق انها المعركة الأخيرة، وعليها يتوقف مصير البلد. وكان كل حزبي وكل جندي ومظلي أُرسل إلى حماه يعرف ان التشدد الاسلامي يجب اقتلاعه من المدينة هذه المرة مهما كان الثمن. وظلت معركة حماه مستعرة ثلاثة أسابيع ضارية، انقضى الاسبوع الاول منها

والحكومة تحاول ان تستعيد السيطرة على المدينة، والاسبوعان الآخران في اصطياد المتمردين. وأرسلت قوات محمولة بالطائرات المروحية لمساعدة الحامية المحلية على اغلاق مداخل المدينة قبل الانقضاض القاتل عليها. وبلغ الذين طوقوا حماه نحو ١٢ ألف رجل. وعندما أخذ الميزان يميل تدريجيًا لصالح الحكومة، تراجع المتمردون إلى الاحياء القديمة، ولا سيما حي البارودي والكيلاني، التي كانت معاقل هيأوها لحصار طويل. وبعد القصف الثقيل تحرك رجال الكوماندوس والمسلحون الحزبيون، تدعمهم الدبابات، لاخضاع فدادين من الاكواخ المبنية من الطين واغصان الشجر التي كانت سطوحها المتشابكة وأفنيتها المنبت الذي تربّى فيه المقاتلون. وهرب بعض المقاتلين إلى قنوات تحت الارض، بعد ان مسحت واستوت بالارض احياء بكاملها. ولحقت الاضرار وأعمال النهب بعشرات المساجد والكنائس والاماكن الأثرية (قصر العظم الشهير). وخلال شهر من القتال تقريبًا دمّر ثلث المدينة الداخلية التاريخية. وقدّر المتعاطفون مع الحكومة عدد القتلى بثلاثة آلاف، ومنتقدوها بعشرين ألفًا أو يزيد.

لم تقتصر المعركة على قتل كثير من الناس، بل أُخرج من المدينة التزمت نهائيًا. وعند إعادة بناء مجتمعها الممزق بذل جهد مقصود ليس لازالة الماضي فحسب، بل لتغيير المواقف وصُرف كثير من الاموال العامة. وأُزيحت الاحياء القديمة المتهدمة بالجرافات، وشقت طرق حيث لم تكن السيارات قادرة على المرور من قبل، وأقيمت حدائق وساحات، وأعيد تشكيل وتخطيط حماه كلها على نطاق واسع، مع وجود دوارات ومفترقات طرق لخدمة أحياء جديدة تمامًا مجهزة بمدارس وعيادات وملاعب واسواق كبيرة. ومن بين البنايات العامة الكبرى التي أقيمت بعد الهدم مستشفى يتسع لـ ٢٥٠ سريرًا، ومركز ثقافي ومعهد رياضي للبنات، وكلية لتدريب المعلمين، وسوق مركزية مبنية على الطراز الشرقي وبنايات لمقرات اتحاد الفلاحين ونقابتي المعلمين والمهندسين، ومركز رياضي ضخم الحجم جدًا وبركة سباحة حسب المقاييس الأولمبية. وبناء على اوامر الأسد موّلت الدولة بناء مسجدين كبيرين للتعويض عن المساجد التي تهدمت وكنيسة بحجم كاتدرائية. وكان من بين التغييرات الثورية إدخال السباحة المختلطة عام ١٩٨٣، وإقامة اول قسم داخلي جامعي في سورية كلها لإيواء الطلبة ذكورًا وإناثًا. ودخلت النادي الرياضي ٨٠ فتاة، وفي ١٩٨٥، فازت فتيات حماه بالبطولة الوطنية لتنس الطاولة... (تقصّد باتريك سيل إبراز امثلة عديدة على ما حققته السلطات للمرأة في حماه، في صورة ثورية، من حقوق بالمفهوم الديمقراطي الاجتماعي العصري، مقارنةً بما كانت تعانيه في حماه من كبت وحرمان في مختلف نواحي حياتها الاجتماعية تحت تأثير نشاط عقائدي وحركي محموم للاخوان المسلمين في المدينة).

* **الحمّة وبانياس:** راجع «مسألة الحدود السورية-الفلسطينية» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **حمص:** تعتبر ثالث مدينة سورية من حيث عدد السكان والأهمية بعد دمشق وحلب. تقع على نهر العاصي في الجزء الغربي من وسط سورية، وعلى الطريق بين دمشق وحلب، وتبعد ١٦٠كلم عن دمشق. وهي مركز محافظة تحمل إسمها منذ ١٩٣١. وتعد بموقعها المتميز همزة الوصل بين المناطق الشمالية والجنوبية والغربية والشرقية كافة وترتفع عن سطح البحر ٥٠٨م. ويبلغ عدد سكانها نحو ٧٥٠ ألف نسمة، أكثر من ربعهم مسيحيون، وعدد سكان محافظتها نحو ٢،٥ مليون نسمة، وهي أوسع المحافظات السورية

وأكثرها امتدادًا، إذ تصل حدودها الشرقية بالعراق، والجنوبية والغربية بلبنان، وتبلغ مساحتها ٤٢ ألفًا و٢١٨كلم م.، أي نحو اربعة اضعاف مساحة الجمهورية اللبنانية. ونظرًا إلى موقع حمص في وسط سورية، والبادية في جهتها الشرقية، فهي سوق للبادية ومركز مهم للمنطقة الزراعية التي تزرع الحبوب والخضار بانواعها، والقطن والارز والشمندر السكري، كما انها مركز صناعي يمتاز بصناعة المنسوجات كالشراشف والمناشف والانسجة القطنية والحريرية، وهي ايضًا غنية بالمعامل والمصانع المستحدثة فيها، وهي على اتصال سهل بمدينة طرابلس وبانياس، كما انها تقع عند عقدة الخطوط الحديدية السورية-اللبنانية والأوتوسترادات بين دمشق وحلب وبيروت والبقاع واللاذقية وتدمر.

عن إسم «حمص»، جاء في «المدينة العربية» (العدد ٤٧، آذار-نيسان ١٩٩٢، ص٩٢)، ان كتب التاريخ تذكر عدة روايات، منها: ١- رواية تقول إنه مشتق من كلمة «حث» وهو إسم القبيلة التي سكنتها؛ ٢- إنه مأخوذ من كلمة «إيميسا» Emesa الاغريقية؛ ٣- إنه مشتق ومأخوذ من «الحماسة» لأن حمص مدينة الاقوياء، وان بانيها رجل عماليقي إسمه حمص؛ ٤- إنه لفظة آرامية وتعني «الارض اللينة» لوقوع المدينة في السهل؛ ٥- إنه باسم بانيها حمص بن المهرب بن مكنف، أو حمص بن مكنف العمليقي؛ ٦- إنه، الاسم، يعود إلى أول من أنشأها حمث بن كنعان فسميت باسمه، وعلى مرور الايام أبدلت الثاء صادًا فصارت «حمص». وحمص لم تعرف باسمها الحالي إلا منذ العصر الروماني وقد سمّاها الرومان «إيميسا» (حمص).

أهم المعالم الأثرية في حمص:

١- قلعة حمص، تقع في الجنوب الغربي من حمص القديمة على تل ارتفاعه ٣٢م. فيها برجان يعودان إلى العهد الأيوبي، وتعود بقية تحصيناتها إلى العهدين المملوكي والعثماني. ولعبت القلعة دورًا مرموقًا في التاريخ خاصة في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية وفي عهد المماليك.

٢- سور حمص، ويعود إلى الحثيين والاراميين، ورممه الرومان وأولاه الأيوبيون عنايتهم. وحاليًا، تظهر آثار وبقايا هذا السور الضخم في المنطقة الشرقية من المدينة. وقد كان للسور سبعة ابواب اندثرت.

٣- مجموعة من الجوامع الأثرية كجامع الدالاتي وجامع الخليفة عمر بن عبد العزيز (وفيه قبره) ومسجد ابي ذر الغفاري. أما أشهر المساجد

جامع خالد بن الوليد.

والجوامع على الاطلاق، جامع خالد بن الوليد والجامع النوري الكبير.

يقال لجامع خالد بن الوليد «جامع سيدي خالد»، ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من حمص في حي الخالدية، ويعود بناؤه، بوضعه الحالي، إلى العهد العثماني إذ أقيم على انقاض المسجد القديم الذي كان قائمًا وفق الطراز المملوكي ايام الظاهر بيبرس في القرن الثالث عشر. والمسجد الحالي مشيد على الطراز العثماني ممزوجًا بطراز عربي المعروف في العام ١٩١٠. ويضم ضريح الصحابي خالد بن الوليد وولده سليمان بالاضافة إلى مقام عبيد الله بن عمر الخطاب. وتجمع الروايات، استنادًا إلى الكتابات المنقوشة والتي لا تزال موجودة وماثلة للعيان على ان الظاهر بيبرس المملوكي أدرك ضريح خالد فبنى فوقه مسجدًا صغيرًا وقام باصلاح قبره (سنة ٦٦٤هـ). و لم يكن قبر خالد آنذاك إلا مقامًا من المقامات التي كثرت في حمص في تلك الفترة. وكانت حمص قد ضمت رفات عدد من صحابة الرسول وتعرضت للكثير من الزلازل التي ضربتها وأزالت معظم معالمها التاريخية و لم يبق منها سوى القليل، ومن أهمها جامع خالد بن الوليد.

أما جامع النوري الكبير فيقع في وسط حمص، وقد كان في القديم معبدًا وثنيًا، وتحول بعد الفتح الاسلامي إلى مسجد. رممه وجدّده الملك الزنكي محمود نور الدين فحمل إسمه «النوري». وكان قبلاً كنيسة، وقد حوّلها الخليفة العباسي المتوكل إلى مسجد. وقد اعتبر هذا الجامع جامعة القرن الماضي وبداية هذا القرن، حيث كان يتم التدريس فيه، ويعدّ من أقدم اماكن العبادة في المدينة. وتتركز حول هذا الجامع الحمامات الشهيرة بالاضافة إلى العديد من الاسواق والخانات القديمة.

٤- الكنائس القديمة، وأهمها كنيسة ما برحت آثارها قائمة في حي آل الزهراوي ويعود تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي؛ وضريح القديس إيليان، الطبيب الحمصي، ويعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي؛ وكنيسة السيدة أم الزنار ويعود تاريخ بناء هيكلها إلى القرن الخامس الميلادي.

٥- أما المعالم الأثرية في مدن محافظة حمص فهي كثيرة جدًا. ففي منطقة تدمر تشمخ آثار تدمر الشهيرة (راجع «تدمر» في هذا الباب «مدن ومعالم»). وفي منطقة تلكلخ تشمخ قلعة الحصن ودير مار جرجس ونبع الفوار المقدس. وفي منطقة القصير، تل النبي مند، وطواحين وجسور وقناطر (رومانية). وفي منطقة الرستن مجموعة كبيرة من الكهوف الأثرية إضافة إلى سور المدينة، ومجموعة من الأقنية الرومانية والقبو الابيض، وتعتبر منطقة الرستن من أجمل المناطق السياحية في سورية. وفي منطقة المخرم قصر الشندفيان المعتبر أشهر معالمها الأثرية. وفي قرية قرب حمص تدعى «تلبيسة» وتبعد عنها ٥كلم فقط، ذكرت صحيفة «البعث» السورية (٤ حزيران ١٩٩٥) انه تم العثور فيها على مدفن طوله ٣،٥م وعرضه ٢،٥م وفيه العديد من القطع الذهبية على شكل أكاليل ومجموعة وريقات ذهبية على شكل وردة الزنبق وصفائح ذهبية صغيرة منقوشة عليها صور لحيوان مجنح وخاتم، وهو «أهم اللقى، والاعتماد عليه لتحديد تاريخ المدفن على نحو دقيق»؛ وعن مدير دائرة الآثار في حمص نجيب معاذ قوله «إن النقش الموجود على هذه الصفائح، والذي يمثل حيوانًا مجنحًا بوجه بشري يؤكد، حال ثبوت ان المدفن من العصر الهلليني، ان الحضارة اليونانية اخذت عن الآشوريين الكثير من الفنون واعتمدت رموزها ومنها هذا الطائر».

حمص في التاريخ:

حمص مدينة مغرقة في القدم، سكنها الانسان الحجري منذ ٥٠ ألف عام ق.م.، وتعاقب على سكنها الاموريون والحثيون والفينيقيون والآراميون واليونان والرومان والعرب

والاتراك، كما ورد ذكر حمص في التوراة أكثر من مرة. وقرب حمص وقعت معركة قادش التي انتصر فيها رمسيس الثاني على الحثيين. وعندها هزم أورليان الملكة زنوبيا في ٢٧٢. وأصيبت حمص بزلزالين مدمرين في ١١٢٧ و١٣٠٨.

كانت القبائل العربية التي استوطنت بادية حمص قد أخذت تستقر في المدينة منذ القرنين الاولين ق.م. مندمجة بأنسبائها الآراميين. وفي العام ٨٠ق.م. ظفرت حمص باستقلال إداري، إذ حكمت من قبل ملوكها المحليين من أسرة شمسيغرام (٨٠ق.م.-٧٩م) الذين بلغت حمص في عهدهم أوج الازدهار في الزراعة والصناعة والثروة ووفرة السكان. ومن أشهر ملوك هذه الاسرة شمسيغرام الثاني الذي اشتهر بكثرة ما شيده من قصور وقلاع. ثم عادت حمص ودخلت تحت الحكم الروماني. وفي ١٧٩، تزوجت جوليا دمنه، ابنة كاهن الشمس الاعظم في حمص القائد الروماني سبتيموس سيفيروس الذي اعتلى عرش روما في ١٩٧، فنالت سورية عامة وحمص خاصة في عهده الكثير من العناية والاهتمام بعمرانها وازدهارها. ثم توالى على عرش روما عدد من الاباطرة الحمصيين، هم: كراملا (٢١١-٢١٧)، ثم إيليوغابال (٢١٨-٢٢٨)، ثم سيفيروس الثاني (٢٢٩-٢٣٥) الذي يعتبر من اعظم اباطرة روما وأكثرهم ميلاً إلى الاصلاح.

عندما استقلت أسرة السميذع العربية في تدمر وحكمت سورية ايام أذينة الثاني (٢٤٥-٢٦٦) وزوجته زنوبيا التي حكمت من بعده كوصية على ولدها القاصر وهب اللات (٢٢٦-٢٧٣) اتخذت هذه الأسرة مدينة حمص عاصمة صيفية لها إضافة إلى تدمر العاصمة الرئيسية. وكان الفيلسوف الحمصي لونجينوس (٢١٣-٢٧٣) المستشار الاول لزنوبيا. وهو الذي قتله الامبراطور ديوكليتان عند انتصاره على زنوبيا وأسره لها. فعادت حمص وخضعت للحكم الروماني، فالبيزنطي. ولما مرّت بها الملكة هيلانة والدة قسطنطين الكبير (٢٢٦) بنت فيها كنيسة، قال فيها المؤرخ المسعودي: «إنها آية من الروعة والجمال». وفي هذا العهد عاش في ضواحي حمص مار مارون (الناسك القديس) الذي انتقل بعدئذ إلى منسكه في جهات الهرمل قرب منبع نهر العاصي، حيث ما برح الناس حتى اليوم يذكرون مركز إقامته ويعرفونه باسم «مغارة الراهب».

ثم حكم حمص الغساسنة العرب برعاية البيزنطيين. ولما اعتلى هرقل العرش، اتخذ من حمص قاعدة لتنقلات جيشه، واثناء حروبه مع الفرس ثم مع العرب المسلمين الذين دخلوها صلحًا بالاتفاق مع سكانها المسيحيين (٦٣٧) وقد جعلها العرب إحدى مراكز الجند خارج الجزيرة العربية (الكوفة والبصرة في العراق، ودمشق وحمص في بلاد الشام، والفسطاط في مصر...). وعرفت حمص في عهد الخلفاء الراشدين شأنًا عظيمًا. ومما يجدر ذكره ان علي بن ابي طالب قال للحامل لواء همذان في معركة صفين التي دارت بينه وبين معاوية بن ابي سفيان: اكفني أهل حمص، فأني لم الق من احد ما لقيته منهم. وقد اختارها خالد بن الوليد دار إقامة له حيث توفي ودفن فيها سنة ٦٤٢ (٢١هـ).

والمعروف عن الحمصيين انهم كانوا أشد انصار معاوية وأشجعهم في الحروب، وكان معاوية متزوجًا من ميسون إبنة زعيم قبيلة كلب المسيحية الضاربة في بادية حمص وهي أم ولده يزيد. وبقي لحمص مركزها المرموق طيلة عهد الأمويين ومطلع عهد العباسيين الذهبي؛ ثم انحطت مكانتها السياسية لأنها كانت بين آونة وأخرى تعلن العصيان وتشعل الثورات ضد العباسيين وولاتهم، فلا تحصد إلا الخراب والدمار. وبالرغم من ذلك، فإن الحركة الأدبية رافقتها طيلة هذه الحقب لأن عددًا كبيرًا من الادباء والشعراء والعلماء عاشوا فيها كالشاعر عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن الحمصي، والامير الشاعر ابو فراس الحمداني

الذي تولى إمارة حمص فترة من الزمن، والشاعر ابو الطيب المتنبي، والاديب الشاعر أحمد بن معمعه الحمصي وسواهم.

ولما جاء الصليبيون عجزوا عن الاستيلاء على حمص، إذ كان لأبنائها من مسلمين ومسيحيين موقف موحد، فدافعوا عن المدينة وتمكنوا من رفع أذية الصليبيين طيلة الحروب الصليبية.

ولما استولى تيمورلنك على بلاد الشام، مر بمدينة حمص فلم يدمرها أو يستبيحها كما فعل ببقية المدن السورية، بل وهبها لجثمان خالد بن الوليد، الثاوي فيها، قائلاً: «يا خالد، إن حمص هديتي إليك، أقدمها من بطل إلى بطل».

وتراجعت المدينة إبان حكم المماليك ثم العثمانيين. فكان ولاتهم مستبدين متغطرسين، نهبوا الاموال وعاثوا بالبلاد فسادًا، ما دفع بالكثير من الأهلين إلىالهجرة من حمص، فانخفض عدد سكانها لدرجة ان الجغرافي وولندي Wallendy يذكر ان عدد سكان حمص في ١٧٥٦، لا يتجاوز ٤ آلاف نسمة. وعاد هذا الرقم وتصاعد تدريجيًا حتى بلغ في ١٨٤٨ نحو ٢٠ ألف نسمة كما يقول القنصل الفرنسي غوي، وإن منهم ٧ آلاف من المسيحيين. ولما حدثت مجازر ١٨٦٠ وسفكت فيها دماء الابرياء من المسيحيين في لبنان ودمشق، تعهد كل من زعماء المسلمين والعلماء وقادة الرأي في حمص بحماية سكان محلته من المسيحيين خوفًا من تعدي الغوغاء، فحالوا دون سفك الدماء في المدينة، وأوقفوا في الوقت نفسه ايصال اخبار المجازر الجارية في الجنوب إلى سورية الشمالية.

في الحرب العالمية الاول، شارك عدد من أبنائها في الثورة العربية، وعلق جمال باشا ثلاثة منهم على أعواد المشانق (دمشق، ٦ ايار ١٩١٦)، هم: الشيخ عبد الحميد الزهراوي والمحامي رفيق رزق سلوم والدكتور عزة الجندي. وبرز عدد كبير من ابنائها في الحقل الوطني والقومي إبان الانتداب الفرنسي، وبعده في العهد الاستقلالي الحالي.

* **حوران:** هو الإسم التاريخي لمحافظة درعا الحالية. تمتد من مشارف دمشق شمالاً حتى الاردن جنوبًا حتى جبل العرب شرقًا على مساحة ٤٦٠٠ كلم م.، فتكون، بموقعها هذا، البوابة الجنوبية لسورية. تربتها غنية وترتفع تدريجيًا عن سطح البحر حتى تصل إلى ارتفاع ١٨٥٩م عن سطح البحر، ما جعل زراعاتها مختلفة ومتنوعة على مدار السنة.

يقول العلماء انها كانت مهد سكن الانسان منذ نحو ٣٠٠-٢٥٠ ألف سنة ق.م. (الحضارة الآشولية)، وتوسع السكن فيها بين ١٥٠-٩٠ ألف سنة ق.م. (الحضارة اليبرودية). وفي التاريخ المكتوب، استقر العموريون والكنعانيون في حوران (الألف الثالث ق.م.) ومارسوا الزراعة وبناء المدن وأنشأوا الحصون العسكرية. ويميل أكثر المؤرخين إلى الاعتقاد انهم (العموريون والكنعانيون) اتجهوا إلى مصر، بعد توطيد مواقعهم في حوران، واستولوا على السلطة (١٧٣٠ق.م.) وشكلوا الأسرة الرابعة عشرة.

اهتم الأنباط بحوران (خاصة مدينة ومنطقة بصرى الشام) لغناها الاقتصادي وموقعها. فحدث نوع من التنافس بين البتراء، مدينتهم الروحية، وبين بصرى. وجاء الحصار الروماني ودور الفرس ضد الرومان والأنباط معًا ليضعف البتراء، وليحل بصرى محلها كمدينة للقوافل والتجارة وبشكل أوسع. وفي ايام الرومان اصبحت بصرى عاصمة الولاية الرابعة في بلاد الشام (راجع «بصرى الشام» في هذا الباب «مدن ومعالم»).

في كتاب خليل المقداد، «حوران عبر التاريخ» (دار حوران للنشر، دمشق ١٩٩٦؛ مراجعة وسيم الأحمر في «الحياة»، ١٠ نيسان ١٩٩٧) ان المسيحية في حوران عرفت ثلاث مراحل: «الاولى منذ نشأتها وحتى السلام

الكنسي إذ يشير بعض الروايات إلى ان الديانة المسيحية دخلت حوران وانتشرت اثناء العهد النبطي ومع قدوم الرومان كان عدد الجالية المسيحية كبيرًا. والثانية خلال القرنين الرابع والخامس إذ حمل السلام الديني الازدهار إلى الكنائس وبخاصة الشرقية وكنائس الولاية العربية وتحديدًا بصرى، وعرفت هذه الفترة السلام الكامل. أما الفترة الأخيرة فامتدت من ازمة الطبيعة الواحدة وحتى الفتوحات الاسلامية وتميزت بالاضطرابات المستمرة مقارنة مع المرحلة السابقة».

وبعد الفتح الاسلامي، «بقيت المسيحية في حوران، وتم تعاون مطلق بين القادة المسلمين والعرب المسيحيين ساعد في انهيار البيزنطيين. وترك المسلمون الاوائل بصمات على ارض حوران جعلت منها مكانًا روحيًا مهمًا. وتقول الروايات ان آمنة عندما حملت بالنبي رأت نورًا انعكس منها وأضاء قصور بصرى، فكانت حوران اول رقعة في العالم خلص إليها نور النبوة. وجاءت بشرى النبوة للرسول العربي من ارض حوران على يد راهب بصرى النسطوري «بحيرة» بينما كان محمد مع عمه ابي طالب في تجارة من بلاد الشام إلى الحجاز. وعلى ارض حوران دارت معركة اليرموك حيث هزم البيزنطيون، كما كانت اول منطقة يزورها الخليفة عمر بن الخطاب أثناء مرافقته لقوات المسلمين وحضوره للمشاركة في مؤتمر الجابية. وفي عهد عثمان بن عفان وصلت إلى بصرى أول نسخة من القرآن الكريم. وبني فيها اول مسجد في بلاد الشام زمن الخليفة عمر بن الخطاب في بصرى وأزرع ودرعا.

وفي العهد العباسي، لم تنعم حوران بالاستقرار السياسي والاجتماعي، وانقسمت إلى القسم الجنوبي الاقصى ويشمل جزءًا من فلسطين والاردن ومركزه شمالي الرملة، والقسم الثاني مركزه دمشق وفيه معظم اراضي حوران. وفي العهد الأيوبي جعلها صلاح الدين مركزًا لتجميع قواته ضد الصليبيين. وفي العهود العثمانية غابت عنها الاهتمامات العمرانية التركية وفقدت الكثير من معالمها التاريخية.

وحديثًا، كانت حوران نقطة انطلاق الثورة العربية لتحرير دمشق (١٩١٨)، وركّز الامير فيصل على مدينة درعا باعتبارها نقطة حيوية للمواصلات وحماية القوات البريطانية ومنع القوات التركية من ارسال الامدادات لفلسطين.

* **الخابور**: راجع «رأس العين» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **دمشق**: ١- في العاصمة: عاصمة الجمهورية العربية السورية. معتبرة أقدم مدينة في العالم متواصلة السكن والدور الحضاري حتى اليوم. سكانها الدمشقيون يعدون نحو ٢،٥ مليون نسمة، ويدخلها ويخرج منها يوميًا مثل هذا العدد تقريبًا من السوريين من مختلف المدن والمناطق بقصد متابعة العمل وأنشطة الحياة اليومية كافة.

لكن هذا العدد يتخطاه باتريك سيل بكثير (في مرجعه المذكور مرارًا: «الأسد، الصراع على الشرق الاوسط») علمًا انه وصل بتدوينه للأحداث، وبوصفه لمشاهداته حتى ١٩٨٨، ونحن اليوم في صيف ١٩٩٧ (وهذا يعني ازديادًا في عدد السكان قد يصل إلى ٤٠-٥٠٪). يقول سيل عن دمشق، ديمغرافيًا وإنماء (ص٧١٧-٧٢٠):

«إن احتلال الريف للعاصمة قد نجم عنه انفجار لم يسبق له مثيل من الاعتزاز بالمدن (...) في عام ١٩٤٥، عندما كان الأسد طالبًا في المدرسة، كانت دمشق بلدة يقطنها ٣٠٠ ألف نسمة، وعندما تسلم السلطة في ١٩٧٠ كان عدد سكانها قد تجاوز الـ٨٠٠ ألف نسمة. ولكن خلال اقل من عشرين سنة بعد ذلك كان السكان قد انفجروا إلى اربعة اضعاف ذلك الرقم فأصبحوا

يزيدون بكثير على ثلاثة ملايين. وذلك انعكاس للحروب، والثورة الاجتماعية، ومعدل ولادات قدره ٣،٨٪، وهو واحد من أعلى المعدلات في العالم.

«لقد تدفق اللاجئون على دمشق بعد سقوط الجولان في ١٩٦٧، وعندما انفجرت الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥ وعندما غزته اسرائيل في ١٩٨٢، وبالطبع عند كل كارثة جديدة في الملحمة الفلسطينية الهائلة: ١٩٤٨ و١٩٦٧، و١٩٧٠ و١٩٨٢. وبحلول الثمانينات كان هناك حوالي ربع مليون فلسطيني قد لجأوا إلى سورية، معظمهم في دمشق، وظل حوالي ربعهم يقطن في مخيمات بينما اندمج الباقون في الحياة السورية. وباعتبارها قريبة من خط الجبهة، معرضة لخطر الحرب باستمرار، كان على دمشق ان تجد متسعًا لعوائل الحاميات العسكرية الكبيرة في ضواحيها. وكانت جامعتها تحوي ٧٥ ألف طالب في ١٩٧٢ حتى خفّ الضغط عنها عند توسيع جامعة حلب وإنشاء جامعتين اخريين في حمص واللاذقية. وباعتبار دمشق عاصمة دولة مركزية، ومقر سلطة الحزب، ومقر كثير من الصناعات ومشاريع الدولة، فقد كانت نقطة جذب للناس من جميع انحاء البلاد.

«ولكن اكبر عامل في نمو المدينة كان زحف الفقراء إليها من الريف في سيل لا ينقطع. ولإيوائهم انفجرت المدينة خارج حدود الخطة التي رسمها مهندس تخطيط المدن الفرنسي إيكوشار في ١٩٦٨. فراحت تلتهم بساتين الغوطة النفيسة، وابتلعت كذلك القرى المجاورة بالجملة، وشكلت ضغطًا رهيبًا على عين الفيجة، الينبوع الذي ظل يروي دمشق أجيالاً، ثم شرعت تتلوى في شريط من العمارات المتورمة القائمة على المضاربات على طول الطرق الموصلة حتى التصقت تمامًا بالحد الطبيعي لجبل قاسيون في الشمال والشمال الغربي، وتلال المزة إلى الغرب، وما تبقى من منتجع الغوطة في الشرق. أما في الجنوب، على طول الطريق إلى القنيطرة الذي كان يمر خلال الصحراء والشجيرات المنخفضة، فقد راح الناس يحفرون آبارًا ويزرعون قطعًا من الارض بالخضار ويقيمون بيوتًا صغيرة. واستمر تدفق الفلاحين على دمشق مع ذلك، وعندما لم يستطيعوا العثور على مأوى سكنوا في اكواخ غير مرخصة عند مداخل المدينة وعلى المنحدرات الاعلى فوق قاسيون. وكانت هذه ثماني مناطق تدهورت في منتصف الثمانينات حتى صارت أحياء فقيرة مكتظة بما يقرب من مليون نسمة. وبعد محاولة فاشلة لوقف الزحف الكثيف، اعترفت السلطات بأولئك السكان غير النظاميين كسكان دائمين وبدأت اعتبارًا من ١٩٨٢ تجهزهم بالشوارع والمدارس والعيادات والكهرباء وصنابير المياه ذات العدادات.

«ولحفظ دمشق من مزيد من النمو غير المخطط، أقيمت ضواح سكنية في ١٩٨٠، كمدينة جبل قاسيون، لإيواء ٩ آلاف نسمة على موقع مساحته ٢٦٠٠ هكتار، أو سلسلة قرى الأسد لإيواء ٦٠ ألف نسمة في شمالي العاصمة. وامتدت طرق وسكك حديد عوّدت السوريين على التنقل بين العاصمة والضواحي للعمل والعودة إلى مساكنهم.

«ومع ذلك ظلت دمشق برغم هذا التوسع تعطي الانطباع بأنها مدينة منظمة التخطيط ومسيطر عليها ونجت من الانتشار الفوضوي الذي تصاب به كثير من عواصم العالم الثالث. فالمخيمات البائسة في الاحياء الفقيرة المحيطة بالعاصمة حيث كان الوضع أسوأ من غيره، لم تصل حالتها إلى بؤس مدن الأكواخ الطينية والقصديرية (التنك) الافريقية أو الاميركية اللاتينية. ففي معظم احياء المدينة السبعة والستين، كانت الحياة منظمة بشكل معقول، والشوارع نظيفة ومزودة بالمياه، والقمامة يتم جمعها، والمرور ينتظم بلا ازدحام كبير، والخدمات العامة تعمل

بطريقة مرضية إلى حد لا بأس به.

«في السبعينات والثمانينات نهضت عاصمة حديثة فيها جسور وأنفاق وساحات كبرى تربط أحياء سكنية واسعة ووحدات من الشقق والعمارات، وتجمعات لمبان جامعية ومستشفيات ومعاهد بحوث، كما ارتفعت بنايات فنادق دولية مثل الشيراتون والشام بالاس الذي اقامه عثمان العائدي، أبرز بناة الفنادق في البلد، مع حديقتين عامتين شاسعتين في شرقي دمشق وغربيها، وصروح فارهة أخرى كقصر الضيافة الجديد الذي يستطيع إيواء اربعة رؤساء دول مع جميع مرافقيهم دفعة واحدة، والقصر الجمهوري الضخم الجديد المطل على المدينة، ومكتبة الأسد، ومشروع مجمع دار الأوبرا المسرحي. وعلى طريق المطار يتم إنشاء مركز للمؤتمرات على موقع مساحته عدة مئات من الدونمات، وكذلك معرض دمشق الدولي الجديد، ومدينة السينما والكلية العسكرية للبنات. وهذه كلها ترمز بطرق مختلفة إلى الطموحات المتعاظمة للبلد ورئيسه، فلقد كان الأسد يتطلع إلى جعل سورية القوة العربية المسيطرة في المشرق، وبطلة الصراع مع اسرائيل... وأمة معادلة في أهميتها لمصر والعراق، وأراد عاصمة تليق بذلك».

٢- في الاسم (دمشق): تروي بعض المؤلفات، من دون تدقيق علمي، وأقرب إلى الرواية الدينية، أن «دمشق أخذت إسمها من دماشق بن قاني بن مالك ارفخشد بن سام بن نوح، وتروي مؤلفات أخرى ان بيوراسف هو أول من بناها، وقيل هو جيرون بن سعد بن عاد بن ارم بن سام بن نوح، وسماها إرم ذات العماد؛ وبعضهم قال إن هودًا نزل دمشق ورفع الحائط الذي في جنوبي جامعها (المسجد الاموي)، وقيل ايضًا إن إليعازر غلام ابراهيم اسس دمشق. لكن وإن اختلفت الكتابات والاجتهادات حول سبب التسمية والمؤسس الحقيقي، فهي قد اتفقت على قدمها الذي يعود إلى القرن السابع ق.م.، وبعض الكتابات أعادت زمن بنائها إلى القرن الخامس عشر ق.م.، فقد ذكرت كتابات آثار معبد الكرنك، وكتابات تل العمارنة، وقائمة تحوتمس إسم «دامسكو» أو «تمسقو» بالكتابة الهيروغليفية، وتعني الزهرة المثمرة تيمنًا بغوطتها، وعنها أخذ الاسم اليونانيون والاوروبيون في ما بعد. كما ورد ذكرها في الكتابات المصرية والآشورية والكتاب المقدس» (سمير صارم، «المدينة العربية»، العدد ٣٦، آذار ١٩٨٩، ص٤٩).

عندما استوطن الآراميون سورية وفلسطين، كانت «دمسك» Themsk (بالآرامية)، أي دمشق، عاصمة مملكتهم. وينسب لها أحد المستشرقين الألمان هذه التسمية لأنها «ذات مسك» لكثرة ورودها وحدائقها.

وتتعدد أسماء دمشق «فهي الفيحاء، أو جلق أو لؤلؤة الشرق كما سماها الامبراطور جوليان، دمشق هذه أو «دامسكي» كما كانت تسمى في الواح مملكة إيبلا كانت موجودة في الألف الثالث ق.م. كحاضرة مزدهرة، كما ان الوثائق الفرعونية القديمة ذكرتها باسم دمشق؛ وبعد ذلك برزت دمشق في منتصف الألف الثاني ق.م. كمركز للملكة الآرامية يحمل إسم «دار ميسيق» أي الدار المسقية، وهي مسقية حقًا («العربي»، العدد ٤١٩، تشرين الاول ١٩٩٣، ص٣٩).

٣- في المعلمين الطبيعيين، جبل قاسيون وبردى: قاسيون هو الجبل الذي تقوم مدينة دمشق عند اقدامه. يتصل من جهة الغرب بسلسلة جبال لبنان، ومن الشمال والشرق بسلسلة جبال القلمون الممتدة إلى منطقة حمص. وعملت عوامل جيولوجية مائية على فصله من السلسلتين فبدا وكأنه جبل خاص بدمشق. السكن فيه سبق السكن في دمشق الحالية؛ فكان أولاً لضرورات الحماية والدفاع قبل ان يهبط الأهالي مع ارتقاء

معارفهم وتجارتهم إلى السهل. كان لقاسيون عند اهالي دمشق مكانة مقدسة (تمامًا مثلما هي حال الجبال عند ساكنيها أو ساكني المناطق المجاورة لها في التاريخ والمرويات الدينية)، فوضعوا له الأساطير والقصص الغريبة: ففي سفحه الأدنى، في بيت الأبيات، وهي محلة بقيت عامرة إلى القرن الخامس عشر كان يسكن أبو البشر آدم، وفي أعلاه قتل قايين أخاه هابيل ففتح الجبل فاه لفظاعة هذا العمل يريد ان يبتلع القاتل، وأخذ الجبل يبكي، وفي كهف جبريل جاءت الملائكة إلى آدم تعزّيه بابنه هابيل؛ وفي شرقي قاسيون كان مولد ابراهيم الخليل؛ وفي غربيه الربوة التي آوى إليها السيد المسيح وأمه؛ وقرب الربوة في النيرب كان مسكن حنة أم مريم وجدة المسيح... أما ما كان في قاسيون وسفوحه من المنشآت والمحلات الآهلة بالسكان، التي سبق إنشاؤها وجود الصالحية الحاضرة، فهي سبع محلات: الربوة، دير مران ومكانه اليوم أسفل قبة السيار، النيرب وكان يلي الربوة من جهة دمشق، وأرزة ومكانها اليوم حي الشهداء في طريق الصالحية، ومقرى وتقع شرقي الجبل، والميطور اسفل المدرسة الركنية اليوم. ولا شك ان إنشاء الصالحية زاد من عمران هذه الاماكن وازدهارها حتى اصبح جبل قاسيون يدعى بجبل الصالحية. ويرجع الفضل في إنشاء الصالحية إلى بني قدامة المقدسيين الذين نزلوها في عصر نور الدين محمود زنكي، ثم إلى الملوك الأيوبيين الذين أنشأوا فيها المصانع والمعاهد الثقافية والعلمية والخيرية. وقد انقسمت إلى مناطق سكنية عدة تبدأ من برزة في الشرق إلى ركن الدين والأكراد مرورًا بحي الشيخ محي الدين وانتهاء بمنطقة المهاجرين.

أما نهر بردى الذي يخترق دمشق فسمي بذلك لبرودة مائه، وكان يُسمى نهر الذهب ايام الرومان. ينبع من أحد سفوح جبال لبنان الشرقية علىَ ارتفاع ١٢٠٠م في قرية يقال لها القنوا. ومن المحتمل ان تكون القنوا القديمة هذه هي عين حور الآن وهي واحدة من أولى العيون التي تغذي بردى. يمر بوادي عريض عليه قرى قبل ان يبلغ الفيجة، ويظن ان كلمة الفيجة من Pege اليونانية لأنه نبع غزير جدًا يضاعف مياه بردى، وتبعد الفيجة ٢٠كلم عن دمشق. فإذا صار النهر قريبًا من دمشق انقسمت منه انهار سبعة: يزيد وتورا والقنوات وباناس والمزّي والديراني، ويكون هو سابعها الذي يدخل دمشق ثم يخرج منها فيجتاز الغوطة فيسقيها، ثم يصب في بحيرة المرج أو بحيرة دمشق أو بحيرة العتيبة كما كانت تدعى. وفضل بردى على دمشق ظاهر، وقد نهج بذكره الشعراء منذ ايام الجاهلية حتى يومنا هذا، وله في الأدب العربي فصل خاص. لكن في العقود الأخيرة ونتيجة للزحف السكاني المدني ولنقص غزارة النهر بصورة مذهلة والاستخدام الجائر لمياهه إضافة لتلويثها بمياه المجاري، إذ بينت إحصائية اخيرة وجود خمسين قرية تصب مياه الصرف الصحي عليه قبل دخوله دمشق عدا مدينة دمشق، انكبت السلطات على وضع دراسات، ثم مشاريع مختلفة، أهمها مشروع الصرف الصحي المرتقب، تأمل منها حلاً للمشكلة (جهاد خليل، «الحياة»، ٣١ تموز و١٠ آب ١٩٩٦).

٤- في أهم المعالم الأثرية:

- سور دمشق الذي بنته أجيال متعاقبة من العهد اليوناني والروماني. أما ما قبله فهي آثار آرامية، والاعتقاد الغالب ان بعض أجزاء مدينة دمشق الآرامية متراكم في تل السماكة الذي يرتفع عن مستوى الارض الطبيعي ما يقرب من ٥-٦ امتار.

جدار السور في وضعه الحالي هو من منشآت العصور الوسطى. وهي المنشآت التي تراكمت، سواء بالترميم أو بالتعديل أو بالنقصان أو بالاضافة، على السور الأساسي العائد إلى العصر اليوناني-الروماني. وليس للعلماء رأي بعد

الجامع الاموي بعد الترميم.

في ما إذا كان هناك من أساس لهذا السور أو لبنات أو طبقات سفلية عائدة لما قبل العصر اليوناني- الروماني. السور مستطيل يحيط بمدينة دمشق القديمة التي اظهر مخططها ان شارعين متعامدين يقطعانها، أحدهما تُعرف آثاره الآن وهو يمتد من باب الجابية إلى الباب الشرقي. والسور في وضعه الحالي (العائد إلى القرون الوسطى) لا يتوافق مع الجدار القديم إلا في جزء من الجهة الشمالية الشرقية من السور، وجزء من الجهة الشرقية الملاصقة للباب الشرقي، إضافة إلى ان الابواب توجد مكان الابواب الرومانية باستثناء باب الفرج وباب النصر اللذين فتحهما المسلمون. ومعظم اعمال الترميم الحاسمة والمهمة التي تعرض لها السور تمت في عهد الأتابك نور الدين في حدود ١١٦٠، و لم يتعرض بعد ذلك لتعديلات عبر القرون التالية باستثناء دفع حد السور من الجهة الشمالية بين باب الفرج وباب السلام حتى شاطىء نهر بردى ليستوعب المدينة المتوسعة، وذلك في النصف الاول من القرن الثالث عشر. ومن ابراج السور، بقي برجان في حالة حفظ جيدة: برج نور الدين (١١٧٣)، وبرج الصالح (١٢٤٨ في عهد نجد الدين ايوب). أما ابواب السور فهي: باب الجابية (بناه السلطان نور الدين)، باب توما (ينسب إلى احد عظماء الروم واسمه توما)، باب الفرج (مزدوج: داخلي ١٢٣٩، وخارجي في القرن الخامس عشر)، باب الفراديس أو العمارة (مزدوج: خارجي يعود إلى القرن الثالث عشر، وداخلي إلى الخامس عشر)، باب السلام (وهو الأهم بين الابواب ويعود بناؤه إلى ١٢٤٣)، باب كيسان (القرن الرابع عشر، وقد هدم حديثًا وأقيمت موضعه كنيسة القديس بطرس)، الباب الشرقي (لا يزال من ايام الرومان في القرن الثالث. نزل عليه خالد بن الوليد يوم فتح دمشق، دخل منه عبد الله بن علي العباسي يوم سقوط الامويين، وكذلك نور الدين لما سقطت دمشق بيده. جدّده محمود بن نور الدين زنكي).

– الجامع الاموي الذي بناه الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك بحسب مخطط معماري جديد سعى للافادة من المنشآت المعمارية الموجودة في الموقع، خصوصًا مجموعة الاسوار الخارجية التي تحيط بالمعبد الروماني، وكذلك قاعدته وجدره التي كانت قائمة، وكان على إسم «معبد جوبيتر الدمشقاني» والذي حلّت محله في القرن الرابع «كاتدرائية القديس يوحنا المعمداني-تودور الثاني». جاء شكل الجامع في بادىء الامر مستطيلاً (١٥٦×٩٧م) متوجهًا نحو الشرق، ولما كان توجه المسلمين نحو الجنوب، أجري تعديل على الشكل ليصبح قريبًا من المربع. واقيمت اربع قاعات هي التي تدعى الآن «مشاهد الصحابة»، ثم هدم برجان من الابراج الاربعة التي كانت ترتكز على زوايا المستطيل وتحمل نواقيس (اجراس)، وبنيت مئذنة في وسط الجدار الشمالي معروفة باسم «مئذنة العروس». وبعدها قسّم الوليد ما تبقى من المساحة إلى ثلاثة اقسام: حرم، صحن، رواق. وفي وسط الحرم بني قبة شاهقة كان ارتفاعها أكثر من ٥٠م تعرف بقبة النسر. وعمل في ورشة البناء هذه أكثر من ١٢ ألف عامل وفني لمدة عشر سنوات. وفي العصر العباسي، ادخلت على المسجد تعديلات وإضافات عدة. وشهد الجامع العديد من الكوارث والحرائق بسبب الفتن والحروب والزلازل التي تعرضت لها مدينة دمشق. في ١٩٩٢، قررت السلطات المباشرة بورشة ترميم شاملة، وتألفت لجنة خاصة يرأسها وزير السياحة وتتمثل فيها وزارة الثقافة ووزارة الاوقاف وتضم اختصاصيين في التاريخ والآثار. وفي اواسط ١٩٩٥، كانت نسبة ٨٥٪ من اعمال الترميم قد أنجزت وبلغت كلفتها ٢٠٠ مليون ليرة سورية (٤ ملايين دولار)، واستمر العمل لانجاز النسبة المتبقية. وأهم اعمال الترميم تناول حصرًا المواقع التي تضررت مباشرة بفعل الزلازل أو

الحرائق وآخرها الحريق الكبير الـذي تعرض لـه في ١٨٣٩. وللمرة الاولى يخضع الجامع الذي استغرق بناؤه عشر سنوات (٧٠٥-٧١٥) لعملية ترميم شاملة ولتطوير مختلف واجهاته وحتى تمديدات الكهرباء والتدفئة والمياه.

– قلعة دمشق: بنيت قبيل وإبان فترة حكم الأيوبيين. وهي من القلاع النادرة التي ما زالت تحافظ على قسم كبير من بنائها الاصلي. ويقول المؤرخون إن أول من خطط لانشاء هذه القلعة هو أتسيز الخوارزمي في عهد السلاجقة الاتراك، وقد أتمّ هذه المهمة من بعده الامير تتش الب أرسلان، وبعد انتهاء حكم السلاجقة الاتراك لدمشق، تابع الأتابكة تحصين الاسوار بين عامي ١١٢٨ و١١٤٨. واهتم نور الدين زنكي بزيادة تحصين اسوار دمشق وقلعتها. وتابع صلاح الدين الايوبي ما بذله السابقون. إلا ان خلفه الملك عادل ابو بكر بن ايوب أعاد بناء هذه القلعة من جديد واستمر عمله زهاء ١٢ عامًا، انجز في نهايتها قلعة كبيرة ذات ١٢ برجًا وسور متين محاط بخندق عميق. وفي عصر المماليك ازداد الاهتمام بالقلعة وبخاصة في عهد الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون حتى صارت إمرة القلعة منفصلة عن إمرة المدينة نفسها. وقد تضاءلت القيمة العسكرية للقلعة خلال فترة الحكم العثماني. وحتى وقت قريب، استخدمت كسجن مركزي، ومقر لبعض الخدمات. إلا ان هذا الوضع تغير، بدءًا من ١٩٨٨، حيث تم إخلاؤها لتصبح مركزًا سياحيًا وثقافيًا وترفيهيًا.

– قصر العظم: يقع هذا المعلم المهم البارز في قلب دمشق القديمة، أي ضمن السور، وعلى بعد حوالي ١٥٠م جنوبي الجامع الاموي الكبير في أول السوق المسمّى «البزورية» (نسبة إلى تخصصه في بيع البزورات المختلفة والتوابل والعطارة وعلب الافراح والشموع والقمر الدين). شيّده اسعد باشا العظم المولود في معرة النعمان عام ١٧٠٤. والي الشام في ١٧٤٣ بعد وفاة عمه سليمان العظم الذي كان واليًا على الشام. كان محبًا للعمران، فقد شيد في حماه قصرًا يعتبر من أروع القصور، كما شيّد في دمشق خانًا (قيسارية: بمكانة الفندق في ايامنا هذه) دعي باسمه «خان أسعد باشا العظم» ووصفه الشاعر الفرنسي لامارتين حين زاره في دمشق (١٨٣٣) بأنه من أجمل قيساريات الشرق على الاطلاق وأن قبابه قد ذكرته بقباب كنيسة القديس بطرس في روما. كما بنى اسعد

أحد جوانب قصر العظم.

باشا الابراج على طريق الحج ورمم المساجد والمآذن، لكن من اعظم مآثره العمرانية بناء قصره في دمشق الذي بالغ في زخرفته فأتى آيةً في الابداع والجمال. وقد شرع بعمارته سنة ١٧٤٩ ليكون دارًا لسكنه في موقع كان جزءًا من صحن معبد جوبيتر في العهد الروماني، ومكان دار الذهب التي بناها في عهد المماليك نائب السلطان الامير تنكز. وقبل ان يكون دار الذهب فقد ذكرت المصادر انها كانت دار الفلوس أما قبل ذلك، في صدر الاسلام قال عنها بعضهم إنها كانت دار خالد ابن الوليد، وقال بعض آخر إنها كانت دار الخليفة الاموي معاوية (قصر الخضراء). وقد أنفق اسعد باشا اموالاً طائلةً في بناء القصر وزخرفته وجنّد له من الصناع الحرفيين واصحاب المهن عددًا كبيرًا، وجمع الاخشاب والاعمدة والرخام والبلاط وكافة مواد البناء من دور دمشق وأبنيتها الأثرية، و«اشتغلت بها غالب معلمي البلد ونجاريها وكذلك الدهانين، بل قلّ ان يوجد معلم متقن أو نجار أو دهان إلا والجميع مشتغلون بها، وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة أينما وجد بلاط أو رخام وغير ذلك مثل عواميد وفساقي يرسل فيقلعها ويرسل القليل من ثمنها (...) وكلما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشاني أو غيرها يرسل فيأتي بها إن رضي صاحبها أو ابى» («المدينة العربية»، العدد ٦١، تموز -آب ١٩٩٤، ص٥٦-٥٧؛ نقلاً عن المؤرخ الشيخ أحمد البديري الحلاق الذي كان معاصرًا للوالي اسعد باشا العظم، في كتابه «حوادث دمشق اليومية»).

ويتبع مخطط القصر البيت الشامي التقليدي الذي يمتاز بانفتاحه نحو الفناء الداخلي ويسمى عند أهل الشام بـ«ارض الديار» وعدم وجود فتوحات خارجية وإن وجدت فهي صغيرة ومرتفعة.

ظل القصر في حوزة آل العظم مسكنًا خاصًا يتوارثه الابناء عن الآباء، وآخرهم خالد العظم، السياسي السوري المعروف، الذي سكنه إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، حين ابتنى في شارع ابو رمانة المعروف دارة جديدة على الطراز الايطالي كان يقضي فيها فصل الشتاء، ودارة أخرى في غوطة دمشق، قرب ضاحية دمر، كان يقضي فيها فصل الصيف.

في ١٩٣٢، باع اصحابه قسمًا منه إلى الفرنسيين الذين حوّلوه إلى مقر حامية عسكرية ثم إلى مركز لدراسة الفنون ثم معهدًا للدراسات الشرقية. وتعرض بناء القصر لاضرار كثيرة أثناء الثورة السورية الكبرى. وجعلته المديرية العامة للآثار متحفًا في ١٩٥٤. لكن الاهمال والحريق (١٩٥٦) كادا يقضيان عليه. فبدأت اعمال ترميمه، وصدر في ٢٤ كانون الاول ١٩٦١ قرار وزارة الثقافة بتسجيله في عداد المباني التاريخية الأثرية، كما أتمت المديرية العامة للآثار والمتاحف إجراءات استملاكه، فتم ذلك في ١٩٦٩. واستمرت اعمال الترميم إلى ان انتهت في ١٩٨٣.

عن القصر، وعن بانيه اسعد باشا العظم يقول فيليب حتي («تاريخ سورية ولبنان وفلسطين»، دار الثقافة-بيروت، ١٩٨٣، ص٣٠٩): «كان اسعد، الذي بدأ حياته السياسية حاكمًا على صيدا ثم على حماه، خير وال عرفته دمشق إبان الحكم العثماني. وقد تولى كذلك شؤون الحج المقدس، ولا ريب في انه جنى منه ثروة طائلة. ولا يزال قصره في مدينة حماه، الذي تشغله الآن مدرسة أهلية، من روائع الآثار المقصودة على نهر العاصي. وأفخم منه القصر الذي بناه في دمشق سنة ١٧٤٩، والذي يعتبر اروع اثر عربي ظهر في هذا القرن. فطرازه الهندسي، وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر في الخشب، تمثل أروع ما بلغه الفن الاسلامي في عهد انحلاله».

- المدارس الاسلامية المستقلة: المقصود

بذلك المدارس المنفصلة، ببنائها عن المساجد. إذ من المعروف ان المسلمين اتخذوا مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلوم اللسان، وظلوا على ذلك في الشام حتى اواسط القرن الحادي عشر، أي حتى تأسيس أول مكان منفصل عن المسجد هو «خانقاه دوير حمد» لتلقى فيه الدروس ويخصص له المدرسون والاوقاف؛ ثم المدرسة الرشائية في اواخر القرن الحادي عشر. وكانت دمشق سبّاقة بذلك عن باقي المدن الاسلامية. ووصل عدد مدارسها هذه إلى نحو ١٧٠ مدرسة في القرن السابع عشر. وكانت تقسم إجمالاً تبعًا لمذاهب الأئمة: الشافعية، الحنفية، الحنبلية والمالكية. وأهم هذه المدارس المدرسة الظاهرية المنسوبة إلى الملك الظاهر بيبرس، ولم يبق من بنائها اليوم إلا الواجهة والقبة، وما حولهما، أما الباقي فقد تحول إلى بناء إسمنتي على الطراز الحديث، وقد حوّلت منذ ١٩٤٧ إلى مكتبة عرفت بدار الكتب الظاهرية كانت تضم ما يفوق على ١٣ ألفًا من المخطوطات القديمة النادرة نقلت فيما بعد إلى مكتبة الأسد. ولم تقتصر هذه المدارس على علوم الدين والفقه، فقد كان في دمشق خصوصًا مدارس لتعليم الطب والصيدلة والفلك والجغرافيا والتاريخ والهندسة، وكان لهذه العلوم فيها نظم ومناهج.

* **دورا أوربوس**: راجع «الجزيرة» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **دير الزور**: المدينة الرئيسية في الجزيرة السورية وأكبر مدينة في شرقي سورية، ومركز لتوزيع المحاصيل الزراعية وللتجارة، والمركز السوري الاول لاستخراج النفط. ودير الزور من أقدم مدن حوض الفرات، ولعبت دور حامية عسكرية في العصر الاسلامي (راجع «الجزيرة» في هذا الباب «مدن ومعالم»).

تدشين مكتبة الأسد في دمشق (١٦ تشرين الثاني ١٩٨٤). الرئيس الأسد ووزيرة الثقافة نجاح العطار.

من جان الكسان، وهو من ابناء دير الزور («العربي»، العدد ٤١٣، نيسان ١٩٩٣، ص١٣٢-١٣٩) هذه المعلومات:

أهم معلم أثري فيها (وهو يوشك على الزوال بسبب التوسع العمراني الحديث) هو حي الدير العتيق حيث تتراكم آثار عدة حضارات متعاقبة في تل يتألف من انقاض مدن كثيرة، الواحدة فوق الاخرى وقد بنيت كل واحدة في عهد بعيد عن الأخرى بسبب الحروب التي تعاقبت على المنطقة والتي كانت تودي إلى تقويض المدن. أما عن أسماء المدينة فقد ذكر الجغرافي اليوناني بطليموس في القرن الثاني الميلادي أسماء عدة مدن على الفرات، ومنها اسماء توقع العلماء انه للمدينة التي تسمى الآن «دير الزور»، ومن هذه الاسماء: برتة، ادارة، جديرته؛ واللفظة الأخيرة آرامية وتعني حظيرة الأغنام.

ويوافق موقع دير الزور ايضًا «دير الرمان» الذي ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي.

ويروي المعمرون من أهل المدينة انه كان بدير الزور رمان ممتاز انقطع بسبب توالي الخراب الذي كانت الغزوات تلحقه بالمدينة. وكانت توجد عدة أديرة على ضفاف الفرات درست بسبب الحروب، ولم يبق سوى «ديرنا» الذي اجتذب الناس المشردين بسبب الحروب إليه. وكانت لفظة «الدير» مجردة وشائعة لدى القبائل المجاورة، فهم يقولون، حتى اليوم، إنهم ذاهبون إلى الدير أو قادمون من الدير. وفي القرن التاسع عشر، كانت المدينة تعرف باسم «دير الشعار»، أي الشعراء، لأن شعراء عديدين من أبناء الدير كانوا يقصدون شيوخ العشائر يمدحونهم بشعرهم. ثم غلب إسم دير الزور، و«الزور» هو المنطقة الظليلة الممتدة ما بين البادية ونهر الفرات. والباحث في تاريخ دير الزور، ماضيًا وحاضرًا، لا يحتاج إلا إلى مراجعة الموسوعة الفراتية الضخمة التي وضعها العلامة والباحث والمؤرخ الفراتي عبد القادر عياش، فقد وضع عن المنطقة والمدينة مائة وخمسين مؤلفًا تعتبر أكبر موسوعة في نوعها، بالاضافة إلى قيامه طيلة حياته الحافلة بجمع قطع أثرية مختلفة من آثار المنطقة وتبرع بها لتصبح متحفًا تراثيًا وحضاريًا يحمل إسمه.

من أهم معالم المدينة الحديثة الجسر المعلق الوحيد في نوعه في قارة آسيا. وقد قامت شركة فرنسية عام ١٩٢٥ بتعهد بنائه على الفرات في موقع بالمدينة يربط «الشامية» وهي المنطقة الواقعة إلى يمين الفرات بـ«الجزيرة» وهي المنطقة الواقعة إلى يساره. وقد أتمت الشركة بناء الجسر في ست سنوات بطول ٤٥٠م وعرض ٣،٦٠ امتار، وترتفع كل ركيزة من ركائزه الاربع من قاع النهر إلى ٣٦م. وبلغت التكاليف آنذاك مليونا وثلث المليون ل.س.

وعلى الرغم من ان دير الزور منطقة زراعية فقد طورت فيها الصناعة في الربع الاخير من هذا القرن، واصبح فيها معامل ضخمة للورق والغزل والنسج، بالاضافة إلى الصناعات التقليدية كحياكة العباءات والبسط والسجوف والخناجر والسيوف والسكاكين وصناعة الحلي الذهبية والفضية والفؤوس والآلات الزراعية والاواني النحاسية والفخارية والخشبية وسروج الخيل والأعنة والعقل (جمع عقال) واللباد والأحذية المحلية (الكلاشات) وصنع الفروات من جلود الخراف ودلال الماء لسقاية المزروعات وصناعة السلال ونقر الرحى والادوات الموسيقية الفولكلورية كالربابة والدف والمزمار والطبل. وتقترب الفنون الغنائية والموسيقية الفراتية من فنون العراق والخليج (إلى هنا ينتهي ما جاء بقلم جان الكسان في المرجع المذكور أعلاه).

في ٢٢-٢٥ شباط ١٩٩٦، شهدت دير الزور احتفالاً حمل مغزى تاريخيًا-حضاريًا كبيرًا، وذلك عندما نظمت وزارة الثقافة السورية-المديرية العامة للآثار والمتاحف بالتعاون مع جامعة برلين ومعهد الآثار الألماني، برعاية الرئيس السوري حافظ الأسد، في دير الزور، مؤتمرًا اكاديميًا عالميًا تحت عنوان: «الجزيرة السورية-التراث الحضاري والصلات المتبادلة». افتتحت الندوة وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطار وألقت كلمتها نيابة عن الرئيس الأسد. وتحدث وزير الدولة الالماني للشؤون الخارجية هيلموت شيفر الذي حضر خصيصًا لافتتاح متحف دير الزور الجديد الذي قامت الدولة الالمانية ببنائه وتجهيزه بالتعاون مع وزارة الثقافة السورية. ومما قاله الوزير الالماني: «قدم المكتب الالماني الاجنبي، في ١٩٨١، برنامجه بخصوص الحفاظ على التراث الثقافي، وقد حازت سورية على المركز الثاني في ترتيب الدول الحائزة، في هذا الاطار، على دعم اتحادي مالي...» وفاق عدد المحاضرات التي ألقيت في المؤتمر أكثر من ستين محاضرة ركزت على مواضيع تاريخية وأركيولوجية في الجزيرة (راجع «الجزيرة» في هذا الباب «مدن ومعالم»).

*** ديكابوليس (المدن العشر):** تعبير استعمل خلال العصور الرومانية، قبل الميلاد وبعده، للدلالة على عشر مدن (ديكا: عشرة، بوليس: مدينة) احتلت مكانة مرموقة في بلاد الشام في ظل الادارة الرومانية. هذا على رغم ان البحاثة والمؤرخين يختلفون كثيرًا في تحديد هوية هذه المدن العشر وإن كانوا يجمعون إجمالاً على انها «عشر مدن يونانية الاصل أنشئت في المرحلة الهلينية (الاغريقية) وشكلت في ما بينها كونفدرالية سياسية واقتصادية وساهمت في صد هجمات اليهود عبر الاردن والقبائل العربية عبر الصحراء». وإذا كانت هذه المقولة صحيحة من حيث المبدأ والغاية، إلا انها تتضمن نوعًا من الغموض في ما يتعلق بأصل المدن. إذ المتعارف عليه إن بعضها أقدم بكثير من المرحلة الاغريقية، وان الاصول آرامية وكنعانية موغلة في القدم.

قسم من هذه المدن ما زال مأهولاً حتى اليوم، والقسم الاكبر منها لم تبق منه سوى أطلال يعمل فيها المنقبون وعلماء الآثار حاليًا. ويعتمد بعض المؤرخين على ما أورده بلليني في القرن الميلادي الاول عندما قال ان المدن العشر هي: دمشق، فيلادلفيا (عمان)، رافانا، سيكثبوليس، (عدارة)، هيبوس، ديون، بيللا، جيلاسا (جرش) وكاناتا. وتحديد هذه المدن يبدو ان خلافًا كان عليه حتى في العهدالقديم، إذ يضيف بطليموس، في منتصف القرن الميلادي الثاني، عليها تسع مدن أخرى منها هليوبوليس (بعلبك) وأبيلا وغيرهما.

«في ايلول ١٩٩٢، عقد مؤتمر هو الاول من نوعه، في مدينة أوكسفورد البريطانية تناول موضوع الديكابوليس واستطاع ان يجمع أكثر من ٥٠ باحثًا توافدوا من جميع انحاء العالم لتدارس الخلفيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمدن العشر... ومن النتائج المحصلة للاوراق المقدمة ان «الديكابوليس» صار مجرد عبارة تشير إلى نوع من التحالف السياسي والاقتصادي لمجموعة من المدن في جنوبي الهلال الخصيب ووسطه في ظل الادارة الرومانية آنذاك. وقد دعا إلى هذا المؤتمر الدكتور شفيق ابو زيد رئيس جمعية آرام» («الحياة»، ٧ كانون الاول ١٩٩٤).

المؤرخون وعلماء الآثار المسيحيون أكثر الاختصاصيين اهتمامًا بتاريخ هذه المدن. ومما أورده بشأنها الأب بطرس ضو («تاريخ الموارنة»، ج٦، لبنان في حياة المسيح، ط١، ١٩٨٠، ص٢٥٥-٢٦٥) نقتطع الفقرات التالية:

مرقس جاء على ذكر المدن العشر بقوله: «ثم خرج (المسيح) من تخوم صور، ومرّ في صيدا، وجاء فيما بين تخوم المدن العشر إلى بحر الجليل (أي بحيرة طبريا). و لم يوضّح لا انجيل متى ولا مرقس الطريق التي سلكها المسيح من صيدا إلى تخوم المدن العشر. ولاستجلاء ذلك يجب معرفة ما هي بلاد المدن العشر La Décapole؟.

كانت في ايام المسيح اتحادًا من عشر مدن تقع شرقي الاردن. أقصى هذه المدن شمالاً هي دمشق واقصاها جنوبًا عمّان التي كانت تدعى آنذاك فيلادلفيا. وبين دمشق وعمان سائر المدن: قنوات وهي أقصى هذه المدن شرقًا، وبيسان اقصاها غربًا، ثم جرش وديون وبالاً وعدّارة ورفنيّه وهيبوس. فبلاد المدن العشر توافق اليوم الجولان وحوران ومنطقة دمشق وقسمًا من شرقي الاردن.

وأهم هذه الاسئلة التي تطرح حول هذه الجولة فيما إذا كان السيد المسيح دخل دمشق، وفيما إذا كان هناك من آثار أو كتابات تثبت أو تنفي هذه الزيارة؟.

بالنسبة إلى الآثار، لم يكتشف بعد ما يبرهن قطعًا على زيارة المسيح لهذه المدينة، خاصة وان كثيرًا من المزارات الاسلامية خلّفت مزارات ومقامات مسيحية كما هو معروف لدى الباحثين والمؤرخين من مسلمين ومسيحيين في الشرق والغرب.

خارطة تبين مواقع الديكابوليس (المدن العشر) ورحلة السيد المسيح

كما رسمها الاب دوران (الاب بطرس ضو، «تاريخ الموارنة»، ج٦، ص ٤٧٤).

أما بالنسبة إلى الزيارة، فتختلف حولها آراء العلماء والمؤرخين. فمنهم من ينكر ان يكون يسوع قد زار دمشق، راسمًا طريق عودته إلى طبريا على هذا الشكل: من صيدا إلى جزين فراشيا فقطنة بدون المرور بدمشق. وآخرون يثبتون هذه الزيارة ويقولون إنه انطلق من صيدا إلى جزين فميسلون فدمشق، ويبرهنون على ذلك بأن هذه الطريق معروفة منذ القدم، بينما لا تعرف طريق من جزين إلى راشيا فقطنة. ومن دمشق اتبع الطريق المعروفة بطريق البحر التي كانت تصل دمشق ببحيرة طبريا مارة فيما بين المدن العشر.

أما عن موقف الاسلام عامة من زيارة السيد المسيح لدمشق، فمعظم مفسّري القرآن الكريم وعلماء الحديث والمؤرخين والرحالة، والجغرافيين العرب يؤكدون حدوثها. فهذا ياقوت الحموي، أعظم جغرافيي العرب، يقول: «الرُّبْوة... قال المفسرون في قوله عزّ وجل: وأويناهما (يسوع وأمه مريم) إلى ربوة ذات قرار ومعين إنها دمشق...».

وياقوت هذا في مؤلفه «معجم البلدان» ينسب قولاً فيه «... إن عيسى بن مريم، عليه السلام، أشرف من جبل البضيع، يعني جبل الكسوة، على الغوطة فلما رآها قال عيسى للغوطة: إن يعجز الغني ان يجمع بها كنزًا فلن يعجز المسكين ان يشبع فيها خبزًا».

ويقول ابن عساكر في تاريخ دمشق: «مغارة الدم أو كهف جبريل في جبل قاسيون: أوى إليه يوحنا المعمدان مع أمه... وصلّى فيه المسيح مع الحورانيين. وهو المكان الذي فيه يستجيب الله طلبات الناس... ومن اراد ان يرى المكان المقول عنه: وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين، فليأت إلى النيرب بين النهرين (نهر يزيد ونهر ثورا) وليصعد إلى جبل قاسيون وليصلّ هناك، فهذا هو البيت الذي إليه لجأ يسوع مع أمه من اليهود».

* **رأس العين:** مدينة في منطقة الجزيرة السورية التي تسمّى اليوم محافظة الحسكة التي تحتل الجزء الشمالي الشرقي من سورية، ويحدها من

أكراد يعبرون نهر الخابور.

الشمال تركيا ومن الشرق العراق ومن الغرب محافظة الرقة ومن الجنوب دير الزور (مساحة محافظة الحسكة ٢٣ ألف كلم م). وتبعد مدينة رأس العين مسافة ٩٠كلم عن مركز المحافظة مدينة الحسكة، وتعد نحو ٣٠ ألف نسمة (وتعد منطقة رأس العين نحو ١٤٠ ألف نسمة).

وتعود تسميتها (رأس العين) لوقوعها على أكبر عيون منابع نهر الخابور الذي كان ينقل تجارتها إلى بغداد وبقية مدن ما بين النهرين. وقد وضعها ابن حوقل في مقدمة المدن التي حددها على خريطة نهر الخابور التي رسمها، ووصفها في كتابه «صورة الارض» بقوله: «وكانت رأس العين مدينة ذات سور، وكان داخل السور لهم من المزارع والطواحين والبساتين ما كان يقوتهم لولا ما منوا من الجور الغالب والبلاء الفادح، وفيها من العيون ما ليس ببلد من بلدان الاسلام، وهي أكثر من ثلاثمائة عين جارية كلها صافية يبين ما تحت مياهها في مرورها على اراضيها، وفيها غير عين لا يعرف لها قرار». وقال عنها ياقوت الحموي: «هي مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، وفي رأس العين عيون كثيرة عجيبة صافية، تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور... والخابور هو إسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من ارض الجزيرة، ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها إسمه... وأصل النهر من العيون التي برأس عين، ثم ينتهي إلى قرقيسياء فيصب عندها في الفرات...».

في ١٩٦٢، انتبه الناس لظهور فوهة صغيرة يتدفق منها ماء أخضر، على بعد ستة كلم من رأس العين، ومنذ ذلك الوقت ظلت تلك الفوهة تتسع وظل تدفق المياه الكبريتية في ازدياد حتى صارت الفوهة بحيرة صغيرة، وصار النبع نهرًا يعطي ٤٣٢٠٠ متر مكعب/ساعة... وعين الكبريت هذه تعتبر مصدرًا عملاقًا لمياه معدنية نادرة الوجود في المنطقة... تزدحم بالراغبين في العلاج الطبي.

قرية تل حلف الشهيرة بمكتشفاتها الاثرية تعتبر بوابة رأس العين من جهة الغرب (وبوابتها عبر التاريخ). فقد أثبتت المكتشفات التاريخية في قرية تل حلف منذ ١٨٩٩ (ولا تزال اعمال التنقيب فيها) على يد عالم الآثار الالماني فون أوبنهايم ان تل حلف ما هي إلا مدينة رأس العين التاريخية القديمة ذاتها. وهناك اسماء أخرى لها غير إسم تل حلف. إذ كان يطلق على رأس العين إسم تل الفخيرية وواشوكاني وفاشوكاني وغوزانا ورش عينا وعين الوردة.

وحول رأس العين، و«تل حلف» ومنطقتهما هذه النبذة التاريخية (خليل قطيني، «العربي»، العدد ٤٠٦، ايلول ١٩٩٢، ص١٠٢-١٠٦):

كانت هذه المنطقة تمثل مستوى اجتماعيًا راقيًا في الجزء الشمالي من بلاد الشرق الادنى خلال الألف الرابع ق.م. وتأكيدًا لتفوق حضارة تل حلف يقول عالم الآثار الالماني د. مورتكارت: «لقد اتخذت ثلاث مناطق حضارية في بلاد المشرق الادنى اسماء ثلاثة مواقع اثرية هي: تل حلف في الجزيرة السورية وسامراء في العراق وشبه سيالك في ايران». ويؤكد علماء الآثار والمؤرخون ان منطقة ينابيع الخابور كانت قاعدة لحضارة الشعب السوباري من بلاد سوبارتو في الجزيرة السورية. وقد كان هؤلاء يستغلون وسائل النقل المائية في تجارتهم، فكانت الاموال المرسلة من الشمال تحمل على مراكب تمخر مياه الخابور وصولاً إلى دجلة والفرات، ومنها ما كان يشحن من تل حلف بالذات التي اكتشف فيها أوبنهايم مرفأ نهريًا كانت المراكب تنحدر منه في نهر الخابور ثم في الفرات لتبلغ بلاد بابل. وقد ظل السوبارتيون قرونًا طويلة يعملون ويبنون في هذه المنطقة، فنمت زراعتهم وازدهرت تجارتهم إلى ان آل الأمر إلى قبائل انحدرت من الشمال الغربي

واستولت على بلاد سوبارتو. لكن الأمر لم يدم طويلاً لهذه القبائل، إذ هبط عنصر آري آخر من الشمال الشرقي من منطقة بحيرة «واك» في تركيا بعد منتصف الألف الثالث ق.م. والارجح انهم استقروا في منطقة ينابيع الخابور في تل حلف، وأسسوا الدولة الميتانية التي يعود أقدم أثر خطي ذكرت فيه إلى منتصف القرن الخامس عشر ق.م. وهو رقم صادر من امير ميتاني يدعى شاوشتار إلى امير نوزي قرب كركوك، وتدل لهجة الخطاب على ان المخاطب كان تابعًا، وكانت الدولة الميتانية إحدى اعظم ثلاث دول في الشرق الادنى مع الدولتين المصرية والحثية في ذلك الوقت.

وقد زحف الآشوريون على الدولة الميتانية واستولوا عليها ودمروا عاصمتها فاشوكاني (رأس العين)، إلا انهم لم يستقروا بسبب الحروب بينهم وبين ا لحثيين، الأمر الذي مهّد لظهور الدولة الآرامية التي أسسها الملك كابارا بن قاديانو وجعل قاعدتها عند ينابيع الخابور مختارًا تل حلف (القريبة جدًا من رأس العين لجهة الغرب) مقرًا لها. ودلت المكتشفات على ان الآراميين اقتبسوا الفن السوبارتي، وظهرت لهم نشاطات في مجال البناء والاعمار، واعطوا البلاد لسانهم الآرامي... هذه الدولة لم تعمّر طويلاً، في وقت بلغت فيه الدولة الآشورية أوج عظمتها وغلبت عليها روح السيطرة والفتح، إذ قام تيفلات تلاصر الاول ملك آشور بغزو الدولة الآرامية في القرن العاشر ق.م. ودمّر مدينة تل حلف وما ضمته من قصور باذخة واسوار رائعة. وتذكر مذكرات هذا الملك ان حروبًا طويلة وطاحنة دارت بينه وبين الآراميين انتهت بطردهم في يوم واحد حتى قرقميش (حرابلس). ومنذ ذلك الحين اصبحت الجزيرة السورية مقاطعة آشورية حتى انهيار هذه الدولة على يد الفرس الذين لم يعثر لهم على أي اثر في تل حلف في ذلك الوقت. غير ان الطبقة التي تعود للعصر اليوناني في تل حلف تظهر مساكن أنيقة والكثير من وسائل الترف والراحة. ثم حل الرومان محل اليونانيين، واعتبارًا من هذا العهد برز إسم رأس العين تحت أسماء سريانية ورومانية وعربية (رش عينا، آرسين تيوديوسيوليوليس، عين الوردة...)، واصبحت هذه المدينة تحتل مكانًا مرموقًا وجعلها الامبراطور تيودوز في مصاف المدن الكبرى وحصنها تحصينًا منيعًا، ووضع فيها حامية قوية حملت إسم تيودوزبوليس، وعلا شأنها، وكانت منطقة صراع بين الفرس والروم. ويذكر المؤرخون السريان ان كسرى الثاني تنازل عنها للرومان، ولكن القائد الفارسي أقراماهان غزاها بعد ذلك ودمرها على دفعتين في ٥٧٨ و٥٨٠، واستولى عليها الفرس مرة أخرى في ٦٠٢ في عهد الامبراطور فوكاس.

وكانت رأس العين بلغت من القوة ما جعلها تصمد طويلاً امام الفتح العربي الاسلامي في الوقت الذي فتحت فيه سائر مدن الجزيرة صلحًا (حران، الرها، مروج، أكساس، العمق، ماردين، الرقة، ديار بكر...).واستعصى على جيش المسلمين بقيادة عياض بن غنم فتح رأس العين بالحرب المواجهة، لولا استخدام الكثير من الحيل، وتحول قسم من جيش حاكم المدينة إلى صفوف المسلمين وقيامهم بفتح ابوابها امام الجيش الاسلامي. وكان القائد العربي الشهير، خالد بن الوليد، قد وقع في الأسر في اثناء هذه المعركة، واقتيد هو وصحبه إلى برج القلعة بانتظار ساعة الحسم في المعركة التي لم تكن سهلة و لم تحسم إلا على مراحل. وحوّل المسلمون رأس العين في ما بعد إلى مركز تجاري كبير ومحطة مهمة للقوافل بين أرجاء الامبراطورية العربية. وذكرت بعض المصادر ان المتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين قد نزلوا الجزيرة واصطافوا في رأس العين، وان عملة عباسية ضربت يومًا في هذه المدينة، وساد رأس العين رخاء واضح زاد من ازدهاره زراعة القطن التي كانت تمد به كلاً من الموصل وارمينيا بكميات كبيرة،

وشهدت معارك شهيرة في التاريخ أشار إلى أهمها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» حين قال: «عين الوردة هي رأس العين المدينة المشهورة بالجزيرة، كانت فيها وقعة للعرب ويوم من ايامهم، وكان احد رؤسائهم يومئذ رفاعة بن شداد». ولعل هذه الواقعة التي اشار إليها الحموي هي التي جرت بين الكوفيين من أتباع علي بن ابي طالب وبين جيش الامويين القادم من الشام، بعد ان شعر الكوفيون بمرارة الندم على خذلانهم للحسين بن علي، وكان على رأس هذه الحركة رفاعة بن شداد الذي راح يدعو للثأر للحسين. وقد اعلن هؤلاء الثائرون خلع سلطان الامويين فخرج لحربهم عبيد الله بن زياد من الشام في ثلاثين ألف مقاتل، والتقى الفريقان في رأس العين، ودارت بينهما حرب ضروس انتهت بتراجع الشاميين إلى بلادهم لما رأوا صبر الثائرين وبأسهم رغم قلتهم.

وفي ١١٢٩، غزا الصليبيون بقيادة جوسلان رأس العين. وكغيرها من مدن الجزيرة تعرضت للغزو المغولي إبان حكم تيمورلنك الذي دمّرها تدميرًا شديدًا.

ومن المؤرخين من يؤكد ان رأس العين حازت على مكانة كبيرة في الحياة الفكرية والعلمية طيلة القرون الوسطى، وانجبت عددًا كبيرًا من العلماء والباحثين، منهم القسيس سرجيوس الذي لقب بشيخ اطباء المدينة وخيرة المترجمين عند اليعاقبة، ويقال إنه اول من عرّف السريان على مؤلفات ارسطو...

وإذا عدنا إلى الوراء، نجد ان المكتشفات الاثرية التي ظهرت في تل حيفا، تخبرنا بالكثير عن المكانة العلمية والفكرية والثقافية المرموقة التي وصلت إليها رأس العين منذ أقدم العصور (فخار مُلوّن، صنع وسائل النقل، اعداد ضخمة من الاختام، خواتم، رقائق ذهب، معبد صغير يرجع إلى العهد الآشوري، ادوات صيد...).

* **راوية:** راجع «مقام السيدة زينب» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **الرقة:** مدينة سورية (ومركز أثري بالغ الأهمية) واقعة في المثلث الارضي الممتد من جبال طوروس شمالاً والمحصور بنهري الفرات من الغرب والبليخ من الشرق. لأهمية المنطقة أثريًا واهتمام المدينة بها، حصلت الرقة في ١٩٨٦ على جائزة «منظمة المدن العربية» كأفضل مدينة تقوم بترميم وحماية آثارها. وقد عبرت الجائزة عن الجهود وما وصلت إليه منذ بداية السبعينات في كشف وتسجيل وترميم وحماية الآثار. والآثار في الرقة تتطلب الكثير من العناية والصيانة والترميم بسبب نوعية مادة البناء المستخدمة، فالآجر المشوي والمجفف يسود بشكل كبير كمادة اساسية تشاد بها القلاع والقصور والأسوار. وعليه سارعت مديرية آثار الرقة، في السنوات القليلة الماضية، إلى إنشاء ثلاث وحدات لتصنيع هذا الآجر وتزويد ورشات الترميم به ونجحت في تصنيع وإنتاج هذا الآجر التاريخي. وكذلك تتابع ورشات الترميم عملها في قلعة جعبر وغيرها من المواقع. وأدت اعمال التنقيب إلى اكتشافات مذهلة على الصعيد العلمي التاريخي، كما تعد باكتشافات أخرى ترسم صورة واضحة للتاريخ، كون هذه المنطقة تغطي بانتظام تراتبي فترات تاريخية تبدأ من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر العثماني. وتعمل في منطقة الرقة نحو ١٦ بعثة تنقيب أجنبية (منها سبع المانية) وتبدي الجامعات الاوروبية اهتمامًا متزايدًا بها. أما الفرق المحلية فتركّز تنقيبها وبحثها في قلعة جعبر الواقعة، الآن، عند طرف بحيرة «الأسد» المستحدثة من جراء بناء سد الفرات العام ١٩٧٤، في حين ان موقعها قبل السد والبحيرة فوق هضبة كلسية مرتفعة عن سطح البحر ٣٤٧م، لكن ارتفاع المياه خلف السد أحاط بالهضبة فبقيت القلعة بارزة بعد ان أضيف إليها سور ضخم مبني

بالاسمنت المسلح للتخفيف من تأثير ارتطام الامواج بالسور الاصلي. ولا يزال الغموض يحيط بزمن بناء القلعة. البعض يتحدث انها بنيت قبل الاسلام على عهد الملك النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وان بانيها هو غلامة دوسر فسميت «الدوسرية». والبعض الآخر يقول إنها بنيت في عهد جعبر بن سابق القشيري في القرن الخامس الهجري، ومنه اخذت القلعة إسمها الحالي. وأبرز ما في القلعة المئذنة الاسطوانية الضخمة القائمة على بقايا جامع هدمه المغول، وباني هذه المئذنة هو نور الدين الزنكي، وتعتبر من اجمل المآذن في سورية.

* **سراقب:** بلدة وناحية من نواحي محافظة أدلب. تقع على بعد ٣٦كلم إلى الجنوب من مدينة أدلب. ازدادت أهميتها باكتشاف آثار مملكة إيبلا (تل مرديخ) التي تبعد ٨كلم جنوبيها.

* **سلقين:** مدينة سورية، قاعدة ناحية سلقين (من نواحي محافظة أدلب). تبعد ٤٥كلم عن مدينة أدلب وتقع على ضفاف العاصي، وتعد نحو ٥٠ ألف نسمة. وسلقين واحدة من أقدم مدن المحافظة، ويعود تاريخها إلى العهد الروماني. استمدت اسمها من سلقيوس، القائد الروماني الذي كان يقطنها. تشتهر بصناعاتها الحرفية. ويعتبر الزيتون أهم محاصيلها الزراعية، كما تجود فيها زراعة الاشجار المثمرة كالتفاح والتين والخوخ إضافة إلى الخضار.

* **شهبا:** بلدة مجاورة لبصرى الشام في محافظة السويداء السورية. ميزتها الأساسية في انها تحتضن آثارًا رومانية على غاية من الأهمية كان شيّد مبانيها ومنشآتها ابن البلدة الامبراطور الروماني فيليب العربي الذي تربع على عرش روما لسنوات قليلة (٢٤٤-٢٤٩) والذي اراد ان يجعل من شهبا مدينة عظيمة تنافس أعظم مدن الامبراطورية الرومانية فأطلق عليها إسم «فيليبوبوليس» (مدينة فيليب)، وأمر بتحسينها وتحصينها، وبتشييد المباني المدنية والدينية من معابد وقصور وحمامات عامة واقواس نصر، ومسرح.

يقع المسرح في القسم الجنوبي من المدينة بجوار المقبرة التي شيدها الامبراطور فيليب لوضع رفاة والديه فيها. ويشرف المسرح من الجهات كافة على البيوت السكنية الحديثة التي تتداخل بشكل ملفت مع المواقع الاثرية في المدينة سواء مع المسرح أم الحمامات والمتحف والابواب الكليبية. وهذا الامر بالذات (تداخل البيوت الحديثة بالمواقع

قلعة جعبر.

الاثرية) يفسّره العلماء والمؤرخون انه يدل على ان المدينة لم تهجر من قبل سكانها منذ ان شُيّدت على رغم الحروب والغزوات، وذلك على نقيض معظم المدن الاثرية. ولا يزال القسم الأكبر من المسرح محفوظًا بصورة جيدة، وأعمال الترميم مستمرة فيه.

وهناك صرح عمراني يسمى «الكليبة»، ويقع إلى جانب المسرح. و«الكليبة» إسم يوناني اطلقه العالم دوفوغييه على هذا النوع من الأبنية الدينية المنتشرة بكثرة في جنوبي سورية، ومعناه «المسكن الريفي» الذي اطلق على اكواخ اليونانيين القدماء وبيوت الرعاة وحوريات الماء. ويعتقد عدد من علماء الآثار ان الكليبة هي معبد وثني شيّد في المدن والقرى لحفظ نذور الضباط وأوسمتهم. في حين يعتقد آخرون ان هذا النوع من البناء كان مخصصًا لسكن تماثيل الرموز الوثنية.

وفي مدينة شهبا، حمامات رومانية عامة كبرى بنيت خلال الاعوام نفسها (٢٤٤-٢٤٩). ووجود هذه الحمامات يعني ان تلك المدينة كانت تعيش حالة من الرخاء والاستقرار أدت بها إلى تأمين وسائل الراحة والترفيه لسكانها. تقع هذه الحمامات على الطرف الشرقي من الشارع الرئيسي الممتد من الشمال إلى الجنوب. وثمة غرف ملحقة بهذه الحمامات ومخصصة للمكتبة، والمطالعة، والرياضة، والمطعم، وغرف أخرى للهو والتسلية. وما يثير الدهشة ان تأمين المياه لمدينة فيليبوبوليس (شهبا) ولحماماتها، كان من قرية الظبية التي تبعد مسافة ١١كلم إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وذلك بواسطة أقنية تسير عند مدخل المدينة فوق أقواس لم تزل قواعدها وبقايا بعضها ظاهرة حتى الآن. ويزيد ارتفاع القوس الواحدة عن ٧ امتار.

وفي مطلع الستينات من هذا القرن، تم الكشف عن دار رومانية تعود إلى فترة حكم فيليب العربي على عرش روما. وتبين ان غالبية

الدكتور عثمان العائدي.

الامبراطور فيليب العربي.

غرف هذه الدار مفروشة بلوحات فسيفسائية كثيرة اعتبرت أجمل ما اكتشف من فسيفساء في العالم، وهي نادرة وعلى درجة كبيرة من الاتقان الفني. وتقرر ترميم تلك الدار واعلانها متحفًا للفسيفساء.

أما عن الامبراطور فيليب العربي، المولود في شهبا عام ٢٠٠، فكان واحدًا من ابرز اباطرة روما في مرحلة شهدت تقلبات جذرية في جميع أنحاء البلاد كما في العاصمة روما. بدأ حياته العملية في الجيش الروماني، ووصل إلى منصب أحد قادة الحرس الامبراطوري في عهد جورديان الاول العام ٢٣٨ ومن بعده ابن أخيه جورديان الثالث (٢٣٨-٢٤٤) الذي عيّن فيليب العربي قائدًا للحرس الامبراطوري مكان تيميسيوثيوس المتوفي عام ٢٤٣. لكن التطورات الداخلية والنزاعات السياسية أسفرت عن تمرد الجيش ضد الامبراطور الشاب جورديان الثالث، ما أدّى إلى مقتله والمناداة بفيليب العربي امبراطورًا على عرش روما في اواخر شباط ٢٤٤. وبعد حصوله على اعتراف مجلس الشيوخ به امبراطورًا، عقد معاهدة للصلح مع الفرس الساسانيين لوضع حد للحروب المستمرة بين الطرفين التي أدت إلى خسائر فادحة خصوصًا في المناطق الشمالية السورية التي كانت مسرحًا للمعارك. ومن ثم غادر ساحة القتال باتجاه مدينة انطاكية التي كانت العاصمة الروحية لسورية في ذلك الوقت. وعندما وصل إلى روما باشر سلسلة من الاصلاحات الادارية فأوقف الاضطهاد وعزّز الحريات. ومن أهم ما قام به فيليب العربي تنظيم الاحتفالات الكبرى في ٢١ نيسان ٢٤٨ بذكرى مرور ألف سنة على تأسيس مدينة روما. غير ان شهرة فيليب العربي الكبرى تكمن في وقوفه موقف المتسامح والمشجع للمسيحيين الذين كانوا يتعرضون لاضطهادات مرعبة على ايدي الاباطرة الرومان ابتداء من نيرون. و«هناك فكرة خاطئة تقول ان الامبراطور قسطنطين هو الذي أعطى المسيحيين الحرية والحماية، في حين ان الوقائع التاريخية تثبت من دون أدنى شك ان فيليب العربي كان اول امبراطور روماني يسمح للمسيحيين بحرية العبادة وتنظيم انفسهم في جميع انحاء الامبراطورية بعد ان أوقف نهائيًا كل التعديات والمظالم الواقعة عليهم... فأسلوب التسامح الديني الذي مارسه مع المسيحيين كان قد ترسخ بصورة قوية بحيث باتت مسألة وقت فقط قبل ان تعتنق روما الدين القادم من بلاد الشام» (الدكتور المهندس عثمان عائدي، «الحياة»، العدد ١٢٤٢٥، تاريخ ٦ آذار ١٩٩٧، ص٢٢).

وفيليب العربي، المعروف ايضًا باسم الامبراطور ماركوس يوليوس فيليبوس، عاد ليكون، والحقبة التاريخية التي مثلها وكذلك شهبا مسقط رأسه وآثارها، موضوع تداول إعلامي عربي وعالمي عقب مبادرة فريدة وغنية بمدلولها الوطني والقومي والانساني والحضاري أقدم عليها الدكتور المهندس عثمان عائدي، رئيس منظمة السياحة الاوروبية المتوسطية، ورئيس مجلس إدارة مجموعة فنادق رويال مونسو في فرنسا وفنادق الشام في سورية، ومموّل مشاريع ترميم آثار مدينة آفاميا، عندما اختار ان يهدي مجموعة من المسؤولين والاعلاميين الاوروبيين في اول ١٩٩٧ نموذجًا مصغرًا لرأس تمثال الامبراطور فيليب العربي (٨٠٠ نموذج). وجاءت الهدية أنيقة ومنفذة باتقان اعتمادًا على رأس تمثال للامبراطور عثر عليه في حمامات شهبا. فكانت الهدية بمثابة رسالة موجهة من رجل اعمال سوري عربي إلى الشخصيات الفرنسية خصوصًا (والاوروبية عمومًا) السياسية والتجارية والاعلامية تحمل مضامين تتجاوز اللفتة الاجتماعية في الاعياد لتسجل موقفًا حضاريًا ووطنيًا واضحًا. ويقول عائدي، إنه اختار هذا التمثال بالذات وشخصية الامبراطور فيليب العربي بالتحديد ليوضح للاوروبيين ان المنطقة العربية التي انجبت

هـذا الامـبراطور، وغـيره مـن الأبـاطرة السـوريين والعـرب الذيـن حكمـوا رومـا لعقـود عـدة، هـي منطقـة تفـاعل حضـاري وتسـامح روحـي وذات جذور عريقة في التاريخ (مرجع مجمل هـذه المادة، «شهبا»، «الحياة»، تواريـخ ٢٦ نيسـان و٦ و١٨ حزيران ١٩٩٣، وأول شباط و٦ آذار ١٩٩٧).

* **صافيتـا:** مدينـة سـورية ذات موقـع استراتيجي مهـم، شـأنها بذلـك شـأن المنطقـة الساحلية السورية. تميزت، تاريخيًا، بدورين:

١- شكلت نقطـة تجـاذب بـين الصليبيـين والزنكيين. ففيها البرج الشهير الذي يمكن من على سطحه رؤيـة بـرج قلعـة جزيـرة أرواد. ذلـك ان الاتصال بين مناطق الساحل السوري اثناء الحروب الصليبية كـان ضروريًـا، وكـانت صافيتـا في تلـك الاثنـاء موقعًـا عسـكريًا واسـتراتيجيًا مهمًـا. فكـان برج صافيتا محط نزاع دائم، ولم يتم استرجاعه مـن يد الصليبيين إلا في ١٢٧١ على يد الظاهر بيبرس الذي تـابع المسيرة منـه لاسـترجاع قلعـة الحصـن. والحصـن هـذا يقـع علـى بعـد ٣٠كلـم مـن بلـدة الدريكيش بـالقرب مـن مدينـة صافيتـا في الطـرف الجنوبـي مـن سلسـلة الجبـال السـاحلية السـورية، ويتربع فـوق تلـة وسـط واد تحيـط بـه الجبـال مـن جوانبـه الثلاثـة، وينفتـح مـن الجـانب الرابـع علـى السهول المجاورة. وهو عبارة عن معبد قديم للإلـه «زيـوس» يعـود إلى القـرن الثـاني ق.م.. وأنشـيء على انقاض معبد للاله الفينيقي «بعل» الذي نقلـه اليونـانيون وأعطـوه إسـم «زيـوس». وفي الجهـة الشـمالية للحصـن (يقـال لـه «حصـن سـليمان») تنتصب بقايا معبد آخر صغير يسمى اليوم بـالدير. وحول الحصن تطرح مجموعـة مـن الاسئلة المحيرة التي لم تجد لها اجوبة بعـد، وكلهـا متعلقـة بحجـارة سـوره الضخمـة وبكيفيـة اقتلاعهـا مـن مكانهـا والاتيان بها إلى هذا المكان، وعـدد الرجـال الذيـن عملوا في هذه الورشة والادوات المستخدمة، ولماذا هذا السور الضخم لمعبـد هـو واحـد مـن عشـرات المعابد الاثرية المنتشرة في سورية، والتي قلمـا تحـاط بسور ضخم كسور حصن سليمان.

بعد الصليبيين، شهدت صافيتا سلسلة من احداث كانت عبـارة عـن تحركـات رسمية سـواء للبطاركة أو للـولاة، وقـد قدمـت عـائلات كثـيرة للسكن فيها، مما جعلها مكان استقطاب فازدهـار. وفي الثلـث الاول مـن القـرن التاسـع عشـر زارهـا الرحالة الالماني يوهـان لودفيـغ بوركهـارت الـذي كتـب بعـض الوثـائق الخاصـة بزعمـاء الطوائـف والمشـيخات فيهـا، ولاحـظ ان المدينـة ومنطقتهـا شكلت نقطة مقاومـة مهمـة في مواجهـة حملـة ابراهيم باشا المصري؛ فقد قاومـه آل شمسين عنـد وصولـه صافيتـا العـام ١٨٣٢، ثـم اندلعـت ثـورة علوية في ١٨٣٧؛ وتتابعت بعد ذلك ثورات عدة عقب انتهاء حكم ابراهيم باشا، فاضطر العثمانيون لاجراء تعديلات ادارية متفاوتة للحد من العصيان.

٢- لعبـت صافيتـا دورًا ثقافيًـا ونهضويًـا كبيرًا في القرن التاسـع عشر. فاسـتقبلت البعثـات التبشـيرية والمـدارس الاجنبيـة، وحـوّل ابناؤهـا مـا تلقوه من علم في مدارس هذه البعثات إلى حركـة تفـاعلت مـع التشـكيلات الثقافيـة والحديثـة ومـع حركة الوعي العـام الـذي كـان بـدأ يهـز سـورية. ذلـك ان فـترة القـرن التاسـع عشر وبدايـة القـرن العشـرين كـانت نقطـة تحـول مهـم تمـازجت فيـه التبـدلات المعرفيـة والتطـورات الماديـة، فـانتقلت صافيتا مباشرة إلى مركز استقطاب لمحيطها. وأحـد أبنائها، جبر ضومط، الذي راح يـدرس في الجامعة الاميركية (بيروت) ابتـداء مـن ١٨٩٢، كـان اول استاذ عربي فيها. والكتب التي تتناول بـلاد الشـام في القرن التاسع عشر تذكر صافيتا بوصفها المنطقة التي في مداهـا الجغـرافي مـارس اسمـاعيل خـير بـك السنجاري زعامة ثورية ضد العثمانيين، وتابع ابنـه هواش على نحو أكثر تميزًا رسالة ابيه، لكنـه انتهـى منفيًا إلى جزيرة رودس.

دير سيدة صيدنايا.

* **الصالحية**: راجع «الجزيرة» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **صيدنايا**: قرية تبعد عن دمشق «زهاء نصف ساعة» (بالسيارة). يعود إسمها إلى اللغة السريانية «سيدانايا» وتعني سيّدتنا، ولها معنى آخر في اللغة نفسها «صيد نايا» ومعناها اراض أو أماكن الصيد. في هذه القرية دير قديم «دير سيدة صيدنايا». يقع بناؤه على رابية عالية تشرف على القرية. ويتبين من مئات الكتب القديمة، ان الامبراطور البيزنطي يوستنيانوس الاول أمر ببنائه. وتضيف رواية دينية ان السيّدة العذراء تراءت لهذا الامبراطور بشكل غزالة اولاً، ثم بالحلم، وطلبت منه تشييد دير على إسمها هناك. والدير اليوم، إضافة إلى أهميته الدينية، مركز سياحي ديني مهم، إذ يؤمه الزوار من مختلف الأديان للتبرك بزيارة «الشاغورة» صانعة العجائب، وهي أيقونة تقول الرواية الدينية ان الرسول لوقا البشير هو راسمها، وقد خصصت لها غرفة خاصة في الدير إلى جانب كنيسته. و«شاغورة» في السريانية معناها المعرفة أو المشهورة (من تحقيق ميداني-ريبورتاج-أجرته ندى فرحة، «نهار الشباب»، ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٤، ص١٢).

* **طرطوس**: مدينة ومرفأ على الساحل، في محافظة اللاذقية، بين مدينة اللاذقية وطرابلس. من أحدث ما كتب عنها (أديب مخزوم، في مراجعته لكتاب أحمد غانم «طرطوس حضارة وجمال»، «الثورة السورية»، العدد ١٠٣٢٢، تاريخ ٢٢ حزيران ١٩٩٧، ص٦)، انها متصلة بتاريخ المنطقة (الساحل) بشهادة المؤرخين امثال أرنولد توينبي: الحضارة الفينيقية، الاساطير السورية (أوروبة، قدموس، عشتار وأدونيس، بعل، بعل وعنات، طائر الفينيق، الخضر)؛ وأهم المدن والممالك القديمة في طرطوس (أمورو، أوسناتو، أرواد، عمريت، طرطوس)؛ وأهم آثارها «عمريت» التي لا يزال القسم الاكبر منها تحت الارض؛ والمدينة البحرية التي لم يتم الكشف عنها إلا في السنوات القليلة الأخيرة؛ و«المعبد الذي هو آية في الجمال والتناسق الهندسي والمنحوت في الصخر بعمق ٨ امتار، وملعب عمريت المنحوت في الصخر ايضًا والذي يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر ق.م.، أي قبل

الالعاب اليونانية الاولمبية بأكثر من ٧٠٠ سنة؛ ومدافن عمريت المنحوتة في الصخر كذلك على عمق عدة امتار والموزعة في الداخل بشكل هندسي مدهش مما يشير إلى الاهتمام الكبير بالمدافن وتوابيت الموتى بسبب اعتقاد الاروادين، على غرار بقية الفينيقيين بالحياة بعد الموت «ويستطيع الزائر لمتحف طرطوس اليوم ان يرى التوابيت الرخامية المدهشة التي اكتشفت حديثًا في رام الذهب-شمال شرقي عمريت».

وأرواد، الجزيرة المأهولة الوحيدة في بحر سورية والتي كانت عاصمة لدولة أرواد الفينيقية منذ الألف الثاني ق.م. بعد ان ضمت إلى سيطرتها البلاد الواقعة ما بين النهر الكبير الشمالي إلى النهر الكبير الجنوبي والبترون، فمعالمها الأثرية: القلعة، البرج البحري، السور الضخم بحجارته الهائلة الحجم الذي كان يحيط بالمدينة والتي لا تزال أطلاله قائمة في الجهة الجنوبية والغربية والجهة الشمالية.

والآثار المتصلة بطرطوس ايضًا: المعبد الفينيقي المحصن (البوابة الرئيسية في الشمال، السور الخارجي، المعبد)، ومدينة طرطوس القديمة الفينيقية (الأسوار، المنشآت التحصينية والسكنية والدينية، الكنيسة، متحف طرطوس)، برج صافيتا الذي يتألف من الأساس الفينيقي ويظهر اساسه من الجهة الشرقية والشمالية والطابق الاول الذي تحول إلى كنيسة لا تزال قائمة حتى الآن والطابق الثاني المفتوح على نوافذ ومرامي سهام والسور الذي كان مرتفعًا وضخمًا وواسعًا لكنه تهدم وبنيت المنازل داخله (راجع «صافيتا» في هذا الباب «مدن ومعالم»)؛ وقلعة العريمة الواقعة إلى الشمال من بلدة الصفصافة (٢كلم) والتي هي «في طريقها إلى الانهيار لانعدام العناية»؛ وقلعة يحمور وبرج ميعار وقلعة القليعة والقدموس والعليقة والكهف والخوابي والمرقب التي تعتبر من روائع القلاع في العالم.

* **عمريت:** راجع «طرطوس» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **قبر الست:** راجع «مقام السيدة زينب» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **قصر ابن وردان:** راجع «حماه» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **قصور الامويين في البادية:** إذا كان قصر الخضراء أول قصر أموي شيّده معاوية بن ابي

قصر عمرة الاموي.

سفيان ايام ولايته على الشام كدار للامارة في دمشق في مكان يقع عند الجدار الجنوبي من الجامع الاموي، إلا ان قصورهم الأخرى في سورية وعددها نحو ٣٠ قصرًا فقد بنوا معظمها في البادية لافتتانهم بها وبالصيد في ارجائها. وأشهر هذه القصور: قصر الحير الغربي، قصران في الحير الشرقي، قصر أسيس وقصر عمرة. وقامت جميعها وفق مخطط متشابه: السور المحيط، والصحن الداخلي الذي تشرف عليه أروقة تعقبها غرف من طابق واحد أو طابقين. ويأخذ السور طابعًا حصينًا مزودًا بابراج. والصور والزخارف الموجودة في الداخل تظهر في بعضها تأثيرات هلّينية وساسانية كانت سائدة في سورية قبل الاسلام.

ولقد أدت التنقيبات الأثرية التي قام بها العلماء في مجموعة من الخرائب في بادية الشام منذ ١٩٣٦ إلى الكشف عن عدد من المنشآت القديمة ترجع إلى العهد الروماني الذي لم يبق منه إلا «سد خريقة» وبقايا أبنية بيزنطية تمثل البرج الملاصق لقصر تبين انه قصر أموي يعود إلى عصر الخليفة هشام بن عبد الملك والذي عرف باسم «الزيتونة». أما تسمية «الحير» فجاءت من السور الذي كان يحيط بذلك القصر. ويعتقد العلماء بوجود دير غساني في هذا القصر بناه الحارث بن جبلة. أما سد خريقة فكان يغذي القصر بالماء عن طريق قناة تنتهي بخزان يبعد عن السد نحو ١٦،٥ كلم.

* **قلعة شيزر:** راجع «حماه» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **قلعة صلاح الدين:** هي القلعة التي كانت تعرف بـ«قلعة صهيون» (إسم أطلقه عليها الصليبيون) قبل تبديل إسمها بقرار من وزارة الداخلية في العام ١٩٥٨، وهي تقع على بعد ٣٣كلم شرقي مدينة اللاذقية فوق قمة صخرية بين وادين عميقين. يبلغ طول القلعة ٧٤٠م وتفوق مساحتها على خمسة هكتارات.

هناك ذكر للموقع في كتب التاريخ باسم

ابراج الجهة الشرقية لقلعة صلاح الدين.

«الحصن»، مقرونًا بالدولة الحمدانية وبوصف سيطرة سيف الدولة على مناطق غربي العاصي. وليس هناك من أثر معماري للحمدانيين في القلعة. وخلال الصراع بين الدولة الحمدانية والبيزنطيين تم احتلال هذا الموقع في ٩٧٥ وظل بأيدي البيزنطيين حتى قدوم الصليبيين. وفي هذه الفترة (١٢٠ سنة) أقيمت تحصينات بيزنطية في الموقع ولكنها قليلة الشأن قياسًا على المنشآت الصليبية. وتظهر اليوم بقايا كنيسة من ذلك العهد. أما أكثر ما يلفت فهي المسلة الصخرية التي ركز عليها الصليبيون جسرًا متحركًا ينتقل جنودهم عليه بين قسمي القلعة وفقًا للضرورات العسكرية.

في اواخر تموز ١١٨٨، عسكر صلاح الدين الايوبي بجيوشه في محيط القلعة، واستخدم، لاسقاطها، «قنابل صخرية» تزن بين ٥٠ و٣٠٠كلغ الواحدة (في القلعة نماذج منها حتى الآن). ولما اسقطها، سمح صلاح الدين لجندها ونسائهم واطفالهم بالمغادرة إلى انطاكيا لقاء فدية. وانتقلت القلعة إلى ايدي الامراء الموالين للأيوبيين ومن خلفهم في المنطقة. وفي ١٢٧٢، صارت إلى الظاهر بيبرس، ثم استولى عليها قادة السلطان قلاوون وضموها إلى مقاطعة طرابلس. وطيلة هذا الوقت كان الامراء المسلمون يرممون القلعة ويضيفون إليها المنشآت، ومنها مسجد صغير، وغرف للاقامة ذات تزيين باذخ، وحمامات. أما التصميم العام، فلا يزال على ما كان عليه يوم دخلها صلاح الدين.

* **قنوات**: بلدة سورية واقعة على بعد ٧كلم من مدينة السويداء جنوبي سورية. غنية جدًا بآثارها. كان إسمها «كنتا» ايام الانباط وبعدهم الرومان. ومن هذا الإسم اشتق اسمها الحالي «قنْوات». اعتبارًا من القرن الاول ق.م. كانت مدينة من مدن «الديكابوليس» (راجع «الديكابوليس» في هذا الباب «مدن ومعالم») أو المدن العشر التي كانت دمشق أهمها. لا تزال أعمدة اثرية وتيجان أعمدة تزين بعض بيوتها الحديثة، وكذلك البلاطات البازلتية الأصلية تغطي ساحة البلدة. ولعل أهم الأبنية الأثرية فيها معبد زيوس (القرن الثاني ق.م.)، وقد أقيم على بروز صخري يشرف على الوادي المليء باشجار السنديان والفاكهة، ويزيد ارتفاع بعض أعمدته عن ٨ امتار. وبجواره كنيسة قنوات الأثرية التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي، وقد أقيمت على انقاض معبد وثني. وقبالة اطلال معبد زيوس حمامات رومانية قديمة، وبقايا درجات لمسرح أثري وبقايا ابراج. وعلى طريق بين قنوات ومدينة السويداء مجموعة من الأعمدة الضخمة التي كانت تزيّن معبد الشمس الروماني المبني في القرن الثاني الميلادي؛ وشارع روماني مرصوف بالبلاط الحجري البازلتي، وأطلق على هذه الطريق إسم «طريق القبور» لكثرة المقابر والغرف الجنائزية في المنطقة.

* **اللاذقية**: ١- في الاسم: عُرفت في الألف الثاني ق.م. باسم «راميثا» Ramitha وكانت تابعة للمدينة الفينيقية أوغاريت القائمة على بعد نحو ١٠كلم إلى الشمال. ودعاها اليونان «لوكي أكتي» Leuke Akté، وبدأت تعرف نهضتها في عصر السلوقيين، وأطلق عليها سلوقس نيكاتور إسم زوجته «لاوديسا» Laodicée، فنظم بناءها وأقام فيها الكثير من المباني والنصب التي لا تزال آثار بعضها ظاهرة إلى اليوم. وكان إسم راميثا يعني «الارض المرتفعة»، ولوكي أكتي «الشاطىء الابيض». ولما دخلها الفرنجة الصليبيون (١٠٩٧) أطلقوا عليها إسم «لا ليش» La Liche. وأعطاها العرب إسم «لاذقية العرب»، وأطلقوا عليها جملة من الألقاب: اللاذقية العظمى، اللاذقية البحرية، مدينة العواميد، أم العواميد (أطلق هذا اللقب ايام العثمانيين)، عروس الساحل

قوس نصر الامبراطور سيفيروس.

كازينو اللاذقية.

السوري، درة الساحل المتألقة، ثغر سورية الباسم...

٢- في الموقع والمحافظة: مدينة ومرفأ على البحر المتوسط، بالقرب من مصب نهر الكبير الشمالي. تبعد عن دمشق ٣٤٨كلم، عن حلب ١٨٦، عن حمص ١٨٦، عن حماه ١٤٥، عن طرطوس ٩٠، عن الحسكة ٦٩٧، عن دير الزور ٥١٣، عن درعا ٤٤٩، عن القنيطرة ٤١٥.

وهي قاعدة محافظة اللاذقية البالغة مساحتها ٢٦٤٢كلم م.، ثالث محافظة سورية من حيث صغر المساحة بعد طرطوس والقنيطرة، وتشكل القسم الاوسط من إقليم الساحل السوري، فتحتل من هذا الساحل طولاً نحو ١٠٠كلم، وعرضًا ما متوسطه نحو ٥٠كلم. ويبلغ عدد سكان المحافظة، حاليًا، نحو مليون نسمة، واشار إحصاء ١٩٨٥ انها كانت تعد ٦٢٧ ألف نسمة في ذلك العام. ومدينة اللاذقية هي قاعدة المحافظة، وكان، عدد سكانها في ١٩٩٣ نحو ٢٥٠ ألف نسمة، ويقدر حاليًا (١٩٩٧) بنحو نصف مليون نسمة. وفي محافظة اللاذقية ٥ مناطق إدارية و١٧ ناحية و٤٤٤ قرية و٧٢٢ مزرعة.

٣- نبذة تاريخية: تاريخ اللاذقية، مثل باقي مدن المنطقة التاريخية، هو في الواقع تاريخ الفينيقيين بحضارتهم الراقية وتجارتهم الواسعة؛ وهو كذلك تاريخ المصريين في عهد الفراعنة وفتوحاتهم، وتاريخ الآشوريين والفرس وحروبهم، وتاريخ اليونان وحضارتهم، وكذلك الرومان والعرب والصليبيين والمماليك والعثمانيين والفرنسيين.

تهدمت المدينة أكثر من مرة، وجدد بناؤها، وتقاسمتها الزلازل والحروب في الخراب.

فلقد ضربتها الزلازل سبع مرات (مرة في اواسط القرن التاسع، ثلاث مرات في القرن الثاني عشر، وفي ١٢٨٧ و١٧٩٦ و١٨٢٢). وفي عهد خلافة عمر بن عبد العزيز، أغار الروم على ساحل المدينة وهدموه، وقام قائد الامير أيوار نائب عماد الدين زنكي بالاغارة على المدينة فهدمها جيشه وسبى أهلها، واستردها صلاح الدين الايوبي من الصليبيين (١٢٨٧)، وقد قال عنها الأصفهاني الذي رافق صلاح الدين: «ورأيتها بلدة واسعة الأقنية، جامعة الأبنية، متناسبة المعاني، متناسقة المفاتي، غزيرة المجاني، رحيبة المواني، في كل دار بستان».

في ايام الصليبيين، وبعدهم، عرفت اللاذقية مسارًا تقهقريًا لمصلحة مدينتين قريبتين منها: الاسكندرون في الشمال، وطرابلس في الجنوب. واستمرت هذه الحال، إلى حد كبير، في ايام الانتداب الفرنُسي. ومع الاستقلال، بدأت تعود إلى نهضتها التاريخية، كونها المرفأ الاول للبلاد. لكن هذه النهضة كانت في حدود متواضعة حتى ١٩٥٧، حيث بدأت تتزخم فيها أعمال البنى التحتية (مرفأ بتجهيزات حديثة، طريق سكة حديدية يربطها بحلب وأنجز العمل به في ١٩٧٠) التي أعطتها اندفاعة إنمائية كبرى. إذ أصبح ميناؤها المنفذ الوحيد لحلب وكل سورية الشمالية، ثم مع الانتهاء من سكة حديد الفرات أصبح ايضًا منفذ الجزيرة وكل سورية الشرقية بما فيها المناطق العراقية المجاورة. هكذا، دلت الارقام في الستينات وبداية السبعينات على ان مرفأ اللاذقية كان يؤمن أكثر من نصف مستوردات وحوالي ثلاثة ارباع الصادرات الزراعية السورية. ونمت المدينة بسرعة، وانتقل عدد سكانها من ٢٥ ألفًا في ١٩٣٢ إلى ٦٨ ألفًا في ١٩٦٠ ثم إلى ١٢٦ الفًا في ١٩٧٠.

وما انفكت المدينة، منذ ١٩٧٠، آخذة بدروب النهضة والازدهار في مختلف ميادينه وقطاعاته، خاصة لجهة الانماء السياحي والثقافي. ففي اللاذقية اليوم أكثر من ٤٠ فندقًا، وأقيمت فيها «مدينة الأسد الرياضية»، و«المدينة السياحية الجديدة»، ومطار «حميميم» السياحي، و«جامعة تشرين» التي أنشئت بقرار من الرئيس الأسد، واصبحت تضم اليوم نحو ٣٠ ألف طالب وقد أقيمت عند مدخل المدينة من جهة طرطوس.وحركة الازدهار الاقتصادي موزعة ايضًا، في اللاذقية ومحافظتها، على قطاعي الزراعة والصناعة. ففي اللاذقية مديرية التبغ العريقة في عملها (تعود إلى اوائل ايام الانتداب الفرنسي)، ويعتبر التبغ السوري من اجود تبوغ العالم. وهناك صناعات الغزل والنسيج والرخام والاخشاب والمحركات والألومينيوم والاسفلت والاسمنت والكونسروة والمياه الغازية...

٤- المتحف والمعالم الأثرية: افتتح متحف اللاذقية في ١٧ نيسان ١٩٨٦، ويعتبر أجمل بناء أثري فيها، وكان يعرف، قبل تحويله إلى متحف، باسم «دار المندوبية». مساحته ٢٧٠٠م م.، يطل على الحديقة العامة (المنشية) ويبعد عدة امتار فقط عن البحر.

وتحفل اللاذقية بالعديد من الآثار المتميزة بتنوعها لأنها تمثل عددًا من الحضارات التي سادت ثم بادت في تلك المنطقة. وتعد آثار رأس شمرا (أوغاريت) أهم آثار اللاذقية علىالاطلاق، فقد اكتشفت فيها أول ابجدية. وتضم الرقعة الجغرافية التي تشغلها محافظة اللاذقية ٣٨ تلاً أثريًا جرى التنقيب في بعضها، ومنها: تل سوكاس، تل الروس، تل إيريس. ومن قلاع المحافظة: قلعة صلاح الدين، وقلعة ورزية، وقلعة المهالبة وقلعة بني قحطان. وكذلك هناك في اللاذقية، آثار هيكل باخوس، وقوس النصر، وعدد كبير من الخانات، ومجموعة من المساجد الأثرية، كالمسجد الكبير، ومسجد علاء الدين، وجامع الامشاطي، وجامع الامام محمد المغربي، وضريح ومسجد الصحابي ابي الدرداء... وغيرها من النصب والهياكل

والمعابد (أنسيكلوبيديا أونيفرساليس؛ و«المدينة العربية»، العدد ٢٥، ايار ١٩٨٧، والعدد ٥٠، ايلول ١٩٩٢).

* **ماري:** راجع «إيبلا وماري أقدم مملكتين في سورية»، ج٩، ص٣٣٢؛ و«الجزيرة» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **«المدن البائدة»، مصطلح:** ظهر هذا المصطلح (المدن البائدة) منذ منتصف هذا القرن (القرن العشرون)) ليعبر عن «حجم الكشوف الأثرية المتسلحة بخارطة معلومات مهمة لكن على جغرافية مجهولة (...) والهادفة إلى كشف «الغائب» في مرحلة أولى، ثم الانتقال بعدها إلى إيجاد عملية الربط التاريخي» (...) فالمدينة البائدة هي انتهاء لحالة سياسية وليست غيابًا حضاريًا أو عمرانيًا حسب مصطلح ابن خلدون، إذ يوجد استمرار في الفعل التاريخي على رغم موت مدينة وظهور أخرى. والمدينة البائدة كما هي موجودة على الخارطة التاريخية لشرقي المتوسط تجسد، بشكلها الأخير، شكلاً سياسيًا عامًا ونظرة خاصة إلى ما تعنيه المدينة. فالتخريب الذي طال إيبلا أو ماري أو حلب أو دمشق استهدف الدولة وليس المدينة، و لم يكن عمرانيًا بالدرجة الاولى بل ازاحة جغرافية حسب المرحلة الحضارية والخارطة السياسية. والمدن التي شكلت شريانًا حيويًا مثل ماري وإيبلا انتهت مع زمن الامبراطوريات المركزية. لذا، فإن مصطلح «المدن البائدة»، يفقد معناه عندما ننتقل من استعراض الكشوف الأثرية إلى دراسة التكوين التاريخي العام. والأمر المهم في موضوع المدن البائدة هو الحالة المعرفية المتقدمة التي جسدتها وفق خط إنتشارها الجغرافي. لكن موضوع إنفصالها عن الوضع التاريخي العام متعلق اساسًا بعملية القطع المعرفية نتيجة طغيان العامل السياسي. فسيطرة الامبراطوريتين الفارسية والرومية على شرقي المتوسط لا تعني «إلغاء» التاريخ السابق ولا تشكل مبررًا لايجاد نقاط بدايات تاريخية جديدة لاحقة لمرحلة الاجتياح الرومي والفارسي، وبالتالي فإن المدينة البائدة تلتقي مع الحضارات القديمة في عملية الازاحة التاريخية» (من مقال مازن بلال، «الحياة»، ٢٩ آب ١٩٩٣؛ وراجع «إيبلا»، «ماري»، «البارة» وسواها، ومختلف الموضوعات المتصلة بالكشوف الأثرية والتاريخ القديم في «سورية»، الجزء السابق، التاسع، من هذه الموسوعة، وفي هذا الباب «مدن ومعالم»).

ويمكن تبسيط مصطلح «المدن البائدة» باعتباره إسمًا يطلق على تجمعات استيطانية انتفت فيها مظاهر الحياة البشرية مع بقاء آثار عمران يدل على هذه الحياة وعلى مستواها الحضاري وأنماط عيشها في مرحلة تاريخية سابقة.

* **المدن العشر:** راجع «ديكابوليس» في هذا الباب «مدن ومعالم».

* **مسألة الحدود السورية-الفلسطينية:** المقصود بهذه المسألة الخلاف حول خط الحدود بين سورية وفلسطين. وقد أعادت الكتابات الاخبارية والتحليلية الصحافية، وكذلك الدراسات، طرح هذا الخلاف في السنتين الأخيرتين. إذ «بينما تصر سورية على الانسحاب الاسرائيلي حتى خطوط ٤ حزيران (أي قبل حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ واحتلال اسرائيل للجولان) بدت اسرائيل متمسكة بخط الانتداب بين فلسطين وسورية. والفارق بين الخطين يتمثل في منطقتيّ الحمّة السورية وبانياس في جنوبي الجولان، وهما منطقة الاغوار على الهضبة وفيهما جزء مهم من موارد مياه الجولان» (راجع «الجولان» في هذا الباب «مدن ومعالم»).

فخلال حرب ١٩٤٨ تمكن الجيش

السوري من التمسك بالاراضي التي سيطر عليها إلى الغرب مما اطلقت عليه اسرائيل «خط حدود اسرائيل الدولية»، أي حدود اتفاقية نيوكمب-بوليه بين الدولتين المنتدبتين الموقعة في ١٩٢٣ (نيوكمب إسم رئيس اللجنة البريطانية، وبوليه إسم رئيس اللجنة الفرنسية). وقد أجرت هذه الاتفاقية تعديلات على الحدود التي كانت مرسومة في معاهدة باريس ١٩٢٠ (انظر الخريطة). وقد اطلق على الخط الحدودي الذي رسمه نيوكمب-بوليه إسم «الحدود الدولية لفلسطين مع لبنان وسورية»، وقد تمّ ترسيم هذه الحدود على الارض ابتداء من رأس الناقورة حتى منطقة الحمّة، بواسطة ٧١ نقطة حدودية.

أما المواقع التي تمكن الجيش السوري من التمركز فيها والتمسك بها في حرب ١٩٤٨ والواقعة غربي خط «الحدود الدولية لفلسطين مع لبنان وسورية»، فكانت: ١- في الشمال الشرقي قطاع أرضي طوله نحو ٥كلم إلى الغرب والجنوب الغربي من بانياس؛ ٢- في الوسط، منطقة على شكل مثلث تقريبًا قاعدته تمتد بمحاذاة نهر الاردن على نحو ٨كلم جنوبي بحيرة الحولة ورأسه غربًا إلى الشمال من خربة بردا على بعد ٤كلم من النهر. وتتصل هذه المنطقة بشريط أرضي (بعرض ١-٢كلم غربي الحدود الدولية) على امتداد الشاطىء الشرقي لبحيرة الحولة ونهر الاردن حتى مصبه في بحيرة طبرية؛ ٣- منطقة على شكل نصف دائرة تقريبًا (نصف قطرها نحو ١،٥كلم) تقع غربي مصب نهر الاردن في بحيرة طبرية؛ ٤- في الجنوب، منطقة تقع إلى الغرب من الحدود الدولية بشكل مضلع رباعي يحاذي طولانيًا الشاطىء الجنوبي الشرقي لبحيرة طبرية، مع امتداد جنوبي متعرج باتجاه الشرق حتى منطقة الحمّة.

لذلك، كانت اسرائيل تعود دائمًا إلى حدود ١٩٢٣ (نيوكمب-بوليه)، وتتكلم على نجاح سورية عام ١٩٤٨ في «احتلال اراض

اسرائيلية بالقوة العسكرية». وإزاء هذه الحالة، كانت التوجهات الاسرائيلية تتعمد التعامل مع الخطوط العسكرية مع سورية بطريقة تختلف عن الحالات التي نشأت مع كل من مصر والاردن ولبنان. إذ اعتبرت اسرائيل، في هذه الحالات الثلاث، ان خطوط وقف اطلاق النار (خطوط الهدنة) تجسّد النتائج التي أفضت إليها العمليات العسكرية خلال الحرب (١٩٤٨). أما في الحالة السورية، فقد كانت اسرائيل ترفض التسليم بالتطابق الكامل بين خط وقف اطلاق النار وخط الهدنة، لأن كلا من هذين الخطين لا يتطابق مع ما تسميه «حدودها الدولية».

لا شك ان وراء تمسك اسرائيل بحدود سورية-فلسطين الدولية لعام ١٩٢٣ خلفية متصلة ببنيتها وشرعية قيامها ووراثتها لفلسطين. وكذلك يمكن القول إن تمسك سورية بخطوط ٤ حزيران

١٩٦٧ «يحبط ويفسد تفكير وتخطيط اسرائيل الرامي إلى تكريس مبدأ ان الدولة الاسرائيلية هي الوريث لدولة فلسطين تحت الانتداب لما في ذلك من خطورة محققة على مصير الكيان الفلسطيني الوليد وعلى حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وحقه في إنشاء دولته المستقلة على ارض الضفة الغربية وغزة. فوراثة فلسطين الانتداب يعطي لاسرائيل الحق في وراثة حدودها مع الاردن الأمر الذي يعني حرمان الفلسطينيين من حقهم في ان يكون لهم دولة على جزء من ارض فلسطين تحت الانتداب. وإذا قيل إن الحمّة وبانياس لم تكونا ارضًا سورية بل ارض فلسطينية-قبل ١٩٤٨، فسوف يكون من السهل الرد بأن كل ارض دولة اسرائيل الحالية كانت ارضًا فلسطينية قبل ١٩٤٨ حين لم تكن هناك اسرائيل في الأصل. لذلك حين تداخل بعض ممثلي السلطة الوطنية الفلسطينية في تموز ١٩٩٥ في النزاع حول الحمّة وبانياس على اساس انها تمثل «الجولان الفلسطينية» وطالبوا بها جزءًا من الكيان الفلسطيني توطئة لبناء الدولة الفلسطينية المستقلة، كان الرد السوري انهم في سورية لا يعرفون شيئًا إسمه «الجولان الفلسطينية»، وانه حتى إذا كان ثمة نزاع سوري-فلسطيني على هذه المنطقة من الجولان فإنه سيكون بمقدور الطرفين السوري والفلسطيني حل هذا النزاع بعيدًا عن التدخل الاسرائيلي وبعد قيام الدولة الفلسطينية» (مصطفى علوي، استاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة ورئيس تحرير «دراسات في الأمن والاستراتيجية»، وابراهيم عبد الكريم، «الحياة»، الأعداد ١١٨٤٧ و١١٨٨٢ و١٢٠٧٧، تاريخ ٣٠ تموز و٣ ايلول ١٩٩٥، و١٩ آذار ١٩٩٦).

* **معرة مصرين:** ناحية من نواحي محافظة أدلب، تقع إلى الشمال من مدينة أدلب وعلى بعد ١٠كلم، وتعد نحو ٥٠ ألف نسمة. تعتبر سوقًا تجارية مهمة للقرى المحيطة بها. وهي مدينة مغرقة بالقدم. ذكرها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري باسم «معرة نسرين»، ووصفها الرحالة أحمد وصفي زكريا في جولته الأثرية، فقال: «تقع على بعد عشرة كيلومترات إلى الشمال من أدلب، وقد كثر ذكرها في التاريخ ولا سيما زمان الحروب الصليبية، وقد اشتهرت بزراعة القطن والزيتون... وفيها خمسة مساجد ودار لمديرية الناحية ومخفر للشرطة».

* **معرة النعمان:** أكبر وأهم مدينة وقاعدة منطقة معرة النعمان (في محافظة أدلب). تقع في منتصف الطريق بين حماه وحلب، وترتفع عن سطح البحر نحو ٥٠٠م. وتعد نحو ٨٠ ألف نسمة، بينما كان عددهم في القرن الحادي عشر والثاني عشر يتعدى المئة ألف نسمة. ويعتقد ان هذه المدينة تقوم مكان مدينة «أرّا» القديمة، وقد دعاها الصليبيون باسم «مار». وسميت المعرة باسمها الحالي نسبة إلى النعمان بن بشير والي معاوية. بينما يقول عن إسمها الأب عبده بدوي المسؤول عن معهد الفنون المقدسة والترميم في جامعة الروح القدس (الكسليك-لبنان) إن «المعرة كلمة سريانية ومعناها المغارة لأن المعرة تقوم على سلسلة من المغاور، وهي طريقة سكن للانسان القديم انتشرت في الماضي وتظهر في غير مكان من سورية مثل معلولا، ومثل عدد كبير من اسماء القرى والبلدات في المحافظة (أدلب)، آفاميا، سرجيلا، باب الهوى، لوزة، بارة، الرويحة... وتبلغ ٣٠٠ بلدة وقرية، وكلها اسماء معروفة التاريخ والمعنى» (نهار الشباب»، ملحق «النهار»، ٢٨ كانون الثاني ١٩٩٧، ص٣٦).

وتاريخ المعرة حافل بالاحداث. فتحها ابو عبيدة بن الجراح (٦٣٨)، واجتاحها القرامطة (٩٠٣)، واحتلها الامبراطور البيزنطي نقفور الثاني فوكاس (٩٦٨)، وحاصرها صالح بن مرداس

(١٠٢٧). ازدهرت في عهد نور الدين محمود الزنكي. اجتاحها التتار (١٢٦٠)، واحتلها ابراهيم باشا ابن محمد علي (١٨٣٤). ومن أشهر معالمها الأثرية: ضريح ابو العلاء المعري؛ وقلعة المعرة وتقع شمالي المدينة؛ خان مراد باشا وهو من اجمل آثار العهد العثماني وقد حول إلى متحف يضم روائع الآثار والمكتشفات؛ خان أسعد باشا العظم؛ مئذنة الجامع الكبير والمدرسة الشافعية؛ حمامات أثرية قديمة كحمام التكية وحمام الزهور...

ويبقى خان مراد باشا أهم معالم هذه المدينة. فهو يملك العديد من المزايا. ففضلاً عن أهميته الأثرية والمعمارية، مرمم ترميمًا علميًا فنيًا ليكون مقرًا لمتحف مدينة معرة النعمان. افتتح في ١٦ نيسان ١٩٨٨ ليكون المتحف الجديد ضمن المتاحف السورية التي تجاوز عددها الثلاثين.

عُرف خان مراد باشا في القديم بـ«التكية المرادية» نسبة إلى بانيها وواقفها حامي دفاتر الديوان السلطانية مراد شبلي باشا. وقد شيد في ١٥٤٥ على طراز عربي-اسلامي.

إلى جانب العديد من الآثار الاسلامية، يحتوي الخان-المتحف على عدد من الاجنحة تعرض فيها اللوحات بعد انجاز تحضيرها، مثل فسيفساء كنيسة تل عار، وهي ارضية كنيسة مساحتها ٧٥٠م.م. عثر عليها في خان شيخون قرب المعرة وهي من اواسط القرن الرابع، وفسيفساء معراتا التي تعود إلى اوائل القرن السادس، وفسيفساء حواء (القرن السادس)، وفسيفساء هرقل (القرن الثالث) وفسيفساء فركيا (من قرية فركيا في محافظة أدلب وتعود إلى العام ٥١١)، وغيرها... ويضم المتحف بعض التماثيل البازلتية والفخارية ونماذج فخارية لعربات جر، قاعة كبرى خصت بالشاعر ابي العلاء المعري، وقد ضمت مكتبة كبيرة مخطوطة ومطبوعة، ومشهدين يعرضان «الشيخ المعري الكبير» وهو يدرّس مجموعة من طلابه.

من أروقة متحف معرة النعمان.

* **معلولا:** بلدة سورية. تبعد ٥٧كلم عن دمشق شمالاً، وعلى ارتفاع ١٦٠٠م، وتقع ضمن سلسلة جبال القلمون التي تتناثر عليها مجموعة من البلدات والقرى.

أما أصل إسم «معلولا» فيرده البعض إلى هوائها العليل، ويعتمد الآخر على المعاجم السريانية حيث «معليا» تفيد المرتفع والسامي والعالي والرفيع؛ أو «معلولي» أي المضيق لضيق الطريق المؤدي إلى البلدة. لكن أكثر الاسباب ورودًا وأصدقها تفسيرًا، و«هو ما أكده ايضًا لنا الاستاذ جورج رزق الله مدرس اللغة الانكليزية في معلولا، بأن معلولا كلمة آرامية الاصل مشتقة من

دير معلولا.

الفعل «أَعَلْ» أي دخل و«عَلَخّ» أي دخلنا، والمصدر الميمي من هذا الفعل هو «معلولا» بشرط ان تلفظ الواو فيها كحرف O في الانكليزية (Mihlola) ومعناها المدخل أو المعبر إذ ليس للقادم إليها سوى منفذين جبليين» («الوسط»، العدد ٢٥٨، تاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٩٧، ص٤٥).

ومن المرجع المذكور ايضًا: تؤكد المصادر التاريخية تسمية معلولا قبل مجيء السلوقيين إليها باسم «بنكرا بوليس» وبعد مجيئهم في العصر (الهلّيني) العام ١٧٥ق.م. باسم «سلوقية القلمون»، وكان الامير اليوناني، فيليبس، قدم إليها موفدًا من قبل الملك أنطيوخس الرابع، كحاكم على بعض المناطق اليهودية لارغام أهلها على العودة إلى الوثنية وعبادة الهة المملكة. وبالفعل، جعل لهم معبدًا ضمن مغارة تعرف باسم مغارة الخوري يوسف لا تزال حتى يومنا هذا، وقد ألحقت بفندق عصري بني اخيرًا في القرية، وعلى أحد جدران المغارة كتابة يونانية قديمة معناها «أقيم هذا المعبد لعبادة الشمس من قبل الامير اليوناني وعقيلته سنة ١٧٥ق.م.». ثم استوطن الآراميون سورية وفلسطين وكانت لهم مملكتهم وعاصمتهم دمشق. أما صاحب كتاب «الجغرافيا البشرية لسورية المتوسطية»، ر. تومن (R. Thoumin)، فقد وجد في معلولا موقعًا دفاعيًا يمكّن عددًا قليلاً من المقاتلين من رد مئات المهاجمين، واكتشف ان موقعها الحالي ليس هو الأصلي... وربما كان في القرية التي تختفي وراء القرية الحالية وهي محفورة على شكل كهوف ومغاور يبلغ عددها خمسين كهفًا تزينها صور النسور المرسومة على جدرانها والكتابات اليونانية الواضحة للعيان.

أما بيوت معلولا، حاليًا، فتعتمد في بنائها على الحجر والطين واللبن وخشب الحور والدردار واحيانًا خشب الجوز. «وفي امتداد البلدة انحدارًا نحو مدخلها بيوت حديثة، متقاربة ترتفع بينها قبب عدة لاجراس الكنائس، وللمسجد. وكلما ابتعدت عن الجبل نحو المدخل، كانت البيوت الحديثة، والعكس فالبيوت القديمة موجودة على صدر المرتفع الاوسط، من اسفله، وصعودًا، وقد اختلطت بيوته القديمة ببعض بيوت حديثة

وباصلاحات واعمال ترميم على الطريقة العصرية غير المنظمة... وباتت مخبأة المغاور الكثيرة التي سكنها السكان الاوائل في معلولا واستمرت حتى اليوم جزءًا من بيوتها التي بنيت امتدادًا لتلك المغاور» (نقولا طعمة، ملحق «النهار»، ٢٢ نيسان ١٩٩٥، ص٩).

تعتبر معلولا من أهم المواقع الأثرية المسجلة رسميًا في سورية؛ وقد احتار الجغرافيون والباحثون في تفسير تشكل فجيها الشرقي والغربي، وقد حيك حولهما الكثير من الروايات. وعن انشطارهما تناقلت الألسن الشعبية رواية واحدة هي قصة القديسة تقلا التي اعتنقت المسيحية بعد تأثرها بمواعظ القديس بولس (٦٧م.) وخوفًا من ابيها الامير الوثني هربت من قونيه في آسيا الصغرى بحثًا عن الامن والاستقرار فحطت رحالها في معلولا، وعندما لحقها جند أبيها وكان الجبل حائلاً بينها وبين القرية رفعت يديها متضرعة إلى الله ان يجد لها مخرجًا فكان الفج ذلك الممر الضيق بين جدارين صخريين شاهقي الارتفاع هو المنقذ. وهناك اتخذت احد الكهوف التي ترشح فيها المياه كمسكن لها تتوارى فيه عن الانظار لتنعم بنعمة التأمل في الكون والكائنات.

وتضم معلولا العديد من الاديرة والكنائس، ولعل أهمها وأقدمها دير ما سركيس الذي يقابل دير القديسة تقلا ويتربع على قمة جبل يصل ارتفاعه إلى ١٧٩٢م.، وقد كان هذا الدير كغيره من الاديرة في المناطق السورية هيكلاً وثنيًا ثم حُوِّل بعد انتشار المسيحية إلى كنيسة مسيحية، ويرجع علماء الآثار تاريخ بنائها إلى ٣١٣-٣٢٥م. ووسط كنائس معلولا وأديرتها يقوم الجامع في ساحة القرية العامة شاهدًا على تعايش الأهالي ووئامهم، ويبلغ المسلمون نحو ثلث سكان معلولا.

وتبقى اللغة الآرامية التي ما تزال محكية في معلولا المعلم التاريخي الأبرز والأهم فيها، وهي ظاهرة فريدة في نوعها. ويبلغ المتكلمون بها نحو ١٨ ألفًا في معلولا وبعض البلدات والقرى المجاورة مثل صافيتا وجبعدين وبخعة، وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح. يقول استاذ اللغات القديمة في جامعة دمشق الدكتور محمد محفل: «يرتفع عدد الذين يتكلمون الآرامية إلى خمسين الفًا إذا اخذت في الاعتبار اللهجات الأخرى المعروفة في طور عبدين قرب الحدود السورية-التركية ومنطقة بحيرة أورميا في تركيا وفي جبل سنجار شمال غربي العراق وفي بعض مناطق الهند حيث حافظوا على هذه اللغة في مناطق معزولة جغرافيًا» («الحياة»، ٢٧ نيسان ١٩٩٧، ص١).

في المانيا معهد لوضع أسس للآرامية وتدريسها، أنشأه مستشرق الماني اقام في معلولا منذ اعوام عدة لثلاث سنوات متتالية عاد بعدها إلى المانيا وصار يتردد إلى معلولا بين حين وحين، ويعرفه الأهالي هناك باسم «ابو ابراهيم»، وهو المستشرق رايتش Reich. والآرامية المحكية في معلولا جعلت غيره من الباحثين والمستشرقين يقصدونها من كل مكان في العالم للاقامة فيها ومجالسة أهلها والاستماع إلى لغتهم.

* **مقام السيدة زينب:** واقع في بلدة «قبر الست»، وهي نفسها كانت تعرف باسم قرية «راوية» في الغوطة الجنوبية من دمشق وتبعد نحو ٧كلم عن مدخل دمشق. ابناء البلدة المسجلون في سجلات نفوسها لا يتعدون ٥-٦ آلاف نسمة، لكن القاطنين بها اليوم يعدون نحو ٢٠٠ ألف نسمة. وقبل تعمير المقام، كانت قرية راوية أو بلدة قبر الست مهملة عادية ليست لها اية ميزة ويعمل سكانها القلائل في الزراعة. وبفضل وجود المقام تحسنت الاحوال الاقتصادية للمنطقة بشكل ملحوظ حيث اصبحت منطقة سياحية تستقطب عددًا كبيرًا من الزوار من مختلف انحاء العالم الاسلامي.

السيد محسن الامين.

واجهة حرم مقام السيدة زينب.

زيارة الرئيس الايراني رفسنجاني للمقام (١٩٩٦)، والى جانبه وزير الخارجية السوري فاروق الشرع.

متولي المقام السيد رضا مرتضى مستقبلا العلامة السيد محمد حسين فضل الله في حفل تدشين «مجمّع زينب للمعلومات والابحاث» (١٩٩٦).

الشيخ حسين شحادة، بحاثة وأديب اسلامي، المشرف العام على مجلة «المعارج».

في ١٩٥٠ اختار «المجتهد الأكبر حجة الاسلام المغفور له السيد محسن الأمين العاملي نخبة ممن توسم فيهم الخير والعمل الصالح للمساعدة في الدعوة إلى بناء وتعمير وتشييد المقام الشريف (مقام السيدة زينب)... فإذا مقام السيدة يلبس حلة قشيبة من التجديد، لا عهد له بمثله من قبل حتى اصبح يضاهي العتبات المقدسة في العراق، أو يقرب منها... ففي بدء عام ١٩٥٠ بدىء بانشاء الجامع والمخازن على الطريق العام. ثم بانشاء الغرف في الصحن حتى بلغت خمسًا واربعين غرفة... ثم جدّت العمدة في استتمام كثير من الاعمال الإنشائية... والبشرى السارة التي يثلج لها صدر كل مسلم هي انه تم صدور المرسوم ذي الرقم ٩٩٥ عن السيد رئيس الجمهورية العربية السورية (حافظ الأسد) بتاريخ ١٣٩٩/٦/٢٣هـ.الموافق ٢٠ ايار ١٩٧٩ القاضي بالسماح بشراء العقارات المحيطة بالحرم لتوسيعه وتأمين المرافق الضرورية اللازمة لاستتمام مشروع البناء فوقها، وهي لا تقل مساحتها عن ثلاثماية ألف متر مربع».

أما عن النبذة التاريخية السابقة للعام ١٩٥٠، فيقول متولي المقام المهندس محمد رضا مرتضى:

«ليس لدينا فيما بين ايدينا ما يدل على تاريخ البدء في تعمير مقام السيدة زينب، ولكن يذكر بأن السيدة نفيسة زوجة إسحق المؤتمن بن الامام جعفر الصادق قد زارته سنة ١٩٣هـ كما يذكر بأن حوالي سنة ٥٠٠هـ شيد رجل قرقوبي من اهالي حلب مسجدًا قرب ضريح السيدة زينب اسماه باسمها، وكان من اشهر مساجد دمشق. وقد تحدث عن مقام السيدة زينب العديد من الرحالة ومنهم ابو بكر الهروي في كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات وقد توفي سنة ٦١١هـ. وان جبير المتوفي سنة ٦١٤هـ. الذي قال بأنه كانت للمشهد اوقاف وبيوت للسكن، وابن بطوطة المتوفي سنة ٧٧٠هـ.

«وفي سنة ٧٦٨هـ أوقف جد المتولين نقيب الاشراف في الشام السيد حسين ابن شيخ الاسلام السيد موسى الموسوي الحسيني ما كان قد تملكه من بساتين واراضي على المقام، وكتب صكًا وافيًا بذلك شهد عليه سبعة من قضاة دمشق الكبار، كما انه قام بتجديد بنائه.

«وفي سنة ١٣٠٢هـ قام السلطان العثماني عبد العزيز خان باعادة بناء قبة المقام.

«وفي سنة ١٣٥٤هـ جدد السادة من آل نظام بناء مدخل المقام من الجهة الغربية.

«وفي سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) أنشأ العلامة المرحوم السيد محسن الأمين لجنة من الوجهاء والتجار لجمع التبرعات من اجل تحسين المقام وتجديده (...) ولقد بدىء بتنفيذ المشروع مع بداية عام ١٩٥٢م (...) وكان المقام في غابر

الزمان عبارة عن غرفة صغيرة من الطين فيها قبر السيدة زينب. وفي ١٨٤٠م قام السيد موسى جد المتولين (أي السادة مرتضى) بتشييد الحرم وهو عبارة عن بناء مربع حول المقام طول ضلعه ٢٦م وارتفاعه ٦ امتار وعرض جدرانه ١،٥٠م، وبنيت من اللبن... والسقف كان من الخشب... وانهار في ١٨٧٠م بسبب غزارة الامطار، فقام بتجديد السقف جد المتولين السيد سليم مرتضى حيث بنى السقف من القرميد...» (وبدءًا من ١٩٥٠-١٩٥٢، بدأت ورشة تجديده وتحديثه كما أسلفنا).

ويلحق بالحرم الزينبي منشآت عامة: المستوصف، المقبرة، المسلخ، المركز السياحي، قاعة الاستقبال، المصلى، مركز التوليد الكهربائي، ضريحا السيد محسن الأمين والسيد حسين مكي، مجمع السيدة زينب للمعلومات والابحاث (مكتبة، مركز أبحاث، تجهيزات إلكترونية...)، وثمة مشروع لمجمع فندقي ضخم يتلاءم وحركة السياحة والزيارة.

مَن هي السيّدة زينب؟

«- ولدت في المدينة المنورة عام ٥ من الهجرة.

«- جدها رسول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

«- أبوها امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام).

«- أمها فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيّدة نساء العالمين.

«- أخواها الأمامان السبطان الحسن والحسين (عليهما السلام)، سيّدا شباب أهل الجنة.

«- زوجها عبد الله بن جعفر بن ابي طالب الملقب بالجواد، كريم بني هاشم.

«- هي بطلة كربلاء، رافقت الامام زين العابدين وسبايا آل البيت خلال رحلة العذاب بين الكوفة ودمشق، ثم دمشق-المدينة، وكان لها الفضل بالحفاظ على ذرية الامام الحسين بجرأتها وصلابتها.

«- هي صاحبة الخطب الثورية في مجلس عبيد الله بن زياد ويزيد ابن معاوية.

«- هي من قوّضت عرش بني أمية من خلال مواقفها الحقّة والحازمة.

«- توفيت عام ٦٥ للهجرة في قرية راوية، جنوبي دمشق (بلدة قبر الست) واصبح قبرها مزارًا يقصده الزوار من كافة انحاء العالم.

«- قام السيد حسين شيخ الاسلام (جدّ آل مرتضى) عام ٧٦٨هـ بوقف أملاكه من الاراضي والمباني على المقام الشريف، وسطّر وقفية لادارة المقام مكلفًا ابنه السيد علي بتنفيذها، ومن بعده الأرشد، فالأرشد من ذرية الواقف، وما زال العمل ساريًا بهذه الوقفية التاريخية حتى الآن إلى ان تسلّم إدارة الوقف حاليًا السيدان: المهندس محمد رضا مرتضى والدكتور هاني مرتضى».

(مراجع هذه المادة، «مقام السيدة زينب»، عدة منشورات صادرة عن مكتبة المقام حصل عليها المؤلف في زيارة للمقام في حزيران ١٩٩٧، ومقابلة شخصية مع الشيخ حسين أحمد شحادة المشرف العام على المكتبة وعلى مجلة «المعارج» المتخصصة بالدراسات القرآنية).

* **النواعير**: راجع «حماه» في هذا الباب «مدن ومعالم».

Encyclopédie Historique et Géographique

Continents, Régions, Pays, Nations,
Villes, Sujets, Signes et Monuments

Tome X

PAR
Massoud Khawand

تمّ طبع الجزء العاشر
في تشرين الاول ١٩٩٧
وتليه الأجزاء الأخرى تباعًا
Ed. Octobre 1997